المنظمة العربية للترجمة

أناتول ليفن

أمـريكا بين الحق والباطل

تشـريح القوميـة الأمـريكيـة

ترجمة

د. ناصرة السعدون

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

لجنة العلوم الإنسانية والاجتماعية

عزيز العظمة (منسقاً)
جميل مطر
جورج قرم
خلدون النقيب
السيد يسين
علي الكنز

المنظمة العربية للترجمة

أناتول ليفن

أمريكا بين الحق والباطل

تشريح القومية الأمريكية

ترجمة

د. ناصرة السعدون

مراجعة

د. سعود المولى

الفهرسة أثناء النشر - إعداد المنظمة العربية للترجمة
ليفن، أناتول
أمريكا بين الحق والباطل: تشريح القومية الأمريكية/ أناتول ليفن؛ ترجمة ناصرة السعدون؛ مراجعة سعود المولى.
637 ص. ـ (علوم إنسانية واجتماعية)
يشتمل على فهرس.
ببليوغرافية: 567 ـ 618.
ISBN 978-9953-0-1153-0
1. القومية الأمريكية ـ تاريخ. 2. الولايات المتحدة الأمريكية ـ العلاقات الخارجية. أ. العنوان. ب. السعدون، ناصرة (مترجم). ج. المولى، سعود (مُراجع). د. السلسلة.
320.54097322

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات تتبناها المنظمة العربية للترجمة»

Lieven, Anatol
America Right or Wrong: An Amatomy of American Nationalism
© 2004 by Anatol Lieven
جميع حقوق الترجمة العربية والنشر محفوظة حصراً لـ:

المنظمة العربية للترجمة
بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 5996 ـ 113
الحمراء ـ بيروت 2090 1103 ـ لبنان
هاتف: 753031 ـ 753024 (9611) / فاكس: 753032 (9611)
e-mail: info@aot.org.lb - http://www.aot.org.lb

توزيع: **مركز دراسات الوحدة العربية**
بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 6001 ـ 113
الحمراء ـ بيروت 2407 2034 ـ لبنان
تلفون: 750084 ـ 750085 ـ 750086 (9611)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت / فاكس: 750088 (9611)
e-mail: info@caus.org.lb - Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى: بيروت، شباط (فبراير) 2008

المحتويات

تصدير

يكمن جزء من أصل تكوين هذا الكتاب في حوارٍ جرى في سفارة الولايات المتحدة في إسلام آباد، باكستان أيار/ مايو 1989، حيث كنت صحفياً في جريدة **التايمز** (لندن)، أغطي شؤون باكستان والحرب في أفغانستان من جهة المجاهدين. كانت الحفلة على شرف دبلوماسي أمريكي حديث القدوم، لم يعمل من قبل في باكستان، أو في أي دولة مسلمة حسبما أذكر.

يومها دعمتُ زميلةً لي، هي كاثي غانون التي تعمل في **أسوشيتد برس**، في توجيه النقد لسياسة الولايات المتحدة في أفغانستان. قلنا إنه في الوقت الحاضر بالذات، وبعد مغادرة القوات السوفياتية، فإن تقديم الولايات المتحدة دعماً مالياً وعسكرياً لباكستان لكي تستطيع أجهزتها السرية مساعدة جماعات المجاهدين الذين تختارهم، هو محض جنون. والجماعات التي عنيناها («كنا نفكر آنذاك بشكل رئيسي بقلب الدين حكمتيار، الذي برز بعد سقوط طالبان بكونه من أمراء الحرب الأكثر عداءً لأمريكا» إلى جانب حلفائهم من العرب) لا يشكلون فقط تهديداً جاداً للسلم والتقدم في أفغانستان، بل إنهم معادون للغرب بشكل مرضي.

رد الدبلوماسي الأمريكي على قولنا هذا إنه وبسبب قدرته في

الحصول على معلومات المخابرات، فإن معرفته بأفغانستان أكبر من معرفتنا (كان كلانا قد زار أفغانستان مراراً مع المجاهدين، كاثي بصورة أقدم وأكثر مني، في حين أنه هو لم يزر المكان قط). وقال إنه واثق من أن المقاومة الأفغانية سوف تبني «نموذجاً ناجحاً لديمقراطية سوق حرة في أفغانستان». وكلما كنا ندحض حججه في هذا الصدد كان يُبرز حججاً أخرى: قال إن تدمير النظام المدعوم من موسكو في كابول كان أساسياً من أجل «دحر الشيوعية» في العالم، وإن «الروس فعلوها بنا في فييتنام، وسوف نفعلها بهم في أفغانستان». وأخيراً صرح بنفاذ صبر أنني وكاثي «من الصنف الذي تسبب في هزيمتنا في فييتنام».

اختصر خطابه اللاذع هذا العديد من سمات القومية الأمريكية التي سوف نعالجها في هذا الكتاب. إنها تشمل إيمان نخبة الأمن القومي بأن حصولها على معلومات سرية من المخابرات يجعلها فائقة الحكمة وحسنة الإطلاع، بالرغم من الأدلة المتكررة والكارثية التي تدل على العكس. الإيمان بدمقرطة أفغانستان على يد المجاهدين إنما يعكس مسيحانية متجذرة في العقيدة الأمريكية، ولكنها كانت مصحوبة بجهل مطبق بتاريخ أفغانستان ومجتمعها وتقاليدها وبالواقع السائد فيها بشكل عام.

وموقف ممثل الولايات المتحدة هذا لا يعكس الأيديولوجيا فقط، وإنما أيضاً عدم مبالاة عميقة تصل إلى حد الازدراء. فبالنسبة له ليس الأفغان أكثر من أدوات تُستغل ضد السوفيات، وليس مهماً ما يصيبهم في النهاية. انعكست هذه القناعة في ما بعد على سياسة الولايات المتحدة في أفغانستان بعد سقوط الاتحاد السوفياتي ـ أو بالأحرى عدم وجود سياسة للولايات المتحدة ـ إذ تركت البلاد تتمزق إلى أشلاء على يد مجموعات المجاهدين الذين سلحتهم

وموّلتهم الولايات المتحدة وحلفاؤها في باكستان. وبشكل لا يصدّق تكررت هذه اللامبالاة مرةً أخرى إثر إسقاط طالبان، إذ سرعان ما تشتت انتباه أمريكا ومساعداتها، واتجهت صوب تحضيرات الحرب على العراق.

كانت السياسة إزاء أفغانستان خلال الثمانينات مغطاة بلغة مريضة، ومثالية تماماً وعديمة الواقعية، حول الدمقرطة والتقدم. لكن، وكما أوضحت كلمات هذا الدبلوماسي، فإنها كانت في الواقع مدفوعة كلياً بمزيج مختلف تماماً، عديم المثالية، من الواقعية الفجة والمعيبة (إيقاف النفوذ السوفياتي)، ومن الانتقام من هزيمة أمريكا في فيتنام. أخيراً فقد جرى تسفيه وشيطنة النقاد الغربيين لهذه السياسة، بمن فيهم أولئك الذين أثبتوا معرفة والتزاماً تجاه أفغانستان، إذ وُصِفُوا بالضعفاء والخونة.

النتيجة النهائية لنهج الولايات المتحدة هذا كان صعود الطالبان، وتحالفهم مع القاعدة، وأحداث 11 أيلول/ سبتمبر. ولكونها جاءت بعد الهزيمة في فيتنام، فإن هذه الكارثة كان يجب أن تكون كافيةً لينتج عنها تمحيصٌ جاد بين النخب السياسية في الولايات المتحدة، لا يقتصر على السياسات الماضية للولايات المتحدة، لكن أيضاً الثقافات السياسية الأمريكية التي ساعدت في إنتاجها. في الواقع، وكما بيّن تطوّر الأحداث والسلوك في حرب العراق، فإن قطاعات واسعة من تلك النخب لم تتعلم شيئاً من جنون سلوكها الماضي وشروره. ويعود سبب هذا الفشل قبل كل شيء إلى كونها قد صُدّت عن ذلك بسبب بعض السمات الأساسية للقومية الأمريكية، وهي سمات سوف ندرسها في هذا الكتاب.

خلال معركة جوتلاند عام 1916، تلقت البوارج الحربية البريطانية ضربات متلاحقة من النيران الألمانية، قال الأدميرال سير

ديفيد بيتي، قائد أسطول البوارج الحربية لرئيس أركانه: «تشادويك، يبدو أن ثمة خللاً ما بسفننا اليوم،» وكان ذلك قبل إعطاء الأمر (وهو أمر مشكوك بصحته) بالاقتراب أكثر من العدو في المعركة. وكما ذكر العديد من النقاد فإنه كان يجب على بيتي أن يضيف القول: «وخلل في نظامنا أيضاً». لقد فشلت البحرية الملكية في تحليل خطأ النظام، واستمرت سفنها تغرق من دون مبرر. خلال السنوات الأربعين الماضية تعثرت الولايات المتحدة بأخطاء في الحكم أدت إلى تدخلات عسكرية كارثية واحدة بعد الأخرى، بعضها واسع النطاق (فيتنام والعراق)، وبعضها صغير (لبنان والصومال). آن الأوان أن يبدأ المزيد من الأمريكان في توجيه السؤال لأنفسهم عن ماهية الخلل في نظامهم.

ينبغي ألا يُفهم هذا الكتاب، بأي طريقة، على أنه هجوم على القومية الأمريكية المنطقية، أو على الحرب على الإرهاب في شكلها الأصلي باعتبارها صراعاً ضد القاعدة وحلفائها. كما سأبين في هذا الكتاب، فإن القومية المدنية الأمريكية تشكل الدعم المركزي لقوة أمريكا ونفوذها في العالم، وهي تنطوي على دروس قيمة جداً لتقديمها للإنسانية. كما أني قد دعمت بشدة الحرب في أفغانستان لدحر طالبان والقاعدة. وبسبب معرفتي الواسعة بمدى الحالة الخطرة لأفغانستان ما بعد طالبان وباكستان، فقد أرعبني قرار توسيع نطاق الحرب لتشمل العراق. لست من دعاة السلام، ذلك أني سبق أن أيدت حرب فولكلاند، وحرب الخليج عام 1991، والتدخل العسكري في البوسنة، وسوف أدعم مثل هذه الحروب مستقبلاً. لكن إلى جانب مسألة القانونية والشرعية، يجب أن تكون الحملات العسكرية مدعومة باستراتيجية سياسية ذكية. وكما يبين تاريخ احتلال الولايات المتحدة عسكرياً للعراق بشكل خاص، فإن مسار الحرب

على الإرهاب يبدو أشبه بتمجيد مبهرج للغباء السياسي.

الهدف الأكثر أهمية لهذا الكتاب هم الأمريكان نفسهم. آمل أن يساهم هذا العمل بطريقة متواضعة في التأثير على النقاش السياسي في الولايات المتحدة من خلال الكشف عن بعض الأساطير الكامنة والدوافع التاريخية والثقافية والأيديولوجية التي تقف وراء تفكير الولايات المتحدة وسياساتها. وبما أن نشر هذا الكتاب لن يقتصر على الولايات المتحدة، إذ هو سيطبع في بريطانيا أيضاً، كما أنه سوف يترجم للفرنسية، والإيطالية، واليابانية، والكورية، فقد كان عليّ تقديم شرح تفصيلي لبعض الأمور المعروفة للقراء الأمريكان المتعلمين، ولذلك فإنني أطلب عفوهم.

ساهم العديد من الأشخاص بكرم في تقديم النصح خلال كتابة هذا الكتاب. ولم يكن ممكناً من دون مساعدة ناتاشا فيرويذر ودعمها، أ. ب. وات الذي عمل جاهداً للعثور على ناشرين لمخطوطة مثيرة للجدل، وكان مصدراً عظيماً للتشجيع والقوة في لحظات الإحباط. وتيم بارتليت، من مطبعة جامعة أوكسفورد، ومايكل فيشويك من هاربر كولنز، وشارلوت كاشن ـ ليبرت من لاتس، لم يقتصر دورهم على الدعم، لكنهم قدموا نصائح مهمة بشأن شكل الكتاب.

ثمة دين عظيم يستحقه مايكل ليند وستيفن هولمز، اللذان قدما إلي فرصة الاستفادة من عمق بصيرتهما ومعرفتهما بالتقاليد الأمريكية، وشجعاني على مواصلة هذا المشروع. أوين هاريس، أندرو باسيفيتش، وبيلماينز، وتوم هيو، ووليام باف، ونورمان بيرنبوم، وستيفن والت، ومايكل كريغ، وأدام شاتز، وجستن فايس، وتوك غوغنهان، ومارينا أوتاوي، ومينكسن باي، وروبرت تومب، وأندرو غمبل، وتشارلز كينغ وشقيقي د. س. ب. ليفن، جمعيهم

بذلوا وقتهم لتقديم النصح في هذا الموضوع أو ذاك من المخطوط. حول الفصل السادس المتعلق بعلاقات الولايات المتحدة وإسرائيل، كان ديفيد تشيمبرز من معهد الشرق الأوسط في واشنطن عوناً لا يقدر بثمن، كذلك كان برايان كلوغ، وسوزان غولدنبرغ، وستيفن بيللر، وجيمس زغبي. وبالطبع فإن مسؤولية كل ما طرح في هذا الكتاب تعود لي. كما أن كادر وطلبة جامعة تروي، آلاباما، قدموا إلي طيبتهم العظيمة وكرمهم خلال إقامتي هناك عام 1979.

كما أقدم عميق امتناني لجيسيكا ماثيوز، رئيس معهد كارنيجي للسلام العالمي، للسماح لي بالسير قدماً بهذا الكتاب، وإلى زملائي في معهد كارنيجي لمساعدتهم ودعمهم. آن ستيكر التي أشاعت النظام في حياتي العملية. راشد تشودري وزانارا نوروزبابيفا اللذان عملا بلا هوادة وبحرص شديد للقيام بالبحوث. إن ذكاءهما، ونفاذ البصيرة، والرؤية الواضحة كان دعماً عظيماً لي. وساعدت آماندا موللر في جمع المعلومات عن السياسة الداخلية الأمريكية. شكر خاص أوجهه إلى كاثلين هيغز وموظفي مكتبة كارنيجي. لم يقتصر فضلهم على الكفاءة الهائلة في الحصول على الكتب، لكنهم كانوا فائقي الصبر في تحمّل بعض الطلبات المتناقضة والغريبة وتأخير إعادة بعض الكتب.

أخيراً امتناني وحبي لساشا التي تحملت بكياستها المعهودة، العبء المزدوج لطفل جديد ولزوج يؤلّف كتاباً.

المقدمة

«للنظرة الأولى ثمة شيء مدهش في ذلك الاضطراب الغريب لهذا العدد الكبير من البشر السعداء، على قلق في وسط الرفاهية».

أليكسيس دو توكفيل[1]

بعد صدمة الهجمات الإرهابية في 11 أيلول/ سبتمبر 2001، كان من الطبيعي أن يكون رد فعل الأمريكان هو استرجاع الأنماط القديمة من العقائد والسلوك. وكانت القومية الأمريكية من بين هذه الأنماط. تجسّد هذه القومية العقائد والمبادئ ذات القيم العظمى والدائمة لأمريكا والعالم، لكنها تحوي في الوقت نفسه مخاطر عظيمة. تشكل بعض جوانب القومية الأمريكية خطراً على قيادة الأمة للعالم ونجاحها في صراعها ضد الإرهاب الإسلامي والثورة الإسلامية.

إن طبيعة هذه القومية، وأكثر من أي عاملٍ آخر، هي ما عزل

---

(1) Alexis de Tocqueville, *Democracy in America*, Translated by Henry Reeve; with an Introduction by Joseph Epstein, Bantam Classic (New York: Bantam Books, 2000), p. 662.

الولايات المتحدة في مطلع القرن الحادي والعشرين عن أوروبا الغربية، هي اليوم ما بعد قومية إلى حد كبير. لقد طرح بعض الكتاب من المحافظين الجدد والواقعيين أن سلوك أمريكا في العالم والاختلافات بين الولايات المتحدة وأوروبا تنبع من امتلاك الأمة قوةً أعظم ومسؤوليةً أكبر. كان الأصح القول إن هذه القوة تتيح لأمريكا بعض الأمور. أما ما تفعله وماهية ردود فعلها إزاء سلوك الآخرين، فتمليه ثقافة أمريكا السياسية والتي تتشكل في جزء كبير منها من تيارات قومية مختلفة.

وبقدر ما أن القومية الأمريكية قد صارت ملتبسة مع صيغة شوفينية للقومية الإسرائيلية، لذلك فإنها تؤدي أيضاً دوراً كارثياً تماماً في علاقات الولايات المتحدة مع العالم الإسلامي، وفي تغذية الإرهاب. وبالتالي فإن بإمكان المرء أن يقول: إنه في حين تحافظ أمريكا على صورة المنزل الجميل والمضياف، فإنها في الآن نفسه تخفي في قبو هذا البيت، عائلةً من الشياطين. وعلى الرغم من أن هذه الشياطين كانت في العادة محفوظة ضمن ضوابط وقيود محددة، إلا أن 11 أيلول/ سبتمبر أطلقها من عقالها.

تملك أمريكا قوةً كونيةً أكبر مما ملكته أي دولة في السابق. وهي تسيطر على العالم ليس عسكرياً فحسب، ولكن، وإلى حد بعيد، ثقافياً واقتصادياً. كما أنها تحصل على منافع وطنية هائلة من النظام العالمي القائم. وبعد موت الشيوعية باعتبارها صيغة بديلة للتحديث، فإن حرية السوق والديمقراطية الليبرالية الأمريكية قد صارت بدورها تملك هيمنة أيديولوجية على العالم. وبحسب السوابق كلها، فإن على الولايات المتحدة أن تتصرف تصرف المحافظ المهيمن، وتدافع عن النظام الدولي القائم، وتنشر قيمها بقوة النموذج الذي تمثله. ولا ننسى أن الولايات المتحدة نفسها أدت في أعقاب الحرب العالمية الثانية

دوراً قيادياً في خلق المؤسسات التي سعت إدارة بوش إلى تدميرها بين عامي 2001 و2003[2].

بدلاً ذلك، انجرّت الأمة تحت حكم جورج دبليو بوش، لأداء دور القوة غير المكتفية أو حتى الثورية التي تضرب حتى تهشم التل الذي تقف مملكتها عليه. وعلى وجه الخصوص فقد رأى العديد من المراقبين أن فكرة الحرب الوقائية ضد تهديداتٍ محتملة (بدلاً من الحرب الوقائية ضد تهديدات قائمة) نقطة تحولٍ حاسمة ليس فقط نحو الأحادية، بل نحو موقفٍ ثوري معادٍ للوضع القائم، في الشؤون الدولية، وهو موقف شبيه بموقف ألمانيا تحت حكم القيصر فيلهلم الأول قبل عام 1914 أكثر من شبهه ببريطانيا تحت حكم فيكتوريا[3].

يسعى هذا الكتاب للمساعدة في تفسير أسباب تصرفات الدولة بعد تعرضها لهجمات 11 أيلول/ سبتمبر 2001، بالرغم من أنه أتيح لها فرصة لخلق توافق يجمع كل دول العالم المهمة - بضمنها الدول المسلمة - ضد الإرهاب الإسلامي الثوري، لكنها بدلاً من ذلك اختارت مواصلة سياساتٍ أدت إلى انقسام الغرب، وزادت من غربة العالم الإسلامي، وعرضت أمريكا نفسها لمخاطر متزايدة أكثر فأكثر. إن السبب الأكثر أهمية لحدوث ذلك هو الطابع الخاص للقومية

(2) Gilford John Ikenberry, «America's Imperial Ambition,» *Foreign Affairs*, vol. 81, no. 5 (September-October 2002), pp. 44-60.

(3) Stephen M. Walt, «Keeping the World Off Balance: Self Restraint and U. S. Foreign Policy,» (KSG Working Paper 00-013, Harvard University, John F. Kennedy School of Government, October 2000), and Joshua Micah Marshall, «Power Rangers: Did the Bush Administration Create a New American Empire-or Weaken the Old One?,» *New Yorker* (New York) (2 February 2004).

الأمريكية التي نحللها في هذا الكتاب على أنها مجموعة عناصر معقدة ومتعددة الجوانب في الثقافة السياسية للأمة.

بوصفه دراسة للثقافة السياسية وأصولها التاريخية، فليس على هذا الكتاب تقديم تفسير مفصل لأحداث معينة أو قرارات معينة، مثلما أن دراسة القومية الروسية أو الألمانية ليست معنيةً بتقديم الأسباب المباشرة لاتخاذ القيصر الألماني أو الروسي الخطوات التي اتخذها في تموز/ يوليو وآب/ أغسطس 1914. وبالأحرى فإن هكذا دراسات تحاول تقديم السياق الأيديولوجي والثقافي الذي يجعل مثل هذه القرارات ممكنة. في حال الولايات المتحدة، آمل أن أساعد في تفسير سبب كون رد فعل العديد من الأمريكيين إزاء الهجوم الإرهابي في 11 أيلول/ سبتمبر هو ما رأيناه ولماذا كان من الممكن في ما بعد توسيع هذه الحرب على الإرهاب لتشمل العراق مع محافظتها على الرغم من ذلك على تأييد أغلبية الأمريكان. كما أن التقاليد الفكرية والثقافية والسياسية التي ندرسها في هذا الكتاب تقدم إلينا الخلفية التي تفسّر رد فعل أمريكا مستقبلاً في حال تعرضت هذه الدولة لهجوم كبير مجدداً، كما يبدو ذلك متوقعاً جداً.

لم تكن القومية هي الموشور المعتاد الذي يُرى سلوك أمريكا من خلاله. إذ يتحدث أغلب الأمريكان عن ارتباطهم بدولتهم على أنه ارتباط وطني، أو في صورته المتطرفة على أنه وطنية مفرطة. يميل نقاد الولايات المتحدة، في الداخل والخارج، إلى التركيز على ما يسمى الإمبريالية الأمريكية. توجد في الولايات المتحدة اليوم قوىً مهمة يمكن تسميتها إمبريالية من جهة منظورها وأهدافها. على الرغم من، ذلك، وعلى الرغم من سعة تأثيرهم، فإن عدد الأشخاص الذين يحملون وجهات النظر هذه قليل. يمكن العثور عليهم في قطاعات متداخلة من المثقفين ومؤسسات السياسة الخارجية والأمنية، مع تركز خاص وسط من تطلق عليهم تسمية المحافظين الجدد.

على العكس من العدد الكبير من الإنجليز والفرنسيين وغيرهم ممن عرفوا وعاشوا أزمنة إمبراطورياتهم، فإن الأغلبية العظمى من الأمريكان العاديين لا يفكرون بأنفسهم على أنهم إمبرياليين، أو أنهم ينتمون إلى دولة تملك إمبراطورية. وكما تبين ما بعد حرب العراق، فإنهم أيضاً ليسوا جاهزين لتقديم الالتزامات الضخمة طويلة الأمد والتضحيات اللازمة للمحافظة على إمبراطورية أمريكية مباشرة في الشرق الأوسط أو غيره.

إلى جانب تأثيرات الثقافة المعاصرة في المواقف حيال موضوع الخدمة العسكرية وتضحياتها، فإن الثقافة الأمريكية جسدت تاريخياً تياراً قوياً من الدعوة للانكفاء. هذا الانكفاء هو ظاهرة معقدة ينبغي عدم فهمها ببساطة على أنها رغبةٌ في الانسحاب من العالم. فالأصح أن الانكفاء الأمريكي يشكل وجهاً آخر من مزيج الشوفينية الأمريكية والمسيحانية الأمريكية، على شكل إيمان بأمريكا على أنها مدينةٌ فريدةٌ تقع على قمة التل(*). وبالنتيجة، فإن هذا الإيمان يرتبط بشكل وثيق مع الأحادية القومية في الشؤون الدولية، طالما أنها تشكل جزءاً من النظرة القائلة إن الولايات المتحدة لا خيار لها على الإطلاق سوى أن تورط نفسها مع أجانب مثيرين للقرف وأدنى منها، وإنه يجب عليها أن تحافظ على السيطرة على العملية، وأن لا تجعل نفسها، وفي كل الظروف، تحت سيطرة الأجانب أو حتى مجرد نصائحهم.

على العكس من الإمبراطوريات السابقة، فإن الهوية القومية للولايات المتحدة، وما أصبح يسمى العقيدة الأمريكية، قد تأسست على التقيّد بالديمقراطية. وعلى الرغم مما يتخلل ممارسة الديمقراطية

(*) مدينة على تل: إشارة إلى موضوعة إنجيلية. الهوامش الواردة في النص كلها من وضع المؤلف باستثناء تلك المشار إليها بـ(*) هي من وضع المترجم.

من انعدام الكمال في الداخل، والنفاق في الوعظ بها في الخارج، فإن هذا الإيمان بالديمقراطية يضع بالفعل حدوداً حقيقية على المدى الذي تستطيع فيه الولايات المتحدة ممارسة الحكم المباشر على شعوب أخرى. وبالتالي فقد كانت الولايات المتحدة ومنذ عام 1945، إمبراطوريةً غير مباشرة، أكثر شبهاً بالوجود الهولندي بالهند الشرقية في القرن السابع عشر والثامن عشر من الوجود البريطاني في الهند.

أما بالنسبة للشعب الأمريكي، فحتى إمبراطورية أمريكية غير مباشرة هي إمبراطوريةٌ في حال إنكار. لقد كانت إدارة بوش حريصة عند تقديم خططها الإمبريالية للشعب الأمريكي على تغليفها بشكل يظهرها على أنها شيءٌ مختلف: من جهة على أنها جزء من استراتيجية حسن النية لنشر القيم الأمريكية في الديمقراطية والحرية، ومن جهة أخرى على أنها جزء أساسي من الدفاع ليس عن الإمبراطورية الأمريكية، بل عن الأمة نفسها.

الأغلبية العظمى من الأمريكان لا تقتصر مشاعرهم على التحمس القومي، بل هم ميالون للقتال في ردهم على أي هجوم محتمل أو إهانة ضد الولايات المتحدة: «لا تطأ على رجلي» (أي لا تجرح مشاعري)، كما تقول الحية ذات الأجراس على العلم الثوري الأمريكي. يختصر هذا النهج رمز القومية الأمريكية جون وين، في دوره الأخير، كمقاتل يطلق النار في فيلم «مطلق النار» (The Shootist): «لن أسمح أن يتعدى عليّ أحد، لن أسمح أن يهينني أحد، ولن أسمح أن يضع أحد يده عليّ. أنا لا أفعل هذه الأمور لغيري، بالمقابل فإني أطلب منهم المعاملة بالمثل»[4].

(4) «The Shootist» (Film, Directed by Don Siegel; Produced by M. J. Frankovich and William Self; Screenplay my Miles Hood Swarthout and Scott Hale, United States, Paramount, 1976).

تلك بالتأكيد كلمات ودية وتثير الإعجاب باعتبارها تعبيراً عن الكبرياء والشرف والقدرة على الدفاع عن النفس. ومع ذلك، فإنه من المفيد أن نتذكر في هذا السياق تعبيراً يعود إلى القرن الثامن عشر: «أن يجرجر شخص ما ذيل معطفه». هذه الجملة تعني تعمّد إثارة رجل آخر من خلال جعل ذيل معطفك يتدلى على الأرض، لكي يأتي شخص آخر ليطأ عليه، وبالنتيجة يسمح لك أن تتحداه للمبارزة. يمكن القول إن إمبرياليي أمريكا يجعلون معطفهم يتدلى في العالم أجمع في غفلة من الأمريكين العاديين الذين لا يكونون ينظرون ناحية المعطف حين تعتمد عليهم دولتهم للتصرف في رد فعل قومي عنيف تحت شعار «لا تطأ رجلي أو لا تدس على معطفي الذي أجرجر أذياله عمداً».

بين أوساط الشعب الأمريكي، يتزاوج مع الأنانية القومية العنيفة والجهل بالعالم الخارجي، تعصب خاص ضد دين الإسلام، وقد سمحت هذه القومية الميالة للقتال بامتداد كارثي للحرب على الإرهاب وتجاوزها أهدافها الأصلية - والمشروعة - وهي القاعدة وطالبان، لتشمل النظام البعثي في العراق، والمنظمات المعادية لإسرائيل في فلسطين ولبنان، ومن المرجح أن تشمل أيضاً دولاً وقوىً أخرى في المستقبل. هذا الخزين من القومية المليئة بالمرارة قد أثير ضد جملة واسعة من المقترحات الدولية التي أمكن تصويرها على أنها قد تؤذي أمريكا أو تخدش سيادتها القومية، بدءاً من المحكمة الجنائية الدولية إلى اتفاقية الحد من انبعاث الغازات.

من الممكن أن مزيجاً من مصالح الطاقة الأمريكية، ومن إدمان أغلبية الأمريكان على استخدام السيارات، قد أدى إلى قتل التزام الأمة بمعاهدة كيوتو في كل الأحوال. غير أن ما ساعد معارضي المعاهدة من الأمريكان، إلى حد كبير، أن قطاعاً من الرأي العام

تجعلهم ثقافتهم السياسية يرون أي معاهدة دولية تشمل تضحيات والتزامات للولايات المتحدة أنها مؤامرة يحبكها غرباء معادون ومخادعون. ويؤمن عدد كبير من الأمريكيين بحق أن هذه الأفكار هي مسائل تتعلق بالدفاع عن النفس وعن اقتصادهم، نمط حياتهم، حرياتهم أو عن أمتهم بحد ذاتها.

تساعد هذه الخلفية في تفسير الإحصائيات المضحكة - المبكية مثل حقيقة أن أغلبية الأمريكان يؤمنون أن بلادهم تنفق أكثر من 20 بالمئة من ميزانيتها على المساعدات الخارجية، وأن هذا الرقم يجب تقليصه، في حين أن الرقم الحقيقي هو أقل من 1 بالمئة وهو الأقل في العالم المتقدم. أدلةٌ مثل هذه تسمح للنقاد الدوليين للهيمنة الأمريكية أن يصوروا الأمة على أنها قوة إمبريالية أنانية صرف، من دون أي كرمٍ أو رؤية واقعية. هذا نموذج غريب ومحزن جداً، حين يقابله الكرمُ الهائل للعديد من الأمريكان في ما يتعلق بالحسنات المحلية أو الشخصية، ويفضح المدى الذي يمكن فيه للقومية الشوفينية أن تضر حتى بأنبل المشاعر عفويةً[5].

في ظل إدارة جورج دبليو. بوش (بوش الابن) صارت الولايات المتحد تسير حثيثاً نحو الإمبراطورية، لكن الوقود السياسي المحلي الذي غذى الماكنة كان وقود قوميةٍ جريحةٍ ومنتقمة. بعد 11 أيلول/

(5) PIPA (Program of the Center on Policy Attitudes (COPA) and the Center for International and Security Studies at Maryland (CISSM), University of Maryland); «Americans on Foreign Aid and World Hunger: A Study of U. S. Public Attittudes,» (PIPA Report, 2 February 2001), and Richard T. Hughes, *Myths America Lives By*, Foreword by Robert N. Bellah (Urbana: University of Illinois Press, 2003), pp. ix-xii.

سبتمبر كانت هذه المشاعر صادقةً حقيقة عند الأغلبية العظمى من الأمريكيين، وهذا ما يجعلها أكثر خطورةً. في الواقع لو حكّمنا تاريخ العالم، فإنه ليس ثمة عامل أكثر خطورة في المزيج القومي كله أكبر من الإحساس بالظلم وكون الأمة على حق. في الماضي أدى هذا الشعور إلى تدمير ألمانيا وصربيا والعديد من الدول الأخرى، وهو الآن في مرحلة تدمير إسرائيل.

الروح المزدوجة للقومية الأمريكية

للقومية الأمريكية أوجه عديدة مثل غيرها من القوميات، ولا يحاول هذا الكتاب الزعم باكتشافها كلها. بل إنه يركز على ما أعده أهم عنصرين في الثقافة التاريخية للقومية الأمريكية والعلاقة المعقدة بينهما. كتب أريك أريكسن أن «كل شخصية قومية تتكون كنتاج لوجود استقطاب»[6]. وكما سأبين في هذا الكتاب فإن هذا يصح بشكل خاص على الولايات المتحدة التي تجسد من بين أمور أخرى المجتمع الأكثر حداثةً والأكثر تقليديةً في الآن نفسه، في العالم المتقدم.

يساهم الصدام بين المجتمعات في استقطاب سياسي متصاعد في المجتمع الأمريكي. إبان تأليف هذا الكتاب، انقسم الشعب الأمريكي إلى قسمين متساويين تقريباً أكثر من أي وقت مضى في التاريخ المعاصر. يعكس هذا الانقسام السياسي بدوره اختلافات أعظم في السلوك الاجتماعي والثقافي أكثر من أي وقت منذ حرب

(6) Erik Homburger Erikson, *Childhood and Society*, Quoted in: Robert Neelly Bellah, *The Broken Covenant: American Civil Religion in a Time of Trial*, Weil Lectures; 1971 (New York: Seabury Press, [1975]), p. 63.

فيتنام. يصوت البيض الإنجيليون البروتستانت لصالح الجمهوريين أكثر من الديمقراطيين بنسبة تقرب من اثنين إلى واحد، مع تأثير مماثل في مواقف الأحزاب بشأن الإجهاض وغيرها من المواضيع الأخلاقية. وتتسع الفجوة حين يتعلق الأمر بالقومية، إذ وصف 71 بالمئة من الجمهوريين أنفسهم عام 2003 على أنهم «وطنيون جداً» مقارنة مع 48 بالمئة من الديمقراطيين. يعكس هذا الفرق جزئياً الولاء السياسي العرقي، إذ وصف 65 بالمئة من البيض أنفسهم «وطنيون جداً» في تلك السنة، مقابل نسبة 38 بالمئة من السود. الفجوات المتعلقة بالموقف تجاه الجريمة وتجاه الإيمان بالمشاريع التجارية والاقتصادية الأمريكية هي أكبر من هذا بكثير[7].

مع هذا، ليست المعارضة هي ما يحدد الطبيعة الكلية للهوية القومية الأمريكية، بل تركيبةٌ من خصالٍ مختلفةٍ هي ما يشكل إلى حد بعيد السلوكيات والسياسات الأمريكية تجاه العالم الخارجي. اتضحت هذه التركيبة على يد إدارة بوش التي كما سيبين ذلك الفصل الخامس، استوحت خطابها على أقل تقدير من خصلتين رئيسيتين للقومية الأمريكية في آن معاً.

أول خصلة من خصال القومية الأمريكية (American Nationalism) ندرسها في الفصل الثاني، وهي تنبع مما يسمى «العقيدة الأمريكية»، وهي فكرة أسميها أيضاً «الأطروحة الأمريكية» (American Thesis): أي مجموعة من القناعات الديمقراطية العظمى، والقانونية والفردانية والمبادئ التي تأسست عليها الدولة والدستور الأمريكي. تشكل هذه المبادئ أسس القومية المدنية الأمريكية، كما

(7) الأرقام واردة في استطلاع الرأي العام، انظر: «Evenly Divided and Increasingly Polarized: 2004 Political Landscape,» (Pew Research Center for the People and the Press, Washington, DC, 5 November 2003), www.people-press.org.

تساعد في ربط الولايات المتحدة مع المجتمع الأوسع للدول الديمقراطية. وهي مشتركة مع مجتمعات ديمقراطية أخرى، لكنها في أمريكا لها دور خاص في المحافظة على وحدة أمةٍ متباينةٍ. وكما يستبطن مصطلح «عقيدة» (Creed) فإنه يجري التمسك بها بحماسةٍ أيديولوجيةٍ تقرب أن تكون دينية.

يشكل العنصر الثاني ما أسميه «الأطروحة المضادة» (Antithesis) للقومية الأمريكية، وهي نابعة قبل كل شيء من جذورٍ دينيةٍ - عرقية. جوانب من هذه التقاليد أطلق عليها اسم «القومية الجاكسونية» (Jacksonian Nationalism) نسبة إلى الرئيس أندرو جاكسون (1767-1845)، وهي ما سنبحثه في الفصلين الثالث والرابع[8]. وكون الولايات المتحدة شديدة الاتساع والتعقيد بالمقارنة مع دولٍ أخرى، وقد تغيرت مع مرور الوقت تغيراً كبيراً، فقد اتسمت هذه التقاليد بدورها بالتعقيد.

بدلاً من الهوية العرقية الواحدة والبسيطة مثل القومية العرقية الدينية البولندية، أو التايلاندية، يشكل هذا التقليد في الولايات المتحدة كتلةً مندمجة من مجموعة هويات ودوافع غريزية، بضمنها مشاعر السكان البيض الأصليين، والثقافة الخاصة بالجنوب الأبيض وقناعات وأجندات اللوبيات العرقية. مع ذلك، يمكن تمييز هذه

---

(8) للمزيد عن القومية الجاكسونية، انظر: Walter Russell Mead, *Special Providence: American Foreign Policy and How it Changed the World* (New York: Routledge, 2002), pp. 218-263; Michael Kazin, *The Populist Persuasion: An American History* (New York: Harper Collins, 1995), pp. 21-22 and 166; Samuel Eliot Morison, Henry Steele Commager and William E. Leuchtenburg, *The Growth of the American Republic*, 6^{th} ed. rev., and enl. (New York: Oxford University Press, 1969), pp. 419-443, and Robert Vincent Remini, *The Life of Andrew Jackson* (New York: Harper Collins, 2001), passim.

السمات القومية في كثير من الأحيان من مبادئ العقيدة الأمريكية والقومية المدنية الأمريكية، مع أن العديد من هذه السمات خصوصاً في أمريكا ـ بالذات دور الأصولية البروتستانتية ـ لكنها مرتبطة أيضاً مع أنماط أوسع من القوميات العرقية ـ الدينية في العالم.

تنبع هذه الخصال في القومية الأمريكية في العادة القومية المدنية الأمريكية النابعة من العقيدة، التي تسيطر على الثقافة السياسية الرسمية والعامة. ومع ذلك، فإن فيها ميلاً طبيعياً للخروج إلى السطح في أوقات الأزمات والنزاعات. في الحال الخاصة بارتباط الولايات المتحدة مع إسرائيل، تصبح السيطرة للعناصر العرقية ـ الدينية، مع ما يترتب بذلك من نتائج شديدة الخطورة على الحرب على الإرهاب.

إن سبب كون تسمية «القومية المدنية» (Civic Nationalism)، وليس «الوطنية» (Patriotism)، هي التسمية الأكثر ملائمة للخصلة المسيطرة على الثقافة السياسية الأمريكية قد اختصرها بشكل جيد عام 1983 أحد آباء مدرسة المحافظين الجدد في الولايات المتحدة أرفينغ كريستول: «تنبع الوطنية من حب ماضي الأمة، في حين تنشأ القومية من الأمل بمستقبل الأمة، وعظمة تميزها... ويجب أن تتجاوز أهداف السياسة الخارجية الأمريكية التعريف الحرفي الضيق «للأمن القومي». إنها المصالح القومية للقوة العالمية، كما يعرّفها الإحساس بقدر الأمة»[9].

---

(9) انظر: Irving Kristol: *Reflections of a Neoconservative: Looking Back, Looking Ahead* (New York: Basic Books, 1983), pp. xii, and *Neoconservatism: The Autobiography of an Idea* (New York: Free Press, [1995]), p. 365, and Shadia B. Drury, *Leo Strauss and the American Right* (New York: St. Martin's Press, 1997), pp. 149-153.

إن كريستول بإقامته هذا التمييز لا يفعل سوى أن يكرر التمييز الكلاسيكي بين القومية والوطنية، كما رسمها كينيث مينوغ، أحد أعظم مؤرخي القومية. عرّف مينوغ الوطنية على أنها محافظةٌ في جوهرها، وهي الرغبة في الدفاع عن الوطن كما هو عليه، في حين أن القومية هي التفاني حيال مفهوم مثالي، وتجريدي، غير متحقق للدولة/ الأمة، وهو غالباً ما يرتبط بالإيمان بمهمة قومية أوسع موّجهة للإنسانية. وبكلمات أخرى، فقد كان للقومية على الدوام جانب ثوري معين. في الثقافة السياسية الأمريكية لمطلع القرن الحادي والعشرين، هناك بالطبع مركّب قوي جداً من الوطنية، ومن التمسك بالمؤسسات الأمريكية وبأمريكا في شكلها الراهن، ولكن كما تشير كلمات كريستول، فإن هناك أيضاً عنصراً ثورياً يتمثل في الالتزام برؤية مسيحانية للأمة ولدورها في العالم[(10)]. إن هذا المظهر من مظاهر القومية المدنية الأمريكية هو ما يفحصه الفصل الثاني.

وكما كتب المؤرخ والناقد الاجتماعي الأمريكي ريشارد هوفستاتر (1917 ـ 1970)، «فإن أبرز عيوبها [الثقافة السياسية الأمريكية] هي الاستعداد لنوبات من الحروب الصليبية الأخلاقية التي قد تكون قاتلة لو لم يخفف منها عاجلاً أم آجلاً حدٌ معين من اللامبالاة والمنطق العقلاني»[(11)]. من المؤكد أن هذا النموذج قد تكرر في زمننا، إذ أدت مرحلة ما بعد حرب العراق إلى صحوة جديدة في السياسات الأمريكية والمزاج الأمريكي العام. في هذه الأثناء أدت دعوة إدارة بوش لهذه الحملة الصليبية والروحية المسيحانية دوراً

---

(10) Kenneth R. Minogue, *Nationalism*, Ideas in Action. Culture and Discovery (New York: Basic Books, 1997).

(11) Richard Hofstadter, *The Age of Reform; from Bryan to F. D. R.* (New York: Vintage Books, 1955), p. 15.

رئيسياً في إدخال الأمة إلى العراق بالدرجة الأولى.

إذا صح تمييز مينوغ وكريستول بين الوطنية والقومية، فإنه لا بد حينئذ من الاعتراف بأن القومية، وليس الوطنية، هي الكلمة الصحيحة التي يمكن بها وصف المشاعر القومية التي يتسم بها الأمريكان. كما أن هذه الصفة هي ما يربط القومية الأمريكية اليوم مع القوميات غير الراضية والمتأخرة لألمانيا، وإيطاليا، وروسيا، بدلاً من أن تشبه الوطنية الراضية والقابلة بالأمر الواقع لبريطانيا. هكذا تساعد هذه السمة في تفسير الجو عديم الرضا (الشبيه بأجواء مرحلة فيلهلم الأول في ألمانيا) في السياسة الخارجية للولايات المتحدة ونهجها في بداية القرن الحادي والعشرين.

لكن إن كانت إحدى خصال القومية الأمريكية راديكاليةً لأنها تنظر إلى أمام نحو «مستقبل الأمة، وعظمتها المتميزة»، فإن الأخرى هي راديكاليةٌ أيضاً لأنها تنظر باستمرار إلى الوراء، إلى ماض قومي مثالي قد تلاشى. هذه «الأطروحة الأمريكية المضادة» هي سمة مركزية للمحافظين الراديكاليين الأمريكان: إنه عالم اليمين الجمهوري وبخاصة اليمين المسيحي، في خطابهم عن «استعادة» أمريكا وإعادة بناء المجتمع الأمريكي الأقدم والأكثر نقاءً. وكما نبين في الفصلين الثالث والرابع، فإن هذا الميل القديم في الثقافة والسياسة الأمريكيتين يعكس اتجاه استمرارية المحافظة الدينية للعديد من الأمريكان، وهو كان على الدوام تعبيراً عن قلقٍ اجتماعي، واقتصادي وعرقي، وقبل كل شيء عن مخاوف عنصرية.

تنبع هذه المخاوف جزئياً من الفقدان التدريجي لسيطرة السكان «الأصليين» من البيض الأنجلو ـ ساكسون والاسكتلنديين الأيرلنديين على المجتمع، وهم الذين التحق بهم الآخرون لاحقاً. يرتبط بهذه المخاوف «عوامل» القلق الطبقي في الماضي، عداء المدن الصغيرة

وأرياف المدن الجديدة التي سكنها المهاجرون، واليوم الانحطاط الاقتصادي لطبقات العمال البيض التقليديين نتيجة التغيرات الاقتصادية، والثقافية والسكانية في أمريكا، لا تزال أعداد كبيرة من الأمريكان تشعر بالهزيمة في هذه الأمة المنتصرة في العصر الحديث. وتنتشر المخاوف المحلية التي يولدها هذا الشعور بالهزيمة لتولد بدورها سلوكاً ينعكس على العالم الخارجي، إذ وافق 64 بالمئة من الأمريكان عام 2002 على أن «نمط حياتنا يحتاج للحماية ضد التأثير الأجنبي» بالمقارنة مع 51 بالمئة من البريطانيين، و53 بالمئة من الفرنسيين. تقع هذه الأرقام بين أرقام أوروبا الغربية وأرقام العالم النامي مثل الهند (76 بالمئة) وهو أمر مثير للاهتمام، لأن «التأثير الأجنبي» الذي أكثر ما يخشاه الهندي وغيره من ذوي القوميات الثقافية في العالم النامي، هو بالطبع تأثير الولايات المتحدة[12].

تساعد هذه المخاوف في إعطاء العديد من القوميين الأمريكان هذه الحدة من المرارة والروحية الدفاعية الدنيئة التي تختلف بشكل يثير الدهشة عن الصورة المأخوذة عن أمريكا، والصورة التي خلقتها لنفسها عن كونها أرض النجاح والانفتاح والكرم. بمرور السنوات، امتدت الكراهية المتولدة عن الإحساس بالهزيمة والغربة لتشمل الأعداء في الداخل والأجانب.

هذا بدوره نمط قديم تكرر في مختلف القوميات في العالم أجمع. لو تحدثنا تاريخياً، في أوروبا على الأقل، فإن الراديكالية المحافظة والقومية قد نبعت من الطبقات والمجموعات التي كانت بالفعل تمر بمراحل انحطاط نتيجة التغيرات الاجتماعية ـ الاقتصادية. إحدى وجهات

(12) أخذت الأرقام من: «Global Attitudes: 44-Nation Major Survey (2002),» (Pew Research Center for the People and the Press, Washington, DC, 5 November 2003), www.people-press.org.

النظر في رؤية القومية الأمريكية وعلاقتها المضطربة مع العالم المعاصر الذي تهيمن عليه هذه الأمة تتمثل بالفعل في أن نفهم أن الكثيرين من الأمريكيين هم ثائرون ضد العالم الذي صنعته أمريكا نفسها.

وعلى الرغم من ذلك، وبالإضافة إلى استثناء الجماعات المتطرفة جداً بين جماعات «الميليشيات» المختلفة، مثل النازيين الجدد وغيرهم، فإن هذه القوى الممثلة للأطروحة المضادة، الأطروحة الأمريكية المضادة (American Antithesis)، ليست في ثورة عامة ضد العقيدة الأمريكية والقومية المدنية الأمريكية بحد ذاتها[13]. إن أغلبية الحركات الراديكالية القومية والراديكالية المحافظة في أماكن أخرى من العالم قد عارضت في الماضي الديمقراطية وطالبت بحكم دستوري. بالمقابل فإن الأمريكان ممن يحملون هذا التقليد يؤمنون بقوة بالعقيدة الديمقراطية الأمريكية والليبرالية. ويؤمنون أيضاً ـ سواء بوعي أم من دون وعي، علناً أم سراً ـ بأنها نتاج للحضارة الخاصة بالبيض المسيحيين الأمريكان، وإنها مهددة من طرف الهجرة والأقليات العرقية والتأثير الأجنبي. أنا لا أقول إنهم بالضرورة على خطأ، فمثل هذه المناقشة تقع خارج نطاق هذا الكتاب. إنما أشير إلى أنه من الطبيعي أن يشعر من يحمل مثل هذا الإيمان بالرغبة في القتال وبالمرارة وأن يتخذ وضعاً دفاعياً كنتيجة للعديد من الاتجاهات المعاصرة[14].

---

(13) Gunnar Myrdal, *An American Dilemma; the Negro Problem and Modern Democracy* (New York: Harper, 1944), p. xlviii

(14) David Harry Bennett, *The Party of Fear: From Nativist Movements to the New Right in American History* (New York: Random House, 1988), pp. 7-8.

للاطلاع على تصريح أحدث وأكثر بلاغة بشأن موقف السكان الأصليين عن العقيدة بقلم أحد المفكرين المحافظين البارزين، انظر: Samuel P. Huntington: «The Hispanic Challenge,» *Foreign Policy* (March-April 2004), and «Dead Souls: The =

كما أن المجموعات الأصولية البروتستانتية الأمريكية لا ترفض العقيدة الأمريكية بحد ذاتها. إذ وبحسب موقفهم إزاء الثقافة والفكر، فإن رفضهم لأمريكا المعاصرة هو أعمق من ذلك بكثير، إذ إنهم يرفضون جوانب مفصلية من الحداثة نفسها. وبالنسبة لهم فإن الثقافة الشعبية الأمريكية المعاصرة تشكل هجوماً يومياً على أسمى قيمهم. وتعكس أيديولوجيتهم الدينية الرجعية بدورها إحساساً بضرورة التحصين الاجتماعي والثقافي والعرقي بين جمهورهم من بيض الطبقة الوسطى. وحتى حين تسوق أمريكا إلى العالم الحلم الأمريكي، فإن العديد من الأمريكان يشعرون في داخلهم أنهم يعيشون كابوساً أمريكياً[15].

أمريكا هي موطن أعمق إيمان ديني محافظ في العالم الغربي وأوسعه انتشاراً، ويشمل ذلك مجموعة مهووسة بآمال ألفية (Millenarian) مجنونة ومخاوف وكراهيات، وهاتان الظاهرتان ترابطان بشكل وثيق. وقد بيّن استطلاع للرأي أجراه معهد بحوث بيو لاستطلاع الرأي، عام 2002، أن الولايات المتحدة إجمالاً هي في مطلع القرن الحادي والعشرين أقرب إلى العالم النامي منها إلى الدول الصناعية من حيث الإيمان الديني (بالرغم من أن أغلبية المؤمنين في الولايات المتحدة ليسوا من الأصوليين البروتستانت، بل من الكاثوليك، ومن التيار الرئيسي البروتستاني الأكثر ليبرالية). ظلت أهمية الدين في الولايات المتحدة المعاصرة حالاً نمطية واضحة منذ بدايات القرن التاسع عشر، وقد لاحظها أليكسيس دو توكفيل حوالى

= Denationalization of the American Elite,» *National Interest*, no. 75 (Spring 2004).

(15) Ralph Reed, «Separation of Church and State: «Christian Nation» and Other Heresies,» in: Conrad Cherry, ed., *God's New Israel: Religious Interpretations of American Destiny*, Rev. and Updated ed. (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1998), pp. 373-379.

1830، يوم كان الإيمان الديني بين الشعوب الأوروبية مهتزاً إثر عقود عدة من التنوير والثورة الفرنسية، وبقي الإيمان الديني الأمريكي متوقداً وشاملاً تقريباً[16].

عام 2002 أجاب 59 بالمئة من المشاركين في استطلاع للرأي أن «للدين دوراً مهماً جداً في حياتهم»، ما جعل الولايات المتحدة تحتل مرتبة بين المكسيك (57 بالمئة)، وتركيا (65 بالمئة)، وبعيداً جداً عن كندا (30 بالمئة)، إيطاليا (27 بالمئة)، أو اليابان (12 بالمئة). لو أخذنا الأمر من زاوية النسب المئوية وحسب فإنها ستكون بالتأكيد أقرب في هذا المقياس إلى باكستان (91 بالمئة) منها إلى فرنسا (12 بالمئة)[17]. وفي استطلاع آخر أجري عام 1990 أعلن 69 بالمئة من الأمريكان أنهم يؤمنون بالوجود الواقعي للشيطان، بالمقارنة مع أقل من نصف هذا الرقم بين البريطانيين[18].

حين صرح سيناتور من الولايات المتحدة (خفية) عن الأوروبيين، «أي قيم مشتركة تجمع بيننا؟ أنهم حتى لا يذهبون إلى الكنيسة!» فإنه كان يعبر عن حقيقة يتشارك فيها النخب السياسية وعامة الشعب (ولكن ليس النخب الثقافية أو الاقتصادية). كان هناك ميل تاريخي بين قطاعات الأصوليين البروتستانت في الولايات

---

(16) Tocqueville, *Democracy in America*, p. 51.

للمزيد بشأن انحطاط الإيمان الديني في ألمانيا قبل 1914، انظر: Hans-Ulrich Wehler, *The German Empire, 1871-1918*, Translated from the German by Kim Traynor (Leamington Spa, Warwickshire, UK; Dover, NH: Berg Publishers, 1985), p. 115.

(17) «Among Wealthy Nations, the US Stands Alone in its Embrace of Religion,» (Global Attitudes Project Report, Pew Research Center for the People and the Press, Washington, DC, 19 December 2002).

(18) Seymour Martin Lipset, *American Exceptionalism: A Double-Edged Sword* (New York: W. W. Norton, 1976), p. 62.

المتحدة، كان ثمة ميل تاريخي من نمط عقدة الاضطهاد، وجه أولاً وفي الأساس ضد الكاثوليك والماسونيين وغيرهم، وأدامته الحرب الباردة والتهديد الشيوعي.[19] وفي زمننا هذا «فإن الالتزام الراهن للإنجيليين بالحياة العامة يعكس عادات دينية وثقافية تعلّمها البروتستانت الأنجلو ـ أمريكيين، الليبراليون والإنجيليون على السواء، حين كانوا مهددين من أمريكيين ذوي خلفيات دينية وعرقية مختلفة عنهم»[20].

إن التوتر الفائق بين هذه القيم الأصولية الدينية وبين الثقافة الشعبية الأمريكية المعاصرة التي أصبحت تحيطهم الآن، هو سببٌ مهمٌ لمزاج هستيريا الحصار في أوساط اليمين الأمريكي والتي حيرت المراقبين الخارجيين كثيراً. وتشكل هذه القناعات الدينية في مناطق واسعة من أمريكا جزءاً مركزياً من هوية السكان المستعمرين البيض الأمريكان الأصليين، وقبل كل شيء في الجنوب الأكبر، أو ما وصفته السيدة الأولى ليدي بيرد جونسون ببساطة على أنه «**نحن**، الخزين الأمريكي البسيط»[21].

---

(19) Richard Hofstadter, *The Paranoid Style in American Politics, and Other Essays* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1996), and Michael Lind, *The Next American Nation: The New Nationalism and the Fourth American Revolution* (New York: Simon and Schuster, 1995), p. 99.

(20) D. G. Hart, «Mainstream Protestantism: «Conservative» Religion, and Civil Society,» in: Hugh Heclo and Wilfred M. McClay, eds., *Religion Returns to the Public Square: Faith and Policy in America* (Washington, DC: Woodrow Wilson Center Press; Baltimore, Md.: Johns Hopkins University Press, 2003), p. 197.

(21) نحن نتحدث هنا عن رئيس مجلس النواب سام رايبورن (Sam Rayburn) من تكساس، كما ورد ذكره في: Robert A. Caro, *The Years of Lyndon Johnson*, 3 vols. (New York: Knopf, 1982 - 2002), vol. 1: *The Path to Power*, p. 759.

إن المعتقدات الدينية لقطاعات واسعة من هؤلاء السكان تجعلهم يحسون أنهم تحت تهديد مستمر من الثقافة العلمانية المعاصرة، من خلال وسائل الإعلام قبل أي شيء آخر. وما قد تكون له أهمية موازية على المدى البعيد هو الانحطاط النسبي خلال العقود الأخيرة للدخل الحقيقي للطبقات الوسطى الأمريكية، حيث تتموقع اجتماعياً. كان لهذا الانحطاط والتغيرات الاقتصادية الأوسع نطاقاً التي بدأت مع الصدمة النفطية عام 1973 تأثير جانبي في إجبار المزيد والمزيد من النساء للدخول في مجال العمل، ما أضرّ بالنتيجة بالهيكل التقليدي للعائلة حتى بين تلك المجموعات الأكثر تمسكاً بها.

ويمكن مقارنة العلاقة بين هذا العالم التقليدي للبيض البروتستانت من جهة، وبين قوى التغيير الاقتصادي؛ والسكاني، الاجتماعي والثقافي الأمريكي من جهة أخرى، مع مراحل تطور الأعاصير: كتلة من الهواء الساخن الرطب تصعد من بحر دائم الهياج للرأسمالية الأمريكية تقابلها كتلة من طبقات الهواء الأكثر برودة، وإبان صعودها فهي تمتص المزيد من الهواء من الجوانب، على شكل هجرات. تتكون الطبقات الأكثر برودة من الطبقات الوسطى البيضاء وعوالمها في المدن الصغيرة والضواحي والأرياف في كثير من أراضي الولايات المتحدة، ومن السكان القدماء من الجنوب الكبير مع ثقافتهم المتميزة، وخصوصاً من الشرائح الجامدة من الأصولية البروتستانتية من الأنجلو ـ ساكسون والاسكتلنديين الأيرلنديين.

ينتج من هذا الصدام انطلاق أحزمة عظيمة وانفجارات كهربائية سياسية وثقافية. وتكون نتيجة مثل الإعصار، منظومة عاصفة تكون دائرية أساساً، تستمر في مطاردة ذيلها، وتغذي قوتها بنفسها،

ومولدة وقودها الذاتي - حتى نقطة غير مرئية في المستقبل، حين تقوم بتبريدها بحار تغلي بتغيرات اقتصادية، أو لحين تتحلل شريحة الإيمان الديني والثقافة التقليدية. هنا، بين هذه التفجرات، تكمن الكراهية، ومن ضمنها الكراهية القومية[22].

وبالتالي فإنه يجب النظر إلى الكراهية الشوفينية الموجهة إلى الخارج على أنها ناتج عرضي للكراهية نفسها التي يعرضها اليمين الأمريكي في الداخل، وبالذات في استعراض نفورهم المريض من الرئيس بيل كلينتون. في أوروبا كانوا ينظرون إلى كلينتون على أنه نسخة أخرى من توني بلير، أي باعتبار أنه رجل وسطي قام «بتحديث» حزبه (الذي كان في السابق حزباً من يسار الوسط) من خلال سرقة معظم ثياب يمين الوسط وتبنّي أجندة اقتصادية يمينية إلى حد كبير. غير أن هذا لم يكن بذي أهمية بالنسبة للمحافظين الراديكاليين في أمريكا. لقد كرهوه ليس بسبب **ما فعله، بل لما هو عليه**: أي بصفته ممثلاً لثقافة ولنخبة ثقافية متعددة الأعراق حداثية، وتعددية، هي ما يكرهونه ويخشونه في آن واحد، كما يكرهون أمم أوروبا الغربية التي يصفونها بالملحدة، والمنحطة، وعديمة الرجولة، فهم يكرهونها ليس لما تفعله فقط، بل لما هي عليه.

من المهم أن نتذكر أنه في السياق الخاص بالولايات المتحدة فإن الأمر هو، وكما في الإعصار أو العاصفة، أي أنه ليس مجرد تقابل بين قوى بقدر ما هو عمل مشترك بين قوى تجتمع لكي تنتج هكذا نظام. وفي تناقض غريب، فإن رأسمالية حرية السوق غير المحدودة التي تهدد بانحلال الجماعات المحافظة الدينية والثقافية

(22) Hofstadter, *The Paranoid Style in American Politics, and Other Essays*, p. 3.

القديمة لبروتستانت أمريكا إنما يحفزها الممثلون السياسيون لهذه الجماعات نفسها(23).

لم يكن الحال على هذا النحو دوماً. عام 1890 و1900 شكل هذا القطاع في أمريكا العمود الفقري للاحتجاج الشعبوي (Populist) ضد تجاوزات الرأسمالية الأمريكية. وعام 1930 صوّت بقوة لبرنامج روزفلت (الصفقة الجديدة (New Deal)). أما اليوم فقد تحالف اليمين الديني بقوة مع القوى المتطرفة لحرية السوق في الحزب الجمهوري، إن أعمال الرأسمالية الأمريكية المتوحشة بالذات، هي التي تأكل العالم الذي يسعى المحافظون الدينيون للدفاع عنه.

قد تلجأ قوى الرأسمالية الراديكالية في الولايات المتحدة إلى الاعتماد أكثر فأكثر على الدعوات إلى الراديكالية المحافظة والقومية من أجل الفوز بأصوات الناخبين وللدفاع عن مصالح طبقتهم. كما سيرد وصفه في الفصل الأول فإن هناك وجوهاً عدة في الولايات المتحدة تشبه أوروبا الغربية عام 1904 أكثر مما تشبه العالم المتقدم عام 2004. ومن بين هذه الوجوه السمة الراديكالية للرأسمالية الأمريكية، كما تعكسها العديد من سياسات إدارة بوش(24).

إن الصدام بين الولاءات الثقافية والاجتماعية وضرورات التغيير الرأسمالي هو معضلة قديمة بالنسبة للمحافظين الاجتماعيين والثقافيين

---

(23) Clinton Lawrence Rossiter, *Conservatism in America; the Thankless Persuasion*, 2nd ed. (New Tork: Random House, 1962), p. 206.

(24) Sheldon Hackney, «The Contradictory South,» *Southern Cultures* (Durham, NC), vol. 7, no. 4, Winter 2001, and Jerome L. Himmelstein, «The New Right», in: Robert C. Liebman and Robert Wuthnow, eds., *The New Christian Right: Mobilization and Legitimation*, with Contributions by James L. Guth [et al.] (Hawthorne, NY: Aldine Pub. Co., 1983), pp. 21-24.

الذين يريدون في الوقت نفسه أن يظلوا مكرسين للمحافظة على اقتصادات حرية السوق. وكما لاحظ المفكر والأخلاقي البارز في الولايات المتحدة غاري ويلز، فإنه «ليس هناك شيء أقل محافظةً من الرأسمالية، الحساسة دوماً تجاه كل جديد»[25]. وقد كتب كارل ماركس عن التأثيرات المدمرة للرأسمالية في المجتمعات التقليدية بكلمات تذكرنا بأن «العولمة» وما يتبعها من تغير تمزيقي مثير للفوضى إلى ما لا نهاية، هو قديم بقدم الرأسمالية نفسها:

«لا يمكن للبرجوازية أن تنوجد من دون أن تعمل على التثوير المستمر لأدوات الإنتاج، وبالتالي علاقات الإنتاج، ومعها العلاقات في المجتمع كله... إن كل العلاقات الثابتة، والراسخة، والجامدة وما يتبعها من تعصب وآراء عتيقة ومبجلة، يطاح بها، وتصبح كل تلك التي تشكلت حديثاً قديمة قبل أن تستطيع التحجر. يذوب كل ما هو صلب ليتلاشى في الهواء، وينتهك كل ما هو مقدس، ويضطر الإنسان أخيراً إلى أن يواجه بحواسه الواعية ظروف حياته على حقيقتها وعلاقاته مع أبناء جلدته... ومن خلال هذا الاستغلال لأسواق العالم فإن البرجوازية قد أعطت سمةً غير محلية للإنتاج والاستهلاك في كل بلد. ومما يثير حزن الرجعيين، أنها سحبت البساط من تحت أقدام الصناعة، الأرضية القومية التي تقف عليها. إن الصناعات القومية كلها القائمة قديماً قد دُمّرت، أو يجري تدميرها يومياً...»[26].

---

(25) Garry Wills, *Reagan's America: Innocents at Home* (Garden City, NY: Doubleday, 1987), p. 382.

(26) Karl Marx and Friedrich Engels, *The Communist Manifesto*, with an Introduction by A. J. P. Taylor; Translated from the German by Samuel Moore, Pelican Books; A915 (London; Harmondsworth: Penguin, 1967), pp. 222-223.

إن إحدى المهمات الحيوية للأسطورة في الثقافة السياسية تتمثل في مصالحة هذا النوع من الضغوط المتصارعة، أو بالأحرى هي خلق مظهر القيام بذلك، يكون مقنعاً بما فيه الكفاية للمجتمع المعني للقيام بذلك[27]. يدرس الفصل الثاني كيفية قيام الأسطورة القومية الأمريكية بهذا الدور في حال الولايات المتحدة المعاصرة.

الخطر على الهيمنة الأمريكية

بسبب الإيمان عميق الجذور (المبرر جزئياً) بتميز أمريكا، ومن انحطاط دراسة التاريخ في الأكاديميات الأمريكية، فإن الأمريكيين كانوا غير معتادين دراسة قوميتهم في سياق تاريخ الغرب، ومن المهم جداً أن يبدأوا بذلك. إذ من المؤكد أنه لا يوجد شخص عاقل، ينظر إلى تاريخ أوروبا القومي في القرن الذي سبق 1945، يقترح قيام الولايات المتحدة، وباختيارها، بسلوك الطريق نفسها التي سلكتها أوروبا تلك. وعلى وجه خاص فإن القومية الأمريكية قد بدأت تظهر عليها علامات التنازع الجاد مع أي صيغة تنويرية، قابلة للحياة، أو حتى عقلانية، للإمبريالية الأمريكية، أي مع القول بالمحافظة على مصالح الولايات المتحدة بوصفها المهيمنة على العالم، ووريثة أدوار روما والصين القديمتين كلٌ في المنطقة الخاصة بها.

تقدم القومية حلاً للاختلاف بين استراتيجية كل من كلينتون وجورج دبليو. بوش وفلسفة كل منهما، وللاختلاف بين مقاربة أمريكية تسعى لشرعنة الهيمنة الأمريكية، وأخرى تجعل الممارسة غير

---

(27) Sacvan Bercovitch, *The Puritan Origins of the American Self* (New Haven: Yale University Press, 1975), p. 185.

المقيدة للإرادة الأمريكية بمثابة طقوس مقدسة عامة[28].

لم ير العديد من المراقبين البارزين الأمريكان وغيرهم اختلافاً جوهرياً في السياسات الدولية بين كلينتون وبوش. إذ يرى أهل اليسار أن سياسات الولايات المتحدة في الإدارات كلها إنما تعكس قبل كل شيء ثبات ديناميكيات الصيغة الأمريكية للرأسمالية ومتطلباتها: سيطرة الرأسمالية على العالم وأولوية الولايات المتحدة في المنظومة الرأسمالية[29]. هذا التحليل صحيح جزئياً، لكن في تأكيدهم الأهداف العامة، يميل محللو اليسار لعدم رؤية بعض العوامل فائقة الأهمية: الوسائل المستخدمة للوصول إلى هذه الأهداف، الفرق بين الوسائل الذكية والوسائل الغبية، ومدى تأثر اختيار الوسائل بالمشاعر غير العقلانية، والتي هي غير ذات صلة، لا بل ربما مضرة، بالأهداف المرجوة. ومن بين المشاعر غير العقلانية التي ساهمت في تهديم الاستراتيجيات الرأسمالية الذكية ـ ليس اليوم وحسب، لكن في أغلب التاريخ المعاصر ـ فإن أهمها وأخطرها هو القومية.

---

(28) لتعريف الهيمنة، انظر: Gilford John Ikenberry and Charles A. Kupchan, «Socialization and Hegemonic Power,» *International Organization* (Cambridge), vol. 44, no. 3 (Summer 1990).

فيما يخص التعريف الأصلي لهذا المفهوم، انظر: Antonio Gramsci, *Selections from the Prison Notebooks of Antonio Gramsci*, Edited and Translated by Quintin Hoare and Geoffrey Nowell Smith (London: Lawrence and Wishart, 1971), pp. 52-120 and 206-276.

(29) Perry Anderson, «Force and Consent,» *New Left Review* (London), no. 17 (September - October 2002).

فيما يتعلق بوجهات نظر إدارة كلينتون في السياسة إزاء «الدول المارقة» بوصفها سابقة لـ «محور الشر» الذي جاء به بوش انظر: Anthony Lake, «Confronting Backlash States,» *Foreign Affairs*, vol. 73, no. 2 (March - April 1994).

القومي الأمريكي والتر رسل ميد ليس ماركسياً، وهو يرى عولمة بوش لعقيدة مونرو أنها عملية ممتدة تعود إلى الحرب العالمية الثانية. أندرو باسيفيتش وتشالمرز جونسون اللذان اعتمدا في دراستهما عن الجذور الاقتصادية والمؤسسية للإمبريالية الأمريكية على تحليل وليام أبلمان وليامز، يريان أيضاً أن إدارتي كلينتون وبوش تتسمان بالاستمرارية في ما يتعلق بتوسيع نطاق القوة الأمريكية[30].

وبالنسبة لهما فإن عراق بوش يشبه تماماً كوسوفو كلينتون أو هايتي على نطاق أوسع ومخاطر أكبر بكثير. وأن كلينتون قد تحرك بسرعة كبيرة لمحاربة خطط روسيا للمحافظة على منطقة نفوذ في ما كان الاتحاد السوفياتي سابقاً، ولم يكن كثير التدقيق بشأن الأنظمة التي دعمها خلال قيامه بذلك. لقد حافظ كلينتون على منظمة معاهدة شمال الأطلسي (الناتو) لأنها تشكل الأداة الرئيسية للهيمنة الاستراتيجية للولايات المتحدة في أوروبا، وكما يقول باسيفيتش، فإن كلينتون حارب في كوسوفو إلى حد بعيد لتبرير استمرارية وجود الناتو وكونه هذه الأداة.

إلا أن كلينتون وبالرغم من إخلاصه للهيمنة الأمريكية، لم يكن شوفينياً أمريكياً. فرؤاه للنظام العالمي كانت تشمل القيادة الأمريكية المهيمنة لا المفروضة، والرغبة في «وضع أمريكا في مركز كل

---

(30) William Appleman Williams, *The Tragedy of American Diplomacy*, Delta Book (New York: Dell Pub. Co., 1959); Andrew J. Bacevich, *American Empire: The Realities and Consequences of U.S. Diplomacy* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2002), and Chalmers A. Johnson, *The Sorrows of Empire: Militarism, Secrecy, and the End of the Republic* (New York: Metropolitan Books, 2004).

شبكة» بدلاً من أن تفرض نفسها في كل وضع. من المؤكد أن هذا كان على الأقل مفهوم نقاده من اليمين الأمريكي، وقد أتهم أحد قادة هؤلاء كلينتون «بزيادة تحركنا في شبكة منظمات دولية»[31].

هذه الرغبة في ممارسة القيادة الأمريكية من خلال المنظمات الدولية هي خصلة مهمة في السياسة الدولية الأمريكية وتعود إلى الحرب العالمية الثانية. وتنبع جزئياً من الإصرار الواعي في عدم تكرار خطأ الولايات المتحدة في الانكفاء عن العالم بعد عام 1919، وجزئياً من الاحتياج الدولي للرأسمالية الأمريكية ومفاهيمها. لهذا ومع أن أنصار إدارة بوش يكررون وصف خطاب الدمقرطة والتدخل الإنساني بعد عام 2001 على أنه «ولسوني» (نسبة إلى ولسون)، لكن هذا خطأ من الناحية التاريخية، لأن الرئيس وودرو ولسون كان بدوره يؤمن بحماسة في خلق مؤسسات دولية وممارسة قوة الولايات المتحدة ونفوذها من خلال هذه المؤسسات. بالنتيجة فإن كلينتون وليس بوش هو ولسون عصرنا.

فضلاً عن ذلك، فإن صيغة كلينتون في القيادة المهيمنة لأمريكا، وبالرغم من أنها كثيراً ما أثارت نفور قادة عدد من الدول، إلا أنها كانت أكثر قبولاً لدى أكثرهم من مقاربة بوش بين عامي 2001 و2003. كانت استراتيجية كلينتون مكروهة من الروس وغيرهم ممن رأوا أن كنهها يحوي تهديداً لمصالحهم الجيوبوليتيكية، وأن لغة الدمقرطة فيها تحوي الكثير من الغرور والكذب والرياء. ومع ذلك فقد فضلتها أكثر حكومات العالم على أسلوب إدارة بوش في السنوات الثلاث الأولى من حكمها، لأنها كانت تعطي بعض

---

(31) Phyllis Schlafly, «Beware of Clinton's «Web» of Treaties,» (Speech Prepared for Delivery to Christian Coalition's Road to Victory, Washington, DC, 18 September 1998), www.eagleform.org.

الاهتمام لمصالحهم، وما هو بالأهمية نفسها أنها لم توجه لهم إهانات علنية أمام شعوبهم من خلال الطلب منهم بغرور تقديم عروض مهينة من فروض الولاء والطاعة[32].

كانت القوى المهيمنة في إدارة بوش بين 2001 ـ 2003 أكثر صراحةً في كشف إمبرياليتها ممن سبقوهما[33]. فضلاً عن ذلك، واستجابة لمشاعرهم هم أولاً، ولكن أيضاً لكي يلقوا قبولاً لدى الشعب الأمريكي، فإنهم جعلوا الأمور أسوأ من خلال تغليف الإمبريالية على أنها تمثل القومية الأمريكية، وبالتالي فقد تبنوا عدداً من الإجراءات والمناهج الأحادية بلا مبرر. ولم يكن ذلك موقفاً للتظاهر، أو من باب التلاعب بالقومية الأمريكية. إن بوش وكبار موظفيه ومثقفيه وإعلامه تحركهم القومية أصلاً، بطريقة لم تحرك كلنتون، وبوصفهم قوميين فهم يزدرون تماماً أي نظام كوني يحمل في طياته أي مراجعة مهما كانت لسلوكهم ومصالحهم.

كانت القومية الفجة لإدارة بوش واضحة منذ بداية وصولها إلى السلطة في مطلع 2001. وأدت مجموعة من التحركات إلى إبعاد أغلبية العالم عنها، وخلقت مستوى من العداء للإدارة في أوروبا ساهم إلى حد بعيد في ما بعد برفض حرب العراق بأغلبية واسعة في أكثر الدول الأوروبية[34]. وقال منسق محاربة الإرهاب ريتشارد كلارك

---

(32) Ikenberry, «America's Imperial Ambition».

(33) بشأن إهمال بوش أطر العمل الدولية لروزفلت، انظر: Peter Gowan, «US: UN,» *New Left Review*, no. 24 (November-December 2003).

(34) Melissa August [et al.], «Unilateralism Is U.S.,» *Time*, 6/8/2001; Dana Milbank and Dan Morgan, «Some Pet Programs Are Targeted for Cuts,» *Washington Post*, 5/2/2004, and Ivo H. Daalder and James M. Lindsay, *America Unbound: The Bush Revolution in Foreign Policy* (Washington, DC: Brookings Institution, 2003), pp. 71-79 and 189-193.

بنفاذ بصيرة في صيف 2001: «إن أراد الفتية في هذه الإدارة تحالفاً دولياً لغزو العراق في العام القادم، فمن المؤكد أنهم لا يكسبون الكثير من الأصدقاء»[35].

بدا أن دافع رفض المعاهدات الدولية المهمة بشأن المراقبة على الأسلحة هو الرغبة القومية العمياء للحرية المطلقة لأمريكا في التصرف من جهة، وتزايد المخاطر التي تهدد الولايات المتحدة من استخدام الإرهاب لأسلحة الدمار الشامل من جهة ثانية. وقد وصف جون بولتون (الذي صار في ما بعد مساعد وزير الخارجية لشؤون السيطرة على التسلح والأمن الدولي)، الروحية التي وقفت وراء هذه التحركات على بأنها «نزعة أمريكية صافية» (Americanism). لكن وصف القومية هو أكثر بساطةً وتعبيراً[36].

وبدا أن العديد من الأمريكيين ليست لديهم مشكلة من ذلك. ومنذ شتاء 2004، أجاب 46 بالمئة على استطلاع للرأي بالقول إن إدارة بوش تأخذ بالاعتبار مصالح حلفاء الولايات المتحدة ووجهات نظرهم بدرجة مقبولة، في حين أجاب 18 بالمئة أنها تجاملهم أكثر مما يجب. وذكرت نسبة 30 بالمئة فقط أن الإدارة تبالغ في إهمال مشاغل حلفائها أكثر مما يجب. الفرق بين هذه القناعات والرؤية العامة في أي مكان آخر مذهل، ففي آذار/ مارس 2004 صرح 61 بالمئة من المواطنين البريطانيين أن «الولايات المتحدة لا تعير أي

---

(35) Richard A. Clarke, *Against All Enemies: Inside America's War on Terror* (New York: Free Press, 2004), p. 273.

(36) John R. Bolton, «Should We Take Global Governance Seriously?,» *Chicago Journal of International Law*, vol. 1, no. 2 (Fall 2000); Gilford John Ikenberry, «The End of the Neo- Conservative Moment,» *Survival*, vol. 46, no. 1 (Spring 2004), and John Newhouse, *Imperial America: the Bush Assault on the World Order* (New York: Knopf, 2003), pp. 5-34.

اهتمام، أو لا تهتم إلا قليلاً لمصالح بلادهم عند اتخاذها القرارات الخاصة بالسياسة الخارجية»[37].

الأكثر ضرراً من أي شيء آخر لهيبة الولايات المتحدة في أوروبا هو الرفض المطلق لبروتوكول كيوتو حول انبعاث الغازات، والتخلي عن المحاولات المبكرة لبعض موظفي الولايات المتحدة لإيجاد بديل منه ـ وهو قرار اتخذ بطريقة كشفت الازدراء التام بالمجتمع الدولي وبحلفاء الولايات المتحدة في أوروبا، وبالقطاع المعتدل من إدارة بوش نفسها أيضاً. هذا الإهمال للتهديدات البيئية ربما سوف يكون أقسى نقد توجهه الأجيال القادمة للولايات المتحدة وهيمنتها. وبالتالي، فإن سلوك إدارة بوش إزاء السياسة البيئية يضر بالولايات المتحدة ليس الآن وحسب، بل بدورها كروماً جديدة، أي القوة الحضارية التي تعلو على المرحلة الراهنة.

وإذا أضفنا إلى ذلك، الجنون المتزايد لاستخدام السيارات عالية الاستهلاك للوقود بين الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة، فإن هذا يوحي أكثر من أي شيء آخر، بأن الأمريكان يهمهم استخدام قوتهم المهيمنة على الكرة الأرضية فقط لأغراضهم الأكثر أنانية وقصر نظر، وأن الحديث عن المسؤوليات الأوسع للولايات المتحدة ليس أكثر من نفاقٍ لا غير[38]. وزير الطاقة الأسبق بول أونيل عزا قرار البيت

---

(37) «A Year After Iraq War: Mistrust of America in Europe Ever Higher, Muslim Anger Persists,» (Pew Research Center for the People and the Press, Washington, DC, 16 March 2004), and «U.S. Image Still Poor,» (Survey Report, Pew Research Center for the People and the Press, Washington, DC, [21 June 2005]).

(38) حول القرار برفض كيوتو، انظر أفكار وزير المالية بول أونيل (Paul O'Neill) في: Ron Suskind, *The Price of Loyalty: George W. Bush, the White House, and the Education of Paul O'Neill* (New York: Simon and Schuster, 2004), pp. 99-106, 113-114 and 120-128.

الأبيض حول كيوتو إلى الشعور القائل «إن الناس يريدون ذلك ولكن من بحق الجحيم يعرف في الأحوال كلها ما هو الصح». أي ليس إلى شعور محسوب لزيادة الإيمان بالقيادة الأمريكية ولسلطة القرار الامريكية في أماكن أخرى من العالم[39].

في الرؤية المطروحة في الاستراتيجية الجديدة للأمن القومي لعام 2002 التي تجسّد ما أطلق عليه تسمية عقيدة بوش (Bush Doctrine)، فإن السيادة الأمريكية تظل مطلقة ولا مثيل لها. وسيادة الدول الأخرى تحددها أمريكا إلى حد بعيد، وليس لأي دولة أخرى الحق بمنطقة نفوذ حتى بين جيرانها. ضمن هذا المفهوم فإن «ميزان القوة» - وهي جملة تكررت كثيراً في وثيقة الأمن القومي - هي شكل من أشكال الكلام المزدوج الأورويلي[*]. في الواقع إن النية الحقيقية هي أن تبلغ الولايات المتحدة حداً من القوة لا يبقى معه للدول الأخرى أي خيار سوى حشد قوى إلى جانب الولايات المتحدة، وتركيز كل القوة الحقيقية وحرية التحرك بين يدي أمريكا[40].

إن هذه المقاربة للمسألة كانت في الأصل محاولة لنشر صيغة معينة لعقيدة مونرو، أكثر عنفاً وتدخلاً في العالم أجمع، (هي «النتيجة الطبيعية» للمبدأ كما وضعها الرئيس ثيودور روزفلت)[41].

---

(39) المصدر نفسه، ص 124.

(*) نسبة إلى الكاتب جورج أورويل.

(40) Jack Snyder, «Imperial Temptations,» *National Interest* (New York), no. 71 (Spring 2003).

للمزيد حول الصبغة الدعائية لنويا مجلس الأمن القومي بقلم أحد المشاركين في إعداده، انظر: Philip Zelikow, «The Transformation of National Security,» *National Interest*, no. 71 (Spring 2003).

(41) Walter Russell Mead, «The US-EU Split,» (New America Foundation Program Brief, New America Foundation, 13 February 2003). =

هذه خطة إجرامية مجنونة بالعظمة ومستحيلة التطبيق تماماً، (كما بين ذلك احتلال العراق)، وغير مقبولة على الإطلاق من أغلبية العالم. ولكون الصيغ التي تم العبير بها عن هذا البرنامج هي صيغ القومية الأمريكية التقليدية مثل الدفاع عن النفس والدور المسيحاني للولايات المتحدة لنشر الحرية، فقد وجد العديد من الأمريكان أنها مقبولة تماماً وطبيعية[42].

الاتهام الموجه إلى إدارة بوش إذاً هو أنها فعلت مثل النخب الأوروبية قبل 1914، حين سمحت لشوفينيتها القومية وطموحاتها غير المحدودة أن تعرض للخطر أمن واستقرار النظام الرأسمالي العالمي الذي تأخذ أمريكا على عاتقها حراسته اليوم وهي المستفيد الأكبر منه. بكلمات أخرى، فإن أفراد الإدارة قد تصرفوا من دون شعور بالمسؤولية، وبطريقة خطيرة، ليس من وجهة نظر الماركسية، بل من وجهة نظرهم هم. لقد أذنبوا بحق السلام الرأسمالي.

إن هذا الاختلاف عظيم الأهمية من وجهة نظر استقرار العالم

= مزيد حول روزفلت كورولاري (Roosevelt Corollary) انظر: Daalder and Lindsay, *America Unbound: The Bush Revolution in Foreign Policy*, p. 6

للاطلاع على أصل الموضوع، انظر: Samuel Eliot Morison, *The Oxford History of the American People*, 3 vols. (New York: Penguin, 1994), Vol. 3: *1869 Through the Death of Kennedy 1963*, p. 149,

حول تأثيرها في سياسة الولايات المتحدة بشأن أمريكا اللاتينية، انظر: Tony Smith, *America's Mission: The United States and the Worldwide Struggle for Democracy in the Twentieth Century*, Princeton Studies in International History and Politics ([Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994]), pp. 66 ff.

حول عولمتها في حكم فرانكلين ديلانو روزفلت ومن جاء بعده، انظر: المصدر الأخير، ص 113 وما بعدها.

(42) Snyder, Ibid., and Ikenberry, «America's Imperial Ambition».

وهيمنة الولايات المتحدة على العالم. ثمة صيغة معتدلة نسبياً من الهيمنة الأمريكية يمكن أن تكون مقبولة للعديد من الشعوب حول العالم ـ لأنهم في الأغلب لديهم جيران يخشونهم أكثر من خشيتهم أمريكا، ولازدياد اندماج نخبهم بالنخب الرأسمالية الكونية التي تتحدد قيمهما إلى حد كبير بموجب القيم الأمريكية. لكن القوة الإمبريالية الأمريكية في خدمة القومية الضيقة لأمريكا (وإسرائيل) هي أمر مختلف كثيراً، وتمثل قاعدة غير مستقرة للهيمنة. إنها تشمل ممارسة القوة على العالم من دون القبول بأي مسؤولية عن المشاكل العالمية وتأثيرات سلوك الولايات المتحدة إزاء الدول الأخرى، والقوة من دون مسؤولية قد حددها روديارد كيبلينغ على أنها «امتياز المومس عبر العصور».

لقد أدت القومية الأمريكية حتى الآن دوراً مركزياً في منع أمريكا من الاستفادة من اللحظة التاريخية الفريدة في العالم التي تلت سقوط الشيوعية. وكما يقدم الفصل الخامس، فإنه بدلاً من استغلال اللحظة لخلق «تناغم القوة» لدعم النمو الرأسمالي المنظم والاستقرار العالمي، والتخلص من الفقر والأمراض التي يمكن معالجتها وغيرها من الأمراض الاجتماعية، ساعدت القومية في توجيه أمريكا للسعي لإيجاد أعداء جدد.

مثل هذه القومية قد تشجع المنتمين إليها ليس فقط لرعاية كراهيات قومية معينة، لكن أيضاً العداء لكل ما هو مثالي من أهداف وحركات وقوانين ومؤسسات تهدف إلى السمو فوق الأمة وتتحدث عن مصالح البشرية عامة. هذا الصنف من القومية هو بالتالي في تعارض مباشر مع الأفكار المثالية الكونية وطموحات العقيدة الأمريكية، وهي مثاليات يرتكز عليها في النهاية دور أمريكا بوصفها إمبراطورية حضارية عظمى ووريثة روما والصين، وعليها تتأسس

مطالبة أمريكا بتقديم المثال الإيجابي للعالم. تشكل هذه المثاليات لب ما أسماه جوزيف ناي «القوة اللينة soft power» في صيغتها الأمريكية الخاصة[43].

ذكر بعض المثقفين الأمريكان ممن يصفون أنفسهم بالليبرالية أنه في حال المجابهة مع تهديد وحشي، مثل تهديد الإرهاب الدولي، فليس أمام المثقفين الأمريكان أي خيار سوى جمع الصفوف للدفاع الوطني عن بلدانهم. الرد على هذا جاء عام 1928 على لسان جوليان بندا في كتابه: **خيانة المثقفين** (*La Trahison des clercs*)، حيث يصف إفساد القومية للمثقفين الأوروبيين، وبذلك فقد حذر من كوارث أعظم سوف تحدث: «سوف يقال إنه خلال السنوات الخمسين الأخيرة... كان سلوك الأجانب تجاه فرنسا من القوة حتى أن الانحياز القومي الأكثر قوة قد فُرض على جميع الفرنسيين الذين يرغبون في المحافظة على الأمة، وأن الوطنيين الحقيقيين هم وحدهم من وافق بالإجماع على هذا التعصب. لا أقول العكس: بل أقول فقط إن المثقفين الذين انغمسوا في هذا التعصب قد خانوا ذمتهم ودورهم في إقامة مؤسسة تكون عقيدتها الوحيدة العدل والحقيقة»[44].

القومية إذاً قد تكون خطراً يهدد بالذات تلك القيم الأمريكية التي تجعل الأمة تثير إعجاب العالم، والتي تقدم في الأخير وفي آن

---

(43) Joseph S. Nye, *Soft Power: The Means to Success in World Politics* (New York: Public Affairs, 2004).

(44) Julien Benda, *The Treason of the Intellectuals (La Trahison des clercs)*, Translated by Richard Aldington, Norton Library; N470 (New York: Norton, 1969), p. 57.

معاً دعماً أساسياً لقوتها الكونية القائمة حالياً، وضماناً أن تنظر الأجيال القادمة إليها على أنها قائد طيب وإيجابي للإنسانية.

يجب أن تكون الأدلة التاريخية على مخاطر المشاعر القومية غير المفكَر بها واضحة تماماً، وهي ذات صلة قوية بسياسة الولايات المتحدة اليوم. تتغذى القومية من الكراهية غير العقلانية، وعلى تصوير الأمم الأخرى أو المجموعات الدينية ـ العرقية على أنها شريرة ومعادية بالفطرة ولا سبيل لإصلاحها. بالأمس شعر العديد من القوميين الأمريكان بهذا الشعور نحو روسيا. واليوم من المحتمل أن يوجه التعصب ضد العالمين العربي والإسلامي، وإلى درجة أقل لأي دولة تتحدى الرغبات الأمريكية. من هنا جاء الانفجار المفاجئ للشوفينية الموجهة نحو فرنسا وألمانيا خلال التحضير للحرب على العراق.

في مقالة مثيرة للدهشة صدرت عام 2003 اختصر المفكر الأمريكي من أصل لبناني فؤاد عجمي، من دون أن يدري، الخطر المركزي للقومية الشوفينية الأمريكية في مظهرها الإمبريالي على الولايات المتحدة والعالم، كما وضع القومية ضمن السياق الصحيح في تاريخ القومية والإمبريالية. كان الوجه الأمريكي الوحيد في مقاربة عجمي، أصوله غير الأمريكية، وحتى هذا الأمر سيكون طبيعياً تماماً في الإمبراطوريات الحضارية الكبرى الماضية. وكما سنطرح في الفصل الأول، فإن هذه الإمبراطوريات، وعلى غرار الولايات المتحدة اليوم، لم تكن لتميز بين الأصول العرقية لرعاياها ما داموا يخدمون الدولة الإمبراطورية ويقبلون من دون تحفظ الأيديولوجيا الإمبراطورية. لنأخذ مثالاً تاريخياً من الشرق الأوسط، يمكن النظر إلى عجمي على أنه جوزيفوس(*) (Josephus) العربي الذي يعمل في

(*) جوزيفوس هو مؤرخ يهودي كبير للأمبراطورية الرومانية.

الدعاية الإمبراطورية لروما أمريكا[45].

تعالج مقالة عجمي مسألة العداء لأمريكا. وهي صرفت النظر عن الأدلة التي تقدمها استطلاعات الرأي من بيو وغالوب وغيرها من المنظمات المحترمة التي بينت أن العداء لأمريكا يتصاعد بشكل كبير نتيجة سياسات إدارة بوش. بدلاً من ذلك يطرح عجمي أن نزعة العداء لأمريكا تشمل العالم كله ـ وليس العالمين العربي والإسلامي فقط، لكن أوروبا وآسيا وأمريكا اللاتينية أيضاً ـ وهي نزعة فطرية وراسخة، كما أنها رد فعل على ثروة الولايات المتحدة ونجاحها وحداثتها، ما يجبر الدول الأخرى على تغيير أنظمتها. يوحي عجمي أن سياسات الولايات المتحدة لا علاقة لها بتاتاً بالسلوك الدولي تجاه الولايات المتحدة، وأن التعاطف الذي أبدته فرنسا وغيرها من الدول بعد 11 أيلول/سبتمبر لم يكن أكثر من رياء: «للمحافظة على تعاطف فرنسا، وتعاطف صحيفة **لوموند**، على الولايات المتحدة أن تدير الخد الآخر للقتلة من القاعدة، وتحافظ على طالبان، وتدخل مع العالم الإسلامي في حوار حضاري عالي المستوى. لكن من يحتاج إلى موافقة نسب استطلاع عالية في مرسيليا؟»[46].

ما طرحه عجمي استعادته بشكل أكثر فجاجة مقالة نشرتها مجلة **تايم** بقلم المعلق اليميني البارز تشارلز كروتهامر، عنوانها ببساطة هو «إلى الجحيم بالتعاطف»، هاجم فيها «العالم»، وسعى إلى تسويد صورة معارضيه السياسيين بطليهم بقطران «نزعة معاداة أمريكا»

---

(45) أدين بالفضل لهذه المقارنة إلى الدكتور ديفيد تشامبرز (David Chambers) من معهد الشرق الأوسط في واشنطن.

(46) Fouad Ajami, «The Falseness of Anti-Americanism,» *Foreign Policy*, no. 138 (September-October 2003).

نفسها: «من الواضح أن العالم يحب الولايات المتحدة حين تكون جاثية على ركبتيها. من ذلك يستنتج الديمقراطيون سياستهم الخارجية ـ البقاء على ركبنا، متواضعين ومتوسلين، لكننا نستمتع بالتصفيق و«الدعم» العالمي... البحث عن منطق معاداة أمريكا لا جدوى منه. إنه في الهواء الذي يتنفسه العالم. جذوره هي الحسد وكراهية الذات ـ من أناس يتوقون للحداثة لكنهم فشلوا في تحقيقها، ويجدون رضاهم الوحيد في ازدراء النموذج الوحيد للحداثة. في11 أيلول/ سبتمبر، أعطوه (أي العداء لأمريكا) عطلة ليوم واحد. يا لها من صفقة رابحة»(47).

أو كما قالت فيليس شلافلاي، إحدى قادة اليمين المسيحي، عام 1998 بشأن رغبة كلينتون في توقيع عدد من المعاهدات الدولية:

المعاهدات الكونية والمؤتمرات هي تهديد مباشر لكل مواطن أمريكي... يجب على مجلس الشيوخ رفض معاهدات الأمم المتحدة كلها. كل واحدة منها سوف تقلص من حقوقنا وحريتنا وسيادتنا. وهذا يشمل المعاهدات بشأن الأطفال، والنساء، والمحكمة الدولية، والبحار، والتجارة، والتنوع الحيوي، والاحتباس الحراري والمواقع الأثرية...

إعلان استقلالنا ودستورنا هما نبراس الحرية والرفاهية التي يتمتع بها الأمريكان. نحن الأمريكان لدينا جمهورية دستورية فريدة من نوعها، وعزيزة وناجحة، حتى إنه من الجنون أن نضع في

(47) Charles Krauthammer, «To Hell with Sympathy,» *Time*, 17/11/2003, and Dinesh D'Souza, *What's So Great About America* (Washington, DC: Regnery Publishing, 2002).

وهذا الأخير (دينش دي سوزا) هو مفكر قومي آخر من الجناح اليميني الأمريكي من أصول مهاجرة حديثاً.

أعناقنا ما يقيدنا تجاه أي أمة أخرى. لقد حذرنا القديس بولس[48]: «لا تقيد نفسك مع غير المؤمنين، فأي زمالة يمكن أن تقوم بين الصالح وغير الصالح؟ وما الرابط بين النور والظلام؟» مبادئ الحياة، الحرية، والملكية ينبغي ألا تربط مع مبادئ الإبادة، والشمولية، والاشتراكية والاضطهاد الديني. لا يمكننا الوثوق بمعاهدات أو اتفاقيات تربطنا مع غير المؤمنين[49].

يوضح هذا المقطع بشكل جميل التوأمة بين التميز الديني والديمقراطي في بعض أجزاء المجتمع الأمريكي، والانكفاء القومي العميق الذي يساعد في تغذية الأحادية القومية. أو كما وصفها نجم **فوكس نيوز** بيل أورايلي، عندما شرح الفرق العظيم بين تغطية الدفع باتجاه الحرب مع العراق في وسائل الإعلام في الولايات المتحدة وفي العالم، «حسناً، في كل مكان آخر في العالم، يكذبون».

وصفت **فاينانشيال تايمز** وزير دفاع الولايات المتحدة، دونالد رامسفيلد، على أنه «مضاد للدبلوماسية» (Anti-Diplomat)، التهمة نفسها وجّهت إلى جون بولتون وغيره من أعضاء إدارة بوش. يقال إن نائب الرئيس ديك تشيني، لديه «نفور عميق» من الأمم المتحدة. المقطع الذي قدمناه في أعلاه يكشف بعض الأصول الثقافية والأيديولوجية لهذه الصفة المضادة للدبلوماسية.

قد يكون من الضروري الإشارة إلى الزيف الجوهري لهذه الطروحات. لنأخذ مثلين وحسب: إن أريد تفسير نقد سياسة

---

(48) II, *Corinthians*, 6.14.

(49) Schlafly, «Beware of Clinton's «Web» of Treaties».

الولايات المتحدة على أنه نابع فقط من «معاداة أمريكا»، فكيف يُفسر الكتّاب تحول الرأي العام البريطاني بين الحرب على أفغانستان (التي أيدها الرأي العام بشدة) والحرب على العراق؟ هل نفترض أن المجتمع البريطاني معادٍ لأمريكا ويمثل نموذج الحداثة الفاشلة؟ أو نحاول تطبيق منطق هذه الطروحات على دول أخرى. الكثير من البولونيين لا يحبون الروس وربما لن يحبوهم أبداً ولأسباب تاريخية قديمة. هل هذا يعني أن العلاقات البولونية ـ الروسية لن تتأثر بالسياسات الروسية الجديدة التي رأت بولونيا أنها تتسم بالازدراء والعدوانية؟ وماذا بشأن اليونان وتركيا؟ أو كوريا الجنوبية واليابان؟

النقطة الجوهرية في هذه الطروحات هي بالضبط، مثل الخطاب القومي المشابه كله، أنها تنوي تحرير أمريكا من المسؤولية الأخلاقية لنتائج أفعالها، وبالتالي إطلاق يد أمريكا لتفعل كل ما تريده. من أجل هذه الغاية، يجري تزييف الوقائع أو تجاهلها (مثال ذلك أن فرنسا قد دعمت بقوة الولايات المتحدة في أفغانستان) وعدم اعتماد المعايير المعتادة في الأدلة. هكذا فإن استطلاعات الرأي ذات السمعة الجيدة والتي عادة ما تستخدم على أنها مصادر معلومات ذات مصداقية في أي سياق آخر، فجأة يعلن أنها غير ذات أهمية، ليظل التعصب القومي وافتراضات التفوق القومي هي المعايير الوحيدة للأحكام.

كثيراً ما يُعلن على الملأ أن أمماً أخرى معادية وعديمة العقلانية، ولا يمكن تصحيح موقفها أو تغييره. ولهذا فمن غير المجدي السعي للتوصل إلى تسويات معها، أو محاولة ترضية مصالحها ووجهات نظرها. ولكونهم غير عقلانيين وهمجيين، فإن أمريكا حرة في فرض ما تريده عليهم أو حتى غزوهم، ولمصلحتهم. ذلك بالضبط ما كان عليه قبل عام 1914 خطاب القوميين في الدول الأوروبية المهمة إزاء بعضها البعض، وإزاء الأمم الأقل شأناً قبل

1914، ما ساعد على جر أوروبا إلى كوارث عظيمة في القرن العشرين. كما أن هذا أيضاً هو الجزء المركزي من الخطاب القديم البشع المعادي للسامية.

لذلك، فمن المثير للكآبة أن تكون مثل هذه الطروحات في الولايات المتحدة ترتبط في الأغلب بطروحات مشابهة جداً من طرف إسرائيل، وتسعى لتحرير إسرائيل من أي مسؤولية عن نتائج أفعالها، وهو الموضوع الذي نطرحه في الفصل السادس. وبكلمات برايان كلوغ: «فإنه إذا كانت إسرائيل في الأساس هي ضحية الاضطهاد في عالم معادٍ للسامية، لهذا فلا يجوز بالتالي أن تتحمل مسؤولية الوضع الذي تجد نفسها فيه: أي كونها موضع إدانة واسعة النطاق... إذ لا شيء مما تفعله الدولة اليهودية، أو تمتنع عن فعله، يمكن أن ينتج أو يمنع هذه الإدانة، وكل ما يمكن لإسرائيل أن تفعله، إن كانت بحق «مجمع اليهود بين الأمم» هو تكرار دور المنبوذ، وأن تقاتل من أجل البقاء على قيد الحياة، وأن تتحدى العالم كله وتبقيه بعيداً عنها»[50].

ما يربط هذا الصنف من الخطاب القومي الراديكالي في كلٍ من الولايات المتحدة وإسرائيل هو نظرتهم إلى العدو على أنه كوني. في حين يحصر القوميون في دول أخرى عداءهم بعددٍ محدودٍ من الدول الأخرى؛ وقد رأيت عبر السنوات كيف أن الاتهام باستحالة الإصلاح وبالعداء الشرير لأمريكا كان يطلق على الروس، والعرب، والصينيين، وكونه مبرراً لأمريكا لكي تتبنى أي سياسات ترغب فيها تجاه هذه الشعوب. لكن ربما في أمريكا وإسرائيل فقط يمكن لكاتب سياسي مؤثر مثل كروتهامر أن يصرح أن العالم نفسه هو العدو

(50) Brian Klug, «The Collective Jew: Israel and the New Antisemitism,» *Patterns of Prejudice* (London), vol. 37, no. 2 (June 2000).

المجنون. هذه اللغة لم تظهر في برنامج مغمور للحوار، وإنما في أشهر مجلة إخبارية وإحدى أهم الصحف الرصينة للسياسة الخارجية. وليست شلافلاي شخصية مغمورة وعديمة الأهمية، فهي والقادة الآخرون لليمين الديني لهم تأثير كبير في الحزب الجمهوري.

لو انتشرت هذه الرؤى في الولايات المتحدة، فسوف تكون كارثية ليس على المصالح الأمريكية وأمن أمريكا فقط، لكن أيضاً على روح أمريكا. الكراهية المريضة والخوف من العالم الخارجي سوف يغذي المشاعر نفسها في السياسات المحلية الأمريكية، حتى تصبح العظمة الأخلاقية والثقافية للأمة في الحضيض ويدمر موروثها للمستقبل نهائياً. بدلاً من هذه الرؤى، أتمنى رؤية أمريكا اليوم تعيد اكتشاف بعض الدروس التي تعلمتها لمدة محدودة من حرب فييتنام، مع أني أتمنى أن لا تضطر لخسارة عشرات الآلاف من الأمريكان خلال ذلك. تلك الدروس لم يقتصر تعلمها على اليسار الأمريكي وحده، لكنه أثر أيضاً في الأمريكان المحافظين بعمق والواقعيين (Realists) مثل جورج كينان والسيناتور ج. ويليام فولبرايت.

لذلك، فإن هذا الكتاب هو تحليل لخصال مختلفة من القومية الأمريكية، ولكيفية تفاعلها في ما بينها؛ غير أن له أيضاً هدفاً أخلاقياً وسياسياً. وبكلمات جوليان بندا، فهي دعوة للمثقفين الأمريكان لفعل ما طلبوا فعله من المثقفين في دول أخرى: الاعتراف بقوميتهم ومواجهتها، ومن ثم تجاوزها باسم قيم كونية أعلى. كما أن القصد منه هو تذكير النخب السياسية الأمريكية بالكوارث التي أدت إليها القومية والمسيحانية القومية في قوميات دولٍ عظمى أخرى في الماضي. إنه دعوة للعودة إلى تقاليد أمريكا القديمة في الدبلوماسية الواقعية التي تليّنها الأخلاق والضمير. وبحسب هذه التقاليد فمن المؤكد أن أمريكا لا «تستسلم» لدول أخرى. لكنها تعرض «احتراماً

مقبولاً» لوجهات نظرهم ومصالحهم الحيوية، وبالتالي تسعى للتوصل إلى ترتيبات براغماتية.

في نقده العظيم للدوافع التي دفعت أمريكا إلى فييتنام، كتب فولبرايت في كتابه **غرور القوة** (*The Arrogance of Power*):

«وحدها الدولة التي تشعر بسلام مع ذاتها، بتجاوزاتها ومنجزاتها معاً، تكون قادرة على الفهم الكريم للآخرين... حين تكون الأمة فائقة القوة لكن ينقصها الثقة بالنفس، فمن المحتمل أن تتصرف بطريقة شديدة الخطورة على نفسها وغيرها. شعورها بالحاجة لإثبات ما هو واضح للجميع غيرها، تبدأ في الخلط بين القوة العظيمة والقوة المطلقة، بين المسؤولية العظيمة والمسؤولية المطلقة: لا يسعها الاعتراف بأي خطأ، ويجب أن تفوز بأي جدال، مهما كان تافهاً... تدريجياً لكن بشكل أكيد، تظهر على أمريكا أعراضٌ مثل غرور القوة هذا الذي أصاب أمماً عظيمةً في الماضي وأضعفها وفي بعض الحالات دمرها. وبفعلنا هذا، فإننا لا نرتفع إلى مستوى قدراتنا وقدرنا بوصفنا نموذجاً حضاري للعالم. إن معيار قصورنا هو معيار واجب الوطني في الاعتراض»[51].

(51) James William Fulbright, *The Arrogance of Power* (New York: Random House, 1966), p. 22.

الفصل الأول

أقومية استثنائية؟

«منذ زمن طويل ونحن قوة عظمى، وقد اعتدنا ذلك، ولم يجعلنا هذا الشعور أكثر سعادةً كما كنا قد توقعنا. والشعور بأن هذا لم يجعلنا أكثر جاذبية، وبأن علاقتنا مع العالم ساءت بدلاً من أن تتحسن، هذا الشعور صار كامناً في أعماق قلوبنا لا يعترف به أحد.. فهي الحرب إذاً، واذا اقتضى الأمر، فالحرب ضد الجميع، لإقناع الجميع، وللفوز. كنا نتفجر ممتلئين بالوعي أن هذا القرن هو قرن ألمانيا، وأن التاريخ يمسك يدها فوق رؤوسنا، وأنه من بعد أسبانيا، وفرنسا، وإنجلترا، جاء دورنا لكي نضع بصمتنا على العالم ولنكون قادته، وإن القرن العشرين هو قرننا».

توماس مان، دكتور فاوستس

(عن الروحية التي سادت ألمانيا في آب/ أغسطس 1914)[1]

ضربت الهجمات الإرهابية التي حصلت في 11 أيلول/ سبتمبر2001، بلداً كانت قوة الشعور القومي فيه قد جعلت منه رائداً

---

(1) Thomas Mann, *Doctor Faustus; the Life of the German Composer, Adrian Leverkühn, as Told by a Friend*, Translated from the German by G. T. Lowe-Porter (New York: Penguin, 1978), p. 291.

طليعياً للعالم المتقدم[2]. منذ ذلك الحين صارت هذه هي سمة الثقافة السياسية الأمريكية، والعامل الأكثر أهمية في إبعاد الولايات المتحدة عن بعض أقرب حلفائها في أوروبا وغيرها. فصلت هذا القومية الولايات المتحدة عما صار الأوروبيون يرون فيه (بطريقتهم المركزية الأوروبية) أنه من الأنماط المركزية لحداثة ما بعد 1945، أي لظاهرة التغلب على الثقافة القومية الميالة للقتال، على يد الحضارة «المعاصرة»، ولاستبدال الأحادية القومية بالتعاون الدولي. وهي أضافت إلى الاختلافات حول السياسة، رؤية حول الاختلافات الثقافية العميقة.

لقد زادت هجمات 11 أيلول/سبتمبر من لهيب القومية الأمريكية العامة عميقة الجذور والأقرب إلى الغريزة، ثم استغلتها القطاعات المهيمنة في إدارة بوش لأغراضها الخاصة: في الخارج توسيع القوة الإمبريالية الأمريكية، وفي الداخل المزيد من الاندماج بين النفوذ والثروة لصالح ما أسماه مايكل ليند «ما فوق الطبقة» الأمريكية[3].

في استطلاع للرأي أجري عام 1999 أعرب 72 بالمئة من الأمريكيين البالغين عن أنهم فخورون ببلادهم. كانت ثاني أعلى نسبة في بريطانيا، إذ وصلت إلى53 بالمئة، في فرنسا وصلت إلى 35 بالمئة. تحمل هذه الأرقام ثباتاً واستمرارية طويلة الأمد تاريخياً: إذ لم تتغير أرقام 1999 إلا قليلاً عن تلك المسجلة قبل خمسة عشر عاماً، ففي

---

(2) الكلمة مأخوذة عن: Seymour Martin Lipset, *American Exceptionalism: A Double-edged Sword* (New York: W. W. Norton, 1976).

انظر أيضاً: Minxin Pei, «The Paradoxes of American Nationalism,» *Foreign Policy*, no. 136 (May-June 2003).

(3) Michael Lind, *The Next American Nation: The New Nationalism and the Fourth American Revolution* (New York: Simon and Schuster, 1995), pp. 100-102, 140-161 and 215-216, etc.

أواسط الثمانينيات كانت (75 بالمئة، 54 بالمئة، و35 بالمئة على التوالي). عام 2003 كان ستة من كل عشرة أمريكان يعتقدون أن «ثقافتنا أرقى من غيرها،» بالمقارنة مع ثلاثة من كل عشرة أشخاص فقط بين الشعب الفرنسي، وذلك ضداً بكل صورة نمطية.

وللمفارقة فإن الأرقام الأمريكية كانت مقاربة لتلك الناتجة من بعض الدول النامية في عصرنا، أو بأوروبا في الماضي: ففي الاستطلاع نفسه عبر 71 بالمئة من سكان الهند، و78 بالمئة من سكان المكسيك والفيليبين عن فخر مشابه ببلدانهم. ما يجعل هذا التشابه مع الولايات المتحدة أكثر غرابة عنه بين المكسيكيين والفيليبينيين في الأقل، يُنظر عادةً إلى هذا الفخر على أنه يعكس نوعاً من الشعور بعدم الأمان الوطني وحتى التعبير عن عقدة النقص.

كما عبرت نسبة عالية جداً من الشباب الأمريكي عن الرغبة «في القيام بشي ما لخدمة وطني»: عام 1999، كانت نسبة هؤلاء 81 بالمئة، مقارنة مع 46 بالمئة في بريطانيا، و55 بالمئة في فرنسا. على الرغم طبعاً، من أن العديد من الأمريكيين، وكما يوحي بذلك رد الفعل العام على مرحلة ما بعد الحرب على العراق، لا يأخذون هذه الأقوال بحرفيتها متى تعلق الأمر بالخدمة الإجبارية الطويلة الأمد، والشاقة والخطرة[4].

---

(4) أرقام عام 1999 مأخوذة عن: World Values Survey نقلها بيي (Pei) في: Minxin Pei, «The Paradoxes of American Nationalism,» *Foreign Policy*, no. 136 (May - June 2003).

بالنسبة لأرقام عام 1985، انظر: Richard Rose, «National Pride in Cross-National Perspective,» *International Social Science Journal*, vol. 37, no. 1 (1985).

بالنسبة لأرقام عام 2003، انظر: «Views of a Changing World June 2003: War with Iraq Further Divides Global Publics,» (Global Attitudes Project, Pew Research = Center for the People and the Press, Washington, DC, 3 June 2003).

وعلى ارتباط وثيق بذلك فإن ثمة حضوراً واسع النطاق للرموز واللغة القومية في الثقافة الشعبية للولايات المتحدة. يمتد هذا الحضور من أكثر الرموز جلاءً ـ العَلَم ـ مروراً بالاحتفالات الوطنية والكتب التعليمية المبسطة المتوافرة في مواقع دفع الحساب في المتاجر الكبرى كلها. كل هذا يُذكر بالحال في أوروبا عام 1904، أكثر مما يذكر بوضع أوروبا عام 2004. إن الإشارات التي لا تنتهي والتي ترمز إلى الأمة، تمتد أيضاً إلى أساليب أخرى صغيرة يصعب تمييزها على امتداد الحياة الأمريكية، تماماً كما كان الأمر في أوروبا ما قبل 1914.

تستخدم عبارات القومية ورموزها أيضاً في الإعلانات التجارية وبأساليب كانت معتادة في أوروبا خلال الأجيال السابقة. وهذا الأمر يشمل ما هو جليّ ـ الإعلانات مدفوعة الثمن للشركات التي تمجد القوات المسلحة للولايات المتحدة مثلاً ـ إلى ما هو أكثر براعةً مثل الإعلانات من فريدي ماك في **واشنطن بوست**، وهو يدعو الزبائن الراغبين في شراء أول بيت لهم ليكون لهم «الحياة، الحرية وطريق السعي للسعادة»، و«خلق أمةٍ من مالكي بيوتهم»[5].

«عادة ما يتأثر من يزور الولايات المتحدة بالاستعراض الجليّ لرموز القومية الواعية. يتعلم الأطفال تحية العلم، ويرفع المواطنون العاديون الأعلام ليبينوا وطنيتهم. تستخدم كلمة «أمريكي» مع كثافة

وانظر أيضاً: Lipset, Ibid., p. 51; Tom W. Smith and Lars Jarko, *National Pride in Cross-National Perspective* (Chicago: National Opinion Research Center, University of Chicago, 1998), and Samuel P. Huntington, «Dead Souls: The Denationalization of the American Elite,» *National Interest*, no. 75 (Spring 2004).

(5) *Washington Post*, 25/6/2003, p. A5.

من الإطناب والتأكيد اللفظي ليوضح كلٌ منها واحدةً من القيم الإيجابية. لقد صارت كلمة فتى boy أمريكي نوعاً من كلمات المزاح، لكنها صفة يحبها جميع الآباء الأمريكان عند أبنائهم. على العكس من ذلك أن يكون المرء «غير أمريكي» (Un-American) لا تعني ببساطة الأجنبي، أو غير المألوف، وإنما تعني ما هو خطر ولا أخلاقي ومخرب ومضلل. خطابات الرابع من تموز/ يوليو هي التعبير الكلاسيكي للوطنية الأمريكية، لكن الغلو لا يقتصر على هذه الممارسات الخطابية، فبالنسبة للأجنبي الذي يسمع ذلك، يبدو خطاب رجال الخدمة العامة موسوماً لدرجة بعيدة بالدعوات إلى السمة الخاصة بالشعب الأمريكي وقدره[6].

هذا ما كتبه وليم ر. بروك عام 1974، وهو لا يزال صحيحاً بعد جيل كامل. في السوق القريبة مني اشتريت كتاب **احتفالية لأمريكا: دليلك المفيد لمعرفة عظمة أمريكا** (*Celebration of America: Your Helpful Guide to America's Greatness*) وهو جزء من سلسلة **حسّن بيتك**[7] (*Better Your Home*) كما احتوت سوق كتب دالتون في محطة يونيون في واشنطن خريف 2003 على السلسلة نفسها بعناوين مثل **وطنيو أمريكا** (*American Patriots*)، بارك الله أمريكا (*God Bless America*)، و**الوعد الأمريكي** (*America's Promise*). وكراس بقلم لورا بوش بعنوان **السيدة الأولى لأمريكا** (*America's First Lady*)، وكتاب للأطفال بعمر 4 ـ 8 سنوات بقلم

(6) William R. Brock, «Americanism,» in: Dennis Welland, ed., *The United States; a Companion to American Studies*, Methuen's Companions to Modern Studies (London: Methuen, 1974), p. 58.

(7) Jim Brosseau, ed., *A Celebration of America: Your Helpful Guide to America's Greatness* (Des Moines, IA: Meredith Publications, 2002).

لين تشيني زوجة ديك تشيني، نائب الرئيس، جاء فيه «حرف A يعني أمريكا التي نحبها»، و«حرف Z هو نهاية الأبجدية، لكنها ليست نهاية حكاية أمريكا القوية والحرة، سوف نستمر إلى النهاية لنظل وحياً للعالم كله»(8).

وكما كان الأمر في أوروبا في الماضي، فإن الدعم العاطفي للقوات المسلحة للولايات المتحدة (ليس بالضرورة للمهمة التي تقوم بها) له حضورٌ طاغ في وسائل الإعلام المهيمن. مجلة **تايم** (*Time*) جعلت «رجل العام» لسنة 2003 «الجندي الأمريكي». مجلة **باراید** (*Parade*) المرتبطة بصحيفة **واشنطن بوست** وغيرها من الصحف ـ عادة ما تحمل الصفحة الأولى فيها مقالات ذات مواضيع عسكرية ـ وطنية. ودليلاً على هذه الصورة النمطية الكلاسيكية، صدر العدد الأخير لسنة 2003 وعلى غلافه صورة جندي أمريكي من الفرقة الطبية وهو يحمل طفلاً عراقياً جريحاً.

وفي عدد آخر من صحيفة **باراید** تصدرت حكاية أسيرة الحرب السابقة جسيكا لينش على غلافها وهي تصرح «قسم الولاء لن يكون مجرد كلمات بالنسبة لي بعد اليوم،» وذلك بعد أشهر عدة من افتضاح أغلب تفاصيل اعتقالها وتحريرها كما أوردتها **البوست**، معترفةً أن الحكاية كلها لم تكن إلا مبالغات وطنية جامحة(9). أعمدة النصائح، مثل «عزيزتي آبي»، كثيراً ما تحمل مقالات تنصح القرّاء

---

(8) Lynne V. Cheney, *America: A Patriotic Primer*, Illustrated by Robin Preiss Glasser (New York: Simon and Schuster Books for Young Readers, 2002), and George Grant, com., *The Patriot's Handbook* (Nashville, Tenn.: Cumberland House Pub., 1996).

(9) *Parade* (New York): 9/11/2003 and 20/12/2003, and *Washington Post*: 9/11/2003 and 20/12/2003.

حول الكيفية التي يُمكنهم فيها دعم قواتهم المسلحة في الخارج. نادراً ما بقي شيء مثل هذا حتى في بريطانيا وفرنسا، وهي من أكثر الدول ذات العقلية العسكرية في أوروبا، بالرغم من طغيان مثل هذه الصور فيها في السابق(10).

كما أن من بين السمات التي كانت تميز أوروبا في الماضي الطقوس التقليدية لتأكيد الوطنية الأمريكية، مثل الترديد اليومي لقسم الولاء في المدارس، والاحتفال باليوم الوطني في المدن الصغيرة. «المشاعر التي يتم توكيدها باستمرار من خلال الطقوس المقدسة دافعها هو الاقتناع أن أمريكا أمة دعاها الله لقدرٍ متميز»(11). بالطبع لدى كل الأمم الأوروبية طقوسها الوطنية ومراسيمها. لكن من النادر الاحتفال بها بالسعة ذاتها، أو بمثل هذه القوة العاطفية، كما يحصل في الولايات المتحدة.

كتب الكاتب المولود في روسيا ورئيس تحرير صحيفة **ناشيون**، ماكس ليرنر (1902 ـ 1992): «عبادة الأمة بوصفها أسطورة اجتماعية تشبه الخيط الذي يربط تاريخ أمريكا كله»(12). لاحظ أليكسيس دو توكفيل حضورها القوي خلال ثلاثينيات القرن التاسع

---

(10) Michael Paris, *Warrior Nation: Images of War in British Popular Culture, 1850-2000* (London: Reaktion Books, 2000).

(11) Conrad Cherry: ed., *God's New Israel: Religious Interpretations of American Destiny*, Rev. and Updated ed. (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1998), Introduction, and «American Sacred Ceremonies,» in: Phillip E. Hammond and Benton Johnson, eds., *American Mosaic: Social Patterns of Religion in the United States*, Consulting Editor Charles H. Page (New York: Random House, 1970), pp. 303-316, and W. Lloyd Warner, «An American Sacred Ceremony,» in: Russell E. Richey and Donald G. Jones, eds., *American Civil Religion*, Harper Forum Book (New York: Harper and Row, [1974]).

عشر، وعزاه إلى حقيقة أن «المؤسسات الديمقراطية عادة ما تضفي على الرجال مفهوم سمو أوطانهم، وأنفسهم». (وهو قد لاحظ أيضاً، إبان إحدى لحظات غضبه، أنه: «من المستحيل تصور مثيل لمثل هذه الوطنية المثيرة للمشاكل وللرغبة في الثرثرة»)[13]. في ذلك الوقت، حتى في فرنسا، كان الناس العاديون في الريف لا يزالون يفتقرون إلى مفهوم حقيقي لفرنسا، أو الهوية الفرنسية، وكانوا بدلاً من ذلك يرتبطون بولاءات محلية صرف[14].

يرتبط العصر الأعظم للقومية الأمريكية ارتباطاً وثيقاً بسمات مفصلية أخرى «للاستثناء» الأمريكي. لقد ورثت المستعمرات في أمريكا الشمالية من بريطانيا عوامل قوية للهوية الوطنية الثقافية الجاهزة تتركز على مزيج من الديانة البروتستانتية والإيمان بمؤسسات القانون والحرية والحكومة التمثيلية[15]. تجسدت هذه الهوية في

---

(12) Max Lerner, *America as a Civilization: Life and Thought in the United States Today* (New York: Simon and Schuster, 1957), p. 903.

(13) Alexis de Tocqueville, *Democracy in America*, Translated by Henry Reeve, 4 vols. ([London: Saunders and Otley, 1835-1840]), vol. 1, pp. 281, 704 and 764-766.

(14) Eugen Weber, *Peasants into Frenchmen: The Modernization of Rural France, 1870-1914* (Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1976), p. 19, and Theodore Zeldin, *France, 1848-1945*, Galaxy Book; GB 587 (Oxford; New York: Oxford University Press, 1979-1981), vol. 3: *Intellect and Pride*, pp. 3 ff.

(15) حول تشكيل الهوية البريطانية والوطنية في القرن الثامن عشر من القوميات البروتستانتية المتنوعة في الجزر البريطانية، انظر: Linda Colley, *Britons: Forging the Nation, 1707-1837* (New Haven: Yale University Press, 1992).

بالنسبة لأيديولوجية القانون كقوة تدعم الدولة ببريطانيا في القرن الثامن عشر، انظر: Douglas Hay [et al.], *Albion's Fatal Tree: Crime and Society in Eighteenth-Century England* (New York: Random House, [1976]), pp. 32-39.

مؤسساتهم الخاصة، وفي ما بعد بالدستور الأمريكي.

إن واقع أنهم جاءوا كمستعمرين إلى أرض جديدة، جعل الأمريكيين وبشكل ما أناساً «ولدوا متساوين»، بحق، وقد روّج العديد من العلماء لهذا الأمر بدءاً من توكفيل على اعتبار أنه يُشكل الاختلاف الجوهري بين التقاليد والثقافات السياسية في الولايات المتحدة وتلك التي سادت في أوروبا: إذ لم توجد في الولايات المتحدة تقاليد إقطاعية أو طبقة أرستقراطية، كما نجت من الثورات الاجتماعية العنيفة، والاشتراكية وأغلب الأنماط والتقاليد التي نبعت من هذه الحركات وصداماتها.

كانت النتيجة أنه تحت زَبَد الصدامات السياسية ورغوتها تكمن عقيدةٌ قومية وطنية عامة متماسكة متواصلة لا تغيير في جوهرها «أمريكية مطلقة قديمة قدم الدولة نفسها»[16]. في أوائل القرن العشرين كتب هربرت كرولي، أول رئيس تحرير لصحيفة **نيوريببليك** (*New Republic*) عام 1909:

إيمان الأمريكان ببلادهم هو إيمان ديني، إن لم يكن بالعمق ذاته الذي للإيمان الديني، وإنما إلى حد كبير، سلطته المطلقة والشاملة. إنه يتخلل الهواء الذي نتنفسه. في طفولتنا سمعنا توكيده أو الإيحاء به في حوارات كبارنا. في كل مرحلة من مراحل تعليمنا أضيفت شهادات إضافية لتثبيته. الصحف وكتاب الروايات، الخطباء وكتاب المسرحيات، حتى لو كان عطاؤهم ضعيفاً في أمور أخرى إلا أنهم على الأقل كانوا واعظين أمناء عن الحقيقة المطلقة. من كان

---

(16) Louis Hartz, *The Liberal Tradition in America; an Interpretation of American Political Thought Since the Revolution* (New York: Harcourt, Brace, [1955]), pp. 9 and 307.

ينزع للشك لا يجادله أحد بل يُهمل. إن هذا الأمر هو من نوع الإيمان الذي يصبح التزاماً أكثر من كونه مصدراً للأفكار؛ وسواء بالوعي أم باللاوعي، فإنه يدخل بشكل واسع النطاق في حياتنا الشخصية بوصفه تأثيراً تكوينياً[17].

روح 1914 واستغلال القومية

نالت مثل هذه المشاعر قوة متزايدة بشكل عظيم بفضل هجمات 11 أيلول/ سبتمبر التي أنتجت لفترة، روحية وحدةٍ قومية مفرطة تشبه روحية القتال التي سادت أمم أوروبا لدى اندلاع الحرب عام 1914. وقد ذكرنا المناخ السياسي بالصيغ الفرنسية المتنوعة للوحدة المقدسة (Union Sacrée) التي سادت في ذلك العام، حين قدم روبرت بروك الشكر لله «الذي جعلنا كفؤاً لساعته، وساند شبابنا، وأيقظنا من سباتنا»[18].

في كتاب بعنوان **لماذا نحارب** (*Why We Fight*)، وبكلمات رددت صدى ما ردده الأمريكان آنذاك في أطياف المسرح السياسي كله، كتب الكاثوليكي المحافظ وليام ج. بينيت:

حيا الله الاندفاع العفوي للمشاعر القومية الذي تلا 11 أيلول/ سبتمبر، يوم الصدمة. لقد بدا فجأة، بلمحة عين، كما لو أنه مُسح تماماً في حياتنا القومية كل ما هو تافه، مستغرق في ذاته، حاقد، منحط ومعادي. فجأة، صار علم بلادنا في كل مكان، وبقي في كل مكان. فجأة، عاد إلينا الأبطال مرة أخرى، ويا لهم من أبطال:

---

(17) Herbert David Croly, *The Promise of American Life* ([New York: Macmillan Company, 1909; Boston: North Eastern University Press, 1989]), p. 1.

(18) Rupert Brooke, «Peace,» (1914), in: Frederick Thomson Smith, comp., *An Anthology of War Poems*, Compiled by Frederick Brereton; Introduction by Edmund Blunden (London: W. Collins sons & co. ltd., [1930]), p. 53.

الشرطة ورجال الإطفاء، عمال الإغاثة، الجنود والركاب المدنيون الذين هبوا من مقاعدهم ليقاتلوا الشر المجسّد.

كان ذلك صحيحاً؛ لأسابيع عدة، وحتى أشهر عدة بعد 11 أيلول/ سبتمبر، بدا أن المواضيع السياسية الحزبية الضيقة قد خبا نجمها بسرعة، وصارت التحزبات العنصرية تافهة مثل لا شيء. اختفت السخرية والهزل، لم يبق إلا حب الوطن... وكما كتبت بيغي نونان: «فإن شيئاً ما في تلك الأحداث، شيئاً ما ظهر في حقيقة أن اختلاف الألوان والمعتقدات والأعراق أصبحت تعين بعضها بعضاً، فهم جميعاً في المركب ذاته، يعتمدون بعضهم على بعض، يتساندون ويجعلونك تدرك أننا متماسكون في ذلك اليوم. لقد أبرمنا عهداً، لقد أبرمنا هذا الوعد منذ زمن بعيد... أن نكون أمريكيين»[19].

بالروحية نفسها صرّح القيصر فيلهلم الثاني في آب/ أغسطس 1914: «أنا لا أعترف بالأحزاب. لا أعرف إلا الألمان». أو كما عبّر أرنست غلايزر عن المزاج الذي ساد ألمانيا آنذاك: «أخيراً استعادت الحياة مغزاها المثالي. القيم العظمى للإنسانية، والإخلاص، والوطنية، والاستعداد للموت من أجل المثل العليا... انتصرت على روحية التجارة والدكاكين.. سوف تنظف الحرب الجنس البشري من شوائبه كلها»[20]. في وقت سابق من السنة نفسها كتب جورج دو كروك،

---

(19) William John Bennett, *Why We Fight: Moral Clarity and the War on Terrorism* (New York: Doubleday, 2002), pp. 132-133.

(20) Ernst Glaeser, *Jahrgang 1902* (Berlin: [G. Kiepenheuer], 1929), Quoted in: Gordon A. Craig, *Germany, 1866-1945* (Oxford: Oxford University Press, 1981), p. 340; «Days of Victory, August 4 and August 5,» (Protestant Press Agency, Berlin, August 1914), Quoted in: Hartmut Lehmann, «God Our Old Ally: The Chosen Nation Theme in Late 19th and Early 20th Century German = Nationalism,» in: William R. Hutchison and Hartmut Lehmann, eds., *Many are*

«العمل. لم يعد ثمة مجال للشكوك بشأن وطني أو قوتي. والعمل. للخدمة... ليس ثمة جدال، وليس ثمة تساؤلات عن ذاتي»[21].

وكما توحي ذكريات التاريخ الأوروبي بعد عام 1914، وتصرفات الجمهوريين بعد 11 أيلول/سبتمبر، وعلى لسان السياسيين والحكومات، فإن مقاطع مثل هذه تحوي أيضاً الكثير من الزيف، الواعي وغير الواعي، وقبل كل شيء حين نصل إلى المقطع حول «القضايا السياسية الحزبية». لقد تحركت إدارة بوش والحزب الجمهوري (الذي ينتمي إليه كل من بينيت ونونان) بسرعة لا ترحم لاستغلال ظروف الطوارئ الوطنية من أجل تقوية موقعهم السياسي محلياً والدفع قدماً ببرامجهم السياسية الخاصة.

لم يكن من المرجح مثلاً، أن يكون بمقدور الجمهوريين استعادة سيطرتهم على مجلس الشيوخ في تشرين الثاني/نوفمبر 2002، وتمرير قوانين خفض الضرائب التي كانت تزيد من أفضلية الأغنياء بشكل فاضح، من دون مساعدة دعوة الناخبين على خلفية المناشدة القومية[22]. مثل هذه المناشدة كسبت أيضاً الدعم لحرب

Chosen ([n. p.]: Trinity Press International, 1998), p. 87, and Heinrich von Treitschke, *Politics*. Trans. Blanche Dugdale and Torben de Bille, 2 vols. (London: Constable, 1916), Extracted in: Hans Kohn, ed., *Nationalism and Realism, 1852-1879* (Princeton, NJ: D. Van Nostrand, 1958).

(21) «Agir. Ne plus douter de mon pays ni de mes proper forces, agir, servir... Ne plus discuter, ne plus m'interroger...». Georges Ducrocq, *Adrienne*, Extracted in: Raoul Girardet, ed., *Le Nationalisme français, 1871-1914*, collection U. Série idées politiques (Paris: A. Colin, 1966), pp. 249-250.

(22) من أجل الاستخدام الناجح لـ«بطاقة الناخب» من قبل الجمهوريين في انتخابات الكونغرس 2002، انظر: «Politics and the Talk of War,» *San Francisco Chronicle*, 26/9/2002; Tatsha Robertson, «War Stance Influencing Close Races,» *Boston Globe* 1/11/2002; Joan Vennochi, «Kerry Walks a Fine Line,» *Boston Globe*,

العراق من الأمريكان الذين أثارت هذه الحرب قلقهم. بكلمات جيل لونغ تومبسن، وهو مواطن عادي من ساوث بند في إنديانا، قال: «أظن أن الناس قلقون من ضربة محتملة [ضد العراق]، لكننا وطنيون جداً في المنطقة الثانية، وسوف ندعم رئيسنا، وسوف ندعم قواتنا»[(23)].

كان استراتيجيو الجمهوريين صريحين بشكل كبير بهذا الشأن. وكما ورد في تقرير **لواشنطن بوست** قبيل خطاب الرئيس بوش للأمة في كانون الثاني/ يناير 2004: «قال موظفو البيت الأبيض إنهم يأملون باستخدام الخطاب المتلفز وجمهوره الذي يصل إلى أكثر من 60 مليون شخص، لتعزيز صورة بوش بوصفه قائداً في زمن الحرب، ويقف مترفعاً عن النزاعات السياسية، أي بوصفه القائد الأعلى للقوات المسلحة، وليس المرشح للرئاسة... وبحسب مستشاري بوش، فإن هذا هو محور خطابه، الذي سيحوي مقاطع جليلة ذات نبرة واضحة التفاؤل: «نحن أمة محاربة. قراراتي الجريئة جعلت أمريكا أكثر أمناً، لكننا لا نزال غير آمنين تماماً. سياسة إدارتي

19/11/2002, and Jim Tharpe, «Cleland, Chambliss Trade Patriotism Barbs,» = *Atlanta Journal-Constitution* (Atlanta, GA): 4/7/2002.

حول الدفاع عن استخدام إدارة بوش للموضوع في انتخابات 2004، انظر: «Is 9/11 an Issue?: President Bush Talks About His Record, and Democrats Demand that He Shut up,» *Wall Street Journal*, 3/5/2004, Editorial Page.

حول الكتب التي هاجمت استخدام إدارة بوش لهذا التكتيك، انظر: Joe Conason, *Big Lies: The Right-Wing Propaganda Machine and How it Distorts the Truth* (New York: St. Martin's Press, 2003), pp. 52-73, and Molly Ivins and Lou Dubose, *Bushwhacked: Life in George W. Bush's America* (New York: Random House, 2003), pp. 248-275.

(23) Quoted in: E. J. Dionne, «Finding Answers in Indiana,» *Washington Post*, 27/9/2002.

جعلتنا أفضل وأكثر رفاهية في الداخل. لكنني ما زلت غير راضٍ، ويجب على الكونغرس تمرير المزيد من مقترحاتي»[24].

حين كتب كتّاب الدعاية الجمهورية أمثال بينيت عن «عدم التحيز» بعد 11 أيلول/ سبتمبر، كان ذلك شبيهاً إلى حد بعيد بما كتبه الكتّاب الوطنيون الألمان مثل توماس مان خلال الحرب العالمية الأولى حين تحدثوا عن أنفسهم بوصفهم «غير سياسيين»، ودعوا أبناء بلدهم ليكونوا مثلهم[25]. لم يكتفوا بالدعوة لدعم المجهود الحربي، أو حتى الالتزام بالبرنامج السياسي القومي، ففي كثير من الحالات كانوا يسعون للدفاع عن طبقة معينة ومواقع سياسية محددة. إن استخدام القومية لخلق جمهور من الأنصار لأحزاب معينة مبنية على قاعدة من طبقات مالكي الأرض أو الرأسماليين أو المهنيين هو استراتيجية كلاسيكية اتبعتها النخب التي واجهت أخطاراً في أرجاء أوروبا كلها عام قبل 1914.

لا يعكس هذا الاستغلال السياسي للقومية بالضرورة نفاقاً واعياً أو تلاعباً ساخراً بالجمهور، بالرغم من وجود هذه العوامل بشكل مؤكد. المسألة هي أقرب ما تكون شبيهة بما حصل في أوروبا سابقاً. يتماهى اليمين القومي في الولايات المتحدة والقوى المهيمنة في إدارة بوش بشكل مطلق ومخلص مع أمتهم، إلى حد أنهم ينظرون إلى وجود أي مجموعة أخرى غيرهم في الحكومة على أنها ليست خسارة للسلطة وحسب، بل اغتصاب لها، وعلى أنها أمر غير شرعي و«غير أمريكي». وهم يشعرون أنهم يجسدون «أمريكا» مثلما كان

---

(24) Mike Allen, «Address Will Depict Bush as Above Politics,» and Dana Milbank and David S. Broder, «Hopes for Civility in Washington Are Dashed: In Bush's Term, Tone Worsened, Partisans Say,» *Washington Post*, 18/1/2004.

(25) كما في كتاب: Thomas Mann, *Betrachtungen eines Unpolitischen* ([Berlin]: Fischer Taschenbuch Verlag GmbH, 1995).

القيصر واليونكرز(*) يشعرون أنهم هم «ألمانيا»، وكما كان قيصر روسيا ونخبة نبلائها يشعرون أنهم هم «روسيا».

الإمبريالية والقومية

ثمة ارتباط وثيق بين تماهي النخبة مع بلدانها، واستغلال القومية لأغراض إمبريالية، إذ ترى النخبة في ذلك مصلحة وطنية عليا تعجز الجماهير الجاهلة عن فهمها، وأنه لا بد من قيادتهم إليها، بالخداع عند الضرورة. اشتهر روديارد كيبلينغ وغيره من الإمبرياليين باحتقار عامة الناس في بلدانهم، واحتقار حياتهم العادية المثيرة للشفقة، وأحلامهم ولا مبالاتهم المبتذلة إزاء الرؤى الامبريالية، وعدم رغبتهم في الموت من أجل تحقيق مثل هذه الرؤى.

هكذا بدا الشعب الأمريكي في نظر إدارة بوش. وكما أشار إلى ذلك مجموعة واسعة من المراقبين، بدءاً من المؤرخ أندرو باسيفيتش، إلى الكاتب الساخر بيل ماهر، فإنه منذ الأيام الأولى التي تلت 11 أيلول/ سبتمبر أسقطت إدارة بوش وبعناية، الدعوة إلى التضحية من خطابها الموجه للشعب الأمريكي. من المؤكد أنها حثتهم على مواصلة أنماط الإنفاق المعتادة لمساعدة الاقتصاد: «المسؤولية الأولى للمواطن العادي طوال مدة الطوارئ تظل كما هي في الأزمنة الأكثر سلاماً: أن يكون آلة استهلاكية». والتضحية محددة بالقوات المسلحة[26].

(*) اليونكرز: هم النبلاء الشبان من بقايا الاقطاع القديم في بروسيا وشرق ألمانيا.

(26) Andrew J. Bacevich, *American Empire: The Realities and Consequences of U.S. Diplomacy* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2002), p. 237, and Bill Maher, *When You Ride Alone You Ride with Bin Laden: What the Government Should be Telling Us to Help Fight the War on Terrorism* (Beverly Hills, CA: New Millennnium Press, 2003), Introduction.

مع بداية عام 2004 صار من الواضح افتقار الولايات المتحدة إلى الإرادة القومية والوسائل القومية للدخول في حرب عصابات طويلة الأمد في العراق (بالرغم من الخسائر القليلة للولايات المتحدة قياساً على المستويات التاريخية). واتضح أيضاً أن الولايات المتحدة قد تواجه صعوبات عظيمة لخوض أكثر من نزاع أساسي في وقت واحد، بحسب ما تدعو العقيدة العسكرية للولايات المتحدة، وعلى الأقل في حال احتاج مثل هذا النزاع لإنخراط ما هو أكثر من السفن الحربية والطيران الحربي، أي إلى قوة برية واسعة، إلا إذا وجدت الأمة أنها تواجه هجوماً مباشراً مرةً أخرى. ما هو أكثر من ذلك: كشف احتلال العراق مرة أخرى انعدام شهية المواطن الأمريكي العادي لإمبراطورية مباشرة، بكل ما تعنيه من تكاليف بالدماء والأموال(27).

إن ضعف الشهية هذا لحروب الإمبراطورية في حال العراق استمر على الرغم من حقيقة استمرار قسم كبير من الأمريكيين في الاعتقاد بأن صدام حسين كان متورطاً مباشرة في أحداث 11 أيلول/ سبتمبر، وأن الحرب ضد العراق هي بالتالي عمل مشروع من الدفاع التقليدي عن النفس. وكل ذلك أيضاً على الرغم من قيام قادة كبار في إدارة بوش ووسائل الإعلام المؤيدة للحرب (مثل **فوكس نيوز**، وهي قناة تلفزة يمينية تبث 24 ساعة أخبار، ويملكها روبرت موردوخ (Rupert Murdoch) على تشجيع هكذا اعتقاد يفتقد إلى أي دليل. في

---

(27) Max Boot, «Washington Needs a Colonial Office,» *Financial Times* (London), 3/7/2003; Hendrik Hertzberg, «Building Nations,» *New Yorker* (9 June 2003), and Joseph L. Galloway, «Thanks to Rumsfeld, Iraq Is Still America's to Lose,» (17 December 2003), www.military.com.

استطلاع للرأي أجرته **هآرتس** (*Harris*) في شباط/ فبراير 2004، أجاب 74 بالمئة أنهم ما زالوا على قناعة بأن الارتباط بين العراق والقاعدة كان مؤكداً أو ممكناً قبل الحرب، سواء أكانوا على يقين من ذلك أم يتوقعونه. وفي استطلاع أجرته NBC في آذار/ مارس تبيّن أن 57 بالمئة كانوا لا يزالون على قناعة بأن العراق كان يملك أسلحة دمار شامل[28].

نظراً لهذا الاعتقاد بوجود ارتباط بين العراق والقاعدة، فمن غير المستغرب أن تنال هذه الحرب تأييداً، بل الغريب أن التأييد لم يكن أقوى مما كان عليه. إذ بعد كل شيء، لو كنتُ على قناعة أن صدام حسين قد هاجم الولايات المتحدة في 11 أيلول/ سبتمبر، لأيدتُ الحرب على العراق، كما أيدت الحرب ضد القاعدة وطالبان في أفغانستان، لكنت قد دعمت وكما في أفغانستان، أي التزام طويل الأمد من أجل ضمان ثمار النصر مثل الأمن والاستقرار. مما لا شك فيه أن مثل هذه المشاعر تنطبق على الكثيرين غيري من مناوئي حرب العراق.

في الانتخابات الأمريكية عام 2000 غابت النقاشات بشأن السياسة الخارجية والأمنية بشكل لافت خلال المناقشات التي جرت، كما غابت أيضاً عن استطلاعات الرأي والآراء التي عبّر عنها الناخبون في الولايات المتحدة. حتى أولئك الذين أعلنوا عن انتخابهم لبوش في الاستطلاعات التي أجريت في أيلول/ سبتمبر 2000 فإنهم وضعوا السياسة الخارجية والأمن في المرتبة السابعة من أولوياتهم، 6 بالمئة فقط قالوا إن موقف المرشح في هذه المواضيع هو أكثر ما يهمهم. كان أكثر ما يهمهم هو الضرائب وحق

(28) انظر استطلاعات الرأي في موقع: www.ropercenter.uconn.edu.

الإجهاض، 22 بالمئة منهم أعطوا لكل منها الأولوية. ولم يعط ناخبو آل غور أمر الدفاع أي أولوية على الإطلاق. ولم تعط أي شريحة من الناخبين الأولوية للسياسة الخارجية[29].

علقت **نيويورك تايمز** على إغفال بوش لهذه المواضيع بالقول: «ربما قرر بوش بأن كثرة الحديث عن السياسة الخارجية مضر بالأعمال. كما أنه أكثر من الحديث لأصدقائه ومعارفه عن قناعته بأن خسارة والده للانتخابات لصالح بيل كلينتون منذ ثماني سنوات، كان تركيز بوش الأب على الشؤون الخارجية. في حين ركّز المبتدئ القادم من أركنساس على الاقتصاد»[30].

إن انعدام رغبة الجماهير في تقديم تضحيات جسيمة من أجل الإمبراطورية ليس بالأمر الجديد. حتى الحرب العالمية الأولى قامت الإمبراطورية البريطانية بغزواتها وأدارتها بأقل التكاليف (إلى درجة واسعة عن طريق أتباعها من السكان المحليين، ما يشبه وضع الولايات المتحدة في أفغانستان بعد 2001) يصح ذلك على الإمبراطوريات الاستعمارية الأخرى أيضاً. من المؤكد أن كلفة البحرية الملكية كانت عالية، لكنها أمنت في الوقت نفسه سواحل الجزر البريطانية من أي غزو أو حصار.

آنذاك، كما الآن، وبالنظر إلى تفوق القوة النارية الغربية الهائل وتنظيمها العسكري، فإنه كان يمكن غزو مناطق شاسعة واحتلالها بأكلاف ومخاطر قليلة. وحين واجهت الإمبراطوريات الأوروبية

---

(29) «Presidential Debate Clouds Voters' Choice,» (Pew Research Center for the People and the Press, Washington, DC, 10 October 2000), http//people-press.org/reports.

(30) *New York Times*, 10/8/2000.

مناطق يمكن أن يكلف غزوها والاحتفاظ بها غالياً، مثل ما واجهته بريطانيا في أفغانستان، وإيطاليا في الحبشة، فإنهم قد تراجعوا عنها. وكما قال مؤرخ الإمبراطورية البريطانية نايل فرغسون (Niall Ferguson)، فإنه يمكن النظر إلى الخسائر الجسيمة غير المسبوقة للبريطانيين في حرب البوير على أنها كانت بداية عملية خيبة الأمل بالإمبراطورية[31].

انعدام الرغبة في تقديم التضحيات من أجل الإمبراطورية بين الجماهير الأوروبية كانت معروفة للمؤسسة القيادية المحافظة في أوروبا. ومن يدرس بعناية كُلاً من كلاوزويتز وتقارير الشرطة المتعلقة بالمزاج السائد بين البروليتاريا، يعرف أهمية دعم الجماهير لأي حرب مهمة، والحدود التي يمكن استخدام الإمبراطورية لحشد التأييد الجماهيري لها. لذلك، وكلما أمكن، فإن الحكومات الحساسة والواعية، قامت على الدوام باستخدام قوات المتطوعين والمرتزقة الأجانب، وليس المجندين، في الحروب الاستعمارية. اليوم، ونتيجة انتشار الثقافة الرافضة للعسكرة في الغرب، صار حتى استخدام القوات المحترفة أمراً يفتقر للشعبية، كما يشهد على ذلك تصاعد عدم الرضا العام في الولايات المتحدة كلما ارتفعت أعداد القتلى في العراق.

لقد تم خلق الفرقة الأجنبية في فرنسا لهذا الغرض بالذات. وكان الجيش البريطاني قوة قليلة العدد من المتطوعين المحترفين، لكن بريطانيا استخدمت قواتٍ هندية كلما أمكن ذلك في حروبها الاستعمارية ولتأدية مهمات الشرطة. وحين استخدمت الدول

(31) Niall Ferguson, *Empire: The Rise and Demise of the British World Order and the Lessons for Global Power* (New York: Basic Books, 2003).

المجندين كانت النتائج مأساوية سواء في الحملة ذاتها أم في الاستقرار السياسي الداخلي ـ مثلما حصل في إيطاليا بعد هزيمة عدوى في الحبشة عام 1896، وروسيا بعد الحرب الروسية ـ اليابانية عام 1904، وأسبانيا بعد فاجعة الأنوال في المغرب عام 1921 والتي أدت بطريقة ما إلى بداية العملية التاريخية للحرب الأهلية الإسبانية[32].

إن تبنّي الولايات المتحدة «الثورة في الشؤون العسكرية» بتوكيدها تطوير التكنولوجيا المتطورة بديلاً من القوة البشرية، فضلاً عن استخدام عملاء محليين في أفغانستان وغيرها، نُظر إليه على أنه نسخة إمبريالية جديدة عن الاستخدام البريطاني «للسفن الحربية المسلحة وللغورخا[*]» والتي استهدفت تقليص خسائر قواتها[33]. لكن النزاع في العراق قد بيّن، أن التكنولوجيا المتطورة والعملاء المحليين لا يمكنها فعل أكثر مما فعلت حتى الآن. في استراتيجيةٍ إمبرياليةٍ حقيقية، يكون استخدام أعدادٍ كبيرةٍ من القوات الأمريكية ضرورياً أيضاً، وهذا لن يلقى قبولاً في الداخل، إلا إن استطاعوا أن يثبتوا أنهم لا يحاربون من أجل الإمبراطورية بل من أجل الأمة نفسها.

---

(32) Sebastian Balfour, *Deadly Embrace: Morocco and the Road to the Spanish Civil War* (Oxford; New York: Oxford University Press, 2002).

ولأجل وضع الكارثة الروسية في الشيشان في منظارها التاريخي انظر ما كتبنا في: Anatol Lieven, *Chechnya: Tombstone of Russian Power*, with Photographs by Heidi Bradner (New Haven, CT: Yale University Press, 1998), pp. 150-151 and Passim.

(*) الغورخا (Gurkhas) هي اليوم كتيبة النخبة في الجيش البريطاني، ولكن الاسم يعود إلى شعب الغورخا في النيبال الذي استخدم البريطانيون شبابه في حروبهم الاستعمارية.

(33) Bacevich, *American Empire: The Realities and Consequences of U.S. Diplomacy*, pp. 141-166

يقدم دوغلاس بورش في كتابه عن الغزو الفرنسي للمغرب وصفاً مذهلاً للاستراتيجيات المتنوعة التي استخدمها الجنرال هيوبرت ليوتاي وغيره من قادة الإمبراطورية الفرنسية لإقناع الجمهور الفرنسي المتسم بالشك من أجل دعم هذه المغامرة التي يمكن عدّها عديمة الفائدة اقتصادياً، وإلهاءً مكلفاً للغاية عن الانتباه إلى الحاجة إلى قوة فرنسا الدفاعية ضد التهديد القومي الحقيقي، وهو ألمانيا. لقد خدم المجندون إلى حد ما في الجزائر (لم تكن من الناحية القانونية مستعمرة وإنما جزءاً من فرنسا)، وكان ذلك نوبة من الخدمة الإلزامية عديمة الجماهيرية بين الشبيبة الفرنسية. تغذّى الخوف من الخدمة العسكرية في المستعمرات على كراهيةٍ أقدم من الخدمة العسكرية عموماً، بكل مخاطرها وصعوباتها وقمعها، خصوصاً بين المزارعين، وقد انتشرت هذه المشاعر في أوروبا كلها[34].

صرّح بول ديروليد، القومي الفرنسي المغالي في مواقفه، أن الألزاس واللورين قد سلبتاه شقيقتين، وبالمقابل فإن كل ما عوّضه المستعمرون الفرنسيون هو منحه «عشرين خادماً من السود»[35]. من

---

(34) انظر: Weber, *Peasants into Frenchmen: The Modernization of Rural France, 1870-1914*, pp. 292-302.

حول عدم شعبية إدارة شمال أفريقيا، انظر: Georges Davien, *Birih* ([n. p.: n. pb.], 1890).

والأغنية الشائعة عام 1891، انظر: Aristide Bruant, «A Biribi,» (CD Anthologie de la chanson francaise: Soldats, conscrits et deserteurs, EPM Musique, 1996).

(35) Quoted in: Roger Magraw, *France, 1815-1914: The Bourgeois Century*, Fontana History of Modern France. Fontana Press Original (London: Fontana, 1983), p. 261.

هنا تظهر الدعاية الفرنسية عن «المهمة الحضارية» (Mission Civilization) والحاجة لخلق دولة مغربية حديثة، والقضاء على «الهمجية» هناك، فضلاً عن الإيحاء أنه بسبب وجود أطماع ألمانية في المغرب، فإن الصراع الأعم مع ألمانيا يتطلب السيطرة الفرنسية على ذلك البلد[36].

كانت الاستراتيجية السياسية المحلية المركزية للنخب الرأسمالية في أوروبا قبل عام 1914 تقوم على الاعتماد على الإمبريالية أقل بكثير من اعتمادها على القومية لحشد الدعم الديمقراطي أداةً في الدفاع ضد الاشتراكية. وعام 1914 كانت القومية هي الحافز الذي دفع الجماهير الأوروبية لدعم الحرب والتضحية بأنفسهم فيها، وكان يُعبر عنها بشكل واسع بالإيمان الأصيل أن الوطن ذاته يواجه خطر هجومٍ وشيك.

وكما أكد جان جاك بيكر في حال فرنسا، وبالرغم من القومية القوية في الثقافة الفرنسية قبل الحرب العالمية الأولى، فإن رد الفعل الأولي للجماهير إزاء الأزمة في تموز/ يوليو 1914 اتسم بالقلق والرغبة في إحلال السلام. وحين أعلن الإنذار الألماني اتضحت حال العدوان على الوطن وتطورت بالتالي الحماسة للحرب لدى الجماهير[37]. وبالرغم من التفجر المتواصل للتوترات الناتجة من

---

(36) Douglas Porch, *The Conquest of Morocco* (New York: Knopf, 1983), pp.187-188 and 293-294.

(37) Jean Jacques Becker, *1914, Comment les Français sont entrés dans la guerre: Contribution à l'étude de l'opinion publique printemps-été 1914* ([Paris]: Presses de la fondation nationale des sciences politiques, 1977), and Alfred Cobban, *A History of Modern France. Vol. 3, France of the Republics, 1871-1962*, Pelican Originals (London: Penguin, 1990), p. 105.

المنافسة على المستعمرات، خلال العقود التي سبقت عام 1914، إلا أن القوى العظمى الأوروبية لم تشن حروباً من أجل المستعمرات (باستثناء روسيا واليابان عام 1904). السبب الرئيس لهذا هو الشك المتوطن في عقول الحكومات الأوروبية والعسكريين بشأن رد فعل الجماهير على الحروب الدموية التي بدأت بوضوح على شكل اشتباكات بين طرفين ضاريين يطمعان في مستنقع أفريقي يصعب تلفظ اسمه.

كان الهجوم الإرهابي في 11 أيلول/سبتمبر 2001 هجوماً حقيقياً ضارياً على الوطن الأمريكي. أي إدارة في الولايات المتحدة ـ أو أي دولة في العالم تحترم نفسها ـ كانت سترد بالسعي لتدمير المعتدي. الحرب لتدمير قوة القاعدة في أفغانستان ومؤيديهم من طالبان كانت رد فعل مشروعاً لأحداث 11 أيلول/سبتمبر، وكذلك كان ما قامت به الولايات المتحدة ضد القاعدة وحلفائها في العالم. لكن ما فعلته إدارة بوش هو أنها رسّخت خشية الجمهور الأمريكي من أخطارٍ أوسع نطاقاً لتهديدات للوطن من العراق وإيران وكوريا الشمالية، في حين أن هذه دول لا علاقة لها مع القاعدة. بهذا خلقت الإدارة اعتقاداً أن كل ما تفعله أمريكا هو في جوهره من باب الدفاع عن النفس ورد فعل على «الإرهاب». بدس هذا الاقتناع في ذهن الشعب الأمريكي، أمكن حشده إلى حد ما من أجل حربٍ إمبريالية[38].

لكن حتى إدارة بوش اضطرت للبقاء ضمن حدود معينة. ذلك أن النمط العام للعداء للمسلمين، وعدم القدرة على التمييز بين دول

---

(38) انظر: Perry Anderson, «Force and Consent,» *New Left Review* (London), no. 17 (September-October 2002).

مسلمة، مختلفة جذرياً، ناهيك عن التمييز بين العادات والتقاليد والعقائد الخاصة بكل بلد، كل ذلك جعل من الممكن الخلط بين العراق والقاعدة في أذهان أغلبية الأمريكان، ولكن حتى بوش كان يمكنه أن ينجح لو أعلن أن إرهابيي 11 أيلول/ سبتمبر هم من الروس أو الصينيين أو الكوريين الشماليين. في هذا الصدد تعمدّت حملة بوش الانتخابية الأولى إخفاء الطموحات الإمبريالية لأتباعه، كما في الملاحظة التي ذكرها أن على الولايات المتحدة تبني مقاربة أكثر «تواضعاً» في الشؤون الدولية، و«أني قلق من الإفراط في التزامنا العسكري في أرجاء العالم. سأكون أكثر حكمة باستخدامه»[39].

من المهم التمييز بين الإمبريالية والقومية. المفتاح الرئيس لفهم الاستراتيجية السياسية لإدارة بوش منذ 11 أيلول/ سبتمبر هي أنها ـ مثل بعض أشباهها ممن سبق من الأوروبيين ـ في جوهرها تحاول تنفيذ برنامج هيمنة إمبريالية باستخدام وقود قوميةٍ جريحة ومشوشة ومرتبكة.

حفظها التاريخ

يرى الكثير من الأمريكيين أن مصالح بلادهم القومية وطموحاتها تتماهى مع كل ما هو حق وطيبة، وحضارة، وتقدم ومع مصالح الإنسانية جمعاء، مثلهم في ذلك مثل الإمبرياليين الأوروبيين في الماضي[40]. يدفع خداع الذات الجمعي بين أعضاء يتشاركون في

---

(39) نص المقابلة التلفزيونية مع آل غور (Al Gore) مع ونستون سالم (Winston Salem, NC) في 11 تشرين أول/ أكتوبر 2000.

(40) William Pfaff, *Barbarian Sentiments: America in the New Century* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2000), p. 9.

ثقافة سياسية واحدة، والذي يغذيه مزيج من الأيديولوجيا والمصالح الشخصية، هو الموضوع الجوهري هنا. أو كما تصفه بشكل رائع جملة ماكس فيبر، «الإنسان هو حيوان معلقٌ في شبكات من الدلالات التي نسجها بنفسه»[41].

لو وضعناها بصورة أخرى يمكن القول: إن الثقافة القومية المعمقة في دول أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى كانت جزئياً نتاج استراتيجيات متعمدة للنخب الأوروبية لمكافحة الحركات الاشتراكية وللمحافظة على مواقعهم المهيمنة من خلال حشد الدعم الجماهيري باسم القومية. لكن القومية التي نتجت عن ذلك كانت قضيةً ضحّى من أجلها أبناء هذه النخب، وهم ضباط أوروبا القديمة، وبأعدادٍ لا تحصى وإيمان صادق[42].

لا بد من الاعتراف بأن التضحية بالنفس ليست من بين ما ترغب فيه نخبة الجناح اليميني للقوميين الأمريكان، لكن خطابهم

(41) Max Weber, Quoted in: Clifford Geertz, *The Interpretation of Cultures: Selected Essays* (London: Fontana, 1993), p. 5.

(42) حول الأعمال التي تعالج تاريخ ألمانيا في عهد فيلهلمينا (Wilhelmine) التي عدلت النهج التقليدي المبني على أساس سيطرة العلاقات الخارجية (Primat der Aussenpolitik)، والصيغ التبسيطية الماركسية بتلاعب النخبة، انظر: Geoff Eley, «The Wihelmine Right: How it Changed,» in: Richard J. Evans, ed., *Society and Politics in Wilhelmine Germany* (London: Croom Helm; New York: Barnes and Noble, 1978), pp. 112-135; Wolfgang J. Mommsen, *Imperial Germany, 1867-1918: Politics, Culture, and Society in an Authoritarian State*, Translated by Richard Deveson (London; New York: Arnold, 1995), pp. 166 ff.; David Blackbourn, *The Long Nineteenth Century: A History of Germany, 1780-1918* (New York; Oxford: Oxford University Press, [1998]), Introduction, and Klaus Epstein, *The Genesis of German Conservatism* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1966).

يحمل بعض صدى الشؤم لخطاب سابقيهم الأوروبيين. هذا ما يصح بشكل خاص على نوعين من الهوس المترابط: الانحطاط الثقافي والأخلاقي، والخداع المحلي. كلاهما نابع من خلفية ثقافية قديمة، وله جذور عرقية ودينية، وقد أعادت الحرب الباردة تشكيلهما وتقويتهما وإدامتهما، ونال كلاهما قوةً مضافة نتيجة 11 أيلول/ سبتمبر. هكذا ربط مقدم البرامج الإذاعية والتلفزيونية اليميني شين هانيتي بين زواج المثليين وأدولف هتلر، وكونهما التهديد الشرير للولايات المتحدة، وصّرح: «لدينا معركة في داخل بلادنا مع من يريد تمزيق أسسها، وقيمها اليهودية ـ المسيحية التي جعلت هذه البلاد قوية»[43].

يمّثل الكاتب الكاثوليكي من الجناح اليميني وليام بينيت هذا السرساب إزاء «الانحطاط» على أنه مصدر ضعف الأمة، مع التركيز بشكل خاص على شريحة المثقفين والجامعات[44]. لابد من القول في هذا السياق إن بعض النقد الذي توجهه هذه القوى ضد الجناح اليساري للمثقفين الأمريكان له بعض المسوغات. يقدم الفصل الثاني بعض الأمثلة على الإسراف الجنوني للمثقفين بشأن «ما يصح

(43) Sean Hannity, «The Battle over Competing Visions of the Family and Family Values,» (Speech at United Families International Conference, 21-22 November 2003), www.unitedfamilies.org.

(44) انظر: Robert H. Bork, *Slouching Towards Gomorrah: Modern Liberalism and American Decline* (New York: Regan Books, [1996]), and Dinesh D'Souza, *What's So Great About America* (Washington, DC: Regnery Publishing, 2002).

الذي يطرح أيضاً السؤال عما إذا كان «المجتمع المفتوح، حيث يسمح بمثل هذا النقد، وحتى يشجع، لديه القوة والإرادة لمقاومة هجوم خارجي».

سياسياً»، وحتى الناشط القديم، ريتشارد رورتي، استنكر حقيقة أن «لدينا الآن، من بين العديد من الطلاب والأساتذة الأمريكان، مجموعة من اليساريين الميالين للتفرج، المشمئزين والساخرين، بدلاً من أن يكون لدينا يسارٌ يحلم بتحقيق شيء لبلادنا»[45].

وبدلاً من أن يكون الهدف هو تحفيز النقاش الملتزم الهادف لتحسين الولايات المتحدة وسياساتها، فإن مقاربة بينيت وحلفائه من أمثال لين تشيني تهدف بشكل واضح إلى إغلاق النقاش. ولهذا سوابق أخرى مقلقة جداً، إذ تتحدث لغته عن شعبٍ أمريكي صحي ووطني يقابله مثقفون عديمو الجذور ومنحطو الأخلاق. يمكن العثور على أمثلة لهذا الموقف في الوثائق الأوروبية القديمة: تحدث تصريح ألماني قومي عام 1881، مثلاً عن «القوى الشريرة» التي تستنزف الدين والأخلاق والوطنية التي شكلت «الأسس القديمة والسليمة لسماتنا القومية»[46]. في الولايات المتحدة كان مثل هذا التفكير قوياً بشكل كبير إبان الحرب الباردة التي شهدت العديد من موجات القلق من أن البلاد تتجه لتكون ضعيفة أخلاقياً وبدنياً أكثر مما يجب في المنافسة مع المجتمع السوفياتي الذي افترضوا أنه «كان صاحب هدف، جاداً ونظامياً»[47].

كان عضو الكونغرس الجمهوري والرئيس السابق للمجلس، نيوت غينغرتش، يعطي دروساً بعنوان «تجديد الحضارة الأمريكية»

(45) Richard Rorty, *Achieving Our Country: Leftist Thought in Twentieth-Century America*, William E. Massey, Sr. Lectures in the History of American Civilization; 1997 (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1998), p. 35.

(46) Craig, *Germany, 1866-1945*, p. 206.

(47) George Kennan, Quoted in: John Hellmann, *American Myth and the Legacy of Vietnam* (New York: Columbia University Press, 1986), pp. 42-43.

في الكليات المحافظة في جورجيا، توزع تسجيلاتها الصوتية على الناشطين الجمهوريين. تراوحت الكلمات التي استخدمها لوصف المعارضين السياسيين بين «منحلين، فاشلين، سطحيين، خونة، مثيرين للشفقة، فاسدين، عديمي الكفاءة، مرضى»[48]. وهذه بالتأكيد هي اللغة السائدة التي يستخدمها نجوم وسائل إعلام الجناح اليميني أمام جمهورهم الواسع لوصف الديمقراطيين، والمثقفين الليبراليين والأوروبيين.

تشبه لغة هذه الشخصيات إلى حد بعيد ما أسماه جورج موس «خطاب القلق» الذي ساد بين القوميين قبل 1914، والذي ركز على التهديدات الخارجية للأمة، وعلى التدمير الأخلاقي، الجنسي والسياسي، من الداخل. كما أن نبرته الهستيرية الواضحة هي أيضاً مشابهة لذلك الخطاب[49]. وهذه المواقف ليست مجرد بعض المشاحنات الإعلامية الطارئة. ذلك أن هذا الخطاب، في موقفه

---

(48) ذكر في: David Brock, *Blinded by the Right: The Conscience of an Ex-Conservative* (New York: Three Rivers Press, 2002), p. 75.

(49) George L. Mosse, *Nationalism and Sexuality: Middle-Class Morality and Sexual Norms in Modern Europe* (Madison: University of Wisconsin Press, [1988]), and Fritz Richard Stern, *The Politics of Cultural Despair: A Study in the Rise of the Germanic Ideology*, California Library Reprint Series (Berkeley: University of California Press, 1974).

وفي ما يتعلق بربط الجناح اليميني القومي الأمريكي بين الشذوذ الجنسي والضعف القومي والانحطاط، انظر: Norman Podhoretz, «The Culture of Appeasement,» *Harper's* (New York), no. 255 (October 1977).

في ما يتعلق بالأعمال التي تربط بين «انحطاط» كلنتون الجنسي مع «ضعف» سياسته الخارجية، انظر: Robert «Buzz» Patterson, *Dereliction of Duty: An Eyewitness Account of How Bill Clinton Compromised America's National Security* (Washington, DC: Regnery Pub., 2003).

المعادي للثقافة والمعادي للنخبة والمعادي للعلمانية والمعادي للحداثة، يضرب جذوره عميقاً بين الأغلبية العظمى من الأمريكان الذين يشعرون بغربة عميقة عن العالم في هيئته القائمة.

يذكرنا عمل موس بأن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين هذا الخطاب القومي التقليدي والقلق، إلى جانب كونه لغة الجناح اليميني القومي طوال التاريخ: الهوس بالتهديدات الموجهة للرجولة القومية وما يفترض أن يكون تخنث وضعف ناقديهم في داخل الوطن وخارجه: «الأمريكيون من كوكب المريخ، والأوروبيون من كوكب الزهرة»، تلك هي الجملة الشهيرة لروبرت كيغان. ما هو أكثر فجاجة يقال إن الأوروبيين هم «أوروصغار» (Euroweenies). ويرى كاتب آخر من اليمين القومي هو لي هاريس أن «القسوة الإسبارطية هي جذر الحضارة». ويدعو روبرت كابلان الأمريكان لاستعادة «الفضائل الوثنية» في القتال الحربي[50].

قدم المؤرخ والصحفي البريطاني تيموثي غارتون آش خلاصة لهذا الصنف من اللغة عن أوروبا في الولايات المتحدة: «إن كان الأوروبيون المعادون لأمريكا يرون في الأمريكان رعاة بقر مستأسدين، فإن الأمريكيين المعادين لأوروبا يرون في الأوروبيين مجموعة من المخنثين طريي الرسغ. الأمريكي ذكرٌ رجوليٌ ثنائي الجنس، والأوروبي أنثوي عديم الفحولة أو مخصي.. وقد اكتشفت أنهم يستخدمون كلمة خصيان «eunuchs» بصيغة «Eunuchs»»[51].

---

(50) Lee Harris, *Civilization and its Enemies: The Next Stage of History* (New York: Free Press, 2004), pp. 69-84, and Robert D. Kaplan, *Warrior Politics: Why Leadership Demands a Pagan Ethos* (New York; [Great Britian]: Vintage, 2003).

(51) Timothy Garton Ash, «Anti-Europeanism in America,» *New York* = *Review of Books*, vol. 50, no. 2 (February 2003).

قد يرى البعض في مثل هذه الأقوال محض هراء، بالرغم من أن أسلوب وزير الدفاع دونالد رامسفيلد، واللغة التي يستخدمها لوصف أوروبا تبين أن لهذه الأقوال نتائج خطيرة في العالم الواقعي. غير أن ما هو أكثر أهمية وخطورة هو اللغة التي يستخدمها اليمين القومي عن الخيانة في الداخل. في أمريكا الآن (وفي العديد من الدول في الماضي) كانت هذه اللغة وقوداً للقمع الداخلي وتسويغاً له، كما تؤشر بعض تصرفات إدارة بوش، فإن 11 أيلول/ سبتمبر والحرب ضد الإرهاب التي ليست لها نهاية منظورة، قد جعلت مثل هذه المواقف سبباً لقلق حقيقي[52].

بعض هذه اللغة كان موجهاً ضد المجموعات المسلمة داخل الولايات المتحدة، كما أن جهداً كبيراً قد تم بذله لتشويه صورة المعارضين من السياسيين والمثقفين، وبالطبع فإنه كان يجري أحياناً تبريره. كتاب آن كولتر المدهش بعنوان **خيانة** (*Treason*) هو محاولة متواصلة لتصوير الليبراليين والديمقراطيين، وجعلهم متماثلين،

= بشأن وجهة نظر المحافظين الجدد المتطورة للخلافات الكامنة بين الولايات المتحدة وأوروبا، انظر: Robert Kagan, *Of Paradise and Power: America and Europe in the New World Order* (New York: Knopf, 2003).

(52) انظر: John W. Whitehead and Steven H. Aden, *Forfeiting 'Enduring Freedom' for 'Homeland Security': A Constitutional Analysis of the USA patriot Act of 2001 and the Justice Department's Anti-Terrorism Initiatives* (Chartlottesville, VA: Rutherford Institute, 2002); Ann Beeson and Jameel Jaffer, *Unpatriotic Acts: The FBI's Power to Rifle Through Your Records and Personal Belongings Without Telling You* ([New York]: American Civil Liberties Union, 2003), and Muzaffar A. Chishti [et al.], *America's Challenge: Domestic Security, Civil Liberties, and National Unity After September 11* (Washington, DC: Migration Policy Institute, 2003).

وبوصفهم خونة لأمريكا منذ الحرب الباردة وحتى «الحرب ضد الإرهاب». ذكرنا سابقاً أن هذه التهمة هي مادة عامة بين نجوم الإعلام اليميني مثل شين هانيتي، وبيل أوبرايان، ورروش ليمبو ومايكل سافاج، وهم شخصيات لها جمهور عريض، كما أن وراءهم نفوذ هائل، ولهم صلات مع أهم شبكات التلفزيون والإذاعات[53].

بعد 11 أيلول/ سبتمبر قامت كتلة برئاسة لين تشيني بتقديم قائمة بـ 117 تصريحاً لشخصيات أكاديمية وطلابية أمريكية التي رأت هذه الكتلة أنها «مشبوهة أخلاقياً،» ومعادية لأمريكا، أو كلاهما، «الكليات والجامعات هي الحلقة الضعيفة في رد أمريكا على الهجمات». تراوحت تصريحات الإدانة التي أوردتها القائمة بين ما هو شرير حقاً وما هو غير مقبول، مثل «كل من يستطيع تفجير البنتاغون ينال صوتي» (رقم 14)، إلى «علينا أن نبني جسوراً وعلاقات، وليس فقط قنابل وجدران» (رقم 19)، و«الجهل يولد الكراهية» (رقم 49)[54].

كما أن بعض كبار الموظفين السابقين والمعلقين البارزين من بينهم ريتشارد بيرل، وديفيد فروم، وأرفينغ كريستول، قد وجهوا اتهاماتٍ بالخيانة الوطنية، وجعلوا منها جوهر خطابهم، إذ لم تقتصر إدانة فروم على الليبراليين، بل شملت أيضاً المحافظين «غير الوطنيين» الذين عارضوا الحرب على العراق، وشنوا «حرباً ضد

(53) انظر: Eric Alterman, *What Liberal Media?: The Truth about Bias and the News* (New York: Basic Books, 2003), p. 277.

(54) Jerry L. Martin and Anne D. Neal, «Defending Civilization: How Our Universities Are Failing America and What Can Be Done about it,» (Project of the Defense of Civilization Fund, American Council of Trustees and Alumni, November 2001).

أمريكا»[55]. أحدث كتاب لهانيتي حمل عنوان **خلصنا من الشرير: كيف نهزم الإرهاب والاستبداد والليبرالية**[56] (*Deliver Us from Evil: Defeating Terrorism, Despotism and Liberalism*). إن الروحية الكامنة وراء الإهانة القومية الألمانية القديمة «Nestbeschmutzer» (إشارة إلى من يلوث عشه) صارت بارزة بقوة في أمريكا اليوم.

إن رغبة عدد كبير من الساسة والمثقفين الأمريكان في استخدام مثل هذه اللغة، إلى جانب الاختلاف الكبير بين أمريكا وأوروبا وغيرها من العالم المتقدم في هذا المجال، ترتبط وبشكل وثيق بما هو الجذر الأكثر أهمية في «الاستثناء» الأمريكي بصيغته الإيجابية: إن الولايات المتحدة قد تخلصت من أعظم الكوارث الأوروبية طوال قرنين. فقد «عزلتها كل من الطبيعة والمحيط الشاسع، بلطف عن فوضى الإبادة التي سادت ربع الكرة الأرضية». وهذه هي الجملة التي استخدمها توماس جفرسون[57].

أول خلاص حاسم، كما لاحظ توكفيل، كان من الثورة الفرنسية وغيرها من الثورات الأوروبية بعد 1789، ومن ردود الفعل المتطرفة الناتجة منها. في ما بعد، كمنت الأهمية القصوى لتميّز الولايات المتحدة عن بقية الدول المتقدمة في أن هذه الدولة تحاشت التأثيرات الحقيقية والمتصاعدة لحروب القرن العشرين وثوراته.

---

(55) David Frum, «Unpatriotic Conservatives: A War Against America,» *National Review*, vol. 55 (April 2003).

(56) Sean Hannity, *Deliver us from Evil: Defeating Terrorism, Despotism, and Liberalism* (New York: Simon and Schuster, 2004).

(57) Thomas Jefferson, *The Complete Jefferson, Containing His Major Writings, Published and Unpublished, Except His Letters*, Assembled and Arranged by Saul K. Padover (New York: [Irvington Publishers, 1943]), pp. 385-386.

بالطبع، شاركت الأمة في كلا الحربين، فقد خاضت القوات المسلحة للولايات المتحدة كلا الحربين بشجاعة وإخلاص رائعين، وقدمت العديد من وحداتها خسائر فادحة، لكن مجموع خسائر أمريكا بالقياس إلى عدد نفوس الولايات المتحدة كان ضئيلاً بالمقارنة مع مثيلاتها من الدول الأوروبية، كما أن أمريكا نفسها لم تتعرض للغزو أو القصف.

تعرّض عدد كبير من الأوروبيين واليابانيين للتعذيب والسجن أو الإعدام بتهم مختلفة من أشكال «الخيانة»، أو أنهم مارسوا التعذيب والرمي، حتى صار من غير السهل استخدام هذه الكلمات بخفة لدى شعوب هذه الدول. لقد تعرّض عدد كبير من الناس للقتل والتشويه والاغتصاب أو الموت جوعاً في حروب إلى حد أن اللغة النضالية والقومية منها خصوصاً، قد فقدت بريقها وقبولها، ليس في الأوساط السياسية أو الثقافية وحسب فقط، بل أيضاً لدى الأغلبية العظمى من الشعوب. وحتى الأوروبي الأقل ثقافةً لديه ذكريات عن جدٍ قُتل في معركة إيبر، أو عم معوقٍ من ستالينغراد، أو بيتٍ تهدم في كولون أو وارسو، أو عن عَمليات اغتصابٍ أو دعارةٍ إجبارية من نابولي إلى برلين وكراسنودار.

ولأن اللغة التي استخدمها بينيت كانت مستخدمة بلا انقطاع من قبل المثقفين والسياسيين في الدول الأوروبية الرئيسة كلها خلال فترة 1914 ـ 1915 وفي ألمانيا وإيطاليا خلال فترة 1939 و1941، فقد صار من الصعب جداً على أي أوروبي اليوم الكتابة أو التحدث بمثل هذه الصيغ. إنها ليست مسألة أفكارٍ يمكن الإيمان بها بقوة، وتقال سراً ولا يجوز التعبير عنها علناً، مثلها مثل العنصرية في الولايات المتحدة. لقد صار من الصعب جداً على النفس الأوروبية المثقفة

حتى التفكير بمثل هذه الصيغ[58]. ويصح هذا على النخب الأوروبية، كما يصح على جماهير العامة. مسيرة القتل القومي الأوروبي التي انطلقت من عقالها عام 1914 بدأت بتدمير أبناء هذه النخب، وبحلول 1945 دمرت هيمنتهم، وفي كثير من الحالات دمرت بلدانهم.

لكن الرأسمالية الأمريكية، وأمريكا كلّها، تخلصت من الكوارث الأوروبية التي حلّت في النصف الأول من القرن العشرين. كانت أمريكا محظوظة في هذا المجال، لكن ذلك يعني أيضاً أن الولايات المتحدة وحكامها ربما أفلتوا من أهم دروسها البليغة التي عرفها العالم وهي الحاجة للمحافظة على محددات المجتمع، والطبقة، والطموحات الاقتصادية والوطنية والأهواء، ضمن حدود معينة. بالتالي فإن أعظم راديكالية للرأسمالية الأمريكية تنبع أيضاً من أن الأمة قد تخلّصت من النتائج الرهيبة التي تؤدي إليها تجاوزات الرأسمالية وتساهم في خلقها، وهذه الصيغة للرأسمالية الأمريكية تغذي بدورها راديكاليةً أكبر لليمين الأمريكي والثقافة القومية الأمريكية. هذه الأنماط الراديكالية المركبة يمكن رؤيتها في الصفحات الأولى من الصحيفة الأهم لرجال الأعمال في أمريكا وهي **وول ستريت جورنال**. للتعرف إلى نمط الاختلاف بين ثقافة الرأسماليين الأمريكان وسياساتهم بشكل عام، وتلك التي تميز نظراءهم الأوروبيين، ليس ثمة ما هو أفضل من مقارنة صفحات هذه الصحيفة مع نظيراتها الأوروبية مثل **فايننشال تايمز** (لندن)، **فرانكفورتر ألجماينة** (فرانكفورت)، **كوريرا ديلا سيرا** (ميلانو) وغيرها. إن أهم عرض للاختلاف مثلاً ورد في رد الفعل المروع في المقالات الرئيسة

---

(58) انظر: Edward Shils, «Ideology and Civility: On the Politics of the Intellectual,» *Sewanee Review*, no. 66 (Summer 1958).

لفاينانشال تايمز على قرار بوش بخفض الضرائب.

وقبل كل شيء، فإن ما كان يسبب الصدمة في **الجورنال**، وهي صحيفة تمثل ما يفترض أنها طبقة رأسمالية مهيمنة وراضية، هو قدرة كاتبها على التعبير براديكالية وكراهية مطلقة. تعاطت مقالات **وول ستريت جورنال** مع الرئيس بيل كلينتون على أنه مختلف ثقافياً وراديكالي خطر وخائن للوطن. يشبه هذا التعامل ذاك التعامل الذي خصّت به **الجورنال** وكثير من أصحاب الطبقة الرأسمالية خلال الثلاثينيات «الشيوعي» فرانكلين ديلانو روزفلت، بالرغم من أنه ربما كان الرجل الذي عمل أكثر من غيره للمحافظة على الرأسمالية الأمريكية ونشرها في العالم. يجب البحث عن تفسير هذا السلوك المتوحش جزئياً في القلق الثقافي والعنصري المحافظ الذي سيتم التعامل معه في الفصل اللاحق، ومن جهة أخرى، وبالقدر نفسه من الأهمية في أسلوب المرحلة التي سبقت عام 1914 والذي افترض فيه الرأسماليون الأمريكيون أنهم يملكون حقاً مفرطاً في الهيمنة على الدولة، وفي استبقاء أرباح.

تنعكس الطبيعة الخاصة للرأسمالية الأمريكية في السمات المعاصرة للحزب الجمهوري. إن المسميات التاريخية للأحزاب السياسية الرئيسة في الولايات المتحدة مثلها في ذلك مثل غيرها الكثير من الشعارات في العالم أجمع، فقدت معانيها منذ أمد بعيد. منذ عام 2004 لم يعد من السهل العثور على اسم يعبر بحق عن الديمقراطيين، بسبب الاختلاط الكبير في المكونات والمواقف الطبقية والعرقية والثقافية والأيديولوجية التي كان يمثلها. ربما كان أقرب وصف له هو «الليبراليين التقدميين»، مع أنه وصف ليس قريباً بما فيه الكفاية. وإن حاول أحدٌ ما البحث عن تسمية للجمهوريين بما يضعهم في سياقهم التاريخي والدولي الصحيح، فمما لا شك فيه أن

تكون التسمية المناسبة للحزب الجمهوري هي الحزب القومي الأمريكي.

ولا يقتصر السبب هنا على السياسات الخارجية للحزب الجمهوري، ولا على الثقافة السياسية التي تشكل أساساً لها. بالأحرى، فإن المزيج المعاصر للجمهوريين يذكّر بالمواقف الكلاسيكية للحركات القومية المحافظة في أوروبا وغيرها. في الخارج وقفت هذه الأحزاب لتدافع عن «توكيد القومية»، وغالباً ما دعمت سياسات الإمبريالية. وفي الداخل، التزمت بالدفاع عن الملكية الخاصة عموماً، وعن مصالح الطبقات العليا بشكل خاص، مع تركيز خاص على وراثة الثروة. كما أنهم صوروا أنفسهم على أنهم المدافعون عن القيم التقليدية القومية والدينية والعائلية ضد المد الصاعد للعالمية والليبرالية والاشتراكية والانحطاط الأجنبي. ثمة خطر يواجههم مثل نظرائهم الأوروبيين قبل عام 1914. وفي حال بقي الجمهوريون ملتزمين بالسياسات الراديكالية لمصلحة الأغنياء والتي تبنوها تحت إدارة بوش 2000 ـ 2004، فلسوف يندفعون أكثر فأكثر باتجاه القومية الراديكالية لكونها السبيل الوحيد أمامهم لكسب رضا أغلبية الشعب الأمريكي.

الشعوب المختارة

إن ما يشكّل مضمون القومية، ليس لدى اليمين الأمريكي فقط، بل أيضاً في الثقافة الأمريكية عموماً، هو الاعتقاد الراسخ بأن أمريكا قد جرى «اختيارها» هي تحديداً، وأنها بالتالي وبكلمات وزيرة الخارجية السابقة مادلين أولبرايت، «الأمة التي لا غنى عنها» سواء أكانت مختارة من الرب أم «القدر» أم «التاريخ» أم أنها موسومة بالعظمة والقدرة على القيادة من خلال امتلاك أعظم شكل

للديمقراطية وأنجحها وأقدمها وأكثرها تطوراً. وبكلمات الرئيس وودرو ولسون في الحرب العالمية الأولى، فإن «لأمريكا الامتياز المطلق في تحقيق قدرها وإنقاذ العالم»[59]. أولبرايت مثل ولسون قبلها، ديمقراطيان، وتشابه لغتها بشأن أمريكا لغة جورج دبليو. بوش، وهو ما يبيّن الطبيعة الواسعة الانتشار لهذا الاعتقاد الذي يتشارك فيه الحزبان في مجتمع الولايات المتحدة.

سبب ديمومة هذا الاعتقاد في أمريكا أنه كان حقيقياً في واقع الأمر، أواسط القرن العشرين. حين صرّح رجل الدين المشهور بيلي سنداي عند اندلاع الحرب مع ألمانيا عام 1917 «لقد وُضعت أمريكا في موقع جعل قدر العالم معتمداً على سلوكنا إلى حد بعيد. لو طاشت عقولنا، لانهارت الحضارة»، فقول هذا كان معبراً عن مغالاةٍ قوميةٍ. لكن خلال الأربعينيات وبداية الخمسينيات لم يكن في هذا القول أي مبالغة[60].

هذا المعنى بأن أمريكا لا تقتصر على أن تكون حلماً لم يتحقق أو رؤية، لكنها أيضاً بلد له مهمة قومية، هو أمر جوهري تماماً بالنسبة للهوية القومية الأمريكية، وهو يشكّل أيضاً جوهر إيمان الأمة

---

(59) ذكر في: Hellmann, *American Myth and the Legacy of Vietnam*, pp. 5-7.

(60) ذكر في: James H. Moorhead, «The American Israel: Protestant Tribalism and Universal Mission,» in: Hutchison and Lehman, eds., *Many are Chosen*, p. 163.

وعن كيفية انعكاس هذا الإيمان في الكتب الدراسية الأمريكية خلال الأربعينات والخمسينات، انظر: Frances FitzGerald, *America Revised: What History Textbooks Have Taught Our Children about Their Country, and How and Why those Textbooks Have Changed in Different Decades* (New York: Vintage Books, 1980), pp. 116-117.

بـ«امتيازها وفرادتها»[61]. وهذا مثبت في العهد العظيم للجمهورية عند ولادة الأمة الموحدة: **نظامٌ جديد لعصور عدة** (*Novus Ordo Seclorum*).

من المؤكد أن هذا الاعتقاد يجعل للأمريكان امتيازاً بين الدول المتقدمة. لم يكن هذا الامتياز مؤكداً في الماضي: «منذ أزمنة سحيقة رأت أمم أنها أرفع مقاماً، وأن مهمتها هي الهيمنة على الشعوب الأخرى، وأن تقود بقية العالم إلى سبل النور». طوال التاريخ رأت أمم عديدة ـ ربما حتى أغلبية الأمم ـ نفسها «مختارة» بشكل خاص من الرب أو القدر لأداء «مهمات» خاصة، وهي في أغلبيتها تتشابه في اللغة التي تستخدمها لوصف مضمون المهمة[62]. من المؤكد أن البعض من الأكثر تعبيراً وحماسةً في التعبير عن المهمة الكونية لأمريكا كانوا سابقاً من الرعايا البريطانيين، وهم يكررون ويعيدون الكلمات التي كان آباؤهم وأجدادهم يستخدمونها عن الإمبراطورية البريطانية[63].

قال هرمان ملفيل (1819 ـ 1891): «نحن الأمريكان شعب مختار بامتياز، نحن إسرائيل زمننا، نحن نحمل سفينة الحريات عن العالم. لقد اختار الرب قدرنا مسبقاً، والبشرية تنتظر من عِرقِنا أشياء عظيمة، ونحن نشعر بوجود أشياء عظيمة في أرواحنا. يجب أن تصير

---

(61) Hartz, *The Liberal Tradition in America; an Interpretation of American Political Thought Since the Revolution*, pp. 35-38.

(62) انظر: Conor Cruise O'Brien, *God Land: Reflections on Religion and Nationalism*, William E. Massey, Sr. Lectures in the History of American Civilization; 1987 (Cambridge, MA: Harvard University Press, [1988]), and Lind, *The Next American Nation: The New Nationalism and the Fourth American Revolution*, pp. 227-234.

(63) Paul Johnson, «God and the Americans,» *Commentary*, vol. 99, no. 1 (January 1995).

بقية البشرية وراءنا. نحن رواد العالم، الحرس الأمامي، الذين أُرسلوا نحو البراري المقفرة لتجربة ما هو غير مجرب بعد، لفتح السبيل للعالم الجديد الذي هو عالمنا»[64].

وكتب المؤرخ الديني البارز، كونراد شيري، «يبين تطور موضوع الشعب المختار في كل من ألمانيا والولايات المتحدة بين عامي 1880 و1920 السمة المتقلبة لأسطورة القومية الدينية. لقد أثبتت أنها قادرة على تجسيد هوية لأشكال وصور عديدة، توراتية وغير توراتية، وذلك من دون أن تفقد الأسطورة قوتها». الاختلاف اليوم هو بالطبع أن هذه الأسطورة في ألمانيا قد ماتت ودفنت تماماً (على الأقل في شكلها القومي) من خلال الفظائع التي جرت بين عامي 1933 و1945، وهذا يصح إلى حد بعيد على أوروبا الغربية أيضاً، أما في الولايات المتحدة فلا تزال هذه الأسطورة حية جداً[65].

يمكن العثور على الشكل البروتستانتي لهذه الأسطورة في هولندا والسويد وبريطانيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر حتى قبل الهجرة إلى الولايات المتحدة. وبحسب كلمات جون ملتن في أواسط القرن السابع عشر، «فقد كان على إنجلترا ألا تنسى سابقتها في تعليم الأمم كيفية العيش». وفي أمريكا، تضمنت هذه الأسطورة في العادة، التماهي المباشر المعلن مع البلد المهتم بإسرائيل التوراتية. هذه الصُوَر البروتستانتية والتوراتية انتشرت في الخطاب

---

(64) Herman Melville, *White-Jacket; or, the World in a Man-of-War*, Edited by Hennig Cohen, Rinehart Editions (New York: Holt, Rinehart and Winston, [1967]), p. 150.

(65) Conrad Cherry, in: Hutchison and Lehman, eds., *Many are Chosen*, p. 111, and Walter A. McDougall, *Promised Land, Crusader State: The American Encounter with the World Since 1776* (Boston: Houghton Mifflin, 1997), pp. 204 ff.

الإمبراطوري البريطاني، وعمت حتى الخطاب غير الديني (الماسوني بشكل مؤكد) لروديارد كيبلينغ. وقامت بشكل غريب بالمزج بين مواضيع التبشير بالمسيحية، والتحرير، والتطور، مع التفوق العرقي والاحتفاء بالقوة المنتصرة.

وكما كان الحال لدى جميع القوى العظمى في التاريخ الحديث، فقد كان هناك أسلوب أمريكي خاص لتجسيد ذلك الشعور بالذات على أنها «أمم كونية» (Universal Nations)، تختزل أفضل ما في الإنسانية، وتحوي في الآن نفسه الإنسانية، جمعاء من خلال قيمها الكونية التطبيق. أتاح هذا الشعور للأمم أن تزعم أن قوميتها أو وطنيتها هي، قومية ووطنية إيجابية، في حين أن قومية الأمم الأخرى سلبية، لأنها قد توقفت عن التطور ولا يهمها إلا مصالح أمّتها وحسب.

آمن الألمان قبل عام 1914 بأنه «يمكن لألمانيا أن تشفي العالم» بمزيجها الخاص من النظام القانوني، والتقدم التكنولوجي وروحية «الثقافة» و«الجماعة» (Gemeinschaft) المتجذرة في جوهرها. وضع المفكرون الألمان هذه القيم في مقابل ما زعموا أنها «حضارة» انحطاطٍ وسطحية، و«مجتمعات» (Gesellschaft) تتسم بالتشرذم وانعدام الجذور، وهذا ما وصفوا به إنجلترا، وفرنسا والولايات المتحدة، و«همجية» روسيا. وقد كتب يوهان غوتليب فيخته قبل قرن من ذلك، «الألماني وحده... يمكنه أن يكون وطنياً، هو وحده قادرٌ على احتواء الإنسانية جمعاء، ومن الآن فصاعداً، فإن وطنية أي أمة أخرى تقف في مقابله، هي وطنية أنانية، ضيقة ومعادية لبقية الإنسانية جمعاء»[66].

---

(66) Johann Gottlieb Fichte, *Addresses to the German Nation* ([n. p.: n. pb.], 1806), Quoted in: Lind, *The Next American Nation: The New Nationalism and the Fourth American Revolution*, p. 227.

كان لروسيا أيضاً في ظل القيصرية، صنفها الخاص من المهمة الكونية وطبيعتها القومية الخاصة، وهي كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً، كما لدى أمم أخرى، بالدين: الإيمان أن روسيا هي وريثة الإمبراطورية المسيحية في روما والقسطنطينية. كتب قنسطنطين أكساكوف أن «الشعب الروسي ليس أمةً، بل هو الإنسانية، وليس له من مظهر الأمة إلا لأنه محاطٌ بشعوب لا تملك إلا جوهر الأمة، بالتالي فإن إنسانيتها تتمثل بقوميتها وحسب»[67]. وكتب دوستويفسكي أن الروس هم «الشعب الوحيد على الأرض الذي يعبد الرب حقاً، وقدره أن يبعث العالم وينقذه..». وتسللت هذه الروح لاحقاً إلى الشيوعية السوفياتية. التي رأت في اللغة الروسية وبعض الجوانب المختارة من الحضارة الروسية على أنها تشكل أحجار بناء أساسية لأمةٍ اشتراكية جديدة يمكنها بدورها وضع نموذج للإنسانية جمعاء.

غير أن التطابق الأكثر إثارة للاهتمام في موضوع المفهوم الأمريكي للمهمة الكونية للقومية يمكن العثور عليه في تاريخ فرنسا. لقد كان مؤكداً بالنسبة لشخص يعيش آخر أيام تبعيته لبريطانيا، ويتسّم بالذرائعية والتجريبية، أن التباعد طويل الأمد بين الولايات المتحدة وفرنسا هو أشبه ما يكون بشقيقين يتشاحنان على إرث مشترك[68]. ذلك أن الدولة الفرنسية، مثل الدولة الأمريكية، زعمت أيضاً في أغلب فترات السنوات الـ200 الماضية أنها تمثل أرث التنوير في ما يتعلق بالحرية، والديمقراطية والتقدم، وإن لديها حق نشر هذه المُثُل العليا بين الأمم الأخرى. يعود هذا الاعتقاد إلى الثورة

---

(67) ذكر في: المصدر نفسه، ص 230.

(68) انظر: Reinhold Niebuhr, *The Irony of American History* (New York: Scribner, 1952), pp. 68-69.

الفرنسية، لكنه مبني على قناعات أكثر قدماً لفرنسا الملكية في القرنين السابع عشر والثامن عشر من أنها **كانت الأمة الكبيرة** (La Grande Nation)، وإن لديها مهمة ثقافية تملي عليها قيادة أوروبا. من المؤكد أنه يمكن إرجاع الجذور الأولية لهذا الاعتقاد إلى تاريخ أبعد، إلى الكاثوليكية القروسطية والصور النمطية لقومية فرنسا بوصفها «الابنة الكبرى للكنيسة».

لسنوات طويلة بعد الثورة، كان يُنظر إلى فرنسا ـ ليس من الفرنسيين وحسب ـ على أنها «الأم المجيدة التي لا تخصنا وحدنا والتي عليها تخليص جميع الأمم وتحريرها»[69]. وكما عبّر عن ذلك توماس جيفرسون، «لكل امرئ وطنان، دولته وفرنسا»، وهذه كلمات يمكن أن تنطبق ثقافياً طبعاً، على قسم كبير من العالم اليوم في ما يخص العلاقة بأمريكا[70]. أو لنذكر كلمات الجنرال ديغول الأمريكية اللحن، والتي نحتت على قاعدة تمثاله في الشانزيليزيه، «ثمة عهد أبدي بين عظمة فرنسا وحرية العالم»[71]. بالذات في الولايات المتحدة فإنه يمكن جعل هذا الاعتقاد سلاحاً في السياسة الداخلية. هكذا ففي كانون الثاني/يناير 2004 صرح الوزير الفرنسي الاشتراكي الأسبق جاك لانغ، وفي معرض هجومه على الحكومة

(69) Jules Michelet, Quoted in: Rogers Brubaker, *Citizenship and Nationhood in France and Germany* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1992), p. 2.

(70) حول التأثير الفرنسي على لائحة حقوق الإنسان الأمريكية انظر: Mark Hulliung, *Citizens and Citoyens: Republicans and Liberals in America and France* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2002), pp. 19 ff.

(71) «Il existe un pacte, vingt fois seculaire, entre la grandeur de la France et la liberte du monde».

الفرنسية المحافظة لإفراطها في الصداقة مع الصين، «إن الجمعية الوطنية [الفرنسية] كانت طوال قرنين تجسيد للكفاح من أجل حقوق الإنسان»، وهذه مشاعر تشبه تماماً المشاعر التي عبر عنها كونغرس الولايات المتحدة، وفي الحالين، أثار هذا الشعور، فييتنام من بين دولِ أخرى(72).

كان ديغول يُعبّر بحق عن إيمانٍ فرنسيٍ عميق الامتداد من أن فرنسا قد اختارتها العناية الإلهية ليكون لها «قدرٌ بارزٌ ومتميز». لا يزال هذا الاعتقاد سائداً، لكن بشكل أقل، بين النخب الفرنسية، مع أن استطلاع الرأي الذي ذكرناه في بداية هذا الفصل يشير إلى أنه في بداية القرن الحادي والعشرين، فإن الشعور القومي بين الجماهير الفرنسية هو أقل منه بروزاً مما في الولايات المتحدة. بحسب إدغار كوينيت، لدى فرنسا فقط «غريزة الحضارة والحاجة لأخذ المبادرة بصورة عامة لاستخلاص التقدم في المجتمع المعاصر... هذه الحاجة غير المبالية بالمصلحة لكن الملحّة... هي ما يجعل فرنسا موحّدة، وتضفي المعنى على تاريخها، وتعطي الروح لهذه البلاد»(73).

مثل هذه المشاعر لا تزال موجودة بدرجة ما ليس في فرنسا وحسب، بل أيضاً في أوروبا الغربية بشكل أكثر سعة، لكن مع اختلاف جوهري عن طبيعتها في الولايات المتحدة المعاصرة. يكمن هذا الاختلاف في واقع أنه منذ الحرب العالمية الثانية فصلت هذه

---

(72) ورد في: *Financial Times*, 28/1/2004.

(73) ذكـر فـي: Zeldin, *France, 1848-1945*, p. 9, and Jules Michelet, *The People*, Translated with an Introd. by John P. McKay, Illini Book (Urbana: University of Illinois Press, [1973]), pp. 93-94.

المشاعر نفسها عن الصور الذاتية للأمم وربطت نفسها بـ«المشروع الأوروبي» بشكل عام، كما يعبر عنه الاتحاد الأوروبي والكيانات التي سبقته.

في التزامها المعلن بنشر الديمقراطية وحقوق الإنسان والتطور، تتشابه المجموعة الأوروبية مع الولايات المتحدة إلى حدٍ ما، وهي أخذت على عاتقها بعض سمات «المهمة التمدينية» السابقة لدولها ذات الإمبراطوريات السابقة. لكن بالاختلاف عن الولايات المتحدة، كان الجزء المركزي من هذه المهمة هو بالذات التغلب على مهمات القوميات المختلفة الأخرى والتفوق عليها. إذ كان ذلك هو أهم سبب للبدء بالمشروع الأوروبي: لضمان عدم تكرار النزاعات القومية الكارثية التي هزت أوروبا في الماضي: «لقد فعل الأوروبيون ما لم يفعله أحد قبلهم: خلقوا منطقة سلام حيث ألغيت الحروب كلياً. لقد اقتنع الأوروبيون أن هذا النموذج صالح لأجزاء أخرى في العالم»[74].

وأغرقت فرنسا في الاتحاد الأوروبي والمشروع الأوروبي الجزء الأعظم من مشاعرها القديمة حول **المهمة التمدينية** وطموحها في أن تكون قوة عظمى. كان لهذا سببان: **الأول** هو الضعف المحض، **والثاني** هو أنه في ما يتعلق بالتدخلات أحادية الجانب وواسعة النطاق في العالم غير الأوروبي، فقد استُنزف هذا الشعور إلى حد كبير، في أتون الحروب من عام 1946 لغاية عام 1954 في الهند الصينية، ومن عام 1954 لغاية عام 1963 في الجزائر.

وهكذا، فإن تجربة العديد من البلدان الأوروبية التي غالباً ما كانت دموية وفوضوية وطاردة للأوهام، حيال عملية نزع الاستعمار،

---

(74) Karl Kaiser, Quoted in: Ash, «Anti-Europeanism in America».

وفشل عملية الدمقرطة والتمييز في المستعمرات السابقة، قد أعطت حصانة كبيرة تجاه الأشكال الأكثر تفاؤلاً وعنفاً لشعار «المهمة التمدينية». كانت النتيجة الاقتناع بأن إمكانية نشر الحضارة بقوة السلاح وتسويغها هي أقل حضوراً في أوروبا منها في الولايات المتحدة بالرغم من أنها صارت تنمو في السنوات القليلة الماضية نتيجة الفشل الأوروبي المخجل والكارثي لمنع الحروب والفظائع في يوغوسلافيا السابقة بين عامي 1991 ـ 1995. لكن حين صح برنامج قوي للتنمية يدعمه وجود القوة، ومن دون سيطرة الولايات المتحدة، لا تزال التخوم القريبة من المجموعة الأوروبية في البلقان هي حدود الطموحات الأوروبية.

الأطروحة والأطروحة المضادة

ثمة طريقة أخرى تقدم فيها فرنسا موقفاً موازياً مهماً له السمات الجوهرية نفسها للقومية الأمريكية: وهو الفصل التاريخي والاختلاف الكبير والمتعارض غالباً بين التيارات الأيديولوجية والثقافية. إذ بسبب الاضطرابات السياسية والأيديولوجية التي ضربت فرنسا مراراً بين عامي 1789 و1958 فقد تحددت هذه التيارات المختلفة بوضوح وجذرية أكثر مما حصل في الولايات المتحدة، مع أنهما يتشابهان بطريقة ما.

منذ عام 1789 امتلكت فرنسا، مثل الولايات المتحدة، ما يمكن تسميته أيديولوجية قومية، أو عقيدة: أطروحة قومية للمواطنة، تمثل الصورة التي قدمتها فرنسا لمواطنيها وللعالم، بالرغم من أنها، بخلاف الولايات المتحدة، لم تكن مشتركة بين الشعب الفرنسي كله حتى في العلن. ما أعنيه هو تقاليد القيم الجوهرية للثورة الفرنسية، التي اندمجت لاحقاً بدرجة أكبر أو أقل مع البونابرتية والجمهوريات

الفرنسية المتلاحقة: سيادة الشعب (حتى لو جرى التعبير عنها على شكل ملكيات بالاستفتاء أو بأي صيغة أخرى للقيادة)، «حقوق الإنسان» والمساواة أمام القانون، والعلمانية و«فرص العمل المفتوحة أمام المواهب»[75].

صارت هذه المبادئ مركزيةً وسمةً مهيمنةً للقومية الفرنسية: أكان ذلك بالنسبة للمفهوم الفرنسي الرسمي عن المهمة الكونية، أم لمفهوم الهوية الفرنسية والمواطنة في الداخل والمتجذرة بالولاء للدولة الفرنسية، وليس للعرق أو الدين. كانت النتيجة، أن ظلت فرنسا لمدة طويلة من أكثر المجتمعات انفتاحاً في أوروبا (باستثناء روسيا) في ما يتعلق باندماج الأجانب[76]. لكن لا بد من ملاحظة أن هذا الانفتاح كان يهدف إلى خلق الاندماج، وليس من باب التسامح. وكما في الولايات المتحدة، ولأن الغرباء يمكن أن يصبحوا فرنسيين، فقد كان متوقعاً منهم أن يصيروا فرنسيين.

سبقت فرنسا دول أوروبا بسنوات في تحرير الأقلية اليهودية، ولكن مع النية الواضحة التي أعلن عنها نابليون، في أن يندمجوا مع جماهير الشعب الفرنسي. كان هذا نهجاً يختلف كلياً مع نهج بريطانيا مثلاً الذي كان أكثر بطئاً في منح حقوق كاملة للأقليات الدينية، لكنه أكثر تسامحاً مع الاختلافات الثقافية. في العقود الأخيرة عاد هذا التوتر للبروز في ما يخص الأقلية الفرنسية المسلمة، وكان رمز ذلك القرار المثير للجدل عام 2003 بمنع الفتيات المسلمات من ارتداء

---

(75) انظر: Hulliung, *Citizens and Citoyens: Republicans and Liberals in America and France*, pp. 162 ff.

(76) انظر: Brubaker, *Citizenship and Nationhood in France and Germany*, pp. 7-8, 13-14 and 35-49.

الحجاب في المدارس، على أساس مبدأ أن دور نظام التعليم الحكومي هو المحافظة على قيم الجمهورية في العلمانية والاندماج(77). بالتالي فالقومية الوطنية الفرنسية تعني الاندماج وليس التنوع. وكما سنرى فإن ذلك يصح أيضاً على القومية الوطنية الأمريكية.

لقد أضمرت الولايات المتحدة، مثل فرنسا ميولاً سياسية وثقافية وأيديولوجية تناقض بوضوح «الأطروحة» الفرنسية. هذه الميول تمثلت بأوضح أشكالها بالرفض طويل الأمد للقوى المحافظة والكاثوليكية في القرن التاسع عشر في قبول الجمهورية الفرنسية والقيم التي تأسست بموجبها. لكن كما في الولايات المتحدة، فإن استمرارية الولاء السياسي ليست سمة مركزية لهذه «الجدلية». آخر البقايا المخففة للملكية الفرنسية ظهرت في الولاء لجمهورية ديغول الخامسة، وكانت الكنيسة الكاثوليكية قد تسالمت منذ وقت طويل مع الجمهورية والديمقراطية. فضلاً عن ذلك، ولمدة تاريخية طويلة، اندمج حتى اليمين المتطرف الفرنسي بشكل واسع مع التيار الرئيسي ليمين الوسط.

لذلك، فإنه سيكون من الخطأ وضع خط سياسي مستقيم من أي نوع يصل بين المعادين للثورة من أنصار الملكية (Chouans of the Vandee) (ثورة فلاحي منطقة الفانديه الذين نشطوا خلال سنوات 1790)، والجبهة القومية التي يقودها جان ماري لوبين في بدايات القرن الحادي والعشرين. من المؤكد، وكما أكد هانز روجر، ولأسباب تاريخية ودولية ولكون اليمين كان ميالاً على الدوام للتشكل

---

(77) Johannes Willms, «France Unveiled: Making Muslims into Citizens?,» (26 February 2004), www.opendemocracy.net.

من جماعات أو حركات عاطفية أكثر منها أيديولوجية رسمية، فإن «الخلافات داخل اليمين تبدو أكثر وضوحاً للعيان من خلافات اليسار، ولهذا السبب يكون من الصعب التعميم بشأن اليمين، وللتوصل إلى تعريفات صالحة عالمياً»[78].

بالأحرى، يمكن للمرء أن يرى استمراريةً في المشاعر التي تأخذ أشكالاً سياسية مختلفة بمرور الأجيال. أكدت هذه الميول هوية فرنسية قومية مبنية على الأيديولوجية العلمانية لكن على أساس عرقي ثقافي مغلق إلى حد ما. ولمدة طويلة كان هذا يعني الالتزام بالكاثوليكية، ثم صارت ولعقود عدة تبدأ في أواخر القرن التاسع عشر، ووصلت إلى ذروتها في مرحلة فيشي، معادية للسامية، أما اليوم، فإنها تعني قبل أي شيء آخر، أن يكون المرء أبيض، يتحدث الفرنسية بطلاقة وليس مسلماً. وهي في العموم مغالية في عدائها لنخب باريس من حكومة ورجال أعمال ومثقفين، وبالتأكيد معادية لباريس نفسها، بسكانها المتنوعّي الأعراق وثقافتها المعاصرة (حتى لو كان قادة هذا التيار وأيديولوجيوه من المثقفين الباريسيين).

في أمريكا، وكما كتب والتر رسل ميد من مجلس العلاقات الخارجية، فإن «الاقتناع بأن جوهر القومية الأمريكية يكمن في الالتزام بالمبادئ الكونية هو في حال حرب دائمة مع فكرة أن أمريكا هي ملك للشعب الأمريكي وحده وأنه يجب الدفاع عنها ضد تأثيرات الأغراب بدلاً من التشارك بها مع الإنسانية»[79].

---

(78) Hans Rogger and Eugen Weber, eds., *The European Right a Historical Profile* (Berkley: University of California Press, 1974), p. 579.

(79) Walter Russell Meade, «The Jacksonian Tradition,» *National Interest*, no. 58 (Winter 1999 - 2000).

كان هذا الإيمان صحيحاً إلى حد ما بالنسبة لفرنسا. لكنه مثل كل الميول من هذا الصنف، فإن هذه التقاليد في الولايات المتحدة كما في فرنسا قد وجدت أنها تمثل البلد الحقيقي (Pays réel)، أي الأمة الخالدة، الحقيقية والأصيلة، مقابل البلد القانوني (Pays légale)، للنخب الحكومية والثقافية، وهذا نوع من التفكير المجحف كثيراً ما راق لسياسيي الجناح اليميني الأمريكي في نقدهم اللاذع لواشنطن[80]. وكما أمثاله من القومية المحافظة في أوروبا، فإن هذا الميل الفرنسي يعادي بقوة روحية الاتحاد الأوروبي والعولمة، حيث ينظر إلى كليهما مشاريع نخب ترى العالم كله موطناً لها، وأنها معادية لمصالح الشعب الفرنسي العادي، «الحقيقي». كان الموطن الطبيعي لهذه الميول في الماضي هو الأرستقراطية التقليدية وبعض أجزاء البرجوازية الصغيرة والمزارعين. أما اليوم فهي تشمل العديد من العمال، وغالباً الشيوعيين السابقين منهم.

وكما أنه يمكن رؤية جذور الشعور الفرنسي بمهمته ما فوق القومية على أنه نبع قبل مدة طويلة من الثورة الفرنسية، كذلك فإن جذر هذا الميل إلى الأطروحة المضادة يمكن إرجاعه إلى المقاومة الريفية لا إلى الثورة الفرنسية وحدها، لكن أيضاً ضد المحاولات السابقة للمركزية الملكية، والتنميط، والخدمة العسكرية الإلزامية وفرض الضرائب. هنا أيضاً ثمة توازٍ مع عالم «الأطروحة المضادة» في الولايات المتحدة.

إن انعدام الثقة العميق بـ«الحكومة» والذي يتسم به الكثير من الأمريكيين، كان يُعتقد أنه راجعٌ عموماً إلى تقاليد الفردانية التي سادت تخوم أمريكا، بحسب المؤرخ الأمريكي العظيم فردريك

(80) Rogger and Weber, eds., Ibid., p. 24.

جاكسن ترنر (1861 ـ 1932)، وهذا بالطبع صحيح. ومع ذلك فإن انعدام الثقة هذا يجسّد أيضاً عوامل خشية المزارعين الأوروبيين القديمة من سلطة الدولة التي كانت تبدو للمزارعين في أوروبا القديمة، كما في كثير من «العالم النامي» في هذه الأيام، أنها تتمثل في جباة الضرائب الفاسدين، ورجال الشرطة القساة، وعرفاء التجنيد الإلزامي، والجيوش التي تقوم بالاغتصاب والنهب (حتى جيوش البلد نفسه)، وهؤلاء جميعهم كانوا يتحدثون بلغاتٍ أجنبية أو لهجاتٍ غريبة. ثمة طريقة للنظر إلى عنف السكان الفرداني والمعادي للدولة في بعض أجزاء أمريكا النظرة نفسها لمزارعي أوروبا التقليدية الذين كانوا يفرون إلى الغابات والجبال هرباً من مطالب الدولة. لكنهم في حال أمريكا قد هربوا إلى مسافةٍ أبعد.

هذه الميول «للأطروحة المضادة» في فرنسا كان لها ميل طبيعي للخروج إلى السطح في أزمنة الركود الاقتصادي، وحين تصاب فرنسا بالهزيمة والإهانة، أو حين يسود الشعور بأنها في طريق الانحطاط. ظهرت هذه الحال في فرنسا بعد هزيمتها أمام بروسيا في حرب 1870 ـ 1871، وكانت ذروتها في قضية دريفوس[81]. عام 1872 تنكّر سولي برودوم (Sully Prudhomme) لإيمانه السابق بالأممية شعراً: «كتبت مع شيللر: / أنا مواطن عالمي، . . ./ لكنني تبت أخيراً/ من حبي المنحرف./ من الآن فصاعداً سيكون حبي/ لبلدي وحسب./ لأولئك الرجال الذين خنتهم/ من خلال حبي للجنس البشري»[82].

---

(81) Magraw, *France, 1815-1914: The Bourgeois Century*, pp. 255-284; Cobban, *A History of Modern France. Vol. 3, France of the Republics, 1871-1962*, pp. 48-57 and 86-91 etc., and Anthony D. Smith, *Nationalism: Theory, Ideology, History*, Key Concepts (Malden, MA: Polity Press, 2001), pp. 128-129.

(82) «Je m'ecrirais avec Schiller:/ Je suis citoyen du monde.../ De mes =

خدث هذا التحول نحو الأطروحة المضادة مرة أخرى بطريقة أكثر مأساوية مع لم الشمل العام للماريشال بيتان ونظامه في فيشي بعد هزيمة فرنسا عام 1940. كانت المرة الأخيرة التي هدد فيها الدولة أو غيّرها إلى المرحلة الراهنة، كانت في الخمسينات، مع هزيمة فرنسا في الهند الصينية ومستنقع الجزائر. لكن، وكما تؤشر تزايد شعبية حركة لوبين، فإنه من المؤكد تماماً أن مزيجاً من الركود الاقتصادي والهجرة والإرهاب لن يمكنه مرة أخرى مضاعفة شوفينية فرنسا والفاشية فيها لتصل إلى مستويات خطرة بحق في المستقبل.

واليوم، فإن هذا الميل القومي في فرنسا، مثله في ذلك مثل بقية الحركات المشابهة في أوروبا الغربية، هو في موقف دفاعي تماماً، بل «وانعزالي» إلى حد ما. إنه يتركز على الدفاع عن الثقافة القومية والعرقية «التقليدية» (أي، وكما في الولايات المتحدة، المزيج العرقي القائم حالياً والموروث جزئياً من أجيال أقدم من المهاجرين) ضد الهجرة الجديدة، والأشكال الجديدة من الثقافة والأنماط الاقتصادية الجديدة. هذا الصنف من القومية يلقي بظلاله بسهولة على الأشكال المختلفة لعنف «ذوي الرؤوس الحليقة».

لكن وحتى هذا العنف، فإنه يتم في آن معاً تصوّره وعيشه، من قبل معارضيه على أنه ليس من باب الاعتداء أو الرغبة في التوسع، بل من باب الدفاع عن المصالح الحيوية الجمعية: استخدام وسائل العنف الشديد دفاعاً عن جوهر المجتمع القومي مثل الوظائف،

---

tendresses detournées/ Je me suis enfin repenti/ Ces tendresses je les ramène/ = étroitement sur mon pays/ Sur les hommes que j'ai trahis/ Par amour de l'espèce humaine». Sully Prudhomme, Extracted in: Girardet, ed., *Le Nationalisme français, 1871-1914*, p. 50.

[وهو غير برودون (Proudhon) (المترجم)].

«القانون والنظام»، وغير ذلك من الغرباء. إن «حليقي الرؤوس» الأوروبيين وغيرهم من المتطرفين الشوفينيين لا يحلمون بالمسير قدماً لاستعادة برسلاو لألمانيا، أو لفوف لبولندا. هذا الغياب لنية التوسع والتوحيد على النمط القديم يعكس ليس الثقافة والأيديولوجيا المعاصرة والواقع الدولي الراهن وحسب، بل يعكس أيضاً الحذر والذكريات التاريخية القوية والمريرة التي هزت المجتمع الأوروبي. وضرب المهاجرين في زوايا الشوارع هو أقل خطورة من التوجه إلى القتال في الحرب.

في الوقت الراهن، يبدو من غير المحتمل أن تصل هذه الأطروحة الفرنسية المضادة إلى استلام السلطة، في الأقل خلال السنوات القليلة المقبلة. ثمة مثال آخر يثير الفضول عن أطروحة قومية مضادة نجحت في هذا السياق هو المثال الهندي. هنا أيضاً، كما في فرنسا والولايات المتحدة، وضعت الدولة الهندية والنخبة فيها بعد عام 1947 أطروحتها القومية المحلية، ترعرعت هذه الأطروحة في ظل حكم إمبريالي أجنبي، لكن أغلب محتواها كان مشابهاً: الهند ديمقراطية علمانية، ومن المؤكد أنها «أوسع بلد ديمقراطي في العالم»، وملتزمة بالتقدم وحقوق الإنسان، وتمنح حقوقاً وفرصاً متساوية لجميع مواطنيها. بعد ثلاثة عقود تلت الاستقلال، ارتبط بشكل وثيق مع هذه العقيدة المدنية الهندية وجود شكل من الاقتصاد الاشتراكي المعتدل وغير الشمولي. على الصعيد الدولي ارتبطت هذه الفلسفة الاقتصادية مع الرغبة في تقديم نموذج للقيادة المتنورة إلى عالم المستعمرات السابق في صراعه مع الهيمنة الغربية والاستعمار الجديد.

ارتبطت القومية الديمقراطية المدنية أكثر من أي شيء آخر مع جواهر لال نهرو وحزب المؤتمر الذي كان يقوده (والذي تقوده اليوم أرملة حفيده التي تمثل نموذجاً لانفتاح هذه التقاليد، إذ هي إيطالية

المولد). مع ذلك، ومنذ البداية، حتى حزب المؤتمر حوى عوامل مضادة للأطروحة القومية على أساس فكرة أن الهند ليست كياناً مدنياً، بل كيان ديني وثقافي وإلى حدٍ ما مجتمع عرقي. خارج حزب المؤتمر، كان ثمة تنويع أكثر تطرفاً تمثله مجموعات سياسية هندوسية، فيها مسحةٌ من القناعات والأنماط التنظيمية الفاشية. تجمعت هذه المجموعات لتشكل حزب بهاراتيا جاناتا، **BJP** (بي جي بي).

وكما في الأطروحة القومية المضادة، الفرنسية والأمريكية، فإن هذه التقاليد القومية ترفض الانفتاح والكونية التي مثلتها العقيدة القومية المدنية لنهرو لصالح رؤية للهند بوصفها مجتمعاً ثقافياً مغلقاً، فهي في هذه الحال مجتمع هندوسي. وهي تقصي بالتالي، ضمناً أو مباشرة، المسلمين، والهندوس والمسيحيين، وغيرهم، من الأمة الهندية السياسية «الحقيقية». ولكن هذه الحركة تختلف عن الحركات المثيلة لها، إذ هي صارت ملتزمة بالنمو الاقتصادي المعاصر وبالانفتاح (يعود ذلك إلى حد بعيد لرغبتها في منافسة الصين على دور القوة الأكبر في آسيا)، وصارت تتمتع بتأييد واسع النطاق بين الشتات الهندي، خصوصاً في الولايات المتحدة: لكنها تكره كثيراً النخب الهندية في الداخل المولعة بالعلمانية والتشبه بالغرب. ومثل الميول المضادة في فرنسا والولايات المتحدة في الماضي، فإنها يمكن أن تكون شديدة العنف في تعاملها مع الأقليات، إذ ترى فيهم تهديداً لمصالح المجتمع «الجوهري» والسيطرة عليه. هذا الحد من العنف تمثّل في تاريخ طويل من أحداث الشغب الدموية والمذابح ضد الأقليات[83].

(83) حول قوة مثل هذه المشاعر بين الشتات الهندي في الغرب، انظر الهجمات الغاضبة على المؤرخين الغربيين للهند لما يزعمون أنه «تشويه» للهندوسية ودور الهندوس في =

كما هي الحال مع نظرائهم في الولايات المتحدة وعبر السنوات، توصل القوميون الهندوس إلى الأخذ بعناصر لا يستهان بها من القومية المدنية الهندية. تشمل هذه العناصر ما يبدو أنه صار ارتباطاً صادقاً مع الممارسة الديمقراطية الأساسية، بالرغم من كونها نمطاً هندياً من ديمقراطية العرق المتفوق (Herrenvolk)، على شكل حكم المجموعة الدينية المهيمنة أكثر من حكم العرق أو السلالة. هذا الاندماج الجزئي بين القومية المدنية والدينية لم يكن صحيحاً في زمن الاستقلال. توصل قادة BJP (بي جي بي) في العقود التي تلت إلى الاعتراف بأن الديمقراطية، أو في الأقل الدستورية، هي النظام الوحيد الذي يحافظ على وحدة بلد مثل الهند. كما رأوا أن وضع الهند كدولة ديمقراطية يشكل جزءاً مكملاً لعظمة الهند القومية التي يفتخرون بها كثيراً، وكذلك للتفوق الهندي على باكستان التي يكرهونها، وعلى الصين التي يخشونها.

الشبه الثاني مع الولايات المتحدة هو العلاقة المعقدة بين التقاليد والأعراق. تظل جذور حزب BJP أساساً بين المتحدثين باللغة الهندية من هندوس شمال الهند، وهم على الأغلب من الطبقات العليا والمتوسطة. لكن بعد محاولات واهنة لجعل «الهندية» هي اللغة الوطنية، تم التخلي عن المحاولة في وجه المعارضة الصلبة من المناطق الجنوبية من الهند، ويبدو الآن أن حزب BJP قد استقر به الحال على رؤية للهند أساسها قومية هندوسية ديمقراطية، ونجاح اقتصادي وفخر عسكري. بالتالي فليس في قومية الهند عامل عرقي، ما يبين الأهمية المحدودة لنماذج القومية المشتقة من القوميات

= تاريخ الهند، في: Shankar Vedantam, «Wrath Over a Hindu God,» *Washington Post*, 10/4/2003.

العرقية «التقليدية» التي سادت أوروبا الوسطى، لدراسة معظم بقية أرجاء العالم.

إن المقارنة مع الهند هي مقارنة تثير الاهتمام، لأنها تصل إلى لب التشابهات والاختلافات بين قومية الجناح اليميني في الولايات المتحدة والحركات القومية الراديكالية والمحافظين الراديكاليين في كل مكان آخر، سواء في الماضي أم الحاضر. النقطة المركزية هنا ترتبط بما هو «متميز» في التزام اليمين الأمريكي بالديمقراطية، وهي ليست بالضرورة ديمقراطية «ليبرالية» أو «تنوعية»، إلا أنها على الأقل تتمثل بوجود مؤسسات الديمقراطية وأشكالها بدلاً من الدكتاتورية.

من ديمقراطية العرق المتفوق إلى الإمبراطورية الحضارية

أدى الالتزام بالمبادئ الكونية والديمقراطية في العقيدة الأمريكية دوراً مركزياً في قدرة أمريكا على تجاوز ماضيها في التمييز العنصري وتحويل نفسها من ديمقراطية العرق المتفوق المبنية على قواعد متصلبة وقاسية وجائرة من الفصل العنصري والتفوق، إلى «إمبراطورية حضارية» عظيمة.

كان لكل الرؤى الأوروبية القديمة إلى المهمات العظيمة وفرض الدعوة على الجميع صورة نمطية معينة: صورة الإمبراطورية الرومانية. وكان لهذه الصورة أيضاً تاريخ طويل في الفكر الأمريكي، الذي انتشر بشكل كبير بالنقاش العام في الولايات المتحدة نتيجة بروز أمريكا بوصفها الدولة العظمى الوحيدة في العالم[84]. ومثل الصين والخلافة الإسلامية المبكرة، لم يقتصر دور روما على توحيد

---

(84) للمقارنة عما كان عليه الحال خلال الخمسينات، انظر: Lerner, *America as a Civilization; Life and Thought in the United States Today*, pp. 934-938.

العديد من الأعراق تحت سيطرة لغة وثقافة واحدة، بل ظل تراثها يغني تاريخ أوروبا وسماتها بعد مرور مدة طويلة على موت الإمبراطورية نفسها. لم تكن هذه الإمبراطوريات مجرد دولٍ بل حضارات كاملة، سمت فوق الاختلافات العرقية والعنصرية في داخل حدودها، وعكست تأثيرها الثقافي إلى مديات أبعد بكثير من حدودها في الزمان والمكان.

وبوصفها من الإمبراطوريات الحضارية، فإنه يجب تمييزها عن الإمبراطوريات العسكرية مثل المغول، وعن إمبراطوريات العرق المتفوق لأوروبا عبر البحار، والتي لا يُشك في تأثيرها التغييري في العديد من الثقافات والمجتمعات، في الوقت نفسه الذي اتسمت فيه بكونها ترسم خطاً حاداً وقاسياً بين أعراق السادة الأوروبيين والرعايا التابعين لهم من ذوي السحنات السمر. وكان الطموح السوفياتي أيضاً يهدف إلى خلق إمبراطورية حضارية: خلق صنف جديد من الإنسان المتمدّن، متعدد الأعراق في أصوله، لكنه يتحدث لغةً واحدةً وتربطه ثقافة واحدة سوف تنتشر بدورها إلى ما وراء حدود الاتحاد السوفياتي لتؤثر في الجنس البشري كله.

أضفت ضخامة حجم مساحة الولايات المتحدة وديناميكيتها الاقتصادية وقدرتها على دمج أعداد كبيرة من المهاجرين الغرباء (البيض) للانضمام لعقيدتها وثقافتها، على الولايات المتحدة السمات الخاصة بمثل هذه الإمبراطوريات داخل أراضيها. وكما صرّح القاضي أوليفر ويندل هولمز في بدايات القرن العشرين، «نحن رومان العالم المعاصر، والشعب العظيم في قدرته على الاستيعاب»[85].

---

(85) ذكر في: Hans Kohn, *American Nationalism; an Interpretative Essay* (New York: Macmillan, 1957), p. 133.

أما خارج حدودها فقد خلق النجاح الاقتصادي الهائل للولايات المتحدة، وحيوية ثقافتها، صيغة شكلية لمثل هكذا إمبراطورية حضارية. ويظهر هذا في كيف أن الإعجاب بالولايات المتحدة ساهم في تلغيم الإيمان بالشيوعية والاتحاد السوفياتي بين النخب الشابة لروسيا في أواخر الثمانينيات وأوائل تسعينات القرن العشرين. أما من حيث القدرة على امتداد نفوذها «الصلب» و«اللين» مثل الأساطيل الأمريكية واللغة الأمريكية والأطعمة الأمريكية، والثقافة الشعبية الأمريكية والنمط الاقتصادي الأمريكي، فقد صارت الولايات المتحدة اليوم وبشكل مؤكد نظيراً للإمبراطوريات الحضارية الماضية.

في الماضي، كان التمييز العنصري قد أعاق طموح الولايات المتحدة في أداء دور الإمبراطورية الحضارية، وهذه حقيقة يعترف بها العديد من الأمريكان، حتى لو لم يتحدثوا بصيغ إمبراطورية. إن التمييز العنصري الحاد والجنوبي تحديداً الذي اتسم به الرئيس وودرو ولسون، مثلاً، قد عرّض للخطر على سبيل المثال خطه الليبرالي الأممي في أعين اليابانيين والعديد من الشعوب غير البيضاء في العالم، سواء في زمانه أم منذ ذلك الحين[86]. وكما كتب عالم اللاهوت والأخلاق والسياسة المفكر الأمريكي رينولد نيبور (1892 ـ 1971) عام 1943، «لا يتناسب غرورنا العرقي مع مسؤولياتنا في المجتمع الدولي. إن لم ننجح في تشذيبه، فسوف نفشل في مهمتنا». كما كان الدافع الجزئي وراء كتاب غونار ميردال الصادر عام 1944 بعنوان **المأزق الأمريكي** (*American Dilemma*) هو القلق من الطريقة التي أدى فيها التمييز العنصري المحلي إلى إضعاف

---

(86) McDougall, *Promised Land, Crusader State: The American Encounter with the World Since 1776*, p. 126.

الصراع الأمريكي ضد الشمولية[87].

خلال السنوات المبكرة من الحرب الباردة، فإن الاعتراف بأن الطريقة التي يعامل بها السود في الداخل قد أدّت إلى إضعاف نفوذ الولايات المتحدة وتأثيرها في الصراع مع الشيوعية كان عاملاً مهماً في اتخاذ النخبة القومية للولايات المتحدة القرارات التي ألغت الجانب العلني من هذا التمييز العنصري خلال الخمسينات والستينات[88]. قبل هذا بوقت طويل، كان الرئيس إبراهام لينكولن قد حذّر من أن نظام العبودية يضعف مهمة أمريكا الديمقراطية في العالم من خلال تعريض الأمة لتهمة الرياء[89].

لدى مقارنة الولايات المتحدة المعاصرة مع غيرها من الإمبراطوريات العظمى في الماضي، من المهم جداً التمييز بين التمييز العنصري والتحيّز الثقافي. وفي الصين كان «الهان» يحملون أقسى تحيّز ضد «البرابرة» داخل حدودهم وخارجها، لكن هذا التحيّز انتهى حين تعلّم «البرابرة» اللغة الصينية وتشرّبوا ثقافتها، وتبنّوا الأيديولوجية الرسمية وهي الكونفشيوسية (في حال أرادوا

---

(87) Reinhold Niebuhr: «Anglo-Saxon Destiny and Responsibility,» *Christianity and Crisis*, vol. 3, no. 16 (October 1943), and «Anglo-Saxon Destiny and Responsibility,» in: Cherry, ed., *God's New Israel: Religious Interpretations of American Destiny*, pp. 296-300; Gunnar Myrdal, *An American Dilemma; the Negro Problem and Modern Democracy* (New York: Harper, 1944), pp. 1018-1024, and Eric Foner, *Who Owns History?: Rethinking the Past in a Changing World* (New York: Hill and Wang; Farrar, Straus and Giroux, 2002), pp. 65-68.

(88) Lind, *The Next American Nation: The New Nationalism and the Fourth American Revolution*, pp. 105 ff., and Francis Butler Simkins and Charles Pierce Roland, *A History of the South*, 4th ed. (New York: Knopf, [1972]), pp. 588 ff.

(89) Foner, Ibid., p. 61.

الانتماء إلى النخبة)، وبالتالي صاروا صينيين. إذ إنه من المتطلبات الجوهرية للإمبراطورية الحضارية، الرغبة في استبدال مؤهلات العضوية المبنية على أساس الأصل العرقي والسلالة بتلك المؤسسة على اللغة والعقيدة والثقافة: وهو ما حققته رسمياً الإمبراطورية الرومانية بَمنح حق المواطنة لجميع رعاياها الأحرار عام 212 م.

وعلى العكس من السود وسكان أمريكا الأصليين، أو الصينيين بأمريكا في الماضي (وبالطبع في الإمبراطوريات الأوروبية الغربية عبر البحار) فقد تمكن البرابرة على الدوام من الاندماج مع النخب في الإمبراطوريات الشرقية العظمى في آسيا. من هنا برزت حقيقة أن العديد من الأسماء العظيمة بين الأرستقراطية الروسية هي أسماء ذات أصول تترية أو شركسية مثل: يوسوبوف، ونابوكوف، وكوتشوبيه، وتورغينيف. وبالطبع فقد كان لينين من أصول هي مزيج عرقي متنوع، لكنهم كانوا جميعاً روس ثقافياً ويتحدثون اللغة الروسية. وقد كان رئيس وزراء الصين الذي قاد ثورة 755م. التي هزت عرش سلالة تانغ، آن لو شان، من أصل تركي من آسيا الوسطى. ومن بين أعظم شعراء مرحلة سلالة تانغ، فإن الشاعر لي بو، كان على الأغلب من أصل تركي»[90].

(90) *Li Po and Tu Fu*, Poems Selected and Translated with an Introd. and Notes by Arthur Cooper; Chinese Calligraphy by Shui Chien-Tung, Penguin Classics ([Harmondsworth, Eng.]: Penguin Books, [1973]), pp. 24-26.

ومثل الإمبراطورية الروسية امتلكت السلالات الصينية مجموعات عرقية من أشباه المنبوذين لهم أدوار اجتماعية محددة بصرامة وغالباً ما يعملون في صناعات التسلية والجنس، في روسيا كان هؤلاء هم الغجر، في الصين بعهد تانغ كانوا التانكا (Tanka) وهم من سلالة قبائل تقع عند التخوم الجنوبية. اليهود في روسيا كان لهم أيضاً أدوار اجتماعية-اقتصادية معينة، وجرت محاولات لقمعهم حين حاولوا التخلص من هذه الأدوار وخارج الحدود الجغرافية التي حاولت الدولة حصرهم داخلها.

كان من المستحيل، ببساطة، في تلك الدول، تطبيق مبدأ أن «قطرة دم واحدة» تجعلك أسود، وبالتالي تهمشّك بغض النظر عن مستوى تعليمك، ملكيتك، قدراتك القتالية، أو حتى جمالك، تجعلك مستبعداً من المجتمع أو يحرمك من التزاوج مع أبناء الشعب المهيمن وطبقاته الحاكمة. هذا أيضاً ما كانت عليه مجموعة القواعد العرقية الهولندية المعقدة في مستعمرات جافا، ونيو أورليانز، والبرازيل، أو جزر الهند الغربية (ربع زنجي (quadroon)، سدس زنجي (octaroon)، أسمر ضارب إلى الصفرة (mulatto) ـ وتعني الخلاسي ـ وغيرها). إن مثل هذه القواعد كان سيجعل توسع هذه الإمبراطوريات أمراً مستحيلاً. (ولكي نكون أكثر إنصافاً فإن الاختلافات الثقافية بين الصينيين الهان والمياو، أو بين الروس والبشكيريين، كانت أقل بكثير من الاختلافات بين الأمريكان البيض والهنود الأمريكان أو السود الحديثي الاستعباد)[91].

أدخلت هذه الإمبراطوريات الحضارية إلى نخبها أي شخص تقبّل ثقافتها، لكنها بقيت على عداء شديد مع المجموعات الداخلية التي رفضت هذه الثقافة، أو تسللت إليها لتدميرها خدمة لأغراضها القومية الخاصة، مثل اليهود في روسيا. ومثلما يحدث في الولايات المتحدة اليوم، فقد كانت هذه الإمبراطوريات معادية جداً بالطبع للشعوب «البربرية» في الخارج التي ترفض ثقافتها. من المؤكد أن الهوية الرسمية وأيديولوجيا هذه الإمبراطوريات قد بنيت بشكل واسع حول التمييز بين أنفسهم و«الآخر» البربري.

---

(91) في ما يتعلق بالاختلاف بين النظام الأمريكي في الفصل الصارم والخضوع بالنسبة لذوي «قطرة دم واحدة» عن النظام الأكثر تعقيداً وتسامحاً نسبياً للتمييز العرقي في البرازيل، انظر: George M. Fredrickson, «The Strange Death of Segregation,» *New York Review of Books*, vol. 46, no. 8 (May 1999).

تتكيّف النخب الرسمية في أمريكا اليوم بشكل وثيق مع هذا النمط التاريخي للتنوع العرقي الحقيقي، وذلك بالتزاوج مع امتثال ثقافي عميق في بعض الجوانب الحاسمة: عبادة العقيدة والآلهة الرسميين للإمبراطورية. هكذا فإن مقدمي البرامج في CNN يجري اختيارهم بحسب تنوعهم العرقي، لكنهم ليسوا متنوعين إلا في لون جلودهم وحسب. إنهم يمثلون التقدم الحقيقي في المساواة بالصيغ العرقية الظاهرية، وبالتأكيد ليس في الثقافة أو حتى في المعنى الحقيقي للعرقية. حضورهم هو إحتفاء بالمنجز الحضاري لأمريكا، وهذا هو المقصود منه، بشكل واعٍ أو غير واعٍ.

خلال الجيلين الماضيين تحققت تغيرات إيجابية كبيرة في هذا الخصوص في الولايات المتحدة. المثال اللافت هو السلوك العام تجاه التزاوج بين البيض والسود. عام 1963، كان 64 بالمئة من الأمريكيين يؤمنون بضرورة المحافظة على القوانين التي تمنع مثل هذا الزواج، والتي كانت لا تزال قائمة في العديد من الولايات. عام 1998، كانت نسبة 13 بالمئة فقط تؤمن بضرورة وجود مثل هذه القوانين، بالرغم من أن نسبة أعلى عبّرت سراً عن عدم الارتياح من «المواعدة» بين الأعراق[92]. فضلاً عن ذلك، التزم كل من الجمهوريين والديمقراطيين بشكلٍ متساوٍ بقانونية التزاوج بين الأعراق.

---

(92) Robert J. Blendon [et al.]. «America's Changing Political and Moral Values,» in: E. J. Dionne, and John J. DiIulio, eds., *What's God Got to Do with the American Experiment?* (Washington, DC: Brookings Institution Press, 2000), pp. 26 and 29.

في ما يتعلق بموقف الرأي العام من «المواعدة» المختلطة الأعراق، انظر: «Evenly Divided and Increasingly Polarized: 2004 Political Landscape,» (Pew Research Center for the People and the Press, Washington, DC, 5 November 2003), pp. 45-50, and www.people-press.org.

لا تزال سلوكيات التمييز العنصري كامنة بعمق بين البيض في الجنوب وأوساط الحزب الجمهوري. مع ذلك، كان لا بد من تخفيف هذا السلوك ونمذجته، ويتم التعبير عن ذلك من خلال السياسات التي لا يشي ظاهرها بكونها عنصرية (خصوصاً في ما يتعلق بالإنعاش الاجتماعي، الهجرة، الجريمة و«الحرب على المخدرات») بدلاً من أن تكون بادية للعيان. لو حافظوا على صراحتهم الفجة السابقة لما كان من الممكن أن يظل الجمهوريون هم «الحزب الحاكم» الطبيعي في الولايات المتحدة منذ عام 1968 لغاية عام 2004 (إذ حافظوا على الرئاسة لمدة أربعة وعشرين عاماً مقابل رئاسة الديمقراطيين لمدة اثني عشر عاماً)، ولجعلهم ذلك منبوذين وحُكم عليهم أن يظلوا في حالة الأقلية. يتضح هذا الواقع من السرعة التي أجبر فيها الحزب الجمهوري ترنت لوت أن يستقيل من قيادة أغلبية مجلس الشيوخ في كانون الثاني/ديسمبر 2002 بعد أن امتدح علناً حملة المرشح للرئاسة ستورم ثورموند التي اتسمت بالدعوة للفصل العنصري عام 1948[93].

لم يتحقق هذا التحول بفضل ما قام به الليبراليون وحسب. بالعكس، أدى الدور الرئيس في ذلك مؤسسات بارزة ذات توجه يميني وقومي: مثل العسكريين، وبعض مخرجي هوليود وممثليها وبعض رجال الكنيسة الإنجيلية. حتى بين بيض الجنوب، كان ثمة تطور من تعصب مبني على لون الجلد إلى تعصب على أساس الثقافة (بالرغم

---

(93) Adam Clymer, «Divisive Words: New Analysis: G.O.P.'s 40 Years of Juggling on Race,» *New York Times*, 14/12/2002, and David Von Drehle and Dan Balz, «For GOP, South's Past Rises in Tangle of Pride, Shame,» *Washington Post*, 15/12/2002.

من الترابط العميق بين هذين النوعين من التعصب)[94]. منذ بداية التسعينات، قامت بعض الشخصيات القيادية والصحف من اليمين المسيحي بما بدا جهداً صادقاً بهذا الخصوص، مثل اعتذار رالف ريد عن العنصرية السابقة للكنيسة الإنجيلية، ونشر مجلات **كاريزما** و**نيو مان** مقالات عن نجاح الزيجات بين الأعراق[95]. كما أن تعيينات جورج دبليو بوش لبعض السود البارزين في إدارته لم تكن من قبيل الرمزية وحسب. بل هي تحدث تغيراً حقيقياً وإيجابياً.

في الحقل الديني للإنجيليين أدى ما كان يسمى رجال كنيسة التلفزيون دوراً رائداً، وهم الذين استخدموا وسيلة الإعلام الجماهيري الجديدة هذه للتقرب من جمهور أوسع من قبل. بدأ الحملة القس بيلي غراهام، وتبعه عدد من الشخصيات التي لم يقتصر عملها على السعي للوصول إلى جمهورٍ من أعراق مختلفة، بل شمل أيضاً إشراك السود وغيرهم في جوقة كنائسهم، حيث توجد كاميرات التلفزيون والسينما لإبراز وجودهم فيها. وكان لغراهام بشكل خاص دور في دعم العديد من قضايا السود[96].

أحد أسباب التحول كان الرؤية الخاصة لرجال كنيسة التلفزيون حول تحوّل أمريكا من ديمقراطية التفوق العرقي نحو إمبراطوريةٍ حضارية؛ إذ بالرغم من كون غراهام من خلفية محافظي أعماق

---

(94) بالنسبة لاستمرار النهج العنصري بأشكال جديدة، انظر: David K. Shipler, *A Country of Strangers: Blacks and Whites in America* (New York: Knopf, 1998).

(95) بخاصة مناقشة دراسة جامعة شيكاغو لعام 1990: Orlando Patterson, *The Ordeal of Integration: Progress and Resentment in America's «Racial» Crisis* (New York: Basic Books, 1998), and George M. Fredrickson, «America's Caste System: Will It Change?,» *New York Review of Books*, vol. 44, no. 16 (October 1997).

الجنوب في كارولينا الشمالية، إلا أنه كان شديد التحمس لقضية معاداة الشيوعية، ويعي تماماً أن التمييز العنصري الأمريكي إنما يزيد من إغراء الشيوعية في نظر «العالم الثالث». شكّل تحركه لتشكيل مزيج من التنوع العرقي بدوره جزءاً من التحول للابتعاد عن الأصولية الصريحة والمتطرفة نحو شكل من الممارسة الدينية غير المتعصبة جعلته مقبولاً من دوايت دو. آيزنهاور ومن تبعه من الرؤساء ما جعله «نوعاً من رجال الدين غير الرسميين على المستوى القومي»[97].

فضلاً عن ذلك، استهدف غراهام وكثيرون غيره من رجال كنيسة التلفزيون بشكل خاص جمهوراً من العالم النامي. وفي عصر العولمة، لم يعد من الممكن الإبقاء على إغراء التبشير في الخارج منفصلاً تماماً عن السلوك السائد في الداخل، خصوصاً داخل الولايات المتحدة، لذلك قامت العديد من الكنائس البروتستانتية بتقديم المغريات للمهاجرين اللاتينيين لإبعادهم عن الكاثوليكية. بدأت الكنيسة «الخمسينية»[*] Pentecostals بالتوجه إلى السود منذ الخمسينات والستينات[98]. كما فتحوا سبلاً واسعة في أمريكا اللاتينية.

---

(95) Sara Diamond, *Not by Politics Alone: The Enduring Influence of the Christian Right* (New York: Guilford Press, 1998), pp. 220-228.

(96) انظر: Ron R. Stockton, «The Evangelical Phenomenon: A Falwell-Graham Typology,» in: Corwin E. Smidt, ed., *Contemporary Evangelical Political Involvement: An Analysis and Assessment* (Lanham: University Press of America, 1989).

(97) Peter W. Williams, *America's Religions: From their Origins to the Twenty-First Century*, 2nd ed. (Urbana, Ill.: University of Illinois Press, 2002), p. 378.

(*) هي إحدى كنائس البروتستانت الإنجيلية.

(98) Howard Elinson, «The Implications of Pentecostal Religion for Intellectualism, Politics, and Race Relations,» *American Journal of Sociology*, vol. 70, no. 4 (January 1965).

بكلمة أخرى، صار الأمريكان البيض من المحافظين القوميين ينظرون إلى السود وغيرهم ممن يمتثلون إلى بعض أشكال السلوك المقبول، بما في ذلك الروح الوطنية، والعبادات الدينية، على أنهم جزء من «الشعب الأمريكي»، على حسب تعبير والتر رسل ميد[99]. يضاف إلى ذلك، أن وزير الخارجية (الجنرال السابق)، كولن باول، ومستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس، هما مقبولان تماماً بوصفهما أمريكيين حقيقيين، بالرغم من أن ذلك يندرج في ما يسميه الراديكاليون السود «التشبه بالبيض»: أي تقبل ثقافة الإمبراطورية الحضارية وعقيدتها وآلهتها.

هناك ثلاثة مؤسسات أخرى كانت لها أهمية عظمى في هذا التحول لما تتمتع به من نفوذ في الجنوب، وإلى درجة أقل في «قلب البلاد» (Heartland): وهذه المؤسسات هي: المؤسسة العسكرية، وصناعة الرياضة، والنزعة الوطنية والذكورية في هوليوود. هكذا وعلى مراحل بدأت منذ الأربعينات، حولت المؤسسة العسكرية في الولايات المتحدة نفسها لتصبح أكثر مؤسسة متعددة الأعراق بين مؤسسات الولايات المتحدة، مؤسسة يتمكن فيها السود وغيرهم من التقدم إلى أعلى المراتب من دون التعرض للاتهام بالتفضيل غير العادل[100]. بدءاً من قرار الرئيس هاري ترومان بوضع حد للتمييز العنصري بين العسكريين عام 1948، شجّع هذا التطور جميع الرؤساء اللاحقين، مع النية الواعية لتقوية الإغراء الحضاري لأمريكا بين

---

(99) Walter Russell Mead, *Special Providence: American Foreign Policy and How it Changed the World* (New York: Knopf, 2001), pp. 260-261.

(100) Comer Vann Woodward, *The Strange Career of Jim Crow*, with a New Afterword by William S. McFeely, Commemorative ed. (Oxford; New York: Oxford University Press, 2002), pp. 134-139.

الشعوب «الملوّنة» بدلاً من تعريضهم للإغراء الشيوعي[101].

بالنسبة للعسكر، صار هذا التحول تدريجياً مسألة ضرورة فضلاً عن كونه أيديولوجياً. إذ بعد تخلي العسكر عن الخدمة الإلزامية في بداية حرب فييتنام، صار يعتمد بشكل كبير على الجماعات من ذوي الدخل المحدود للانضمام إلى صفوفهم. من بين هؤلاء صارت الأقليات الملونة هي الأكثرية. في المرحلة القريبة الماضية صارت الخدمة العسكرية السبيل المتاح أمام المهاجرين لأمريكا (حتى المهاجرين غير الشرعيين) للحصول على حق المواطنة بشكل أسرع، وهي ممارسة تذكرنا بأواخر أيام إمبراطورية روما.

كما ظل العسكر مدركين بعمق مسألة التوتر العنصري الذي شق صفوف القوات في فييتنام، حين كان الجيش يشمل نسبة عالية جداً من السود، يقودهم ضباط أغلبيتهم العظمى من البيض (بفضل التعصب الطبقي في نظام التجنيد الإلزامي). خلال المحاولة التي جرت عام 2003 لدفع المحكمة العليا لاتخاذ قرار يلغي التفضيل العرقي في التعليم العالي، كان السبب الأقوى لرفض هذا القرار هو طلبات تقدم بها عدد من العسكريين المتقاعدين من ذوي الرتب العالية الذين ذكروا أن مصلحة القوات المسلحة تتطلب وجود عدد أكبر من خريجي الجامعات ليكونوا ضباطاً.

إلى جانب ذلك لا بد من ذكر شجاعة السود وغيرهم من المجموعات العرقية بين العسكر ونجاحهم وتضحياتهم، وقد قامت هوليوود بعرض جهودهم، ما كان له أهمية عظمى، وكان هذا جزءاً من جهود هوليوود في تقديم أفلام ذات صبغة شعبوية قومية ثقافية

(101) Lind, *The Next American Nation: The New Nationalism and the Fourth American Revolution*, pp. 105-106.

(أفلام الغرب، والشرطة، والرياضة) سعت بقوة لتصل إلى المزيد والمزيد من الأمريكيين، وإلى تقدمهم بوصفهم مواطنين و/أو جنوداً لهم قيمتهم.

الموضوع الذي تكرر في أفلام المخرج جون فورد هو التمازج بين الأمريكيين قديماً وحديثاً (وفي تاريخ الانفصاليين والتوحيديين) من خلال الخدمة العسكرية والمستوطنات والدفاع عن الحدود البيضاء. عني فورد بشكل خاص بالإيرلنديين، وليس هذا بغريب، فاسمه الأصلي هو شين فيني. عام 1956 قدّم فيلم «الباحثون» (The Searchers)، وهو يتحدث عن تقبّل بطل الرواية البطيء (أدى دور البطولة فيه القومي والمحافظ العنيد والرمز السينمائي جون واين) لقريبه من قبيلة الشيروكي بوصفه رفيقاً له. وقد صار دور البطولة فيه هذا موضوعاً مركزياً (بسبب كون هذه الشخصية بيضاء ثقافياً ولأنه حليف واين ضد قبيلة الكومانشي المتوحشين الذين يجب محاربتهم بلا رحمة). أحد أحدث أفلام فورد «سارجنت رتلاج» (Sergeant Rutledge)، (1960) كان موضوعه جندياً على الحدود أسود شجاعاً ومخلصاً يُتهم ظلماً بقتل فتاة بيضاء، وهو معالجة ذات صبغة قومية للموضوع الذي قدمه هاربر لي في فيلمه «قتل طائر الوقواق» (To Kill a Mockingbird)، وتغلب عليه صبغة الجيش الأمريكي على حساب النظام القضائي للولايات المتحدة[102].

خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها، بشكل خاص، ركزت هوليوود على تأكيد شجاعة العسكريين من اليهود الأمريكان (مثل فيلم وليام ويلمان «قصة جي أي جو» (The Story of GI Joe)

(102) انظر: Joseph McBride, *Searching for John Ford: A Life* (New York: St. Martin's Press, 2001), pp. 425-455, 560-572 and 603-611.

[1945] الذي مثله روبرت ميتشم). بشكل أعم، فإن أفلام الحرب الأمريكية، مثل نظيراتها السوفياتية، كانت تحوّل الوحدة الأمريكية المتعددة الأعراق، إلى صيغة مثالية، خزينها الأساس هو الواسب (WASP (White Anglo-Saxon Protestant)) (أبيض أنجلو - ساكسوني بروتستانتي)، والجنوبي، والإيرلندي، والإيطالي، واليهودي، وغيره من العناصر[103].

خلال العقد الماضي بدأت مسلسلات التلفزيون الأمريكي تؤدي دوراً مشابهاً في الترويج للاختلاط العرقي، بالتعامل في هذا المجال مع الحب والجنس بدلاً من مجال المعارك. بعد أربعة عقود من غيابها التام في التلفزيون، شاعت «المواعدة» بين الأعراق إلى حد ما، مع عدم شيوعها بالدرجة نفسها في المجتمع، إلا أنها على الأقل كانت موجودة، (مع أنها كانت تجري بين البيض واللاتينيين والآسيويين أكثر منها مع السود)[104].

ركّز بطل سينمائي عظيم آخر هو كلنت إيستوود في بعض أفلامه على جعل الهندي (كما في فيلمه العظيم «جوزي ويلز الخارج على القانون» (The Outlaw Josie Wales) [1976] الصديق المقرب للبطل ومساعده، وليس بصورة هزلية كما في تونتو، بل كشخصية جليلة، محترمة وذكية، يقدم تعليقات ساخرة عن مجتمع البيض وريائه[105]. فيلم إيستوود «القلب المكسور» (Heartbreak Ridge)

(103) Lind, Ibid., p. 81.

(104) Michelle Cottle, «Color TV: How Soaps Are Integrating America,» *New Republic*, 27/8/2001.

(105) «Unforgiven,» (Film, Directed and Produced by Clint Eastwood, Written by David Webb Peoples, United States, Warner Bros., 1992).

[1986] نموذج يشبه الأفلام السوفياتية من طراز أفلام الكتائب مختلطة الأعراق. ربما كان لهذا الأسلوب تأثير أكبر، من تأثير غيرهم من المخرجين من ذوي الأسلوب المباشر المعادي للعنصرية مثل نورمان جويسن أو دينزل واشنطن، لكونها أفلام أنتجها مخرجون وممثلون يبجلهم أهل الجنوب وقلب البلاد[106]. وحين يقترح بيلي غراهام وكلينت إيستوود تغيير السلوك العنصري، لا بد أن يشعر حتى أكثر الأمريكان البيض تعصباً في أعماقه أن هذا الحديث إنما يصدر من إلهه أيضاً.

بالرغم من القيمة العظيمة لهذه العملية ونبلها، ثمة سمتان أثارتا القلق في النظام الجديد وهما تتطلبان الانتباه. الأولى هي أنه كما في روما والصين والخلافة العباسية، ثمة غياب للعنصرية في معناها الضيق، ومن المؤكد أنها لا تدل على غياب المعاداة المرة والاحتقار تجاه «البرابرة» والكفار، ممن يختلفون ثقافياً.

من المؤكد وجود عملية كانت تدور في الولايات المتحدة يمكن تسميتها «مبدأ لغم كلايمور». كلايمور هو علبة بلاستيكية مليئة بالمتفجرات والكرات المعدنية. العلبة مغلقة من الخلف والجوانب، وحين يحدث الانفجار تتركز الشظايا باتجاه العدو. الشخصيات السياسية والإعلامية وحتى رجال الأعمال ممن يعبّرون عن عدوانية عنصرية علنية تجاه الأقليات المحلية صاروا الآن يدفعون ثمناً غالياً

---

(106) «In the Heat of the Night,» (Film, 1967); «A Soldier's Story,» (Film, Directed by Norman Jewison, Written by Charles Fuller, 1985), and «Remember the Titans,» (Film, Technical Black Production in Association with Jerry Bruckheimer Films, Directed by Boaz Yakin, United States, Buena Vista Pictures, 2000).

جداً، وبالرغم من إدراك الجميع لذلك، لكن مثل هذه السلوكيات مستمرة في السر بين أغلبية مجتمع البيض الأمريكان.

لكن كما في لغم كلايمور، فإن كبح المشاعر في داخل البلاد لن يؤدي إلا إلى المزيد من القوة إلى الجهة التي يتوجه نحوها وهم الأجانب الذين يُعدون هدفاً مشروعاً ومقبولاً بين العامة لمثل هذه الكراهية. كتب المفاوض الأسبق للتجارة للولايات المتحدة كلايد بريستوفيتز عن «الإيمان الكامن لدى الأمريكان من أن كل إنسان يمكن أن يكون أمريكياً وأن انتماءه القومي أو الثقافي الحالي أنما هو حادث من باب سوء الحظ ويمكن تعديله»، وهذا أسلوب يماثل أسلوب الإمبراطورية الصينية أو الرومانية[107]. بالتالي إذا رفض الآخرون التصرف على شاكلة الأمريكان، فهذا يعني أن فيهم شيئاً من الشر والكراهية. بكلمة أخرى فإن النظام الجديد في الولايات المتحدة هو وصفة جاهزة للتسامح داخل الأمة، وليس خارجها. ثمة تعريف جيد لنظرية لا وجود لشيء غيري هو: «ثمة شخص يؤمن أنه هو العالم»[108].

كلمات ماكس ليرنر التي قالها خلال الخمسينات لا تزال تصح اليوم: «إحدى السمات الأمريكية هو النكوص أمام ما هو غير مألوف.. . يبدو هذا أكثر غرابة حين يتذكر المرء أن أمريكا نفسها هي «أمة من الأمم» وتحوي مجموعة متنوعة من التقاليد الثقافية. مع

---

(107) Clyde Prestowitz, *Rogue Nation: American Unilateralism and the Failure of Good Intentions* (New York: Basic Books, 2003), p. 42.

(108) Loren Baritz, *Backfire: A History of How American Culture Led Us into Vietnam and Made Us Fight the Way We Did* (New York: W. Morrow, 1985), p. 40.

ذلك يفيد هذا الجانب لزيادة ارتباك الأمريكيين خارج بلادهم: لقد رأى داخل بلاده أشخاصاً من ذوي الأصولِ الأجنبية لكنهم هجروا تقاليد بلدانهم الأصلية و«تأمركوا»، لهذا فهو عاجز عن فهم سبب عدم قدرة الأجانب في الخارج على فعل الشيء نفسه في بلدانهم[109].

ويضيف ليرنر: إنه «ليس في هذا السلوك من الكراهية الحقيقية للأجانب،» طالما أن الأجنبي يبدو وكأنه لا يثير أدنى شعور بالخطر. ومن المؤكد أن هذه لم تكن حال الكثير من الأمريكان في 11 أيلول/ سبتمبر.

كانت العقبة الأخرى لعملية بناء هذه الحضارة الأمريكية الجديدة متعددة الأعراق ترتبط بالمحافظة والسلوك السياسي القويم. وشكل الثمن مقابل ذلك في الأغلب أفلاماً فظيعة تثير الحنق، كما في أفلام الولاء غير المقبول سياسياً عن السود والبيض الذين يعملون معاً لتحقيق فو رياضي (مثل فيلم «ذكرى التيتان» (Remember the Titans) [2000]، لكن هناك بعض الأفلام الإيجابية من الطراز السوفياتي في إعادة كتابة التاريخ، كما في فيلم ميل غيبسن «الوطني» (The Patriot) [2000]. يتطابق هذا الفيلم مع متطلبات العقيدة الأمريكية والأيديولوجية القومية، ويقدم ميليشيا كارولينا الجنوبية خلال حرب الاستقلال بوصفها الطابع المبكر للوطنية الأمريكية متعددة الأعراق، والانسجام العرقي والاحترام المتبادل. وكما في أفلام الاتحاد السوفياتي، كانت هذه عمليةً اختيارية من جانب المخرجين.

---

(109) Lerner, *America as a Civilization; Life and Thought in the United States Today*, p. 921.

هذا الاتجاه لنوع من الدعاية عن تاريخ أمريكا ومجتمعها يمكن النظر إليه على أنه أحد أوجه الغفران «الليبرالي العفوي» للعقيدة الأمريكية، كما وصفه هارتز وغيره من المراقبين منذ زمن توكفيل حتى الوقت الحاضر. وهو ينعكس اليوم في ظاهرة «السلوك السياسي القويم»، ويساهم في المحددات المفروضة على الفكر والنقاش العام في الولايات المتحدة في ما يتعلق بالنظام السياسي الداخلي للولايات المتحدة ودور الأمة في العالم.

الفصل الثاني

أطروحة: عظمة عقيدة أمريكا ومأساتها

«حتى الفكرة الجيدة يمكن أن تصبح مخيفةً حين تكون هي الفكرة الوحيدة التي طرأت في ذهن الإنسان».

لويس هارتز(1)

«الأمم مثل الأفراد الذين يمكن أن يكونوا أبرياء تماماً في نظر أنفسهم، إلا أنهم لا يطاقون في علاقاتهم الإنسانية».

راينهولد نايبور(2)

تسمى الأطروحة الأمريكية أيضاً العقيدة الأمريكية، أو الأيديولوجية الأمريكية. إنها مجموعة مقترحات ومسائل بشأن أمريكا تقدمها الأمة لنفسها وللعالم الخارجي: «الأمريكان من كل الأصول القومية، والطبقات والأديان والمعتقدات والألوان، لديهم عامل

---

(1) Louis Hartz, *The Liberal Tradition in America; an Interpretation of American Political Thought Since the Revolution* (New York: Harcourt, Brace, [1955]), p. 175.

(2) Reinhold Niebuhr, *The Irony of American History* (New York: Scribner, 1952), p. 42.

مشترك: مثال اجتماعي مشترك، (هو الروح العامة للجماعة)، وعقيدة سياسية[3].

كتب رالف والدو إيمرسن عن الالتزام بالمبادئ الأمريكية للحكم على أنه شكل من أشكال اعتناق الدين. هذه الأطروحة أو العقيدة، بما يرافقها من أساطير قومية تشكّل الأساس الذي بنيت عليه القومية المدنية الأمريكية، وتجعل من الوجه العلني للولايات المتحدة نموذجاً للقومية المدنية بامتياز[4]. نظرياً، كل من يتقبل الأطروحة الأمريكية يمكنه أن يصبح أمريكياً، بصرف النظر عن اللغة والثقافة والأصل القومي، كما يمكن لأي شخص أن يصبح سوفياتياً إذا تقبل الشيوعية[5].

كما أن مبادئ الأطروحة الأمريكية عقلانية وكونية، يُمسك بها الأمريكيون لكي تكون قابلة للتطبيق على الشعوب والمجتمعات في كل مكان وزمان. وكما قال توكفيل فإن الأمريكيين «مجمعون على المبادئ العامة التي يجب أن تحكم المجتمع البشري»، وهذا يصح أيضاً في بداية القرن الحادي

---

(3) انظر: Gunnar Myrdal, *An American Dilemma; the Negro Problem and Modern Democracy* (New York: Harper, 1944), pp. 1-25.

بشأن الاستخدام الأصلي لتعبير «American Creed» انظر: Gilbert Keith Chesterton, *What I Saw in America* (New York: Dodd, Mead and Company, 1922), Quoted in: Seymour Martin Lipset, *American Exceptionalism: A Double-Edged Sword* (New York: W. W. Norton, 1976), p. 31.

(4) انظر: Michael Lind, *The Next American Nation: The New Nationalism and the Fourth American Revolution* (New York: Simon and Schuster, 1995), pp. 1-18.

(5) David Frum, *Dead Right* (New York: Basic Books, 1994), p. 130.

والعشرين، كما كان يصح حين طرح توكفيل ملاحظته عام 1830.

وبالتالي، فإن هذه المجموعة من الفرضيات هي في الأساس متفائلة. إذ هي تقترح أن الولايات المتحدة قد أنجزت أرقى مستوى ممكن من أشكال النظام السياسي، وأن هذا النظام العظيم يمكن توسيعه ليشمل الإنسانية جمعاء. قبل قرون من قيام فرانسيس فوكوياما بإعادة صياغة هذه الجملة، فإن اعتقاداً ما بأن أمريكا تمثل «نهاية التاريخ» كان شائعاً في الفكر الأمريكي وهو لا يزال أقوى في اللاوعي الأمريكي. «أنا وحدي أمثل السعة في ذرى الزمان»، هكذا عبّر والت ويتمان عند الحديث عن وطنه[6].

وقال ريشارد هوفستاتر، «قدرنا باعتبارنا أمة أن لا تكون لدينا ايديولوجيات، بل أن نكون نحن أيديولوجية»[7]. هذه الأطروحة الأمريكية هي أيضاً في الإيمان وفي الواقع، الجوهر المؤسس «للقوة اللينة» لأمريكا في العالم، ولدورها كإمبراطورية حضارية: النمط الأمريكي لإمبراطورية روما (Romanita). فالعقيدة الأمريكية شكّلت بعمق قواعد سلوك السياسة الخارجية للولايات المتحدة في الماضي كما في الحاضر[8].

العوامل الجوهرية للعقيدة الأمريكية والقومية المدنية الأمريكية

(6) Walt Whitman, *Democratic Vistas*, Quoted in: Sacvan Bercovitch, *The Puritan Origins of the American Self* (New Haven: Yale University Press, 1975), p. 183.

(7) ذكر في: Hans Kohn, *American Nationalism; an Interpretative Essay* (New York: Macmillan, 1957), p. 13.

(8) انظر: Michael H. Hunt, *Ideology and U.S. Foreign Policy* ([New Haven: Yale University Press, 1987]), esp. pp. 125-170.

هي الإيمان بالحرية، والدستور، والقانون، والديمقراطية، والفردانية، والمساواة الثقافية والسياسية. وقد بقيت في جوهرها على ما هي عليه طوال أغلب تاريخ أمريكا[9]. وهي تجد جذورها بشكل أساس في عصر التنوير، فضلاً عن كونها مشتقة من التقاليد البريطانية: فلسفة جون لوك الليبرالية، فضلاً من قناعات أقدم بكثير من دور القانون و«حقوق الرجال البريطانيين الأحرار».

من المؤكد أن المساواة الاقتصادية ليست جزءاً من العقيدة. بالعكس، فقد اقترنت بالإيمان بالتفوق المطلق لرأسمالية حرية السوق، وبالفرص الاقتصادية غير المحدودة والنزعة الاستهلاكية. هذه العوامل تعارضها أعداد من الأمريكان أكبر من معارضي عواملها السياسية، التي تؤمن بها الأغلبية الأعظم. في العقود الأخيرة أصبح يُنظر إلى التسامح العرقي والمساواة على أنها مكونات أساسية للعقيدة، كما صارت تُذكر حقوق المرأة، مع أن هذه الأخيرة، يُعارضها، في السر على الأقل، عدد لا يستهان به من الأمريكيين. وبشكل غير

---

(9) انظر: Alexis de Tocqueville, *Democracy in America*, Translated by Henry Reeve; with an Introduction by Joseph Epstein, Bantam Classic (New York: Bantam Books, 2000), pp. 544 ff. and passim.

انظر أيضاً تعريف «The Creed» في: Lipset, *American Exceptionalism: A Double-Edged Sword*, p. 19; Lind, *The Next American Nation: The New Nationalism and the Fourth American Revolution*, pp. 90-91 and 219-233, and Herbert McClosky, «Consensus and Ideology in American Politics,» *American Political Science Review*, vol. 58, no. 2 (June 1964).

حول «الاقتراح الأمريكي»، انظر: Editors of Fortune and Russell W. Davenport, eds., *U.S.A., the Permanent Revolution* ([New York: Prentice-Hall], 1951), Quoted in: Hartz, *The Liberal Tradition in America; an Interpretation of American Political Thought Since the Revolution*, p. 305.

رسمي فإن جزءاً مهماً من هذه العقيدة يقوم أيضاً على الإيمان بأن الولايات المتحدة تجسّد وتمثّل في الآن معاً، النموذج الوحيد للحداثة الناجحة، على العموم: «يرى الأمريكان أن التاريخ يسير بشكل مستقيم وأنهم يقفون على تخومه الحادة كممثلين للجنس البشري كله»[10].

في بداية القرن الحادي والعشرين، لم تعد محتويات الأطروحة الأمريكية بالطبع مقتصرة على أمريكا، فأغلب معتقداتها صار يحملها سكان الديمقراطيات الأخرى، وبالتأكيد أغلبية سكان العالم، علناً على الأقل. تشكل الديمقراطية الأمريكية جزءاً من العالم السفلي للدول الديمقراطية الغربية، كما هي الرأسمالية الأمريكية، بالرغم مما فيها من سمات خاصة جداً، متلازمة بشكل وثيق مع النظام الرأسمالي العالمي كلّياً.

ثمة سمتان استثنائيتان للعقيدة: العاطفة المستبدة في حمل هذه المعتقدات، والدرجة التي تمتزج فيها مع القومية الأمريكية. كتب لويس هارتز خلال الخمسينات عن العقيدة: «القومية الملزمة»، و«رسوخ الليبرالية والدوغماتية كطريقة للحياة»[11]. تشمل الأساطير المرتبطة بالعقيدة قناعة واسعة النطاق أن الولايات المتحدة تمتاز بالولاء للديمقراطية والحرية، وبالتالي فهي طيبة بشكل إستثنائي. ولأن أمريكا طيبة بشكل استثنائي، فهي تستحق أن تكون لها قوة استثنائية، وبموجب طبيعتها الطيبة لا يمكنها استخدام هذه القوة لأغراض شريرة. بالنتيجة فالعقيدة الأمريكية هي المفتاح المؤسس

---

(10) Frances FitzGerald, *Fire in the Lake: The Vietnamese and the Americans in Vietnam* (New York: Vintage Books, 1973), p. 9.

(11) Hartz, Ibid., pp. 9, 15, 175 and 225-237.

للإيمان ببراءة أمريكا الفطرية[12].

يرى صامويل هنتنغتون أنه «من الممكن التحدث عن مجموعة من الأفكار السياسية التي تشكل «الأمركة» (Americanism) بمعنى لا يمكن أبداً التحدث به عن النزعة «البريطانية» (Britishism)، أو «الفرنسية» (Frenchism)، أو «الألمانية» (Germanism)، أو «اليابانية» (Japaneism). فالأمركة بهذا المعنى يمكن مقارنتها بالأيديولوجيات والأديان الأخرى. بمعنى أن رفض الأفكار الأساسية لهذه العقيدة يجعلك «غير أمريكي»... هذا التماهي للقومية مع العقيدة أو القيم السياسية يجعل الولايات المتحدة عملياً فريدة من نوعها»[13].

في الواقع، وكما لاحظنا في الفصل الأول، ثمة دول أخرى جسدت صيغها الخاصة من أشباه هذه الأطروحة في صيغ خاصة من القومية المدنية. لكن في أغلب هذه الحالات قوبلت هذه الأطروحات بمعارضة علنية من شعوبٍ عديدة، كما في فرنسا، أو كانت تاريخياً هي بشكل أساس قناعات النخب القومية أو الإمبراطورية، كما في الإمبراطورية الصينية. ما هو غير اعتيادي في أمريكا هو الإجماع الكلي للإيمان بهذه المبادئ القومية الموجهة.

وصف عالم الاجتماع الكندي ساكفان بيركوفيتش أنه اكتشف في أمريكا «مئات الطوائف والفرق، ولكل منها شكله المختلف عن البقية، لكنها كلها تؤدي المهمة نفسها». هذا الإجماع الأيديولوجي، كما قال، يجري توظيفه «بكل الإغراء الأخلاقي والعاطفي كأنه رمز ديني». منحه هذا الاكتشاف «بعض إحساسٍ أنثروبولوجي بالدهشة

(12) Niebuhr, *The Irony of American History*, p. 4

(13) Samuel P. Huntington, *American Politics: The Promise of Disharmony* (Cambridge, MA: Belknap Press; Harvard University Press, 1981), pp. 23 and 25.

لوجود مثل هذه الرمزية القبلية»[14]. من الممكن أن تكون الولايات المتحدة في بداية القرن الحادي والعشرين هي أكثر مجتمع أيديولوجي على وجه الأرض.

بالطبع، ليست أمريكا أكثر **دولة** أيديولوجية على وجه الأرض. إذ لا تزال دولٌ أخرى تمارس سيطرة أكثر صرامةً وقسوةً وشمولاً على أفكار رعاياها مما فعلته الدولة الأمريكية، أو مما تقدر أن تفعله. وقد قامت الدول الشيوعية في ذروة سطوتها بمثل هذه الممارسة. لكن حتى في ذروة سيطرتها، ظلت هذه الأيديولوجيات تواجه مقاومة من أجزاء واسعة من شعوبها. بعد عقود عدة، فقد المثقفون ومعهم أغلبية عامة الشعب الاهتمام الفعلي بالإيمان بها، بالرغم من استمرارهم على أداء ما هو مطلوب منهم من شعائر في العلن. وهذا يصح أيضاً على الحكم الديني في إيران على مدى التسعينات.

بعض المثقفين الروس والصينيين من معارفي الذين زاروا أمريكا خلال التسعينات، بعد أن عاشوا في مثل هذه الأجواء من السخرية السرية تجاه الأيديولوجية العامة، كان رد فعلهم عموماً هو الدهشة التامة وبعض الخشية، من الطريقة التي يمجّد فيها الأمريكي مبادئ دولته ومؤسساتها وقوانينها وممارستها الاقتصادية في الحوارات الخاصة، وليس من باب الدفاع الوطني، بل بإيمان صادق بصحة تطبيقها على الإنسانية جمعاء: «إنهم يؤمنون بالفعل بكل هذا! لا أحد يجبرهم على مثل هذه الأقوال!»[15]. ويرتبط بشكل وثيق مع هذا

---

(14) Sacvan Bercovitch, Quoted in: Lipset, *American Exceptionalism: A Double-Edged Sword*, p. 291.

(15) Andrei K. Sitov, «America: Back in the USSR?,» (Tass, Washington, DC, 4 August 2003).

الميل الإحساس بالمهمة القومية: «جميع الأمم... اتفقت منذ أمد بعيد على أنها هي شعب مختار، فكرة القدر الخاص قديمة قدم القومية نفسها. مع ذلك، ليس ثمة أمة في التاريخ الحديث تهيمن عليها فكرة أن لها مهمة خاصة في هذا العالم مثل الولايات المتحدة»(16).

لقد عبّر حتى أكثر المعارضين الأمريكان على امتداد التاريخ، وبإخلاص، عن معارضتهم، لكن ليس بصيغة رفض العقيدة الأمريكية ذاتها، بل هم طالبوا أن يقوم الأمريكان، أو الحكومات الأمريكية بالعودة إلى الشكل الأكثر نقاءً من العقيدة، أو إلى المزيد من الإخلاص في الالتزام بها. إن المجموعات التي تخرج عن العقيدة سرعان ما تجد نفسها مهمشةً أو حتى مضطهدة. وعلى الأقل فإن أغلبية الشعب من البيض يعد العقيدة أمراً مفروغاً منه.

بالنظر إلى النمطية التي تتسم بها الولايات المتحدة لكونها بلداً جديداً وفتيّاً ومتواصل التغير، فمن المهم ملاحظة أن قدم المؤسسات الأمريكية هي أحد أسباب ولاء الأمريكيين لها. هذه المؤسسات هي الأقدم والأقل تغيراً منها في أي دولة في العالم. إذ منذ تم تبني دستور الولايات المتحدة عام 1787، مرت الأغلبية العظمى من الدول بتغيرات ثورية في مؤسساتها. حتى النظام السياسي البريطاني تغير بصورة أكثر جوهرية مما تغير النظام الأمريكي على مدى هذين القرنين.

المبادئ التي تقف وراء هذه المؤسسات، والأطروحة الأمريكية

(16) Russel B. Nye, *This Almost Chosen People; Essays in the History of American Ideas* ([East Lansing: Michigan State University Press, 1966]), Quoted in: William W. Cobb, *The American Foundation Myth in Vietnam: Reigning Paradigms and Raining Bombs* (Lanham, Md: University Press of America, 1998), p. 4.

التي تجسّدها هذه المؤسسات هي أكثر قدماً من ذلك. وبحسب قول هنتنغتون، «تم تصدير العوامل الأساسية للدستور الإنجليزي إلى العالم الجديد وتجذر هناك، حيث اكتسب حياة جديدة في الوقت نفسه الذي بدأ التخلي عنه في الدولة الأم. كانت سماته هي تيودورية، ومن هنا فإنه قروسطي السمات... الإطار المؤسسي الذي تأسس عام 1787 لم يتغير إلا قليلاً خلال 175 سنه»[17].

ليست أمريكا إذاً بلداً «جديداً»، أو «فتياً»، بالنتيجة يحق لأمريكا أن تزعم أنها تقريباً أقدم دولة في العالم. إنها «أقدم جمهورية، وأقدم ديمقراطية، وأقدم نظام فدرالي، ولديها أقدم دستور مدوّن، وتتباهى أن لديها أقدم أحزاب سياسية حقيقية»[18].

تعود أصول هذه المؤسسات الأمريكية إلى القرون الوسطى، والأهم من ذلك إلى إنجلترا التيودورية، قبل نشوء الملكيات المركزية في قارة أوروبا والحكومات البرلمانية المركزية في بريطانيا. يربط هنتنغتون بين الإيمان المتواصل للأمريكان بالقانون الأساسي وعديم التغير الذي يجسد التقاليد القروسطية الإنجليزية: «لا نريد تغيير قوانين إنجلترا» (Nolumus mutare leges Angliae)، كما صرّح البارونات في رونيميد حين أجبروا الملك جون(*) على القبول

(17) Samuel P. Huntington, *Political Order in Changing Societies* (New Haven: Yale University Press, [1968]), pp. 96-98, and R. A. Humphreys, «The Rule of Law and the American Revolution,» in: John R. Howe, ed., *The Role of Ideology in the American Revolution*, American Problem Studies (New York: Holt, Rinehart and Winston, [1970]), pp. 20-27.

(18) ذكر في: Lind, *The Next American Nation: The New Nationalism and the Fourth American Revolution*, pp. 225 ff.

(*) وهو ملك إنجلترا جون بلا أرض (John Lackland) خامس أبناء الملك هنري الثاني تولى الحكم خلفاً لأخيه ريتشارد قلب الأسد.

بالماغنا كارتا: «هذه الفكرة القديمة بوجود قانون أساسي خارج السيطرة البشرية قد اكتسب سلطةً جديدةً من خلال تماهيه مع الدستور المدّون»[19]. تلك هي المعتقدات والمشاعر القديمة التي ملأت الغلاف الخارجي الجاف والعقلاني لدستور الولايات المتحدة»[20].

لقد كانت القومية المدنية الأمريكية مركزيةً في كلٍ من اندماج أعداد كبيرة من المهاجرين على مدى القرون، وفي تحوّل أمريكا النهائي من ديمقراطية التفوق العرقي إلى إمبراطورية حضارية. مثلما صرح الدكتور مارتن لوثر كينغ في ساحة لينكولن في 28 آب/ أغسطس 1963، «ما زال لدي حلم. إنه حلم له جذور عميقة في الحلم الأمريكي من أنه في يوم ما سوف تنهض الأمة لتحيا بصدق معنى عقيدتها»[21].

هكذا، فإن لمحتوى العقيدة الأمريكية أهميةً عظمى لأمريكا وللإنسانية. في العديد من المناسبات عبر التاريخ، قادت هذه العقيدة الأمريكان لتقديم التضحيات ليس من أجل مواطنيهم وحسب، بل من أجل الإنسانية، وكذلك من أجل دوافعهم القومية ولتحسين مؤسساتهم وسلوكياتهم. كما ساعدت للوقوف بين الولايات المتحدة وبعض جرائم الإمبراطورية، ومن المؤكد أنها تقلل من احتمالات أن

---

(19) Huntington, Ibid., p. 104.

(20) Robert Neelly Bellah, *The Broken Covenant: American Civil Religion in a Time of Trial*, Weil Lectures; 1971 (New York: Seabury Press, [1975]), pp. 5-8, and Cobb, *The American Foundation Myth in Vietnam: Reigning Paradigms and Raining Bombs*, p. 21.

(21) انظر الخطاب في: Martin Luther King, Jr., *A Testament of Hope: The Essential Writings of Martin Luther King, Jr*, Edited by James Melvin Washington (San Francisco: Harper and Row, 1986), pp. 217-220.

تؤسس الولايات المتحدة إمبراطورية مباشرة، لأنها تريد فرض احترام للديمقراطية وحق تقرير المصير، ولو ظاهرياً.

يمكن القول إن الأطروحة الأمريكية، مثل الديمقراطية في الهند، هي أيضاً مسألة ضرورة بالنسبة للولايات المتحدة. وهي أساسية من أجل منع التنوع الواسع وأحياناً المجموعات الثقافية والدينية والعرقية المختلفة أخلاقياً من تمزيق البلاد إرباً. العقيدة القومية المدنية والإيمان بقيم الأطروحة الأمريكية هي ربما بالنسبة لأمريكا والعالم الشيء الوحيد الذي يمكن أن يتفق بشأنه رجال الدين المحافظون في تكساس، ومثليو الجنس في سان فرانسيسكو[22].

العقيدة الأمريكية والمؤسسات التي تدعمها، هي بالتأكيد أعظم أمجاد الأمة، وستكون الإرث الأعظم عندما تنتهي الولايات المتحدة نفسها. قد يثبت كون ثمرات الاقتصاد الأمريكي غامضةً، أو حتى مأساوية، في المدى البعيد، لكن المبادئ التي سمحت لجماهير غفيرة من الناس المختلفين بالعيش والازدهار معاً في هذه الأرض الشاسعة من دون إكراه ستكون على الدوام دروساً إيجابية تستحق الدراسة.

استعادة البراءة

بالرغم من فضائلها العظيمة، إلا أن هذه القومية المدنية والإجماع الأيديولوجي الذي يدعمها، يحمل معه بعض المخاطر الجسيمة والمتشابكة. وكما كتب راينهولد نايبور: «تقوم سخرية الأقدار على تنافرات تحدث صدفة في الحياة، ثم نكتشف بعد التمحيص أنها لم تكن مجرد صدفة... إن مخاطرنا الأخلاقية ليست

(22) انظر: Lind, *The Next American Nation: The New Nationalism and the Fourth American Revolution*, p. 90.

من باب الخبث الواعي، أو الشهوة الواضحة للقوة. بل هي المخاطر التي لا يمكن فهمها إلا إن أدركنا الميل الساخر للفضائل لأن تتحول إلى رذائل حين نعتمد عليها برغبة في الإرضاء، والميل الساخر للقوة لأن تكون مفيظة إن كانت الحكمة التي توجهها تلقى ثقةً عمياء..»[23].

من تلك المخاطر، ثمة اثنتان علّق عليهما مؤرخون ومعلّقون أمريكان: الامتثال والمسيحانية، وهما عادة تظلان كامنتين إلى حد ما، وتخضعان للفحص من خلال التراث الأمريكي في التجريب والذرائعية النفعية والنقاش المفتوح[24]. غير أنها تميل لأن تصبح فاعلة، عند حدوث صدمة وطنية أو أذى عام، مثلما حدث في 11 أيلول/ سبتمبر، وتتحول لأن تفعل ما في وسعها لتشكيل الرد الأمريكي.

يستند كلٌ من هذين الميلين إلى مجموعة من الأساطير الكامنة في الأعماق السحيقة، وهي قادرة على التأثير تحت مستوى وعي أغلبية الأمريكان. هذه الأساطير ليست جزءاً من العقيدة الأمريكية الرسمية، بل تساعد في إعطائها الدفعة العاطفية اللازمة. تؤكد هذه الأساطير فكرة البراءة الأمريكية من بين أشياء أخرى[25]. أو كما عبّر عنها الرئيس جورج دبليو. بوش: «أني مندهش لوجود هذا الكم من سوء الفهم لماهية بلادنا لكي يكرهنا الناس. مثل أغلب الأمريكان،

---

(23) Reinhold Niebuhr, *The Irony of American History* (New York: Scribner, 1952), pp. vii and 133.

(24) المصدر نفسه، ص 69 وما بعدها.

(25) انظر: Richard T. Hughes, *Myths America Lives By*, Foreword by Robert N. Bellah (Urbana: University of Illinois Press, 2003), pp. 6-8 and 153-186, and Bellah, *The Broken Covenant: American Civil Religion in a Time of Trial*.

أنا لا أستطيع تصديق ذلك، لأني أعرف كم نحن طيبون»[26].

وكما عبّرت عن ذلك استراتيجية إدارة بوش للأمن القومي 2002: «اليوم تتمتع الولايات المتحدة بموقع لا نظير له من القوة العسكرية والأفضلية الاقتصادية. وبحسب موروثنا ومبادئنا، لن نستخدم قوتنا لتنفيذ مصالح أحادية الجانب. بل بالعكس فإننا سوف نسعى لخلق توازن في القوة يعمل لصالح حرية الإنسان: وهذه ظروف تتمكن فيها جميع الأمم والمجتمعات من الاختيار بنفسها فوائد وتحديات الحرية السياسية والاقتصادية»[27].

هذا الإيمان بالبراءة الأمريكية، و«بانعدام الخطيئة الأصلية» قديم جداً وعظيم القوة[28]. ويؤدي دوراً هائل الأهمية في تقوية القومية الأمريكية وتقليص رغبة الأمة في سماع أصوات الدول الأخرى التي يرون أنها تمثل الخطيئة الأصلية. يساهم هذا الإيمان بانعدام الخطيئة، مثله مثل المعتقدات المشابهة كلها، وإلى حد كبير، في تتويج خطيئة أمريكا الكبرى وهي الغرور، والخطيئة القاتلة، والتي هي بحسب قواعد اللاهوت الكاثوليكي القروسطي، والخطيئة التي تنبع منها الخطايا الأخرى كلها.

وفي الأصل، فإن هذه أسطورة، حملها البيوريتانيون(*) في

(26) ذكر في: «This is a Different Kind of War,» *Los Angeles Times*, 12/10/2001.

(27) *The National Security Strategy of the United States of America* (Washington, DC: White House, 2002), www.whitehouse.gov.

(28) Garry Wills, *Reagan's America: Innocents at Home* (Garden City, NY: Doubleday, 1987), pp. 378-388 and title of chapter 41.

(*) البيوريتانيون (الطهريون) (Puritans): تيار بروتستانتي إنجيلي نشأ في بريطانيا وانتقل مع المهاجرين إلى القارة الجديدة، وخصوصاً ما عُرف باسم انجلترا الجديد.

نيوإنجلاند، أو «اليانكي»، وهي ناتجة من فكرة المستوطنين بأن الله قد اختارهم ليولدوا من جديد في العالم الجديد، وليتطهروا من خطايا إنجلترا وأوروبا وذنوبها. في ما بعد تبنى المهاجرون من أوروبا وغيرها بحماسة، هذه الفكرة، وشعروا بالامتنان للقدر الذي خلصهم بعد فرارهم من الاضطهاد، أو الحروب الجارية في بلدانهم الأصلية[29]. وهي تلقت مصادقةً أوروبية مبكرة عام 1782 من الفرنسي المحب لأمريكا هيكتور سانت جان كريفكور الذي اعتبر الأمريكي «الإنسان الجديد» الذي أُعيد خلقه في حاله الطبيعية (التي وصفها روسو) في البرية وتطهّر بذلك من الماضي الأوروبي[30].

ظل بيض الجنوب تاريخياً في شك من هذه الأسطورة، لأن سكانه رأوا أنها مسؤولة (بحسب رأيهم) عن غرور اليانكي، وتكبّره وريائه، ومواعظه لهم، والذي أدّى بالشمال إلى إدانة الجنوب، أولاً بشأن العبودية، ثم الحقوق المدنية. يمكن العثور على صدى قوي لكن غير مصرح به لهذا الموقف التاريخي في التشكيك العميق للأرستقراطي الجنوبي السيناتور وليام فولبرايت من أركنساس في ما يخص حماقات النزعة المسيحانية التي ساهمت بحسب رأيه في توريط الولايات المتحدة في فييتنام وغيرها من النزاعات غير

---

(29) Rabbi Isaac M. Wise, Quoted in: Bellah, *The Broken Covenant: American Civil Religion in a Time of Trial*, pp. 40-41 and 5-8, and Cobb, *The American Foundation Myth in Vietnam: Reigning Paradigms and Raining Bombs*, pp. 7-10.

(30) J. Hector St. John de Crèvcœur, *Letters from an American Farmer*, Everyman's Library. Travel and Topography; [no. 640] (London; Toronto: J. M. Dent and sons, ltd.; New York, E. P. Dutton and co., [1926]), pp. 40-44, and Gordon S. Wood, «Republicanism as a Revolutionary Ideology,» in: Howe, ed., *The Role of Ideology in the American Revolution*, pp. 83-91.

الضرورية[31]. كما ينعكس هذا النهج في التشكيك المتواصل للعديد من المحافظين الجنوبيين الجمهوريين في ما يتعلق «ببناء الدولة». في الوقت نفسه وبمرور الزمن أدت هذه الحماسة القومية الأمريكية في التقاليد الجنوبية بحامليها أيضاً إلى التماهي الشديد مع «المدينة على التل»، أي صورة أمريكا بوصفها جزءاً من إيمانهم بالعظمة الفريدة للبلاد وتفوقها الأخلاقي على العالم.

وكما كتب المعلق الليبرالي ريتشارد كوهن عام 2003، متسائلاً عن كيفية ذهاب أمريكا إلى الحرب مع العراق بالرغم من الدلائل كلها والتحذيرات: «[حرب العراق] لم تقتصر على الفشل الاستخباراتي. بل هي فشلٌ أخلاقي. لماذا؟ ... في النهاية، كان هناك اعتدادنا بأنفسنا، وبنوع من الامتياز الأمريكي الذي يثير حفيظة غير الأمريكان إلى حد بعيد. لم يجسد أحد هذا أكثر من بوش نفسه»[32].

عام 1980 نقل كونر كروز أوبراين عن مجلة **نيويورك** تفجعها «لقد خسرنا براءتنا في السبعينات، وللمرة الأولى خسرنا حرباً»، وعلق على ذلك بالقول:

الحرب التي خسرناها ليس من الصعب تحديدها، لكن البراءة المفقودة تستحق التساؤل باحترام وتمحيص. لقد خسر الفرنسيون

---

(31) انظر: Randall Bennett Woods, «Dixie's Dove: J. William Fulbright, The Vietnam War and the American South,» *Journal of Southern History*, vol. 60, no. 3 (August 1994).
للاطلاع على شجب فولبرايت (Fulbright) للمسيحانية الأمريكية، انظر: James William Fulbright, *The Arrogance of Power* (New York: Random House, 1966), passim.
(32) Richard Cohen, «Blame Blindness...,» *Washington Post*, 3/2/2004.

حرباً خلال الستينات في الجزائر (وليس للمرة الأولى)، بطريقة مشابهة إلى حد بعيد ولأسباب مشابهة كثيراً لخسارة الولايات المتحدة بعدها بعشر سنوات لحرب في الهند الصينية. للتعميمات السلبية مخاطرها، لكني أظن، وأنا واثق أن ليس ثمة فرنسي كتب مثل ذلك، أو نشرت صحيفة ما يشبهه، في نهاية الستينات، أي الزعم أن فرنسا قد فقدت براءتها، فضلاً عن خسارتها الحرب خلال تلك الفترة... ومع هذا فنحن نجد أن موضوع براءة أمريكا، سواء فقدتها أم حافظت عليها أم استعادتها، ليس وهماً يثير الغثيان، لكنه يمثل اختماراً قوياً وفاعلاً لمعنىً كان له دور كبير طوال تاريخ أمريكا[33].

ثمة انعدام للرغبة أو للقدرة بين الأمريكان على مساءلة انعدام الخطيئة في البلاد، ما يُغذي ثقافة الامتثال في الأمة، والتي نالت الكثير من التعليقات عبر القرون. «بالمبدأ العام المجرّد، نحن نمجد حرية الرأي على أنها جزء من موروثنا الوطني... وليس إلا عندما يمارسها بعض الأمريكان نجد غيرهم يصاب بالصدمة... إن عدم التسامح مع أي معارضة هو السمة البارزة للخواص الأمريكية القومية»، تلك هي كلمات السيناتور فولبرايت[34].

قد لا يصح هذا على الولايات المتحدة كلها، وبالتأكيد ليس على الأوساط الأكاديمية الأمريكية، لكن بحسب تجاربي، هذا يصح على الشرائح المهيمنة على الأوساط السياسية والثقافية والإعلامية في واشنطن العاصمة، وعلى النخب التي تسيّر أمريكا. صرّح توكفيل

---

(33) Conor Cruise O'Brien, «Purely American: Innocent Nation, Wicked World,» *Harper's* (New York) (April 1980).

(34) Fulbright, *The Arrogance of Power*, p. 27.

(وهو أشهر أوروبي معجب بأمريكا) «لا أعرف بلداً حيث لا يوجد استقلال حقيقي للرأي وحرية النقاش مثل أمريكا. . . تضع الأغلبية حواجز هائلة أمام حرية الرأي: في داخل هذه الحواجز يمكن لأي كاتب أن يكتب ما يشاء، لكنه سوف يندم إن تجاوز هذه الحواجز»[35].

ومثل هذا الوصف كان من معاصر لتوكفيل هو مواطنه الماركيز دو كوستين متحدثاً عن نيقولا الأول ملك روسيا، فإنه يمكن وصف هذا القول على أنه من باب المبالغة. ذلك أن أمريكا، قد أنتجت، على الرغم من ذلك، وعلى مر التاريخ، معارضين ومنشقين شهيرين. لكن مجالهم كان أكثر محدوديةً من غيرهم في الدول المتقدمة الأخرى. لقد رفضت الجماهير الأمريكية موجة المعارضة العظيمة خلال الستينات وأوائل السبعينات والتي كانت، إلى مدى بعيد، ظاهرة ثانوية. فضلاً عن ذلك، فقد تتماهى المعارضة جزئياً مع بعض التقاليد الإقليمية والعرقية في الولايات المتحدة، تقاليد لا يمتد تأثيرها إلى الشعب الأمريكي كلّه: «بالرغم من المديح الكاذب للاختلافات الثقافية، يبدو أن الأمريكان تنقصهم القدرة على التفكير بالعلاقة بين المجموعات التي تختلف عنهم كلياً ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً»[36].

واحد من أهم مصادر قوة العقيدة الأمريكية والقومية المدنية في المجتمع الأمريكي أنها تجمع بين التنوير والتيارات الدينية البروتستانتوية في التقاليد الأمريكية القديمة، بطريقة يختصرها عمل جوليا وارد هوي: «أهزوجة المعركة من أجل الجمهورية»، والتي

---

(35) Tocqueville, *Democracy in America*, p. 305.

(36) Robert Bellah [et al.], *Habits of the Heart: Middle America Observed* (Berkeley: University of California Press, 1985), p. 206.

تمزج صوراً من الكتاب المقدس مع الصور الليبرالية. لقد تماهت مملكة الله مع جمهورية أمريكا[37].

وحين بدأ «الخط الرئيس» للبروتستانتية في أغلبية الولايات المتحدة (لكن ليس في الجنوب الأوسع كما سنرى) يتجه أكثر فأكثر نحو الليبرالية والتسامح في القرن العشرين، تشكّل في الوقت نفسه تيار من شبه البروتستانتية الغامضة «الدين المدني» البروتستانتوي كجزء مركزي من هذا التوافق الوطني. هذا الدين المدني مدين لإيمان مؤسسي الجمهورية بالله، والذين أكدوا أيضاً الأهمية المركزية للدين من أجل ديمومة الجمهورية، من دون تخصيص ماهية هذا الدين (لكن من المؤكد أنهم قصدوا نوعاً من أنواع البروتستانتية).

وقد تكرر ترديد قول الرئيس آيزنهاور، «ليس لحكومتنا أي معنى ما لم تتأسس على الشعور بالإيمان الديني العميق، ولا يهمني ما يكون هذا الدين»[38]. زادت قوة التماهي بين الفضيلة المدنية الإيجابية للدين مع القومية خلال الصراع ضد «الشيوعية الملحدة»[39]. صار هذا الانتشار للثقافة الدينية اليهودية ـ المسيحية، من دون تخصيص، بدوره جزءاً مما أسماه ويل هربرغ، وروبرت بيلاه وغيرهما، «الدين المدني» الأمريكي الذي يتكوّن من مزيج من مبادئ العقيدة الأمريكية مع مجموعة من الأساطير التاريخية والثقافية

---

(37) John Higham, «Hanging Together: Divergent Unities in American History,» *Journal of American History*, vol. 61, no. 1 (June 1974), and Sidney E. Mead, *The Nation with the Soul of a Church*, ROSE; no. 10 (Macon, GA: Mercer University Press, 1985), pp. 71-77.

(38) ذكر في: Mead, Ibid., p. 25.

(39) Hughes, *Myths America Lives By*, p. 171.

عن الأمة[40]. وأصبح بالتالي جزءاً ثقافياً متمماً يغلف الصيغة الأمريكية الراهنة للقومية المدنية.

أحد الكتب المنهجية للصف الرابع (لعمر عشر سنوات) عنوانه **شعبنا** (*Our People*) يختصر بعض جوانب هذا الدين المدني، ويستهدف بشكل خاص الاندماج القومي: تبدأ المناقشة في الكتاب بمناقشة طقس وطني جوهري، مراسيم تدشين رئاسة الجمهورية، وزيارة لمتحف لينكولن وغيرها من المواقع في واشنطن. من الواضح أن هذا التقديم يستهدف إثارة مشاعر الانتماء للمجتمع الوطني. ويختم هذا الفصل بتعليق لشخصية خيالية: قالت ماريا لبيدرو: «نعم، أنها دولة عظيمة. نحن جميعاً أمريكان»[41].

يعكس الامتثال في المواقف الأيديولوجية جزئياً التعريف الذاتي للأغلبية العظمى من الأمريكان على أنهم من «الطبقة المتوسطة». لقد أصبح هذا التعريف غير ذي علاقة مع الطبقة بمعناها الاقتصادي، لكنه يتعلق بكون المرء «محترماً»، ما يعني قبل كل شيء، الاشتراك بمجموعة معينة من القيم العامة، بضمنها العقيدة الأمريكية والقومية الأمريكية.

---

(40) انظر: Will Herberg, «America's Civil Religion: What It Is and Whence It Comes,» in: Russell E. Richey and Donald G. Jones, eds., *American Civil Religion*, Harper Forum Book (New York: Harper and Row, [1974]), and Robert N. Bellah: «Civil Religion in America,» *Daedalus*, no. 96 (Winter 1967), and *The Broken Covenant: American Civil Religion in a Time of Trial.*

(41) Adam Gamoran, «Civil Religion in American Schools,» *Sociological Analysis*, vol. 51, no. 3 (Autumn 1990), Quoted in: Fay Adams and Ernest W. Tiegs, *Our People: Tiegs-Adams Our Land and Heritage Series, Level 4* (Lexington, MA: Ginn, [n. d.]).

يعيش موروث الستينات وموروث التقاليد الراديكالية الأقدم، في الجامعات الأمريكية، بالرغم من أن هذه الجامعات، غالباً ما تعاني نمطها الخاص من الامتثال الليبرالي. فضلاً عن ذلك، لا بد من القول إن هذه الأساطير هي في جذورها ومواقعها أساطير بيضاء. على السود وغيرهم ممن يريدون الانتماء للمؤسسة أن يعبدوا هذه الآلهة للإمبراطورية الأمريكية الحضارية، علنياً في أقل تقدير. ولكن وكما لاحظ ريتشارد هيوغ، بالرغم من إيمان السود بالعقيدة الأمريكية وتقديمهم فروض الولاء لها، لكن كل واحدة من أساطيرها تأخذ شكلاً هزلياً جداً عند النظر إليها من منظار تاريخ السود أو سكان أمريكا الأصليين[42].

وفي ما يتعلق بعالم واشنطن العاصمة، الرسمي وشبه الرسمي، يمكنني أن أشهد من تجاربي الخاصة على استمرار صدق المقطع الآتي من كتاب لويس هارتز، وهو أعظم دارسي العقيدة الأمريكية ونتائجها، وقد كتبه في الخمسينات:

حين تكون قيمنا الأسمى مقبولة أينما توجهنا، فإن اللغة المطلقة الدالة على الذات تصبح سهلة بما يكفي. هذا هو إذاً مزاج الاستبداد الأمريكي: الإيمان الواعي بأن قواعدها واضحة للعيان. إنه أقوى أشكال الاستبداد في العالم. . . لقد كانت مفرطة الثقة بنفسها إلى حد أنها تكاد لا تحتاج لبيان، ومفرطة الاطمئنان إلى حد أنها صارت حتى قادرة على دعم البراغماتية التي تبدو في ظاهرها مناقضة

---

(42) إن كل فصل من كتاب هيوغ *Myths America Lives By* يتبعه مقطع ختامي حول موضوع سبق أن عالجه من وجهة نظر الرجل الأسود، انظر: Richard Rorty, *Achieving Our Country: Leftist Thought in Twentieth-Century America*, William E. Massey, Sr. Lectures in the History of American Civilization; 1997 (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1998), pp. 31-32.

لها. كانت البراغماتية الأمريكية على الدوام مخادعة، لأنها كانت، مثل جبل الجليد، تستند إلى أميالٍ من القناعات الكامنة، كما أن أخلاقيات الامتثال التي تنتج من هذه القناعات، وكانت على الدوام تثير الغضب لأنها ترفض السماح لناقديها بحق النقاش[43].

ونتيجة لذلك، هناك توجه قوي للتعامل، حتى مع المعارضين المسموح بهم، على أنهم مهرجون؛ يرنّون أجراسهم ويجرؤون في بعض المناسبات على ضرب الملك الديمقراطي على رأسه بكيس مليء بالماء ويخبرونه أنه أحمق؛ فيقهقه الملك ضاحكاً ويرمي لهم بعض العظام، ولكن هل يستمع إليهم؟ في أحيان كثيرة، نعم! مثلما فعل الملك لير الذي استمع لهم حين لم يعطه الواقع البيّن أي خيار آخر، وجاءت نصيحة المهرّج بعد فوات الأوان فلم تفده بشيء. ربما ينبغي ألا يشتكي المرء. إن أمريكا لا تزال حتى الآن دولةً تقمع المعارضة، ومن الأفضل أن يضع المرء قبعة المهرج بدلاً من قيود السجناء، أو حتى حبل المشنقة.

مع ذلك يظل هذا الامتثال خطراً علي الحرية والنقاش الصريح والأمين للقضايا العامة، خصوصاً في أزمنة الحرب، حين تتفاقم الأمور بتصاعد القومية. وما يثير الخشية بشكل خاص، امتزاج ذلك الشعور مع الولاء والثقة التي يشعر الكثير من الأمريكان بها في زمن الحرب بشكل عفوي تجاه رئيسهم وإدارتهم، هو ما انعكس لشهور عدة بشكل إذعان وسائل الإعلام المهيمن في أمريكا لإدارة بوش بعد 11 أيلول/ سبتمبر[44].

---

(43) Hartz, *The Liberal Tradition in America; an Interpretation of American Political Thought Since the Revolution*, pp. 58-59.

(44) انظر: Eric Alterman, *What Liberal Media?: The Truth about Bias and the News* (New York: Basic Books, 2003), pp. 268-292.

إحدى نتائج وجود خطاب قومي مبني على توافق أيديولوجي صارم هو أنه يمنح لبعض الكلمات قوة، وصفها و. هـ. أودن عام 1967 «بالسحر الأسود»، وهي قوة قادرة على إيقاف قدرة المشاهدين على التفكير المستقل: «ما هو أكثر قتلاً من الكلمات العاطلة هو استخدام كلمات السحر الأسود... بالنسبة لملايين الناس اليوم، فإن كلمات مثل الشيوعية، والرأسمالية، والإمبريالية، والسلام، والحرية، والديمقراطية لم تعد كلمات يمكن البحث عن معانيها أو مناقشة مغزاها، بل أصبحت ضجة، صحيحة أم خاطئة، يكون رد الفعل عليها لا إرادياً مثل رد فعل الضرب على الركبة»[45].

في خطابه الافتتاحي عام 1952 صرح الرئيس آيزنهاور أن «الحرية تقف في مواجهة العبودية، والنور يواجه الظلام»، فإنه كان يعبر بالطبع عن حقيقة الشيوعية الستالينية، لكنه في الوقت نفسه كان يحشد روح الاستبداد في أمريكا، وهو ما يبدو أنه ندم عليه في ما بعد[46]. من المؤكد أن هذا الندم المتأخر عن النزعة المسيحانية، كان ندماً حقيقياً حتى بالنسبة لأشهر من امتدح هذه المسيحانية، بمن فيهم هرمان ملفيل (في قصيدة كلاريل (Clarel)) ووالت ويتمان. أما راينهولد نايبور الذي نَحتَ جملة «أطفال النور وأطفال الظلام» خلال المعركة مع الشمولية في الحرب العالمية الثانية، فقد صار في ما بعد من أشد منتقدي الغرور

---

(45) W. H. Auden: «To Keep the Human Spirit Breathing,» (Speech Upon Acceptance of the 1967 Medal for Literature, Smithsonian Institution, Washington, DC, 30 November 1967), and «To Keep the Human Spirit Breathing,» *Washington Post Book World* (24 December 1967).

(46) ذكر في: Conrad Cherry, ed., *God's New Israel: Religious Interpretations of American Destiny*, Rev. and Updated ed. (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1998), p. 304.

الأمريكي، واختلاق الأساطير وخداع الذات[47].

لقد لوحظ بعد 11 أيلول/ سبتمبر بشكل واسع استغلال إدارة بوش لكلمات «الإرهاب» و«الشر» من أجل إحكام غلق أبواب احتمالات قيام نقاشات ذكية بشأن الاستراتيجية الأمريكية. لكن هذا لا يقل صحة عن استخدام الإدارة لكلمة «الحرية»، وتماهي هذه الكلمة مع الولايات المتحدة وسياسات الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. كوّنت إدارة بوش تعويذات لفظية استنبطتها من العوامل الجوهرية للتوافق الأيديولوجي الأمريكي، وحتى وصول الوضع بعد حرب العراق إلى ما أفسد السحر، فإن هذه الكلمات أتاحت وقتاً أطول لكي يعزف المزمار السحري ويسحر أغلبية الأمة.

لا يزال ما كتبه المؤرخ والمفكر السياسي الجنوبي س. فان وودوارد حول هذا الموضوع إبان حرب فييتنام يصح في هذه الأيام: «إن التكيّف الأمريكي المميّز مع المعضلات الخارجية والداخلية الراهنة التي تدحض أساطيرنا القومية لم يكن في التخلي عن هذه الأساطير بل في إعادة توكيدها. يجري البحث عن الحلول ضمن خطوط التقاليد. . .وعلى الرغم من الخلافات كلها، والعداوات التي تفصل بين الدعاة والمعارضين (لابد من الاعتراف بأهميتها)، يظل الطرفان ثابتين على الالتزام بإحدى الأساطير القومية الشائعة أو الأخرى»[48].

---

(47) Reinhold Neibuhr, «The Children of Light and the Children of Darkness,» in: Reinhold Niebuhr, *The Essential Reinhold Niebuhr: Selected Essays and Addresses*, Edited and Introduced by Robert McAfee Brown (New Haven: Yale University Press, 1986), pp. 160-181.

حول خيبة ملفيل (Melville) اللاحقة، انظر: Bercovitch, *The Puritan Origins of the American Self*, pp. 180-181.

(48) Comer Vann Woodward, *The Burden of Southern History*, Rev. ed. (Baton Rouge: Louisiana State University Press, [1968]), p. 218.

قد يبدو مدهشاً أن مثل هذا المقطع لا يزال صحيحاً بعد عقود عدة، خصوصاً بعد الدروس الرهيبة التي يفترض أن علمتنا إياها تجربة فييتنام. ومثل العديد من الأدبيات والأفلام السينمائية الجيدة عن فييتنام، يطرح فيلم المخرج فرانسس فورد كوبولا «القيامة الآن» (Apocalypse Now) [1979] من بين أشياء أخرى تساؤلات عميقة حول الأساطير القومية المدنية عن الولايات المتحدة؛ ومن ضمن ذلك، التساؤلات حول حتمية نجاحها، وبراءتها، وحسن نواياها، ومهمتها القومية. وكما قال بطل الفيلم كابتن ويللارد (مارتن شين) عن مهمته: «أردت مهمةً، وبسبب الخطايا التي ارتكبتها فقد أعطوني مهمة... كانت مهمةً اختيارية. وحين أنتهي منها، لن أرغب أبداً في مهمةٍ أخرى»[49].

حينذاك كانت الأغلبية العظمى من الأمريكان تؤيد هذا الاستنتاج. بعد ربع قرن، يبدو أحياناً كما لو أن المرحلة التاريخية بأكملها قد مُحيت من الذاكرة الجمعية للشعب الأمريكي. وكما عبّرت لورين باريتز بحرقة عام 1985، في فصل عنوانه «الترنيمة الأمريكية»: «فإن قوتنا، ورضانا عن الذات، وتصلبنا، وجهلنا بعيدين عن إدخال تجربة فييتنام في أسلوب تفكيرنا عن أنفسنا وعن العالم... بدا لهنيهة قصيرة، في أواخر السبعينات، كما لو أننا اكتسبنا بعض الشكوك حيال توجهاتنا الدولية والثقافية. بدا كما لو أنه بإمكاننا أن نمتلك الجرأة والحكمة لنقلق ليس بشأن فييتنام وحدها، بل بشأن أنفسنا. لكن ليس ثمة حاجة للتفكير إلا إن كان

---

(49) للإطلاع على تحليل فيلم «القيامة الآن»، انظر: John Hellmann, *American Myth and the Legacy of Vietnam* (New York: Columbia University Press, 1986), pp. 188-204.

ثمة شك، لقد أكد الرئيس ريغان لخريجي وست بوينت، «انتهت مرحلة الشك بالذات». لقد تحررنا من الشك، ومعه تحررنا من التفكير. يبدو الكثير من الأمريكان اليوم وكأنهم يشعرون بالرضا عن أنفسهم»[50].

هذا الانطباع الأولي زائف إلى حد ما. بعض أكثر دروس فييتنام مرارةً قد رسخت في أعماق الوعي الأمريكي. ففي 2003 ـ 2004 أعادتها إلى الذاكرة الحية، أحداث المرحلة الدموية والفوضوية لما بعد الانتصار في العراق. وبعد مرور سنتين على 11 أيلول/ سبتمبر انمحت إلى حد كبير، إذ غمرها مد من الأساطير القومية التي كان من الصعب مجادلتها. والمدة التي علّقت فيها ذكريات فييتنام لم تكن طويلة، لكنها كانت طويلة بما يكفي لكي توصل أمريكا إلى العراق[51].

إن شخصية رونالد ريغان حاسمة لفهم كيفية تعامل أمريكا مع إرث فييتنام ونتائج ذلك على أمريكا اليوم وفي المستقبل[52]. بينّت سياسة ريغان الخارجية أنه وأكثرية إدارته كانوا مصممين على عدم التورط في أي نزاع كبير، وأنهم أدركوا بشكل جيد مدى مرارة أي حرب لا تتمتع بالشعبية بين أوساط الشعب الأمريكي. لهذا فإن

---

(50) Loren Baritz, *Backfire: A History of How American Culture Led Us into Vietnam and Made Us Fight the Way We Did* (New York: W. Morrow, 1985), pp. 349-350.

(51) Stanley Hoffmann, «The High and the Mighty,» *American Prospect* (January 2003).

(52) Richard Slotkin, *Gunfighter Nation: The Myth of the Frontier in Twentieth-Century America*, Oklahoma Paperbacks ed. (Norman: University of Oklahoma Press, 1998), pp. 643-654.

الصورة التي رسمها الجناح اليساري لريغان بوصفه داعية حرب هي صورة خاطئة تماماً[53].

تتطابق إدارة ريغان مع سمة أساسية لنخبة الأمن القومي الأمريكي ومجمع الصناعات العسكرية، وهذا ما سنبحثه في الفصل الخامس: أي تحديث أنهم يميلون إلى أن يكونوا «مشربين بالروح العسكرية لكنهم ليسوا مولعين بالقتال». وبحسب خطاب ريغان فإن «الموصِل الأعظم» كان مرمماً عظيماً للأساطير المؤسِسة للقومية الأمريكية، التي شوهتها فييتنام إلى حد بعيد، وكانت هذه قناعة لا تناقش لأنه كان هو نفسه يؤمن بها بالكامل، وخصوصاً إيمانه ببراءة أمريكا وبموقع أمريكا المتفوق، وكون أمريكا هي وطن حرية الإنسان والتقدم. كان ريغان يحمل «إيماناً بريئاً لا يهتز بأسطورة تميز أمريكا»[54]. وبحسب وصف غاري ويلز الرائع، فقد كان ريغان «المهيّج مسترضي الغوغاء»[55].

أثبت هذا المزيج الريغاني أنه مثالي لطمأنة الأمريكان بعد الصدمة المركّبة لهزيمة فييتنام، الانشقاق المرير في الداخل، وفضيحة واترغيت، وأزمة الرهائن في إيران. لكن ما هو أكثر أهمية بكثير في هذا المزيج كان، حسبما قال وودوارد، أن ريغان «أعاد توكيد» الأساطير القومية لأمريكا. كما أنه فعل ذلك بأسلوب لم يقتصر لأن يؤدي إلى تهدئة أغلبية الأمريكان وحسب، بل وحّد

---

(53) Stanley Hoffmann: «The Great Pretender,» *New York Review of Books*: vol. 23, no. 9 (May 1987), and «The Vicar's Revenge,» *New York Review of Books*, vol. 31, no. 9 (May 1984).

(54) Lou Cannon, *President Reagan: The Role of a Lifetime* (New York: Simon and Schuster, 1991), p. 793.

(55) Wills, *Reagan's America: Innocents at Home*, p. 94.

صفوفهم أيضاً. وفي هذا المجال كان ريغان عبقرياً، جعلته مواهبه التمثيلية وتماهيه الأصيل مع بلاده ومواطنيه شخصيةً وحدت بلاده أكثر بكثير من جورج دبليو. بوش الذي يمثّل المزيج القومي نفسه لكن بصيغة أكثر فجاجةً.

في مقالته الرائعة التي حملت عنوان «العناية بالأسطورة العامة وترميمها»، المنشورة عام 1982، تفحّص وليام مكنيل الأساطير الكلاسيكية الأمريكية في التفوق والنزعة التطوعية لعمل الخير، وقال: «ربما ليس بمقدور أحد إعادة توكيد هذه المفاهيم التي ضعفت الثقة بها اليوم، بالرغم من افتراض الخطاب العام واقعية مثل هذه الأساطير من دون التصريح بذلك علناً. ليس لدى السياسيين والصحفيين خيارٌ واسع حقيقة، فالأساطير القومية والدولية التي تم تنقيحها بشكل مناسب تصبح أكثر جلاءً عند غيابها»[56].

يشير هذا المقطع إلى المسؤولية الكاملة لريغان، وبالتأكيد مسؤولية كل من صوّت له. إذ بعد كل شيء قد انتخبوه لأنه نجح نجاحاً باهراً في استعادة أساطيرهم عن بلادهم، ومن بين ذلك الإيمان بأن فيتنام لم تكن إلا حرباً صليبيةً[*] نبيلة[57]. كانت النتيجة أنه في حين لا يتذكر الأمريكيون فيتنام المحفورة عميقاً في

---

(56) William H. McNeill, «The Care and Repair of Public Myth,» in: William H. McNeill, *Mythistory and Other Essays* (Chicago: University of Chicago Press, 1986).

للإطلاع على نقد هذا الموضوع، انظر: Slotkin, *Gunfighter Nation: The Myth of the Frontier in Twentieth-Century America*, pp. 626-628.

(*) مصطلح حرب صليبية (Crusade) لا يشير إلى حروب الفرنجة المعروفة بل إلى أي حملة أخلاقية للخير العام.

(57) انظر: Cobb, *The American Foundation Myth in Vietnam: Reigning Paradigms and Raining Bombs*, pp. 196-198.

نفوسهم، إلا باعتبار أنها تجربة بغيضة يجب تحاشي تكرارها، فإن دروسها الأكثر عمقاً لم يتعلمها أحد، وفي أيامنا هذه ثبت أنه من الممكن «إعادة توكيد المفاهيم التي ضعفت الثقة بها».

أحد أسباب ذلك هي أنه بالرغم من أن حرب فييتنام كانت تجربة رهيبة لأولئك الأمريكان الذين حاربوا فيها، إلا أن عدد هؤلاء كان قليلاً، وكما ذكرنا سابقاً فإن هذه الحرب تشبه الحروب الأوروبية والآسيوية، أو حتى تجربة الفييتناميين، إذ إن الأمريكيين في الداخل لم يتأثروا بها بشكل مباشر: «بالنسبة لأغلبية الأمريكان كانت النتائج الملموسة للنزاع في جنوب شرق آسيا طفيفةً بشكل كبير»[58]. كان هذا النقص في المعرفة الشخصية للحرب ينطبق بالطبع على ريغان نفسه، كما أنه يصح على جورج دبليو. بوش وجميع رجال إدارة 2000 ـ 2004 الذين كانوا في سن العسكرية خلال حرب فييتنام، لكنهم لسبب أو لآخر لم يخدموا فيها.

وبطريقة أخرى، فإن صدمة فييتنام كانت من ناحية ثانية عميقة جداً إلى حد استحالة مواجهتها: ليس بأقل من «موت الإله القومي» والدين القومي حول البراءة الأمريكية والطيبة وهبة الله بالنجاح. من دون هذه القناعات، كان ثمة خشية في أنه، في مكان ما في أعماق شبه الوعي لدى الأمريكان، قد تضمحل القومية المدنية للولايات المتحدة وتموت بدورها. لهذا كان لابد من ترقيع الإله القومي الساقط وإعادته إلى قاعدته[59].

من اللافت أن كلاً من مقالة مكنيل والدراسة الرائعة لجون هيلمان عن المقاربات الأدبية والسينمائية الأمريكية لموضوع فييتنام

---

(58) Hellmann, *American Myth and the Legacy of Vietnam*, p. 222.

(59) المصدر نفسه، ص 135-136، و Cobb, Ibid., pp. 151-192.

تدعو إلى إعادة النظر بالأساطير الأمريكية وفق أسسٍ جديدةٍ، تكون أكثر تقدميةً وأمانةً وذات شجاعة أخلاقية. لكن أياً منهما لم يقترح محاولة التخلي عن الأساطير القومية تماماً[60]. يمكن النظر إلى فيلم الممثل والمخرج كلنت إيستوود عنِ مرحلة ما بعد فييتنام، «جوزي ويلز الخارج على القانون» (The Outlaw Josie Walles) (1976) على أنه محاولةٌ للمساعدة في شفاء جروح الحرب من خلال المزج بين تقاليد هوليوود لأفلام الغرب مع مواقف ثقافية واجتماعية جديدة تهدف إلى خلق ميثولوجيا أمريكية أكثر إنسانيةً، وانفتاحاً وتعدداً عرقياً[61].

الامتثال وما هو قويم سياسياً: الجهل هو الأسطورة

إن أي مجتمع بمثل التنوع والانقسام المرير الذي عليه المجتمع الأمريكي، والذي يتزايد فيه التنوع باستمرار من خلال الهجرة والاندفاع الخلاق والمهلك للتغير الرأسمالي، لربما كان لا يمكنه العيش من دون وجود أساطير قوية جامعة وقومية مدنية قوية يعتمد عليها. لهذا فحتى مع خمود ذكريات فييتنام، فإن تطورات أخرى في داخل مجتمع الولايات المتحدة وثقافته كانت تشجع ميلاً لنشر صيغ من الأساطير القومية والتاريخية الأمريكية تكون أكثر ليناً، وخالية منَ النزاعات، وذات صفات مشتركة. لقد بنيت هذه الصيغ على أساس

---

(60) Baritz, *Backfire: A History of How American Culture Led Us into Vietnam and Made Us Fight the Way We Did*, p. 341.

(61) Slotkin, *Gunfighter Nation: The Myth of the Frontier in Twentieth-Century America*, pp. 632-633.

(62) انظر: Eric Foner, *The Story of American Freedom* (New York: W.W. Norton, 1998), p. xxi.

إسقاط الشكل المعاصر للعقيدة الأمريكية بأثر ينعكس على الماضي[62].

والمثير للاستغراب، أن أسلوب ريغان نفسه يمكن النظر إليه على أنه مرتبط بشكل ما مع الظاهرة التي تبدو للوهلة الأولى غريبة عنها تماماً: نزعة «القويم سياسياً» من جانب اليسار الأكاديمي وممثلي الأقليات العرقية والعنصرية، خصوصاً ما يطبق منها في المدارس. كان هذا يفترض في صيغته الأصلية، تقويم التعصب المنعكس في لغة الإهانة والازدراء التي طالما أهانت واضطهدت مجموعات واسعة من الأقليات في الأمة. في هذا السياق نجحت حركة ما هو قويم سياسياً إلى حد كبير، ولكن فقط في سياق تغيرات أوسع في المجتمع والثقافة. وهذا النجاح من دون شك خير عام، هذا إن تذكّرنا اللغة العنصرية الكريهة التي سادت في الماضي وأساليب التعامل التي شجعت عليها.

لكن المشكلة هي أن هذه الصورة التي قُدّمت بالنتيجة إلى تلاميذ المدارس تميل إلى الامتثال مع الأساطير القومية عن أمريكا بصفتها مجتمعاً بريئاً وسعيداً وخالياً من النزاعات، وإلى أن تروّج للأطروحة الأمريكية في أنقى أشكالها وأصفاها. هكذا ترسم فرنسيس فيتزجيرالد صورة سوفياتية عن مختارات الصُوَر التي تتحدث عن الولايات المتحدة في الكتب المدرسية:

إن معاملة الأقليات الأوروبية هي أكثر واقعية بكثير من معاملة الأقليات غير الأوروبية التي يحرص الناشرون على عدم جرح مشاعرها الحساسة. نادراً ما تبيّن صور النصوص المتوافرة في الأسواق شخصاً من غير البيض وهو يتعرض للعنف، أو يكون قذراً أو فقيراً، إلا إذا كانت الصورة تتعمد إظهار «جيوب الفقر في أمريكا»... يظهر أغلبهم مبتسماً. يمكن العثور على صور عمال

مزارع لاتينيين لكنهم على الدوام عمال نظيفون ويظهرون مستمتعين بعملهم. أنهم دوماً مبتسمون لسيزار تشافيز. ويبتسم البورتوريكيون الأصحاء. يبتسم الصينيون عند بسطات الخضار ومظهرهم صحي. من المؤكد أن الجميع يبذل جهده ليبتسم لكي تتخيل أن جميع سكان الولايات المتحدة من غير البيض قد تناولوا حبوب السعادة. (بالمقابل يظهر الروس جماعة يغلب عليهم العبوس. ويعود عبوسهم إلى مرحلة في الخمسينات حين أثارت مجموعة من منظمات الجناح اليميني ضجة كبرى بشأن صورة فوتوغرافية لأطفال روس مبتسمين)... ليس المحافظون وحدهم في ذلك، لكن للتقدميين أيضاً ميلاً قوياً للاقتناع أن على المدارس أن تقدم العالم، أو البلد، بوصفها بناءً مثالياً. الرقابة على الكتب المدرسية هي ببساطة الوجه السلبي للمطالبة بأن تصور الكتب العالم على أنه يوتوبيا الحاضر الأبدي»[63].

تصف ديان رافتش كيف هاجم ممثلو اليسار والأقليات في أواخر الثمانينيات، كتاباً مدرسياً عن تاريخ أمريكا من تأليف غاري ب. ناش، وهو مؤرخ تقدمي لا غبار عليه، وقد اتهموه يومها

(63) Frances FitzGerald, *America Revised: What History Textbooks Have Taught Our Children about Their Country, and How and Why those Textbooks Have Changed in Different Decades* (New York: Vintage Books, 1980), pp. 100-101 and 218.

(64) Diane Ravitch, *The Language Police: How Pressure Groups Restrict What Students Learn* (New York: Knopf, 2003), p. 101.

للإطلاع على المزيد من مختارات الكلمات الأكثر بلادةً و أفعال ما يقوم به دعاة القويم سياسياً، انظر: David E. Bernstein, *You Can't Say That!: The Growing Threat to Civil Liberties from Antidiscrimination Laws* (Washington, DC: Cato Institute, 2003).

«بمعاداة السود، ومعاداة السامية، ومعاداة المسلمين، ومعاداة السكان الأصليين لأمريكا، ومعاداة مثليي الجنس، ومعاداة المسيحيين»[(64)].

بعدها ببضع سنوات، وفي أواسط التسعينات، تعرض الأستاذ ناش وزملاؤه لهجوم متوحش من اليمين القومي، (وقد أدّت لين تشيني مرة أخرى دوراً قيادياً في المسألة)، عن عملهم لتقديم مجموعة كتب مقترحة لتدريس التاريخ الوطني في المدارس، إذ زعموا أنها تتجاهل أبطال أمريكا، وتشكك بالأساطير الأمريكية، وتشوّه الوطنية الأمريكية. والمجموعات المسؤولة عن الهجوم كانت في أغلبيتها قد أجبرت خلال 1994 ـ 1995 معهد سميثسونيان[(*)] في واشنطن العاصمة على إلغاء معرض يبين تأثيرات القصف النووي في هيروشيما، كما أجبرت مدير متحف الجو والفضاء على الاستقالة[(65)].

إن هذا الميل نحو تقديم صورة وطنية لطيفة لأمريكا «من دون جرائم غامضة ولا نزاعات جانبية» بحسب وصف فيتزجيرالد، قديم جداً[(66)]. ووصفها الأول لأمريكا نُشر في العام 1979. لكن الصحفي البريطاني أندرو غمبل، أشار إلى وجود مشاعر مشابهة عام 2003 حين ذهب ابنه إلى المدرسة في كاليفورنيا أول مرة. تستحق مقالته اقتباساً مطولاً لما جاء فيها، بوصفها نموذجاً لرد الفعل المروّع لمواطن يمثل

(*) معهد سميثسونيان: نسبة إلى العالم البريطاني جايمس سميثسون (Smithson)، وهو أكثر وأضخم وأشهر مؤسسة للمتاحف والدراسات في أمريكا والعالم.

(65) Gary B. Nash, Charlotte Crabtree and Ross E. Dunn, *History on Trial: Culture Wars and the Teaching of the Past* (New York: A. A. Knopf, 1997), pp. 124-126 and 149-277.

(66) Lind, *The Next American Nation: The New Nationalism and the Fourth American Revolution*, p. 273.

الوسط سياسياً، ومن دولة تتحدث الإنجليزية وحليفة للولايات المتحدة، حيال سلوك هو من المسلّمات بالنسبة لمعظم الأمريكيين:

«حتى بعد مضي خمس سنوات على وجودي في الولايات المتحدة، ما زلت أشعر بالدهشة من الحضور الكلي للامتثال الوطني... ولأن تعليم طفلي هو على المحك، فإنني لا أستطيع إلا أن أتأمل الرابطة بين ما يغذون عليه الأطفال الذين لا يتجاوزون السادسة من عمرهم وما يعرفه الأمريكان البالغون ويفهمونه بشأن العالم الأوسع. ثمة كثير مما يستحق الإعجاب في الصيغة الفريدة للمثالية التي تسيّر المجتمع الأمريكي، بإيمانها الذي لا يتزعزع بالمبادئ الدستورية للحرية، وفرصها المتاحة اللامتناهية. لكن غالباً ما تصبح المثالية هي الغطاء الذي يخفي حقائق أكثر بشاعة في الولايات المتحدة وعن الطريقة التي ترمي بثقلها الاقتصادي والسياسي والعسكري في العالم. يجري تجنيد الأطفال منذ بداية سنواتهم الدراسية لكي يؤمنوا بالمشروع الذي ربما يمكن تسميته الفريق الأمريكي الذي تتركز تردد ترنيمته: نحن فتية طيبون، نسعى دوماً لفعل ما هو صالح، نحن نعيش في أعظم دولة في العالم. ليس ثمة وجهة نظر أخرى، وليس ثمة تكوين ثقافي مختلف، ومن المستحيل التفكير جدياً بهكذا أمور...

إن التلاعب بالتعليم هو أكثر براعةً، بل ويمكن القول إنه أكثر مكراً مما كان عليه منذ 50 عاماً في ذروة الحرب الباردة والرعب الأحمر. آنذاك، كانت معركة العقول والقلوب تجري بشأن الاستبعاد المباشر لبعض الكتب والمواضيع التي تسعى لتحقيق أهداف سياسية... أما في هذه الأيام، فلم يعد الأمر مقتصراً على منع الكتب، بالرغم من حصول ذلك في بعض أجزاء البلد حيث يسيطر اليمين المسيحي، بل الأمر يتعلق بالامتثال المنهجي. في الماضي

كان يمكن لمعلم ملهم أن يتغلب على نواقص الكتب المدرسية غير السليمة وجنون العمى الإداري. لكن مع زيادة محددات الكتب الدراسية وتوحيدها... صار [المعلمون] مجبرين واقعياً على المشاركة الضمنية في أدعاء هذه الكتب المدرسية من أن كل نزاع تاريخي قد تم حسمه الآن، وأنه يمكن تلخيصه ببضعة سطور مهدئة من التحليل عديم المعنى تقريباً»[67].

وينقل غمبل قصيدة من كتاب ابنه المدرسي تقول:

«أمريكا، أنا أحبك!

لقد رحبوا بجميع الأعراق،

ومن الأمكنة كلها،

لكي يستقروا على شاطئهم..

ومنحوهم الحماية

بانتخابات شعبية،

مجموعة قوانين يختارونها.

أنها قوانينك وقوانيني،

من أجل قضيتك وقضيتي

لهذا الهدف نهض هذا البلد»[68].

قد تثير هذه الكلمات غضب أي شخص أسود أو من السكان

---

(67) Andrew Gumbel, «What Americans Know,» *Independent* (London), 9/9/2003.

المقاطع التي نقلناها مأخوذة من النص الأصلي غير المنشور للمقالة، قدمها الكاتب.

(68) في ما يتعلق باستمرار التنقيح للحرب الأهلية الأمريكية وحذف السود والعبودية مما يقدم عن هذا النزاع، انظر: Eric Foner, *Who Owns History?: Rethinking the Past in a Changing World* (New York: Hill and Wang; Farrar, Straus and Giroux, 2002), pp. 189-204.

الأصليين لأمريكا، لكن وكما يشير غمبل، فإن أغلبية الأطفال الأمريكان تأخذها على أنها طبيعية. هذا الميل القومي يرافقه انحطاط أوسع للدراسات التاريخية وللثقافة العامة (وهو بالطبع انحطاط لا يقتصر على الولايات المتحدة وحدها). والنتيجة هي أن معرفة الأمريكان بالعالم وبتاريخهم نفسه، لم ينحط على مدى السنوات الستين الأخيرة، لكنه أيضاً لم يتحسن عن المستوى البائس الذي كان عليه منذ ذلك الحين. عام 2001 كان 57 بالمئة من طلبة المدارس الثانوية بمستوى «أدنى من الأساسي» في التاريخ، من بينهم 11 بالمئة فقط بمستوى جيد أو متقدم(69). في العديد من الحالات الفردية كان مستواهم الجهل المطبق؛ غير أن هذا لا يمكن أن يكون حال المجتمع ككل، الذي يحتاج إلى نوعٍ من المبادئ الأساسية في الثقافة لكي يكون فاعلاً. بالنسبة لعموم أمريكا فإن غياب المعرفة التاريخية لا يعني الجهل، بل وجود الأسطورة.

طرح مايكل ليند بمنطق مقنع أن مزيجاً مما هو قويمٌ سياسياً مع نظام معقول، (محدود جداً ومختار) من تمييز إيجابي للأقليات يخدم في الواقع مصالح ما يسميه «ما فوق الطبقة». ما فوق الطبقة هذه لا

---

(69) *The National Assessment of Educational Progress* ([Washington, DC: U.S. Dept. of Education, Office of Educational Research and Improvement, 2001]); Brian Friel, «Don't know Much About History,» *National Journal* (2 August 2003); Cheryl Wetzstein, «Seniors' History Scores 'Abysmal'; Fourth- and Eighth-Graders Outperformed 12th-Graders in a National History Survey, with 57 Percent of Seniors Failing to Show 'Basic' Knowledge of the Subject - Education - National Assessment of Educational Progress - Statistical Data Included,» *Insight on the News* (10 June 2002), and Georgie Anne Geyer, «What Happened to Geography- And Just Where Is Iraq?,» *Tulsa World*, 27/11/2002.

للإطلاع على المقارنة بين مستويات التعليم معه في الأربعينات، انظر: Scott Fornek, «What We Don't Know Hasn't Hurt Us,» *Chicago Sun-Times*, 31/7/2003.

تزال بيضاء في الأغلبية العظمى منها، لا بل وحتى من البيض البروتستانت الأنجلوساكسون (WASP)، لكنها تجتذب وتتعاون مع أعداد قليلة من السود وغيرهم من النخب الأخرى، في حين تُحوَّر طاقات الراديكاليين أساساً في اتجاه صراعات عديمة الهدف حول رموز، بعيداً عن القضايا العنصرية الملموسة مثل السيطرة على الهجرة ورفع الحد الأدنى للأجور التي قد تساعد بحق الأعضاء العاديين من الأقليات العرقية الذين يظلون عموماً أكثر فقراً من السكان البيض[70].

هذا النمط من «القويم سياسياً» ليس مجرد نتيجة تحوّل نحو اليسار بين الأوساط الأكاديمية من جهة يُقابل يميناً حديث الراديكالية من الجهة الأخرى. لكنه يعكس أيضاً التغيرات العميقة التي حدثت في المجتمع الأمريكي منذ الستينات: تحرير السود بوصفهم قوة سياسية مهمة واستئناف الهجرة الجماعية من دون محددات عرقية. نتج من ذلك مجتمع جديد كان على أمريكيين من ولاءات سياسية مختلفة الاستجابة له.

وهكذا، فليست الدعاية الرسمية الوطنية الأمريكية فقط، بل الدعاية المرئية للقوميين واليمين الديني هي التي عن قصد تعددية عرقياً بشكل عام (كتاب لين تشيني التمهيدي الوطني مليء بصور أطفال أمريكان من السود والآسيويين وهم يلوحون بالأعلام ويلعبون لعبة الجنود)[71]. ولكي نكون عادلين، فإنه يمكن بالطبع أن نقول

(70) Lind, *The Next American Nation: The New Nationalism and the Fourth American Revolution*, pp. 139-188.

(71) Lynne V. Cheney, *America: A Patriotic Primer*, Illustrated by Robin Preiss Glasser (New York: Simon and Schuster Books for Young Readers, 2002).

تقريباً إن أمريكا خلال الجيل الماضي صارت معقدة إلى حد بعيد، ما اضطر النظام التعليمي أن يرجع إلى أساطير مبسّطة، إذ إن محاولة تعليم أو مناقشة الحقائق هو أمر مستحيل واقعياً.

هذا الترابط بين التنوع والامتثال ليس فقط عفوياً لكنه متعمد. تتسم الثقافة الشعبية الأمريكية بهذه الدرجة من الامتثال لأن الأمة هي بهذه الدرجة من التنوع، ولأن تاريخها في ما يخص الأعراق الأخرى، كان قبل الخمسينات عفناً. بهذا المعنى، يمكن النظر إلى ما هو قويم سياسياً على أنه جانب مما سمّاه محلل القومية الكلاسيكية الفرنسي أرنست رينان (1823 ـ 1892) بشأن خلق الأمم الحديثة: «نسيان ما يمكن تسميته الأخطاء التاريخية، هو عامل حاسم في خلق الأمة، لهذا السبب فإن التقدم في الدراسات التاريخية يحوي غالباً مخاطر تهدد [مبدأ] القومية... جوهر الأمة هو أن لدى الأفراد جميعهم الكثير من العوامل المشتركة، وأن عليهم أيضاً نسيان الكثير من الأمور»[72].

ولأن العديد من الناس والمجموعات التي تشكل أمريكا المعاصرة لديهم في الحقيقة مشتركات قليلة جداً، ولكي يصبحوا أمة واحدة فقد يكون من الضروري للأمريكان أن يميلوا للنسيان أكثر من غيرهم من الشعوب.

إن المثال الذي استخدمه رينان كان يخص ماضي الحروب الدينية الفرنسية. ولو أنه عاش في فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية، لاستخدم عنوان التعامل مع ذكريات الاحتلال الألماني وفيشي؛ وهذه

(72) Ernest Renan, «What Is a Nation?,» Translated by Martin Thom, in: Geoff Eley and Ronald Grigor Suny, eds., *Becoming National: A Reader* (New York: Oxford University Press, 1996), p. 45.

الحاجة للنسيان من أجل بناء الأمة تكون أكثر صحة بشأن ماضي الاضطهاد العرقي في الولايات المتحدة. بهذا المعنى، يمكن القول إن الأمريكان «لا تربط بينهم سوى الأفكار» بالطريقة نفسها التي ارتبط بها المواطنون السوفيات. ولحسن الحظ فإن الأفكار القومية المدنية الأمريكية هي أكثر إيجابيةً وقيمةً من أفكار الشيوعية السوفياتية، لكن هذا لا يغيّر من واقع أنها لا يمكن طرحها للتساؤل من دون تهديد استقرار البناء كله. وبالنتيجة فإن سماتها الشمولية تؤثر في الأيديولوجية التي تحكم السياسة الخارجية الأمريكية، وتجعل تشكيل آراءٍ مستقلةٍ وموضوعية بشأنها أكثر صعوبة حتى لمن يتمتع بأعلى المستويات الدراسية والمعرفية بين الأمريكان، فالقيام بذلك يتطلب المخاطرة بتهديد وحدة التنوع الأمريكي في الداخل[73].

المسيحانية: النموذج والديناميكية

إن ثقافة العقيدة الأمريكية والأيديولوجية الأمريكية هي من التعقيد بحيث إنه حتى هنري كيسنجر، وهو ليس من المثاليين العظماء، تأثر بها ليكتب: «رفض التاريخ يبعث على تمجيد صورة الإنسان العالمي الذي يعيش على وفق مبادئ العالمية، بصرف النظر عن الماضي والجغرافيا، أو أي ظروف ثابتة أخرى.. إن رفض الأمريكي أن يظل مقيداً بالتاريخ، وإصراره على الإمكانية الدائمة للتجديد، تضفي على نمط الحياة الأمريكية سمواً عظيماً، وحتى جمالاً. الخوف القومي من أن أولئك المهووسين بالتاريخ ينتجون نبوءات مرضية للنفس، يُجسّد حكمة شعبية عظيمة»[74].

---

(73) Hunt, *Ideology and U.S. Foreign Policy*, p. 189.

(74) Henry Kissinger, *Diplomacy* (New York: Simon and Schuster, 1994), p. 833.

الأيديولوجية الأمريكية إذاً، مثل الماركسية الكلاسيكية، تؤمن بأنه من الممكن القيام «بقفزة مفاجئة من عالم الضرورة إلى عالم الحرية». أو كما اعتاد ريغان القول (نقلاً عن منظّر الثورة الأمريكية توماس بين (Paine)، «لدينا القدرة على أن نعيد خلق العالم من جديد». وبصفتها صورة أخرى عن شمولية الأيديولوجية الأمريكية، فقد كانت هذه هي الجملة المفضلة لدى الراديكاليين خلال الستينات[75].

لكن كيسنجر كتب أيضاً عن حاجة أمريكا في القرن الحادي والعشرين للتعبير عن قوتها ونفوذها إلى أقصى حد ممكن بوسائل متعددة الجوانب إن كانت لا تريد لهيمنتها أن تتداعى[76]. وهنا يمكن للعقيدة الأمريكية والأساطير المصاحبة لها ولنوعية القومية التي تدعمها، أن تسبب مشاكل جدية. كما أن التماهي العميق للأيديولوجية الأمريكية مع الأمة الأمريكية يُغذي المسيحانية الأمريكية القومية، وهو إيمان بواجب الأمة القومي في إنقاذ العالم. هذا الإيمان يزيد من صعوبة تصور أغلبية الأمريكان أن الولايات المتحدة هي دولة من بين دول أخرى، أو أن «المجموعة الدولية» تشمل

---

(75) انظر: Alan Brinkley, «Battle Formation,» *Washington Post Book World* (14 March 2004).

(76) Henry Kissinger, «The End of NATO As We Know It?,» *Washington Post*, 15/8/1999, Quoted in: Robert Kagan, *Of Paradise and Power: America and Europe in the New World Order* (New York: Knopf, 2003), p. 127.

(77) بشأن الخلفية التاريخية لهذا المعتقد، انظر: Ernest Lee Tuveson, *Redeemer Nation; the Idea of America's Millennial Role* (Chicago: University of Chicago Press, [1968]), and Hughes, *Myths America Lives By*, pp. 19-41.

للاطلاع على صورة أمريكا في الروايات باعتبارها مخلص، محرر ومجدد، انظر: Mark Twain: *A Connecticut Yankee in King Arthur's Court* ([New York: Charles L. Webster and Co., 1889]), and *A Connecticut Yankee in King Arthur's Court* (New York: Modern Library, 1917); «Star Trek» (Original TV Series), and Walter A. =

أمريكا بوصفها عضواً فيها وليس المهيمن عليها[77].

تساهم هذه المسيحانية في قلة عدد المؤمنين الحقيقيين بالأممية في الولايات المتحدة. ولأسباب سنعرضها لاحقاً، فإن هذا قد يسهم أيضاً في وجود نوع من العنصرية. كتب ريتشارد هيوغ بأنه «ربما لا توجد مهمة اضطرارية للأمريكان في القرن الحادي والعشرين أكبر من تعلم رؤية العالم من خلال أعين الآخرين». إن النزعة المسيحانية الملازمة لتركيبة العقيدة الأمريكية والأساطير القومية فيها يجعل تطوير مثل هذه القدرة أكثر صعوبة[78]. وهي تغذّي «ميلنا المتأصل للحكم على الآخرين بموجب مدى سعيهم ليكونوا شبيهين بنا»[79].

مع ذلك من الخطأ الفادح التفكير بأن المسيحانية الأمريكية تدّل ضمنياً على رغبتهم في إنقاذ العالم من خلال الفعل المباشر. ذلك أن ما كان بالقوة نفسها، وما كان أكثر شيوعاً تاريخياً، هو الإيمان بأن مهمة أمريكا تجاه الإنسانية تشمل قبل كل شيء تقديم النموذج[80]. في المناقشات التي جرت بين آل غور وجورج بوش خلال حملة الانتخابات الرئاسية لعام 2000، أكد المرشحان مهمة أمريكا في العالم، لكنهما أكدا أيضاً وجوب ممارسة هذه المهمة، وقبل كل شيء من خلال تقديم النموذج، وصرح بوش تصريحه المشهور

McDougall, *Promised Land, Crusader State: The American Encounter with the* = *World Since 1776* (Boston: Houghton Mifflin, 1997), pp. 81 ff., and Timothy L. Smith, «Righteousness and Hope: Christian Holiness and the Millennial Vision in America, 1800 - 1900,» *American Quarterly*, vol. 31, no. 1 (Spring 1979), pp. 21-45.

(78) Hughes, *Myths America Lives By*, p. 1.

(79) George Frost Kennan, *American Diplomacy, 1900-1950*, Charles R. Walgreen Foundation Lectures (Chicago: University of Chicago Press, [1951]), p. 135.

(80) Hughes, Ibid., pp. 106-108.

«أعتقد أن عليهم [شعوب العالم] النظر إلينا على أننا دولة تفهم الحرية، حيث لا يهم من تكون أو كيف ترعرعت أو من أين أتت، لكي تنجح... لهذا لا أتصور أنهم يجب أن ينظروا إلينا بأي طريقة أخرى مغايرة لما نحن عليه. نحن أمة محبة للحرية. ولو كنا أمةً متعجرفة، فسوف ينظرون إلينا بتلك الطريقة. لكن لو كنا أمةً متواضعة فسوف يحترموننا كأمة جديرة بالاحترام»[81].

واحدة من العروض المبكرة والأكثر شهرة لوجهة النظر هذه وردت على لسان الرئيس جون كوينسي عام 1821:

«لا تذهب أمريكا إلى الخارج بحثاً عن وحوش لتدمرها. بل هي تتمنى الخير لحرية الجميع واستقلالهم. إنها المقاتل والنصير الحر، على مسؤوليته. إنها تدافع عن القضية العامة من خلال محتوى خطابها والنموذج الذي تقدمه مع تعاطفها النافع. إنها تعرف جيداً أنها ما إن تجند نفسها وراء رايات غير رايتها، حتى ولو كانت رايات استقلال الأجانب، فإنها سوف تورط نفسها بما يفوق قدرتها على الخلاص، في حروب المصالح والتآمر كلها، حروب الجشع الخاص، والحسد، والطموحات، التي تحمل ألوان الحرية فيما هي تغتصب معاييرها... قد تصير أمريكا دكتاتور العالم. لكنها حينذاك لن تعود قادرة على أن تكون حاكمة روحها»[82].

وكما تستبطن هذه الكلمات، فإن واحدة من الاهتمامات

---

(81) للاطلاع على نص المناقشة الرئاسية الثانية، انظر: (Wake Forest University, Winston-Salem, North Carolina, 11 October 2000), www.cnn.com/ELECTION/2000/debates.

(82) للاطلاع على الخطاب الرئاسي لـ جون كوينسي آدامز (John Quincy Adams)، في تموز/ يوليو 1821، انظر: Walter Russell Mead, *Special Providence: American Foreign Policy and How it Changed the World* (New York: Routledge, 2002), p. 185.

الضمنية للعديد من الأمريكيين الذين عارضوا التدخلات الخارجية (بما فيها تلك التي حدثت باسم العقيدة الأمريكية). كانت هذه التدخلات تشدها قوة النموذج الذي تقدمه الأمة، وتجعل بالتالي من الصعب على المدى البعيد نشر دروس هذه العقيدة على مستوى العالم[83]. إني أوافق على هذا الطرح بالاستناد إلى ملاحظاتي عن الكيفية التي أدت فيها سمعة الديمقراطية الأمريكية والثقافة المادية إلى تدمير إيمان النخب السوفياتية حتى الأكثر شباباً بالنظام السوفياتي، وبالتالي ساعدت على تدمير النظام نفسه. هذا ما يُذكّر بتنبؤات جورج كينان: «التأثير الأكثر أهمية الذي يمكن للولايات المتحدة تحقيقه في مجال التطور الداخلي في روسيا سوف يظل تأثير النموذج: تأثير ما هي عليه، وليس ما هي عليه بالنسبة للآخرين فقط بل ما هي عليه بالنسبة لنفسها»[84].

مع ذلك، فإن حيوية شريان النزعة المسيحانية في الثقافة السياسية الأمريكية تُقدم أيضاً مصدراً كامناً متواصلاً تستطيع بعض الأحداث التاريخية إبرازه إلى السطح، ويمكن لبعض القوى السياسية استغلاله. وهذا ما ثبت بعد 11 أيلول/ سبتمبر، حين استطاعت إدارة بوش أن تؤسس الكثير من خطابها العام على الإيمان بتميّز أمريكا الاستثنائي وبحقها وقدرتها على جلب الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والتقدم للأمم الأخرى.

أدت الأوساط الأكاديمية وشبه الأكاديمية الأمريكية دوراً مهماً ومعقداً في المحافظة على الأوهام والأساطير التي تدعّم أسس

---

(83) Hunt, *Ideology and U.S. Foreign Policy*, pp. 92 ff., and Fulbright, *The Arrogance of Power*, pp. 21 ff.

(84) George Frost Kennan, «America and the Russian Future,» *Foreign Affairs*, vol. 29, no. 3 (April 1951).

«ديناميية النزعة المسيحانية». عموماً يشكل العالم الأكاديمي الاستثناء لأنماط الأسطورة والامتثال التي رسمناها سابقاً. وهو لم يقتصر على إنتاج نقاد بارزين لنقد هذه الميول، بل وقيام يسار ثقافي يواصل تأثيره الكبير في أوساط الأكاديميين أيضاً، وفي بعض أرجاء العالم في المنظمات غير الحكومية (NGOs). هذا العالم التقدمي والليبرالي اليساري يدعم بدوره عدداً من الصحف الثقافية المحترمة.

هذا هو سبب كراهية اليمين القومي للجامعات. ومن المؤكد، كما في كل مكان آخر، أن بعض هجمات اليسار المثقف على أيديولوجية الولايات المتحدة والنظام الحاكم تستحق نقداً صارماً، لتطرفها وحمقها، وفي بعض الأحيان لكونها شريرة. لكنهم لا يتمتعون بأي نفوذ. إن جميع المثقفين اليساريين تقريباً مستبعدون من وسائل الإعلام المهيمن تماماً ومن الأقسام الأكاديمية ذات العلاقات الوثيقة مع الحكومة. دورهم الوحيد في تلك الحقول هو أداء دور تلقي ضربات اليمين.

قد تتغير هذه الصورة بمرور الزمن، مع تدفق موجات العوالم التعددية لخريجي الجامعات لتجد طريقها إلى عالم السياسة والحكومة؛ ولكن لا توجد حتى الآن إشارات على حدوث مثل هذا. قد يبدو من الطبيعي وجوب استبعاد اليسار الراديكالي من «الاتجاه السائد»، لكن ثمة أمراً آخر هنا: فاليمين الراديكالي ليس مستبعداً هو. وحتى بين صفحات التعليقات في الصحف التي تُعدّ ليبرالية بشكل واسع، مثل **نيويورك تايمز** و**واشنطن بوست**، يتكرر وجود قوميين من الجناح اليميني أمثال جورج ويل، وليام كريستول، روبرت نوفاك،

(85) انظر: Alterman, *What Liberal Media?: The Truth about Bias and the News*, p. 270.

وليام سافاير وتشارلز كروتهامر، على صفحاتها يوماً بعد آخر[85].

في مجالات العلاقات الخارجية والأمن، فإن فرص وجود نقاش مفتوح حقاً بشأن المبادئ الأساسية قد تلقى عدم التشجيع بسبب الروابط الوثيقة بين الحكومة، بعض أقسام الجامعات ومراكز التفكير والصحفيين العاملين في هذا المجال. بالمقابل أدى النظام الأمريكي في التعيينات السياسية، حيث يختار الرئيس حوالى أربعة آلاف موظف من خارج منظومة الخدمة المدنية، إلى محدودية الاستشارة التي تصل إلى الحكومة. وبدلاً من إدخال الهواء إلى رئة البيروقراطية، فقد اتجه النظام إلى جعل بعض أقسام الأكاديميات أكثر بيروقراطية، بخاصة تلك الأقسام التي تؤدي دوراً في مناقشة السياسة الخارجية. لأنهم منقسمون إلى قبيلتين سياسيتين، إذ يحتفظ أشباه البيروقراطيين هؤلاء بالقدرة على توجيه النقد لسياسات مخصوصة لإدارات معينة. بالرغم من وجود استثناءات قليلة، فإنهم مثل بقية البيروقراطيين، تنقصهم القدرة تماماً على أخذ مسافة عن الأساطير الداعمة لنظام الحكم الذي يدعمهم.

نتيجة هذه العوامل المعقدة، وحسبما يرى المؤرخ الأمريكي والمقاتل السابق أندرو باسيفيتش، فإن الإجماع الأمريكي حول السياسة الخارجية «راسخٌ إلى حد بعيد حتى صار صيَغُه واضحة للعيان: تُفرض مقدماته بدلاً من أن توّضح»، وأغلب المناقشة العامة والإعلامية عن المواضيع الدولية في داخل البلاد ليست أكثر من «مسرحة سياسية»[86]. لكن في خارج الولايات المتحدة، يرى الناس ضرورة مناقشة هذه المقدمات المقبولة من العموم في الداخل، وذلك

(86) Andrew J. Bacevich, *American Empire: The Realities and Consequences of U.S. Diplomacy* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2002), pp. 9 and 33.

بسبب بعض جوانب سجل وقائع تاريخ الولايات المتحدة.

تأثيرات الأيديولوجية الأمريكية وتزاوج البيروقراطية مع بعض الأقسام الأكاديمية قد سارت معاً في اتجاه التيار الأوسع لأقسام الأكاديميات المعاصرة. اتجهت هذه الأقسام نحو خفض منزلة التاريخ والدراسات الإقليمية لصالح «فروع من الدراسة» القائمة ليس على أسس البحث التجريبي، بل على أساس نظريات عامة شبه علمية، هي على العموم ليست أكثر من واجهات للأيديولوجية الغربية والفرضيات الثقافية. ما هو أكثر تطرفاً منها، وواحدة من أكثرها تأثيراً في داخل الأقسام النظرية لدراسات العلاقات الدولية، هي «نظرية الاختيار العقلاني»[87]. قال الأستاذ مايكل ليمان عام 1994 معترضاً على الهيمنة المتصاعدة لهذا الاتجاه في داخل جامعة كاليفورنيا: «لم أفهم قط كيف يمكن استخدام مثل هذا التحليل عديم الزمن والمناهض للتاريخ والذي يبعد نفسه عن التطورات التكنولوجية والمؤسسية وغيرها من التطورات الاجتماعية، لإدراك الأحداث البشرية. كما لا أستطيع فهم التصلب الأيديولوجي أو الأرثوذوكسية الأيديولوجية التي تصر على مثل هذه الطريق لاستبعاد الآخرين»[88].

يمكن فهم هذا الاتجاه بصورة أسهل لو نظرنا إليه على أنه جزء من النمو المزدهر من تربة الأيديولوجية الأمريكية والعقيدة القومية المدنية الأمريكية، التي تلقحت بعد عام 1989 بانتصار أمريكا على

(87) بشأن التقديم للموضوع، انظر: Jon Elster, ed., *Rational Choice* (Oxford: B. Blackwell; New York: New York University Press, 1986).

(88) رسالة مايكل ليمان (Michael B. Lehmann)، رئيس قسم الاقتصاد في جامعة سان فرنسيسكو، ذكرت في: Chalmers Johnson and E. B. Keehn, «A Disaster in the Making: Rational Choice and Asian Studies,» *National Interest*, no. 36 (Summer 1994).

الشيوعية. خلال الخمسينات ناح بعض المعلقين الأمريكان مثل لويس هارتز ورانيهولد نايبور على كيف أدى تزايد التورط الدولي للولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية إلى تزايد الميل للانكفاء، والجبرية والدوغماتية في «العلوم الاجتماعية». هذه الدوغماتية الأيديولوجية كانت تتزايد على الدوام كلما تفاقم الميل، في الجامعات كما في المدارس، لدراسة تاريخ أمريكا في عزلتها، ومعالجة الأمر كما لو أنه لا توجد تجربة لبلد آخر، يمكن أن تكون ذات صلة مفيدة لأمريكا، وهو أمر حدا بهربرت بولتون إلى التحذير، من تزايد خطر تنشئة «أمة من الشوفينيين»[89] بعد ثلاثة أجيال من بدء هربرت بترفيلد التهديم الثقافي للنظرية الهويغانية[*] في التاريخ بين المؤرخين الجادين، وهي إيمان ساذج يعود إلى القرن التاسع عشر بأن ثمة مساراً حتمياً للتقدم البشري في طريق ثابتة، كانت هذه النظرية لا تزال تسيطر على تدريس التاريخ في الولايات المتحدة[90].

تأسست نظرية الاختيار العقلاني فعلياً على شبه إيمان ديني في الصحة المطلقة لنمط جامد (وخيالي إلى حد ما) من أسلوب عيش أمريكي، من الفردانية الاقتصادية. في الإيمان المسيحي التقليدي أن جميع المخلوقات البشرية لو تعلمت تعليماً سليماً وجرت حمايتها

---

(89) انظر: Hartz, *The Liberal Tradition in America; an Interpretation of American Political Thought Since the Revolution*, pp. 29 ff. and 248 ff.; Niebuhr, *The Irony of American History*, pp. 60 ff., and Herbert Bolton, Quoted in: Foner, *Who Owns History?: Rethinking the Past in a Changing World*, p. 53.

(*) نسبة إلى الهويغ، أي الحزب المؤيد للثورة على الإنجليز.

(90) William H. McNeill, «A Defense of World History,» in: McNeill, *Mythistory and Other Essays*, pp. 71-95, and Herbert Butterfield, *The Whig Interpretation of History* (London: G. Bell and Sons, 1931).

من غواية الشر، لا بد أن تصبح مسيحية. وهنا يكمن الخطأ. بحسب نظرية الاختيار العقلاني، وفي الإيمان الغريزي للكثير من الأمريكان العاديين، فإن البديل للإنسانية هو أن يصبح الجميع أمريكياً. وقد زادت قوة هذا الإيمان الطوباوي شبه الديني مع سقوط الشيوعية[91].

إن الميل المتطرف والأسلوب «شبه العلمي» لهذا المنهج وغيره من المناهج ذات العلاقة يجعل من السهل إخفاء الفرضيات الأساسية الكامنة في نموذجه[92]. وقد علق إدوارد شيلز منذ جيلين بالقول، «ليس من الصعب فهم أن تبنّي التقاليد العلمية يمكن أن يؤدي إلى تهيئة الطريق أمام قبول ألفية[*] علمانية تؤدي إلى سياسات أيديولوجية». وهو كان يتحدث عن العلاقة بين العلمية والشيوعية، لكن ما قاله يصح أيضاً على الأيديولوجية الأمريكية[93]. وهكذا فإن العديد من المناقشات الرسمية وشبه الرسمية حول موضوع الدمقرطة التي حضرتها في واشنطن كانت تجري كما لو أنه لم يكن قبلها قط أي كتابات في أنثروبولوجيا التاريخ، علم الاجتماع، أو السياسة.

وكما في حال الشيوعية، يتضح القصور الثقافي الحاد لهذا المنهج عندما يتعلق الأمر بفهم واقع التطورات والمجتمعات الأخرى

---

(91) Johnson and Keehn, «A Disaster in the Making: Rational Choice and Asian Studies».

في ما يتعلق بالطبيعة شبه الدينية للرأسمالية الأمريكية، انظر: Bellah, *The Broken Covenant: American Civil Religion in a Time of Trial*, p. xiii

(92) Stephen M. Walt, «Rigor or Rigor Mortis?: Rational Choice and Security Studies,» *International Security*, vol. 23, no. 4 (Spring 1999).

(*) الألفية: إيمان بتملك المسيح بعد عودته، الألف عام، وهي مرتبطة بالمسيحانية.

(93) Edward Shils, «Ideology and Civility: On the Politics of the Intellectual,» *Sewanee Review*, no. 66 (Spring 1958).

ما يؤدي بسرعة إلى ما يسميه المؤرخ الأمريكي الراديكالي تشارلز بيرد «نظرية الشيطان في السياسة» التي ترجع أغلب المشاكل إلى «مناورات» خارجية وقضايا طارئة أساساً: محرضين، وشيوعيين، وإرهابيين، ونخب متشائمة ومستغلة، وأنظمة أجنبية. أكثر ما يشجع على هذا الاتجاه هو الإيمان الليبرالي الساذج في الطيبة الطبيعية وكمال «الشعب» في أي دولة[94].

فضلاً عن ذلك، فإنه إن كان «التاريخ محض هراء»، وكان من الممكن إهمال دراسة الدين والثقافة السياسية لكونها من باب الحماقة أو حتى «الوجودية» الشريرة (وهذه غالباً ما تكون غطاءً لتهم العنصرية) فلا بد إذن أن يكمن التفسير الوحيد الباقي لنجاحات الدولة وفشلها في «القيادة»، وفي قدرة القادة على فهم السياسات الصحيحة وتبنيها (أي تلك التي توحي بها واشنطن)[95]. يعني هذا التحليل في جوهره الاعتماد على شكل من أشكال «نظرية الرجل العظيم» في التاريخ، وهي نموذج سطحي وغبي أهمله المؤرخون الجادون منذ أكثر من نصف قرن. وكما لاحظ مايكل ليند، «تميل نظرية الشيطان إلى التفاؤل. ولو استبدلنا الشيطان بالملائكة، لسارت الأمور على أحسن ما يرام»[96].

لا أتذكر عدد المرات التي سمعت فيها معلقين عن أفغانستان يتحدثون عن «أمراء الحرب» هناك كما لو أنهم من سكان المريخ،

(94) انظر: Anatol Lieven, «Qu'est-ce qu'une nation?,» *National Interest*, no. 49 (Fall 1997).

(95) انظر: Richard Layard and John Parker, *The Coming Russian Boom: A Guide to New Markets and Politics* (New York; London: Free Press, 1996).

(96) Lind, *The Next American Nation: The New Nationalism and the Fourth American Revolution*, p. 99.

بدلاً من أن يكونوا قادةً لمجموعات قوية ونتاجاً فاسداً، ولكن حقيقي لمجتمع أفغانستان المحلي ولتجارة الهرويين في أفغانستان وللحروب التي عانتها منذ السبعينيات. من هذه المقاربة يأتي الاقتناع بأنه لو أمكن إزاحة أمثال هؤلاء الشياطين بطريقة ما من خلال مجهود وإرادة خارجية كافية، لاستطاعت هذه الإرادة زرع قادة ملائكيين محليين جدد. بالطبع، وكما أن ما تحاول هذه الاتجاهات الثقافية وصفه لا يقتصر على الولايات المتحدة فقط، فإن ذلك ينطبق أيضاً على مثل هذه الأوهام؛ إذ تشترك فيها أوروبا بشكل واسع النطاق. لكن الفرق يمكن في أنه بسبب من أن الولايات المتحدة تملك قوةً عسكريةً أعظم بكثير مما تملكه أوروبا، كما أنها لم تعان كثيراً من حروب ماضية، فقد يؤمن الأمريكان أنهم بالفعل يملكون من القوة ما يمكنهم من بعث الحياة في مثل هذه الأوهام من خلال التدخلات العسكرية. إن نتائج الشكل الديناميكي والتدخلي للقومية الأمريكية المؤمنة بالمسيحانية هي واضحة جداً للعيان.

إن العجز عن، أو رفض، الدراسة الجدية للمجتمعات الأخرى يُؤدي بدوره إلى جعل الأمريكان يتعرضون للأذى بشكل كبير من خلال إسماعهم ما يريدون سماعه من الممثلين الأجانب الذين لديهم مصالح خاصة يريدون تحقيقها. كما أن هناك من يعملون في مؤسسات تمولها الولايات المتحدة في بلدانهم، وبالنتيجة فهم حريصون على إرضاء ممولیهم. بالطبع واجهت الإمبراطوريات كلها هذه المشكلة؛ لكن استبداد الأيديولوجية الأمريكية والهيمنة الدولية لأيديولوجية الديمقراطية الليبرالية بين المثقفين حول العالم، تجعل الخطر أكبر في حالة الولايات المتحدة. في أفضل الحالات، ثمة تركيبة من هذا العامل مع دوغماتية الولايات المتحدة والهيمنة الأيديولوجية قد تؤدي إلى ما يشبه لعبة المرايا، أي تزاوج الأوهام، ما يجعل الأمريكان

ومخبريهم من الأجانب يتحمسون لما لا يفهمون جوهره. في أسوأ الحالات، يمكن إغراء الولايات المتحدة بصيغ معاصرة لما فعلته الملكة كارتيماندوا(*) التي سعت لإقناع القوات الرومانية لإعادتها إلى عرشها على الرغم من رفض رعيتها البريطانيين ذلك.

في السنوات القليلة الماضية قام عدد من المثقفين المعارضين، من بينهم جورج كينان، صامويل هنتنغتون، أندرو باسيفيتش، وليام بفاف، مايكل ليند، فريد زكريا وغيرهم، بتوجيه ضربات عنيفة لمثل هذه الأوهام؛ والأهم من ذلك، أن هذا ما فعلته أيضاً تجارب محاولة فرض التقدم على الصومال، وأفغانستان، والعراق الآن. لكن وبسبب كون هذه الفذلكات متأصلة بعمق في القومية المدنية الأمريكية، فإنها تنهض من جديد بعد كل ضربة. وكما رأينا، فحتى فييتنام بدا كما لو أنها قد دمّرتها لفترة ما وحسب. وقد يثبت أيضاً صدق ذلك مستقبلاً بعد ضربة العراق.

ساعد انهيار الشيوعية السوفياتية بشكل كبير في استعادة صورة الأيديولوجية الأمريكية وأسطورتها بعد فييتنام. كما زاد من تقليص أي حاجة إضافية لأخذ آراء بقية العالم في اعتبارها. إن انهيار الشيوعية مضافاً إلى عناصر الإيمان المسيحاني في التقاليد الأمريكية أنتجا موقفاً اختصرته أطروحة فوكوياما «نهاية التاريخ».

كان هذا الطرح شديد التطرف إلى حد أنه لقي معارضة واسعة النطاق، حتى إن فوكوياما نفسه تحوّل عنه إلى موقع أكثر اعتدالاً وتعقيداً. ولكن، وكما سبق لي أن كتبت عام 1996، فإن الروحية التي عكسها صارت شاملة الحضور في خطاب وسائل الإعلام في

(*) الملكة كارتيماندوا (Cartimandua): ملكة اتحاد قبائل شمال إنجلترا مطلع العهد الروماني. حكمت في الأعوام 43 ـ 96م.

الولايات المتحدة وأوساطها السياسية، ما جعل من النادر تعرضها للملاحظة أو التحليل أو النقد. تقوم هذه الروحية قبل أي شيء آخر، على الإيمان بصيغة فريدة للتقدم تتحدد بموجب التجربة الأمريكية، وتشمل بالتالي سبيلاً وحيداً «للطريق نحو الديمقراطية وحرية السوق». والإيحاء الديني في كلمة «طريق» (Path) له دلالة خاصة. إذ إنه خلال التسعينات على الأقل، كان لهذا النهج جانب لاهوتي واضح، لكونه منيعاً على المناقشة والأدلة، ويعد بفوائد لا حد لها في المستقبل بما يسمو على بؤس الحاضر[97].

مما تتسم به نظريات السوق الراديكالية للجيل الماضي ونظرية الاختيار العقلاني التي ساعدت على تغذيته كان الفشل في «الامتحان الفلسفي الأساسي للذكاء الفاعل والأخلاق، أي القدرة على تخيل الآخر»[98]. ويمكنني أن أؤيد ذلك من تجاربي الخاصة، أنه في حال روسيا فإن قلة قليلة من الأمريكيين (ولنكن عادلين، من الأوروبيين الغربيين أيضاً) من خبراء رسميين أو شبه رسميين قد أمضت أي فترة لتخيل أنفسهم في مكان الروس العاديين، ناهيك حتى عن محاولة مقابلة هؤلاء الروس. إن عدم الاهتمام برفاهيتهم المادية، وحتى ببقائهم على قيد الحياة، كان مثيراً للصدمة العميقة؛ كذلك كانت

---

(97) حول الطبيعة الدينية لصورة «الطريق إلى الديمقراطية وحرية السوق»، انظر:
Anatol Lieven, *Chechnya: Tombstone of Russian Power*, with Photographs by Heidi Bradner ([New Haven: Yale University Press, 1998]), pp. 8-11, and Harvey Cox, «The Market as God,» *Atlantic Monthly*, vol. 283, no. 3 (March 1999).
وحول النقد اللاذع لهذه الأوهام الأيديولوجية حول العالم، انظر: Samuel P. Huntington, *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order* (New York: Simon and Schuster, 1996), esp. pp. 19-39, 183-206 and 301-322.

(98) John Ralston Saul, «The Collapse of Globalism and the Rebirth of Nationalism,» *Harper's*, vol. 308, no. 1846 (March 2004).

الظاهرة التي لاحظها عالم الاجتماع والمؤرخ الأمريكي روبرت بيلاه في ما يتعلق بالآراء الأمريكية الماضية بشأن سكان أمريكا الأصليين لأمريكا: «لمدة طويلة، لقرون عديدة بالتأكيد، فشل المستوطنون في تقدير حقيقة أن الناس الذين يعيشون على هذه الأرض لديهم حلمٌ مختلف. سواء أكانوا يرون في الهندي شخصاً نبيلاً أم متوحشاً نبيلاً، إلا إنه كان يلقى معاملةً كما لو أنه شخصية تعيش في حلم أوروبي، وكما لو أنه لا يملك حلماً خاصاً به»[99].

ثمة ميل قوي في أمريكا، صار الآن مؤسسياً، من خلال تفويضات ومقاربات العديد من مؤسسات الدولة والمنظمات غير الحكومية المكرسة لنشر الديمقراطية في العالم، أن يعيشوا ما أسماه فرانسس فيتزجيرالد وغيره «الحاضر الأبدي»[100]. وبحسب هذه الطريقة في النظر إلى العالم ـ والتي صارت عميقة في داخل المرء حتى إنها تجاوزت الوعي الذاتي، وبالتالي صارت خارج أي نقاش ـ فإن الأمر لا يقتصر على القول إن الإنسانية عموماً تسير على طريق أحادية الخط في التقدم، بل على أن أقسامه كلها تقف عند النقطة نفسها وفي الوقت نفسه تماماً، تماماً كما في نظرة المبشر الذي يرى أن جميع الشعوب بطبيعتها قادرة على سماع الكتاب المقدس وفهمه. هذا الموقف حيال التاريخ والمجتمع هو بعيد تماماً عن الواقع التاريخي، الملموس، بالضبط كما كانت بعيدة الفرضيات الشيوعية العقائدية.

قد يكون هذا الموقف متجذراً في الرغبة الأصيلة لتحرير الشعوب

(99) Bellah, *The Broken Covenant: American Civil Religion in a Time of Trial*, p. 36.

(100) لابد من القول إن هذا النهج يمتد إلى أبعد من أمريكا. أحد أشد التعبيرات عنه وردت على لسان رئيس الوزراء البريطاني توني بلير في مؤتمر حزب العمال عام 2002: «قيمنا ليست قيماً غربية. إنها قيم إنسانية وتصلح لكل زمان ومكان ولدى الناس خيار واحد هو الإيمان بها».

الأخرى من تاريخها. يزعم المؤيدون له أنه غير عنصري، لأنه يفترض أن بإمكان جميع الشعوب تحقيق تقدم سريع نحو الديمقراطية بصرف النظر عن أعراقهم أو ثقافاتهم أو مستواهم الاقتصادي. لكن ماذا لو أن الشعوب المعنية غير راغبة أو غير قادرة على قبول مثل هذا التحرير؟ في مسطرة نموذجية مألوفة لدى جميع دارسي التقاليد التبشيرية وعقليتها، يمكن لهذا الموقف أن ينزلق بسهولة إلى كراهية عدوانية وشوفينية، وبالتالي عنصرية تجاه هذه الشعوب. يتغذى هذا الاتجاه بشكل كبير من تيارات قوية من القومية العرقية ـ الدينية الموجودة في الحياة الأمريكية إلى جانب القومية المدنية الأمريكية.

إذ إنه بعد كل شيء، إذا كانت الرسالة صحيحةً وقادرةً على إثبات ذاتها وكانت شاملةً وممكن فهمها من الجميع، فلا يمكن أن يكون الفشل سببه الرسالة نفسها. بل يجب أن يُنسب الفشل إلى الجمهور المتلقي، سواء أكان ذلك بسبب الشر المتأصل فيه، أم لأن القلوب قد قست بفعل عناصر شريرة: مثل النخب القومية المناورة، إو شيوعيين سابقين، أو مبعوثين من الشيطان...

إن التأكيد على الأخلاقية الفريدة للثقافة السياسية لبلد ما يعني بداية تبني موقف يجد بقية العالم صعوبةً فائقةً في قبوله، كما ويشتد عنده إغراء تحديه من خلال الإشارة إلى المراحل الأكثر ظلمةً في الماضي ـ بالتالي وضع خلفية بشعة للتعاملات القومية. ولتأكيد ذلك، ومن ثم البناء عليه، مثلما فعل وليام كريستول وروبرت كيغان، كان الإيمان بأن «الأهداف الأخلاقية لأمريكا متوافقةٌ على الدوام تقريباً ومصالحها القومية». وهذا يقرب من القول «بلدي دائماً على حق»[101].

---

(101) William Kristol and Robert Kagan, «Toward a Neo-Reaganite Foreign Policy,» *Foreign Affairs*, vol. 75, no. 4 (July - August 1996).

وبعد، إن هذا الموقف الجوهري اتسمت به «بيئة» معظم السياسة الخارجية للولايات المتحدة قبل مدة طويلة من 11 أيلول/ سبتمبر. وفي التعامل مع روسيا خلال التسعينات، افترض أغلبية الكتاب أن الديمقراطيين الروس سوف يتماهون ليس فقط مع الترويج للمصالح القومية للولايات المتحدة في الشؤون الدولية، بل أيضاً مع الطموحات الجيوسياسية للولايات المتحدة في الاتحاد السوفياتي السابق - بسبب افتراضهم الواعي أو اللاوعي أن هذه المصالح تتماهى مع العدالة والتقدم والمصالح الحقيقية لروسيا نفسها. وقد قوبلت محاولات تحدي هذه الفرضية المجنونة، في الغالب إما بالغضب العارم أو بعدم الفهم المطلق. ولابد من القول إن هذه الأحداث جرت خلال عهد إدارة كلينتون، وليس الجمهوريين، ما يؤكد مدى امتداد هذه الأوهام في الطيف السياسي الأوسع للولايات المتحدة.

وفي حين أن شعار «بلدي، في الحق أو في الباطل» قد يكون غير مستحب أخلاقياً، إلا أنه تعبير عقلاني عن الولاء[102]. وبالتالي فإنه يمكن لأنصار هذا الشعار تقدير الشعوب الأخرى التي تحمل المشاعر نفسها عن بلدانها والتفاوض معها. بالمقابل، «بلدي دائماً على حق» يرفض أي تفاوض. ومن المؤكد أنه مدمرٌ لجوهر القانون الدولي وللإيمان بأي شكل من أشكال المجتمع الدولي.

---

(102) هذا القول هو تكرار مغلوط للنخب الذي قاله كومودور ستيفان ديكاتور (Commodore Stephen Decatur) الذي كان نصه: «بلادنا! في كل علاقاتها مع الأمم الأجنبية، نأمل أن تكون على حق. لكن على حق أو باطل، فهي بلادنا» («Our Country! In Her Intercourse with Foreign Nations, May she Always Be in the Right. But Right or Wrong, Our Country»).

هذا التماهي بين المبادئ ونشر الديمقراطية مع الأمة الأمريكية هو رابط أساسي بين الأسس الأيديولوجية للعقيدة القومية الأمريكية وبين الإمبريالية الأمريكية. وبقدر ما يستطيعون استخدام هذا الخطاب لدعم خططهم، فإن لدى الإمبرياليين وسائل إغراء هائلة، في ما يتعلق بأغلبية الأمريكان. وهذه هي الصيغة الأمريكية لما كان الإمبراطورية الحضارية العظمى في الماضي: حيث كانت مهمات روما والصين الإمبراطورية - كما يرى حكامها، ونخبها ومثقفيها - نشر حضاراتهم بين البرابرة وراء حدودهم، وكانت بالنسبة للإسبان نشر المسيحية في العالم الجديد، و«كانت مهمة التمدين» بالنسبة للإمبراطوريات الأوروبية في القرن التاسع عشر، وللاتحاد السوفياتي نشر نور الشيوعية بين بقية الإنسانية. وكما سبق أن أشرنا، فإن أمريكا جديرة بالفعل بأن ترث روما أو الصين في هذا المجال، والدروس التي يتعين على أمريكا تعليمها هي ذات قيمة حقيقة للإنسانية، وهي بالطبع دروس شاركت في صنعها الديمقراطيات الغربية الأخرى.

وتلك هي نقطة مركزية. ذلك أن نموذج الدولتين الرومانية والصينية، بالرغم من كونيته، كان استبداداً وبيروقراطياً، ولم يكن ثمة تناقض في نشر روما والصين لحكمهما باستخدام القوة أو تناقضٌ في أن تقوم الأنظمة الملكية الاستبدادية الأخرى باعتماد أشكال الحكم التي حكمت بها. لكن النموذج الأمريكي يفترض أن يكون شكل الحكم ديمقراطياً وتتبناه الشعوب بمحض إرادتها. إلى أي مدى يمكن تقديم هذه الدروس بوصفها أمريكيةً خالصة كانت تغذي الغرور والنفوذ الأمريكي؟ إلى أي مدى يمكن نشرها بقوة السلاح؟ إلى أي مدى يمكن ربطها بالتعصب القومي الأمريكي، وبالمصالح والطموحات الجيوبوليتيكية من دون أن تخسر قيمتها وقوة جاذبيتها؟ كيف يمكن لمنهج ما يفترض أن يكون متجذراً في الديمقراطية أن

ينجح إن هو استعرض احتقاره الصلف للرأي العام العالمي عموماً وللتصويت الديمقراطي في أي بلد؟

في داخل أمريكا، تعمل هذه الاستراتيجية بصورة جيدة على شكل إغراءٍ سياسي وتدعيم وقوف النخب السياسية وراء الاستراتيجية الأمريكية. أما في الخارج، فقد أعطت الانطباع أن الوعي الأمريكي يمكن إضاءته وإطفاءه بحسب المصالح التكتيكية مثل الأنوار المستخدمة في المراقص المشبوهة. وهذا المفهوم الدولي للرياء قد ازداد بفعل الكراهية القومية الأمريكية الواضحة والقوية للدول والشعوب الأخرى.

يتمثل هذا الاتجاه في «بيت الحرية» (Freedom House)، وهي كيان سياسي مستقل لكنه مدعوم رسمياً، يقدم مسحاً سنوياً عن الحرية والديمقراطية في العالم، ويعد بمثابة السلطة التوراتية المقدسة في نظر العديد من الصحفيين والمعلقين الأمريكيين. والحال أن هذه المؤسسة لم ترفع الصين في مراتب الحرية إلا مرتبة واحدة خلال ثلاثين عاماً ـ من المرتبة السابعة إلى السادسة. ويعني هذا وفقاً لبيت الحرية، أنه بعد جيل من التحرير الاقتصادي والتحول من التعصب الشمولي إلى السلطوية، فإن الصينيين عام 2004 كانوا أكثر حرية قليلاً جداً مما كانوا عليه في ذروة الثورة الثقافية عام 1972. وعام 2002 كانت الهند في المرتبة الثانية، بالرغم من الاضطهاد العنيف في كشمير ومذبحة كوجرات التي قتلت أكثر من ألفي شخص من الأقلية المسلمة، بالتواطؤ الفاعل مع الحكومة المحلية والشرطة. وغير ذلك من الأمثلة[103]. وفي ذلك، فإن بيت الحرية كان ببساطة يتبع النهج

(103) انظر: Adrian Karatnycky, «The 30th Anniversary Freedom House Survey: Liberty's Advances in a Troubled World,» *Journal of Democracy*, vol. 14, no. 1 (January 2003). =

نفسه الذي اتبعته العديد من المنظمات في الولايات المتحدة خلال الحرب الباردة، حين كان يتم تصنيف عدد كبير من الدكتاتوريات في أفريقيا وأمريكا اللاتينية وغيرها على أنها جزء من «العالم الحر»، لأن حلفاءهم كانوا حلفاء جيوبوليتيكيين للولايات المتحدة[104]. وهناك مقاربة مشابهة تبنّاها السفير السابق للولايات المتحدة مارك بالمر في كتابه الذي وضع فيه «استراتيجية» إنهاء الدكتاتورية في العالم بحلول عام 2025، وهو عمل يتسم بدرجة متطرفة من السطحية في تحليله للدول المعنية وبقدرٍ لا يصدق من الطموح الأيديولوجي[105].

على مستوى النقاش السياسي، يمكن في الظروف كلها ذكر سوء تطبيق حقوق الإنسان، سواء كان واقعياً أم مبالغاً به، بوصفه سبباً لاستعراض العداء إزاء أي دولة. نورد مثالاً صغيراً ولكنه معبِّر عن هذا الأمر، كاتباً في **نيويورك تايمز** طالب بموقف أمريكي أكثر عدوانية ضد البرنامج الفضائي للصين بالقول: «من بين الدعوات للقيام بمشاريع علمية أو تجارية مشتركة في الفضاء لتحسين العلاقات الصينية ـ الأمريكية، يجب على المسؤولين في واشنطن دراسة نوعية

= حول منهجية «بيت الحرية» (Freedom House) وتصريح بعثتهم، انظر:
www.freedomhouse.org/research/freeworld/2000/methodology.
بالمقابل، للإطلاع على وصف حي عن الكيفية التي استطاع التغير الاقتصادي والاجتماعي زيادة حرية امرأة عاملة صينية واحدة، انظر: Peter Hessler, «Boomtown Girl,» *New Yorker* (28 May 2001).

(104) انظر: FitzGerald, *America Revised: What History Textbooks Have Taught Our Children about Their Country, and How and Why those Textbooks Have Changed in Different Decades*, pp. 119 ff., and Edward S. Herman and Noam Chomsky, *Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass Media* (New York: Pantheon Books, 1988), pp. 26-28 and 211-228.

(105) Mark Palmer, *Breaking the Real Axis of Evil: How to Oust the World's Last Dictators by 2025* (Lanham, Md: Rowman and Littlefield Publishers, 2003).

التعاون الملائم مع نظام لا يشترك مع الولايات المتحدة في تقاليد الحرية واحترام حقوق الإنسان»[106].

مثل هذه الآراء تترشح إلى داخل المجتمع. في شباط/ فبراير 2004 سألت مجلة **بارايد** (*Parade*) قراءها: «من هو أسوأ دكتاتور في العالم بحسب رأيك؟» وفي خلط للأمور، مثلما تفعل مؤسسة بيت الحرية، ساوت بين هو جينتاو من الصين، وكيم جونغ إيل من كوريا الشمالية، وروبرت موغابي من زيمبابوي، وثان تشوي من بورما، وتيودورو أوبيانغ نغويما من غينيا الاستوائية مع الأمير عبد الله من السعودية. بكلمة أخرى، كان الاختيار قد تم مسبقاً من دون أي إشارة إلى طبيعة النظام، أو إلى دور القائد في داخل النظام، أو أكثر من أي شيء آخر إلى نجاح النظام في تحقيق تقدم رفاهية الشعب وحريته الاقتصادية، وهي قطاعات، حددها الأمريكيون، حين يتعلق الأمر بأنفسهم، على أنها جزء من جوهر الحرية[107]. جاء هو جينتاو في المرتبة الثالثة، إذ اعتبروه أسوأ من قادة النظم في زيمبابوي وغينيا والسعودية. تزاوج ذلك مع الخطاب المتواصل للسياسيين والإعلاميين ومجموعات حقوق الإنسان في ما يتعلق بالحرية في الدول الأخرى، وكان التأثير المزدوج هو تغذية الأمريكيين بالكراهية الشوفينية للدول الأخرى ومواصلة رش الأمطار المغذية لزيادة الإعجاب بالنفس وإيمان الأمريكان بتفوق دولتهم.

من المؤكد أن ينظر الكثير من الناس، وخصوصاً من الدول التي كانت من المستعمرات، بشكل خاص، إلى هذا المزيج على أنه

---

(106) Jacqueline Newmyer, «Will the Space Race Move East?,» *New York Times*, 20/10/2003.

(107) انظر: Foner, *The Story of American Freedom*, p. 263.

ببساطة تكرار **للمهمة التمدينية** (Missions Civilisatrices) الأوروبية في الماضي، وعلى أنه غطاء منافق للتوسع الإمبراطوري، وهم في الغالب على حق في ذلك. فضلاً عن ذلك، فإن المهمة الكونية لأمريكا تشتمل على بعض العوامل ذات **القيم الكونية** (Universal Values) هي في حقيقتها ليست كونيةً على الإطلاق لكن من الواضح أنها جزء من الثقافة الأمريكية و«نمط الحياة الأمريكية»[108]. يرى هذه الحقيقة بوضوح كثير من الناس في الدول التي تقترح أمريكا تحريرها باسم هذه القيم الشاملة.

بوش والأطروحة الأمريكية

إن خطاب إدارة بوش بعد 11 أيلول/ سبتمبر الذي يُصوّر أمريكا على أنها القوة الحيوية لنشر الحرية والديمقراطية، يُجسّد ويفاقم العديد من هذه المشاكل. كان هذا الخطاب مسيحانياً ومتجذراً في العقيدة الأمريكية وهو كان أيضاً كونيّاً، مثل العقيدة نفسها. إنه يؤكد أن القيم الأمريكية تمثّل إنقاذاً للإنسانية جمعاء. تقول كلمات ديباجة استراتيجية الأمن القومي الجديدة لعام 2002:

لقد انتهت الصراعات العظيمة للقرن العشرين بين الحرية والشمولية بالنصر الحاسم لقوى الحرية ـ وبنموذج فريد ومستدام للنجاح القومي: الحرية، الديمقراطية وحرية العمل. في القرن الحادي والعشرين، وحدها الأمم التي تشترك في الالتزام بحماية الحقوق الأساسية للإنسان والحرية الاقتصادية سوف تكون قادرة على إطلاق العنان لقدرات شعوبها وضمان مستقبلها المزدهر. يريد

---

(108) Lind, *The Next American Nation: The New Nationalism and the Fourth American Revolution*, p. 3.

الناس في كل مكان أن يكونوا قادرين على الكلام بحرية، واختيار من يريدون أن يحكمهم، أن يعبدوا ما يريدون، ويعلموا أطفالهم ـ ذكوراً وإناثاً، وأن يكون لهم حق الملكية، والاستمتاع بفوائد عملهم. قيم الحرية هذه صحيحة وحقيقية للجميع، وفي المجتمعات كلها ـ وواجب حماية هذه القيم ضد أعدائها هو مهمة مشتركة بين جميع محبي الحرية في أرجاء المعمورة كلها وعبر العصور[109].

بالتالي فإن بوش وقادته المسؤولين يملكون ويعبّرون عن صيغة مبسطة ومتطرفة لرؤية عن أمريكا هي في حقيقة أمرها تنتشر بشكل واسع في المجتمع الأمريكي ولها جذور تاريخية عميقة الغور: «تشن الولايات المتحدة حروباً ضد الشر، وليس لما يبدو دفاعاً عن مصالحها المادية»[110]. لقد استخدمت إدارة بوش ومؤيدوها الحجج المسيحانية من أن أمريكا بحاجة لغزو العراق من أجل تحرير شعبه كتبرير إضافي لشن الحرب. بعد قلب نظام الحكم البعثي، وفشلها في العثور على ما زعمت أنها أسلحة دمار شامل عراقية، صارت هذه هي الحجة الرئيسية[111].

---

(109) *The National Security Strategy of the United States of America.*

(110) Lipset, *American Exceptionalism: A Double-Edged Sword*, p. 20; Clyde Prestowitz, *Rogue Nation: American Unilateralism and the Failure of Good Intentions* (New York: Basic Books, 2003), p. 23.

للمقارنة مع اللغة الرسمية التي استخدمتها الولايات المتحدة خلال حرب فيتنام، انظر: Woodward, *The Burden of Southern History*, pp. 219-220.

(111) انظر: Max Boot, «George W. Bush: The 'W' Stands for Woodrow,» *Wall Street Journal*, 1/7/2002; David Ignatius, «Wilsonian Course for War,» *Washington Post*, 30/8/2002; William Safire, «Post-Oslo Mideast,» *New York Times*, 27/6/2002, and «Bush the Crusader,» *Christian Science Monitor*, 30/8/2002. =

قال هاري ترومان إن أمريكا قد أصبحت عظيمة لكنها تخلت عن عظمتها، وإن مهمته هي في «حشد الشعب المؤمن بعالم القيم ضد المادية البلشفية». لقد تعايشت مسيحانية ترومان بشكل غريب مع أساليبه الشوفينية المتوحشة تجاه جميع الأمم الأخرى تقريباً، مثلما تفعل المسيحانية اليوم في مواقف الكثير من الأمريكيين دعاة الدمقراطية تجاه العرب الذين يزعمون أنهم يريدون فرض الديمقراطية عليهم، وتجاه الدول الأخرى التي هي بالفعل ديمقراطية لكنها تختلف مع الولايات المتحدة[112].

إن كلمات مثل كلمات ترومان هذه هي ملهمةٌ، لكنها تجسد أخطاراً جسيمةً على التحليل والسياسة. إذ إن وصف العدو على أنه عدو للحضارة نفسها وتجسيد للشر ـ مع أن ذلك قد يصح إلى حدِ ما على ستالين ـ إلا أنه يوحي بعدم جدوى محاولة فهم دوافعه حتى لو كان ذلك من أجل مقاومته بشكل أفضل. وهذا يعاكس تماماً مقاربة كينان وغيره من البراغماتيين من دعاة الحرب الباردة. كما أن هذه المقاربة تُجانس بين الحركات الشيوعية الوطنية المختلفة وتجعلها عدواً موحداً عملاقاً على الصعيد العالمي.

وكما لاحظ وليام فولبرايت وغيره، فإن هذا الموقف يساهم بشكل مباشر في هزيمة فييتنام، حيث إن رؤية المحللين الحربيين وصناع السياسة الأمريكيين للفييتناميين الشماليين قبل الحرب على

= حول مبررات ما بعد الحرب بهذا الخصوص، انظر: George Melloan, «Protecting Human Rights Is a Valid Foreign Policy Goal,» *Wall Street Journal*, 10/6/2003; Jim Hoagland, «Clarity: The Best Weapon,» *Washington Post*, 1/6/2003, and Thomas Friedman, «Because We Could,» *Washington Post*, 4/6/2003.

(112) Truman, Quoted in: Hunt, *Ideology and U.S. Foreign Policy*, pp. 157 and 163.

أنهم مجرد شيوعيين، أدى إلى الفشل التام في فهم طبيعتهم الخاصة، وقوتهم الواسعة وعمق عدائهم التاريخي المتأصل تجاه مناصريهم من الشيوعيين الصينيين، بالرغم من أن بعض الخبراء الإقليميين مثل برنارد فال قد أشاروا إلى هذه الحقائق منذ مدة بعيدة[113]. كما أنهم فشلوا تماماً وبشكل مماثل في تقدير عمق الانشقاق الصيني ـ السوفياتي، الذي أدى بعد بضع سنوات إلى جعل الدولتين الشيوعيتين على حافة حربٍ نووية[114].

كانت النتيجة، أن خسرت الولايات المتحدة فرصاً متعددة لاستغلال دولة شيوعية ضد الأخرى. بعد سنوات عدة من شن فولبرايت نقده اعترف كلٌ من نيكسون وكيسنجر ضمنياً بحكمتهما من خلال المصالحة مع الصين الشيوعية. أما في الشرق الأوسط، فكان على إدارة بوش تعلّم هذا الدرس مجدداً، في حين أن الكثير من المعلقين السياسيين (ولأسباب تتعلق جزئياً بإسرائيل) مصممون على أنه لا ينبغي تعلّم هذا الدرس[115].

إن الاتجاه إلى تصوير الأشكال المختلفة من «الأعداء» بصورة شياطين، وبجعلها متجانسة تماماً، في آن معاً، كان له جانب شديد الضرر في سياق 11 أيلول/ سبتمبر والصراع ضد الإرهاب. بعد 11 أيلول/ سبتمبر مباشرةً، ألغى بوش كل نقاش حول المواضيع

(113) انظر: Bernard B. Fall, *The Two Vietnams, a Political and Military Analysis*, Rev. ed. (New York: F. A. Praeger, [1964]).

(114) Fulbright, *The Arrogance of Power*, pp. 81, 111-119 and 154.

(115) من أجل عرض أكثر شمولاً لدروس الحرب الباردة إلى السياسة الراهنة، انظر: Anatol Lieven, «Fighting Terrorism: Lessons from the Cold War,» *Policy Brief*, no. 7 (October 2001).

الملموسة في مدار الصراع بين الولايات المتحدة والراديكاليين الإسلاميين من خطاباته العامة وخطابات إدارته. وبالتأكيد، وبسبب تحريض أغلبية وسائل الإعلام والطبقة السياسية فقد جرى إلى حد كبير إخماد النقاش العام لهذه المواضيع. بدلاً من ذلك تم الترويج لخطاب التهدئة ما جعل القيم الأمريكية تتماهى مع ما استهدفه الإرهابيون، مع كل ما في هذه القيم من طيبة مطلقة بذاتها ومتماهية مع ما هو طيب في العالم. حين امتد خطاب «محور الشر» (وهي الجملة التي وردت في خطاب بوش عن حال الأمة عام 2002) إلى نطاق شمل دولاً أخرى، فإن تأثيراته كانت إغلاق باب النقاش بشأن التفاوض والتسوية في عقول الشرائح القومية الأكثر انغلاقاً عقلياً في الرأي العام الأمريكي.

والحال أن الصحيفة الشعبوية **نيويورك بوست** قد عبّرت عن ذلك عاكسة النظرة واسعة الانتشار في الإعلام والمجتمع في الولايات المتحدة: «لماذا يكرهوننا؟ هذا ما يطرحه المفكرون، كما يسمون أنفسهم بشأن أعداء أمريكا الإسلاميين.. من يهتم بذلك؟ لقد أمر أسامة [بن لادن] بموت حوالى 6000 شخص بريء، أغلبهم من الأمريكان، وعلى الأرض الأمريكية. ما أهمية السبب؟ ليس ثمة تسويغ لمثل هذا الشر. ليس ثمة عذر. السؤال الوحيد المهم الآن هو كيف يمكن محوهم بأسرع ما يمكن»[116].

من خلال تشجيع مثل هكذا موقف، نسيت إدارة بوش أقدم قاعدة للاستراتيجية وأكثرها حكمةً: «أعرف عدوك». بفعلها ذاك جعلت الإدارة «محو» هذا العدو أكثر صعوبة. لم يكن هذا مهماً في ما يتعلق بالقاعدة نفسها، لأن أهدافها الحاقدة وايديولوجيتها تلغي أي محاولة

---

(116) *New York Post*, 9/10/2001.

للتسوية. لكن رفض مناقشة مصادر المظالم التي تعرض لها المسلمون، مثل دعم الولايات المتحدة لإسرائيل والهيمنة العسكرية للولايات المتحدة على الشرق الأوسط، أدت إلى غربة أمريكا عن المسلمين العاديين وخلقت مرشحين أكثر للانضمام للإرهاب الإسلامي.

بالنتيجة فقد مالت مقاربة كل من إدارة بوش والقادة الديمقراطيين، إلى تعطيل، وحتى إلى تعويق الصراع السياسي ضد المتطرفين الإسلاميين، ودفعت بالأمة نحو الاعتماد على الخيارات العسكرية وحسب. ما زاد في ظلمة العقل الأمريكي هو قيام بوش برسم تماهي العدو مع «الإرهاب» وهي تركيبة عجيبة، كما أشير كثيراً، وتساوي التصريح بأن العدو هو «القصف الجوي» أو «الدبابات».

في خطاب موجه للكونغرس في 20 أيلول/ سبتمبر 2001، قال بوش إن أمريكا تتماهى مع الحرية، وإن هذا هو سبب الهجوم على أمريكا: «يتساءل الأمريكان لماذا يكرهوننا؟ أنهم يكرهون ما يرونه في هذه القاعة ـ حكومةٌ منتخبةٌ ديمقراطياً. . . لقد وقع علينا مكروه عظيم. عانينا من خسارةٍ فادحة. وبالحزن والغضب عرفنا مهمتنا وزماننا. تقف الحرية والخوف في حال حرب. الآن، صار تقدم الحرية البشرية ـ الإنجاز العظيم لعصرنا، والأمل العظيم لكل العصور ـ يعتمد علينا»[117].

تمثّل مثل هذه الكلمات، ومثلها ديباجة وثيقة استراتيجية الأمن القومي، إجماعاً عاماً بين الشعب الأمريكي، باستثناء عدد محدود جداً من المعارضين. ومثل السوفيات ومثل العديد من الأمريكان ـ الليبراليين كما المحافظين ـ جعل بوش من أمريكا ممثلة لتاريخ

---

(117) انظر: www.whitehouse.gov/news/releases (20 September 2001).

غائب[118]. إن التصريحات مثل «أمتنا على الجانب القويم من التاريخ» تردد صدى الصيغة السوفياتية الشيوعية «رياح التاريخ تدفع أشرعتنا»[119].

وكما كان حال الخطاب السوفيتي، فإن هذا العامل الأيديولوجي في لغة بوش كان كونياً في طبيعته، يناشد أمريكا والعالم باسم العقيدة الأمريكية. هذا الإيمان وجد تعبيراً أكثر حدة وأكثر مسيحانية في خطاب بوش أمام خريجي الأكاديمية العسكرية للولايات المتحدة في ويست بوينت في الأول من حزيران/ يونيو 2002، وهو كان مؤشراً على بداية «مذهب» الحرب الوقائية: «أينما حملناه، سوف يمثّل العلم الأمريكي ليس فقط قوتنا، بل الحرية (تصفيق). إن قضية أمتنا كانت على الدوام أكبر من الدفاع عن أمتنا. نحن نحارب، وقد حاربنا دوماً، من أجل سلام عادل، سلام يحفظ حرية الإنسان. .. لقد انتهى القرن العشرون بنموذج واحدٍ للتقدم الإنساني، تأسس على مطالب غير قابلة للتفاوض من أجل كرامة الإنسان، وحكم القانون، ووضع حدود لقوة الدولة، واحترام المرأة والملكية الخاصة وحرية التعبير والعدالة المتساوية والتسامح الديني»[120].

---

(118) انظر: Edmund D. Pellegrino [et al.], «The Teaching of Values and the Successor Generation: The Atlantic Council's Working Group on the Successor Generation. Educational Series Policy Papers,» (Opinion Papers, Atlantic Council of the United States, Washington, DC, 1983)

(119) من خطاب جورج دبليو بوش: George W. Bush, «A Distinctly American Internationalism,» (Speech, Delivered at the Reagan Presidential Library, 19 November 1999), Quoted in: Bacevich, *American Empire: The Realities and Consequences of U.S. Diplomacy*, p. 201, and James W. Ceaser, «Providence and the President George W. Bush's Theory of History,» *Weekly Standard* (New York) (10 March 2003).

(120) www.whitehouse.gov (1 June 2002).

هذه اللغة من طرف بوش وغيره من مسؤولي الإدارة قد تكون أيضاً صادرة ـ بكل كلمة فيها ـ عن إدارة كلنتون، كما عبّرت عنها مادلين أولبرايت وغيرها، وبالتأكيد من الرئيس وودرو ولسن، الذي صرح في كانون الثاني/يناير 1917 أن «تلك هي مبادئ أمريكا، وسياسات أمريكا. لن نقبل بغيرها. كما أنها مبادئ وسياسات الرجال والنساء من كل مكان من المتطلعين إلى أمام، من جميع الأمم، من كل مجتمع متنور. إنها مبادئ الإنسانية ويجب أن تسود».

الولسونيون المستذئبون

هذا المزاج المتسم بالقومية المسيحانية كان من عمل ليس فقط إدارة بوش ووسائل إعلامها ومؤيديها من المثقفين، بل أيضاً قادة المثقفين من المعسكر الديمقراطي. وهو له جذور في التقاليد الأمريكية القديمة جداً، وفي تطابق مواقف الجمهوريين والديمقراطيين على حد سواء، في استخدام الدمقرطة كسلاح ضد الشيوعية خلال الحرب الباردة[121]. وبعد 11 أيلول/ سبتمبر اتجهت هذه المحاولات قبل كل شيء نحو سياسة الولايات المتحدة في «الشرق الأوسط الكبير». ولكن لها معاني أخرى أوسع شمولاً.

إن دمج الاستخدام الانتقائي «للدمقرطة» مع استراتيجيات تشكلت على أسس «الواقعية» القاسية، كان السبيل المركزي في نهج المحافظين الجدد منذ أن بدأ هذا التيار السياسي خلال العقود الأولى من الحرب الباردة. وفي برنامج المحافظين الجدد، كان المطلوب

(121) انظر: Tony Smith, *America's Mission: The United States and the Worldwide Struggle for Democracy in the Twentieth Century*, Princeton Studies in International History and Politics ([Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994]), pp. 6, 189 ff. and 267 ff.

دفع الاتحاد السوفياتي نحو الدمار من خلال مزيج من الضغوط العسكرية والاقتصادية والقمع القاسي للثورات التي تدعمها الشيوعية ضد النظم العميلة للولايات المتحدة ـ وحتى التدخلات العسكرية للولايات المتحدة عند الضرورة ـ والتبشير المتواصل بالديمقراطية والحرية للمواطنين السوفيات.

إن الاستخدام الانتقائي أو الأداتي للغضب الأخلاقي ولدعوات التحرير الذي سمته جين كيركباتريك، زعيمة المحافظين الجدد وسفيرة إدارة ريغان، وبصراحة «القيمة النفعية للديمقراطية» في السياسة الخارجية للولايات المتحدة ـ هو نمط قديم الاستخدام في الشؤون البشرية وربما بشكل خاص في العالمين البروتستانتي والأنجلو ـ سكسوني[122]. لكن كان من النادر استخدامه بمثل هذا التواتر النظامي، أو بمثل هذه الاحتقار حتى لمظاهر الاستقامة أو الأمانة الثقافية، مثلما استخدمه القوميون الأمريكان، وبخاصة من معسكر المحافظين الجدد. هكذا فإنه عام 1980 وعند مهاجمته محاولة الرئيس جيمي كارتر الاستقامة في التعامل مع حلفاء الولايات المتحدة وخصومها في ما يتعلق بخرق حقوق الإنسان ونقص الديمقراطية، بدا أرفينغ كريستل شبيهاً بجورج كينان، وصامويل هنتنغتون أو غيرهما من النقاد المحافظين الواقعيين (Realists) الأمريكان في نقدهم للمسيحانية الأمريكية:

ثمة فكرة مخادعة جوهرية في السياسة الخارجية للولايات المتحدة أن تؤمن، بالرغم من كل الدلائل، أن جميع الشعوب، في كل مكان، «مؤهلة» على الفور لحكومة ليبرالية دستورية ـ حكومة ديمقراطية بحق... في الواقع، فإنه فقط منذ الحرب العالمية

(122) Kirkpatrick, Quoted in: Ibid., p. 286.

الأولى، وهي حرب جرت تحت شعار «حق تقرير المصير لجميع الأمم»، و«لجعل العالم آمناً من أجل الديمقراطية» ـ بدأت السياسة الخارجية الأمريكية تتجاهل ما هو واضح وتسعى لتحقيق أوهام مثالية مستحيلة. قبل الحرب العالمية الأولى، رأى رجال حكماء أنه ليس من المتوقع لجميع الشعوب، وفي كل مكان وزمان أن تكرر الديمقراطية الدستورية الغربية»[123].

قبل سنتين، وجزءاً من الحملة المتصلبة نفسها ضد كارتر، عبر كريستل نفسه وبشكل واضح عن تأييده لمهمة أمريكا في أن تكون النموذج، وليس التدخل: «ليس على وزارة خارجيتنا أن يكون لها أي رأي بشأن المدى الصحيح للحقوق السياسية في أي دولة. هذه يمكن فقط لشعوب تلك الدولة أن تحددها، وأن ترسم الخلفية السياسية والثقافية اللازمة للتوصل إلى الوضع المناسب في هذا المجال. يمكننا محاولة تقديم النموذج الجيد من خلال جعل جمهوريتنا الديمقراطية تثير الإعجاب أكثر ما يمكن ـ كما دعا لذلك الآباء المؤسسون. لكن هذا هو كل ما يمكننا فعله، وكما أقر بذلك الآباء المؤسسون»[124].

---

(123) Irving Kristol: «'Moral Dilemmas' in Foreign Policy,» (1980), and «'Moral Dilemmas' in Foreign Policy,» in: Irving Kristol, *Reflections of a Neoconservative: Looking Back, Looking Ahead* (New York: Basic Books, 1983), pp. 261-265.

للاطلاع على هجوم المحافظين الجدد في هذا السياق، انظر: James W. Ceasar, «The Great Divide: American Internationalism and Its Opponents,» in: Robert Kagan and William Kristol, eds., *Present Dangers: Crisis and Opportunity in American Foreign and Defense Policy* (San Francisco, Calif.: Encounter Books, 2000), pp. 25-43.

(124) Irving Kristol, «The Human Rights' Muddle,» in: Kristol, *Reflections of a Neoconservative: Looking Back, Looking Ahead*, pp. 266-269. =

لكن كريستل ومدرسته قصروا مثل هذا الاعتدال على حلفاء الولايات المتحدة وحدهم، مهما كانوا متوحشين. لقد هاجم المحافظون الجدد مثل هذه التصريحات الواقعية، كتصريحات كريستل، حين تطبق على الدول التي يرغبون في إضعافها أو تقويضها؛ ولم تكتف هذه الهجمات بالعنف، بل إنها صيغت بعبارات من أكثر أنواع المسيحانية الأمريكية تشدداً: مثل التدخل وعدم الاقتصار على تقديم النموذج[125].

إن أكثر مثال عديم الحياء على هذا، هو الطريقة التي لعب بها المحافظون الجدد وغيرهم من معادي الشيوعية في السابق في الولايات المتحدة على موضوعة التمييز بين الأنظمة «الشمولية» (Totalitarian)، و«السلطوية» (Authoritarian). خلال الثمانينيات عرض عدد من المثقفين المعادين للشيوعية هذا المفهوم على أنه مفتاح التمييز بين دكتاتوريات أمريكا اللاتينية الموالية لأمريكا، والتي تظل منفتحة ثقافياً وفكرياً واقتصادياً، وبين الدول الشيوعية. وهذا التمييز لا يزال سارياً بالطبع[126].

= للاطلاع على تصريح مماثل أطلقه أحد أكبر ضحايا المحافظين الجدد جورج كينان، انظر: George Frost Kennan, «Morality and Foreign Policy,» *Foreign Affairs*, vol. 64, no. 2 (Winter 1985- 1986).

للاطلاع على عداء محافظين الجدد القائم منذ أمد طويل إزاء مبدأ التدخل الإنساني، انظر: Irving Kristol, *Neoconservatism: The Autobiography of an Idea* (New York: Free Press, [1995]), pp. 50 ff.

(125) انظر: Joshua Muravchik, *Exporting Democracy: Fulfilling America's Destiny*, AEI Studies; 513 (Washington, DC: AEI Press, 1991), pp. 19-38 and 64-81, and William Kristol and Robert Kagan, «Toward a Neo-Reaganite Foreign Policy,» *Foreign Affairs*, vol. 75, no. 4 (July- August 1996).

(126) انظر: Jeane J. Kirkpatrick, *Dictatorships and Double Standards: Rationalism and Reason in Politics* (Washington, DC: American Enterprise Institute; New York: Simon and Schuster, 1982).

ومما يبعث على التسلية أنه حين حاولت روسيا والصين التخلي عن الشيوعية ـ كلٌ بأسلوبها الخاص ـ تبين أن العديد من الأمريكان الذين كانوا الأكثر شراسةً في المطالبة بالتمييز بين الأنظمة الشمولية والاستبدادية لم يأخذوا الأمر على محمل الجد. وبدلاً من ذلك، في تلك الحالات وغيرها، مثل حال إيران، فإنهم فعلوا كل ما بوسعهم لجعل خط التمييز غامضاً بين الشمولية والاستبداد. بالنسبة لهم، لم يكن هذا التمييز أكثر من حيلة رخيصة للمناقشة، القصد منها إقامة الدليل على أن حثالة واشنطن في أمريكا اللاتينية هم أفضل من حثالة موسكو في أوروبا الشرقية.

بعد 11 أيلول/ سبتمبر، بدأ بعض المثقفين ممن كانوا لا يزالون يُحسبون على الحزب الديمقراطي ويُسمون أنفسهم ليبراليين، بالسير على الطريق القديمة التي سار عليها قبلهم المحافظون الجدد منذ جيلين، حين كان أغلبية من أصبحوا من المحافظين الجدد ينتمون إلى صفوف الديمقراطيين ومن أتباع السيناتور هنري «سكوب» جاكسون الأكثر معاداة للشيوعية وتأييداً لحرب فييتنام ولإسرائيل[127]. هكذا، وفي عام 2003 صرح مايكل توماسكي أن الديمقراطيين بحاجة لتبني مفهوم جديد للسياسة الخارجية بديلاً أقوى وأكثر وضوحاً من الذي يتبناه الجمهوريون:

«إن الجزء الأكثر صعوبة يتمثل في دعم النقد الذي نوجهه للجمهوريين بتقديم رؤية بديلة. وهذا أيضاً يجب أن يكون بسيطاً، ومن أجل المحافظة على الانسجام فإنه يجب أن ينبع من النقد: إن على الديمقراطية القائدة للعالم أن تدعم... الديمقراطية. لقد انتهت

(127) انظر: Lars-Erik Nelson, «Military-Industrial Man,» *New York Review of Books*, vol. 47, no. 20 (December 2000).

الحرب الباردة، وانتهى القرن العشرون، وهو القرن الذي تحولّت فيه العقائد والأيديولوجيات كلها إلى «مزبلة التاريخ». لقد حل القرن الحادي والعشرون، وعلى الولايات المتحدة أن تعلن أنه قرن الديمقراطية، وهذا ما يجب على الليبراليين أن يعلنوه...

تصوروا رئيساً ديمقراطياً، أو حتى مرشحاً للرئاسة، يتبنى بقوة هذه القضية أمام العالم. ولكي يظهر أنه هو (أو أنها هي) يعني فعلاً «العمل والتطبيق»، فإنه (أو أنها) قد يختار حالاً معينة للاختبار توضح أمراً يثير الغضب سبق للولايات المتحدة إن غفلت عنه - مثل معاناة الأكراد في تركيا، أو ما هو أفضل لأغراض استهلاكية في السياسة الداخلية، اضطهاد النساء في العربية السعودية. قد يكون ثمة مقاومة في البداية، لكن من يستطيع معارضة الولايات المتحدة؟ إن العالم سيبدأ بطريقته المتثاقلة النكدة، في التغيّر[128].

عام 2003، كان يمكن العثور على مقاطع مماثلة في كتابات العديد من مؤيدي الحزب الديمقراطي. وقد لخصّت هذا الأمر الورقة المعنونة «نحو أممية تقدمية: استراتيجية ديمقراطية للأمن القومي (Progressive Internationalism: A Democratic National Security Strategy) التي وضعتها مجموعة من الموظفين السابقين، وأعضاء مراكز الأفكار والأكاديميين للتأثير في الحملة الانتخابية للديمقراطيين وسياسات الإدارة الديمقراطية المقبلة. تم رسم هذه الاستراتيجية برعاية معهد السياسات التقدمية (Progressive Policy Institute (PPI)) في واشنطن، وهو تجمع

(128) انظر: Michael Tomasky, «Between Cheney and Chomsky: Making a Domestic Case for a New Liberal Foreign Policy,» in: George Packer, ed., *The Fight is for Democracy: Winning the War of Ideas in America and the World* (New York: Harper Collins; Perennial, 2003), pp. 41-42, and Paul Berman, *Terror and Liberalism* (New York: Norton, 2003)

وهذا الكتاب الأخير هو لأحد المؤلفين المعاونين لتوماسكي.

يدعو المدافعين عن السياسة المحلية للولايات المتحدة لتشكيل ما يشبه «الطريق الثالث» لتوني بلير في الولايات المتحدة. كانت بعض مقترحاتهم للسياسة المحلية سديدة[129]. ومثل بقية الأعمال التي قدمها أعضاء هذه المدرسة، تختلف هذه الوثيقة من أعمال القوميين من الجناح اليميني في أنها تؤكد، وبصدق لا شك فيه، الحاجة النظرية إلى علاقات متعددة الأطراف. المشكلة هي أن بقية تصريحاتها المتعلقة باستخدام القوة لتحسين أوضاع العالم هي غريبة عن نمط التفكير الأوروبي السائد، وغيره، إلى حد أنها لو طبقت لكانت ستجعل هكذا تعددية أطراف، شديدة الصعوبة.

في مقالة ذات علاقة بالموضوع دعا كل من دانا آلن ومايكل أوهانلن وفيليب غوردن، الإدارة الديمقراطية المقبلة لإظهار «الاحترام» للحلفاء الرئيسيين، على عكس ما فعلته إدارة بوش[130]. لكن من الصعب إظهار الاحترام حين يتم رفض نصائح المرء بشكل قاطع. وفي هذا الخصوص، فإن الكثير من محتويات ورقة الأممي التقدمي (Progressive Internationalist) وحتى لغة تصريحاتها يصعب تمييزها عن نشرات المحافظين الجدد[131]. وقد التحق العديد من الموقعين على هذه الوثيقة بالمحافظين الجدد والمعلقين الجمهوريين من الجناح اليميني في دعم الحرب على العراق[132].

(129) للإطلاع على برامجهم وأيديولوجيتهم، انظر الموقع: www.ppionline.org

(130) Dana H. Allin, Philp H. Gordon and Michael E. O'Hanlon, «The Democratic Party and Foreign Policy,» *World Policy Journal*, vol. 20, no. 1 (Spring 2003).

(131) «Progressive Internationalism: A Democratic National Security Strategy,» (30 October 2003), www.ppionlime.org www.brookings.edu/fp/projects/iraq/postwar.htm. lspecials/seurity-strategy.

(132) Leslie H. Gelb and Justine A. Rosenthal, «The Rise of Ethics in =

أحد الموقعين على بيان «الأممية التقدمية» الأستاذ مايكل مكفول من ستانفورد، كتب يقول «خلال القرن العشرين كان الهدف المركزي للقوة الأمريكية هو الدفاع ضد الاستبداد وتدميره»؛ وهو وصف يماثل الأوصاف السوفياتية في إغفال الوقائع الحاسمة غير الملائمة. وفي دعوته لتبني «عقيدة الحرية» على أنها المبدأ الفيصل للسياسة الخارجية والأمنية للولايات المتحدة، كتب ماكفول بصيغ تتماثل مع تلك التي يستخدمها المحافظون الجدد: «يتطلب تعزيز الحرية أولاً احتواء، ومن ثم إلغاء، تلك القوى التي تعارض الحرية، سواء أكانت أفراداً، حركات أم أنظمة... من أجل تعزيز الحرية في الخارج على المدى البعيد، يجب أن تحافظ الولايات المتحدة على هيمنتها العسكرية الفائقة على بقية العالم».

ووفقاً لرؤية ماكفول فإنه:

«لا يمكن للولايات المتحدة أن ترضى بالمحافظة على النظام القائم في المنظومة الدولية. بل يجب على الولايات المتحدة أن تصبح مجدداً قوة مراجعة تصحيحية، أي دولة تسعى لتغيير النظام الدولي وسيلةً لتحسين أمنها الوطني. فضلاً عن ذلك، يجب أن تكون هذه المهمة هجومية في طبيعتها. لا تستطيع الولايات المتحدة تحمّل الانتظار لكي تتحرك للهجوم التالي. بل يجب أن نسعى لعزل أعدائنا وتدميرهم من خلال محو أنظمتهم ومخابئهم الآمنة. الهدف الأسمى للقوة الأمريكية هو خلق مجتمع دولي مكوّن من دول ديمقراطية تنتشر في كل أقاليم الأرض»[133].

Foreign Policy: Reaching a Values Consensus,» *Foreign Affairs*, vol. 82, no. 3 (May - June 2003), and Ronald Asmus, [et al.], «Statement on Post-War Iraq,» (16 June 2003), www.brookings.edu/fp/projects/iraq/postwar.htm.

Michael McFaul, «The Liberty Doctrine,» *Policy Review*, no. 112 (133) (April - May 2002).

في مكان آخر دعا ماكفول وزملاؤه لاتباع أقسى سياسة خارجية للولايات المتحدة ضد إيران على أساس معارضة خوض الاشتباك معها والمطالبة بدلاً من ذلك بتغيير النظام والدمقرطة - وبالتالي فقد وضعوا أنفسهم في موقف الحلفاء للمتصلبين من المحافظين الجدد وللوبي الإسرائيلي وضد وزارة خارجية كولن باول وآراء أهم الحلفاء الأوروبيين، ومن ضمنهم بريطانيا. مع أن كل هذا كان يفترض أن يكون متناسباً مع مبادئ «تعدد الأطراف»[134].

ما هو أكثر غرابة هو الفكرة التي عبّر عنها توماسكي وغيره ممن يصفون أنفسهم بالليبراليين عن كون مثل هذه المقاربة سوف تشكّل «البديل» لما تريده إدارة بوش. وكما هو واضح من المقطع الذي نقلناه سابقاً في هذا الفصل عن استراتيجية الأمن القومي، فإن كلماتهم تكاد لا تختلف عن تلك التي تستخدمها الإدارة الجمهورية. كل ما يستطيع توماسكي وزملاؤه زعمه هو أنهم ينوون تطبيق هذه المبادئ بشكل أكثر فاعلية وتماسكاً - لكن هذا هو بالضبط زعم المحافظين الجدد بدورهم. فضلاً عن ذلك، فإن مثل هذا الخطاب هو البضاعة الرئيسة للدعاية الأمريكية على الصعيد الدولي ولسنوات عدة وهي إلى حد ما جزء لا يتجزأ من العقيدة الأمريكية ومن الأساطير المصاحبة لها[135].

---

(134) انظر: Abbas Milani, Larry Diamond and Michael McFaul, «A Blurred Vision: The U.S. Failure to Articulate a Coherent Policy Toward Iran Works Against the Goal of Democratic Change,» *Los Angeles Times*, 20/7/2003.

هذا الموضوع الذي كتبه ديمقراطيون يماثل طروحات المحافظين الجدد. انظر: Reuel Marc Gerecht, «Going Soft on Iran: The Temptation of America's Foreign Policy «Realists»,» *Weekly Standard* (3 August 2004).

(135) انظر دراسة: Smith, *America's Mission: The United States and the Worldwide Struggle for Democracy in the Twentieth Century.*

إن خط الصقور الديمقراطيين لم يتميّز حتى عن خط بوش حين تعلق الأمر بالعراق. آنذاك وحين كتب توماسكي كلماته، كان العديد من المثقفين المؤيدين للإدارة قد صرحوا بأن دعم الدمقرطة هو جوهر سياستهم الخارجية. هلل جورج ويل، ماكس بوت وغيرهما للتحول المفترض لبوش إلى خط «الويلسونية» و«بناء الأمة»[136]. إذ إن شعارات الدمقرطة، وحقوق الإنسان، وتحرير المرأة كانت قد استخدمت بالفعل تسويغاً للحرب في أفغانستان، وصار الهدفان الأولان جزءاً من السبب المعلن للحرب على العراق.

إن لغة الليبراليين الديمقراطيين أمثال توماسكي حول الخيبات المفترضة للجمهوريين «الواقعيين» بهذا الشأن، قد رددتها حتى وبشكل شبه حرفي، هجمات نيوت غينغرتش القاسية على الميول الدولية لكولن باول ووزارة الخارجية. استخدمت تصريحات غينغريش حاجة الولايات المتحدة إلى «الترويج للحرية ومحاربة الاستبداد» بوصفها لازمة: «يجب على الولايات المتحدة الوقوف بحيوية من أجل الترويج لهذه القيم في أرجاء الأرض. يستحق كل فرد الحصول على الأمان، الصحة، الازدهار والحرية. الولايات المتحدة تدعم القيم الجوهرية للحرية الدستورية، حرية التعبير (من بينها حرية الصحافة)، استقلال القضاء، حرية السوق، الانتخابات الحرة، شفافية الحكومة، مساواة المرأة، المساواة العرقية، وحرية ممارسة المعتقدات الدينية. من دون هذه القيم يصعب تخيل العالم الذي يمكن للولايات المتحدة أن تعيش

(136) انظر: Boot, «George W. Bush: The 'W' Stands for Woodrow;» David Ignatius, «Wilsonian Course for War,» *Washington Post*, 30/8/2002; Michael Ledeen, «America's Revenge: To Turn Tyrannies into Democracies,» *New York Sun*, 12/9/2002; «Transcript of the Interview with Condoleezza Rice,» *Financial Times*, 22/9/2002, and «No Exceptions,» *Washington Post*, 29/12/2002.

فيه بأمان. يجب أن لا نخلط بين احترام الآخرين وبين القبول بقيمهم إن كانت تنتهك هذه المبادئ»[137].

شكّل هذا المقطع جزءاً من محاولة جادة قام بها اليمين الجمهوري للمزيد من تقليل احترام حكومة الولايات المتحدة لوجهات النظر الأخرى، وحتى لوجهات نظر الحلفاء الديمقراطيين الغربيين، ولإضعاف الإدارة الرئيسية للحكومة المسؤولة عن العلاقات الدولية، ولفتح الباب بشكل أوسع لأحادية أمريكا في القيام بأعمال عسكرية، ولتقليص الدعم الحقيقي في الإدارة لخطة جورج بوش المسماة «خارطة الطريق» للتوصل إلى سلامٍ بين إسرائيل والفلسطينيين.

بعد غزو العراق والفشل في العثور على أسلحة الدمار الشامل الموعودة، تحولت الدوافع نحو الدمقرطة وحقوق الإنسان لتصبح «الذريعة» المركزية للحرب[138]. كما أن دعم الدمقرطة لم يقتصرعلى تلك البلدان الواقعة تحت الاحتلال العسكري الأمريكي. وقد جرى أيضاً القول إن دمقرطة أفغانستان والعراق سوف تستهل عملية دمقرطة الشرق الأوسط بأكمله، بدءاً من إيران.

وبالطبع فإن التركيز على الدمقرطة بين الشرائح الأكثر قوة في

---

(137) Newt Gingrich: «The Failure of U.S. Diplomacy,» *Foreign Affairs*, vol. 82, no. 4 (July - August 2003), pp. 42-48, and «Transforming the Department of State: The Next Challenge for the Bush Administration» (Speech, American Enterprise Institute, 22 April 2003).

انظر الموقع الالكتروني لـ «American Enterprise Institute». وفي دعم غينغريش ومناهضة خارطه الطريق، انظر: Frank J. Gaffney, «Mideast Road Trap,» *Washington Times*, 6/5/2003.

(138) Condoleezza Rice, «Transforming the Middle East,» *Washington Post*, 7/8/2003; George Melloan, «Protecting Human Rights Is a Valid Foreign Policy Goal,» *Wall Street Journal*, 10/6/2003, and «A Wilsonian call for freedom,» *Washington Times*, 7/11/2003.

اليمين الأمريكي المعاصر لم يبدأ عام 2002. والفترة التاريخية الأكثر أهمية في هذا السياق كانت تبنّي رونالد ريغان لغة الثورة الديمقراطية وحقوق الإنسان على أنها الجزء المركزي في صراعه ضد «إمبراطورية الشر» للاتحاد السوفياتي، ما شمل الامتناع عن الاعتبارات «الواقعية» التي كان يفترض أنها هي المتحكمة في سياسات الإدارات الجمهورية السابقة مثل إدارات فورد، نيكسون وإيزنهاور.

ونتيجةً لذلك عموماً، تحوّل المثقفون الديمقراطيون الرواد الملتفون حول سكوب جاكسون بعيداً عن الحزب الديمقراطي ودخلوا في المعسكر الأيديولوجي للمحافظين الجدد والمعسكر السياسي للجمهوريين. وبكلمات أخرى، تبع توماسكي وزملاؤه عام 2003 الطريق التي سار عليها قبلهم ريشارد بيرل، إيرفينغ كريستل وغيرهما من الجيل السابق[139].

يختلف تصوّر الديمقراطيين «التقدميين الأمميين» جوهرياً عن تصور اليمين القومي في العديد من المواضيع الدولية الأخرى مثل البيئة، المساعدات الخارجية، العديد من المعاهدات الدولية وبشكل عام في الحاجة إلى عرض «رؤية أكثر كرماً عن المجتمع الكوني ودور أمريكا فيه»[140]. وفي الواقع، فإنه لو جرى تطبيق هذا التصوّر ـ وهو أمر مشكوك فيه إلى حد بعيد، بسبب الماضي المشبوه للحزب الديمقراطي في الكونغرس إبان عرض هذه القضايا ـ لما كانت هذه السياسات مفيدة في ذاتها وحسب، بل أدت إلى تحسن

---

(139) للإطلاع على نص كلاسيكي بهذا الخصوص، انظر: Charles Krauthammer, «The Poverty of Realism,» *New Republic*, 17/2/1986.

(140) Allin, Gordon and O'Hanlon, «The Democratic Party and Foreign Policy».

المناخ كله بين الولايات المتحدة وأوروبا الغربية بشكل خاص.

ولكن، حين تصل الأمور إلى القضايا المحددة المتعلّقة بقيادة الحرب ضد الإرهاب وباستخدام القوة لتحسين حال العالم، لا يقدم التقدميون الأمميون «بديلاً» حقيقياً لسياسات إدارة بوش. بل هم، مثل المحافظين الجدد، يمثّلون شكلاً من أشكال الإمبريالية الليبرالية من النوع الذي ميّز المشهد الليبرالي للولايات المتحدة وأوروبا منذ قرن مضى. ومع أن لهذه الصورة على نحو بيّن، سمات أمريكية خاصة، لا بل فريدة، إلا أن لها أيضاً سوابق تبعث على الكآبة في تاريخ العلاقات بين القوميين والحركات الليبرالية في عصور سابقة وفي أجزاء أخرى من العالم.

تتضح السطوة النفسية للقومية على الليبرالية في هذه العلاقة بوضوح في لغة القوة القومية التي يستخدمها توماسكي وماكفول، والتي لا تختلف روحها إلا قليلاً عن لغة المحافظين الجدد. أمريكا «تمحو» (Eliminates) أعداء الحرية. إنها تعلن بشكل أحادي ما تريده، وعلى العالم أن يتبعها، إذ «من يستطيع تحمل معاداة الولايات المتحدة؟» إنهم يرون أن «العالم» لابد أن يتجاوب «بنكد»، وبالتالي فقد نزعوا الشرعية عن أي نقد وأثبتوا مرة أخرى الحاجة للقيادة الأمريكية الحازمة لبقية الإنسانية.

يجري اختيار «عينات الدراسة» بعناية لكي تروق لا للرأي العام العالمي بل للرأي العام في الولايات المتحدة، ولكي تناسب حاجات أمريكا الدبلوماسية والأمنية الراهنة: معاقبة الأتراك لعدم مساعدة الأمريكان في العراق، ومعاقبة السعوديين لعدائهم لإسرائيل وعدم كفاية قسوتهم مع القاعدة وحلفائها. ومثل الأمثلة الأخرى التي سبقت الإشارة إليها، فإن مثل هذه المقاطع هي قومية باعتبار عمق اعتقادها بعدم وجود أي شيء غير أناها (Solipsism)، وتصل أحياناً إلى حد

التوّحد (Autism)، حين يتعلق الأمر بالرد المحتمل لغير الأمريكان على مثل هذه اللغة، ناهيك عن الرد على الأوضاع السياسية السائدة في دولٍ أخرى. عند اتحاد ذلك مع عدم قدرة الديمقراطيين على توجيه النقد لإسرائيل، يصبح لهذه السبل تأثير مأساوي في قدرة هذا الحزب على تشكيل استراتيجيات بديلة وواضحة للصراع ضد الإرهاب.

«الأمية اليعقوبية»(*)

في كتابه المعنّون **مشاعر بربرية** (*Barbarian Sentiments*)، يسجل وليام بفاف حواراً تاريخياً مثيراً جرى عام 2000 بين السيناتور جيسي هيلمز وبول كيلز العضو البارز في الجمعية الوطنية الفرنسية. أخبر هيلمز أعضاء مجلس الأمن الدولي أن «الدول الديمقراطية، والولايات المتحدة بالذات، والتي تعمل من أجل قضية الحرية، تملك سلطة لا حدود لها، ولا تخضع لأي سيطرة خارجية، في أن تقوم بحملات تدخل عسكري».

بعد 11 أيلول/سبتمبر وفي العام التالي، صار هذا الموقف جزءاً مما يسمى عقيدة بوش، وأكدته استراتيجية الأمن القومي عام 2002. حذر كوايلز في صحيفة **لوموند** أنه في حال اتخذت الولايات المتحدة مثل هذا السبيل، فسوف تكون النتيجة «تحدياً أكبر وأكبر من دولٍ أخرى، مثل روسيا والصين، ودول أخرى غيرها. والنتيجة رفض أمريكا للأمن الجماعي، اللجوء إلى حلول استخدام القوة من قبل عدد متزايد من الدول، تكثيف النزاعات وتوسيعها...»[141].

(*) نسبة إلى اليعاقبة الذين كانوا التيار الراديكالي العنيف في الثورة الفرنسية.

(141) William Pfaff, *Barbarian Sentiments: America in the New Century* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2000), pp. 270-271.

تأتي إثارة هذا الحوار من واقع أن السناتور هيلمز، بالرغم من كونه يمثل المتطرفين من المحافظين الجدد في الدولة المهيمنة على العالم، كان يعبر عن الفلسفة الثورية التي كانت قد هزت العالم والتي قام بها أسلاف كوايلز منذ أكثر من قرنين. وبحسب مؤرخ القومية العظيم إيلي كدوري:

سمح مجتمع الدول الأوروبية [التقليدية] بقيام أشكال متنوعة من الجمهوريات والملكيات الوراثية والمنتخبة والأنظمة الدستورية والاستبدادية. ولكن على أساس المبدأ الذي دعا إليه الثوريون [الفرنسيون]، فإن صيغ جميع الحكومات التي كانت قائمة آنذاك أصبح مشكوكاً بها: ما دامت الحكومات لا تستمد سيادتها من الأمة، فإنها كانت بالتالي مغتصبة، وأي اتفاق معها لا يكون ملزماً، ولا يكون لها على رعاياها أي حق بالولاء. من الواضح أن مثل هذه العقيدة سوف تؤدي إلى تسميم النزاعات الدولية، وتجعلها تتمرد على الأساليب التقليدية لحكم الدولة؛ ومن المؤكد أنها ستخرب العلاقات الدولية كلها التي كانت معروفة حتى اليوم[142].

من المؤكد أن الجانب الثوري أو اليعقوبي لهذه المقاربة في الولايات المتحدة قد اعترف به علنا من بعض مؤيديه[143]. لو كانت هذه التصريحات صادقة حقاً، لكان من الغريب أن تصدر عن ممثلي أعظم رأسمالية مهيمنة على العالم. في الواقع، وكما رأينا،

---

(142) Elie Kedourie, *Nationalism* (London: Hutchinson, 1979), pp. 15-16, and Raoul Girardet, ed., *Le Nationalisme français, 1871-1914*, Collection U. Série idées politiques (Paris: A. Colin, 1966), p. 13.

(143) انظر: Kagan and Kristol, eds., *Present Dangers: Crisis and Opportunity in American Foreign and Defense Policy*, Introduction, and Kagan, *Of Paradise and Power: America and Europe in the New World Order*, pp. 137-138.

كانت النية أن يكون تنفيذها انتقائياً جداً، لإضعاف بعض الدول في حين يتم تجاهل حلفاء الولايات المتحدة: من هنا يثار الغضب الأخلاقي بشأن إيران، في حين يغطي الصمت جرائم أسوأ في أوزبكستان. ولكن حتى لو اقتصرت هذه الفلسفة على تطبيقات محدودة، فهي تظل بالغة الخطورة على النظام الدولي والسلم والتعاون.

يجب أن يكون تاريخ فرنسا الثورية والنابوليونية كافياً لتذكرينا بذلك. إذ مع أن الجيوش الفرنسية جلبت تقدماً ملموساً لأجزاء عديدة من أوروبا، إلا أنها حرّكت في الوقت نفسه مقاومة شرسة أدت إلى حروب مزقت أوروبا لأجيالٍ عديدة. لم تؤد هذه النزاعات في النهاية إلى هزيمة ساحقة لفرنسا وحسب، بل أضعفتها إلى حد لم تستعد بعده تفوقها على أوروبا والعالم أبداً. لم تقتصر المقاومة على قوى المقاومة في أوروبا القديمة، لكنها شملت أيضاً الأنصار من المزارعين في عدد من الدول كما أدت إلى الانتفاضة الشعبية الألمانية عام 1813 والتي ساهمت في وضع أسس القومية الألمانية الراديكالية. وكما اعترف روبسبيير نفسه، «لا أحد يحب المبشرين المسلحين». وحين أفرزت الثورة الفرنسية نابليون، تحول حتى الحلفاء الليبراليون إلى معاداة الفرنسيين، إذ إنهم قرفوا من الغزاة الذين زعموا أنهم ديمقراطيون، لكنهم في الواقع، لم يفعلوا سوى إنتاج سوط جديد من الملكيات الوراثية من بين صفوف أخوة نابليون وقادته.

في أيامنا هذه، كان لمثل هذا الموقف الأمريكي المسيحاني الثوري ثلاث نتائج مؤذية، حتى لو أنه في الواقع نادراً ما كان يعبّر عن نفسه عملياً. **الأولى** هي الكيفية التي غذت التطرف القومي والإحساس بتفوق القيم الذاتية في داخل أمريكا نفسها، والتبجح

الشوفيني (Chauvinisme Cocardier) الذي كان يعيب تقاليد اليعاقبة في فرنسا. مثل هذه المواقف تحتقر علناً مصالح الأمم الأخرى وآراءها، وتعظّم الرؤية الذاتية للقيم الأمريكية، والإيمان العميق بأنه «ليس من الضروري الوفاء بالوعد للهراطقة»، بحسب قاعدة الإصلاح المضاد الكاثوليكي[144].

وبشكل خاص فإنه جرى استغلال الطبيعة الاستبدادية لأغلب الدول في العالمين العربي والإسلامي، بوصفه ذريعة لتجاهل ليس وجهات نظر الحكام فقط، بل أيضاً آراء شعوبهم، الأمر الذي كان له نتائج مأساوية على الصراع ضد الإرهاب الإسلامي. وبشكل أعم فإن هذه المسيحانية قد أدت إلى مزيج غريب لكنه مألوف تاريخياً من المثالية المفرطة والغياب الكامل لحب المرء لإخوته في الإنسانية بالمفهوم التوراتي الواسع[145]. لقد حذر سي. فان وودوورد من هذا خلال حرب فيتنام، ، وبكلمات تشبه كثيراً كلمات كدوري (Kedourie):

بحسب مؤيدي هذه النظرة فإن رسالة أمريكا الحقيقية هي شن حرب صليبية أخلاقية على نطاق عالمي. من المحتمل أن لا يقبل أمثال هؤلاء أي شرعية، وأن يرفضوا سماع وجهات النظر المقابلة، وأن يلجأوا إلى قانون أسمى لتبرير الوسائل الدموية والمقززة للنفس وذلك باسم الغايات السامية. ويتساءلون: أي غاية أكثر سمواً من تحرير الإنسان... وما يثير السخرية في الكلام الأخلاقي، حين يستغله القوميون، أن الهدف السامي لإنهاء الظلم واللاأخلاقية ينتج عنه في واقع الحال جعل الحرب أكثر لاأخلاقيةً وأكثر بشاعةً من

---

(144) Girardet, ed., Ibid., p. 13.

[الإصلاح المضاد الكاثوليكي هي حركة الكنيسة الكاثوليكية للرد على الإصلاح الديني مطلع القرن السادس عشر (المترجم)].

(145) انظر: Niebuhr, *The Irony of American History*, pp. 145 ff.

السابق، وتهشيم أسس النظام السياسي والأخلاقي الذي بني عليه السلام[146].

النتيجة البغيضة **الثانية** لهذا الموقف الأيديولوجي سيتم بحثها في الفصل السادس عند الإشارة إلى سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. وهو يلهي الولايات المتحدة عن اتخاذ إجراءات عاجلة لتقوية الصراع ضد الإرهاب: وبالذات، الدفع بقوة للتوصل إلى سلام بين إسرائيل والفلسطينيين، واتخاذ خطوات اقتصادية جادة لمساعدة المنطقة. ومن المؤكد، أن القصد من الموقف في الحال الأولى، هو التضليل أو الإلهاء ليس إلا.

النتيجة البغيضة **الثالثة** لأيديولوجية أمريكية مسيحانية أن لها تداعيات عميقة ليس على الشرق الأوسط وحسب، بل على علاقات أمريكا مع كثير من دول العالم. تلك هي الطريق التي أشار إليها كدوري وودوورد، وكما يعترف مؤيدوها، فإنها تشجع على ازدراء الدول والعداء لها، ليس دولاً معينة وحسب، ولكن إلى حد ما الدول كلها، وعلى الأقل إن الأغلبية العظمى من الدول التي لا تتوافق مع المواصفات الأمريكية للديمقراطية والنجاح الاقتصادي؛ وحتى الدول التي تتوافق معها، مثل دول أوروبا الغربية، سوف تُلعن لأنها جبانة، عيَّابة ومنحطة إلى حد عدم دعم المهمة الشجاعة والمثالية لأمريكا في العالم.

تمثل هذه العدوانية تهديداً جاداً لاستراتيجية الولايات المتحدة ضد الإرهاب. لهذا فإن إفادات المنسق الأسبق لمقاومة الإرهاب ريشارد كلارك في آذار/ مارس 2004 في ما يخص عدم الاهتمام النسبي لإدارة بوش بقضية الإرهاب قبل 11 أيلول/ سبتمبر قد أدت

(146) Woodward, *The Burden of Southern History*, pp. 205-207.

بالتالي إلى قيام العديد من رجال الطبقة السياسية والإعلامية للولايات المتحدة بما يشبه استنطاق المحاكم لمعرفة تفاصيل «من كان يعرف ماذا ومتى» في صيف 2001. وبفعلهم هذا، فإنهم يخاطرون بضياع السؤال الأكثر عمقاً وأهميةً عن سبب هوس إدارة بوش والعديد من الأمريكان من الحزبين الرئيسيين بما زعموا أنه تهديدٌ من دول لا تملك ذرةً مما تملكه الولايات المتحدة ويمكن ردعها بالتهديد بالرد واسع النطاق.

يجسد هذا العداء لدولٍ أجنبية أيضاً عدداً من العوامل المختلفة. يشمل ذلك الهوس بوجود دول منافسة، عند أنصار الفلسفة الواقعية في العلاقات الدولية التي تستمر في الهيمنة على الكثير من عالم السياسة الخارجية الأمريكية؛ وعداء مجموعات أمريكية من أقليات عرقية معينة، لدول معينة في العالم، وأكثرها وضوحاً هو بالضبط عداء اللوبي الإسرائيلي تجاه الدول المسلمة المعادية لإسرائيل (وهذا يعني الأغلبية العظمى من الدول المسلمة).

إن العداء للدول، والجهل بالثقافات السياسية الأخرى تغذيه أيضاً المنظمات الغربية غير الحكومية ومنظمات حقوق الإنسان. أن خلفية التزامهم المخلص والحماسي بقضايا حقوق الإنسان والدمقرطة تجعلهم في الغالب عاجزين عن سماع أي أصوات من خارج الثقافات الغربية، وهو صنو إنكارهم الذكريات المريرة للاستعمار الغربي، وفوق هذا وذاك، جهلهم العميق بالتاريخ[147].

---

(147) Alex de Waal, «The Moral Solipsism of Global Ethics, Inc,» *London Review of Books*, vol. 23, no. 16 (August 2001), and Michael Edwards, *Future Positive: International Co-Operation in the 21st Century* (London: Earthscan, 2000).

مثل هذه الجماعات الغربية هي بطبيعتها تعنى بالاضطهاد الذي تمارسه الدول وليس بالفوضى التي تعم الشعوب. إنهم غير قادرين فلسفياً حتى على طرح السؤال ـ وتاريخياً فإن الأمر هو هكذا في كل مكان تقريباً ـ عما إذا كان حال بعض المجتمعات يكون أفضل بوجود دولة قوية، حتى لو كانت شديدة القسوة، لكنها قادرة على المحافظة على الدولة أو تطويرها في وجه معارضيها من أمراء الحرب ممن يملكون قوة وحشية وتسليحاً ثقيلاً، ولكنهم يتسمون بالفوضوية ويقومون بالسلب والنهب وخوض المعارك، (وقد يكون هؤلاء من قوى تقليدية متنوعة أو لهم أشكال حديثة من أصناف «البارون ـ اللص» مثل الفوضويين الروس) أو من زعماء القبائل، والمجموعات العرقية. حيث إن الدولة وحدها تستطيع حماية الناس العاديين من اعتداءاتهم. كان هذا صحيحاً بأمريكا في الماضي وقد يصح أيضاً من جديد. وكما كتب فرانسس ليبر الملقب «أبو العلوم السياسية الأمريكية» عام 1838، فإن «الحكومة الضعيفة هي نفي للحرية»[148].

أتذكر في هذا السياق سيدةً باكستانية تعمل في منظمة غربية غير حكومية، أخبرتني أن الجيش والشرطة في باكستان سيؤون حتى أن من الأفضل لباكستان لو اختفوا تماماً ـ وهذه إشارة إلى تصورها أن البلد في هذه الحال سيكون مكاناً أكثر احتراماً للديمقراطية وحقوق الإنسان. لكن في واقع الحال، ستكون باكستان في مثل هذه الظروف مثل أفغانستان. ولن تكون هذه خطوة إلى أمام في أي مجال، وستكون النتيجة الأسرع هي موت هذه السيدة أو نفيها.

---

(148) ذكر في: Foner, *The Story of American Freedom*, p. 53.

إن هذا النوع من التفكير شجّعته فكرة المنظمات غير الحكومية حول «المجتمع المدني الكوني» الذي يبرز بوصفه بديلاً من سيادة الدولة[149]. هذا المقترح مشبوه تماماً بسبب عجز المنظمات غير الحكومية ليس عن إدارة أو تنظيم أي مجتمع فقط، ولكن أيضاً عن حماية أنفسهم من دون مساعدة قوات الدولة، سواء في داخل الدولة المعنية أو على شكل تدخل دولي خارجي. قد تحل المنظمات غير الحكومية لفترة وجيزة وجزئية محل الدول ولكن حيث تكون هذه الدول قد انهارت بالفعل. وبما أنهم غير مناسبين لأداء مهام الدولة، فإنهم سوف يتسببون بكل تأكيد في خلق فوضى عارمة[150].

إن مفهوم المجتمع المدني الكوني هو أيضاً فكرة نخبوية بعمق. وبالرغم من عدم الاعتراف بذلك علناً، فإن المفهوم مؤسس على فكرة أن النخب المتنورة يمكنها ويجب عليها تحديث الحضارة بين الشعوب غير المتحضرة ونشرها سواء رغبوا في ذلك أم لا. تاريخياً، كان ذلك هو السبيل الذي غالباً ما حدث فيه التطور بالفعل. وما فشلت المنظمات غير الحكومية في الاعتراف به هو أنها لا تستطيع فعل ذلك ما لم تكن النخبة وجماعات النخبة مدعومة من دولة قوية. إن النساء والتكنوقراط الذين درسوا في الغرب وصاروا جزءاً من الجمعية الوطنية الأفغانية (لويا جرغا) لم يتوصلوا لذلك لأنهم فازوا في الانتخابات، بل لأن الحكومة الأفغانية قد عينتهم بعد إصرار حُماتها الغربيين. كما أن تركيا إبان

---

(149) Mary Kaldor, *Global Civil Society: An Answer to War* (Cambridge, UK: Polity Press, [2003]), and John Keane, *Global Civil Society?*, Contemporary Political Theory (Cambridge: Cambridge University Press, 2003).

(150) انظر: Anatol Lieven, «The World Is Still Made Out of Nations,» *Financial Times* (London), 19/12/2002.

حكم أتاتورك، وإيران تحت حكم رضا شاه، والعراق تحت حكم صدام حسين، وبدرجة أقل باكستان تحت حكم الرئيس برويز مشرف، لم تتحسن أوضاع المرأة فيها إلا بقرارات اتخذتها دول استبدادية، وأحياناً بطرق شديدة القسوة.

ساهمت الطبيعة الاستبدادية للأطروحة الأمريكية بدورها في مناقشات عن «الديمقراطية» و«الحرية» بين الليبراليين من دعاة التدخل، ولم يكن ذلك بالصيغة المثالية بل بصيغة خيالية: إذ جرِّدت من التاريخ والاقتصاد والثقافة السياسية والمصالح الطبقية والمصالح العرقية والمصالح السياسية وقبل كل شيء من القومية التي هي العامل التاريخي الحاسم في التطور الاقتصادي الناجح، وفي خلق مجموعة من السياسات الديمقراطية[151].

ينعكس هذا العمى حيال رؤية القومية في عبارة «بناء الأمة»، تحديداً. يمكن في بعض الأحيان بناء **الدولة**، أو إعادة بنائها بمساعدة تدخل عسكري خارجي - بالرغم من أنه حتى في هذه الحالة، فلابد من وجود أسس قائمة قوية يمكن البناء عليها. لقد أنجزت أمريكا مثل إعادة البناء هذه في ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية. كما توجد بعض الإنجازات لبناء الدولة حققتها الإمبراطورية البريطانية، بالرغم من أن العملية قد استغرقت عقوداً أو قروناً عدة.

لكن التكوين الناجح للأمم الحقيقية يتطلب مدةً أطول بكثير وتعقيداً أكبر بكثير، وهو لم يتحقق في أغلب أفريقيا وفي أجزاء

---

(151) للإطلاع على وصف كيف تعمي القومية الأمريكية بصائر الأمريكان بشأن مشاعر القوميات الأخرى، انظر: Minxin Pei, «The Paradoxes of American Nationalism,» *Foreign Policy*, no. 136 (May - June 2003).

كبيرة من العالم الإسلامي. في حال كلٍّ من ألمانيا واليابان ـ وهي نماذج النجاح الوحيدة لحد الآن للدمقرطة السريعة من خلال الاحتلال العسكري الأمريكي ـ فقد كانت الأمتان الألمانية واليابانية موجودتين بالفعل منذ قرون عديدة وكانت أمماً متطورة ومدركة لذاتها ولديها نخبها منذ القرن التاسع عشر[152].

فكرة أن الولايات المتحدة قامت بـ «بناء الأمم» في هاتين الحالين هي تاريخياً مفارقة مضحكة مبكية. وواقعة أن إدارة بوش وقسماً كبيراً من الطبقة السياسية والإعلامية يستخدمون تاريخ ألمانيا واليابان بوصفها حالات شبيهة بحال العراق إنما هي دليل مريع على نوعية الجهل وعدم الفهم الذي جاءت به هذه العناصر إلى ميدان تحليل المجتمعات الأخرى وتشكيل سياسات الولايات المتحدة إزاءها[153].

بدلاً من ذلك كان استخدام كلمات فارغة مثل «الحكمية» (Governance) (التي عرّفها الخبير في شؤون أفريقيا أليكس دي فال على أنها «حكومة، ناقص سياسة» ـ أي بكلمة أخرى سخافة فكرية ـ و«مجتمع مدني» يأتي ليحل محل التحليل الجاد للثقافات السياسية الأخرى وللبرامج الجادة للتنمية. في هذا المجال كان تأثير الأيديولوجية الأمريكية مشابهاً للشيوعية التي وجد مؤيدوها أنفسهم يجعلون الأنظمة الشيوعية مثاليةً في حين كانت مضامينها الحقيقية

---

(152) انظر: Minxin Pei, «Lessons from the Past: The American Record on Nation-Building,» *Policy Brief*, no. 24 (April 2003).

(153) Ray Salvatore Jennings, «After Saddam Hussein: Winning a Peace if It Comes to War,» (Special Report, no. 102, United States Institute of peace (USIP), February 2003), and Joshua Muravchik, «Bringing Democracy to the Arab World,» and Barak A. Salmoni, «America's Iraq Strategy: Democratic Chimeras, Regional Realities,» *Current History*, vol. 103, no. 669 (January 2004).

بعيدة كل البعد عن هياكلها العمومية. لهذه التأثيرات نقاط ضعفها في الفكر الغربي. مرة أخرى كانت نقاط الضعف هذه أكثر أهمية في الولايات المتحدة، إذ في الولايات المتحدة فقط ساهمت هذه القناعات في حروب التدخل وهزائمها، كما في العراق.

هذا العداء للدول جمع بين دعاة التدخل الليبراليين من عالم المنظمات غير الحكومية ومن الإمبرياليين الليبراليين في تحالف يذكّر أغلبية العالم بالتحالف بين المبشّرين المسيحيين وجنود الإمبراطوريات الغربية في القرن التاسع عشر[154]. إذ بالرغم من مثاليتهم الصادقة في أغلب الحالات وطيب نواياهم، إلا أنه في النهاية، ظلّ المبشّرون يعتمدون على الجنود واضطروا إلى الالتزام بالأوامر الاستعمارية التي وضعها الجنود ـ بالرغم من تناقضها التام مع الأخلاق المسيحية.

وكما قال مارتن جاك (في عرضه لكتاب «*Empire Lite*» لمايكل أغناتييف)، فإن ما فعله الكثير من الليبراليين من دعاة التدخل هو الاعتماد على نموذج بائس لأغلبية أفريقيا ما بعد الاستعمار (مضافاً إليها يوغوسلافيا وأفغانستان) وطبقوه كله على الدول التي كانت مستعمرات في العالم. كانت النتيجة أنهم شوهوا المنجزات التي حدثت في الدول في آسيا بعد زوال الاستعمار. ولأن الأغلبية العظمى من الدول ليست مثاليةً من وجهة النظر الديمقراطية، فإن هذا الدمج بين الدول الفاشلة والدول غير الديمقراطية قد يعطي صكاً أخلاقياً على بياض للتدخل العسكري للولايات المتحدة ـ وذلك بصرف النظر عن منجزات هذه الدولة في المجالات الأخرى. وكما

---

(154) انظر: Adam Garfinkle, «The New Missionaries,» *Prospect: Democracy in the Middle East*, no. 85 (April 2003).

أشار جاك، فإن هؤلاء الكتاب وبأخذهم هذا الخط «الإمبريالي الليبرالي ينسون أن «بعض أعظم الصعوبات التي واجهتها هذه الدول كانت نتائج مباشرة لمخلفات الإرث الإمبراطوري»[155].

لقد فشلت الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية فشلاً ذريعاً في تطوير أغلب مستعمراتها، كما يشهد بذلك الانحطاط المأساوي للصناعات الهندية وحصة مشاركتها في التجارة العالمية تحت الحكم الاستعماري البريطاني. وهذا بالطبع لم يكن إلا جزءاً من المسألة، إذ كان الهدف هو جعل المستعمرات أسواقاً مأسورة، وليست منافِسة ـ وهو منهج قلدته سياسة إدارة بوش عند توزيع عقود إعادة إعمار العراق بين الشركات الأمريكية الكبرى بدلاً من إسناد ذلك إلى الوزارات العراقية.

والإمبراطوريات الوحيدة التي نجحت في تطوير ممتلكاتها الإمبراطورية كانت روسيا واليابان، فقد تعاملت معها اقتصادياً على أنها جزء من الإمبراطورية كلها. إن حكم اليابان في تايوان وكوريا الجنوبية، وبالرغم من قسوته الشديدة، إلا أنه وضع أسساً للتقدم الاقتصادي والاجتماعي اللاحق الذي شهدته هذه الدول[156]. وبالمقابل فإن الفيليبين، المستعمرة الأمريكية السابقة في شرق آسيا، هي المثال المقعد في المنطقة والعاجز كُليّاً اقتصادياً.

---

(155) Martin Jacques, «The Interregnum,» *London Review of Books*, vol. 26, no. 3 (February 2004), and Michael Ignatieff, *Empire Lite: Nation-Building in Bosnia, Kosovo, and Afghanistan* (London: Vintage, 2003).

(156) انظر: Samuel Pao-San Ho, «Colonialism and Development: Korea, Taiwan, and Kwantung,» in: Ramon H. Myers and Mark R. Peattie, eds., *The Japanese Colonial Empire, 1895-1945*, Contributors Ching-chih Chen [et al.] (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1984).

إن الدول القوية إلى حد معقول، والتي تستمد شرعيتها من تقاليد الدولة والقومية، والتي هي متشربة بشيء من الهدف القومي والاتجاه نحوه، هي في الحقيقة أساسية لتقدم البشرية، وهي أيضاً، وبصورة مباشرة وعاجلة، أساسية للنجاح في الصراع ضد الإرهاب. وكما بينت الأمثلة المأساوية للعديد من دول الاتحاد السوفياتي السابق خلال التسعينات، فإن مثل هذه الدول أساسية ليس فقط لحماية الناس العاديين والمحافظة على أسس الأمن والنظام، بل من أجل النشاط المستقر لاقتصاد السوق ونموه. وحتى لو لم يتجاوز دور الدولة فيها ما أسماه آدم سميث «الحارس الليلي»، فمن المؤكد أنها لن تستطيع البقاء بأقل من أداء هذا الدور. وقد ذكّرنا انتشار مرض السارس (SARS) (مرض صدري خطر مفاجئ) وأنفلونزا الطيور في شرق وجنوب شرق آسيا خلال العامين 2003 ـ 2004، بما تتطلبه المصالح العريضة للإنسانية في أن تكون الدول قويةً بما يكفي لتبني سياسات قوية للصحة العامة. وبالطبع فإن الدول الناجحة ليست مجرد دول ذات قوة شرسة، فالشرعية الشعبية لها أهميتها الحاسمة أيضاً. ولكن يصعب تاريخياً، إنكار حقيقة أن القدرة على امتلاك القوة، وحتى القوة الوحشية، قد تكون أساسية في الغالب.

علينا أن نتذكر أن خلق الدول وتطورها هو مشهد يندر أن يكون جميلاً. لو تحدثنا أخلاقياً، فإن تصريح بسمارك أن الدول تبنى «بالدم والحديد» هو تصريح كريه. لكنه يمثل وصفاً تاريخياً واقعياً. وهو صحيح حتى في العالم الأنجلو ـ سكسوني لو رجعنا إلى بضعة قرون وحسب، وشاهدنا على ذلك تاريخ إنجلترا في عهد سلالة تيودور. وهذا يصح بشكل أكبر على الدول غير الغربية أيضاً التي اضطر أغلبها إلى محاولة تقليد النجاح الغربي من خلال تبني أشكال مختلفة من تنظيم الدولة من دون أن تكون لها أي جذور في التقاليد

المحلية. وكما عبر عن ذلك هنري كيسنجر في نيسان/ أبريل 2004:

فإن «القول إن للديمقراطية متطلبات ثقافية مسبقة لا ينفي القدرة الجوهرية لتطبيقها على مجتمعاتٍ أخرى، إنما هو يلاحظ فقط حقيقة أن اختزال قرونٍ من التطور والتحول ضمن أطرٍ زمنيةٍ محددة وغير مناسبة قد ينتج عنها نتائج خطيرة غير محسوبة. حين تكون المجتمعات منقسمة على أساس أديان وأعراق، فإن ممارساتنا تواجه خطر التصديق على توزيع دائم للسلطة على أساس هذه التجزئة العرقية. وحيث لا يكون لدى الأقلية أي احتمال لأن تتحول إلى أغلبية، فقد ينتج عن الانتخابات حرب أهلية أو فوضى ـ وهذه هي بالضبط الأرضية المناسبة لتفريخ منظمات إرهابية مقاتلة...

ربح دعاة الدور المهم للالتزام بالديمقراطية في السياسة الخارجية الأمريكية معركتهم الفكرية. لكن بناء المؤسسات يتطلب ليس وجود عقيدة فقط، بل لابد من وجود رؤية تعترف بالظروف الثقافية والتاريخية. هذا التواضع لا يعني التخلي عن القيم الأمريكية، لكنه الطريق الوحيد لتطبيق هذه القيم بشكل فاعل»[157].

تحاول العديد من الدول بالفعل أن تقفز خلال بضعة عقود إلى حال بريطانيا القرن الحادي والعشرين، من حال تشبه ما كانت عليه بريطانيا في القرن الخامس عشر أو حتى الخامس. لهذا فليس من المفاجئ أن العديد من الدول تقع في الفوضى، وغالباً ما تكون العملية دموية. تاريخياً، ليس ثمة سبب للاقتناع أن الكثير من هذه المجتمعات قادر على دعم ديمقراطيات حقيقية في الوقت الحاضر، وأن أشكال الديمقراطيات التي قد يخلقونها ستكون قادرة على تحقيق نمو اقتصادي ثابت وسريع. هذا لا يعني القول إن أنظمة الحكم

---

(157) Henry Kissinger, «Intervention with a Vision,» *Washington Post*, 11/5/2004.

الاستبدادي بأشكالها كلها هي الوصفة الكونية للنجاح الاقتصادي. بل إن ما يؤشر له هذا، هو أننا لا نعرف إلا القليل عن القواعد الشاملة القابلة للتطبيق للتقدم الإنساني، بافتراض وجود مثل هذه القواعد.

في مثل هذه الظروف، يجب أن يكون لمقاربة الولايات المتحدة والغرب نحو دمقرطة المجتمعات الأخرى القدرة على الحكم بتشدد فكري وكرم الروح: التشدد في دراسة التاريخ والثقافة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمنظومة العرقية للمجتمعات الأخرى لتحديد نوعية النظام السياسي الذي يمكنهم تحمّله في الحاضر وفي المدى المتوسط؛ وكرم الروح لمواجهة النجاح والتواضع في آن معاً. إن الثروة الهائلة التي يملكها الغرب والأمن الذي يتمتع به مقارنةً مع أغلبية المجتمعات على هذا الكوكب يجعل من المعيب تقديم الدروس لهم بدلاً من إعطائهم معونات اقتصادية جادة، ولو نظرنا إلى الوراء لعقود عدة، فسنجد أن مجتمعاتنا نفسها مذنبة بجرائم رهيبة مثل العنصرية والعدوان والاضطهاد. ولو نظرنا لأقل من قرن إلى الماضي، فغالباً ما سنجد أننا مذنبون بما صرنا الآن نسمّيه إبادة الجماعية.

لو كان لدينا أي إدراك للتاريخ، لعرفنا أن نظامنا لا يمثل «نهاية التاريخ»، وأنه ليس نابعاً من العناية الإلهية، وأنه لن يستمر إلى الأبد. لقد صار واضحاً على سبيل المثال أنه في حال وصلت التحديات البيئية التي تواجهنا إلى مديات حادة، فإن النظام الغربي لحرية السوق وللديمقراطية عموماً، والصيغة الأمريكية خصوصاً، سوف تفشل في هذه الحال في مواجهة هذه التحديات كما فشل النظام الصيني الكونفشيوسي في مواجهة تحديات الحداثة الغربية في القرن التاسع عشر وتفشل العديد من المجتمعات المسلمة بهذا الخصوص اليوم.

دعا جوليان باندا المفكرين الغربيين لتحرير أنفسهم من خدمة القوميات التي ينتمون إليها. إذ إن القومية العقائدية الأمريكية جعلت الأمة تتماهى بشكل مطلق مع منجزات الحداثة الناجحة وحتى مع «نهاية التاريخ»، وذلك من خلال التوصل إلى نموذج كاملٍ ودائم للعالم. هذا يعني أنه بالنسبة للكثير من المفكرين الأمريكيين، فإن تحرير أنفسهم من خدمة قومياتهم، يعني حاجتهم أيضاً لتحرير أنفسهم من عبوديتهم الحالية للزمن.

إنهم بحاجة إلى تطوير قدرة فكرية على الخطو خارج العصر الحالي وتأمل مشهد التاريخ الإنساني بشكل أوسع، وأن يضعوا أنفسهم في مكان وسط بين شخصية رواية كونراد الخيالية «كابتن مارلو البريطاني»، متذكرين أن نهر التايمس، مثل نهر الكونغو، كان في يوم ما «أحد الأماكن المظلمة على الأرض»، وبين شخصية ماكولي الخيالية للزائر المستقبلي القادم من نيوزيلندا إلى الخرائب الأثرية للندن[158]. هذه بالطبع مهمة صعبة جداً. لكنها بالتأكيد ليست غير مناسبة لنخبة المفكرين في دولة حددت دورها في مجمل التاريخ الإنساني بما يماثل دور روما بكونها «المدينة الأبدية».

بدلاً من الحيوية الفكرية وكرم الروح اللتان كان يمكن أن ينتج عنهما مثل هذا الحياد، كانت مقاربة الولايات المتحدة لدمقرطة بقية أنحاء العالم تمزج بشكل غريب بين الكسل الفكري وضعة الروح: كسل وردي للفكر حين يتعلق الأمر بالتقدم والدمقرطة بشكل عام ممزوجاً مع ضعة مريرة للروح تجاه دولٍ معينة تفشل في التوصل إلى مستويات المواصفات الأمريكية أو تلبية مطالبها. يضاف إلى ذلك،

---

(158) Joseph Conrad and Robert Hampson, *Heart of Darkness* (London: Penguin Classics, 1995), p. 18.

نقص حاد في الكرم حين يتعلق الأمر بتقديم معونة اقتصادية حقيقية للشعوب الأقل حظاً مما تملك الولايات المتحدة، وهذا هو نقيض «الرؤية الكريمة للمجتمع الكوني ودور أمريكا فيه»، كما دعا إليه بحق آلن، غوردن وأوهانلن.

ينبع الكسل الفكري من صفة الشمولية في الأطروحة الأمريكية، التي جرى بحثها في هذا الفصل، والنتائج المبهرجة فكرياً وأخلاقياً للمزج بين تلك الأطروحة والأهداف قصيرة الأمد للإدارات الأمريكية واللوبيات العرقية في الولايات المتحدة. أما ضعة الروح فهي مفاجئة، إذ كما قال السيناتور فولبرايت، فإن «الأمة التي يكون تاريخها المعاصر سجلاً لسلسلة لم تنقطع من النجاحات... يجب أن تكون على يقين من قوتها وبالتالي تكون قادرة على التصرف بشهامة»[159].

لكن كما سنرى، ففي حين أنه قد يكون لدى أمريكا كلّها، تاريخ من الانتصارات المتكررة، إلا أن هذا لا ينطبق على مجموعات كبيرة من الشعب في داخل البلاد. وكما في العديد من الأمم الأخرى طوال التاريخ المعاصر، فإن إحساسهم بالهزيمة الموروثة والإهانة يُغذّي لديهم كراهيةً لا تقتصر على تسميم السياسة المحلية وحسب، بل إن لها نتائج وخيمة على سمات قومية بلدهم.

---

(159) Fulbright, *The Arrogance of Power*, p. 17.

الفصل الثالث

الأطروحة المضادة، الجزء الأول:
قلب الأمة النابض بالمرارة

«هزيمة بساتين الحور في سهول كولورادو، وزهور الأجراس الزرق في روكي، والقبعات الزرق لتكساس القديمة، على يد حلفاء بتسبرغ.

هزيمة عشب ماريبوزا وزنابقها، هزيمة المحيط الهادئ والمسيسبي الطويل، هزيمة الشباب على يد الشيوخ والحمقى.

هزيمة الأعاصير على يد أوعية السم العليا.

هزيمة فتوتي، هزيمة حلمي».

فاشيل ليندسي، «برايان، برايان، برايان، برايان»
(قصيدة لمناسبة هزيمة الحملة الشعبوية للمرشح للرئاسة
وليام جينينغز برايان، 1896)[1]

للقومية الراديكالية العديد من الآباء، لكن أمها هي الهزيمة، وحليبها يسمى المهانة. من هذا الغذاء المسموم يخرج الميل للكراهية

(1) Vachel Lindsay, *Selected Poems*, Edited by Mark Harris (New York: Macmillan, [1963]), p. 124.

الشوفينية التي تنساب خلال العديد من الحركات القومية في العالم. يصح ذلك بشكل خاص على القوميات التي سادت المستعمرات السابقة لأوروبا، فهي قومية خرجت من رحم غزوها واحتلالها على يد الإمبراطوريات الأوروبية وغيرها وتدميرها أو إجبارها على التحول بعيداً عما كان فيها سابقاً من بنى اقتصادية وتقاليد ومرجعيات أخلاقية وسياسية.

وهذا يصح أيضاً على الدول التي استطاعت أن تتحاشى الغزو المباشر لكنها اضطرت للدفاع عن نفسها، بتقليد الأشكال الغربية في الحكم والاقتصاد والمجتمع والثقافة بأفضل ما يمكنها، وأعادت تشكيل نفسها بشكل جوهري خلال هذه العملية. لقد تعرض النظام الديني للتهديد المباشر اجتماعياً واقتصادياً وكذلك تقاليد الدولة. وحين استطاعت هذه التقاليد البقاء حية، كان ذلك غالباً من خلال ربط نفسها بالقومية المعاصرة، وأحياناً ـ كما في اليابان ـ بنوع من القومية شبه الشمولية.

إن روسيا واليابان وتركيا هي الأمثلة الأكثر شهرةً لهذا النوع. في حال روسيا، وبالرغم من الانتصارات العسكرية العظيمة، إلا أن الفشل المتكرر للدولة كلها في التوصل إلى مستويات منافساتها في أوروبا الغربية والأمريكية الشمالية خلق لديها مركب نقص طارد المجتمع الروسي لأكثر من ثلاثة قرون.

على نطاق أوسع، كان هذا النمط صحيحاً ليس فقط في أغلبية الكرة الأرضية، بل حتى في الدول الغربية: ففي القرون الماضية اضطرت كلٌ منها للتكيف ما أمكنها مع نموذجٍ للحداثة والتقدم لم تقم هي بخلقه ولم يكن لديها أي قول، أو رأيٍ حول شكله، سواء أكان هذا النموذج قد وضعته هولندا أم فرنسا، أم بريطانيا أم الولايات المتحدة في زمن أقرب.

وقد استمرت التوترات والشعور بعدم الأمان والكراهية التي خلقها ذلك النموذج لمدة أطول بعد أن حرر البلد المعني نفسه من مضطهديه. وحتى في تلك الحالات النادرة التي استطاع فيها اللحاق بمنافسيه الغربيين. هكذا ولدت القومية الألمانية في أواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر بوصفها جزءاً من الإحساس العميق بمركب النقص والهشاشة تجاه فرنسا. في الجانب الثقافي نتج هذا الإحساس عن الهيمنة المفرطة للغة الفرنسية وثقافتها على أوروبا في القرن الثامن عشر، ما أدى بألمانيا إلى التقليد الأعمى المهين لكلماتٍ وصيغٍ فرنسية أثارت إدانة مريرة من هيردر، وفيخته وآخرين.

بالنسبة للألمان العاديين، كان ثمة تجربة متكررة وبشعة لغزوات جيوش فرنسا، كانت ذروتها غزوات جيوش الثورة الفرنسية ونابليون. وبالنسبة للنخبة الألمانية كان ثمة إعادة تشكيل بلا رحمة للبنى السياسية والاجتماعية الألمانية فرضته عليها فرنسا، وكل هذه، كانت ممكنةً بسبب ظروف انعدام الوحدة الألمانية، مقارنة بـ «الأمة العظيمة» (Grande Nation). تغذى النفور الناتج عن ذلك، من الرذاذ الثابت والمطرد لسيل الاحتقار الفرنسي تجاه جلافة الألمان وسكرهم وسخافتهم العامة، وهي أمور نشرها وعممها القوميون الألمان بشكل جيد[2].

بالنتيجة تكوّن لدى الألمان مركب نقص ظل مستمراً حتى بعد توحيد ألمانيا عام 1871 وبروزها بوصفها أقوى قوة عسكرية في أوروبا وأنجح أممها اقتصاداً: وصف بسمارك هذا النمط النفسي

---

(2) انظر: David Blackbourn, *History of Germany, 1780-1918: The Long Nineteenth Century*, Blackwell Classic Histories of Europe, 2nd ed. (Malden, MA: Blackwell Pub., 2003), pp. 37-68.

بسخرية بقوله: «يحتاج الألماني على العموم إلى شرب قدحين من الشمبانيا قبل أن يشعر بمدى طول قامته». هذا الموروث كان من بين أسباب الغرور الحساس والقلق وعقدة الاضطهاد في السياسة الخارجية لألمانيا في حقبة حكم القيصر فيلهلم، والذي إذا امتزج جيداً مع قوة ألمانيا الساحقة، كان له أبلغ الأثر في استثارة حذر الدول الأوروبية الأخرى وفي توحيدها ضد ألمانيا.

وفي حال الولايات المتحدة، فإن مثل هذه الاتجاهات هي وبشكل استثنائي خارج سياق تاريخ القوميات في العالم، والذي قدّم، على ما يظهر، أسوأ الأمثلة وبشكل غير محدود وما يجعلها مثيرة للانتباه هو مرة أخرى حقيقة أن سكان الولايات المتحدة يبدو للوهلة الأولى أنهم لا يملكون سبباً كامناً ـ بالمقارنة مع المعاناة التاريخية والإهانات التي تعرضت لها بقية الشعوب ـ لأن يكون لديهم روحيةٌ بهذه المرارة، وبهذه الدرجة من ضعة النفس وكراهية العالم الخارجي، وبشكل خاص كراهية الدول الأجنبية التي وقفت بأي طريقة كانت في وجه إرادتها القومية.

في ما يخص العداوات الخاصة، لابد من دراسة دور بعض اللوبيات العرقية في الولايات المتحدة وكذلك دور المركّب العسكري ـ الصناعي ـ الأكاديمي الأمريكي. اجتمع هذان العاملان مثلاً في بعض أقسام المؤسسة في الولايات المتحدة بغية إطالة الروح واسعة الانتشار للكراهية الراسخة ضد روسيا بعد مرور عقد كامل على انهيار الاتحاد السوفياتي ولم تعد موسكو تشكل أي تهديد للولايات المتحدة. ومن الواضح أيضاً أن اللوبي الإسرائيلي قد أدى هو الآخر دوره في خلق العداء ضد العرب والمسلمين على مدى عقود.

من الخطأ إعطاء أيّ من هذه العوامل مركزاً رئيساً في النموذج

الشامل الذي تشكل منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة التي غيّرت الدولة الأمريكية وقبل وصول هذه اللوبيات الإثنية إلى ذروة نفوذها. لم يكن لهذه المجموعات أن تحقق أهدافها لو لم تكن قادرة على التوصل إلى دعم هيئات أمريكية أكبر منها بكثير لديها ميل طبيعي في مواجهة أي اختلاف لتبني مواقف عدائية شرسة، والتي تشعر، حين تواجه بمعارضة من أي دولة أخرى أنها مضطرة أوتوماتيكياً لاتخاذ مواقف الخوف والعداء والاستعداد للقتال، والتصلب والإحساس بصحة موقفها، أي وبكلمات أخرى، مواقف قومية كلاسيكية.

تساعد هذه الثقافة القومية، وليس جهل العامة فقط، في تفسير كيف استطاعت إدارة بوش نِقل الغضب الذي شعر به الأمريكان بعد 11 أيلول/ سبتمبر إلى أهداف لم تكن لها أي علاقة بالهجوم ولماذا سبّبت معارضة أغلبية العالم الحرب على العراق مثل هذا التفجّر للغضب الشوفيني في بعض أقسام الإعلام الأمريكي والرأي العام.

يمكن تفسير هذه القدرة للقومية الشوفينية في الولايات المتحدة إلى حد كبير بحقيقة أن دور الهزيمة في نشوء القومية كامنٌ ليس في هزيمة الأمم وحسب، بل أيضاً في هزيمة الطبقات، والجماعات، ومعها بالتأكيد هزيمة الأفراد في الصميم. غالباً ما تكون الكراهية والخوف القومي الموجه للخارج من القومية، نابعان من الكراهية والتوتر في الداخل، وهذا يصح بشكل غريب في حال الولايات المتحدة.

إن ظهور القومية في العديد من الدول قد نُسب عن حق وإلى حد بعيد لهيمنة الطبقات البرجوازية وحاجاتها؛ لكن من الصحيح أيضاً أن العديد من السمات المظلمة للقوميات قد نتجت عن طبقات كانت في حال انحطاط نسبي أو مطلق، أو كان لديها أسباب وجيهة

للخوف من حصول مثل هذا الانحطاط، طبقات رأت ثمة تهديداً ليس لمواقعها وأمنها فقط، بل أيضاً لعالمها الثقافي من جانب التغيّر الاقتصادي والاجتماعي[3]. إن هذه المشاعر قابلة للتحول إلى راديكالية في ما لو انتهت مرحلة من النمو الاقتصادي وحل محلها كساد أو ركود اقتصادي؛ لهذا نرى أن أصول العديد من الحركات الراديكالية المحافظة والقومية الراديكالية في أوروبا المعاصرة يرجع إلى أول «كساد عظيم» دام من أواسط عام 1870 حتى أواسط 1890[4].

إن كانت السمة التي حددت العديد من القوميات هي الإيمان بالمستقبل الزاهر للأمة، فثمة سمة أخرى لا تقل عنها أهمية هي الرغبة في العودة إلى الماضي المثالي، لأمةٍ أكثر نقاءً ثقافياً وعرقياً، وإلى مجتمعٍ تقليدي مستقر ويسود فيه «اقتصاد أخلاقي» ينال فيه الناس الجديرين بالاحترام والجادين في عملهم، عملاً مضموناً ولائقاً: وهذا سراب براق ذهبي لا يمكن الوصول إليه، حاضر دوماً لكنه يتلاشى باستمرار. في ألمانيا مثلاً، كان هذا العالم هو العالم القديم للمدن الصغيرة المستقلة، بثقافاتها الدينية المنسجمة نقاباتها التي تضمن توفير العمل للمحترمين من أعضائها وتحرّمه على من هو خارجها.

في الولايات المتحدة، يكمن هذا الإحساس بالهزيمة والاستعداد للمعركة في أربعة عوامل في التقاليدِ الأمريكية القومية، متمايزة لكنها متداخلة: «النواة الصلبة» الأصلية من السكان البيض

---

(3) Hans Rogger and Eugen Weber, eds., *The European Right a Historical Profile* (Berkley: University of California Press, 1974).

(4) Klaus Epstein, *The Genesis of German Conservatism* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1966).

الأنجلو ـ ساكسون والاسكتلنديين والأيرلنديين من المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية، والثقافة التاريخية الخاصة للبيض وتجربتهم في الجنوب، والعالم الثقافي للبروتستانتية الأصولية، والذكريات الخاصة المخاوف والكراهية لبعض جماعات اللوبيات العرقية الأمريكية.

لا تزال كلمات دانييل بيل التي كتبها عام 1963 تصح في أيامنا هذه: «ما يحاربه الجناح اليميني، وراء ظلال الشيوعية، هو في الأساس «الحداثة» ـ تلك المجموعة من المعتقدات التي يمكن تحديدها ببساطة بالإيمان بالتقويم العقلاني، محل التقاليد الراسخة، من أجل تقويم التغيّر الاجتماعي ـ وما تسعى للدفاع عنه هو هيمنتها المتلاشية التي كانت تمارسها في يوم ما من خلال مؤسسات المدن الأمريكية الصغيرة، للسيطرة على التغيّر الاجتماعي. لكن تلك هي بالذات السبل القائمة التي كان على أمريكا الحداثة أن تسائلها»[5].

إحياء الثقافة الأهلية (الأهلانية)، وقلق البيض أبناء الطبقة الوسطى

في أمريكا، تطورت رؤى الماضي المثالي وتغيرت مع كل جيل تقريباً، كلما كانت تنضم للطبقات الوسطى من البيض مجموعات كانت في السابق «خارجية»، وشكلت بالتالي تركيباً جديداً مع الثقافة البروتستانتية الأقدم منها. ومثل التقاليد الهندوسية القومية في الهند، فإن هذا الاتجاه لم يعد اليوم عرقياً حصراً. إذ استمر تيار مشاعر خسارة الملكية يجري متواصلاً من قدح إلى آخر، من «الأهلانية

(5) Daniel Bell, «The Dispossessed,» p. 12, and Richard Hofstadter, «The Pseudo-Conservative Revolt–1955,» pp. 64-86, in: Daniel Bell, ed., *The Radical Right* (New York: Doubleday and Co., 1963).

البروتستانتية» مروراً بالمكارثية، وصولاً إلى اليمين المسيحي القومي في أيامنا.

مع كل جيل، تنشأ مخاوف جديدة من أن «نغرق في مستنقع» أو أن نتعرض للغزو. لم تقتصر هذه المخاوف على البيض الأكثر فقراً أو الأكثر جهلاً. عام 2004 وجّه صامويل هنتنغتون تحذيراً صارماً من أن الولايات المتحدة تواجه خطر فقدان ثقافتها السياسية وحتى لغتها نتيجة الهجرة من المكسيك، وصرّح علناً أن كلاً من العقيدة الأمريكية والحلم الأمريكي هما نتيجة «الثقافة الأنجلو ـ بروتستانتية المميزة». وحذّر من خطر رد فعل عنيف من جانب البيض «الأنجلو» إن استمر هذا الاتجاه. الموضوع نفسه عرضه بشكل أقل وضوحاً في كتابه **صراع الحضارات**، حيث يصّنف هنتنغتون ليس الأمريكان اللاتينيين والآسيويين فقط، لكن السود أيضاً من ضمن ذوي الحضارات غير الأمريكية[6].

الحد الراديكالي الذي تضفيه هذه المخاوف على التيار الأمريكي المحافظ يسمح لنا أيضاً بالتحدث عن قومية الجناح اليميني الأمريكي المرتبط بها بوصفها «قومية» (Nationalism) وليست فقط «وطنية»[7] (Patriotism). من هنا تبرز الظاهرة، الغريبة للوهلة الأولى، لكن

---

(6) Samuel P. Huntington: *Who Are We?: The Challenges to America's National Identity* (New York: Simon and Schuster, 2004); *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order* (New York: Simon and Schuster, 1996); «The Hispanic Challenge,» *Foreign Policy* (March - April 2004), and «Dead Souls: The Denationalization of the American Elite,» *National Interest*, no. 75 (Spring 2004).

(7) Jean Hardisty, *Mobilizing Resentment: Conservative Resurgence from the John Birch Society to the Promise Keepers*, Foreword by Wilma Mankiller (Boston: Beacon Press, 1999), pp. 30-35

الصادقة تماماً، والتي تتطابق كلياً مع تاريخ الراديكالية القومية في العالم أجمع ـ في وصف المحافظين المدافعين عن النظام الرأسمالي الأمريكي من أمثال نيوت غينغريش الذين يصفون أنفسهم على أنهم «جمهوريون ثوريون» يتبنون نظام وخطاب الانسلاخ الراديكالي عن النخب الحاكمة والثقافة المهيمنة. من هنا تنبع لدى اليمين الأمريكي شعبية الخطابات والكتب والبيانات حاملة شعار «استعادة أمريكا» ـ وهي صيغة شديدة التعبير(8).

وكما عبّر السياسي المحافظ من الجناح اليميني باتريك بوكانان عام 1992 خلال مؤتمر الحزب الجمهوري، فإنه «يجب أن نستعيد مدننا ونستعيد ثقافتنا ونستعيد بلادنا»، (كما قال) بالطريقة التي استعاد بها عسكريو الولايات المتحدة مؤخراً لوس أنجلس من الغوغاء السود واللاتينيين خلال اضطرابات رودني كينغ(9). وتحدث رالف ريد، من التحالف المسيحي، عن حاجة المسيحيين «لاستعادة هذا البلد، من منطقة إلى أخرى». هذا النوع من المشاعر الراديكالية اليمينية عبّر عنه بشكل مثالي (الفرنسي) شارل موراس الذي صرّح خلال الثلاثينيات أنه: «من أجل أن نحب فرنسا اليوم، فمن الضروري أن نكره ما آلت إليه».

وكما تقول هذه الكلمات، فإن هذا الموقف ينبغ من الشعور بالخسارة وحتى بالاحتلال الأجنبي. من الشائع بين هذه الشريحة في السياسة الأمريكية سماع الحديث عن أن الأمة تحكمها «دكتاتوريات ليبرالية (أو من الشاذين جنسياً أو الداعين لحرية المرأة)». تغذّي هذه

---

(8) Joseph Farah, *Taking America Back: A Radical Plan to Revive Freedom, Morality, and Justice* (Nashville, TN: [WND Books]; Thomas Nelson, 2003).

(9) ذكر في: Garry Wills, «The Born-Again Republicans,» *New York Review of Books*, vol. 39, no. 15 (September 1992).

المشاعر الأوهام المظلمة عن أن الولايات المتحدة تحكمها سراً الأمم المتحدة، أو أي مؤامرة دولية أخرى، ما يساهم في تفاقم الاتجاه العام الرؤيوي بالشعور بقرب نهاية العالم والموجود في قطاعات من الثقافة الأمريكية. استغل باري غولدووتر القومي والشعبوي اليميني هذه الظاهرة في أمريكا خلال الستينات، لذلك أطلقت عليه يومها تسمية «الابن المفضل لحال ذهنية معينة»[10].

يمكن اختصار هذا الاتجاه بالاسم البديع لمنظمة يمينية مقرها في تكساس قامت في الستينات: لجنة السخط الوطني (National Indignation Committee). أنه اتجاه له الكثير مما يماثل خطره في القوميات الراديكالية المحافظة والقومية في أوروبا. ومثل هذه الحركات التي قامت في القرن التاسع عشر والعشرين، نبعت هي بدورها من الارتباك الأخلاقي والثقافي للشعوب عميقة التقاليد (ليس بالضرورة أن يكونوا من البرجوازية الصغيرة والمزارعين) وهي تحاول جهدها فهم ما يجري في عالمٍ أصبح غريباً، وتفعل ذلك بمساعدة الثقافة الوحيدة المتاحة لهم.

وبالتالي يمكن القول إن عوامل القلق العرقي لبعض أقسام الأمريكان الأصليين قد خلق مزاجاً ثقافياً ثابتاً في المجتمع الأمريكي، مثل طبقة رسوبية سميكة أضيفت لها طبقات جديدة من مجموعات عرقية اندمجت لاحقاً، تراكم فيها عبر الأجيال أصناف عديدة من عقدة الاضطهاد والتعصب والطموح الوطني، كلها زرعت وأينعت[11].

---

(10) Rick Perlstein, *Before the Storm: Barry Goldwater and the Unmaking of the American Consensus* (New York: Hill and Wang Division; Farrar, Straus and Giroux, 2001), p. 474.

(11) للأهمية البالغة للأصول العرقية والإقليمية في تشكيل مختلف سمات الثقافة السياسية الأمريكية، انظر: Kevin Phillips, *The Cousins' Wars: Religion, Politics, and the Triumph of Anglo-America* (New York: Basic Books, 1999), pp. 117 ff.

في أواسط القرن التاسع عشر، حلم المواطنون الأوائل ممن تطلق عليهم تسمية «لا يعرفون شيئاً» (Know-Nothings) بالعودة إلى أمريكا البروتستانتية من دون وجود أيرلنديين كاثوليك، ومن دون نمو الرأسمالية الجديدة[12]. في بداية القرن العشرين حلمت جماعات من المواطنين الأوائل البروتستانت بأمريكا خالية من جماعات جديدة من المهاجرين، ومن دون سيارات (في الأقل من دون مقاعد خلفية) أيضاً، وتأثيراتها الضارة على الأخلاقيات الجنسية. واليوم يحلم كثير من أبناء الطبقة الوسطى من البيض عموماً (من بينهم طبعاً الأيرلنديون وأعراق أخرى عديدة، وأعراق مزيجة) بصيغة حالمة بسنوات أيزنهاور خلال الخمسينات، قبل الثورة الجنسية وصعود السود وأنصار المرأة وغيرهم من المجموعات المكروهة. هذا الحنين الخاص ملأ لغة «الثورة الجمهورية» خلال منتصف التسعينات من القرن العشرين، ومذكرات بات بوكانان وغيره من اليمينيين[13].

أثّرت الهزائم الحقيقية أو المتخيلة التي تغذي مثل هذا الحنين وأضرّت في جماعات مهمة في داخل أمريكا بالسوء نفسه الذي أضرّت جماعات مشابهة في كل مكان آخر. ربما لم تكن معاناة الطبقة الوسطى الأمريكية بالدرجة نفسها من السوء - بالرغم من احتمال تغيّر هذا الوضع بسبب توقف الاقتصاد عن توليد عددٍ كافٍ من وظائف «الطبقة الوسطى» - لكن انفتاح الأمة للهجرة يعني أن

---

(12) David Harry Bennett, *The Party of Fear: From Nativist Movements to the New Right in American History* (New York: Random House, 1988), pp. 27-182, and Richard Hofstadter, *The Paranoid Style in American Politics, and Other Essays* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1996), pp. 19-23.

(13) Hardisty, *Mobilizing Resentment: Conservative Resurgence from the John Birch Society to the Promise Keepers*, p. 32.

الطبقات الوسطى قد عانت أكثر من الضغوط السكانية والتوترات والتغيّرات الثقافية التي شجعتها الهجرة.

تولّد عن هذا الصدام القسم الأكبر من الطاقة الكهربائية التي تغذّي مولّدات القومية وغيرها من الاتجاهات السياسية الراديكالية في العالم أجمع. والمثال الكلاسيكي على ذلك هو دور طبقة النبلاء الآفلة والمهددة بالزوال، ودور المزارعين والطبقة الوسطى التقليدية في ألمانيا، في خلق «الراديكالية المحافظة» الألمانية والقومية الجديدة التي كانت شريكها الحميم في أواخر القرن التاسع عشر[14]. خلقت هذه الطبقات الاجتماعية حركاتٍ سياسية غالباً ما جمعت بين الاحتجاج الاقتصادي الراديكالي ضد الرأسمالية الجديدة، وبين نزعة قومية حادة ومحافظة ثقافية[15]. وكما يبيّن مثال طبقة النبلاء البروسيين فإنه ليس بالضرورة أن يظهر الانحطاط المطلق لكي تُدفع النخبة القديمة نحو اتجاه راديكالي، فالتهديد بها يمكن أن يكون كافياً.

لقد جرى وصف نزعة معاداة السامية على أنها «اشتراكية البرجوازي الصغير» لكنها شكّلت في الواقع جزءاً من مجموعة عوامل متشابكة أوسع، عمادها المواقف الراديكالية والكراهية. منذ زمن بعيد شكلت القومية المتطرفة، واتهام «نخب المدن الكبرى

---

(14) انظر: John Weiss, *Conservatism in Europe, 1770-1945: Traditionalism, Reaction, and Counterrevolution* (London: Thames and Hudson, 1977), pp. 71-89.

بالنسبة لدور المدن الصغيرة وتأثيراتها اللاحقة على القومية الألمانية في تدمير نظامها الاجتماعي والسياسي القديم على يد الدولة الحديثة، انظر: Mack Walker, *German Home Towns: Community, State, and General Estate, 1648-1871* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1998), esp. pp. 405-431.

(15) Geoff Eley, «The Wilhelmine Right: How it Changed,» in: Richard J. Evans, ed., *Society and Politics in Wilhelmine Germany* (London: Croom Helm; New York: Barnes and Noble, 1978), pp. 112-135.

الكوسموبوليتية» بعدم كفاية قوميتهم طريقاً واحداً للتعبير عن المظالم الاجتماعية ـ الاقتصادية من جانب بعض المجموعات التي عجزت ـ لسببٍ أو لآخر ـ عن التوجه نحو الاشتراكية: «بعد أن حصلوا على موطئ قدم في عالم البرجوازية المحترمة، فإنهم صاروا يواجهون خطر السقوط مجدداً في ما رأوا أنه بمثابة هاوية من انعدام النفوذ ومن الاعتماد على الآخر. كان هذا الخوف هو ما جعل الطبقة الوسطى مجموعةً متقلبة سياسياً، أكثر من أولئك الذين كانوا عديمي الجذور بحق والساخطين»[16].

ليست الولايات المتحدة فقط موطن التحديث الرأسمالي السريع والمتواصل والتغيّر الذي لا يتوقف؛ فهي تشمل أيضاً مجموعات واسعة من الطبقة المتوسطة التي عانت بشدة في مراحل تاريخية معينة ـ بضمنها الوقت الحاضر ـ نتيجة آليات الرأسمالية نفسها: بخاصة وأنه، عند المقارنة مع المجتمعات المتطورة الأخرى، فإن الرأسمالية الأمريكية أقل قيداً وليونة بسبب سيطرة الدولة وآليات الدعم الاجتماعي الممول من الدولة.

عبر القرون كانت عوامل القلق الاجتماعية ـ الاقتصادية للطبقات الوسطى من البيض وسكان الريف قد امتزجت غالباً مع المخاوف العرقية والعنصرية. تنبع هذه المخاوف أصلاً مما كان يسمى «الأمريكيون الأصليون» ـ وليس المقصود بهذا الهنود الأمريكان، وإنما البيض الأنجلو ـ ساكسون والاسكتلنديين والأيرلنديين من

---

(16) Alan Brinkley, *Voices of Protest: Huey Long, Father Coughlin, and the Great Depression* (New York: Knopf, 1982), Quoted in: Kevin P. Phillips, *Boiling Point: Democrats, Republicans, and the Decline of Middle-Class Prosperity* (New York: HarperCollins, 1994), p. 233.

سكان المستعمرات البريطانية في القرن الثامن عشر(17).

عند الاستقلال عن بريطانيا، كانت المستعمرات الثلاثة عشر، بعيدة عن تمثيل التنوع العرقي والثقافي، بل كانت أقل تنوعاً من المملكة البريطانية أو فرنسا. لا يصح هذا القول في حال أدرجنا السود والهنود ـ آنذاك، لم يكن «غير البيض» مشمولين في الولايات الأمريكية، كما كانوا يفهمون ويعرّفون أنفسهم، ولم يحصل ذلك إلا بعد أكثر من قرنين.

باستبعاد السود والهنود، كانت أمريكا البيضاء تتكون في أغلبيتها العظمى من عنصرين: الأنجلو ـ ساكسون والأيرلنديين الاسكتلنديين (الاسكتلنديون البروتستانت والإنجليز الشماليون الذين استقروا في أيرلندا نتيجة لحربهم ضد الأيرلنديين الغايليك الكاثوليك). وكان هناك عدد لا يستهان به من الهولنديين يعيشون في نيويورك، والألمان في بنسلفانيا وبعض أماكن أخرى. وبالرغم من أن أغلبيتهم العظمى كانت بروتستانتية، إلا أن هؤلاء الألمان استقطبوا عداوة كبيرة وأثاروا الخوف من المستعمرين الإنجليز، ومن بين هؤلاء بنجامين فرانكلين الذي كان يفترض أنه براغماتي ومتسامح، لكنه لم يكن على يقين من أن الألمان وغيرهم من الأوروبيين هم بيض حقاً: «عدد البيض الأنقياء في العالم قليل جداً نسبياً.. في أوروبا، الإسبان والإيطاليين والفرنسيين والروس والسويديين هم على العموم ممن

(17) Daniel Bell, *The Cultural Contradictions of Capitalism* (New York: Basic Books, [1976]), p. 79; David Harry Bennett, *The Party of Fear: From Nativist Movements to the New Right in American History* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, [1989]); Michael Kazin, «The Right's Unsung Prophets,» *Nation* (20 February 1989), and Richard Hofstadter, *The Age of Reform; from Bryan to F. D. R.* (New York: Knopf, 1955), pp. 135 and 175.

يمكن وصفهم بذوي السحنة الداكنة، وكذلك الألمان: وذلك باستثناء الساكسون الذين هم مع الإنجليز من يمكن تسميتهم القوام الرئيسي للشعوب البيضاء على وجه الأرض. وأتمنى لو تزايدت أعدادهم»[18].

كانت الأغلبية الواسعة من السكان البيض الأمريكان تتكلم الإنجليزية، كما كانت أغلبيتهم من البروتستانت. وانقسم هؤلاء بين كنائس وطوائف متنوعة، وأظهروا اختلافات ثقافية كبيرة (خصوصاً بين إنجليز نيو إنغلاند والاسكتلنديين الأيرلنديين عند التخوم وفي الجنوب). لكنهم في الوقت نفسه كانوا يشتركون في مواقف كثيرة ليس أقلها عدم الثقة العميقة بالكاثوليكية. إذ حافظ الأمريكان بخاصة في الجنوب والتخوم، ليس فقط على بقاء الثقافة الدينية لبروتستانتية القرنين السادس عشر والسابع عشر في إنجلترا واسكتلندا، وإنما أيضاً على بعض جوانب لغتهم وثقافتهم الشعبية. وقد طور الإنجليز عناصر قوية لهويةٍ قوميةٍ مشتركة حتى قبل وصول أول مستوطن لشواطئ أمريكا الشمالية[19].

وبالمقارنة مع بريطانيا وفرنسا، كان يعوز أمريكا وجود العدد الكبير من الغاليين الكاثوليك من أهالي أيرلندا، والناطقين بلغة الويلش من أهالي ويلز، والعديد من اللغات واللهجات غير المفهومة التي يتحدث بها الفرنسي العادي، وحتى الأقلية البروتستانتية

---

(18) ذكر في: Larry McMurtry, «Separate and Unequal,» *New York Review of Books*, vol. 48, no. 4 (March 2001).

انظر: Hans Kohn, *American Nationalism; an Interpretative Essay* (New York: Macmillan, 1957), pp. 143-144.

(19) Liah Greenfeld, *Nationalism: Five Roads to Modernity* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1992), and Anthony D. Smith, *Nationalism: Theory, Ideology, History*, Key Concepts (Malden, MA: Polity Press, 2001), p. 97.

المضطهدة، ولكن المهمة والمتمردة في وسط فرنسا وجنوبها.

ووفقاً للمعايير التاريخية بالتالي، فإن سكان الولايات المتحدة الجديدة كانوا متجانسين نسبياً، عرقياً وثقافياً. وبحسب المعايير الأوروبية كانوا متجانسين اجتماعياً أيضاً. وباستثناء مالكي المستعمرات الزراعية الشاسعة في الولايات الجنوبية، لم يكن ثمة أرستقراطية ـ حتى إن مزارعي الولايات الجنوبية كانوا أقرب بكثير إلى السكان البيض من قرب دوق نورفولك والأمير روهان إلى مستأجري أراضيهم.

في الواقع، إن لم يكن قانوناً، كانت الولايات المتحدة أمةً بروتستانتية حيث يلقى الكاثوليك وغيرهم الحماية والتسامح، حتى أن التسامح ظل ولسنوات طويلة «يعد ترتيباً بين الطوائف البروتستانتية أكثر من كونه مبدأ شاملاً». (في هذا الصدد فإن جون لوك، الأب الفلسفي للتنوير السياسي الأمريكي وللعقيدة الأمريكية، قد أنكر بوضوح أي تسامح مع الكاثوليك في بريطانيا)[20]. «لم يؤمن حقاً أغلبية مؤيدي المواقف الدينية المختلفة لا بالحرية ولا بالتسامح. جاءت الحرية إلى العالم الغربي من خلال العناية الإلهية وفي غفلة من التاريخ»[21].

وما دعم هذا الإيمان هو هجرة المزيد والمزيد من الألمان واندماجهم في ما بعد بالنخبة. هذه النظرة للولايات المتحدة على أنها

---

(20) David Morris Potter, *The Impending Crisis, 1848-1861* (New York: Harper Perennial, 1976), p. 243, and Bennett, *The Party of Fear: From Nativist Movements to the New Right in American History*, pp. 17-20.

(21) Reinhold Niebuhr, «A Note on Pluralism,» Quoted in: Sidney E. Mead, *The Nation with the Soul of a Church*, ROSE; no. 10 (Macon, GA: Mercer University Press, 1985), p. 31.

«أمة بروتستانتية أساساً تتوافر فيها الممارسة الحرة لحقوق الأقليات التي ضمنها الدستور»، ظلت واسعة الانتشار حتى القرن العشرين، وبطرق عديدة لحين انتخاب أول رئيس كاثوليكي للأمة، (حتى لحظة كتابة النص أواسط عام 2004) جون ف. كنيدي عام 1960[22].

من المؤكد أن نمط تدفق السكان قد تغير بشكل كبير بمرور الزمن. وأكثر ما يلاحظ فيه أنه جذب نحوه باستمرار قطاعات من السكان المهاجرين كانوا في السابق هم من يثير الخشية بين «السكان الأصيلين». وخلال هذه العملية أصابت العدوى المجموعات المهاجرة ببعض «عقدة الاضطهاد الخاصة بها»[23].

بالرغم من شعور بعض قطاعات المجموعات من النواة الأساسية القديمة بالتحصّن وحتى بالهزيمة، إلا أنهم ولشدة إحساسهم بقوتهم واقتناعهم بثقافتهم استطاعوا وطوال قرنين تحويل مجموعات واسعة من المهاجرين لأمريكا إلى أمةٍ مصابةٍ بـ«عقدة الاضطهاد البروتستانتي (Protestantoid)». واليوم نرى على امتداد البلاد أن الطبقة الوسطى البيضاء (بضمنها البروليتاريا العليا) تشترك في ثقافة تقرب أن تكون متجانسة وقبل كل شيء شديدة الامتثال، كما لاحظنا من قبل.

---

(22) A. James Reichly, «Faith in Politics,» in: Hugh Heclo and Wilfred M. McClay, eds., *Religion Returns to the Public Square: Faith and Policy in America* (Washington, DC: Woodrow Wilson Center Press; Baltimore, Md.: Johns Hopkins University Press, 2003), p. 175; Robert Neelly Bellah, *The Broken Covenant: American Civil Religion in a Time of Trial*, Weil Lectures; 1971 (New York: Seabury Press, [1975]), pp. 91 ff, and Daniel Bell, ed., *The Radical Right* (New York: Transaction Publishers, 1963), pp. 1-38.

(23) Hofstadter, *The Paranoid Style in American Politics, and Other Essays*, pp. 3-40.

وكما كتب والتر رسل ميد فإن إحساس الأمريكان «بالمجتمع الشعبي» (بالمعنى الألماني لكلمة شعب «*volk*») صار بالتدريج مرادفاً في عقول مؤيديه «للطبقة الوسطى الأمريكية». وما زال رغم ذلك، يحتفظ بمعنى الجماعة التي تتشارك القيم الثقافية ذاتها، المحددة بحصرية ضيقة، والمغلقة في وجه العديد من فئات «الخارجين عنها»[24]. يمنح هذا الامتثال فرصاً هائلة لأي قوة سياسية تتمكن من وضع يدها على الرموز المهمة للإجماع العام واستغلالها لغاياتها.

فضلاً عن ذلك، ومنذ البداية، كان لحجم الولايات المتحدة من جهة ولطبيعة النظام الأمريكي من جهة ثانية أن يجعلا التسويات بين هذه المجموعات أمراً ضرورياً. وهكذا وبالرغم من مخاوف البروتستانت الإنجيليين الأمريكان من الكاثوليكية خلال القرن التاسع عشر، فقد وجد منذ عام 1820 ثمة تحالف سياسي متقطع بين التقاليد الجاكسونية في الجنوب والغرب مع قطاعات من الأيرلنديين الكاثوليك في الشمال الشرقي. إن أحد المكونات الجوهرية للحمة التي حفظت التحالف كان على الدوام الكراهية المشتركة «لنخب الساحل الشرقي»[25]. وفي زمننا اليوم، فإن ثمة محاولة جادة وناجحة جزئياً لخلق تحالف بين هذا التقليد وبين المجموعات اليهودية الأمريكية على أساس دعم إسرائيل واتخاذ سياسة عسكرية أكثر قوة للولايات المتحدة في الشرق الأوسط، والعداء للمسلمين والعرب،

---

(24) Walter Russell Mead, *Special Providence: American Foreign Policy and How it Changed the World* (New York: Routledge, 2002), p. 241, and Kevin Phillips, *The Emerging Republican Majority*, esp. pp. 290-392.

(25) Nathan Glazer and Daniel Patrick Moynihan,, *Beyond the Melting Pot; the Negroes, Puerto Ricans, Jews, Italians, and Irish of New York City*, Publications of the Joint Center for Urban Studies (Cambridge, MA: M.I.T. Press, 1979), p. 222.

وللأمريكان والأوروبيين ممن يوجهون النقد لإسرائيل.

أحد أوجه هذا التاريخ هو محاولة المجموعات الأقدم هجرةً الفوز بالحظوة وتخفيف العداء من خلال مهاجمة من هم أحدث هجرة أو الأقليات العرقية أو كليهما معاً. والتحالف الجاكسوني للبيض الجنوبيين مع الأيرلنديين وغيرهم من الشماليين من «الأعراق» الأكثر قدماً يعود إلى حد بعيد إلى العداء للسود. بعد الحرب العالمية الأولى، فإنه «حتى الليبراليين مثل فيوريللو لاغارديا [عمدة مدينة نيويورك] والنائب صامويل ديكشتاين بدأوا باستهداف الآسيويين والمكسيكيين بهدف حماية اليهود والإيطاليين»[26].

في أواسط القرن التاسع عشر كان من أهم أهداف حركات البروتستانت من السكان الأصيلين، مثل «من لا يعرفون شيئاً»، هم الأيرلنديون الكاثوليك. بعدها بقرن واحد، جعل المنحدرون من تقاليد هؤلاء الأسلاف، ألمانياً كاثوليكياً إيرلندياً واحداً من أبطالهم العظماء. هل هو التقدم؟ ليس تماماً. كان اسمه السيناتور جوزيف ر. مكارثي. وهناك أمر آخر مشابه، إذ يبدو رائعاً في الظاهر، أن تكون تقاليد اليمينية المسيحية قد تخلت عن الكثير مما ورثته عن أسلافها من معاداة السامية وصارت تتماهى بشدة مع إسرائيل. المشكلة أن إسرائيل المعنية هي إسرائيل آرئيل شارون، والليكود والقوى الأكثر تطرفاً في المجتمع الإسرائيلي وبين مستوطني الأراضي المحتلة.

الجاكسونية وتقاليد التخوم

كما سيوضح الفصل الخامس، يعود الفضل الأكبر في تعاطف

---

(26) Gary Gerstle, *American Crucible: Race and Nation in the Twentieth Century* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2001), and Alan Wolfe, «Strangled by Roots,» *New Republic*: 28/5/2001.

اليمين القومي الأمريكي مع إسرائيل إلى التاريخ العنيف للنزاع العرقي في قارة أمريكا الشمالية. هذا التاريخ خلق أيضاً الشخصية التي كان لها أكثر من أي شخص آخر أن ترمز إلى التقاليد الشعبوية القومية في الولايات المتحدة، والتي أعطت اسمها: الرئيس أندرو جاكسون (1767 ـ 1845).

نبعت تقاليد الجاكسونية من تجارب أمريكيين التخوم، وهي تجارب ظل تأثيرها قوياً حتى اليوم في الجنوب والغرب[27]. لكن وكما سجل ديفيد هاكيت فيشر وغيره من المؤرخين وعلماء ثقافات السكان، فقد كان لها جذور أعمق في تقاليد وتجارب البروتستانت الاسكتلنديين ـ الأيرلنديين الذين استوطنوا في ألستر، وقاموا بإبادة جماعية للسكان الأيرلنديين الكاثوليك الغاليين، وجلبوا معهم إلى أمريكا، في ما بعد، إرثهم من البروتستانتية الأصولية وأساليبهم الحربية الخالية من الرحمة إلى أمريكا. وبكلمات أحد كتاب السيرة المبكرة لجاكسون، والتي سيتبناها أي دارس للتاريخ الحديث لشمال أيرلندا، «يبدو أن ثمة صعوبة أكبر لدى الإنسان شمال أيرلندا مما لدى غيره من البشر، في السماح لأي خلاف صادق في الرأي لدى أي معارض، ولهذا فإنه يرى أن كلمتي معارض وعدو هما مترادفتان»[28].

---

(27) حول دور تجربة التخوم وتصوير تأثيرها في الثقافة الأمريكية، انظر: Richard Slotkin: *Regeneration Through Violence; the Mythology of the American Frontier* ([Middletown, Conn.: Wesleyan University Press, 1973]); *The Fatal Environment: The Myth of the Frontier in the Age of Industrialization, 1800-1890* (New York: Atheneum, 1985), and *Gunfighter Nation: The Myth of the Frontier in Twentieth-Century America*, Oklahoma Paperbacks ed. ([Norman: University of Oklahoma Press], 1998).

(28) ذكر في: David Hackett Fischer, *Albion's Seed: Four British Folkways in* = *America*, pp. 781-782.

ولد جاكسون في كارولينا الشمالية من سلالة اسكتلندية - أيرلندية ذات شأن، واستقر في ما بعد في تنسي، وتشكلت حياته المهنية من خلال الصراع مع الهنود الأمريكان في الجنوب ومع من وقف وراءهم من بريطانيين وفرنسيين وإسبان. بالرغم من أن أعظم انتصار للجنرال جاكسون حققه ضد البريطانيين في نيو أورليانز عام 1815، إلا أن أغلب حملاته كانت ضد قبائل هنود التشيروكي وكريغ وغيرها. برز جاكسون في تنسي بصفته محارباً ضد الهنود وقائداً للميليشيات المحلية. وبالرغم من احتواء «القومية الجاكسونية» على عناصر أخرى مهمة، من بينها الدعوة للوطنية البيضاء، معاداة النخبة، معاداة المفكرين، وكراهية الشمال الشرقي، فإن الإحساس العميق بهويته البيضاء، والعداء الشرس للأعراق الأخرى، كان في أساس عقيدته إلى زمن طويل[29].

برز الصدام الكلاسيكي بين هذه السمة للقومية الجاكسونية وبين جوهر مبادئ العقيدة الأمريكية كما تشكلت علناً، في عام 1831، خلال رئاسة جاكسون. كانت أمة تشيروكي تعيش في ما صار لاحقاً جورجيا الشمالية وبعض أجزاء تنسي وألاباما منذ أزمان كثيرة سبقت وصول البيض إلى أراضي أمريكا. أقام هؤلاء دعوى في المحكمة

= حول هذا الملمح من الاسكتلندية - الأيرلندية، انظر: James Graham Leyburn, *The Scotch-Irish: A Social History* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, [1962]), esp. pp. 68-71 and 290-291.

(29) Robert Vincent Remini, *Andrew Jackson and His Indian Wars* (New York: Penguin, 2001); Samuel Eliot Morison, Henry Steele Commager and William E. Leuchtenburg, *The Growth of the American Republic*, 6th ed. rev., and enl. (New York: Oxford University Press, 1969), pp. 402-404 and 419-443.

حول صفة جاكسون وجذوره الاسكتلندية - الأيرلندية، انظر: Fischer, Ibid., pp. 643-644, 685-688 and 755-776.

العليا للولايات المتحدة ضد قوانين أصدرتها ولاية جورجيا تجعلهم خاضعين لقانونها وتضع الأساس لطرد الهنود إلى ما وراء المسيسيبي لإفساح المجال أمام المستوطنين البيض. طرح المحامون الذين ترافعوا عن التشيروكي ـ وبحق ـ أن هذا يشكل خرقاً للعديد من المعاهدات مع حكومة الولايات المتحدة. وبالتوافق مع الوقائع القانونية التي لا ترد، حكمت المحكمة برئاسة القاضي جون مارشال بالأغلبية لصالح التشيروكي.

رد جاكسون على ذلك بالقول، «لقد اتخذ جون مارشال قراره، وعليه الآن فرض تطبيقه». ربما لم يقل الرئيس هذه الكلمات، لكنها تعكس الروح التي كان يتصرف بها. رفضت حكومة الولايات المتحدة الدفاع عن التشيروكي ضد ولاية جورجيا، وحذرهم جاكسون من أن ليس لهم أي خيار إلا المغادرة، وبعد بضع سنوات (بالرغم من ترك جاكسون منصبه) تم طردهم من موطن أسلافهم نحو «درب الدموع» (Trail of Tears) باتجاه أوكلاهوما، وخلاله مات الكثير منهم بفعل الأمراض وسوء التغذية[30].

إن ما تعكسه الكلمات التي نُقلت عن جاكسون ليس فقط عداءه المستحكم للهنود. والأهم من ذلك أن تصريحه المذكور يصف الوضع الواقعي لما كان عليه الجنوب ـ الغرب وسلوك الأغلبية العظمى من ناخبي جاكسون، أي السكان البيض لهذه المناطق. لقد

(30) Remini, Ibid., pp. 254-271; John Ehle, *Trail of Tears: The Rise and Fall of the Cherokee Nation* (New York: Anchor Books, 1988), pp. 230-264, and Theda Perdue, «Cherokee Women and the Trail of Tears,» in: Peter C. Mancall and James H. Merrell, eds., *American Encounters: Natives and Newcomers from European Contact to Indian Removal, 1500-1850* (New York: Routledge, 2000), pp. 526-540.

كانوا عازمين على طرد الهنود بصرف النظر عما تقرره حكومة الولايات المتحدة أو قانون الولايات المتحدة. إذ فرض القانون الشعبي توسيع أراضي البيض والحضارة على حساب «المتوحشين»، وحماية المجتمع الأبيض من أي احتمال لتجدد هجمات الهنود التي جرت في الماضي أو من تحالف الهنود مع أعداء الأمة من الأجانب.

وكان للقانون الشعبي اليد العليا على قانون الولايات المتحدة (بالرغم من أن الهنود المعنيين أصبحوا حلفاء للأمة خلال الحرب وحققوا خطوات واسعة في الواقع في تبني «الحضارة» بما في ذلك تبنيهم للغة مكتوبة). وإلى جانب هذه المواقف حلت عداوة عميقة تجاه محامي الساحل الشرقي الإنسانويين، أو المحامين والمثقفين «اليانكي» الذين كانوا قد تخلصوا من الهنود على أراضيهم منذ أكثر من نصف قرن، فصاروا أحراراً لتوجيه النقد وتحديد تصرفات الغرب والجنوب في هذا الصدد ـ وهي عداوة إقليمية تكررت حول عدد من المواضيع حتى أيامنا الحاضرة.

أما العوامل الأخرى التي شكلت مع مرور الزمن التقاليد الشعبوية القومية في أمريكا، فإنها تشمل تجربة العبودية في الجنوب، والثقافة الخاصة والتقاليد التاريخية للبروتستانت الأيرلنديين الاسكتلنديين الذين هيمنوا على التخوم الجنوبية، وثقافة المجتمعات المحلية التي تأثرت بشكل عميق بالبروتستانتية الإنجيلية[31]. عكس هذا التراث ثقافة ومخاوف ومصالح المستوطنين الأنجلوساكسون والأيرلنديين الاسكتلنديين الأصليين، بالرغم من رغبة مؤيديهم في

(31) للإطلاع على بعض تاريخ هذا التقليد، انظر: Robert Kelley, *The Cultural Pattern in American Politics: The First Century* ([New York: Knopf, 1979]), and Lee Benson, *The Concept of Jacksonian Democracy; New York as a Test Case* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1961).

عقد تحالفات سياسية مع بعض مجموعات المهاجرين المحددة، وللقبول، مع الزمن، بالعضوية الكاملة في داخل مجتمعاتهم لغرباء التزموا بالموافقة على القيم «الحضارية» لهذه الجماعات. في الماضي كان هذا يعني على الدوام الغرباء البيض، ولكنه امتد في العقود الثلاثة الأخيرة ليشمل بعض «غير ـ البيض» أيضاً.

ثمة عاملٌ آخر هو روح الجماعة «المنتجة» مع تشابه قوي جداً مع الأيديولوجيات التي أطلقتها الطبقة الوسطى ـ الدنيا والمحافظون الراديكاليون من أصول زراعية، والحركات القومية الأوروبية في الماضي. تشمل روحية هذه الجماعة عداوة مريرة لعناصر المجتمع «الطفيلية» ـ المتركزة في الشمال الشرقي ـ التي افترضوا أنها تمتص الثروة ممن ينتجها: «الرأسمالية المالية»، والمتكبرون من «ذوي الجوارب الحريرية» والنخب التي تعيش على الريع الموروث، والمفكرون الذين يحصلون على عوائد أكبر من استحقاقهم و«الخبراء» والبيروقراطيون والمحامون ـ ولجميعهم اتصالات أجنبية، ومؤثرات وسوابق مشكوك بها (في الماضي كان من ضمن هذا التقليد معاداة السامية). وكان ثمة عداوة مشابهة للبروليتاريا الرثة من المدن فهي «طفيلية»، غير مستقرة، كسولة، مدمنة على الشراب، بخاصة حين تكون من أصول أجنبية أو مهاجرة. نبعت العداوة للنخبة من مجتمع التخوم ومن المناطق التي جرى استيطانها حديثاً، وقد كان لها جذور أيضاً في عداوة الطهريين (البيوريتان) الإنجليز والاسكتلنديين في القرن السابع عشر ضد الإنجليكان (وفي بعض الأحيان ضد الكاثوليك المتخفّين (Crypto-Catholic) من النخب الإنجليزية آنذاك، ليس فقط للنبلاء منهم أو رجال الدين، بل أيضاً رجال الجامعات ومهنة القانون[32].

---

(32) = Richard Hofstadter, *Anti-Intellectualism in American Life* ([New York:

ارتبطت هذه السلوكيات في أمريكا وبشكل وثيق مع المصالح الإقليمية والأهواء المتحيّزة؛ أي أن العداوة تأتي من «شرفاء الجنوب والغرب»، كما وصفها توماس جيفرسون تجاه الشرق المنحط والمستغل، وقبل كل شيء الشرق التجاري[33]. في زمننا الحاضر، وجدت بعض هذه العوامل التعبير عنها من خلال تسمية «قلب البلاد» (Heartland). هذا يعني جغرافياً الولايات الواقعة في الغرب الأوسط والسهول المرتفعة من أوهايو إلى جبال روكي. ومع ذلك، وكما يوحي هذا الاسم حتماً، فإن له في الخطاب السياسي دلالة خاصة في أن هذه المناطق هي الموطن الحقيقي للشعب الأمريكي الأصيل وقيمه، والتي تشكل القومية أهم مكوناته[34].

استمرت لغة الجاكسونية في الحزب الديمقراطي، تحشد هذه المناطق ضد نخب الساحل الشرقي لأكثر من قرن: في انتخابات عام 1948 (وفيها أيضاً استغلت الذكريات المريرة للحرب الأهلية)، صرّح هاري ترومان في كارولينا الشمالية أن الحزب الجمهوري والنخبة الصناعية «تعامل الجنوب والغرب كما لو أنها مستعمرات يجب استغلالها تجارياً وقمعها سياسياً»[35]. وخلال الأربعين سنة الماضية

Knopf, 1963]), p. 57, and Helmut Richard Niebuhr, *The Social Sources of* = *Denominationalism*, Living Age Books; LA11 (New York: Meridian Books, 1957), p. 30.

(33) للإطلاع على أفكار توماس جيفرسون لكونها أساس الجاكسونية، انظر:
Lind, Michael *The Next American Nation: The (New Nationalism and the Fourth American Revolution* (New York: Simon and Schuster, 1995), pp. 45-46 and 370, and Bellah, *The Broken Covenant: American Civil Religion in a Time of Trial*, pp. 116-119.

حول «الأسطورة الزراعية» بصفتها قاعدة للجاكسونين وللحركة التقدمية اللاحقة، انظر:
Hofstadter, *The Age of Reform; from Bryan to F. D. R.*, pp. 23-59.

(34) Paul Krugman, «True Blue Americans,» *New York Times*, 7/5/2002.

(35) ذكر في: Phillips, *The Emerging Republican Majority*, p. 65.

استحوذ الحزب الجمهوري على هذا الموقف. ولأسباب واضحة تتعلق بالمصالح الاقتصادية لقيادتهم، فإن الجمهوريين وضعوا أهدافاً مختلفة لكراهيتهم - بيروقراطيو واشنطن والمفكرون الليبراليون بدلاً من المصرفيين - لكن البناء على الكراهية الإقليمية تجاه نخب المدن الكبرى ظل هو نفسه.

كانت أهداف الكراهية هذه على الدوام مرنةً ومتلونة بطريقة أو بأخرى. وهكذا فإن توماس جيفرسون كان يُنظر إليه على أنه وبطرقٍ عدة بالجاكسونية بنسخته العنصرية عن مجتمع المساواة بين البيض وعن «ديمقراطية شعبية» (Herrenvolk) تقوم على أساس أنهم المنتجون «الأصحاء» من مزارعين وحرفيين. لكن جيفرسون - وهو من أرستقراطية فرجينيا، وسفير سابق إلى فرنسا ومعجب بالثورة الفرنسية - هوجم أيضاً من أعدائه على أنه ثوري من اليعاقبة ومتفرنس وملحد، وعلى أنه أرستقراطي متفرنس وانحطاطي ومثقف طفيلي»[36].

من المؤكد أن ربط فرنسا ليس فقط مع الإلحاد والانحطاط بل أيضاً مع نخبة الساحل الشرقي تعود في تاريخها إلى ردود الفعل الأمريكية ضد الثورة الفرنسية. ومن بين أبرز هذه الردود كانت الموجة الأولى من «الخوف الأكبر» من «أمريكا المستقلة»، وهي الهستيريا التي صاحبت تمرير قانون الغرباء والتحريض على العصيان (Alien and Sedition Act) لعام 1798، والموجه ضد المتآمرين الثوريين الفرنسيين المزعومين في الولايات المتحدة[37]. والعداء للانحطاط الأوروبي، حين يقارن مع البراءة والأمانة الأمريكية، وجد

---

(36) Hofstadter, *Anti-Intellectualism in American Life*, pp. 146-151.

(37) Samuel Eliot Morison, *The Oxford History of the American People*, 3 vols. (New York: Penguin, 1994), vol. 2: *1789 Through Reconstruction*, pp. 76-81.

طريقه بسبل عدة إلى نظام التعليم الأمريكي في وقت مبكر من خلال أحد آبائه المؤسسين وهو نوح ويبستر[38]. لهذا كان ثمة تاريخ طويل للهجوم على فرنسا في سياق الحرب على العراق. بعضٌ من اللغة بشأن الانحطاط الفرنسي والإلحاد والنخبوية ظل نفسه إلى حد بعيد. وقد جاء على لسان أحد اليمينيين القوميين عند الهجمة على فرنسا بعد 11 أيلول/ سبتمبر: «يصعب على أغلبية الأمريكان أخذ النقد الفرنسي على محمل الجد، لأن مصدره رجال يحملون حقائب يد»[39].

في كتابه عن التقاليد الشعبوية في أمريكا، يصف مايكل كازن الأيديولوجية الجاكسونية على أنها واحدة من أهم عوامل تشكيل الشعبوية الأمريكية وبقائها. تتجذر المعتقدات الجاكسونية وخطابها في إطار أخلاقي خاص من عوامل مشتقة من مزيج من الكالفينية الأيرلندية ـ الاسكتلندية وتجربة التخوم. تمجّد هذه الأخلاقية المنتجين الشرفاء ضد «المستهلكين والأغنياء والمغرورين وذوي الامتيازات» و«الأرستقراطيين» الأمريكان الذين أفسدهم الإلحاد الأوروبي وانحطاطه. وهي كانت تدعو إلى إعطاء فرص متساوية للوصول إلى الثروات ـ أولها الأراضي الهندية ـ للأمريكيين البيض، لكنها بالتأكيد لم تدع إلى المساواة الاقتصادية. كما إنها كانت تمجد «الخشونة والذكورة والبياض» للدفاع عن

(38) Frances FitzGerald, *America Revised: What History Textbooks Have Taught Our Children about Their Country, and How and Why those Textbooks Have Changed in Different Decades* (New York: Vintage Books, 1980), pp. 74-75.

(39) Dinesh D'Souza, *What's So Great About America* (Washington, DC: Regnery Publishing, 2002), Quoted in: Louis Menard, «Faith, Hope, and Clarity: September 11th and the American Soul,» *New Yorker* (16 September 2002).

الأسرة والعرق والأمة[40]. في أواخر الستينات والسبعينات، أعاد الحزب الجمهوري إحياء التحالف الجاكسوني بين البيض الجنوبيين و«الأعراق» الشمالية (كانت ولا تزال تعني منذ زمن جاكسون الكاثوليك الأيرلنديين) في العداء ضد السود[41].

بموجب قوة هذه الدعوة فاز أندرو جاكسون بانتخابات الرئاسة عام 1828. وقد عُدَّ انتخابه بمثابة رمز أسطوري وواقعي في آن واحد، لتحول أمريكا من حكم أقلية النخبة المؤسسة إلى ديمقراطية الجماهير. ارتبط هذا التحول بشكل وثيق مع بروز أشكال جديدة من الديانة الشعبية الإنجيلية البروتستانتية التي خفضت بشكل كبير من مرتبة الكنائس التي تهيمن عليها النخبة وكانت متحيزة جداً ضد المثقفين والحداثيين. استبعدت هذه الديمقراطية الهنود والسود والنساء[42].

وكما يؤشر منشأ جاكسون الذي هو مزيج من الجنوب والتخوم، فإنه يمكن التعامل مع الأمريكي من الجنوب والأمريكي من التخوم على أنهم من مجموعة ثقافية واحدة تقريباً من حيث تأثيرها في القومية الأمريكية. وصف غونار ميردال عام 1944 الجنوب على أنه «التشبث العنيد بمجتمع التخوم الأمريكية»[43]. وما علمتنا هوليود أن نفكّر فيه على أنه من كلاسيكيات التخوم في الغرب، إنما حدده إلى حد بعيد الجنوبيون وجعلوه يحمل السمات الثقافية الجنوبية.

---

(40) Michael Kazin, *The Populist Persuasion: An American History* (New York: Basic Books, 1995), pp. 19-22, and Robert Vincent Remini, *The Life of Andrew Jackson* (New York: Harper and Row, 1988), pp. 157-162.

(41) Phillips, *The Emerging Republican Majority*, esp. pp. 37-40, 187-289, 315, 407-411 and 461-474.

(42) Kazin, Ibid., p. 19, and Morison, Commager and Leuchtenburg, *The Growth of the American Republic*, pp. 419-443.

(43) Gunnar Myrdal, *An American Dilemma; the Negro Problem and Modern Democracy* (New York: Harper, 1944), p. 459

يتضح امتزاج تقاليد الجنوب والغرب بشكلها الأبرز في تكساس، موطن جورج دبليو. بوش ومصدر الكثير من ثقافته السياسية وأساليبه. لقد وُصفت تكساس على أنها «ولاية جنوبية متنكرة بزي ولاية من الغرب»[44]. كانت تكساس من بين الولايات الاتحادية، وكان للجزء الشرقي منها القريب من لويزيانا، سمات قوية من الجنوب، مع وجود عدد كبير من السكان السود ومن تقاليد المستوطنات الزراعية الواسعة. لكن وسط تكساس وغربها كانت في زمن الحرب الأهلية لا تزال أراضي هندية.

إن ثقافة التخوم الغربية قد شكلتها وصنعتها التجارب السابقة للتخوم الجنوبية في جبال أبالاشي والغابات الجنوبية. إلا أنه كان لتقاليد التخوم بمجموعها بعض جوانب لا علاقة لها بالجنوب. كان لولايات الشمال الشرقي تخوم هندية منذ تأسيسها في بدايات القرن السابع عشر، مروراً بطرد الفرنسيين، ثم البريطانيين بعدهم بمئة وخمسين عاماً. كان ينقص التخوم الغربية العامل المحدد الآخر للجنوب، وهو وجود سكان سود و(قبل 1865) وجود مؤسسة للعبودية للدفاع عنها. إن الحاجة للدفاع عن العبودية وإخضاع السود أنتجت التقاليد الجنوبية في الامتثال المفروض ديمقراطياً وتلقائياً، لكن بقسوة حازمة ـ ولم تكن هذه من بين سمات الغرب[45]. يرتبط بهذا الاختلاف بشكل وثيق حقيقة أن الغرب كان أكثر تنوعاً دينياً من الجنوب.

---

(44) Michael Lind, *Made in Texas: George W. Bush and the Southern Takeover of American Politics*, New America Book (New York: Basic Books, 2003), p. 25.

(45) Wilbur Joseph Cash, *The Mind of the South*, with a New Introduction by Bertram Wyatt-Brown (New York: Vintage Books, 1991), pp. 134-141, and Comer Vann Woodward, *The Burden of Southern History*, Rev. ed. (Baton Rouge: Louisiana State University Press, [1968]), pp. 197-203.

أحد أهم موروثات التخوم للقومية الأمريكية هو تاريخ الحروب الشرسة بشكل استثنائي، والتي وصل أكثرها إلى حد الإبادة، حيث ارتكب الطرفان المتحاربان أبشع الفظائع. غذّى هذا الموروث في بعض أجزاء التراث الأمريكي، وفي آن معاً، قدرة على القسوة، ورغبة في تحقيق النصر المطلق بأي ثمن، وهو نصر من النوع الذي تحقق في النهاية ضد أعدائه المحليين جميعهم لصالح أمريكا البيضاء. الموروث الثاني كان التوسع المتواصل الذي اندفع إليه سكان التخوم البيض على الضد من رغبات الإدارات المتعاقبة في واشنطن.

هذه الروح التوسعية، في الجنوب خصوصاً، كانت موجهة ليس فقط نحو الأراضي الهندية والمكسيكية، ولكن أيضاً نحو ممتلكات الاستعمار الأوروبي في البحر الكاريبي. في القرن العشرين، وكما كتب ت. ر. فهرنباخ، فإن هذه الروح التوسعية حملت معها أهدافاً أوسع بكثير: «منذ عام 1900 انصهرت تكساس في السياسة الخارجية للأمة، بخاصة حين تكون السياسة الخارجية ذات أساس إمبريالي - أو مهما كانت التسمية. كان سكان تكساس يدعمون بشكل عفوي أي شيء يبدو كأنه يدعم قوة أمريكا وهيبتها. إن السيطرة على جمهوريات الموز وتدمير الإمبراطورية الألمانية كانتا معاً جزءاً من السياسة نفسها، وتخلطان المصلحة الخاصة، والدفاع عن النفس، وشكلاً مغروراً من حسن النية... أولئك الذين حملوا العلم الأمريكي غرباً بشكل ما لم يغيروا مظهرهم بين ليلة وضحاها حين لم يجدوا عوالم جديدة يغزونها على شواطئهم»[46].

فضلاً عن ذلك، وبقدر تعلق الأمر بالأرض الأمريكية، كان هذا التوسع يمثل نجاحاً كاملاً - لأنه توقف ببعد نظر عن ضم مناطق

---

(46) T. R. Fehrenbach, *Lone Star; a History of Texas and the Texans* (New York: Macmillan, [1968]), p. 643.

ذات أغلبية من السكان الكاثوليك الناطقين بالإسبانية الذين لا يمكن إبادتهم أو إغراقهم أو دمجهم.

وبالمقابل، فإن سجل الاستيطان الناجح للأمم البيضاء الأخرى، كان مشوشاً. وفي بعض مناطق العالم حيث كان السكان المحليون يشبهون سكان قارة أمريكا المحليين (والذين أهلكتهم الأوبئة الأوراسية حتى قبل وصول المستوطنين) نجح استيطان البيض وبدا من المحتمل جداً أن يكون طويل الأمد. أما في كل مكان آخر، فقد تم طرد المستوطنين البيض في نهاية المطاف، كما في الجزائر وفي زمبابوي وآسيا الوسطى السوفياتية، أو صاروا تابعين للسكان المحليين، كما في جنوب أفريقيا وكازخستان. في أمريكا كان سجل تاريخ الاستيطان انتصاراً غير مسبوق من خلال العنف عديم الرحمة ـ مع كل ما لذلك من تأثيرات في نفسية الأمة.

كما أن الفظائع الوحشية التي مارستها القبائل الهندية مثل الكومانشي وكيوا مع سجنائهم قد فعلت فعلها في تشكيل السلوك بعيد المدى نحو الغرباء في تكساس وغيرها: «من بقي على قيد الحياة بعد الهجمات الهندية لم يعد بمقدوره التفكير بعقلانية بالأخوة الإنسانية التي تشمل الهنود الأمريكان. . . النظرة السائدة للهنود الأمريكان بين الإنجليز صارت نظرتهم إلى وحوش غير بشرية وضواري خطرة، لا يمكن توقع تصرفاتهم. وبسبب تورط جميع سكان التخوم ـ وليس خط دفاعي من الجنود فقط ـ في حروب متواصلة مع الهنود، صار السكان جميعاً عرضةً لتعامل وحشي. ولأنهم عانوا من أخطاء رهيبة، فقد صار سكان التخوم يتسببون بمعاناة رهيبة للهنود الأمريكان»[47].

---

(47) T. R. Fehrenbach, *Comanches: The Destruction of a People* (New York: Knopf, 1974), pp. 270-271.

حمل الأيرلنديون الاسكتلنديون بشكل خاص تجربة سابقة لحرب تخوم وحشية حملت صفة الإبادة. إذ استوطن أسلافهم (مع بعض الإنجليز البيوريتانيين والهوغونوت الفرنسيين) في أيرلندا جزءاً من خطة العهد الإليزابيثي واليعقوبي لإزاحة السكان الأصليين الأيرلنديين من ألستر وخطة كرومويل ووليام للتوطن في بقية الجزيرة. وهنا امتزجوا مع العناصر التي اعتنقت البروتستانتية من سكان أيرلندا[48].

من مستوطناتهم الأصلية في وسط بنسلفانيا استوطن الأيرلنديون ـ الاسكتلنديون أغلبية التخوم القديمة في فرجينيا وكارولينا (حيث ولد جاكسون) قبل الانتقال إلى تنسي والجنوب الأدنى، تكساس والجنوب الغربي. وذهب المؤرخ الجنوبي غرادي ماكويني إلى أنه عزا أغلب الاختلافات الثقافية بين الجنوب وبقية الولايات المتحدة إلى الموروث السلتي للجنوبيين[49]. وإذ تعرضوا للتمييز على يد النخب الأنجلو ـ أيرلندية الأسقفية البروتستانتية (الأبيسكوبالية)[*]

---

(48) للإطلاع على تصوير إنجليزي بروتستانتي معاصر للفظائع والمذابح التي قام بها السكان الأصليين لأيرلندا خلال سنوات 1640 ضد المستوطنين البروتستانت (المشابهة لفظائع قادمة على يد الهنود)، انظر: William Lamont and Sybil Oldfield, eds., *Politics, Religion, and Literature in the Seventeenth Century* (London: Dent; Totowa, NJ: Rowman and Littlefield, [1975]), pp. 65-69.

بالنسبة لتجارب عائلة جاكسون على يد الهنود وحملاته اللاحقة، انظر: Remini, *Andrew Jackson and His Indian Wars.*

بالنسبة للحملات الحربية في الجنوب، انظر: Armstrong Starkey, *European and Native American Warfare, 1675-1815* (Norman: University of Oklahoma Press; London: UCL Press, 1998), pp. 90-92 and 158-161.

(49) Grady McWhiney, *Cracker Culture: Celtic Ways in the Old South* (Tuscaloosa; London: University of Alabama Press, 1988).

(*) أبيسكوبالية: الكنيسة الأسقفية البروتستانتية الإنجليزية.

على أساس طبقي وديني، جلب الأيرلنديون الاسكتلنديون معهم إلى أمريكا موروث كراهية النخب المتعلمة، سواء أكانوا من الإنجليز أم اليانكي (سكان الشمال الشرقي الذين يغلب عليهم الأصل الإنجليزي)[50].

ظل هذا التقليد في أمريكا قريباً جداً من تقاليد بروتستانت ألستر الذي نبع منه، في دمجه بين الدين والقومية (وحتى زمن متأخر) وفي كراهيته المريرة للكاثوليكية. الآن وبعد استسلام تراث البوير في جنوب أفريقيا أمام الأغلبية السوداء، فإن بروتستانت ألستر الموالين لبريطانيا هم الشعب الوحيد في العالم المتقدم الذي تتشابه ثقافته وأيديولوجيته مع المسيحية الإنجيلية الأمريكية[51].

أعطى العهد القديم لهؤلاء المستوطنين في أيرلندا وأمريكا وجنوب أفريقيا اللغة وإطار العمل اللاهوتي لوصف وتسويغ الاستيلاء على أراضي السكان الأصليين. النبرة الإنجيلية لخطابات جاكسون الموجهة إلى التشيروكي والكريك مطالباً إياهم بالانتقال إلى ما وراء نهر المسيسيبي كانت هي نفسها النبرة التي سبقتها بمئة وخمسين عاماً في خطاب كرومويل إلى الأيرلنديين الكاثوليك، مطالباً بإزاحتهم نحو «الجحيم أو منطقة كونوت (Connaught)»[52].

---

(50) للإطلاع على صورة واضحة عن العامل الطبقي في إحدى المعارك حول تدريس نظرية النشوء والتطور التي جرت خلال الجيل الماضي، انظر: Paul Cowan, *The Tribes of America: Journalistic Discoveries of Our People and Their Cultures* (Garden City, NY: Doubleday, 1979), pp. 77-92.

(51) Paul S. Boyer, *When Time Shall Be No More: Prophecy Belief in Modern American Culture*, Studies in Cultural History (Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 1992), pp. 275 and 342, note 9.

(52) انظر: Ian Gentles, *The New Model Army in England, Ireland, and Scotland, 1645-1653* (Oxford, UK; Cambridge, MA: Blackwell, 1992), pp. 361-367, =

كما أن عقلية التخوم ساعدت في استمرار التمسك بقدسية السلاح الشخصي إلى يومنا هذا، وهي عقيدة ترتبط بشكل وثيق مع صنف معين من المساواتية ومن الإيمان بأن من حق كل رجل وواجبه الدفاع عن شرفه الشخصي والعائلي ـ وهذا موضوع كلاسيكي تطرحه هوليود بشأن الغرب، ولكنه موضوع له وجود واقعي وجذور واقعية في تقاليد الجنوب والتخوم.

هذه التقاليد نبعت بدورها وفي التحليل الأخير، من عالم القروسطية المتأخرة وبداية تشكّل إنجلترا واسكتلندا التي كانت بداية شديدة العنف بحسب المعايير المعاصرة. وفي شمال إنجلترا واسكتلندا خصوصاً، كانت الجرائم في الغالب هي جرائم «شرف» أو أشكالاً من قانون العين بالعين والسن بالسن: ثأر عائلي جماعي أو دفاع جماعي عن النفس، وفي الأغلب من طرف عائلات الأرستقراطية المحترمة.

«كانت إنجلترا في عهد ستيوارت بلداً يسوده العنف حين لم تكن تمزقها حربٌ أهلية»[53]. تصرّف النبلاء والفقراء على حد سواء «بشراسة وطفولية، وبضعف في القدرة على السيطرة على النفس

371-372, and John Gerald Simms, *War and Politics in Ireland, 1649-1730*, Edited = by D.W. Hayton and Gerard O'Brien (London; Ronceverte: Hambledon press, 1986), pp. 1-23.

حول تهجير الأيرلنديين، انظر: Margaret MacCurtain, *Tudor and Stuart Ireland*, Gill History of Ireland; 7 ([Dublin]: Gill and Macmillan, [1972]), pp. 51-61, 89-113, 154-166 and 188-192.

بشأن تاريخ وأيديولوجية الاسكتلنديين الأيرلنديين، انظر: Phillips, *The Cousins' Wars: Religion, Politics, and the Triumph of Anglo-America*, pp. 177-190.

(53) John Trevor Cliffe, *The World of the Country House in Seventeenth-Century England* (New Haven, [Conn.]: Yale University Press, 1999), p. 182, and Fischer, *Albion's Seed: Four British Folkways in America*, pp. 765-771.

وكأنهم من زمن هوميروس»[54]. وكانت حال اسكتلندا وأيرلندا في عهد ستيوارت أسوأ بكثير. وكما في الأجزاء الجنوبية والغربية من الولايات المتحدة ـ والعديد من المجتمعات القبلية في العالم أجمع ـ فإنه يصعب التمييز بين هذا الاهتمام بالشرف وبين الميل الكبير للمشاجرات. استمر تقليد المبارزة في الجنوب لعقود عدة بعد انتهائه في أغلب العالم الغربي في أواسط القرن التاسع عشر[55].

خلال الستينات كتب الصحفي والكاتب من تكساس وارن لزلي يصف الطبع التقليدي لأهل تكساس:

أيام التخوم في تكساس ليست بعيدة جداً في الماضي. . . يحارب التكساسي ببندقيته وقبضتيه عندما يواجه تحدياً، ويحارب الأرض كما لو كان يحارب عدواً. إنه رجل أفعال وليس رجل تأملات، إنه فردي، ويفتخر كثيراً عند انتصاره ـ على الأرض كما على الرجال الآخرين. تتكون حياته من وقائع أبدية، وقد أكدت المواعظ الدينية الأصولية قناعته أن الأشياء أما سوداء أو بيضاء. . . رجل أفعالٍ يحارب ويقاوم من يتجاوز عليه، ولا يأخذ أي أوامر من الجماعة أو من غيره من الرجال ويرفض كل مساومة ـ أنه رجل التخوم، وهو لا يزال موجوداً في دالاس، وفي تكساس كلها[56].

---

(54) Lawrence Stone, *The Crisis of the Aristocracy, 1558-1641* (Oxford: Clarendon Press, 1965), p. 223, and J. A. Sharpe, *Crime in Early Modern England, 1550-1750*, Themes in British Social History (London; New York: Longman, 1984), pp. 95-99.

(55) McWhiney, *Cracker Culture: Celtic Ways in the Old South*, pp. 146-170; Bertram Wyatt-Brown, *Honor and Violence in the Old South* (New York: Oxford University Press, 1986), and Joel Williamson, *William Faulkner and Southern History* (New York: Oxford University Press, 1993), pp. 20 ff.

(56) Warren Leslie, *Dallas, Public and Private: Aspects of an American City*, = New Foreword by Harvey J. Graff and Patricia Evridge Hill; New Preface by the

هذه الصورة هي جزء بالغ الأهمية من الصورة الذاتية لجورج دبليو. بوش وديك تشيني (من وايومينغ، وهي ولاية تخوم عنيفة أخرى)، وبالتأكيد لإدارتهما كلياً، وهي صاغت وبلورت وشكلت عدوانية مواقف الإدارة في الشؤون الدولية، بالرغم من عدم إظهار أيٍّ من أعضائها القياديين الرغبة في القتال بأنفسهم على غير ما كان عليه أسلافهم.

وكما لاحظ جون شلتون ريد بخصوص مجتمع أبالاتشي في أواسط القرن العشرين، فقد «كان من المستحيل الحكم على شخص ما بتهمة القتل... في حال اقتنع المحلفون أن شرف المهاجم قد تعرض للأذى، وأنه قد أعطى منافسه إشعاراً بنية الهجوم عليه». وبكلمة أخرى، فإننا نجد هنا قواعد المبارزة: ومرة أخرى فإن هذا تقليد ثقافي هو في جوهره سابقٌ لعصره لكنه مستمر في الأمة التي تحمل راية «الحداثة» للعالم.

وصف ريد هذا على أنه «عنف قانوني» بمعنى أنه عنف مشروع اجتماعياً، وهو رد فعل متوقع لبعض الأفعال ويحترم القواعد والحدود. أي أنه جانب آخر من قانون المجتمع أو قانون الشعب (Folk Law)، مقابل قانون الدولة. وهو يرتبط بشكل وثيق مع حق المجتمع كلّه في ممارسة صيغته الاجتماعية من «العدالة» حين تكون الدولة عاجزة عن تحقيق الإرادة الشعبية لأي سبب من الأسباب. كان من نتائج هذا ظهور تقليد الشنق من دون محاكمة «Lynching» الذي ارتبط قبل كل شيء آخر بإثارة الرعب بين السود في الجنوب في

Author (Dallas, Tex.: Southern Methodist University Press, 1998), pp. 98-99, and = Lind, *Made in Texas: George W. Bush and the Southern Takeover of American Politics*, pp. 30-31.

القرن الذي تلا الحرب الأهلية، لكن تقاليد التخوم كانت أقدم بكثير، وكانت عادة تنفذ ضد البيض المنحرفين عن قواعدها (وضد الهنود بالطبع)[57].

تعرّضت ثقافة العنف هذه للأفول إلى حد كبير في الجنوب والغرب خلال القرن الماضي، لكنها بقيت موجودة بالمقارنة مع بقية أجزاء الولايات المتحدة (باستثناء المدن الداخلية حيث يكثر السود القادمون من الجنوب)، من دون ذكر بقية العالم المتقدم؛ وهي استمرت من خلال المواقف والسلوكيات تجاه العالم الخارجي.

وكما كتب دبليو. جي. كاش في دراسته العظيمة عام 1941، **عقل الجنوب** *(The Mind of the South)* فإن عنف الجنوب لم يكن شخصياً فقط .. إذ إن: «النهج الجوهري للجنوبي انتقل إلى عالم الجرائم العامة أيضاً. وما تتطلبه فردانيته الإرادوية المباشرة عند مواجهته أي جريمة تثير غضبه، هو في الإشباع العاجل لذاته، والتنفيس عن عواطفه الشخصية، من خلال رؤية جسدٍ يتأرجح في طرف حبلٍ أو يتلوى في النيران ـ الآن، وفي هذه الساعة ـ وليس عدالة تجريدية مضجرة ربما تنفذ في غدٍ تجريدي. هكذا وفي عالم سيطرة اجتماعية غير فاعلة، مثل هذا العالم، فإن تقليد تنفيذ فعل العدالة الشعبية الذي عادةً ما يعيش ويموت مع التخوم، لم يستمر

(57) Wyatt-Brown, Ibid., pp. 1-15, 187-213 and 237-245; Edmund S. Morgan, «The Price of Honor,» *New York Review of Books*, vol. 48, no. 9 (May 2001), and John Shelton Reed: *The Enduring South; Subcultural Persistence in Mass Society* (Lexington, MA: Lexington Books, [1972]), pp. 45-55, and «Below the Smith and Wesson Line: Reflections on Southern Violence,» in: John Shelton Reed, *One South: An Ethnic Approach to Regional Culture* (Baton Rouge: Louisiana State University Press, 1982), pp. 143 and 146.

فقط في الحياة، وإنما هو نما أيضاً»[58].

تجسد التخوم في جانب واحد ومثلها الجنوب، تقليداً يختلف عن الصورة الشعبية لمسيرة مظفرة نحو الغرب وهو تقليد يربط جذور القومية الشعبوية الأمريكية مع القومية الراديكالية في كل مكان آخر في العالم. إنه تقليد الهزائم المتكررة وأحياناً المدمرة، بالرغم من أن الهزائم عند التخوم كانت على يد الطبيعة، وحفزها سوء إدارة البشر وطمعهم: هزيمة مجموعات كاملة من السكان على التخوم الزراعية بسبب استنزاف التربة، والتآكل والجفاف.

إن أشهر محطة عالمية، في هذا السياق كانت «صرخة الغبار» التي حصلت في السهول الكبرى خلال العشرينات، وأدت إلى هجرة سكان أوكلاهوما وغيرهم غرباً، والتي وصفها جون شتاينبيك في روايته **عناقيد الغضب** (*Grapes of Wrath*)؛ لكن هذا لم يكن إلا جزءاً من نمط أوسع وأطول. من المؤكد أن العديد من سكان أوكلاهوما انتقلوا إلى السهول الجنوبية في البداية لا بسبب إغراء الأرض المأخوذة من الهنود، بل أيضاً لأنهم **سيقوا** نحوها: إذ طُردوا في البداية من الأراضي الخصبة في الجنوب نحو الأراضي ذات التربة الرقيقة عند التلال بسبب انتشار المزارع التجارية الشاسعة حيث يعمل العبيد، ثم طُردوا من التلال بفعل تآكل التربة الذي سببته إبادة الغابات والإفراط في الزرع. حين وصلوا إلى السهول، تكرر النمط نفسه.

حين وصل «الأوكلاهوماتيون» إلى كاليفورنيا وجدوا أنفسهم يواجهون معاملة سكان كاليفورنيا البيض لهم (أغلبية هؤلاء أيضاً من

(58) Cash, *The Mind of the South*, p. 43.

الغرب الأوسط) على أنهم من طبقة أدنى ومحتقرة، تقريباً مثل المكسيكيين؛ وقد استمرت هذه المعاملة لغاية الستينات، وكانت نتائجها الحتمية هي عزلة أهل أوكلاهوما، ومعاداة النخبة، وبالطبع الكراهية العنصرية للمكسيكيين. هذه الخلفية الجنوبية والغرب الأوسطية «لأنجلو» جنوب كاليفورنيا تفسّر المزاج المحافظ الديني والسياسي في تلك المنطقة واختلافها عن كاليفورنيا الشمالية، ذات التنوع الأكثر بكثير من السكان البيض[59].

ثمة صورة أكثر تعبيراً عن عملية الهزيمة هذه في إحدى مناطق التخوم الزراعية، هي منطقة تل تكساس (سفح أدوارد)، يمكن العثور عليها في كتاب السيرة الذاتية للرئيس ليندون بي. جونسون (الذي يعود أصله إلى تلك المنطقة)، بقلم روبرت كارو. يصف كارو الأرض التي تبدو خصبة في منطقة التل على أنها «فخ تغلّفه الحشائش والماء»، جذب المستوطنين، وحكم من ثم على أحفادهم بأجيال من الفقر، ومن الصراع الطاحن المستمر ضد الجفاف والتآكل»[60].

في أواخر عام 1880، بعد عقد أو أكثر من بدء إطباق الفخ على سكان التل، ضرب جفاف مفاجئ وعلى نطاق أوسع

---

(59) Francis Carney, «A State of Catastrophe,» *New York Review of Books*, vol. 17, no. 5 (October 1971), and Phillips, *The Emerging Republican Majority*, pp. 443-452.

(60) Robert A. Caro, *The Years of Lyndon Johnson*, 3 vols. (New York: Knopf, 1982 - 2002), vol. 1: *The Path to Power*, pp. 8-32

للإطلاع على دراسات أوسع عن العنف الاجتماعي وتطبيق العدالة الشعبية في الولايات المتحدة خارج نطاق الجنوب، انظر المقالات في: Hugh Davis Graham and Ted Robert Gurr, eds., *Violence in America: Historical and Comparative Perspectives*, Special Introd. by John Herbers, Bantam Extra (New York: Bantam Books, [1969]).

المستوطنين الجدد في السهول العليا من داكوتا ونبراسكا وكولورادو وغرب كنساس. اضطر مئات الآلاف من الأشخاص لترك حلمهم بحياة كريمة بوصفهم مزارعين وتحولوا إلى عبودية الأجور في مصانع المدن. من بقي في الأرض سقط أعمق فأعمق في هاوية الديون للمصارف البغيضة[61]. تكرر هذا المشهد بطريقة أقل مأساويةً في مناطق واسعة من الغرب الأوسط الزراعي خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين[62].

هذه الهزيمة (تكررت بجفاف آخر بعد عام 1910) نتج عنها أحد أعظم الثورات ضد نخب الساحل الشرقي في التاريخ الأمريكي: الحركة الشعبوية (Populist Movement) التي قادها وليام جينينغز برايان. إن خسارته الانتخابات بوصفه مرشح الديمقراطيين أمام الجمهوريين (الذين دعمتهم مجموعة المصالح المالية الصناعية لسكان المدن الكبرى) في الانتخابات الرئاسية لعام 1896 خلّدها فاشيل ليندسي في قصيدة رثاء أوردناها في بداية هذا الفصل[63]. كما خسر

---

(61) Frederick Merk, *History of the Westward Movement* (New York: Knopf, 1978), pp. 474 ff.; Robert V. Hine and John Mack Faragher, *The American West: A New Interpretive History* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 2000), pp. 337-341.

(62) Thomas Frank, *What's the Matter with Kansas?: How Conservatives Won the Heart of America* (New York: Metropolitan Books, 2004).

للإطلاع على صورة مختصرة لهزيمة الريف في جزء واحد من الغرب الأوسط، انظر: Larry McMurtry, «The 35 from Duluth to Oklahoma City,» in: Larry McMurtry, *Roads: Driving America's Great Highways* (New York: Simon and Schuster, 2000), pp. 24-47.

(63) فيما يتعلق بخلفية الشعبوية في منطقة تل تكساس وتأثيرها على عائلة ليندون جونسون، انظر: Caro, *The Years of Lyndon Johnson*, vol. I: *The Path to Power*, pp. 33-49 and 79-85, and Lind, *Made in Texas: George W. Bush and the Southern Takeover of American Politics*, pp. 35-36.

الديمقراطي آل سميث عام 1828 إلى حد بعيد بسبب كونه كاثوليكياً ما أدى إلى انسحاب العديد من مؤيديه من بروتستانت الأراضي الوسطى والجنوبيين، كذلك تعزى خسارة برايان جزئياً إلى تشدد ثقافته البروتستانتية الإنجيلية وكراهيته التي لم يخفها للمدن وللمهاجرين الكاثوليك، ما أبعد عنه أصوات الناخبين الديمقراطيين من المدن الكبرى، خصوصاً بين الأيرلنديين.

في الواقع، جمع برايان ووحد الكثير من التقاليد البروتستانتية لحزب الأمريكان، أو حزب من لا يعرفون شيئاً الذي انهار عند انشقاق جناحيه في الشمال والجنوب خلال التحضير للحرب الأهلية. في هذه الأثناء، تضاعف عدد الناخبين المهاجرين ـ خصوصاً الكاثوليك ـ في أمريكا مرات عدة، ما زاد في صعوبات هذا النهج لكل من يرغب في الترشيح لمنصب على الصعيد الوطني.

كانت سنوات 1880 و1890 على العموم سنوات نمو كبير لم يقتصر على الاقتصاد الأمريكي، بل شمل أيضاً الزراعة الأمريكية. لهذا إن النقطة التي أود التذكير بها هنا ليست الإيحاء أن التقليد الأمريكي في النجاح على الصعيدين الوطني والفردي هو خيالي بطريقة ما. بل أن ما أقصده هو الإشارة إلى أن هذا التقليد يحوي أيضاً في داخله عدداً لا يحصى من الهزائم الشخصية والجماعية، وهي هزائم كان لها دورٌ في تشكيل النفسية القومية الأمريكية.

ذلك أنه مقابل كل عائلة انتقلت غرباً وحققت نجاحاً، كان ثمة عائلة أخرى «جديرة بالاحترام، ضعيفة الحال، غادرت مزارع أفلست منذ قرن، انتحر ذكورها، وانتشرت على الأرض مقابر أطفالها من أوهايو حتى الساحل، فيما هي تندفع غرباً من دون تحقيق أي ربح»[64].

---

(64) Ursula K. Le Guin, «Malheur Country,» in: Ursula K. Le Guin, *The Compass Rose: Short Stories* (London: Grafton Books, 1984), p. 230.

فضلاً عن ذلك ـ بالرغم من عدم القدرة على إثباته إحصائياً ـ فإن لسع الهزيمة كان أكثر مرارة في بلد يعتمد النجاح فيه بحق وإلى درجة أعظم من أي مكان آخر على الشخصية والإصرار ـ ليس في التخوم فقط، لكن في المدن أيضاً. والحال أنه في أمريكا يترابط الفشل مع العار والشعور بالذنب بصفته البروتستانتية المميزة، إذ «إنك في حال فشلت فهذا اعتراف بوجود خلل عميق في ذاتك، إذ لا يمكن إلقاء المسؤولية على المجتمع الذي يعدك بالسعادة والقدرات لأن هذا هو معنى وجوده»[65].

في المجتمعات الأوروبية حيث لا تزال الطبقات الهرمية مؤثرة فيها، لا يحتاج المزارع الألماني الصغير أن يشعر بالسوء لأنه ليس أمير فون هوهنلوهي أو كونت بريسنغ. لكن المستوطن الحديث في تكساس الذي بقيت مزرعته صغيرة ـ أو اضطر لترك الأرض كلياً ليصبح عاملاً في المدينة ـ (في حين استطاع تشارلي غودنايت في أقل من جيل واحد خلق مزرعة أكبر من بعض دول أوروبا)، لابد أن يشعر بشيء مختلف عن نفسه. ربما سوف يسعى أكثر للتخفيف من غلواء مشاعره بالاقتناع أنه بالرغم من كل شيء، فهو جزء من الشعب الذي اختاره الله، ثقافياً ودينياً وقومياً.

(65) انظر ملاحظات كريستوفر بغسبي (Christopher Bigsby) على كتاب: Arthur Miller, *The Last Yankee*, Quoted in: William R. Hutchison and Hartmut Lehmann, eds., *Many are Chosen* ([n. p.]: Trinity Press International, 1998), p. 10; Robert King Merton, *Social Theory and Social Structure*, Rev. and enl. ed. (Glencoe, Ill.: Free Press, 1957), pp. 167-169; Seymour Martin Lipset, :انظر أيضاً *American Exceptionalism: A Double-Edged Sword* (New York: W. W. Norton, 1976), p. 47, and Louis Hartz, *The Liberal Tradition in America; an Interpretation of American Political Thought Since the Revolution* (New York: Harcourt, Brace, [1955]), p. 224.

الجنوب الأبيض

كثيراً ما عالج المحللون الأجانب، والأمريكان أنفسهم، الجنوب على أنه منفصل ثقافياً عن الولايات المتحدة لا تأثير له في الهوية القومية للأمة الأوسع. من المؤكد أن للجنوب سمات تاريخية وثقافية خاصة، لكن لا يمكن فصلها عن الثقافة السياسية أو القومية الأمريكية الأوسع: «الجزء الأكبر من القومية الرجعية للولايات المتحدة في القرن العشرين يمكن إرجاعه مباشرة إلى المحافظة المفرطة للجنوب وعزلته الجزئية عن الاتصال بالأجانب والأفكار الأجنبية»[66].

يحتل الجنوب الأبيض قطاعاً واسعاً من الولايات المتحدة وقطاعاً أوسع بكثير فيما أسميته الحزب القومي الأمريكي أو الحزب الجمهوري[67]. إذ بحسب إحصاء عام 2002، كان سكان الولايات الجنوبية الإحدى عشرة يمثلون 30,21 بالمئة من مجموع سكان الولايات المتحدة، ولو أضيف إليهم سكان الجنوب الأكبر (بما فيها أوكلاهوما وميسوري وكنتاكي وفرجينيا الغربية) لوصلت نسبتهم إلى 35,44 بالمئة. من بينهم لا تتجاوز نسبة السود في الجنوب الأسود الاتحادي القديم 19,79 بالمئة، وفي الجنوب الأكبر 18,13 بالمئة، إلى جانب 15,91 بالمئة من اللاتينيين، و 15,71 بالمئة آسيويين وهنود أمريكيين.

هذا يعني أن الجنوبيين البيض يمثلون خمس مجموع سكان

(66) Francis Butler Simkins and Charles Pierce Roland, *A History of the South*, 4th ed. (New York: Knopf, [1972]), p. 11.

(67) Rhodes Cook, «The Solid South Turns Around,» *Congressional Quarterly Weekly* (2 October 1992).

الولايات المتحدة، وليست هذه نسبة مهيمنة، لكن المؤكد أن لديها إمكانات قوية جدياً. لو أخذنا ذلك بصيغ القوة السياسية، فأن موقع الجنوب (والغرب المتحالف معه في كثير من الأحيان) يزداد قوة في النظام الفدرالي الأمريكي، ما يعطي وزناً غير متكافئ للولايات الصغيرة ذات السكان التقليديين البيض[68]. منذ السبعينات، لم تصوت من ولايات الجنوب للحزب الديمقراطي في الانتخابات الرئاسية إلا عدد يعد على أصابع اليد.

وقد أشار مايكل ليند، كيفن فيليبس، بيتر آبلبوم وغيرهم إلى أنه خلال العقدين الماضيين فإن «تحول الحزب الجمهوري إلى أن يصير جنوبياً (Southernization)» أعطى هذه التقاليد أهمية كبيرة جداً في سياسات أمريكا كلها، وبالتالي في سلوك الولايات المتحدة على الصعيد الدولي[69]. من بين تأثيرات هذا «التحول إلى الجنوب» كان

---

(68) Peter Applebome, *Dixie Rising: How the South Is Shaping American Values, Politics and Culture* (New York: Times Books, 1996), pp. 8-9, and www.census.gov (1 July 2002).

(69) Applebome, Ibid.; Kevin Phillips, *American Dynasty: Aristocracy, Fortune, and the Politics of Deceit in the House of Bush* (New York: Viking, 2004), and Michael Lind: *Up from Conservatism: Why the Right Is Wrong for America* (New York: Simon and Schuster, 1996), pp. 121-137, and *Made in Texas: George W. Bush and the Southern Takeover of American Politics.*

وحول تأثير البابتيست الجنوبيين على الحزب الجمهوري منذ الستينات، انظر: Oran P. Smith, *The Rise of Baptist Republicanism* (New York: New York University Press, 1997); Jonathan Knuckey, «Religious Conservatives, the Republican Party and Evolving Party Coalitions in the United States,» *Party Politics* (London), vol. 5, no. 4 (October 1999), and John F. Persinos, «Has the Christian Right Taken Over the Republican Party?: Religion in US Politics - Cover Story,» *Campaigns and Elections* (Washington), vol. 15, no. 9 (September 1994).

نمو شكل أكثر شراسة من القومية. كما كان لتزايد التدين على النمط الجنوبي تأثيره، سواء في انسلاخ الولايات المتحدة عن أوروبا «الملحدة»، أو في تزايد التزام الولايات المتحدة تجاه إسرائيل. ساهم هذا التحول لدى الجمهوريين بشكل كبير في تزايد استقطاب الأمريكان بين الحزبين. وكما أشرنا في المقدمة، فقد انعكس ذلك بقوة على تناقض مواقف الأحزاب تجاه الدين والأخلاق والثقافة الاقتصاد والقومية.

كان لهذا الانقسام تعبيره الرمزي عام 2003 في الإدانة العامة للديمقراطيين بشأن انحطاطهم الأخلاقي وقلة وطنيتهم، وذلك على يد آخر ممثل محافظ للجنوب السيناتور زيل ميللر من جورجيا. أو كما عبر عن ذلك توماس شاللر عام 2003، فإن «محاولة إعادة الإمساك بالجنوب هي عملية غير مجدية، وهي مهمة غير مفيدة لأن الجنوب لم يعد منطقة تقلبات. لقد انقلب بالفعل: إذ إن «استراتيجية الجنوب» التي وضعها ريتشارد نيكسون عام 1968 قد أتت أُكُلها[70].

من المؤكد أن الجنوب الأبيض لم يستعد هيمنته السياسية التي تمتعت بها أرستقراطية فرجينيا من عام 1780 لغاية 1820، غير أنه استعاد قوته وبالتأكيد تجاوز القوة التي يمارسها ممثلو المنطقة بالمقارنة مع ما كانت عليه بعد نهاية مرحلة إعادة إعمار الجنوب في

---

(70) Zell Miller, *A National Party No More: The Conscience of a Conservative Democrat* (Macon, Ga.: Stroud and Hall Pub., 2003), and *Washington Times*: 3-5/11/2003.

حول الانهيار الكارثي للحزب الديمقراطي في أواسط البيض الجنوبيين، انظر: Thomas F. Schaller, «A Route for 2004 that Doesn't Go Through Dixie,» *Washington Post*, 16/11/2003, and James Taranto, «Why Do Dems Lose in the South? Don't Blame Civil Rights,» *Wall Street Journal*, 8/3/2004.

أواخرعام 1870 حتى مرحلة الحقوق المدنية وانهيار ولاء الجنوب للحزب الديمقراطي في أواسط الستينات.

ثمة سبب رئيسي لقوة الجنوبيين وهو الطريقة التي صار بها الجنوب قادراً على ممارسة نفوذ سياسي غير متناسب مع عدد أفراده من خلال إمساكه بأحد الحزبين الكبيرين. منذ عام 1877 ولغاية الستينات (مع تناقص تدريجي لقوته منذ الأربعينات) كان البيض الجنوبيون ديمقراطيين في أغلبيتهم العظمى، وذلك بفضل العداء الجنوبي المرير نحو إبراهام لينكولن الجمهوري. مع ذلك، وخلال تلك الفترة كلها، فإن بقايا تعصب سكان الجنوب والغرب الأوسط المتعلقة بالحرب الأهلية وعدم الارتياح لسجل التمييز العنصري للجنوب، عنت استحالة تحقيق طموح أي جنوبي من الولايات الأحدى عشرة المتحدة، في الرئاسة (إلا إذا انتقل إلى الشمال منذ شبابه كما فعل وودرو ولسن)[71].

وبسبب تحول ولاء أغلبية من الجنوبيين البيض إلى الحزب الجمهوري خلال الستينات والسبعينات بوصفه رد فعل ضد اتجاه الديمقراطيين للدفاع عن الحقوق المدنية والتعدد الثقافي، فإن دوره صار أكثر نشاطاً. وقد توضّحت الأهمية الحاسمة للجنوبيين البيض بالنسبة لآمال الجمهوريين توضحت في سلسلة من الانتخابات الرئاسية ـ وخصوصاً عام 2000، عندما فشل آل غور بالفوز في أي ولاية جنوبية (بالرغم من أنه من تنسي) ما قضى على آماله في الرئاسة[72].

---

(71) للإطلاع على هيمنة الجنوب السابقة على الكونغرس، انظر على سبيل المثال:
Phillips, *The Emerging Republican Majority*, p. 311, and Caro, *The Years of Lyndon Johnson*, vol. 3: *Master of the Senate*, pp. 32, 89-97 and 104.

(72) Earl Black and Merle Black, *The Vital South: How Presidents are Elected* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1992), p. 344.

وتظهر أهمية المنطقة في التأثير المحافظ المتطرف على الحزب الجمهوري في حقيقة أن المسح الذي قامت به **ناشيونال جورنال** (*National Journal*)، للنواب والشيوخ عام 2004 أن من بين 16 سيناتوراً ممن يوصفون «بالأكثر محافظة» (ثلث مجموع الجمهوريين)، فإن عشرة منهم هم من الجنوب الأكبر، ومن بين 21 سيناتوراً ممن يوصفون بأنهم من «الوسط»، لم يكن بينهم إلا خمسة من الجنوب[73].

لو استخدم الجنوبيون السود الذين اكتسبوا حق الانتخاب، حقهم لاختيار الديمقراطيين، لما كان الجنوب اليوم جمهورياً صلباً كما كان في السابق ديمقراطياً. إن النهاية الحديثة للتمييز والصعود الاقتصادي للجنوب (مقارنة مع مدن «حزام الصدأ» في الغرب الأوسط والشمال الشرقي) قد قادا السود للعودة إلى الجنوب. لو استمرت هذه العملية وتكثفت، فسوف تؤدي في آخر الأمر إلى تهديد قبضة المحافظين البيض على الجنوب جدياً.

بدءاً من عام 2004، شكّل البيض الجنوبيون أكبر كتلة أغلبية صلبة يعتمد عليها في البلاد، ما يعطيهم طبعاً نفوذاً هائلاً. كما أن القوة السياسية والحياة الطويلة للمحافظين الجنوبيين في الكونغرس قد ازدادت بشكل غير متعمد من خلال إعادة توزيع المناطق الانتخابية في الكونغرس التي هدفت إلى خلق مناطق سوداء بالكامل، وبالتالي

---

(73) Richard Cohen, «How They Measured Up,» *National Journal* (28 February 2004).

وحول تأثير الإيمان الديني المحافظ على أنماط التصويت في الكونغرس، انظر: Chris Fastnow, J. Tobin Grant and Thomas J. Rudolph. «Holy Roll Calls: Religious Tradition and Voting Behavior in the U.S. House,» *Social Science Quarterly*, vol. 80, no. 4 (December 1999).

إلى تقوية تمثيل السود، إلا أن النتيجة كانت خلق مناطق بيضاء بالكامل. منذ أواخر السبعينات، وبالخصوص منذ ثورة الجمهوريين التي قادها الجورجي نيوت غينغريش عام 1994 وتشكيل إدارة بوش التي يقودها أهل تكساس عام 2001، فقد استغل هذا النفوذ لتقديم برامج تكمن جذورها في ثقافة الجنوبيين البيض.

وكما بيَّن آبلبوم، ميد وغيرهما، فإنه جرى تسهيل هذه العملية بشكل كبير بسبب واقع أن أجزاء مهمة من ثقافة الجنوبيين البيض كانت قد انتشرت خلال العقود الأخيرة خارج حدود مناطقهم الأصلية، مثل الديانة البروتستانتية الإنجيلية الجنوبية، وعقيدة امتلاك أسلحة شخصية وموسيقى الريف والوسترن، وسباق عربات الماشية (التي كان أصلها مهربو الويسكي في جبال آبالاتشي). كما أن الجنوب كان منذ زمن طويل موطناً لشكل حاد من أشكال القومية الأمريكية، يكتنفه احترام عميق للعسكرية وقيمها، وهو جزء من قومية أوسع تؤمن بالقيم التقليدية للدين والعائلة والرجولة والشرف[74].

الجنوب بهذا المعنى الثقافي لم يتحدد أبداً بالولايات الإحدى عشرة التي أعلنت الانفصال عن الاتحاد عام 1861 وشكلت لمدة أربع سنوات الولايات الأمريكية الاتحادية (Confederate States of America). يمتد الجنوب الأكبر إلى خارج حدود الدولة الاتحادية السابقة وحتى إلى ما وراء خط ماسون ـ ديكسون (خط العرض الذي فصل ولايات العبودية عن الولايات الحرة قبل عام 1861)، وصار

(74) Wyatt-Brown, *Honor and Violence in the Old South*; Mead, *Special Providence: American Foreign Policy and How it Changed the World*, pp. 250-259, and Applebome, *Dixie Rising: How the South Is Shaping American Values, Politics and Culture*, p. 10.

يغطي أجزاء من الغرب الأوسط والغرب. وبحسبما يرى بعض خبراء الجغرافيا الثقافية، فإن الحدود الثقافية الشمالية للجنوب الأكبر تمتد تقريباً بامتداد الطريق 40 التي تمر من الشرق إلى الغرب عبر وسط أوهايو، أنديانا وألينويس. من جهة الغرب، يشمل الجنوب الأكبر أوكلاهوما وغيرها من الولايات التي استقرت من الجنوب القديم[75]. خلال سعيه للرئاسة توجّه المرشح الراديكالي المحافظ (والعنصري السابق) جورج ك. والاس إلى الجنوبيين «من بالتيمور إلى مدينة أوكلاهوما وصولاً إلى سانت لويس».

تشكل هذه المنطقة قلب بلاد التدين البروتستانتي الإنجيلي، أو ما يسمى حزام التوراة، وصورة أمريكا عميقة التدين مشتقة إلى حد لا يستهان به من الجنوب الأكبر[76]. حتى وقت متأخر نسبياً كانت هذه المنطقة تفتقر لوجود مدن كبرى، وبالتالي فإنه لم تصل إليها الهجرات الضخمة التي اندفعت إلى مدن الشمال والشرق منذ أواسط القرن التاسع عشر. في العديد من المناطق، وخصوصاً في الأرياف والبلدات الصغيرة، ظل السكان البيض في الجنوب الأكبر متجانسين.

صرح دبليو. جي كاش أن الجنوب الأبيض «ليس بالضبط أمة في داخل الأمة، لكنه أقرب ما يكون إلى ذلك»[77]. لقد كتب هذه الكلمات عام 1941، لكن بعد مرور عقود عدة كان بإمكان عالم

---

(75) Peter W. Williams, *America's Religions: From Their Origins to the Twenty-First Century* (Urbana, Ill.: University of Illinois Press, 2002), p. 283.

(76) لاحظ الخارطة بشكل خاص، في: Martin B. Bradley [et al.], *Churches and Church Membership in the United States, 1990: An Enumeration by Region, State, and County Based on Data Reported for 133 Church Groupings* (Atlanta, Ga.: Glenmary Research Center, 2002).

(77) Cash, *The Mind of the South*, p. xlviii.

الاجتماع الجنوبي البارز جون شلتون ريد التحدث عن أن الجنوبيين البيض يشكلون عرقاً ويملكون نوعاً من الوعي العرقي[78]. من المفيد أن نتذكر في هذا الصدد أنه لو أن بضع معارك خلال الحرب الأهلية قد سارت باتجاه معاكس ـ ولم يكن هذا الاحتمال مستحيلاً تاريخياً ـ لصار الجنوب أمةً مستقلةً، لها وعيها القومي (الأبيض) الخاص.

ولأن رهان الجنوب الأبيض في إنشاء وطن قومي قد جرى سحقه خلال الحرب، ولأن القومية المتميزة لهذه المنطقة قد اندمجت لاحقاً بقومية الولايات المتحدة كلها، لم يوجه دارسو القومية الاهتمام الكافي لتطور الهوية الجنوبية قبل عام 1865. وهذا أمر مؤسف، إذ لو حصل ذلك لقدّم حالاً دراسيةً مدهشة يمكنها أن تضيف تفاصيل مثيرة للاهتمام إلى النقاش بين منهجين في تفسير أصول القومية: «قومية أولية» (Primordial) أم «بنائية» (Constructive).

من جهة، كان من الواضح أن الهوية القومية للجنوب هي بنائية. وقد انبنت فضلاً عن ذلك بوصفها رداً على تهديد معين: أي على المؤسسة الجنوبية الخاصة التي هي العبودية. فضلاً عن ذلك، وبالرغم من كراهية بيض الجنوب للسود وخشيتهم منهم، إلا أن العبودية كانت قضية أثرّت قبل أي شيء آخر في النخبة الجنوبية المالكة للعبيد. وبالتالي فقد كان يمكن رؤية واقع الجنوب قبل الحرب على أنه نموذج جيد لتشكيل النخبة للقومية الحديثة التي

---

(78) John Shelton Reed, *One South: An Ethnic Approach to Regional Culture* (Baton Rouge: Louisiana State University Press, 1982).

للإطلاع على عرض لأعمال ريد، انظر: Larry J. Griffin, «The Promise of a Sociology of the South,» *Southern Cultures*, vol. 7, no. 1 (Spring 2001).

طرحها أيريك هوبزباوم وغيره من مفكري الجناح اليساري من أنصار تقليد البنائية في القومية.

من المؤكد وجود عوامل أخرى غير العبودية أثرت في انشقاق الشمال ـ الجنوب قبل عام 1861. ومع ذلك، لو أخرجنا العبودية من المعادلة، ومعاداة الشمال لها، لما عاد ثمة سبب يكفي لجعل النخبة الجنوبية تبذل مثل هذا الجهد المكثف لتكوين هوية مختلفة، أو لكي تصل ولايات الجنوب إلى حد القتال من أجل الاستقلال طوال أربع سنوات في حرب مأساوية.

لكن الجنوب هو أيضاً مثال على حقيقة أنه إذا كانت الهوية القومية يمكن «تكوينها» إلا أنه لا يمكن «خلقها» (كما طرح هوبزباوم). بل لابد من جمعها، أو «تخيّلها» من عناصر معينة موجودة بالفعل سابقاً، ، وإذا لم تكن هذه العناصر قديمة وقوية بما يكفي لكانت القومية ضعيفة لا يرغب في التضحية والموت من أجلها إلا القلة. وهذا سبب محوري لكون القوميات المخلوقة التي تشكلت بعد مرحلة الاستعمار في أفريقيا والتي كان أساسها مصطنعاً كلياً من أراض استعمارية، قد أثبتت ضعفها لهذا الحد، في حين أثبتت الولاءات القبلية والدينية القديمة قوتها[79].

(79) للمزيد حول الطرح الكلاسيكي بشأن القومية المعاصرة «المكتشفة» انظر مقالات أيريك هوبزباوم (Eric Hobsbawm) في: Eric Hobsbawm and Terence Ranger, eds., *The Invention of Tradition*, Past and Present Publications (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1983).

وحول نظرية «تكوين» القومية، انظر: Ernest Gellner, *Encounters with Nationalism* (Oxford; Cambridge, MA: Blackwell, 1984).

وحول الأمم بوصفها «مجتمعات متخيلة» انظر الكتاب الكلاسيكي: Benedict Richard O'Gorman Anderson, *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*, Rev. and Extended ed. (London; New York: Verso, 1991). =

قامت الهوية النموذجية لجنوب ما قبل الحرب الأبيض على ثلاثة أسس رئيسية. **الأول**، والأوضح، كان إصرار العرق المتفوق على ابقاء السود في وضعهم التابع المستضعف، ما أسماه كاش التقاليد «الدورية» (Doric) للجنوب، تيمناً بإسبارطة القديمة وقمعها الشرس لسكان هيلوت. **والثاني** يرتبط بشكل وثيق مع الأول، وهو رغبة في المحافظة على اقتصاد الجنوب الزراعي ومعه: على هيمنة الطبقة المالكة للمزارع الكبرى. تولّد عن هذه الرغبة مدافعون عنها من المفكرين والمثقفين الذين كانوا يتطلعون إلى التقاليد الأرستقراطية المحافظة في أوروبا، وهذه تختلف بالتأكيد عن زيف المحافظة الليبرالي والتي سادت في كل مكان في الولايات المتحدة.

وكما في أوروبا، وبدلاً من الدفاع المباشر عن حكم الأرستقراطية، فقد هاجم هذا التقليد انعدام الروح والتشظي والاستغلال الذي تمارسه الرأسمالية الشمالية في مقابل القيم، الحقيقية أو المتخيلة، للجنوب، مثل المحافظة على التقاليد وجذور الارتباط بالأرض[80]. (أو بحسب وصف تي. آر. فهرنباخ أهل تكساس في القرن العشرين، «فإن الأغلبية العظمى منهم كانت تعرف أين دفن أجدادهم»[81]). هذا النمط من النقد للرأسمالية الغربية كان السمة الغالبة ليس للمنظومات الاجتماعية الزراعية والأرستقراطية في

= ولأجل نظرة أوسع لدراسة القومية من وجهة نظر أن الأمم هي ناتج مجموعة من العمليات المعاصرة ذات المكونات الأقدم بكثير (وهي نظرة أتفق معها)، انظر: Anthony D. Smith, *Nationalism* (Oxford: Blackwell, 2001).

(80) Eugene D. Genovese, *The Southern Tradition: The Achievement and Limitations of an American Conservatism*, William E. Massey, Sr. Lectures in the History of American Civilization; 1994 (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1994).

(81) Fehrenbach, *Lone Star; a History of Texas and the Texans*, p. 712.

طور الانهيار فقط، بل أيضاً للحركات القومية في المجتمعات المهزومة كلياً أو جزئياً طوال التاريخ المعاصر، من الأفكار الألمانية حول الجماعة التوتونية (Gemeinschaft) في مقابل «المجتمع» الفرنسي والبريطاني عديم الروح والمستغل (Gesellschft)، مروراً بالنزعة السلافية في روسيا القرن التاسع عشر، وصولاً إلى عدد كبير من كتّاب «العالم الثالث» في زمننا الحاضر[82]. هكذا فإنه بحلول عام 1825 كان قد تكوّن بين الطبقة العليا في كارولينا الجنوبية «هذا الجو من الكبرياء والفقر والنفور الذي شجع في القرن العشرين على نشوء القومية بين العرب والأفارقة»[83].

تداخل هذا الاتجاه نحو الهوية الجنوبية مع اتجاه آخر غطت عليه هزيمة الجنوب في الحرب الأهلية عام 1865 وحقيقة أنه في تلك الحرب حارب الأمريكان من أصول أنجلو ـ سكسونية وأيرلندية اسكتلندية ضمن صفوف الجانبين، كما فعل أيضاً البروتستانت الإنجيليون: وهذه هي بالذات العناصر العرقية المكوّنة للتقاليد الجنوبية البيضاء. وأنا أعتقد أنه لو أن الجنوب انتصر في الحرب الأهلية وأسّس لنفسه أمةً مستقلة، تؤكد هوية عرقية على أساس مزيج من الأنجلو ـ ساكسون والأيرلنديين الاسكتلنديين مع سمات بروتستانتية أصولية لبرزت تلك الهوية على أنها الوجه المركزي المعلن للقومية الجنوبية البيضاء.

---

(82) حول بدايات الاختلاف الأدبي بين الشمال والجنوب، انظر: William Robert Taylor, *Cavalier and Yankee; the Old South and American National Character* (New York: Anchor Books, 1963), esp. pp. 72-119.

ولمراجعة هذا الموضوع، انظر: David Lee Carlton, «Rethinking Southern History,» *Southern Cultures*, vol. 7, no. 1 (Spring 2001).

(83) Morison, Commager and Leuchtenburg, *The Growth of the American Republic*, p. 426.

ومع صيرورة الشمال، أو ما تبقى من الولايات المتحدة بعد انفصال الجنوب، أكثر تنوعاً عرقياً بسبب الهجرة، فقد تأكد هكذا «نقاء» التقاليد العرقية الجنوبية، مقابل الشمال «الهجين». من المؤكد أن تعارض النقاء/الهجنة كان يستخدم بشكل واسع جداً في خطاب الجنوب خلال الحرب الأهلية. كما شارك في هذا الخطاب الرئيس الجنوبي وودرو ويلسن إلى حد ما، وواصله بشكل محموم عدد من الجنوبيين المعادين للسامية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مثل حاكم جورجيا توم واتسن[84]. في مثل هذه الظروف، كان يمكن أن يخسر الجنوب ما تبقى فيه من ليبراليين لصالح الشمال، لكنه كان سيستقطب المحافظين الشماليين البيض الذين روّعهم تحوّل الأمة عبر الهجرة، أي بيض من أمثال الروائي أوين ويستر أو الرسام فردريك ريمنغتن الذي تحدث بحدّة عن «اليهود، الهنود والصينيين والإيطاليين والهان، حثالة الأرض الذين أكره»[85].

ولكن، وكما أكد عدد من دراسي علم السكان التاريخي الأمريكية، فإن التقليد العرقي للاسكتلنديين الأيرلنديين لم يكن في أعماقه مبنياً ولا مخترعاً، وإنما عريق القدم استطاع الإبقاء على نمط الحياة الشعبية لغاية القرن العشرين مع أنها أقدم بكثير من الحياة المعاصرة، وفي بعض الأحيان حتى من المسيحية. فضلاً عن ذلك، فإن الظروف العنيفة التي وجد الاسكتلنديون الأيرلنديون أنفسهم يواجهونها عند التخوم الأمريكية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

(84) Slotkin, *The Fatal Environment: The Myth of the Frontier in the Age of Industrialization, 1800-1890*, p. 303, and Bennett, *The Party of Fear: From Nativist Movements to the New Right in American History*, pp. 163-164 and 181-182.

(85) ذكر في: Slotkin, *Gunfighter Nation: The Myth of the Frontier in Twentieth-Century America*, p. 97.

كانت تكراراً للظروف التي تركوها وراءهم، سواء في الحروب الوحشية ضد الأيرلنديين الغاليين أم في التقاليد الأقدم بكثير في النزاعات على الحدود الإنجليزية الاسكتلندية، وبين القبائل الاسكتلندية والإنجليزية الشمالية[86]. وتلك كانت تقاليد وعاها الاسكتلنديون الأيرلنديون القرن التاسع عشر جيداً. نقل عن أندرو جاكسون أنه، «طلب من مريديه قراءة تاريخ القادة الاسكتلنديين الذين كان شديد الإعجاب بهم وجعلهم نموذجاً لأفعاله»[87].

والحال إن شخصية سير والتر سكوت مدهشة في هذا الخصوص. والهوس برواياته التاريخية وقصائده في واقع ما قبل الحرب في الجنوب كان يُنظر له عموماً ـ ويُسخر منه أيضاً ـ باعتباره جزءاً من محاولة طبقة مالكي المزارع الجنوب لخلق تقاليد «الفرسان» تشبّهاً بالأرستقراطية البريطانية. بالنسبة للاسكتلنديين الأيرلنديين في التخوم، فقد كان دور سكوت مختلفاً بعض الشيء: دور «إعادة تخيل» صحي وملائم، لتقاليدهم التاريخية وبالتالي لجعل حياتهم الراهنة في التخوم الجنوبية تتسم بنفحة رومنطيقية، ما يعيد إنتاج حياة أسلافهم الجامحين بطرق عديدة.

لو حصل الجنوب الأبيض على استقلاله، لربما كان سكوت اليوم يُدرس من بعض الزوايا المشابهة للشعراء والروائيين القوميين من القرن التاسع عشر الذين ساهموا في «تخيل أممهم» من خلال نسج حكايات أصيلة لكن مجزأة وتحويلها إلى أساطير قومية،

(86) Leyburn, *The Scotch-Irish: A Social History*, pp. 108-153; Fischer, *Albion's Seed: Four British Folkways in America*, pp. 605-782, and Phillips, *The Cousins' Wars: Religion, Politics, and the Triumph of Anglo-America*, pp. 177-190.

(87) Fischer, Ibid., p. 775.

روائيون من طراز إلياس لونروت في فنلندا أو أندريس بومبورس في لاتفيا. وكما صرح قومي أستوني من القرن التاسع عشر، «لنقدم للشعب الملاحم والتاريخ، بذلك نحقق كل شيء!» إن كون السير والتر سكوت يعرف أنه يقوم بهذا الدور في الجنوب الأمريكي لا يدل إلا على السبل المعقدة التي تسلكها الثقافة لخلق الأمم[88].

موجز عن الجنوب العميق

عام 1979 أمضيت أشهراً عدة في مدرسة في مدينة صغيرة اسمها تروي، في ألاباما الجنوبية، في منحة دراسية لاتحاد الناطقين بالإنجليزية سميت تيمناً بحاكم الولاية المشرف على التقاعد جورج سي. والاس. آنذاك كان المجتمع مقسماً بحدة بين البيض والسود، لكن الأغلبية العظمى من البيض المولودين محلياً كانوا مزيجاً من أصول أنجلو ـ ساكسون واسكتلنديين أيرلنديين ويتبعون الكنيسة المعمدانية الجنوبية «ساوثرن بابتست» (Southern Baptist). أظهر مسح أجري عام 1982 توزيع المنتمين إلى الكنائس في مديرية أو منطقة قضاء بايك، حيث تقع مدينة تروي، كان: 67،5 بالمئة ينتمون إلى الكنيسة المعمدانية الجنوبية ساوثرن بابتست و15،7 بالمئة

(88) حول خلق أساطير قومية معاصرة في إقليم البلطيق، انظر: Anatol Lieven, *The Baltic Revolution: Estonia, Latvia, Lithuania, and the Path to Independence* (New Haven: Yale University Press, [1993]), pp. 118-123, and William A. Wilson, *Folklore and Nationalism in Modern Finland* (Bloomington: Indiana University Press, 1990).

بالنسبة للملاحم ذاتها، انظر: Elias Lönnrot, *The Kalevala: An Epic Poem after Oral Tradition*, Translated from the Finnish with an Introduction and Notes by Keith Bosley; and a Foreword by Albert B. Lord, World's Classics (Oxford; New York: Oxford University Press, 1989), and Andrejs Pumpurs, *Lacplesis, A Latvian National Epic* (Riga: Writers Union, 1988).

إلى المنهجية المتحدة يونايتد ميثودست. لم تصل أي كنيسة أخرى لنسبة تزيد على 5 بالمئة من المجموع. بعد ثمانية عشر عاماً ظلت نسبة الكنيستين على ما هي عليه. وزادت نسبة المنتمين إلى كنيسة جمعية الرب («أسمبلي أوف غود» (Assembly of God)) وكنيسة المسيح (Church of Christ) إلى 3,8 بالمئة، و4,9 بالمئة على التوالي[89].

أثّرت هذه التقاليد الدينية بعمق في روحية المجتمع. لذلك كانت المدينة خالية من الكحول (ليس تماماً، لكن يمنع الإعلان عن الكحول أو شربه علناً، كما أن عدد الحانات محدود جداً). لكون الطلبة عموماً هم تحت سن الحادية والعشرين، وهي السن المسموح فيها بتناول الكحول، فقد بدا ذلك ذا تأثير ضئيل في عادات زملائي في تناول الكحول. والأغلبية العظمى من الطلبة البيض الذين يسمون أنفسهم «ذوي الأعناق الحمر» (Rednecks) كانوا فخورين بذلك. من المؤكد أنهم كانوا بعيدين عن المراكز الأمريكية للثروة والقوة والثقافة والنفوذ. وهم كانوا يعرفون هذه الحقيقة، واختلف ردة فعلهم ما بين الكبرياء الجريحة والنفور المرير.

كانوا يملكون حساً قوياً بالانتماء لمجتمع يحافظ على العرقية الدينية والتقاليد المحلية. وبالرغم من أن القلة بينهم كانوا من أصول أرستقراطية أو غنية، إلا أن أكثرهم كان قادراً على التعريف بسلالته

(89) Bernard Quinn [et al.], eds., *Churches and Church Membership in the United States, 1980: An Enumeration by Region, State, and County, Based on Data Reported by 111 Church Bodies* (Atlanta, Ga.: Glenmary Research Center, 1982), p. 32, and Dale E. Jones [et al.], *Churches and Church Membership in the United States, 1980: An Enumeration by Region, State, and County Based on Data Reported by 149 Religious Bodies* (Atlanta, Ga.: Glenmary Research Center, 2000), p. 47.

لما قبل إنشاء ألاباما، وإرجاع أصلهم إلى مستوطنين انتقلوا من تنسي أو جورجيا أو كارولينا. ما يثير الدهشة أن بعضهم كان فخوراً لكون بعض أسلافه من التشيروكي أو الكريغ، إذ إن ذلك يثبت قدم وجودهم هناك، في حين لا يذكر أحد أسلافه من السود، بالرغم من وجود بعضهم. وبالرغم من وجود برامج رعاية اجتماعية في الولاية لكن قسماً كبيراً من سكان الريف، البيض والسود على حد سواء، كانوا يعانون من الفقر الشديد بالمقارنة مع العالم «المتقدم»، ونسبة الأمية عالية جداً بينهم.

باستثناء المدة التي أمضوها في أداء الخدمة العسكرية، فإن عدداً يثير الدهشة لم يسافر خارج ألاباما قط، باستثناء زيارة إلى مدينة بنساكولا القريبة وإلى سواحل فلوريدا بانهندل، وأكثر من هؤلاء لم يسافر خارج الجنوب قط. وبسبب المسافات الشاسعة في الولايات المتحدة مقارنةً بأوروبا، كانت عزلة تروي تشبه عزلة المدن الأوروبية قبل دخول سكك الحديد.

كان الناس يتمتعون بالطيبة وكرم الضيافة للشخص الزائر (بخاصة إن كان من بريطانيا، وهي الدولة التي لها حظوة كبرى تقرب من الصوفية، لكونها كانت حليفاً لهم في الحرب ولأنها موطن أسلافهم)، لكن العديد منهم كانوا يشعرون بشك عميق تجاه الغرباء على العموم، وجهلهم عميق جداً بأمريكا التي خارج نطاق الجنوب. أما عالم ما وراء سواحل أمريكا فكان يشبه عرضاً سحرياً في مسرحية الظل والضوء، مليئاً بالأبطال والشياطين، لكن من دون أي محتوى واقعي. «الشياطين» في بعض الأحيان هو الوصف الذي كان يعبر عن كيفية رؤيتهم لأعداء أمريكا، ذلك أن الرؤى الألفية للتاريخ كانت أيضاً حاضرة، طبعاً بشكل أقل بين الطلاب عما هي عليه عند السكان من حولهم.

لكن هذا كان مجتمعاً يختلف اختلافاً كبيراً عن الصورة النمطية للرفاهية الأمريكية من جهة وكون أمريكا هي «إناء الإذابة» (Melting Pot) من جهة أخرى. وهذه الصورة كانت ولا تزال إلى حد كبير تنعكس في المدن الصغيرة من عمق الجنوب (الجنوب الجوّاني) وبعض أجزاء تكساس والغرب، ما يعكس ما سماه أوران سميث استمرار «التجانس الذي لا يصدق بين الجنوبيين البيض»[90]. صار يسمح للسود بدخول الجامعة ولا يتعرضون للتمييز العرقي المكشوف، لكنهم كانوا لا يزالون في موقع أقل شأناً وليس لديهم إلا القليل من النفوذ محلياً[91].

خلال السنوات الستين الأخيرة، أدت التغيرات الاقتصادية الضخمة التي بدأتها الحرب العالمية الثانية إلى حدوث تغيرات كبيرة في الجنوب. لقد حول انتقال الصناعات من حزام الصدأ إلى الشمال الشرقي والغرب الأوسط، أجزاء من الجنوب إلى مناطق هي الأكثر تصنيعاً في أمريكا، ولقي هذا التحول ترويجاً كبيراً من المنطقة وخارجها[92]. أدخلت التنمية الاقتصادية عدداً كبيراً من المهاجرين

---

(90) Smith, *The Rise of Baptist Republicanism*, pp. 17 and 43.

لصورة متخيلة عن المدن الصغيرة في تكساس من الخمسينات لغاية التسعينات التي تعكس الامتزاج والمحافظة والعزلة، انظر مسلسل «Larry McMurtry» عن مدينة «Thalia» بعناوينها: «The Last Picture Show,» (1966); «Texasville,» (1987), and «Duane's Depressed,» (1999), Published by Simon and Schuster.

(91) حول أطروحة التمزق بين البيض والسود في أمريكا وشبهه بالانفصال «العرقي»، انظر: Orlando Patterson, *The Ordeal of Integration: Progress and Resentment in America's «Racial» Crisis* (New York: Basic Books, 1998), and Reed, *The Enduring South; Subcultural Persistence in Mass Society*, pp. 173-175 and 182-183.

(92) انظر مثلاً التقرير حول المنطقة: «Southern Exposure,» *Financial Times*, 24/9/2003.

الجدد، ولم يقتصروا على اللاتينيين بل أيضاً على القادمين من جنوب آسيا، لهذا وللمرة الأولى منذ طرد الهنود، لم يعد مجتمع الجنوب مقسماً تقسيماً بسيطاً وفق خط الانقسام بين السود والبيض.

لكن نظرة إلى الخريطة السياسية، الدينية والأيديولوجية للجنوب الأبيض تكشف عن مجتمع لم يتغير بالقدر الذي توحي به أرقام التغير الاقتصادي. وبالرغم من الزيادة الكبيرة في الأقليات اللاتينية والآسيوية، إلا أنه في عام 2000 وجد استطلاع ساوثرن فوكس أن 65 بالمئة من الجنوبيين أعلنوا أنهم بروتستانت، وأكثر من نصف سكان ميسيسبي وآلاباما وجورجيا يتبعون طائفة واحدة هي المعمدانية الجنوبية. كما أن ستة من كل عشرة جنوبيين كانوا ما زالوا يقولون إنهم يفضلون الصيغة التي وردت في التوراة عن خلق البشرية على صيغة نظرية النشوء والتطور (بالطبع يشمل هذا الرقم الجنوبيين السود)[93].

وواصل الإقليم انتخاب مجموعة من السياسيين اللافتين للنظر لشدة كونهم من الطائفة المحافظة والمتدينة والقومية. لقد تقاعد الممثلون القدامى لهذه الثقافة مثل ستورم ثورموند وجيسي هيلمز، لكي تتبع خطاهم شخصيات شابة مثل توم ديلاي ونيوت غينغرش وترنت لوت وجيمس أنهوف وديك آرمي الذين يديمون تقاليدهم. إنهم بالتأكيد كما وصفهم أحد المراقبين «الديناصورات الحية». إنهم ليسوا بقايا متلاشية لتقاليد ماتت ولقضية خاسرة.

قد يكون أحد جوانب أسباب هذه الديمومة أن الجنوب صار أكثر تجانساً خلال القرن الماضي. قبل الحرب الأهلية، كان السود

---

(93) ذكر في: Thomas A. Tweed, «Our Lady of Guadeloupe Visits the Confederate Memorial,» *Southern Cultures*, vol. 8, no. 2 (Summer 2002).

هم الأغلبية في ولايتين جنوبيتين (كارولينا الجنوبية ولويزيانا) وقريباً من الأغلبية في ولايتين (آلاباما والميسيسيبي). بحلول الستينات بدأت هجرة السود إلى الشمال، إذ جذبهم العمل شمالاً ودفعهم قمع الجنوبيين البيض ومضايقاتهم، لهذا تقلصت هذه الأرقام بشكل كبير، وهو تغيير يساهم في تفسير سبب كون إنجاز الحقوق المدنية للسود بضغط فدرالي، ومعارضته الشرسة من قبل العديد من البيض، لم يؤد إلى انفجار على نمط البلقان من عنف جماعي أبيض كثيراً ما حذر منه العنصريون الجنوبيون والمحافظون. بحسب إحصاء عام 1880 كان السود يشكلون 41 بالمئة من سكان الجنوب القديم. بحلول الستينات من القرن العشرين هبط العدد إلى أقل من نصف هذه النسبة[94].

على مدى قرن ونصف أدت الرغبة في المحافظة على العبودية في البداية، ثم الفصل التام للسود وعزلهم وإخضاعهم، إلى المساهمة بشكل كبير في إغلاق العقل الجنوبي، وكانت لهذا الأمر نتائجه على أمريكا ككل، والتي لا تزال مستمرة إلى يومنا هذا. قبل الحرب الأهلية وفي أواسط القرن العشرين أيضاً، كان النظام الاجتماعي في الجنوب «في جانب الدفاع ضد أغلبية العالم الغربي. ورأى بيض الجنوب «عدواناً خارجياً» ضد الجنوب في كل مكان»[95]. نتائج هذه التجربة

---

(94) لبعض جوانب الاضطهاد المنتظم والإجرامي والاستغلال الذي شكل خلفية هذه الهجرة، انظر: John M. Barry, *Rising Tide: The Great Mississippi Flood of 1927 and How It Changed America* (New York: Simon and Schuster, 1997), esp. pp. 308-335.

بالنسبة لأرقام إحصاء 1880، انظر الموقع: http://fisher.lib.virginia.edu/census/

(95) Morison, Commager and Leuchtenburg, *The Growth of the American Republic*, vol. 1, p. 482; Myrdal, *An American Dilemma; the Negro Problem and Modern Democracy*, p. 1012, and Simkins and Roland, *A History of the South*, pp. 161 ff.

الطويلة من الدفاع المرير لا تزال مستمرة حتى اليوم.

أعطى التضامن العنصري للفقراء البيض كبرياء الانتماء للعرق الأسمى، العرق الحاكم، وساعد في إزاحة النفور من أصحاب المزارع الكبرى الأغنياء. وصل الإحساس بالدفاع عن النفس ثقافياً، عرقياً، سياسياً واقتصادياً إلى نقطة خلال عام 1850 صار فيها الجنوب رائداً في العالم المعاصر في الإحراق العلني والجماعي «للكتب الخطرة»، وفي هذه الحال، فإنها كانت تلك الكتب التي تهاجم العبودية قادمة من الشمال. «بدلاً من الحماسة القديمة للأفكار الجديدة القدرة على التواصل والانفتاح، تحوّل الجنوب إلى الشك ورفض الضيافة تجاه كل ما هو جديد وأجنبي، وزاد لديه الميل للانسحاب مما شعر أنه عالم ناقد له»[96].

هزيمة الجنوب والمصالحة

إن الدفاع عن العبودية وتأثير ذلك في الثقافة مضافاً إلى سمات أخرى خاصة بالثقافة الجنوبية سبق ذكرها، قاد الجنوب إلى محاولة الاستقلال بدولته الخاصة عام 1861، ومن ثم إلى هزيمة ساحقة. الخسائر التي لحقت بالجنوب في الحرب الأهلية يمكن مقارنتها بخسائر الأمم الأوروبية خلال الحروب الكبرى للقرن العشرين. قتل في العمليات الحربية حوالى 260,000 جندي جنوبي ـ أي أكثر من خمس مجموع السكان الذكور البيض ـ أو ماتوا بالأوبئة. (بالمقابل مات 350,000 جندي من الاتحاد، لكن على مجموع أكبر من السكان.)

ومات أيضاً مئات الآلاف من المدنيين، البيض والسود، بأمراض سوء التغذية. العديد من أوسع مدن الجنوب دمرت، مع

(96) Woodward, *The Burden of Southern History*, pp. 201-202, and Cash, *The Mind of the South*, pp. 134-135.

عدد أكبر من المدن الصغرى، وأدت استراتيجية شيرمان، شيريدان وبقية القادة الشماليين إلى تجريف مساحات شاسعة من الريف عمداً. وانخفضت القيمة الحقيقية للملكيات بنسبة 33 بالمئة، وانخفض عدد الخيل بنسبة 29 بالمئة، وعدد الخنازير بنسبة 35 بالمئة. لم يستعد إنتاج القطن في الجنوب مستويات ما قبل الحرب إلا في عام 1879، أي بعد مرور أربعة عشر عاماً على انتهاء الحرب[(97)]. فضلاً عن ذلك ـ وكما في العديد من المستعمرات الجديدة في العالم ذات الاقتصاد الأحادي ـ كان اقتصاد الجنوب كله يعاني من الكساد بسبب هبوط أسعار القطن الذي استمر عقوداً عدة، مثلما عانى اقتصاد السهول الكبرى من هبوط أسعار القمح.

مضى أكثر من قرن قبل أن تستطيع بعض أجزاء الجنوب اللحاق ببقية أجزاء أمريكا، سواء من حيث الدخل والتنمية أم من حيث الوصول إلى القوة السياسية العليا. لكن مناطق شاسعة لم تنجح حتى ذلك الحين، إذ بقي على الكثير من المناطق الريفية والمدن الصغرى انتظار المشاركة في الحداثة البراقة لأتلانتا وهنتسفيل. لمدة قرن ظل الجنوب ضعيفاً، في واقعه وفي نظر سكانه، في موقع يشبه موقع المستعمرات في الاعتماد على الشمال والساحل الشرقي؛ ويرمز إلى ذلك أسعار الشحن على خطوط سكك الحديد التي ميّزت ضد الجنوب لصالح الشمال الشرقي وهو ظلم ماحق لم يصحح لغاية الحرب العالمية الثانية[(98)].

فضلاً عن ذلك، فإن فترة إعادة الإعمار الشاملة تحت الحكم

---

(97) Morison, Commager and Leuchtenburg, Ibid., pp. 726-729; Simkins and Roland, Ibid., pp. 241-245, and Eric Foner, *Reconstruction: America's Unfinished Revolution, 1863-1877* (New York: Harper and Row, 1988), pp. 124-129.

(98) Simkins and Roland, Ibid., p. 558.

العسكري في الجنوب، والتي ترافقت مع إعطاء السود حق التصويت وشغلهم لمناصب سياسية، سببت صدمة رهيبة لبيض الجنوب. هكذا فإن «الأسطورة المأساوية لإعادة الإعمار» التي ركزت على جرائم السود، والفساد و«الطغيان»، قد بولغ بها كثيراً وزُوقّت ضمن الدعاية الجنوبية (أشهر أعمالها رواية توماس ديكسن رجل القبيلة *The Clansman*)، وفيلم «مولد أمة» (Birth of a Nation)، المأخوذ عنها). غير أنه كان لها أساس صلب، إن لم يكن في السلوك الواقعي للسود، ولكن بالتأكيد في المخاوف الواقعية لبيض الجنوب[99].

أعيدت السيطرة الكاملة للبيض عام 1870 بمساعدة حملة إرهابية قامت بها منظمة كوكلوكس كلان، وُجهت ضد مؤيدي الإدارات الجمهورية في الجنوب، سوداً وبيضاً على حد سواء. في ما بعد، كان ثمة تصميم على إزالة أي احتمال لقيام حتى قوة سياسية محدودة للسود ما قاد رسمياً إلى تأسيس قوانين «جيم كرو» (Jim Crow) للتمييز العنصري التي حكمت المنطقة حتى أواسط الستينات. بشكل غير رسمي، دعمت هذه القوانين بتطبيق سياسة القتل من دون محاكمة للسود، وهي السياسة التي كان الجنوب قبل الحرب يطبقها في أغلب الأحيان للسيطرة على المجرمين البيض (لكون العبيد ملكية خاصة ذات قيمة ويعاقبهم مالكوهم)[100].

---

(99) انظر: Foner, *Reconstruction: America's Unfinished Revolution, 1863-1877*.

للتعبير عن وجهة نظر الجنوب، انظر: Claude Gernade Bowers, *The Tragic Era; the Revolution after Lincoln* (New York: Blue Ribbon Books, 1929), esp. pp. 45-64, 198-220 and 348-371.

وحول خلق الأسطورة، انظر: Kenneth M. Stampp, *The Era of Reconstruction, 1865-1877* (New York: Knopf, 1965), esp. pp. 3-23.

(100) Comer Vann Woodward, *The Strange Career of Jim Crow*, with a New Afterword by William S. McFeely, Commemorative ed. (Oxford; New York: Oxford University Press, 2002), pp. 31-109

مثل كل الاراضي المستعمرة، وبشعور بالاستغلال الاقتصادي، حل النفور المرير من الهيمنة الثقافية والإهانات التي تركزت بشكل كبير، ولكن ليس حصراً، على نقد السجل العنصري للجنوب وعاداته. لا يزال هذا النفور قائماً، بالرغم من أنه لا يتعلق بالعرق، بل على السخرية من الجنوب عموماً، من ليبراليي الساحل الشرقي وكاليفورنيا ومثقفيها وصانعي الأفلام. ظهرت هذه السخرية على الدوام ـ مع اختلاف مستوياتها ـ منذ عام 1830، وتصاعدت حدتها خلال الستينات.

قبل قرن منها، وخلال التحضير للحرب الأهلية، أطلق أحد مؤيدي إبراهام لينكولن على الجنوب وصف «الجزء الأكثر فقراً وحقارة والأقل إنتاجية، والأكثر بؤساً في الخليقة، بالتالي يجب مضايقته على الدوام وتوبيخه ولومه ولعنه»[101]. الكاتب الساخر العظيم أتش. ل. منكن كان يستمتع كثيراً بمهاجمة همجية الجنوب وجهله وحماقته، ولقيت الأصولية الدينية ضرباته الأكثر حدة. وحتى حين تكون مسوغةً، إلا أن مثل هذه السلوكيات نادراً ما تخلف مشاعر طيبة.

خلال حملته للرئاسة عام 1968، صرح جورج والاس: «وصفنا كلا الحزبين بنقاري الخشب وذوي الأعناق الحمر ولمدة طويلة... وسوف نريهم أننا نرفض أن نكون ممسحة تحت أقدامهم». وقال إن هذه الأحزاب تمثل «مصالح المال الشرقية التي فعلت كل ما في وسعها لإبقاء شعب أقليمنا من البلاد مسحوقين في التراب للسنوات المائة الماضية»[102]. الهجوم العلني على الديمقراطيين المعاصرين من

---

(101) ذكر في: Paul Robinson, «Sword of Honor,» *Spectator* (26 July 2003).

(102) ذكر في: Black and Black, *The Vital South: How Presidents are Elected*, p. 165.

قبل السناتور زيل ميللر من جورجيا كان حافزه جزئياً ما رأى أنه سخرية نخبة اليانكي من الثقافة الجنوبية:

يشعر القادة الديمقراطيون بالتوتر مثل قطة طويلة الذيل حول كرسي هزاز حين يسافرون في الجنوب أو يخرجون إلى المناطق الريفية في أمريكا. ليست لديهم أي فكرة لما يجب قوله أو فعله. مرة رأيت أحدهم يحاول أكل روبيان مسلوق من دون تقشيره. وتقيأ آخر بسبب ملوحة لحم الخنزير الريفي المملح... نحن مثل عم مدمن على الكحول تحاول العائلة إخفاءه في غرفة على السطح: بعد انتهاء الانتخابات الأولية واقتراب الانتخابات العامة، يهرول الديمقراطيون نحو الجنوب للتباهي علينا ـ عن بعد ـ كما لو كانوا يريدون القول، «هل ترون كم نحن متسامحون، وكم نهتم لشؤونكم؟ حتى أننا نسمح لمثل هذا الشخص أن يحضر حفلتنا في الخيمة الكبيرة. ما زلنا نحب هذا العم العجوز الفاسد وغريب الأطوار». وما أن تنتهي الانتخابات، حتى يُطرد الفتى العجوز إلى غرفة السطح ويتجاهلون أمره لسنتين قادمتين»[103].

في تروي يشتكي المعارف بمرارة من أن كل شخوص الجنوب في أفلام هوليود هي تنويعات على مجموعة صغيرة من الصور العدوانية النمطية: قائد شرطة سادي، «كراكر (Cracker)» متوحد ساكن المستنقعات، واعظ متعصب و/أو منافق، قائد سياسي فاسد، أو ـ في أفضل الحالات ـ سيدة أرستقراطية غريبة الأطوار حمقاء، قليلة العقل في مزرعتها القوطية المتهالكة (بالطبع بعض الممثلين جعلوا تمثيل أدوار الجنوبيين مهنةً لهم من خلال أداء أدوار «النفايات

(103) Zell Miller, «How Democrats lost the South,» *Washington Times*, 3/11/2003.

البيض» (White Trash)، وكثيراً ما يروجون لثقافتهم وأساليبهم، وبالذات روبرت ميتشم وبيرت رينولدز[104].

كان الفيلم الأحدث هو للأخوة كوين بعنوان «أين أنت يا أخي» (O Brother Where Art Thou?)، وبالرغم من الإطراء الذي ناله عن الموسيقى الجنوبية، لكن الجنوبيين انتقدوه لاستغلاله المجموعة القديمة من الشخصيات النمطية السطحية. من حق القارئ غير المتسامح أن يرى ثمة عدالة شعرية في مشاركة الجنوبيين البيض بعض التجربة الثقافية مع السود والهنود الأمريكان على يد هوليود[105].

كما سبقت الإشارة، فإن هذه التجربة الجماعية في الهزيمة الشاملة والإهانة ليست معتادة في تاريخ الأمريكان البيض الذي يتسم بالنجاحات الوطنية المتواصلة. وبحسب قول ريشارد ويفر «الجنوب هو المنطقة [الأمريكية] حيث حدث التاريخ». وتظهر الفرادة أيضاً في ذلك الإحساس بالذنب تجاه الجرائم الجماعية المتمثلة بالعبودية والعنصرية والذي يعيشه الليبراليون الجنوبيون، ومن بين هؤلاء وليام فولكنر الذي كان فخره بتقاليد المنطقة عاملاً جوهرياً في هويته وثقافته. ويمكن مقارنة القلق النفسي والثقافي الذي نتج عن ذلك بموقف النبلاء الروس الوطنيين والإنسانيين في القرن التاسع عشر[106]. وفي هذه الحال، ساهمت هذه التناقضات العميقة والمثيرة للسخرية إلى حدٍ كبير

---

(104) Diane Roberts, «Reynolds Rap,» *Oxford American* (Winter 2002), pp. 142-145.

(105) إبان كتابتي هذا، ظهرت حلقة أخرى من «Texas Chainsaw Massacre» وهو سلسلة الأفلام التقليدية، وفيه يظهر واحد من ذوي الأعناق الحمر من سكان المدن الصغيرة وهو مخبول ومنحط، يهاجم الطلبة المسافرين. وهو فيلم من مجموعة تمثل أدنى طيف أفلام هوليود للرعب الجنوبي، من أمثال «Deliverance» و«Easy Rider»

(106) حول كبت مشاعر الدينية بالذنب بشأن شرور العبودية، انظر: Eugene D. Genovese, *A Consuming Fire: The Fall of the Confederacy in the Mind of the White* =

في ثراء التقاليد الأدبية الجنوبية بعد الحرب الأهلية[107].

ما أن أزيح التهديد الجنوبي للولايات المتحدة، حتى صار أغلبية الأمريكان على استعداد لتجاوز سجل البيض الجنوبيين بشأن الأعراق، ولم يعد العداء في نهج باقي أمريكا نحو الجنوب القديم بالحدة التي يوحي بها الجنوبيون الشعبية الواسعة في الشمال لرومانسية حياة المزارع التي صورها فيلم «ذهب مع الريح» (Gone With the Wind)، هو نموذج لذلك. وجزءاً من الجهد لتدعيم أمريكا بوصفها ديمقراطية تفوّق البيض، اندمج الشماليون بالجنوبيين في استنكار مرحلة إعادة الإعمار الراديكالية على أنها خطأ مأساوي وفي إعلان أن السود ليسوا مؤهلين للعمل الحكومي[108].

سرعان ما اندمج القتال العسكري المجيد للجنوبيين ضد القوة الساحقة في الأسطورة العسكرية للولايات المتحدة كلها: وهي عملية ترمز لها الاجتماعات المشتركة بين المحاربين القدماء للطرفين، والتجنيد الجماعي للجنوبيين لخوض حرب عام 1898، وفي ما بعد في التقاليد الأدبية وأفلام هوليوود والتلفزيون التي صورت الحرب الأهلية ولا تزال مستمرة بهذا الاتجاه حتى اليوم[109].

Christian South, Mercer University Lamar Memorial Lectures; no. 41 (Athens: = University of Georgia Press, 1998).

وحول بدايات عدم الارتياح بشأن المسألة العرقية في أدب ما بعد الحرب الأهلية في الجنوب، انظر: Edmund Wilson, *Patriotic Gore: Studies in the Literature of the American Civil War* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 1977), pp. 584-604.

(107) Woodward, *The Burden of Southern History*, pp. 187 ff.

(108) FitzGerald, *America Revised: What History Textbooks Have Taught Our Children about Their Country, and How and Why those Textbooks Have Changed in Different Decades*, pp. 83-89.

(109) Eric Foner, *Who Owns History?: Rethinking the Past in a Changing World* (New York: Hill and Wang; Farrar, Straus and Giroux, 2002), pp. 189-204.

كان الجنوب الأبيض سعيداً بالمشاركة في هذا الجهد. إذ هجر حلم الاستقلال، واستجاب الجنوب لهيمنة اليانكي لكنه سعى للتفوق على اليانكي في القومية الأمريكية وبخاصة في التفوق على وهن اليانكي وقلة شجاعته في إرادة القتال من أجل أمريكا. ارتبط ذلك مع القومية المولعة بالقتال ما أعاد إلى الحياة نمط ما قبل الحرب الأهلية حين كان الجنوبيون هم أكثر المؤيدين حماسة للتوسع الإمبريالي الأمريكي.

في الوقت نفسه، بدأ أمريكيون أخرون بالاحتفاء بالجنوب وتحديداً بسبب هزيمته: وذلك نوعاً من العلامة الدالة على الشرف والتقاليد لاولئك الذين، وبطرق مختلفة عديدة، شعروا بالغربة، أو بالهزيمة أمام القيم المهيمنة للبرجوازية الأمريكية. عبر هنري آدامز عن هذا الميل لهارلي ديفيدسن وزينه برومانسية القضية الخاسرة.

في أحد طرفي الطيف شمل ذلك اليانكي وغيرهم من الذين كان رد فعلهم على الجشع والفساد والسوقية والمادية والرضا عن النفس في «عصر المظاهر الخادعة» الذي تلا الحرب الأهلية واستمروا على موقفهم ضد هذه السمات في الحياة الأمريكية لحد يومنا هذا. خلال هذه العملية، أعاد البعض اكتشاف نقد المحافظين والأرستقراطيين للرأسمالية التي تم تطويره بوصفه جزءاً من دفاع الجنوب الفكري والثقافي على يد كتاب مثل جورج فيتزهو قبل الحرب الأهلية وواصله كتاب الجنوب مثل آلن تيت في أواسط القرن العشرين وإلى حد ما على يد يوجين جينوفيز وغيره في أيامنا هذه[110].

---

(110) انظر: Comer Vann Woodward, «A Southern Critique for the Gilded = Age,» in: Woodward, *The Burden of Southern History*, pp. 109-140.

في الجانب المقابل من الطيف الاجتماعي والفكري، وكما لاحظ جون شلتون ريد، فإن الرموز الكونفدرالية، بالنسبة للعديد من الجنوبيين والولايات الموحدة الأخرى، جاءت لتمثّل نوعاً من صيغة موقف «لا تطأ عليّ»: «في وقت ما من أواسط القرن الماضي [أي القرن العشرين] اتخذ العلم الذي رفعه الجنوب في القتال معنىً آخر: كان ذلك في الجنوب على وجه الخصوص، ولكنه لم يقتصر عليه، بل بدأ يرسل إشارات لتحد أعم موجه ضد السلطة، ولدرجة ما ضد ما يعد جديراً بالاحترام. قد لا يهم من استخدمه بهذه الطريقة أمر السود أو اليانكي، لكن هذه المجموعات يكون على قائمة أهدافها مديرو المدارس الثانوية... وكما قالت إحدى الفتيات، «حين أرى علم الجنوب، أفكر بسيارة نقل، يعلوها مسند بنادق وعلى مخفف الصدمات رقعة كتب عليها، «أنا لا أضغط على الكابح من أجل الحيوانات الصغيرة»[111].

إن تبنّي رمزية علم الجنوب من قبل أفراد من الطبقة العاملة البيضاء الشمالية يشعرون بالغربة (من بينهم العديد من الأيرلنديين والبولونيين، وغيرهم من خارج الأعراق البيضاء الصميمية) يعكس ثلاثة عوامل في تقاليد الجنوب. الأول بالطبع هو التفوق العنصري للبيض. لكن العناصر الأخرى أكثر جاذبية. أحدها هو صيغة «الفتى

= وحول الطروحات الكلاسيكية عن المزارعين الجنوبيين المحافظين، انظر المقالات في: Twelve Southerners, *I'll Take My Stand; the South and the Agrarian Tradition* (New York; London: Harper and brothers, 1930).

(111) John Shelton Reed, «The Banner That Won't Stay Furled,» *Southern Cultures*, vol. 8, no. 1 (Spring 2002).

وحول منظور أسود لمسألة العلم، انظر: Franklin Forts, «Living with Confederate Symbols,» *Southern Cultures*, vol. 8, no. 1 (Spring 2002).

الطيب (Good Ole Boy)» أو الجنوبي التقليدي من ذوي الأعناق الحمر التي جرى وصفها سابقاً، مثال ذلك المسلسل التلفزيوني الشهير «The Dukes of Hazzard» (1979 ـ 1985). إنه تقليد له جاذبية متأصلة عظيمة لكل المتمردين في كل مكان، ويزيد من كبريائه شعار «المتمرد» الجنوبي، كما في اختيار اسم «صرخة المتمرد» على ويسكي بوربون.

إن ثقافة «ذوي الأعناق الحمر» المرتبطة في الأصل بثقافة الاسكتلنديين ـ الأيرلنديين الأقل احتراماً، هي أكثر ارتباطاً بالموسيقى الريفية، وصيد السمك وشرب الجعة من ارتباطها بالديانة الإنجيلية، أو في الأقل بالتعود على الذهاب إلى الكنيسة. ربما ليس هذا بالأمر نفسه بالضرورة، كما تشير سيرة العديد من مغني الريف الذين مزجوا بين المشاعر الدينية العميقة مع الاندفاع المجنون للتظاهر[112].

جانب آخر من ثقافة الجنوب التي انتشرت بين الطبقات العاملة الأمريكية الأوسع نطاقاً وغذت القومية الأمريكية، هو صورة صمود جنود الجنوب وشجاعتهم وبطولتهم في الحرب الأهلية[113]. إنها صورة ذات قوة عاطفية عظيمة للعديد من البيض الأمريكان الذين يشعرون بالهزيمة أمام الظروف الاقتصادية وغيرها من القوى الخارجة

---

(112) إحدى أفضل الصور المختصرة عن ثقافة ذوي الأعناق الحمر كتبها، انظر: Vidiadhar Surajprasad Naipaul, *A Turn in the South* (London: Viking; New York: Knopf, 1989), esp. pp. 204-214.

وثمة صورة حساسة أخرى عن روحية الموسيقى الريفية، انظر: المصدر المذكور، ص 223-233. وعن أصول أدب ذوي الأعناق الحمر، انظر: George Washington Harris, *Sut Lovingood*, and Wilson, *Patriotic Gore: Studies in the Literature of the American Civil War*, pp. 507-519.

(113) حول استمرارية هيبة الجندي الجنوبي حتى في نظر الجنوبي الذي يوجه نقداً مريراً لأغلب جوانب تقاليده، انظر: Cash, *The Mind of the South*, pp. 44 and 428.

عن سيطرتهم وبإقصائهم عن الثروة والقوة والنفوذ والحياة الرغدة. وبالطبع فإن من يشعر بالهزيمة، يصبح قومياً بغريزته وثقافته وتقاليده. وهم حين شعروا بتخلي حكامهم وقادتهم عنهم خلال حرب فييتنام وبعدها، صاروا يستمعون إلى الأغاني عن وطنية الطبقة العاملة التي تعرضت للخيانة التي كتبها بروس سبرينغشتين أو جوني كاش، وليس إلى قصائد الاحتجاج التي كتبها دون مكلين أو بوب ديلان. مثل هؤلاء الناس يحتاجون إلى رمز يكون متمرداً لكنه يحافظ على ارتباطه بالتقاليد القومية الأمريكية وبخاصة تقاليدها العسكرية.

بالرغم من أن الأغلبية العظمى من معارفي في تروي كانوا من أصول اتحادية يفخرون بها، إلا أنهم تحولوا خلال السبعينات تحولاً كبيراً نحو تلك الهوية الأوسع وما يلحقها من مشاعر. ما زالوا يحملون بعض تعصب الجنوب القديم ضد اليانكي بشكل عام، لكن هذا أصبح نوعاً من المزاح، مع احتفاظه بنكهة مريرة[114]. أما نفورهم الأكثر حدة وحيوية فقد صار أكثر تعبيراً عن ذلك النفور البادي الجواني نحو «نخبة الساحل الشرقي»، والمفكرين الليبراليين غير الوطنيين عموماً، «ولايات الفواكه والبندق» وهي كاليفورنيا وفلوريدا (الجنوبية)، حيث تمثل نمط حياة المثليي الجنس والهيبيين، ومدينة نيويورك، التي يعبرون عن أملهم في أنها سترمى إلى البحر وتغرق. هذا البعد الثقافي والديني والعرقي والاقتصادي والتاريخي والجغرافي كان يعني أنهم لا يرون سكان نيويورك مواطنين مثلهم إلا في حدود ضيقة.

بسبب أزمة الرهائن في إيران، كان الناس في تروي في مزاج

---

(114) انظر مثلاً: Reed, *One South: An Ethnic Approach to Regional Culture*, pp. 166-167.

قومي أشد حدة، وانضم «الإيرانيون» إلى صالة عرض الشخصيات الأكثر مكروهية. لكن ما ثبتت خطورته خلال الارتباك الذي تلا أحداث 11 أيلول/ سبتمبر هو الخلط بين «الإيرانيين» و«العرب».

الإرادة العامة

تملك الولايات المتحدة عناصر قوية من أطروحة مضادة لما هو شائع ومقبول من «عقيدتها». وتظهر هذه الأطروحة المضادة بالتأكيد على أنها تناسب ما سماه يوجين فيبر «Three R» الأحرف الثلاثة للقومية المتطرفة: «رد الفعل ضد توجهات الحاضر (Reaction Against the Tendencies of the Present)»، «مقاومة التغيير (Resistance to Change)»، و«الراديكالية (Radicalism)». والتي تعني في ذهنه التغيير الراديكالي[115].

بالمقارنة مع الراديكالية المحافظة والقومية في بقية أنحاء العالم، ثمة عامل مهم جداً وواسع الانتشار كان غائباً في الولايات المتحدة: الحافز لإقامة دكتاتورية استبدادية، وهو السمة السائدة في أغلبية الحركات الراديكالية القومية والراديكالية المحافظة. ثمة اختلاف كبير في الاستبداد الذي مارسته الحركات المختلفة في أزمنة مختلفة، فقد أخذت شكل أنظمة الملكية الاستبدادية التقليدية، والزمر العسكرية، ومبدأ الفاشية أو القيادة الساحرة للجماهير لمجموعات من القوميين الراديكاليين الشباب على طريقة غاريبالدي (التي غذت في ما بعد الفاشية الإيطالية). في أغلب البلدان بدا حافز الاستبداد ومبدأ القيادة متلازماً مع هذا الصنف من الميول القومية. ولم يكن هذا غائباً

(115) Rogger and Weber, eds., *The European Right a Historical Profile*, pp. 15-16.

بالكامل في الولايات المتحدة، إن تذكرنا عدد المحاولات الناجحة (وغير الناجحة) لجنرالات أمريكان انتخبوا لمناصب رفيعة أو لقوا التشجيع لكي يصبوا إليها[116].

لكن في الولايات المتحدة، يتم احتواء مثل هذا التهديد في النهاية من خلال مؤسسة الديمقراطية الأمريكية الدستورية، وليس بفضل المؤسسات ذاتها فقط، بل من خلال قوة واتساق الثقافة الديمقراطية القومية السياسية والأيديولوجية التي تدعم هذه المؤسسات. ومع أنها في نهاياتها القصوى إلا أن قوى الأطروحة المضادة الأمريكية تظلل اتجاهات فاشية مجنونة مثل تلك التي كانت وراء الإرهابي تيموثي ماكفي والكثير من حركات الميليشيات المختلفة الأخرى، ذلك أنها في أغلبيتها لا تعارض جانب الديمقراطية الرسمية من العقيدة الأمريكية، بل بالعكس هي تعتز وتفتخر بها وتعدها جوهر عظمة أمريكا.

شكل هذا الإجماع القومي وراء الديمقراطية مكوناً أساسياً لما يمكن تسميته آلية التصحيح الذاتي لأمريكا ولقدرة الدولة على اجتياز مراحل الهستيريا الجماعية والفزع الأخلاقي والتطرف القومي من دون السماح لأي منها أن تصبح سمة دائمة من المشهد القومي أو أن تتحول إلى مؤسسات دكتاتورية. على الأقل لحد الآن. وكما ستبلور الفصول اللاحقة فإن خليطاً من دولة الأمن القومي التي خلقتها الحرب الباردة والحرب على الإرهاب التي ليست لها نهاية منظورة قد تخلق بعض الاحتمالات المقلقة في المدى البعيد.

---

(116) مثلاً الهستيريا الخطيرة التي أحاطت بعودة الجنرال مكارثر من كوريا بعد أن طرده ترومان، انظر: Caro, *The Years of Lyndon Johnson*, vol. 3: *Master of the Senate*, pp. 367-382.

على مدى تاريخ أمريكا أخذت التوجهات نحو الاستبداد ما يمكن تسميته شكلاً جماعياً، يُعبر عنه ويُفكر به بصيغة الدفاع عن النظام الديمقراطي الليبرالي الأمريكي ـ ما يسميه سايمور ليبسيت فترات «نوبات الانفعال العقائدي (Creedal Passion)» ـ وليس ثورات ضدها. وكما قال لويس هارتز، فإن التزام أمريكا بالشكل الشمولي للقومية الليبرالية «لا يعني أن الإرادة العامة لأمريكا ستعيش حياةً سهلة على الدوام. لديها فترات عنف خاصة بها، من المؤكد أنها نادرة، لكنها عنيفة بما فيه الكفاية. تلك هي الفترات المعهودة لأمريكا من الذعر القومي والهستيريا القومية، إذ تبرز إلى السطح على حين غرة بعنف شديد حين تبدأ الحريات العامة بالانهيار، ويواجه فينيمور كوبر بالفعل خطر السجن نتيجة موجة روسوية»[117].

ما توحي به هذه الجملة هو أن ثمة جوانب جماعية لديمقراطية أمريكا تتشابه إلى حد بعيد مع وصف جان جاك روسو للدولة المثالية ولدور الإرادة العامة في حياة تلك الدولة: على كل مواطن فرد حين يتخذ قراره حول أي شأن عام أن يتساءل أي قرار سيكون منسجماً مع الإرادة العامة. في مفهوم روسو، تتأسس هذه الآلية على إجماع أخلاقي وأيديولوجي مشترك في المجتمع ويشكل بدوره ديناً مدنياً شاملاً للجميع. هذا الإجماع «ينقذ الحرية المثالية، وفي الوقت نفسه يحافظ على النظام» كما يحافظ على القدرة القومية لاتخاذ القرارات[118]. وكما لاحظ ج. ل. تالمون، فإن رؤية روسو تملك

(117) Hartz, *The Liberal Tradition in America; an Interpretation of American Political Thought Since the Revolution*, pp. 59 and 209.

(118) Jean-Jacques Rousseau, *The Social Contract*, Translated and Introduced by Maurice Cranston (London: Penguin, 1978), pp. 70-83, 149-151 and 176-187.

معنىً ضمنياً يؤشر نحو نوع من الاستبداد الجماعي، أو حتى الشمولي، بالرغم من أن هذه الرؤية كثيراً ما تعد مبالغاً بها(119).

إن صورة روسو للإرادة العامة ليست تقريرية فقط، لكنها إلى حد ما وصفية ـ لمجتمع يتسم بالتجانس العرقي والثقافي والديني هو موطنه: المدينة ـ الدولة السويسرية جنيف (وهي نظرة قد لا تروق لروسو نفسه، بخاصة بعدما أحرقت جنيف كتبه بتهمة عدم أخلاقيتها). يمكن رؤية فكرة الإرادة العامة كما شكلها روسو على أنها محاولة توسيع جو القوة المثيرة للإعجاب، وفي الوقت نفسه الخانق والقمعي، لمدينة صغيرة أحادية الثقافة لتشمل حياة الأمة بأسرها. ولكن وكما حصل بالفعل في جنيف ـ وفي غيرها من المجتمعات المغلقة المتماثلة حيث تجري المحافظة على الانسجام ليس عن طريق القمع من الأعلى بل من خلال المجتمع نفسه ـ فإن شكلاً من أشكال الإرادة العامة ظهر بشكل طبيعي من تاريخ المجتمع.

بالنسبة للعديد من الأمريكان القوميين الشعبويين، فإن الإرادة العامة و«القومية الليبرالية» لم تكن أبداً مجرد التزام مطلق بالمؤسسات الديمقراطية الليبرالية. بل إنها شملت أيضاً اقتناعاً مفاده: أن يكون المرء أمريكياً يعني التزامه بجماعة قومية ثقافية محددة من خلال قيمه، وفي الماضي كان ذلك يحدده عرقه وعنصره وديانته. وكان

---

(119) Jacob Leib Talmon, *The Origins of Totalitarian Democracy*, Praeger University Series; U-518. Books that Matter (New York: Praeger, 1960), pp. 40-49,

بشأن المناقشات حول الموضوع، انظر: *Totalitarian Democracy and After* (Conference), Edited by Jacob Leib Talmon, Cass Series–Totalitarian Movements and Political Religions; 1477-058X (Portland, OR; New York: Frank Cass, 2002).

الأمر هكذا منذ البداية. مهما كان موقف المرء من برنامج قائد التحالف المسيحي رالف ريد، لكن حين يكتب، «إن مركزية الإيمان من أجل المحافظة على المؤسسات الديمقراطية كانت في يوم ما أمراً بداهياً»، فإنه دقيق تماماً في الجانب التاريخي[120].

تفسر هذه التوليفة كيف يستطيع العديد من الأمريكان التوفيق بين وجود عناصر من الأطروحة الأمريكية ومن الأطروحة المضادة في وقت واحد في أنفسهم: وكما بيّن لويس هارتز، فإنه يمكنهم أن يكونوا مخلصين تماماً للعقيدة الأمريكية، وفق الأساس الذي وضعه جون لوك وطوره عصر التنوير، وأن يجمعوا أيضاً بين هذا الإيمان وشعور بالانتماء إلى جماعة ثقافية ودينية وقومية، من المؤكد أنها سابقة على عصر التنوير. إذ بعد كل شيء، إن صح أن التنوير ساهم بشكل حاسم في الثورة الأمريكية والمؤسسات القومية التي نتجت عنها، فإنه يصح كذلك وبالدرجة نفسها أن العديد من الأمريكان يشعرون ـ كما شعر أسلافهم البرلمانيون في إنجلترا خلال الحرب الأهلية قبل 130 عاماً ـ أنهم يحاربون من أجل الحريات القديمة لإنجلترا ضد تحديث الملك الاستبدادي. وفي الأقل تأسست بعض جوانب الثورة الأمريكية نفسها على «الخشية من التحديث»[121].

لدى الكثير من المنحدرين من هذا التقليد إحساس قوي، عززته في البداية السنوات الطويلة من الحرب العنصرية في أمريكا الشمالية، أن هذا المجتمع مهدد «بالآخرين» الغرباء والمتوحشين.

---

(120) Ralph Reed, «Separation of Church and State: «Christian Nation» and Other Heresies,» in: Conrad Cherry, ed., *God's New Israel: Religious Interpretations of American Destiny*, Rev. and Updated ed. (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1998), pp. 373-379.

(121) Robert Kelley, *The Cultural Pattern in American Politics: The First Century* ([New York: Knopf, 1979]), pp. 39 ff.

كما أن لديهم إحساس أنهم يشكلون، بطريقة ما، الشعب الأمريكي الأصيل، أو الشعب؛ العمود الفقري للأمة الأمريكية، ولديهم ما يسميه القوميون الألمان «الوعي الصحي بالشعب (*Gesundes Volksinn*)»، فهم يعتنقون الأصناف القومية الصحيحة من الدين، التصرف الاجتماعي والوطنية. بمرور الأيام توصلوا إلى تقبل جماعات من أعراق مختلفة، وحتى من عناصر مختلفة، بوصفهم جزءاً من المجتمع الأمريكي، شرط التزامهم بالمعايير الأمريكية، وأن يصبحوا «جزءاً من الفريق»[122].

بالرغم من تكريس هذه الثقافة نفسها للحرية، إلا أنها لا تكرس نفسها «للحرية السلبية» كما عرفها إيزاك برلين كلاسيكياً، بل لنمط من الحرية الإيجابية. في البداية، تنحصر الحرية بأفراد مجتمعهم الأخلاقي والثقافي (وسابقاً) العنصري والعرقي: كان الشعار القديم هو: «حر، أبيض وتجاوز الحادية والعشرين». لقد اختفت الصفة العنصرية، لكن الإحساس بأن هذا النمط من الحرية يمكن ممارسته فقط بطرق معينة ومن طرف صنف معين من الناس هو إحساس لا يزال قوياً جداً[123]. وكما جاء في كلمات أغنية ميرل هاغارد «أوكي من مسكوجي» (Okie from Muskogee) يؤمن مناصرو هذه الثقافة ليس فقط بأن «تكون حراً» لكن أيضاً بأن «تعيش بشكل صحيح».

---

(122) Walter Russell Meade, «The Jacksonian Tradition,» *National Interest*, no. 58 (Winter 1999 - 2000); Mead, *Special Providence: American Foreign Policy and How it Changed the World*, chap. 7 and passim; Lind, *Made in Texas: George W. Bush and the Southern Takeover of American Politics*, and Lee Harris, *Civilization and Its Enemies: The Next Stage of History* (New York: Free Press, 2004), pp. 115-135.

(123) Eric Foner, *The Story of American Freedom* (New York: W.W. Norton, 1998), pp. 307-332.

وربما أمكن القول إنهم يؤمنون «بأن يكون المرء حراً فقط لكي يعيش بشكل صحيح»[124].

ثانياً، ونتيجةً لذلك، تطوق الحرية بالثقافة المجتمعية. أنها نوع من «الحرية الإيجابية»، حرية كما وصفها إيمانويل كانط «أطع القوانين التي وضعتها بنفسك». ويمكن تطويق حرية الغرباء الذين لا يشتركون في هذه الثقافة أو المنحرفين عنها، بصورة شرعية من خلال وسائل استبدادية أو حتى وحشية، ما دام الهدف هو الدفاع عن الجماعة وعكس إرادة الأفراد الموثوقين في الجماعة[125]. بيّن استطلاعٌ للرأي عام 1987 تدني مستوى رغبة رجال الدين من طائفة المعمدانية الجنوبية ساوذرن بابتست من ذوي المعتقدات الألفية في السماح للاشتراكيين ودعاة الحريات المدنية، و«الإنسانيين العلمانيين» بالتحدث في الأماكن العامة، أو الترشيح لمناصب عامة، أو التعليم في المدارس[126].

---

(124) تقول كلمات الأغنية: «We Don't Smoke Marijuana in Muskogee,
We Don't Take Our Trips on LSD
We Don't Burn Our Draft Cards Down on Main Street,
We Like Livin' Right, and Bein' Free.
I'm Proud to Be an Okie from Muskogee'
A Place Where Even Squares Can Have a Ball
We Still Have Old Glory Down at the Courthouse,
And White Lightnin's Still the Biggest Thrill of All».
انظر: Merle Haggard, «Okie from Muskogee».

(125) Myrdal, *An American Dilemma; the Negro Problem and Modern Democracy*, pp. 558-569.

(126) Helen Lee Turner and James L. Guth, «The Politics of Armageddon: Dispensationalism among Southern Baptist Ministers,» in: Ted G. Jelen, ed., *Religion and Political Behavior in the United States* (New York: Praeger, 1989), p. 203.

يحمل الوصف الذي قدّمه والتر رسل ريد معانٍ ضمنية عميقة عن القومية الأمريكية في الخارج كما في الداخل:

الموت لأعداء المجتمع! ذلك موروث من أزمنة الاستعمار، أكدته تجربة قرنين من الحياة الأمريكية، وهو واحد من أعمق الغرائز في العالم الجاكسوني.. الواقعية الجاكسونية بنيت على أساس التمييز الحاد جداً في المشاعر الشعبية بين من هو في داخل مجتمع الشعب، والعالم المظلم في خارجه. الوطنية الجاكسونية عاطفية، مثل حب المرء لعائلته، وليست عقيدة. الأمة هي امتداد للعائلة. أفراد الشعب الأمريكي يرتبطون معاً برباط التاريخ والثقافة، والأخلاق المشتركة. في المستوى الابتدائي ثمة شعور بالقرابة بين الأمريكان. لدينا مجموعة واحدة من القواعد للتعامل مع بعضنا البعض، وقواعد مختلفة تماماً نطبقها على العالم الخارجي[127].

تلك هي التقاليد التي أنتجت شخصيات مثل جون أشكروفت، الحاكم السابق لميسوري ووزير العدل في إدارة بوش. كان أشكروفت مسؤولاً عن وضع القوانين والوسائل التي وسعت إلى حد كبير من الصلاحيات المعطاة للفدراليين في المراقبة والاستجواب والاعتقال من دون محاكمة، وهي صلاحيات تبدو معادية للشرعية القانونية التي هي العنصر الجوهري للعقيدة الأمريكية في صورتها عن ذاتها، وهذه مثاليات يزعم أشكروفت أنه مؤمن بها بعمق.

وليس الإيمان بسيادة القانون من جانب شخصيات مثل أشكروفت من باب الرياء. لكن يمكن الحد منها في حالين ذات شروط خاصة: إذ يمكن تعليق القوانين المكتوبة من أجل الدفاع عن

---

(127) Mead, *Special Providence: American Foreign Policy and How it Changed the World*, pp. 236 and 245.

أمن المجتمع عند حدوث أزمة، وأن القانون يطبق بشكل محدود جداً على الغرباء، بخاصة في حالات من يشتبه في كونهم من الأعداء وأنهم تصرفوا بطريقة «بربرية».

النتيجة الأكثر مأساوية ورعباً لهذا الأسلوب المشتق من التاريخ كان ما حصل منذ 11 أيلول/ سبتمبر في مقاربة إدارة بوش لقضية تعذيب الأسرى الذين ألقي القبض عليهم خلال الحرب على الإرهاب، وفي رد فعل بعض أجزاء الشعب الأمريكي على ما حدث. في صيف عام 2004، وعلى وقع مفاجآت العثور على أدلة بشأن إساءة معاملة الأسرى العراقيين على يد محققي الولايات المتحدة وحراس سجن أبو غريب، بدأ كشف مذكرات سرية من محامي الإدارة تسمح بتعذيب السجناء. هذه المسألة أيضاً لخصّت بعضاً من التباين الحاصل بين قوى الأطروحة الأمريكية وقوى الأطروحة الأمريكية المضادة[128].

لقد بدا من جهة أولى أن أغلبية الأمريكيين، ومن المؤكد أغلبية

(128) حول الإساءات التي فضحها الصحفي، انظر: Seymour M. Hersh: «Torture at Abu Ghraib,» *New Yorker* (10 May 2004), and «The Gray Zone: How a Secret Pentagon Program Came to Abu Ghraib,» *New Yorker* (24 May 2004); Scott Wilson, «Ex-Detainee Tells of Anguishing Treatment at Iraqi Prison,» *Washington Post*, 6/5/2004; Scott Wilson and Sewell Chan, «As Insurgency Grew, so Did Prison Abuse,» *Washington Post*, 10/5/2004; Dana Priest and Joe Stephens, «Secret World of U.S. Interrogation: Long History of Tactics in Overseas Prisons Is Coming to Light,» *Washington Post*, 11/5/2004, and Ian Fischer: «Iraqi Recounts Hours of Abuse by U.S. Troops,» *New York Times*, 5/5/2004, and «Iraqi Tells of U. S. Abuse, from Ridicule to Rape Threat,» *New York Times*, 14/5/2004.

وحول مناقشة الإساءات وخلفيتها في طريقة تفكير إدارة بوش، انظر: Mark Danner: «Torture and Truth,» *New York Review of Books*, vol. 51, no. 10 (June 2004), and «The Logic of Torture,» *New York Review of Books*, vol. 51, no. 11 (June 2004).

وسائل الإعلام، كانت ليس فقط شديدة الغضب لما حدث، بل ومندهشة بحق وبعمق من أن يستطيع أفراد من قوات الولايات المتحدة ارتكاب مثل هذه الأفعال. قدمت وسائل الإعلام المهمة وقنوات التلفزيون تغطية شاملة لمناقشات مؤلمة عن تأثيرات الحرب الوحشية في الناس العاديين، المحترمين. بالطبع يمكن فهم الغضب الشديد الذي كان في محله. لكن الدهشة لوقوع مثل هذه التصرفات كانت هي المدهشة إلى حد ما بسبب سجل أفعال عسكريي الولايات المتحدة في فيتنام. من المؤكد أن ما حصل في أبو غريب لم يفاجئ المحاربين القدماء في فيتنام الذين تحدثت معهم في آلاباما[129].

لكن قسماً آخر من الأمريكان لم يفاجأ نهائياً لما حدث وهو بالتأكيد أيده. أظهر استطلاع للرأي في أيار/مايو 2004 أعدته **الواشنطن بوست** وقناة **أي. بي. سي. نيوز**، أن 34 بالمئة من المشاركين قالوا إن التعذيب مقبول في حال «المشتبه بتورطهم في الهجمات الحديثة ضد قوات الولايات المتحدة في العراق وأفغانستان»، في حين رفضه 64 بالمئة. حين سئلوا إن كانت الإساءة الجسدية مقبولة وإن كانت أقل مما يوصف بالتعذيب، أجاب 45 بالمئة بنعم، و53 بالمئة بلا[130].

ما حدث كان يجب أن لا يكون مفاجئاً للمستشار القانوني

(129) حول وصف جديد لفظائع قوات الولايات المتحدة في فيتنام، انظر سلسلة «Toledo Blade» حول قتل المدنيين على يد «قوات النمر» في 1967، انظر: Michael D. Sallah, «Rogue GIs Unleashed Wave of Terror in Central Highlands,» *Toledo Blade* (22 October 2003), and Nicholas Turse, «The Doctrine of Atrocity,» *Village Voice* (New York) (11 May 2004).

(130) انظر استطلاع الرأي الذي قام به مركز روبر (Roper Center)، جامعة كونكتكوت (University of Connecticut) في 27 أيار / مايو 2004 على الموقع: abcnews.go.com/Sections/US/Polls/torture.

للبيت البيض ألبرتو غونزالس الذي وجه مذكرة إلى الرئيس في 25 كانون الثاني/ يناير 2002، يصف فيها فقرات معاهدة جنيف المتعلقة بمعاملة الأسرى على أنها «قديمة الطراز»، ونصح بإهمالها (عارضه كولن باول بشدة). في ما بعد نصح مستشارو وزارة العدل (آب/ أغسطس 2002) والبنتاغون (آذار/ مارس 2003) الإدارة أن رئيس الولايات المتحدة بصفته القائد الأعلى له الحق في تجاوز كلٍّ من قانون الولايات المتحدة والقانون الدولي ويضفي الشرعية على الإساءة الجسدية للسجناء كونها جزءاً من الحرب على الإرهاب[131].

كان في نية المسؤولين المحافظة على سرية هذه المذكرات. لكن ليس ثمة ما هو سري بشأن رد فعل العديد من سياسيي الجناح اليميني ومعلقي التلفزيون لما جرى الكشف عنه في أبي غريب. صرح السيناتور جيمس أنهوف (جمهوري من أوكلاهوما) لزملائه في لجنة مجلس الشيوخ للقوات المسلحة: «ربما لست الوحيد حول هذه المائدة الذي أغضبني الغضب أكثر مما أغضبتني الإساءات... تعرفون إنهم [سجناء أبي غريب] ليسوا هناك لخرق قوانين السير.. إنهم قتلة، إرهابيون، ومتمردون»[132].

---

(131) حول مذكرة غونزاليس واعتراض باول، انظر: Michael Isikoff, «Memos Reveal War Crimes Warnings,» *Newsweek* (19 May 2004).

بالنسبة للمذكرات الأخرى، انظر: Dana Priest and R. Jeffrey Smith, «Memo Offered Justification for Use of Torture,» *Washington Post*, 8/6/2004; Edward Alden, «Bush team accused of sanctioning torture,» *Financial Times*, 9/6/2004, and Edward Alden and James Harding, «U.S. Lawyers Said Interrogators Could Violate Torture Laws Abroad,» *Financial Times* (London), 8/6/2004.

(132) ذكر في: Charles Babington, «Senator Critical of Focus on Prisoner Abuse,» *Washington Post*, 12/5/2004.

وهاجم السيناتور أنهوف اللجنة الدولية للصليب الأحمر لأن «المنظمات الإنسانية تزحف في كل مكان في هذه السجون باحثة عن أدلة على تجاوزات لحقوق الإنسان، في حين تقف قواتنا، أبطالنا، ليحاربوا ويقتلوا». زميله السيناتور الجمهوري ترنت لوت (ميسيسيبي) صرح: «بصراحة، من أجل إنقاذ حياة بضعة أفراد من القوات الأمريكية أو وحدة من وحداتها تواجه خطراً ما، أظن أن عليك أن تكون عنيفاً معهم بحق». وعند تذكيره أن سجيناً واحداً في الأقل لقي حتفه ضرباً حتى الموت على يد القوات الأمريكية في أبو غريب، رد لوت: «ليست هذه مدرسة يوم الأحد. إنه استجواب. إنه عمل عنيف»[133]. وصدرت تصريحات مشابهة عن شخصيات بارزة في الإعلام اليميني مثل روش ليمبو وبيل أورايلي ومايكل سافاج. صرح ليمبو: «ربما كان من أصدر أوامره بذلك [إساءات أبو غريب] أذكياء بحق. ربما كان الذين نفذوها قد أدوا عملاً بارعاً.. كان ثمة الكثير من الإهانات من قبل أناس يحاولون قتلنا. يبدو لي هذا عظيم الفاعلية لو نظرت إلينا ضمن السياق الصحيح»[134].

---

(133) Lott, Quoted in: «Media Notes,» *Washington Post*, 4/6/2004, and Zoe Heller, «How Quickly America Forgot its Outrage,» *Daily Telegraph*, 15/5/2004.

حول محاولات إعلام الجناح اليميني الدفاع عما حدث في أبو غريب أو التقليل من أهميته، انظر مثلاً: Wesley Pruden, «He Said the Word. Who's Sorry Now,» *Washington Times*, 7/5/2004; James D. Zirin, «The Objective... and a Metaphor Too Far,» *Washington Times*, 17/5/2004; Victor Davis Hanson, «Abu Ghraib,» *Wall Street Journal*, 3/5/2004; Mark Alexander, «The Abu Ghraib Feeding Frenzy,» *Federalist*, 7/5/2004; Deroy Murdock, «Kinder, Gentler War on Terror: Are We Overreacting?,» *National Review Online*, 17/5/2004, and Reuel Marc Gerecht, «Who's Afraid of Abu Ghraib,» *Weekly Standard* (24 May 2004).

(134) Rush Limbaugh (6 May 2004), www.//americanassembler.com/newsblog.

وصف النجم الإذاعي اليميني مايكل سافاج العرب على أنهم «ليسوا بشراً»، وصرح أن «هدايتهم للمسيحية ربما هي الشيء الوحيد الذي قد يحولهم [العرب] إلى الجنس البشري». وقال، «الجدري في البطانيات التي أعطاها جيش الولايات المتحدة لهنود التشيروكي في مسيرتهم الطويلة غرباً، لا تقارن بما أتمنى رؤية فعله لهؤلاء الناس»[135]. يذاع برنامج سافاج للحوارات على 350 محطة راديو، ويصل إلى حوالى 7,5 مليون مستمع. ويظهر ليمبو في 680 محطة، ويصل عدد مستمعيه إلى حوالى 20 مليون شخص[136].

هجوم السيناتور أينهوف على الصليب الأحمر تردد صداه بعد يومين في **وول ستريت جورنال** في مقال عنوانه «خداع الصليب الأحمر» الذي شجب «تزايد تسييس» المنظمة وحذر من أن ثمة خطراً من تحولها «مجموعة أخرى من المدافعين اليساريين تنضم إلى منظمة مراقبة حقوق الإنسان (Human Rights Watch)، أو «منظمة العفو الدولية (Amnesty International)» (من المعروف أن **وول ستريت جورنال** طالما نقلت تقارير هاتين المنظمتين بوصفهما أطرافاً محترمة ذات مصداقية حين تريد مهاجمة دول تكرهها الصحيفة وتريد استهدافها)[137]. بالطبع لا تعكس وجهات النظر هذه آراء جميع الجمهوريين. بل إنها تعرضت لتوبيخ عنيف من أسير الحرب السابق السيناتور جون ماكين الذي أطرى تاريخ منظمة الصليب الأحمر،

---

(135) Michael Savage (Savage Nation (Radio Show), 12 May 2004), www.mediamatters.org.

(136) الأرقام على الموقعين: www.wjno.com/host/rush, and www.talkradionetwork.com

(137) «Red Double Cross: A Politicized ICRC Won't Help Prisoners Get Better Treatment,» *Wall Street Journal*, 14/5/2004.

وأكد أن من واجب أمريكا التخلي عن التعذيب واحترام المعاهدات الدولية[138].

من الواضح أن هذا التقليد يتناقض مع الجوانب الرسمية للعقيدة الأمريكية حين يتعلق الأمر بإدارة العدل والمساواة في الحقوق، إذ من المؤكد أنه لا يؤمن أن القواعد الأساسية للعدالة موجودة في كتب القانون أو في مقولة «خلق جميع الناس متساوين». ولكن في الماضي تعايش ذلك الموقف مع العقيدة بسهولة لا بأس بها، لأن نوبات تفجر الغضب الشعبي وتطبيق العدالة الشعبية كانت ردود فعل قصيرة الأمد لمواجهة تهديدات حقيقية أو متخيلة.

كانت التخوم هي الاستثناء، حيث إن خطر الهنود وتقاليد الحماية الشعبية والعقاب الجماعي الذي ينتج عنها، استمرت على المدى نفسه الذي استمرت فيه ظروف التخوم، وفي الجنوب كان التهديد من السود يتطلب قمعاً جماعياً استمر منذ بدايات وجود هذه المستوطنات لغاية الستينات. إن تطبيق هذه التقاليد على «الحرب على الإرهاب» سوف يكون من بين المواضيع التي سنناقشها في الفصول اللاحقة.

---

(138) John McCain, «In Praise of Do-Gooders: The Red Cross Is Right to Criticize the U.S. Military When It Steps Out of Line,» *Wall Street Journal*, 1/6/2004.

الفصل الرابع

الأطروحة المضادة، الجزء الثاني: الأصوليون والمخاوف الكبرى

«هل تظاهر الناس يوماً بدرجة أعلى من القداسة، ومن الدين، ومن الحماسة لله والوطن أكثر من هؤلاء؟ هذه المواعظ، هذه الصلوات وهذا الصوم، إنها كلها لا تحمل شيئاً أكثر تواتراً من ترديد مقاطع الكتب المقدسة اسم الرب والمسيح في أفواههم: لن تتحدث إلا لماماً مع كروموبل حول أي أمر، لكنه سيضع يده على صدره، ويرفع عينيه، ويدعو الله أن يسجل كلماته، سوف يذرف الدمع، يصرخ بالتوبة حتى وهو يطعنك تحت الضلع الأول».

صيد الثعالب (إنجلترا، 1649)[1].

إن جزءاً حيوياً ولكن غير رسمي من العقيدة الأمريكية كان على الدوام الإيمان بأن الولايات المتحدة تمثل انتصار الحداثة في

(1) Five Small Beagles, *The Hunting of the Foxes from Newmarket and Triple-Heaths to Whitehall* (London: [n. pb.], 1649), in: William Lamont and Sybil Oldfield, eds., *Politics, Religion, and Literature in the Seventeenth Century* (London: Dent; Totowa, NJ: Rowman and Littlefield, [1975]), pp. 154-155.

الاقتصاد والتكنولوجيا والثقافة كما في نظامها الديمقراطي أيضاً. هذه الحداثة الناجحة والفرص الاقتصادية التي تتيحها والثقافة المادية والاستهلاكية التي تخلقها، هي في لب ما كان يسمى الحلم الأمريكي أيضاً. ومع أن مجتمع الاتحاد الأوروبي صار يطرح نفسه مؤخراً على أنه النموذج البديل للحداثة الرأسمالية، إلا أن الصورة التي عُرفت بها أمريكا لا تزال إلى درجة كبيرة هي المقبولة على صعيد العالم، حتى بين المجموعات التي ثارت بعنف ضد نمط الحداثة الذي تمثله الولايات المتحدة مثل جماعة القاعدة[2]. وهذا يصح قبل كل شيء على الثقافة الاستهلاكية والتسلية الجماعية. إذ تكاد أوروبا تكون غائبة تقريباً عن خلق الاتجاهات في هذه المجالات في شرق آسيا مثلاً.

كما يجري النظر إلى أمريكا على أنها البلد الذي كان أسرع من أي بلد آخر في العالم المتقدم في التغير الاقتصادي والثقافي، والبلد الأكثر انفتاحاً على التغيير. ما يرتبط بهذا بشكل وثيق هو حقيقة أن الولايات المتحدة منفتحة بشكل استثنائي للهجرة وبالتالي فقد عرفت أكثر تغيّر سكاني راديكالية في العالم الغربي. ولا يزال الاعتقاد شائعاً بأنه «ومنذ البداية كان ثمة تزاوج عقول متشابهة بين الأمريكان ونمط إنسان المرحلة المعاصرة، إنسان العالم الجديد»[3].

وكل هذه الأشياء هي صحيحة إلى حد بعيد. ولكن في وسط كل هذا التغيّر، فإن أمريكا هي أيضاً وأكثر من أي مكان آخر في

---

(2) حول طرح بريطانيا أن أوروبا هي التي صارت الآن تمثل الصيغة الأكثر نجاحاً وتحضراً من الحداثة، وليس الولايات المتحدة، انظر: Will Hutton, *The World We're in* (London: Little, Brown, 2002).

(3) Max Lerner, *America as a Civilization; Life and Thought in the United States Today* (New York: Simon and Schuster, 1957).

العالم المتقدم، موطن أكبر القوى الدينية المحافظة وأقواها. وقد اختصر موقف هذه القوى إزاء الجوانب الرئيسية للحداثة كما أمكن فهمه في الستينات الواعظ البنتكوستالي (من الكنيسة الخمسينية) أي. ألن: إن «العدو الأكثر خداعاً في أمريكا ليس الشيوعية (مع كل المخاطر التي تمثلها)، أو النازية أو الفاشية أو أي أيديولوجيا غريبة، بل هي **الحداثة** (Modernism)»، (وضعت بالخط العريض في الأصل). دعوة ألن لحمل السلاح وردت في كتيب بعنوان **رؤيتي لدمار أمريكا**. العنوان وحده يكفي لإظهار التناقض بين تفاؤل العقيدة الأمريكية والتشاؤم العميق للأصوليين البروتستانت في ما يتعلق بالتقدم في هذا العالم[4].

وكما بيّن صامويل هنتنغتون، «فإن البلدان الأكثر تديناً تميل لأن تكون أكثر قوميةً». وعند النظر إلى التناقض بين الولايات المتحدة وبقية دول العالم المتقدم، شرح هنتنغتون وغيره أن أسباب التطرف القومي الأمريكي في بدايات القرن الحادي والعشرين يعود إلى تطرفها الديني. هذا الارتباط مع القومية يصح بشكل كبير في ما يتعلق بالأصولية البروتستانتية التي وصفناها في الفصل الثالث، والتي لها جذور خاصة في الثقافة القومية للجنوب الأبيض[5].

ولم تبق الديانة الإنجيلية الأمريكية المحافظة والأصولية من دون

---

(4) ذكر في: Howard Elinson, «The Implications of Pentecostal Religion for Intellectualism, Politics, and Race Relations,» *American Journal of Sociology*, vol. 70, no. 4 (January 1965).

(5) Samuel P. Huntington, «Dead Souls: The Denationalization of the American Elite,» *National Interest*, no. 75 (Spring 2004), and Adrian Hastings, *The Construction of Nationhood: Ethnicity, Religion, and Nationalism*, Wiles Lectures; 1996 (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1997).

تغيير بمرور السنوات، إذ من المؤكد أن أغلب تاريخها المعاصر وتطورها قد نتج عن ردود **الفعل**. والحال أن الإنجيلية «معتقد ديني تبنّى مراراً وتكراراً اللهجات والنغمات المتغيرة بتغير العصر»، خصوصاً بمقدار تعلق الأمر باستخدام وسائل الإعلام الحديثة والتقنيات الجديدة لحشدٍ أوسع للجمهور[6]. فضلاً عن ذلك، وفي أجزاء واسعة من أمريكا، أدت الكنائس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر دوراً مركزياً في نشر الحضارة ـ بالتالي الحداثة إلى حد كبير ـ ولولاها لبقيت مجتمعات التخوم ذات سمات شبه قروسطية.

لكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن جميع الإنجيليين هم إما أصوليون في ديانتهم (بالرغم من اشتراك الإنجيلية والأصولية في أغلب المعتقدات الجوهرية)، أو أنهم قوميون من الجناح اليميني سياسياً. مثلاً: الإيمان بالصحة المطلقة لكل ما جاء في التوراة (المعروف بتسمية العصمة من الخطأ (Inerrancy)) هو أساسي لدى الأصوليين، لكن العديد ممن ينتمون لهذه الكنيسة لهم موقف مختلف إلى حد ما. كما أن مواقفهم في السياسة أقل محافظةً. فضلاً عن ذلك فإن السود يشكلون نسبة لا يستهان بها من المنتمين للإنجيليين في الولايات المتحدة وفي الجنوب الأمريكي، ولم يؤد بهم اعتناق هذه المذاهب الدينية لاتخاذ مواقف سياسية يمينية، وذلك لأسباب تاريخيةٍ بينة[7].

في الوقت نفسه، فإن الجناح الأصولي في التقليد الإنجيلي،

---

(6) Joel A. Carpenter, *Revive Us Again: The Reawakening of American Fundamentalism* (New York: Oxford University Press, 1997), pp. 234-235.

(7) Corwin Smidt, «Evangelicals within Contemporary American Politics: Differentiating between Fundamentalist and Non-Fundamentalist Evangelicals,» *Western Political Quarterly*, vol. 41, no. 3 (September 1988).

هو قوة أيديولوجية قوية جداً في أجزاء كثيرة من الولايات المتحدة وهو يحمل عناصر فكرية من عصور قديمة جداً لم ينلها إلا تغير طفيف خلال حقبات حديثة. جذوره تعود إلى ما قبل عصر التنوير، في حين أن عقليته هي معادية للتنوير إلى حد بعيد. إنه يحمل أيضاً عنصر تواصل جغرافي قوي جداً. في حين نجد الإيمان الديني المحافظ قوي في كنساس ومناطق أخرى من الغرب الأوسط، وإن العديد من المنتمين الجدد للمجموعات الأصولية هم من المدن الجديدة متعددة الأعراق والثقافات في الجنوب الغربي وكاليفورنيا، إلا أن قلب الدعم يظل على ما كان عليه على الدوام: الجنوب الأبيض والمناطق المتاخمة له[8].

والخارطة الدينية للولايات المتحدة عام 2000 لا تزال تبيّن حزاماً قوياً لم ينكسر من أغلبية الأقاليم المنتمية إلى الطائفة المعمدانية الجنوبية، وتمتد من وسط فرجينيا إلى شرق تكساس، وتأخذ في محيطها شمال فلوريدا وكثير من كنتاكي وميسوري. والكثيرون غيرهم ينتمون إلى كنائس إنجيلية و/أو أصولية، مثل الكنائس الخمسينية[9]. وكما سبق الشرح فإن هذه المنطقة ليست فقط دينية، وإنما أيضاً هي موطن لبعض أقسى وأعمق التقاليد الاجتماعية والثقافية القديمة جداً والشديدة التصلب والعنف، والتي جذورها أقدم من استقلال البلاد ومن وصول أوائل المستوطنين إلى أمريكا

---

(8) حول الدوافع الفردية للمنضمين الجدد للكنائس الأصولية، انظر: Robert R. Monaghan, «Three Faces of the True Believer: Motivations for Attending a Fundamentalist Church,» in: Phillip E. Hammond and Benton Johnson, eds., *American Mosaic: Social Patterns of Religion in the United States*, Consulting Editor Charles H. Page (New York: Random House, 1970), pp. 65-79.

(9) انظر وبشكل خاص للخارطة الملحقة في: *Churches and Church Membership in the United States, 2000* ([Atlanta, Ga.: Glenmary Research Center, 2002]).

الشمالية. ثمة صنف خاص من القومية يشكل أحد أهم هذه التقاليد.

يجد التدين المفرط في الولايات المتحدة بالمقارنة مع أوروبا في بداية القرن الحادي والعشرين، والقوة التي تتمتع بها الكنائس الأصولية الجنوبية بشكل خاص، جذوره في الاختلافات الجوهرية بين تاريخ أمريكا الشمالية وأوروبا خلال القرنين الماضيين. هذه الاختلافات لا تقتصر على تشظي البروتستانتية الأمريكية إلى عدد كبير من الكنائس والطوائف (والتي كانت في الآن نفسه شديدة التجانس في معتقداتها الأساسية ومواقفها الثقافية)، ولكن أيضاً إلى الدور الذي أدته هذه الطوائف في تطور المجتمع في التخوم وفي عمق الجنوب الكبير.

تبع تشكّل هذه الكنائس التقاليد الأمريكية القديمة للمستوطنين في البراري الذين شكلوا كنائس خاصة بهم بشكل عفوي. وبالرغم من أن الانتماء لأي كنيسة كان اختيارياً، إلا أنه اشتمل على أداء وظائف جدية معينة للكنيسة والمجتمع كلّه. ولأن الكنيسة على الأغلب تشمل جميع أفراد المجتمع، لهذا لم تكن العضوية فيها اختياريةً بحق. إذ إن ترك الكنيسة لم يكن سهلاً إلا بالسهولة التي يمكن للمرء فيها مغادرة المجتمع المحلي نفسه، والانتقال غرباً[10]. بالرغم من اشتقاق الثقافة الدينية لهذه الكنائس من طوائف بروتستانتية من القرنين السابع عشر والثامن عشر في إنجلترا واسكتلندا، لكن كلاً منها كانت تقدم نفسها على أنها نابعة بشكل مباشر من التوراة وكلمة الله، من دون سوابق تاريخية أو وسطاء.

تزايد عدد الطوائف في أوائل وأواسط القرن التاسع عشر في

---

(10) Kenneth D. Wald, *Religion and Politics in the United States*, 4th ed. (Lanham, Md: Rowman and Littlefield Publishers, 2003), p. 49.

الجنوب صحبه هبوط حاد في التعددية الثقافية وصعود ثقافة تقليدية، محافظة، امتثالية في الدين بشكل خاص وفي الحياة الاجتماعية والثقافية عموماً. «بحلول عام 1860 كانت الليبرالية الدينية قد ماتت فعلياً في الجنوب»(11). المستفيدون الأكبر من الموجة الدينية كانت كنائس المعمدانية التي استمرت هيمنتها على المنطقة لحد يومنا هذا، تليها (المنهجية) الميثودية. من المؤكد أن الفردانية كانت المفتاح الأساس لثقافة الجنوب منذ البداية، لكنها فردانية الأفعال وليست فردانية الفكر.

عند السعي لفهم الاختلافات الثقافية العميقة بين أغلبية الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، لابد من إدراك الأهمية القصوى لمزيج من عقلية التخوم الأمريكية ودور الكنائس البروتستانتية الأمريكية. ظل أكثرية سكان الريف ذوي عقلية وتصرفات قروسطية لغاية القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين في كل من أمريكا وأوروبا الغربية (جرى آخر حرق للساحرات في فرنسا عام 1835). في أوروبا بدأت الطبقة العليا المحلية، ثم الدولة، من خلال الطبقة العليا، بأداء دور قيادي في تمدين سكان الريف. أدت الكنائس دوراً ثانوياً وحسب، وفي أواخر القرن التاسع عشر كانت في حال تراجع في أغلبية أوروبا الغربية.

في الأجزاء حديثة الاستيطان في الولايات المتحدة، لم يكن ثمة دولة فاعلة بحق ولا طبقات عليا تقليدية. كانت الكنائس في هذه

(11) Francis Butler Simkins and Charles Pierce Roland, *A History of the South*, 4th ed. (New York: Knopf, [1972]), pp. 152-175, and Eugene D. Genovese, *The Southern Tradition: The Achievement and Limitations of an American Conservatism*, William E. Massey, Sr. Lectures in the History of American Civilization; 1994 (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1994), p. 27.

المناطق هي التي منعت المستوطنين من الارتداد إلى حال الهمجية الكاملة أو العيش في عزلة مطلقة، في كثير من الأحيان كانت الكنيسة هي المؤسسة الاجتماعية الوحيدة في المنطقة كلها، والمكان الوحيد الذي يجتمع فيه السكان المحليون بشكل منتظم، كما كانت مسؤولة أيضاً عن المدارس المحلية. لولا الكنائس البروتستانتية لظلت مجتمعات التخوم الأمريكية أكثر تخلفاً وعنفاً وقروسطية مما صارت إليه. هكذا نجد أن الكنائس أدت دوراً غامضاً في ما يخص تحديث أجزاء واسعة من الولايات المتحدة: فمن جهة شذبت قروسطية التخوم وأرست أسس النظام الاجتماعي والاقتصادي المعاصر، ومن جهة ثانية، خلقت ثقافة دينية كانت بطرق عديدة تناقض الثقافة المعاصرة كما يفهمها بقية العالم الغربي.

وفي الجنوب والغرب، فإن هذه الكنائس أسسها السكان المحليون بأنفسهم. ونتيجة لذلك فقد حافظ هؤلاء السكان المحليون على كل المخاوف التقليدية للمزارع الأوروبي وكراهيته تجاه الدولة، من دون أن يعرّض نفسه للشبكة الكثيفة من تأثيرات الدولة، ومؤسساتها وفوائدها التي أدت بالنهاية في أوروبا إلى تقليص تلك المخاوف، أو في الأقل، ليس حتى حلول القرن العشرين بعد أن مر زمن طويل على تأسيس هذه المجتمعات الأمريكية واكتساب سماتها الأصلية[12].

كما أدت قوة الدين في أمريكا دوراً حاسماً في منع تشكيل أي تقاليد اشتراكية جماعية قوية. هكذا انتقد وليام جنينغز برايان والقادة الشعبويون لسنوات 1890 بمرارة، الرأسمالية الأمريكية، لكن إيمان برايان العميق بالبروتستانتية الأصولية جعلت أي مسحة أيديولوجية

---

(12) James Graham Leyburn, *The Scotch-Irish: A Social History* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, [1962]), pp. 71-79, 143 ff. and 282 ff.

خفيفة من الماركسية أبعد ما تكون عنه[13].

كتب هكتور سانت جان دو كريفكور منذ أكثر من قرنين أن «الأمريكي إنسان جديد يتصرف بموجب مبادئ جديدة». وكتب ريشارد هوفستاتر عن أمريكا، على أنها «بلد أولئك الهاربين من الماضي». وفي الستينات كتب المراقب الكندي جورج غرانت «الولايات المتحدة هي المجتمع الوحيد على وجه الأرض حيث لا توجد تقاليد تسبق عصر التقدم». وكرر سايمور مارتن ليبست عام 1996 هذا الموقف مؤيداً[14]. لكنهم جميعاً مخطئون بمقدار ما يتعلق الامر بهذا الجزء من الأمريكان.

قام المتشددون من البروتستانت الإنجيليين في الولايات المتحدة بنحت اسم «أصوليين» (Fundamentalists) لأنفسهم خلال العشرينات بسبب رغبتهم في العودة لما يرون أنه «أصول المسيحية»، ومن ضمن ذلك الإيمان الحرفي بكل كلمة وردت في الكتاب المقدس. كانت أصولهم «رجعية» بالمعنى الحرفي للكلمة، إذ إنهم كانوا بمثابة رد فعل ضد جوانب جوهرية من حداثة القرن العشرين[15]. تشكل هذه العناصر الدينية جزءاً في بنيةٍ أوسع من عالم الراديكالية الأمريكية المحافظة والقومية الراديكالية التي كتب عنها هوفستاتر بأن «تعبّر ردود أفعالها السياسية عن كراهية عميقة غير واعية لمجتمعنا

---

(13) Robert N. Bellah, «Civil Religion in America,» *Daedalus*, no. 96 (Winter 1967), pp. 113-124.

(14) George Grant, Quoted in: Seymour Martin Lipset, *American Exceptionalism: A Double-Edged Sword* (New York: W. W. Norton, 1976), p. 37, and Richard Hofstadter, *Anti-Intellectualism in American Life* ([New York: Knopf, 1963]), p. 238.

(15) Gabriel A. Almond, R. Scott Appleby and Emmanuel Sivan, *Strong Religion: The Rise of Fundamentalisms around the World* (Chicago: University of Chicago Press, 2003), pp. 106 ff.

وطرقه. . . يعاني اليمين المتطرف لا من سياسات هذه الإدارة أو تلك، بل مما صارت إليه أمريكا في القرن العشرين»[16].

من المؤكد أن ثمة عوامل مشابهة لهذا الاتجاه حتى في ثورة أمريكا ضد بريطانيا، والتي كان يُنظر إليها على أن حافزها جزئياً هو عداء «شعب ريفي يرى أن نمط حياته هو ليس الأحسن (Good) وحسب، بل أنه موحى من الرب God» قياساً إلى الحكم البريطاني العالمي المتحرر والساعي للتحديث[17]. ومنذ الأيام الأولى للمستوطنات الأمريكية بدأ إيمان المستوطنين أن الرب قد اختارهم، وصحبه إيمان بما جاء في العهد القديم أن الرب هو «إله الحرب» (God of Ware). استخدمت صور الإسرائيليين القدامى، ومعاركهم مع جيرانهم لتبرير الحروب ضد «عماليق» آخر الزمان (Amelekites) سواء أكانوا هنوداً أم فرنسيين، وكأن الرب يحارب من أجل الأمريكان في هذه الحروب[18].

هذه التشكيلة من القناعات هي بالتالي الجزء الظاهر من «جبل الجليد السياسي» للحياة الأمريكية التي «تتحرك عبر الزمن بثبات سلبي، وبطيء التغير وتواصل البقاء على قيد الحياة بشكلها الأصلي لأجيال عديدة»[19]. ظلت الكنائس الإنجيلية والأصولية تنمو لعقود

---

(16) Richard Hofstadter, «The Pseudo-Conservative Revolt–1955,» in: Daniel Bell, ed., *The Radical Right* (New York: Doubleday and Co., 1963), pp. 64 and 85.

(17) Robert Kelley, *The Cultural Pattern in American Politics: The First Century* (New York: Knopf, 1979), p. 39.

(18) Wald, *Religion and Politics in the United States*, pp. 200 ff.

(19) Dean M. Kelley, *Why Conservative Churches Are Growing: A Study in Sociology of Religion with a New Preface for the Rose Edition*, ROSE; no. 11 (Macon, Ga: Mercer University Press, 1986), p. 4.

عدة في حين تضاءلت الكنائس البروتستانتية «الرئيسية»، وهي عملية عبّر عنها عام 1967 تجاوز عدد المنتمين لكنائس الاتحاد المعمداني الجنوبي عدد المنتمين للكنيسة الميثودية التي كانت حتىٰ ذلك الحين أكبر كنيسة بروتستانتية في البلاد.

أصيب العديد من الليبراليين الأمريكان بخيبة الأمل والحيرة العميقة بشأن الطريقة التي انقاد بها الكثير من العمال والمزارعين وأصحاب المتاجر الصغيرة (المتخيَّلة إلى حد كبير)، إلى انتماءات ثقافية محافظة والتصويت للجمهوريين من الجناح اليميني ضد «النخبة الليبرالية»، المتخيّلة إلى حد كبير)، وهذا مناقض للقيم كلها التي يعتزون بها. وقديماً قيل، عن حق، بأن تزاوج الرأسمالية الراديكالية مع الجمهوريين تتناقض بشكل تام مع المصالح الاقتصادية الحقيقية لهؤلاء العمال[20].

لتفسير هذا السلوك السياسي، يجب على المرء أن يفهم أن هؤلاء الناخبين ينتمون إلى عوالم دينية وثقافية شديدة الترابط في ما بينها، وهي تتعرض لهجوم حقيقي نتيجة التغيرات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. الأهمية السياسية للعامل الديني هي بالطبع ليست مقتصرة على الولايات المتحدة. إذ ما دام الإيمان الديني والالتزام به قائماً وله أهمية عظمى في بعض المجتمعات الأوروبية الغربية، فإن له تأثيراً حاسماً أيضاً في الولاءات السياسية لهذه الدول أحياناً ولسوء الحظ باتجاهات متطرفة. الجانب المضحك المبكي في وضع الأمريكان المحافظين سياسياً والمؤمنين دينياً هو أن الرأسمالية الحرة التي يؤيدونها إنما تدمر عالمهم الاقتصادي، كما أنها ومن

(20) Thomas Frank, *What's the Matter with Kansas?: How Conservatives Won the Heart of America* (New York: Metropolitan Books, 2004).

خلال وسائل الإعلام واسعة الانتشار وصناعة التسلية تؤدي دوراً مركزياً في تقليص كوكبهم الأخلاقي.

الجمهوريون الربانيون

يؤدي التدين المحافظ دوراً مهماً جداً في سياسات الولايات المتحدة، وبخاصة في الحزب الجمهوري. كان نموه جزءاً من تحول الحزب ليصبح جنوبياً (Southernization) في العقود الأخيرة. بحسب التحالف المسيحي، وهي المنظمة السياسية الأمريكية ذات الشعبية واسعة النطاق، والقائدة لليمين المسيحي، فإن 29 سيناتوراً من مجموع 100، و125 نائباً من مجموع 435 صوتوا 100 بالمئة بحسب مبادئ التحالف المسيحي عام 2001 (آخر سنة تتوافر عنها الأرقام)، أي أكثر من ربع أعضاء المجلسين في الكونغرس الأمريكي. ومن بين هؤلاء فإن 15 سيناتوراً و64 نائباً هم من الجنوب الكبير، أي أقل بقليل من نصف كتلة المسيحيين في الحالين (أكثر من ضعف النسبة المئوية لسكان الجنوب قياساً لمجموع سكان الولايات المتحدة)[21].

إن تأثير هذه الشريحة من سكان الولايات المتحدة في إدارة بوش، وعلاقتها مع القومية الأمريكية، قد جرى التعبير عنه جيداً في مقالة في مجلة **نيوزويك** في بداية 2003:

كل رئيس يتضرع إلى الرب ويطلب بركاته... لكن كان لابد من وقوع حربٍ، واحتمالات حروب أخرى، لكي يتم تسليط الضوء على حقيقة مركزية: هذا الرئيس ـ وهذه الرئاسة ـ هي الأكثر اعتماداً على «البناء الإيماني» في العصر الراهن، فهي مؤسسة بُنيت ودُعمت

(21) انظر: الائتلاف المسيحي، «سجلات أعمالهم في مجلس الشيوخ عام 2001»، و«سجلات أعمالهم في مجلس النواب عام 2001» على الموقع: www.cc.org.

وتقودها الثقة بقوة الرب الدنيوية والروحية. الأمور المالية مهمة، وكذلك القوة العسكرية. لكن إدارة بوش مكرسة لفكرة أن ثمة جواباً على مشاكل المجتمع هنا وعلى الإرهاب هناك في الخارج وجوابها هو: أعط لكل فرد، في كل مكان، حرية معرفة الرب أيضاً. . .

المسيحيون من المؤمنين بالكتاب المقدس هم أقوى مؤيدي بوش، واللجوء إليهم بأعداد أكبر في العام القادم هو من أول أولويات كارل روف المستشار السياسي للرئيس. . . والقواعد ترد الجميل. إنهم أقوى أنصار الحرب ـ الأحادية عند اللزوم ـ للتخلص من صدّام[22].

انطلاقاً من رؤية حيال هذا التكوين، كرر الرئيس بوش وضع الصراع ضد الإرهاب وموقع أمريكا في العالم في صيغ دينية واضحة في نظر ناخبيه، وبما يعكس أيضاً قناعاته الواضحة. ولا يقتصر الأمر على الإرهابيين، بل على مجموعة أخرى من خصوم أمريكا وصفهم «بالشر». وهي روحية مسيحانية من وحي ديني لوّنت حتى المقاطع التي كان بوش يتحدث بها عن قيم دنيوية شاملة. ونُقل عن بوش أنه يرى نفسه على أنه أداة الإرادة الإلَهية[23].

التصريح الشهير «من ليس معنا فهو ضدنا» الذي طالما كرره الرئيس وغيره من المسؤولين، هو في الأصل قول للمسيح، وقد

---

(22) Howard Fineman, «Bush and God: A Higher Calling: It Is His Defining Journey from Reveler to Revelation. A Biography of His Faith, and How He Wields It as He Leads a Nation on the Brink of War,» *Newsweek* (10 March 2003).

(23) Kevin Phillips, *American Dynasty: Aristocracy, Fortune, and the Politics of Deceit in the House of Bush* (New York: Viking, 2004), p. 233.

كرره على مدى القرون وعاظ وسياسيون أمريكان[24]. هذا العامل الديني في فكر بوش غذّى أنماطاً أوسع من الشمولية الأمريكية ونتج عنه عناصر أخرى منها وعد بوش «بالتخلص من الشر في العالم» والعنوان المجنون لكتاب عن الإرهاب كتبه كاتب خطاباته السابق ديفيد فروم، **نهاية للشر** (*An End to Evil*)[25].

لدى مواجهته الكونغرس صرّح بوش بأن «مسار هذه الحرب ليس معروفاً، لكن نتيجتها أكيدة. الحرية مقابل الخوف، العدالة مقابل القسوة؛ لطالما كانت هذه في حال حرب، ونحن نعرف أن الرب ليس حيادياً بينها». هذه صيغة قومية متدينة غلبت على الخطاب كله. اقتبس بوش كلماته من ترنيمة دينية تقول: «ثمة قوة في الدم» للإشارة إلى «القوة، القوة التي تخلق المعجزات» في «الطيبة والمثالية والإيمان بالشعب الأمريكي» كلمات في ترنيمة تستخدم للإشارة إلى الحمل، يسوع المسيح[26]. تماهي الأمة مع المسيح نفسه (سواء في المعاناة أم في الانتصار) كان على الدوام متأصلاً في الحركة القومية في بولندا، وصربيا وغيرها من الدول، إلا أن ذلك صورة تفاجئ الناس أن صدرت عن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الذي يفترض به أن

---

(24) *Matthew*, xii, 30.

ذكرها وارد في موعظته مطلع الحرب الأهلية في: Henry Ward Beecher, «The Battle Set in Array,» in: Conrad Cherry, ed., *God's New Israel: Religious Interpretations of American Destiny*, Rev. and Updated ed. (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1998), pp. 169-183.

(25) David Frum and Richard Perle, *An End to Evil: How to Win the War on Terror* (New York: Random House, 2003).

انظر أيضاً نقد تديّن بوش في: Phillips, Ibid., pp. 228-244.

(26) إن مصدر الجملة التي قالها الرئيس أشار إليها القس المحترم فريتز ريتش (Fritz Ritsh) في: *Washington Post*, 2/3/2003.

يجسد كل الحداثة في مطلع القرن الحادي والعشرين.

إن النسب الأنجلو ـ ساكسوني لهذا النمط من الفكر وتأثيراته الضمنية في رؤى بقية العالم قد رسمها قس بيوريتاني خلال الحرب الأهلية الإنجليزية في أواسط القرن السابع عشر: «جميع الناس ملعونون أو مباركون وفقاً لما يفعلونه أو لا يفعلونه لكي يجمعوا قواهم، من أجل إعطاء أفضل مساعدة ممكنة لشعب الرب ضد أعدائه»[27].

وكما كتب مفكرٌ من المحافظين الجدد نورمان بودهوريتز قبل حرب العراق: «يسمع المرء أن بوش الذي دخل إلى البيت الأبيض من دون فهم واضح لما يريد أن يفعله هناك، يشعر اليوم أنه منذ البداية كان ثمة هدف وراء انتخابه. ولكونه من طائفة المولودين من جديد يقال إنه يؤمن بأن الرب قد اختاره لمحو شر الإرهاب من العالم. أظن أنها إشاعة صحيحة، كما يخيل لي أنه في أعمق أعماقه يتماهى بوش في هذا الصدد مع رونالد ريغان الرئيس الذي خلّص العالم من «إمبراطورية الشر» أكثر مما يتماهى مع والده، الذي لم ينه العمل الذي بدأه في التخلص من صدام حسين»[28].

ثمة فنان وطني أمريكي أكثر ما عرف عنه لوحته الشهيرة «صورة الأبطال رجال الإطفاء والشرطة متراكبة مع صور أمريكانا والإيمان» شجعه البيت الأبيض لينتج لوحة تمثل جورج بوش وهو يصلي منحنياً على منصة. إلى جواره لينكولن وواشنطن، وكلاهما يصلي

(27) Stephen Marchall, Quoted in: Michael Walzer, *Exodus and Revolution* (New York: Basic Books, 1985), p. 147.

(28) Norman Podhoretz, «How to Win World War IV,» *Commentary*, vol. 113, no. 2 (February 2002).

أيضاً، وقد وضع كل منهما يده على كتف بوش[29]. بوش نفسه كتب عن «إيمانه بخطة بشرية تنسخ كل الخطط البشرية»[30].

بحسب بوب وودوارد، «كان الرئيس يرسم رؤيته ورؤية بلاده ضمن رؤية الرب الأكثر شمولاً»[31] ولكون الكاتب ستيفن مانفيلد كاتب متعاطف مع المسيحية، فقد لاحظ أن بوش واحد من قلة قليلة من الرؤساء الأمريكيين: «الذين مرّوا بمرحلة تحوّل ديني عميق بعد البلوغ»:

لقد كان يخطط بالفعل لتجديد ديني للسلطة التنفيذية حين مرت الأمة بمحنة هجوم إرهابي أدى إلى وضع الدين في موقع مركزي في الحياة السياسية والاجتماعية الأمريكية. بدا لفترة وكأن الدولة العلمانية تتراجع. صار أعضاء الكونغرس ينشدون الترانيم على مدرجات الكابيتول، حتى إنهم قدموا تشريعاً لتبني أنشودة «بارك الله بأمريكا» لتكون النشيد الوطني الرسمي للبلاد.

ما تلا ذلك كان إطلاق العنان للتيار الديني في المجتمع الأمريكي. بدا أن بوش هو التجسيد الحي لذلك. صار يصلي علناً

---

(29) Stephen Mansfield, *The Faith of George W. Bush*, p. 174.

(30) George Walker Bush, *A Charge to Keep* (New York: Morrow, 1999), p. 6; Elisabeth Bumiller, «Talk of Religion Provokes Amens as Well as Anxiety; Faith Has Become a Central Part of the Administration,» *New York Times*, 22/4/2002, and David Gergen, Quoted in: Laurie Goodstein, «A President Puts His Faith in Providence,» *New York Times*, 9/2/2003

بالنسبة لتديّن بوش واستغلاله السياسي، انظر: Phillips, *American Dynasty: Aristocracy, Fortune, and the Politics of Deceit in the House of Bush*, pp. 211-244, and Bob Woodward, *Bush at War* (New York: Simon and Schuster, 2002), p. 75.

(31) Woodward, Ibid., p. 67.

ويتحدث عن الإيمان والقدر الإلهي والموروث الديني للأمة أكثر مما كان يفعل في السابق. شاهده مساعدوه على الأرض، محني الرأس، يصلي في المكتب البيضاوي. صار معروفاً أنه يرفض أكل الحلوى طالما بقيت القوات الأمريكية في العراق، وهو صيام نادراً ما سمعناه عن أي رئيس أمريكي. وقام بتأطير التحديات التي تواجه أمريكا في لغة دينية شبه توراتية. صدّام شرير. يجب أن يذهب. لابد من يوم جديد في الشرق الأوسط. لابد لإسحق وإسماعيل أن يتصافحا بسلام»[32].

أدى هذا النزوع في الداخل إلى تصاعد الخشية بين صفوف العلمانيين الأمريكان كما ساهم في زيادة التصدع الثقافي السياسي في المجتمع الأمريكي. صارت الأصولية الدينية جزءاً لا يتجزأ من تعاظم راديكالية اليمين في الولايات المتحدة ومن الميل إلى شيطنة المعارضين السياسيين ووصفهم بالخونة وأعداء الله وأمريكا[33].

في بقية أنحاء العالم المتقدم، أضاف ذلك عنصراً جديداً من الخوف وعدم الثقة بالولايات المتحدة. في الماضي تركزت هذه المشاعر بشكل أساس بين صفوف اليسار كانت موجهة حصراً ضد الرأسمالية الأمريكية والإمبريالية والعسكرة. ولكن بالرغم من وصف هذه الاتجاهات بالشريرة إلا أنه لم يكن ينظر إليها على أنها لا عقلانية بمقدار ما كان الأمر يتعلق بدوافع النخبة الأمريكية ومصالحها.

فضلاً عن ذلك، فإن أغلبية الأوروبيين خارج صفوف اليسار،

---

(32) Mansfield, *The Faith of George W. Bush*, pp. 172-173.

(33) Phillips, *American Dynasty: Aristocracy, Fortune, and the Politics of Deceit in the House of Bush*, pp. 211-244.

نظرت إلى هذه الاتجاهات بشيء من عدم الاهتمام النسبي، لأنها من السمات التي كانت تسم علاقة أوروبا مع بقية العالم في الماضي. كما رأى العديد من الأوروبيين أن أغلبية من استهدفتهم السياسة الأمريكية (الشيوعية في الماضي، المتطرفين الإسلاميين راهناً) هم أعداء. وبالطبع، فإن شعوب العالم المتقدم أصبحت شيئاً فشيئاً خاضعة لسيطرة الثقافة الشعبية الأمريكية.

لكن هذه الثقافة الشعبية كانت ولا تزال ثقافة شعبية **علمانية** أمريكية. لقد فتح المبشرون الأصوليون البروتستانت دروباً مهمة بين فقراء أمريكا اللاتينية، لكنهم لم يصلوا إلى شيء في مراكز العالم المتقدم وبين حلفاء أمريكا الرئيسيين. أمريكا بوصفها إمبراطورية حضارية والأطروحة الأمريكية عن نفسها وعن العالم، تجدان أفضل تعبير في الثقافة العلمانية الأمريكية التي تقوم على مقولة أن أمريكا هي تجسيد للحداثة الناجحة. والعنصر الراديكالي الديني في القومية الأمريكية شيء جديد وطارئ، ويثير الكثير من القلق لغير الأمريكان.

أضيف لبقية مشاعر العداء القديمة حيال أمريكا في الغرب، الشك من أن الأطراف القوية في الولايات المتحدة تقودها دوافع غريبة تماماً في ثقافتها عن بقية العالم المتقدم وتتسم بانعدام العقلانية تماماً. إن هذا يهدد بخلق مستوى من الغربة الجوهرية عن أمريكا بين النخب الغربية الأخرى لم يكن موجوداً في السابق.

المخاوف الأخلاقية

بالرغم من انشقاق الكنائس الشمالية والجنوبية بمرارة حول العبودية (إذ صار إنهاء العبودية بمثابة حرب صليبية عظمى لبعض أقسام البروتستانتية في الشمال الشرقي)، إلا أنه وبعد نهاية الحرب الأهلية ارتبطت الكنائس الجنوبية بشكل وثيق مع بعض الكنائس

البروتستانتية التي توصف بالخط الرئيسي في الشمال لخوض الحروب الصليبية الأخلاقية. وقد عكست هذه الحركات غالباً الرغبة في المحافظة على الهيمنة الثقافية للسكان البروتستانت «الأصيلين» القدماء في المدن الصغيرة والأرياف على السكان الجدد من الكاثوليك واليهود في المدن الكبيرة، ناهيك عن العداء لـ«الغرباء» بشكل عام.

عادة ما تأخذ التوترات الناتجة عن ما سبق شكل القلق بشأن الممارسات الجنسية، خصوصاً إن ارتبط ذلك بالمخدرات والمشروبات والأمراض التناسلية؛ وفي الجنوب يتغذى القلق من المخاوف الخالدة حيال السود[34]. منذ السبعينات، أعيدت الحياة لهذا التقليد في حملة اليمين المسيحي ضد الإجهاض. وكما كان الأمر في الماضي، فإن الإجهاض هو قضية أخلاقية حقيقية بحد ذاته، قضية ساهمت في تدعيم التحالف بين المحافظين البروتستانت من الجنوب والداخل، مع المحافظين الكاثوليك. كما أنه يؤدي دور التشبيه لمخاوف أوسع نطاقاً، وهو صرخة تحذير لحشد سياسي أكبر ضد شبكة واسعة من مجموعات الأعداء السياسيين والثقافيين.

وكما حصل مع سابقاتها من أسباب التوتر في الماضي، فإنها هي أيضاً ترتبط بشكل وثيق مع المخاوف من الانحطاط القومي المؤدي إلى الضعف القومي. ينعكس هذا الوضع في الغالب بصيغ مباشرة ودينية تقليدية من أنها إن استمرت مثل هذه الشرور فإن الرب إما أن يهمل أمريكا أو يضربها بشدة، وهو ما أوحى به زعيم اليمين المسيحي جيري فالويل بعد 11 أيلول/سبتمبر، وهو حدث عزاه إلى عقاب الرب لأمريكا على خطاياها، ومن بينها الإجهاض والشذوذ

---

(34) Gunnar Myrdal, *An American Dilemma; the Negro Problem and Modern Democracy* (New York: Harper, 1944), pp. 457 and 523-558.

الجنسي. (في ما بعد اضطر إلى الاعتذار عن ذلك)

هذه «المخاوف» الثقافية المتكررة بصيغها العرقية والعنصرية رواها جيمس أي. موروون في كتابه الحديث **أمة نيران جهنم**[35] (Hellfire Nation). إذ إنه بدءاً من عام 1909 انتشرت موجة خوف بين بروتستانت أمريكا من تزايد هائل مفترض في عدد بيوت الدعارة، حيث يجوب أرياف البلاد غرباء «الرقيق الأبيض» لإغراء الفتيات البيض الريفيات البريئات أو لخطفهن.

أكثر ما اتسمت به لغة هذا الخوف كان معاداة السامية، ومعها معاداة الصينيين، ومعاداة الكاثوليك. (مثل حكايا: «أسرار الدير») ناهيك عن مشاعر عداء للفرنسيين أدت دوراً ثانوياً: كما عبرت عن ذلك مجلة **ماك كلور**، «من الحثالة العرقية لأوروبا ولسنوات لا حصر لها، تواصل قدوم اليهودي وهو يقود فتاة يهودية بائسة نحو قدرها المشؤوم». وها هم الآن، وبمساعدة حانات المدن والساسة الأيرلنديين وغيرهم قد وضعوا أعينهم على نساء أمريكا. وفي مسعى لضرب عدوين عرقيين بحجر واحد، انتشر الزعم بأن هؤلاء اليهود من تجار الرقيق الأبيض ويرتدون أحياناً ثياب قساوسة كاثوليك! كما قيل إن ثمة حقيقة ثابتة هي أن 60,000 فتاة أمريكية قد أُغريت أو اختطفت إلى بيوت الدعارة سنوياً، وأن ثمة عدداً مساوياً من العاهرات يمتن سنوياً، وتلك مبالغات مدهشة.

ارتبطت هذه المخاوف بشكل وثيق مع الشعور المذنب من أن العرق الأبيض يرتكب «انتحاراً عرقياً» من خلال انحطاطه، وخطط الحد من النسل وغير ذلك؛ وأنه يغرق بأمواج العرق الأصفر والأسمر. كانت نتيجة هذه الحركة إغلاق أكثر حارات الأنوار الحمر

---

(35) James A. Morone, *Hellfire Nation: The Politics of Sin in American History* (New Haven, CT: Yale University Press, 2003).

(بيوت الدعارة) في أمريكا وصدور قانون مان لعام 1910 الذي حرّم انتقال النساء بين الولايات «لأغراض لاأخلاقية»، وكان وسيلة مضايقة واضطهاد للسود على مدى العقود اللاحقة[36].

لكن الحركة الأقوى بين هذه الحركات كانت تحريم الكحول. كان صدور قانون فولستيد لعام 1919 والتعديل الثامن عشر لعام 1920 (والذي ساهمت فيه إلى حد كبير هستيريا الحرب) من أعظم انتصارات جماعات البروتستانتية من السكان «الأصيلين» على المهاجرين الكاثوليك (وأصحاب الحانات من الأيرلنديين ومخمري الجعة الألمان)، ونخبة الانحطاط من شاربي الكوكتيل في الساحل الشرقي، والقوى الداعية للتغير الاجتماعي والثقافي والسكاني. في ما بعد صارت مرحلة «التحريم» عند تطبيقها ـ أو بالأحرى عدم تطبيقها ـ أكبر هزيمة لهم. لقد أطلقت عليها تسمية «Kulturkampf» [صراع الثقافات] بين نمطين متعارضين من الحياة الدينية ـ الثقافية»[37].

لابد من الاعتراف طبعاً أنه وكما هو الحال في حركات أخرى مماثلة، كالحركة الجارية حالياً ضد المخدرات، استهدف التحريم مشكلة حقيقية كالإدمان على الكحول «في المدن الداخلية» الذي يؤدي بدوره إلى البطالة، وسوء معاملة الأطفال، وغيرها. ولعله حقق نجاحات حقيقية في التقليل من هذه المشاكل[38]. كما ارتبط

---

(36) المصدر نفسه، ص 260-273.

(37) Ira M. Wasserman, «Prohibition and Ethnocultural Conflict: The Missouri Prohibition Referendum of 1918,» *Social Science Quarterly*, vol. 70, no. 4 (December 1989).

(38) لمناقشة منطقية تصب في صالح التحريم ونجاحها الجزئي، انظر: Norman H. Clark, *Deliver Us from Evil: An Interpretation of American Prohibition*, Norton Essays in American History (New York: Norton, 1976), esp. pp. 145-153.

ذلك أيضاً ليس في المشاعر المعادية للمهاجرين فقط، بل أيضاً بمشاعر القلق من التحديث الاجتماعي، المرتبط ببروز أمريكا (بحسب إحصاء 1920) على أنها دولة أغلبية سكانها في المدن.

لكن مثل هذه الأسباب الحقيقية للقلق ـ آنذاك والآن ـ امتزجت مع مشاعر أكثر ظلامية. نقل مورون عن صاحب الحملة الصليبية للاعتدال ألفونس آفا هوبكنز، كلمات ما زالت نبرة معاداة أوروبا يتردد فيها صداها حتى يومنا هذا:

كنا نتباهى أننا شعب مسيحي، الأخلاق هي محور حضارتنا... اللعنة على أوروبا، لتحل بها الحروب والمجاعة والأوبئة، فهي ترسل إلينا صانعي الخمور، وصانعي المخمورين، ومدمني الخمور، وشاربي الخمور المعتادين والمعتدلين، ومعهم كل الأفكار غير الأمريكية عن الأخلاق والحكومة؛ إنهم يتسللون إلى حياتنا الوطنية لكنهم لا ينصهرون فيها؛ حيث إنه لا حرية من حيث جاؤوا، فقد صاروا يطالبون بحرية لا حدود لها بيننا، وحتى بالسماح لهم بفعل ما نكرهه... إنهم يسيطرون على سبوتنا، وقد فرضوا علينا معاييرهم الأخلاقية، وهي لاأخلاقية فظة؛ إنهم يتحكمون بمدننا الكبيرة... حتى تتمكن السيطرة الأجنبية أو الغزو أن تحقق القليل المتبقي من خلال الجيوش والأساطيل[39].

مشاعر ومخاوف مشابهة شحنت ظهور الموجة الثانية من كوكلوكس كلان خلال العشرينات. هذه الحركة قصيرة العمر لكن واسعة الانتشار والتي لم تشبه سابقتها التي ظهرت عام 1870 في الجنوب، تأسست بشكل رئيسي في الغرب الأوسط وتكرست قبل

(39) Morone, *Hellfire Nation: The Politics of Sin in American History*, p. 304.

كل شيء ضد المهاجرين، وضد اليهود، وضد الكاثوليك وضد الحداثة، مع وجود مشاعر رهاب السود ولكن بأهمية أقل. كانت الحركة مستغرقة في البروتستانتية الإنجيلية وتعكس من بين أمور أخرى، الكساد الزراعي لذلك العقد والضغوط التي نتجت عنه بالنسبة للجماعات الزراعية القديمة من ذات السكان «الأصيلين» (مضافاً إليهم البروتستانت الألمان)[40].

نهاية الهجرة المفتوحة في 1924 قلصت إغراء مثل هذه الحركات[41]. يعود السبب في اتخاذ هذا الإجراء إلى موجتين من الهستريا الجماعية تغذتا بشكل كبير على مشاعر كراهية المهاجرين: موجة معاداة الألمان التي عصفت بالبلاد عام 1917 ـ 1918 بعد دخول أمريكا الحرب العالمية الأولى، وموجة «الرعب الأحمر» خلال 1919 ـ 1920. خلال الموجة الأولى صرّح الواعظ الديني بيلي سنداي: «إن قلبت جهنم رأساً على عقب، لوجدت مكتوباً على عقبها «صنع في ألمانيا»»[42].

شهدت هاتان الحركتان استخدام تعبير «الأمريكانية» (Americanism) أو «100 بالمئة أمريكي»، وطالبت إما بالسرعة في اندماج المهاجرين وإما طردهم. الهستريا أو حتى العنف ضد الأمريكان من أصل ألماني كان قوياً بشكل خاص في تكساس. كتب ستانلي كوبين أن الرعب الأحمر قد تغذى من بعض الاتجاهات

---

(40) David Harry Bennett, *The Party of Fear: From Nativist Movements to the New Right in American History* (New York: Random House, 1988), pp. 208-237.

(41) Michael Lind, *The Next American Nation: The New Nationalism and the Fourth American Revolution* (New York: Simon and Schuster, 1995), p. 88.

(42) ذكـر فـي: Cherry, ed., *God's New Israel: Religious Interpretations of American Destiny*, p. 269.

الموجودة بالفعل لدى الأمريكان: «العداء ضد بعض الأقليات، خصوصاً الراديكاليين والمهاجرين الجدد، والتعصب الوطني، والإيمان أن الأعداء في الداخل يشكلون تهديداً جدياً للأمن القومي»[(43)].

نُظر في ما بعد إلى حملة تحريم الكحول على أنها فشلت حتى في صيغتها الأصلية: ليس لكون أغلبية السكان قد رفضتها وعدّتها غير قابلة للتطبيق فقط، لكن لأنها أدت بالنتيجة لإفساد الشرطة والقضاء وأعطت دفعة قوية لنمو الجريمة المنظمة. وحسبما يطرح مورون، حتى عندما تفشل بعض القوانين مثل قانوني فولستيد ومان، إلا أنها تترك وراءها طبقة من البيروقراطية الفدرالية والشرطة بشكل خاص، تماماً كما فعلت في الأزمنة الأقرب «الحرب ضد المخدرات» والآن «الحرب ضد الإرهاب». لا يمكن النظر إلى هذه التيارات على أنها حركات هامشية غير ذات أهمية، فهي حركات تحشد ملايين الناس، وتؤثر بشكل عظيم في السلوك السياسي

---

(43) Stanley Coben, «A Study in Nativism: The American Red Scare of 1919-20,» *Political Science Quarterly*, vol. 79, no. 1 (March 1964).

من أجل وصف حالتي الذعر، انظر: Bennett, *The Party of Fear: From Nativist Movements to the New Right in American History*, pp. 183-198; Samuel Eliot Morison, *The Oxford History of the American People*, 3 vols. (New York: Penguin, 1994), vol. 3: *1869 Through the Death of John F. Kennedy, 1963*, pp. 206-219.

وحول هستيريا الحرب العالمية الأولى في تكساس، انظر: T. R. Fehrenbach, *Lone Star; a History of Texas and the Texans* (New York: Macmillan, [1968]), pp. 643-648, and Robert A. Caro, *The Years of Lyndon Johnson*, 3 vols. (New York: Knopf, 1982 - 2002), vol. 1: *The Path to Power*, pp. 80-81.

حول الضغوط على الصحافة المطبوعة باليديش (وهي مؤيدة للألمان تقليدياً) خلال الحرب العالمية الأولى، انظر: Irving Howe, *World of Our Fathers: The Journey of the East European Jews to America and the Life They Found and Made* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1976), pp. 538-540.

الأوسع نطاقاً، وتساهم في تشكيل الدولة الأمريكية.

القومية الأيرلندية ـ الأمريكية

هكذا وبسبب عمق الفشل في حملة تحريم الكحول، والإهانة التي تسبب بها الخلاف حول نظرية التطور، فإنه وبعد خمسين سنة من إلغاء الكونغرس للتحريم عام 1933 (بضغط من الرئيس روزفلت)، شاع الافتراض بأنه لن تشهد أمريكا مرة أخرى حركة واسعة الانتشار مثل هذه[44]. والحال أن دانييل بيل كتب عام 1979 (أي عندما بدأ اليمين المسيحي بالظهور رداً على الثورات الثقافية والجنسية والسوداء خلال الستينات وعلى هزيمة فييتنام) «أنه ومع استمرار ظهور مثل هذه «الضربة الارتدادية» فإنها اضطرت لاتخاذ شكل جديد، هو شكل القومية، وبالذات الشكل المخصوص لأمريكية المكارثية والعداء للشيوعية[45].

المكارثية كانت تحديداً النموذج الكلاسيكي لحركة جمعت بين مجموعات كانت متعادية من الأمريكان البيض من الطبقة الوسطى، للوقوف وراء برنامج قومي له سمات قوية من التقاليد البروتستانتية ذات عقدة الاضطهاد الثقافي، ومن أجل الدفاع ظاهرياً عن العقيدة الأمريكية في الحرية، والديمقراطية والقانون[46]. لقد نجحت في

(44) George Marsden, «The Religious Right: A Historical Overview,» Paper Presented at: *No Longer Exiles: The Religious New Right in American Politics* (Conference), Edited by Michael Cromartie (Washington, DC: Ethics and Public Policy Center, 1993), p. 1, and Martin E. Marty, *Pilgrims in their Own Land: 500 Years of Religion in America* (New York: Penguin Books, 1985), p. 410.

(45) Bell, ed., *The Radical Right*, p. 79.

(46) Seymour Martin Lipset and Earl Raab, *The Politics of Unreason; Right-Wing Extremism in America, 1790-1970*, Patterns of American Prejudice Series; v. 5 (New York: Harper and Row, [1970]), pp. 209-247.

توحيد التطرف القومي والاستبدادية اللوكية (نسبة إلى جون لوك) (بحسب تعبير لويس هارتز)، والهستيريا النفسية، ورد الفعل الديني ـ الثقافي، والنفور الطبقي المرير ومعاداة اليهود (إلى درجة أقل وأكثر غموضاً) في كتلة كراهية جماعية واحدة. كانت المكارثية بطريقة من الطرق نذيراً للتحالف بين الجنوب الأبيض والمجموعات المحافظة ثقافياً من الجماعات العرقية البيضاء في الشمال والغرب الأوسط الذين شكلوا في بداية القرن الحادي والعشرين الأساس الرئيس للحزب الجمهوري الذي يعد القومية من عناصره الحيوية.

ترمز المكارثية بالتالي أيضاً إلى الطريق التي استطاعت من خلالها الأعراق التي كانت مقصاة من الاندماج مع المجموعات «الأصيلة» القديمة عبر القومية النضالية. سبق المكارثية الفاشي «واعظ الراديو» الأب تشارلز كوفلين، في أواسط الثلاثينيات الذي مزج بصورة مشابهة معاداة الشيوعية مع معاداة النخبة، مع أنه في هذه الحالة (وبسبب الركود وموروث الفكر الاجتماعي الكاثوليكي) أدخل هجمات مباشرة على الرأسمالية وكان معادياً للسامية بشكل أكثر صراحة[47].

مكارثي نفسه كان كاثوليكياً من الطبقة الوسطى الصغيرة ومن خلفية زراعية من وسكونسن (أمه أمريكية من أصل ألماني). تحالفه مع الواسب (WASP) (البيض الأنجلو ـ ساكسون البروتستانت) كان رد فعل خلقه مزيج من معاداة الشيوعية ونفور اجتماعي مرير. لو نظرنا لها من منظار طبيعتها، لبدت المكارثية صيغة معاصرة من

---

(47) Michael Kazin, *The Populist Persuasion: An American History* (New York: Harper Collins, 1995), pp. 109-133, and Bennett, *The Party of Fear: From Nativist Movements to the New Right in American History*, pp. 253-266.

«المخاوف العظمى» غير العقلانية لفلاحي أوروبا (كما يُوحي بذلك بالطبع استخدام عبارة «مطاردة الساحرات» لوصف الحملة المكارثية). ولو نظرنا إليها بوصفها نموذج لمناورات البرجوازية الصغيرة القومية لإزاحة نخبة الواسب من خلال اتهامها بضعف وطنيتها، فإنها تصبح قابلة للفهم أكثر، لا بل وحتى عقلانية[48].

وكما لاحظنا في الفصل السابق، فإن أحد أوجه القومية الشعبوية في الولايات المتحدة هو الوجود الدائم لعنصر قوي جداً من العداء الطبقي ضد نخبة الساحل الشرقي. إنها كراهية حملها النواة الصلبة من السكان البروتستانت، ويستطيع المهاجرون الأحدث منهم الانضمام إليهم من خلالها، وهي ساعدت التقليد القومي الشعبوي لكي يصبح متعدد الأعراق. يعود أصل هذه الخصلة القوية من كراهية المثقفين في التقليد الأمريكي إلى حد بعيد إلى امتزاج العداء الطبقي ضد النخبة المتعلمة والمخاوف الدينية ـ الثقافية مما يزعمون أنها ثقافة الإلحاد[49].

كما يمكن النظر إلى مكارثي نفسه بطريقة مختلفة على أنه بشكل من الأشكال أعلى ـ أو أدنى ـ نقطة في مجموعة أنماط أمريكا الأيرلندية التي تطورت على مدى أكثر من قرن. وبالطبع فإن موقفه يعكس قوة معاداة الشيوعية في الكنيسة الكاثوليكية آنذاك، بسبب الاضطهاد الوحشي الذي عانت منه على يد حكم ستالين لأوروبا الشرقية.

---

(48) هذا الطرح عن أصول المكارثية موضح في مقالات ريتشارد هوفستادتر (Richard Hofstadter) وبيتر فيرك (Peter Viereck) وغيرهما في: Bell, ed., *The Radical Right*.

وانظر أيضاً: Bennett, Ibid., pp. 310-315.

(49) انظر: Hofstadter, *Anti-Intellectualism in American Life*, p. 55.

وثمة جانب آخر عظيم الأهمية ألا وهو الكراهية المريرة للأمريكان من أصل أيرلندي والكراهية الطبقية للنخبة البروتستانتية من الشمال الشرقي، والتي أثارها الاختقار شبه العنصري الذي عوملوا به لسنوات عديدة ماضية على يد هذه النخب: تسمية «الزنجي الأبيض»، الرسوم الساخرة اللئيمة التي تصف الأيرلندي بالقرد الأدنى من البشر، الإعلانات التي تحمل كتابة «لا حاجة بالأيرلندي أن يتقدم لهذا العمل»، والاحتقار الاجتماعي اللافت للنظر، فضلاً عن انتشار المشاعر المعادية للكاثوليك التي ساهمت عام 1928 بالهزيمة المهينة لآل سميث، أول أمريكي من أصل أيرلندي ترشح للرئاسة.

أهم طريقة اتبعها الأيرلنديون في سعيهم للاندماج خلال القرن التاسع عشر هو في التأكيد على بياضهم، هرباً من تسمية «زنجي أبيض»، وللانضمام للعرق الحاكم. هذا ما خلق نموذجاً للتعاون في القضايا العرقية بين الأيرلنديين وبيض الجنوب شكّل خلال الحرب الأهلية ـ بخاصة في انتفاضات التجنيد في نيويورك عام 1863 ـ تهديداً حقيقياً لانتصار الاتحاد. وكان ثمة أمر دائم الحضور تحت السطح، وصارت له أهمية سياسية عظيمة مرة أخرى منذ الستينات ولحد الآن، حين غادر عدد كبير من الأيرلنديين وغيرهم من الطبقة العاملة من البيض وانضموا إلى بيض الجنوب لترك صفوف الحزب الديمقراطي احتجاجاً على ما زعموا أنه تملق الديمقراطيين للسود[50].

كان للمسألة الطبقية على الدوام أهمية العرق نفسها تقريباً. «من البداية حتى النهاية، جاء أوسع قبول لمكارثي من أيرلنديي نيويورك حين هاجم مؤسسات البيض الأنجلو ـ ساكسون البروتستانت»[51]. هذا

---

(50) حول فترة أواسط القرن التاسع عشر، انظر: Noel Ignatiev, *How the Irish Became White* (New York: Routledge, 1995).

(51) Nathan Glazer and Daniel Patrick Moynhan, *Beyond the Melting Pot;* =

الجاذب الخطابي للجماهير ضد النخبة الخائنة ومثقفيها كان السمة الغالبة للحركات الراديكالية القومية منذ بداياتها[52]. لكن من النادر أنه كان بالوضوح الذي هو عليه في الولايات المتحدة. أحد أحدث المدافعين عن مكارثي هي آن كولتر التي كتبت: «وجّه [مكارثي] دعوته إلى جمهور قوي، جمهور الأمريكان العاديين... من مكارثي إلى ريشارد نيكسون إلى رونالد ريغان، يروق المحافظون للعمال. وحين يشعل الجمهوريون فتيل قوة ذوي القبعات الصلبة يصبح على الليبراليين أن يهرعوا للمخابئ... كان العمال يحبون مكارثي. كانت لديه موهبة تروق للعقلانية العظيمة التي يملكها شعب أمريكا»[53].

هذه الكراهية تجاه النخبة المثقفة زادها قوة فشل الأيرلنديين الكاثوليك في تشكيل جماعة تستطيع التقدم بهم إلى ما بعد مستوى اجتماعي ـ اقتصادي معيّن، الطبقة الوسطى الدنيا والعمالية العليا، إذ إنه حتى المهاجرين الأحدث منهم بكثير، مثل اليهود، مرُّوا مثل الصواريخ وتجاوزوهم خلال عهود أيام القرن العشرين. صارت أقوى ارتباطاً بمعاداة الثقافة، إذ لمدة طويلة فشل أيرلنديو أمريكا ـ على العكس من أقرانهم في أيرلندا ـ في إنتاج طبقة مثقفة توازي نسبتهم العددية[54].

---

the Negroes, Puerto Ricans, Jews, Italians, and Irish of New York City, = Publications of the Joint Center for Urban Studies (Cambridge, MA: M.I.T. Press, 1979), p. 270.

(52) انظر: David Schoenbaum, *Hitler's Social Revolution: Class and Status in Nazi Germany, 1933-1939*, Norton Paperback (New York: Norton, 1980).

(53) Ann Coulter, *Treason: Liberal Treachery from the Cold War to the War on Terrorism* (New York: Crown Forum, 2003), p. 69.

(54) Dorothy Van Doren, *Nationalism and Catholic Americanism* (New York: Sheed and Ward, 1967), and Glazer and Maynihan, *Beyond the Melting Pot; the Negroes, Puerto Ricans, Jews, Italians, and Irish of New York City*, pp. 230-231 and 247-250.

كما أن المكارثية ظهرت في نقطة كان الأيرلنديون الأمريكان بوصفهم جماعة قد وصلوا فيها إلى أقصى قوة سياسية استطاعوا تحقيقها في أمريكا، وكانت قد بدأت فيها مرحلة انحطاطهم السياسي. كانت رئاسة جون أف. كنيدي للجمهورية ورئاسة توماس ب. أونيل للكونغرس (1977 ـ 1987) لا تزال في حكم الغيب، لكن على المستوى المحلي في نيويورك وغيرها من مدن الشمال، كانت قوة الآلة الديمقراطية الأيرلندية القديمة في مرحلة الانحطاط بالفعل، تقضمها مجموعات أخرى من المهاجرين[55].

لابد من تذكر عاملٍ آخر، لأنه يتناسب مع الأنماط الأمريكية الأوسع للهزيمة وللمرارة القومية التي تساهم في تكوينها: إحساس الأيرلنديين بالهزيمة التاريخية والاضطهاد وانتزاع ملكيتهم على يد إنجلترا. إذ لو كانت التجربة التاريخية لهزيمة الجنوبيين فريدة من نوعها واقتصرت على بعض أجزاء أمريكا الجغرافية، فإن هذا لا ينطبق على الأجزاء العرقية فيها: أي الأيرلنديين، والبولونيين، وغيرهم من المهاجرين إلى أمريكا الذين جلبوا معهم ذكريات عرقية للهزيمة أسوأ بكثير من هزيمة الجنوب. والإيطاليون الجنوبيون كانوا قد عانوا الغزو، والاحتقار، والاستغلال على يد الإيطاليين الشماليين، في حين عانى اليهود والأرمن الأمرّين وبشكل أكثر فظاعة. من المؤكد وفي كثير من الحالات أن الهجوم عليهم واضطهادهم وما عانوه هو ما دفعهم للهجرة إلى سواحل أمريكا.

لدى كل هذه المجموعات توّجه خاص للتعويض عن الإهانات السابقة والمعاناة من خلال تمجيد القوة القومية الأمريكية ـ وبالطبع وفي الكثير من الحالات (الأيرلنديون من ضمنها) من خلال السعي لتسخير

---

(55) Glazer and Moynihan, Ibid., pp. 262 and 270-274.

هذه القوة من أجل تحقيق مصالحهم القومية الخاصة. لقد سعى العديد منهم للتغلب على استبعادهم عن مراكز القوة الوطنية والثروة والامتيازات من خلال التحوّل إلى «قوميين أمريكيين 200 بالمئة»[56].

عزا الكاتب والروائي الأيرلندي الأمريكي توماس فلاناغان التناقض في شخصية المخرج جون فورد وأعماله (اسمه الأصلي جون ألوسيوز فيني) إلى «إحساسه المزدوج بكونه أمريكي وأيرلندي في الوقت نفسه... فقد كان مؤمناً، مثل يوجين أونيل، أن كونه أيرلندياً يحمل معه عبء تقلب المزاج، والمواقف، والولاءات، والصراع مع العالم. ولكونه عمل مع أكثر أشكال الثقافة الأمريكية شعبية، فقد كان واعياً لوجود ثقافة أكثرية، وقف الأيرلنديون، بالرغم من ولائهم الحربجي، على مسافة منها»[57].

يمثل فيلم فورد «قلعة الأباتشي» (Fort Apache) نموذجاً مدهشاً لبعض هذه التناقضات. فيه يصوّر الجيش الأمريكي وكأنه قبيلة أيرلندية، فيها فلول من جنود جنوبيين مع ضباط واسب. نحو الطبقات العليا من الواسب، ورمزها الكولونيل أوين ثورزداي (أداه الممثل هنري فوندا) وابنته، ثمة مزيج من النفور والاحتقار، والإعجاب، والرغبة في الزواج المختلط[58].

---

(56) Lerner, *America as a Civilization; Life and Thought in the United States Today*, p. 904.

(57) ذكر في: Joseph McBride, *Searching for John Ford: A Life* (New York: St. Martin's Press, 2001), p. 6, and Thomas Flanagan: «Western Star,» *New York Review of Books*, vol. 48, no. 19 (November 2001), and «John Ford's West,» *New York Review of Books*, vol. 48, no. 20 (December 2001).

(58) McBride, Ibid., pp. 446-458, and Richard Slotkin, *Gunfighter Nation: The Myth of the Frontier in Twentieth-Century America*, Oklahoma Paperbacks ed. (Norman: University of Oklahoma Press, 1998), pp. 334-343.

مثلما يُبيّن عمل فورد، يسعى الأيرلنديون الأمريكان، بحسب صورتهم عن ذاتهم وتقاليدهم الثقافية ووضعهم ومركزهم الاقتصادي، إلى تجاوز التهميش ليس من خلال النضال القومي وحده بل أيضاً من خلال أن يصبحوا «الأوائل في الحرب»[59]. لقد سعوا وبنجاح كبير لتغيير صورة المقاتل الأيرلندي من السكير في الحانات إلى صورة الكولونيل «وايلد بيل» دونوفان وهو يقود كتيبته في منطقة الأرغون عام1918، وكذلك موت الأخوة سوليفان حتى آخر رجل منهم في البارجة يو.أس.أس. جونو في جواديلكانال عام 1942. يتجذر هذا النجاح في حقيقة أنه يعكس شيئاً واقعياً لدى الأيرلنديين الأمريكان كما بيّنه فورد نفسه الذي كان قد تجاوز سن الخدمة العسكرية لكنه أثبت شجاعة فائقة وتصميماً كبيراً، إذ عمل صانع أفلام وثائقية في البحرية الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية. في هوليوود، أدى الممثل الأيرلندي الأمريكي جيمس كاغني أدوار مجرمين أيرلنديين، كما أدى أدوار جنود أيرلنديين[60].

في سعيهم لتحقيق الاحترام والاندماج القومي من خلال النضال القومي، يشبه الأيرلنديون إلى حد بعيد البيض الجنوبيين بعد الحرب الأهلية، وحسبما قال غرادي ماكويني، فإن لديهم جميعاً الجذور ذاتها في كل الأحوال[61]. إعجاب جون فورد بالسيرة العسكرية للجنوب

---

(59) Van Doren, *Nationalism and Catholic Americanism*, pp. 134-162.

(60) من بينهم في الأقل شخصية واحدة أيرلندي أمريكي كان في البداية جندياً ثم صار رجل عصابة، وهذه شخصية بطل فيلم «The Roaring Twentie».

(61) Grady McWhiney, *Cracker Culture: Celtic Ways in the Old South* (University, Ala.: University of Alabama Press, 1988), pp. xxi-xliii.

ربما من الضروري في هذا المقام أن أسجل أني أنتمي للعرق الألماني الأيرلندي، وكان اسم والدتي قبل الزواج هو موناهن (Monahan)، ولا أحمل أي موقف معادي لحب القتال والمشاكسة من أجل هدف نبيل.

تبرز في بعض أفلام الغرب التي أخرجها والأفلام التاريخية مثل فيلم «رجل البحرية الذي نال أكثر الأوسمة في التاريخ» (History's Most Decorated Marine) الذي يؤرخ سيرة ليوتنانت جنرال «تشيستي» بولر الذي قُتل جده وهو يحارب من أجل الجنوب[62].

خلال فترة من القرن العشرين ظل الأيرلنديون الأمريكان، مثل غيرهم من المجموعات العرقية، بحاجة ماسة لتأكيد قوميتهم العسكرية لأنهم تعرضوا للشك بسبب موقفهم خلال السنوات المبكرة من كلا الحربين العالميتين. إذ خلال فترة التحضير لكلا الحربين، أدى العداء لبريطانيا بكثير من الأيرلنديين الأمريكان لاتخاذ مواقف تدعو للانكفاء الشرس، ما أدى بالتالي إلى اتهامهم بالخيانة بعد دخول أمريكا الحرب.

ومع ذلك، وإبان هستيريا معاداة الشيوعية في بداية الخمسينات، «حقق الأيرلنديون فائدة كبرى موقتة من مرحلة مكارثي... في عصر التصفيات الأمنية، كون المرء أيرلندياً كان دليلاً على ولائه. كان لابد من التحقيق مع رجال هارفارد، وكان رجال فوردهام [كلية كاثوليكية في نيويورك أغلب من يرتادها من الطبقة الوسطى من الأيرلنديين الأمريكان] هم من يقوم بعملية التحقيق»[63].

لا تزال بعض شخصيات وسائل الإعلام الأيرلندية الأمريكية تستغل هذه الصورة من أمثال شين هانيتي وبيل أورايلي، عند حديثهما عن أمريكا بكونها «أعظم بلد وهبه الرب للإنسان»[64]. وبالرغم من كونهما من أصول من الطبقة الوسطى، وفي جهد لكي يروقا لجمهور

(62) McBride, *Searching for John Ford: A Life*, p. 698.

(63) Glazer and Moynihan, *Beyond the Melting Pot; the Negroes, Puerto Ricans, Jews, Italians, and Irish of New York City*, p. 271.

(64) Sean Hannity, *Let Freedom Ring: Winning the War of Liberty Over Liberalism* (New York: Regan Books, 2002), p. 127.

معين، فقد اتخذا أسلوباً عمالياً، ويقال إن أورايلي قد زوّر لنفسه خلفية أيرلندية أمريكية كاذبة تزعم أنه من الطبقة العاملة[65].

ولحقبة طويلة هيمن فيها الأيرلنديون على الكنيسة الكاثوليكية الأمريكية ظلت هذه الكنيسة ذات سمة قومية، وهي روحية تزايدت في السنوات الأولى من الحرب الباردة: «الأيرلنديون، الكاثوليك، والأمريكان صاروا كتلة واحدة في عقل الأيرلندي الأمريكي»[66]. منذ الستينات تغيّر هذا التوجه القومي للكنيسة الكاثوليكية الأمريكية كلها.

في البداية سمح الفاتيكان بتطور اتجاهات ليبرالية وإصلاحية قاومت واستمرت طوال عقود من الرجعية. ثم تحفزت هذه الاتجاهات عبر معارضة حرب فيتنام. لكن ما يوازي ذلك في الأهمية هو أن الكنيسة الكاثوليكية هي كنيسةٌ عالمية. لذلك لا يمكن تحاشي الاتجاه العفوي فيها نحو شيء من الميل الدولي واحترام المؤسسات الدولية وهو ما يتعارض مع القومية الأمريكية. توضّح هذا منذ نهاية الحرب الباردة، حين اتخذ بطل معاداة الشيوعية البابا يوحنا بولس الثاني مواقف تتعلق بالقضايا الدولية، مثل انتقاده الحاد لإسرائيل ومعارضته لحرب العراق عام 2003، ما أغضب القوميين

(65) Eric Alterman, *What Liberal Media?: The Truth about Bias and the News* (New York: Basic Books, 2003), p. 35; Michael Kinsley, «O'Reilly Among the Snobs,» *Washington Post*, 1/3/2001, and Noam Scheiber, «Class Act: Chris Matthews and Bill O'Reilly Ignore the Economic Interests of the Working Class,» *New Republic*, 24/6/2001.

حول تظاهر جون فورد بمظهر الذكر الأيرلندي العنيف وهو ما يناقض طبيعته، انظر: McBride, *Searching for John Ford: A Life*, p. 298.

حول موقف فورد من حرب فيتنام، انظر: McBride, Ibid., pp. 691-692.

(66) Will Herberg, *Protestant, Catholic, Jew; an Essay in American Religious Sociology* (Garden City, NY: Doubleday, 1956), pp. 146-147.

الأمريكان، حتى الكاثوليك منهم. لا يوجد مثل هكذا محرمات دولية في الكنائس الأمريكية الأصولية التي هي اليوم بالطبع أكثر الكنائس المسيحية قومية، خارج العالم الأرثوذكسي.

اليمين المسيحي

منذ نهاية تحريم الكحول ولغاية السبعينات كانت هذه الكنائس الأصولية غائبة عموماً عن المشهد السياسي المباشر. كانت تقرب أن تكون شكلاً من أشكال «الهجرة الداخلية» لشدة ما بدا وكأن الثقافة المهيمنة قد تحولت ضدهم. أحد الكتب المتضمن مقالات عن اليمين الديني الجديد للثمانينات والتسعينات يحمل عنواناً يكشف عن ذلك **لم يعودوا منفيين** (*No Longer Exiles*)، وعام 1979 صدرت مقالة عن التراث اليهودي في أمريكا تصف المطالبة بتعريف الولايات المتحدة على أنها دولة مسيحية، على أنه يدل على «الغرائب المحلية». كتاب ماكس ليرنر الضخم الصادر عام 1957 بعنوان **الحضارة الأمريكية** (*American Civilization*)، يكرس 14 صفحة فقط (703 ـ 717) من مجموع 950 صفحة لتفحّص منهجي للمسيحية في أمريكا(67).

ما شجّع على هذه العملية موجات السخرية التي وُجّهت نحو الأصوليين بعد ما سمي بمحاكمة القرد عام 1925، حين حاكمت

(67) *No Longer Exiles: The Religious New Right in American Politics* (conference); Oscar Handlin, «American Jewry,» in: Elie Kedourie, ed., *The Jewish World: Revelation, Prophecy, and History*, Texts by Elie Kedourie [et al.] (London: Thames and Hudson, 1979), pp. 281-282, and Lerner, *America as a Civilization; Life and Thought in the United States Today*, pp. 703-717.

(68) ذكر في: Hofstadter, *Anti-Intellectualism in American Life*, p. 125.

ولاية تنسي المدرس جون توماس سكوبس لقيامه بتدريس نظرية داروين للنشوء والارتقاء. وبالرغم من صدور الحكم لصالح الولاية، إلا أن الدفاع والإعلام (وقد عرض أتش. ل. منكن أقوى هجماته) ضد طروحات القائد الشعبوي الإنجيلي ووزير الخارجية الأسبق وليام جنينغز برايان الذي كان المدعي العام في القضية، جعله يظهر غبياً. صرّح برايان بأن «العلل كلها التي تعاني منها أمريكا يمكن إرجاعها إلى تدريس نظرية التطور. من الأفضل لو دمرنا الكتب كلها التي كتبت، واحتفظنا فقط بالمقاطع الثلاثة الأولى من سفر التكوين»[68].

بدا لعقود عدة أن مثل هذه الشخصيات لن تؤخذ مرة جديدة على محمل الجد في مجال السياسة الوطنية، وأن الولايات المتحدة سوف تسير على الطريق نفسها التي سارت عليها بقية دول العالم الصناعي[69]. لكن هذه العقود زادت من تفاقم شعور الأصوليين البروتستانت بأنهم أقلية مضطهدة، «غرباء هنا، كما في أرض أجنبية»، كما تقول كلمات الترنيمة. لهذا الشعور جذور قديمة في التقاليد المسيحية، لكنه تغذى أيضاً من المشاعر الأوسع للاندحار والغربة وعقدة الاضطهاد لدى اليمين في أمريكا[70].

هكذا نجد أن ليندون جونسون الذي أمضى حياته السياسية بين

---

(69) Daniel J. Kevles, «Darwin in Dayton,» *New York Review of Books*, vol. 45, no. 18 (November 1998), and Robert C. Liebman and Robert Wuthnow, eds., *The New Christian Right: Mobilization and Legitimation*, with Contributions by James L. Guth [et al.] (Hawthorne, NY: Aldine Pub. Co., 1983).

(70) Almond, Appleby and Sivan, *Strong Religion: The Rise of Fundamentalisms around the World*, pp. 26-27.

عقود إلغاء تحريم الكحول وبروز اليمين المسيحي الجديد، لم يضطر للتعامل مع هذا الصنف من العمل السياسي على المستوى الوطني. في كتابهم الدراسي عن تاريخ الولايات المتحدة، المنشور عام 1969 وضع صامويل أليوت موريسون وزملاؤه عنوان الفصل الخاص بتحريم الكحول ومحاكمة سكوبس وانبعاث الكوكلوكس كلان كالتالي: «آخر معاقل القرن التاسع عشر في أمريكا»[71].

ثبت بالطبع أن هذا الاستشراف كان خطأً كبيراً. بالرغم من أنه «سيمر أكثر من نصف قرن قبل أن يعيد عدد كبير من الإنجيليين اكتشاف نخبةً فيها ما يكفي من الشيطنة لكي يجعلوا بناء حركتهم على أكتافها ممكنةً وضرورية»، لم تكن الكنائس الأصولية مهددة حقاً في مواقعها الجغرافية والثقافية. إن الإهانات والاحتقار الذي وجهته نخب المدن الكبرى امتزج مع عناصر نفور أخرى لكي يجعل وجهات نظر الأصوليين أكثر شعبية[72]. بحلول التسعينات عادت الهجمة المضادة للأصوليين على تعليم نظرية النشوء والارتقاء في المدارس بقوة أكبر.

بالرغم من غياب الكنائس بشكل واسع النطاق عن السياسة والحكم منذ الثلاثينيات ولغاية السبعينات من القرن العشرين، إلا أنهم لم ينسحبوا من المجتمع. بل بالعكس، فقد شهدت هذه العقود انتشار الكنائس الإنجيلية بين وسائل الإعلام الجديدة ـ التلفزيون ـ

---

(71) Samuel Eliot Morison, Henry Steele Commager and William E. Leuchtenburg, *The Growth of the American Republic*, 6th ed. rev., and enl. (New York: Oxford University Press, 1969), pp. 435-436, and Marty, *Pilgrims in their Own Land: 500 Years of Religion in America*, pp. 380-381.

(72) Kazin, *The Populist Persuasion: An American History*, p. 106.

والمناطق الجديدة في الولايات المتحدة[73]. ومع أن المبشر التلفزيوني بيلي غراهام نفسه كان من بين المعتدلين سياسياً في كثير من الجوانب، إلا أن العالم الذي يمّثله أدى دوراً كبيراً في المكارثية.

كانت الكنائس الأمريكية، وبالأخص الإنجيلية والأصولية، قادرةً ليس على المحافظة على أتباعها فقط، بل وعلى توسيع عضويتها، في وقت شهد معظم العالم المتقدم، تراجعاً عميقاً للإيمان الديني وممارسته. ثمة سبب لذلك وهو أن الكنائس أدت دوراً فاعلاً في التخفيف من الجوانب الأكثر شراسة للتغيير بالنسبة للعديد من الأمريكان، خصوصاً الهجرة الداخلية من الريف إلى المدن وما نتج عنها من تشظٍ اجتماعي.

بالنظر لسرعة التغيير الاقتصادي ـ الاجتماعي في أمريكا، وتمزق المجتمع القائم نتيجة ذلك، وانعدام شبكة الأمان للرعاية الاجتماعية والصحية بالمقارنة مع ما وفرته بقية الدول المتقدمة، فقد صار هذا الدور أكثر ضرورة وساعد في احتفاظ الكنيسة بقبضتها على قطاعات مهمة من المجتمع. في أغلب الأراضي الأمريكية، واصلت الكنائس أداء دورها التوجيهي القيمي الذي كان لها في تخوم أمريكا، وبذلك ساعدت في المحافظة على العوالم الثقافية التي تولّد القومية الشعبوية الأمريكية.

شكلت الكثير من الكنائس الأمريكية البروتستانتية الكبيرة مجتمعات متقاربة لها جانب مهم من الرعاية الاجتماعية، بما وفرّته من شبكات واسعة من المدارس والحلقات الدراسية، ومجموعات عائلات الطلبة، ونوادي الأطفال، والمراهقين، والرجال والنساء

---

(73) Marty, Ibid., pp. 410-415, and Carpenter, *Revive Us Again: The Reawakening of American Fundamentalism*, pp. 211-229.

وكبار السن، وخدمات الاستشارات الزوجية، والرحلات والنشاطات الرياضية، وحتى مجموعات السياحة الجماعية (غالباً إلى الأراضي المقدسة). في الواقع، فإنها أدت دوراً مركزياً في بناء روح الجماعة الذي لولاه لكان يمكن أن يكون مجتمعاً سطحياً، قاحلاً في العديد من الضواحي الأمريكية، أو حسبما وصفه الكاتب الساخر غاريسون كيللر: «إن رغبت في مقابلة سيدة غير مرتبطة في منيسوتا، ربما كان عليك الذهاب إلى إحدى الكنائس»[74].

في هذا المجال، تشبه هذه الكنائس الكنيسة الكاثوليكية في القرن التاسع عشر (التي أدت دوراً مشابهاً بين القادمين الجدد إلى المدن الكبرى في أوروبا وأمريكا) أكثر من شبهها بكنائس أوروبا اليوم المصابة بفقر الدم[75]. وكما في الكنيسة الكاثوليكية في الماضي، فإن هذا ما أعطى أيضاً للاتجاهات البروتستانتية المحافظة قدرة هائلة على التعبئة والتنظيم السياسي، في الماضي والحاضر كما في التحالف المسيحي والحركات المرتبطة معه.

إن تحول المؤتمر المعمداني الجنوبي، نحو الدعم العملي للحزب الجمهوري بدءاً من السبعينات كان منبعه التحرك واسع النطاق للبيض الجنوبيين في هذا الاتجاه، وهو في الوقت نفسه ساهم في تدعيمه. وهذا الأمر جعل الديمقراطيين الجنوبيين في الكنائس المعمدانية الجنوبية من أمثال بيل كلينتون وآل غور في موقع الأقلية الضئيلة في داخل كنائسهم. وفي أغلبية الجنوب، فإن انتماءهم الديني

---

(74) «The Prairie Home Companion,» (National Public Radio, 26 October 2001).

(75) Kenneth D. Wald, Dennis Owen and Samuel S. Hill, «Churches as Political Communities,» *American Political Science Review*, vol. 82, no. 2 (June 1988).

لم يساعدهم إلا بشكل محدود بين بيض الجنوب في انتخابات 1992 و1996، وكان فشل آل غور في الحصول على تأييد المنطقة في انتخابات 2000 قد حكم عليه بالفشل في السباق إلى الرئاسة[76].

يتوازى مع ما سبق في الأهمية استبدال التحضّر في سكنى المدن بالتوسّع في سكنى الضواحي. كانت سكنى المدن الحضرية في العالم أجمع قد أشّرت إلى تحول جذري في البيئة والقيم من تلك التي كانت موحدة ثقافياً في المدن الصغيرة والأرياف إلى تلك ذات تعددية الثقافات والأعراق وحتى الأجناس في المدن المختلطة. صحب ذلك غالباً تحوّل في القيم، ومن بينها غالباً تراجع الإيمان الديني، نتيجة لذلك على المدى البعيد، وقد نبع ذلك بالطبع من تفكك المجتمعات الصغيرة المعزولة نسبياً.

أما الانتماء السكني إلى الضواحي فمسألة مختلفة. إذ يسمح، وفي شكله الأمريكي يتعمد أن يسمح بالمحافظة على عالم المدن الصغيرة قدر تعلق الأمر بالحياة العائلية والثقافة: مجتمع متجانس عرقياً وثقافياً، وهو تقليدي يذهب أفراده للكنيسة، ووطني. إن انتشار أشكال الثقافة الجنوبية (الملطفة والمحدثة) ومن بينها الموسيقى الريفية، لأغلبية الولايات المتحدة يمكن إرجاعه جزئياً إلى انتقال «الطبقة الوسطى» من البيض بعيداً عن سكن المدن وباتجاه تجمعات الضواحي[77]. إن كانت القومية الأمريكية عام 2004 تشبه القومية الأوروبية قبل 1914، فالسبب يكمن في أنه في بعض مناطق أمريكا فإن بعض جوانب المجتمع والثقافة هي أقرب

---

(76) Oran P. Smith, *The Rise of Baptist Republicanism* (New York: New York University Press, 1997), pp. 46-67, 98-112 and 191-212.

(77) Peter Applebome, *Dixie Rising: How the South Is Shaping American Values, Politics and Culture* (New York: Times Books, 1996), pp. 241 ff.

لما كانت عليه أوروبا قبل 1914، ما هي عليه أوروبا في 2004[78].

خلال إعادة خلق أجواء المدن الصغيرة هذه، أدت الكنائس الإنجيلية البروتستانتية دوراً مهماً جداً، ساهم ليس في المحافظة عليها فقط في مراكزها التقليدية، بل وفي توسيعها لتشمل بقية الولايات المتحدة تقريباً[79]. من المؤكد أن استعادة الإيمان الديني وممارسته في الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية قد تزامن مع النمو المدهش للضواحي، وربما مرتبطاً بها بشكل وثيق[80].

ثمة جدال يدور حول الأرقام المتعلقة بنسبة العلاقة بين الإيمان الديني في الولايات المتحدة وقوة تأثير هذا القطاع في عنصر «الأصولية». إذ بيّن استطلاع للرأي أجراه معهد غالوب عام 1993 أن 42 بالمئة من الأمريكان يصفون أنفسهم على أنهم «ولدوا من جديد». ويشمل هذا الرقم في آن معاً، أفراداً كثر من الكنائس المسماة بالتيار الرئيسي، والتي تسمي هذا الوصف وصفاً شكلياً لإيمان لاهوتي أكثر من كونه تعبيراً عن رأي شخصي، وإنجيليين سود، يقودهم إيمانهم للتصويت للحزب الجمهوري. في دراسة أجراها جورج بارنا عام 1996 وجد أن 66 بالمئة من الأمريكان يقولون إنهم «ملتزمون شخصياً بيسوع المسيح»، وهي أعلى من نسبة 60 بالمئة خلال الثمانينيات. حوالى ثلث الجمهور يحضر الكنيسة (أو أي مكان عبادة آخر) مرة واحدة أسبوعياً، وثلث آخر يحضرها في

---

(78) Lerner, *America as a Civilization; Life and Thought in the United States Today*, pp. 172-182.

(79) Robert Bellah [et al.], *Habits of the Heart: Middle America Observed* (Berkeley: University of California Press, 1985), pp. 196, 204-206 and 251 etc.

(80) انظر: Herberg, *Protestant, Catholic, Jew; an Essay in American Religious Sociology*, pp. 59-84.

الأقل مرة شهرياً. والبقية لا تحضر قط[81].

بحسب مسح معتمد أجرته جامعة مشيغان عام 2000، ظهر أن نسبة البروتستانت البيض الإنجيليين (بينهم كنائس تعرّف نفسها على أنها أصولية) تصل إلى نسبة 23,1 بالمئة من مجموع سكان الولايات المتحدة في تلك السنة. هذا الرقم يجعل البروتستانت الإنجيليين ثاني أكبر جماعة مسيحية بعد الكاثوليك الذين يشكلون 27,3 بالمئة. وبالرغم من انتشارهم في أرجاء الولايات المتحدة، إلا أن التركز الأكبر للإنجيليين يظل في حزام الكتاب المقدس في الجنوب الكبير والمناطق المحيطة به.

تأتي الطوائف الرئيسية بين البروتستانت (الأسقفية والمنهجية واللوثرية وغيرها) في المرتبة الثالثة، إذ يشكلون 21,2 بالمئة من مجموع سكان الولايات المتحدة. بين عامي 1971 و1990 اكتسبت الكنائس الإنجيلية أكثر من 6 ملايين عضو جديد، وخسرت الكنائس الرئيسية حوالى 2,6 مليون[82]. شكل البروتستانت السود 7,6 بالمئة من عدد السكان، «أديان أخرى» كانت نسبتها 4,5 بالمئة، اليهود 2 بالمئة. الاختلاف المدهش عن أوروبا هو أن 14,4 بالمئة فقط وصفوا أنفسهم على أنهم «علمانيون»[83]. وكما توحي تسمية «حزام الكتاب المقدس» فإن هذه النسب تتضمن اختلافات مهمة بحسب المناطق. عام 1986، وبحسب إحصاء غالوب كان 48 بالمئة من الجنوبيين

---

(81) الأرقام نقلت عن: Sara Diamond, *Not by Politics Alone: The Enduring Influence of the Christian Right* (New York: Guilford Press, 1998), pp. 9-10

(82) المصدر نفسه.

(83) American National Election Studies (ANES), Center for Political Studies, University of Michigan, Quoted in: Wald, *Religion and Politics in the United States*, pp. 160-162.

(أكثر من ضعف المعدل الوطني) يصفون أنفسهم على أنهم مسيحيون «ولدوا من جديد»، مقارنةً مع 31 بالمئة في الغرب الأوسط، و19 بالمئة فقط في الشمال الشرقي (مرة أخرى «الساحل الشرقي» الشرير الملحد).

يصعب تحديد العدد الصحيح بين هؤلاء ممن يملك حقاً قناعات «أصولية»، أو يدعمون أجندة اليمين المسيحي في السياسة (المرتبطة بشكل وثيق مع النهج القومي الشعبوي)[84].

في مسح أجرته جامعة بيو (Peu) في آذار/ مارس 2004 أشار إلى أن 40 بالمئة من الأمريكان يؤمنون بصحة حرفية كل ما جاء في الكتاب المقدس، و42 بالمئة آخرين صرحوا أنها كلمات الرب، ولكن لا يشترط أن يكون كل حرف فيها صحيحاً[85]. بالطبع أغلب هؤلاء الناس لا يحاولون تطبيق ما يؤمنون به، لكن هذا العالم الإيماني يعطي أي أقلية مصممة بحراً واسعاً من القبول الشعبي لكي تسبح فيه، وهو ما لا يوجد في أي مكان آخر من العالم المتقدم. بحسب إحصاء غالوب فإن 18 بالمئة من الأمريكان الذين أجري عليهم المسح عام 1993 يؤمنون أن الفيضانات التي حصلت في ذلك العام هي عقاب الرب على خطايا الشعب الذي يعيش قرب نهر المسيسيبي[86].

في بريطانيا، فإن وجهات نظر رئيس الوزراء توني بلير الأكثر اعتدالاً، وهو بروتستانتي ومن كنائس الخط الرئيسي، قد خفف من

---

(84) حول تأثير ساوذرن بابتست على الحزب الجمهوري منذ الستينات، انظر: Oran P. Smith, *The Rise of Baptist Republicanism* (New York: New York University Press, 1997).

(85) استطلاع رأي أجرته جامعة بيو عبر الهاتف بطلب من مجلة **نيوزويك**، ورد ذكره في: Davis Gates, «The Pop Populist,» *Newsweek* (24 May 2004).

(86) Lipset, *American Exceptionalism: A Double-Edged Sword*, pp. 268-269.

غلوائها نصائح مستشاريه خشية السخرية الشعبية وابتعاد الناس عنه. من المستحيل أن ينصح المستشارون بمثل هذا في الولايات المتحدة. بحلول عام 1976 كانت الهوية الدينية للرئيس جيمي كارتر وهي هوية «المولود من جديد» قد راقت للجمهور بما يكفي حتى يشعر الرئيس جيرالد فورد بضرورة الإعلان عن كونه هو أيضاً «مولود من جديد»، بالرغم من كونه أسقفياً![87]

باستثناء جورج أتش. دبليو. بوش (بوش الكبير) فإن جميع رؤساء الولايات المتحدة اللاحقين صرّحوا أيضاً أنهم «مولودون من جديد»، وفي حال ريغان وجورج دبليو. بوش (بوش الصغير) فإنهم بدوا صادقين تماماً. في استطلاع أجري عام 1998، صرّح 56 بالمئة من الأمريكيين أنهم لن يصّوتوا لصالح ملحدٍ إذا ترشح للرئاسة (وهذا تغيير كبير بالمقارنة مع عام 1958، حين قال ذلك 82 بالمئة)[88]. للتلاعب بهذه المشاعر، صرح بوش الكبير عام 1992، كما فعل جميع المرشحين الجمهوريين طوال الجيل الماضي، «أني أؤمن من كل قلبي أنه لا يمكن للمرء أن يكون رئيساً من دون أن يؤمن بالله». عام 1996 وصف أكثر من نصف الأعضاء المسجلين أعضاء في الحزب الجمهوري أنهم ينتمون لليمين المسيحي[89]. عام 2004 وخلال حملة الانتخابات الأولية للحزب الديمقراطي، صرّح

---

(87) Peter W. Williams, *America's Religions: From their Origins to the Twenty-First Century*, 2nd ed. (Urbana, Ill.: University of Illinois Press, 2002), p. 379.

(88) انظر: E. J. Dionne and John J. DiIulio, eds., *What's God Got to Do with the American Experiment?* (Washington, DC: Brookings Institution Press, 2000), p. 26.

(89) Almond, Appleby and Sivan, *Strong Religion: The Rise of Fundamentalisms around the World*, p. 227.

عدد من المرشحين أنهم قد اكتشفوا الدين خلال حملتهم الانتخابية، وهذا أمر غير محتمل أصلاً[90].

قيل إن حوالى ثلث إلى نصف الإنجيليين البيض (من بينهم الأصوليين)، أو ما بين 7 ـ 12 بالمئة من مجموع عدد سكان أمريكا، يدعمون اليمين المسيحي، أو في الأقل يشتركون معه في الأيديولوجية. ومع ذلك فإن قوة الأصوليين، مثل قوة الأقليات العرقية، لا تكمن في أعدادها وحسب، بل في التزامها الاجتماعي والسياسي الأكبر نسبياً: نسب أعلى في المشاركة في الانتخابات، والرغبة في التحرك بشأن بعض القضايا، والاستعداد لبعض التضحيات الشخصية بالوقت والمال، والتركيز على المناطق الاستراتيجية سياسياً.

وكما لاحظ زعيم التحالف المسيحي رالف ريد فإن الالتزام والتضحية بالوقت من أجل قضية التعليم وغيرها من القضايا المحلية قد جعلت نشطاء المحافظين من التحالف المسيحي قوةً لا يستهان بها في السياسة المحلية (في مجالس إدارة المدارس وغيرها)، وبذلك وضعوا الأسس لنجاحات لاحقة في السياسة الوطنية: «الامتياز الذي نملكه هو أن الليبراليين ومؤيدي المرأة لا يذهبون للكنيسة عموماً. لا يتجمعون في مكان واحد لثلاثة أيام قبيل الانتخابات»[91]. كما أن الكليات المسيحية المحافظة قد أثبتت أنها

---

(90) Colbert I. King, «Dean's Faith-Based Folly,» *Washington Post*, 10/1/2004, and Steven Waldman, «When Piety Takes Center Stage,» *Washington Post*, 11/1/2004.

(91) Ralph Reed, «The Future of the Religious Right,» in: William R. Stevenson, ed., *Christian Political Activism at the Crossroads*, Calvin Center Series (Lanham, Md.: University Press of America, 1994), pp. 81-86, and Reed, Quoted in: Wald, *Religion and Politics in the United States*, p. 200.

للإطلاع على مسح النشطاء في اليمين المسيحي وبنيتهم التنظيمية، انظر: Mark J. Rozell and Clyde Wilcox, «Second Coming: The Strategies of the New Christian Right,» =

مصدر مفيد للعاملين في حملات الجمهوريين[92].

تزايدت قوة الأصوليين، مثل بقية الأقليات ذات الحوافز القوية، بشكل كبير بسبب ضعف نسبة المشاركة في العملية الانتخابية في الولايات المتحدة. وهكذا فإننا نجد أنه في انتخابات الكونغرس في تشرين الثاني/نوفمبر 2002، حقق الجمهوريون نتائج باهرة في مجلسي الشيوخ والنواب بمشاركة اقتصرت على نسبة 15 بالمئة من مجموع عدد المسجلين للانتخاب. بمثل هذا الرقم الضئيل، يمكن أن يشكّل الأصوليون نسبة واسعة وقوية.

صعد اليمين المسيحي في السبعينيات رد فعل على سن قوانين الإجهاض. الإجهاض مسألة تثير قلقاً عميقاً للمسيحيين، وأمر يمكنه أن يوحد المحافظين من البروتستانت الإنجيليين مع الكاثوليك، مثل وليام بينيت. وكما في المراحل السابقة، فإن الغضب بشأن الإجهاض قد شكّل أيضاً جزءاً من مشاعر أوسع بكثير من الخوف والنفور حفزت اليمين المسيحي مع اليمين الجديد وهو الحلقة الأوسع التي يتكون منها[93].

شهدت الستينيات والسبعينيات هزائم عدة لثقافة الجنوب

= *Political Science Quarterly*, vol. 111, no. 2 (Summer 1996), and Kimberly H. Conger and John C. Green, «Spreading Out and Digging in: Christian Conservatives and State Republican Parties,» *Campaigns and Elections*, vol. 23, no. 1 (February 2002).

(92) Rosalind S. Helderman, «Outfitted with Placards and Prayer: Students from Virginia's New Patrick Henry College Planting Political Seeds,» *Washington Post*, 20/10/2003.

(93) Diamond, *Not by Politics Alone: The Enduring Influence of the Christian Right*, pp. 63-66 and 131-155; Alan I. Abramowitz, «It's Abortion, Stupid: Policy Voting in the 1992 Presidential Election,» *Journal of Politics*, vol. 57, no. 1 (February 1995), and Richard T. Hughes, *Myths America Lives By*, Foreword by Robert N. Bellah (Urbana: University of Illinois Press, 2003), pp. 85-89.

الأبيض ولقلب البلاد، وهي هزائم لو جمعت معاً لكانت أعظم من كل تجاربهم منذ الحرب الأهلية. إن تعبير «ثورة الزنوج الاجتماعية ـ الاقتصادية» الذي استخدمه بعض الكتاب لوصف بعض جوانب الستينيات، قد يكون من باب المبالغة لكنه يعكس بالتأكيد الطريقة التي شعر العديد من البيض بها آنذاك وما زالوا يشعرون بها اليوم إلى حد ما[94]. وقد تزامنت الحقوق المدنية للسود مع أحداث الشغب في وسط المدن والضغوط لتحقيق بعض المطالب في التعليم والسكن، كلها أرعبت وأغضبت قطاعات واسعة من الطبقات الوسطى البيضاء. برز من هذا الرعب تحالف جديد بين بيض الجنوب والغرب الأوسط على خطوط مشابهة للتحالف الجاكسوني الأصلي الذي شكّل منذ أكثر من قرن أسس الحزب الديمقراطي. إن الاحتفاء النشط بما يفترض أن يكون القيم «السوداء» ونبذ القيم «البيضاء» على يد الأقسام الأكثر راديكالية من المثقفين المنمّقين قد ضرب العصب الحي للبيض الفقراء غير المنمّقين من سكان المدن الصغيرة[95].

إن الثورة الجنسية التي كان سن قوانين الإجهاض جزءاً منها، ضربت أساس الفكر المحافظ وهي العائلة. وصارت ممارسة المراهقين للجنس (الذي يتعايش بشكل غريب مع القوانين التي تحرم ممارسة الجنس بين المراهقين في بعض الولايات) جزءاً مركزياً في تسويق استراتيجيات قطاعات واسعة من الرأسمالية الأمريكية. رأى بعض الأصوليين أن ظهور المثلية الجنسية بشكل معلن إشارة إلى قرب نهاية العالم. رد فعل المجتمع المحافظ ضد الاعتراف بالمثلية

---

(94) Kevin Phillips, *The Emerging Republican Majority*, pp. 25, 33 and 37.

(95) Robert Neelly Bellah, *The Broken Covenant: American Civil Religion in a Time of Trial*, Weil Lectures; 1971 (New York: Seabury Press, [1975]), pp. 105-106.

الجنسية صار أكثر وليس أقل خلال التسعينيات، وذلك مع ظهور العديد من الشخصيات الإيجابية من المثليين جنسياً من الرجال والنساء في برامج التلفزيون، وحتى في برامج مخصصة بالكامل لهم ولمجتمعهم مثل برنامج «ويل وغريس» (Will and Grace). وهذا ما قرّب من تأثير المثلية الجنسية في كل عائلة أمريكية بوجود التلفزيون[96]. عام 2003 ـ 2004 بدأ الضغط لسن قوانين تسمح بزواج المثليين ما خلق حافزاً جديداً لتعبئة اليمين المسيحي دعماً للجمهوريين.

بدت «الثقافة المضادة» عموماً في نظر أمريكا المسيحيين المحافظين، على شكل هجمة شيطانيةٍ كريهة لا توصف ضد فكرتها عن المجتمع. إذ تمردت قطاعات محدودة ولكن صاخبة من شباب أمريكا ضد الخدمة العسكرية والقيم الوطنية، وتعرضت أمريكا للمرة الأولى في تاريخها للهزيمة في حرب كبرى[97]. كان الكاثوليك مكروهين في السابق، لكن في الأقل لم يكن ثمة اختلاف حقيقي بين أفكارهم عن العائلة، والأخلاق الجنسية والتصرف الرجولي، وبين أفكار الإنجيليين المتطرفين. بالنسبة لعقل تقليدي، تبدو الثقافة الأمريكية التي تطورت بعد الستينيات بالمقابل، شيئاً يشبه تجميعاً لوحوش وتشوهات يصعب تخيلها، كما أن الكثير مما يظهر على التلفزيون يشكل هجوماً يومياً على عالم الإيمان والثقافة الخاص بهم لا أكثر ولا أقل. أخيراً، وبدءاً من الصدمة النفطية عام 1973، شهدت السبعينيات نهاية الازدهار الطويل الذي تلا الحرب وبدأت

---

(96) Tracy L. Scott, «Gay Characters Gaining TV Popularity,» *Washington Post* (TV Week), 30/11/2003.

(97) Maurice Isserman and Michael Kazin, *America Divided: The Civil War of the 1960s* (New York: Oxford University Press, 2000), pp. 205-220.

ثلاثة عقود لم يسبق مثيلها من كساد طويل الأمد في الدخل الحقيقي بالنسبة للطبقة الأمريكية المتوسطة. لقد اعتادت الطبقة العاملة البيضاء القديمة في الغرب الأوسط على عالم يكون فيه احترام المرء نابعاً من ضمان عمل ثابت ودخل يتصاعد بثبات ومركز اجتماعي. نهاية هذا العالم كانت ضربة رهيبة «للاقتصاد الأخلاقي»[98]. تقدم هذه الهزائم تفسيراً للمرارة، واللؤم والدفاع العدواني للجناح اليميني الأمريكي المعاصر وللقومية الأمريكية التي يتزاوج معها. حتى حين يكون هؤلاء في موقع قوة ظاهرياً، يظل شعور الهزيمة سائداً بينهم. لقد أمضوا سنوات طويلة في محاولة محو هزائم الستينيات وبداية السبعينات.

ما زال ثمة أمل - ينعكس بقوة في بيان الجمهوريين لانتخابات 1994، بعنوان «عقد مع أمريكا» - بأنه إن توافرت الإرادة بما يكفي، يمكن لأمريكا أن تعود للعصر الذهبي في زمن أيزنهاور في الخمسينات[99]. ولاستحالة الاعتراف بأن التطور الرأسمالي الأمريكي مسؤول بشكل كبير عن التغير الاجتماعي والثقافي المكروه، فإنه كان لا بد بالضرورة من تفسير فشل هذا البرنامج الثقافي والاجتماعي الإصلاحي «بنظرية سياسة الشيطان». بحسب هذه النظرية إن القوى الشريرة في داخل البلاد وخارجها، بالذات «النخب الليبرالية»، بخاصة في الإعلام، وحلفاءهم المزعومين في أوروبا وأعداء الأمة الذين يدللونهم في أماكن أخرى

---

(98) حول العلاقة النسبية بين الفقر ونقص التعليم والإيمان الأصولي، انظر: Corwin Smidt, «'Born Again' Politics: The Political Attitudes and Behavior of Evangelical Christians in the South and Non-South,» in: Tod A. Baker, Robert P. Steed and Laurence W. Moreland, eds., *Religion and Politics in the South: Mass and Elite Perspectives* (New York: Praeger, 1983), pp. 27-56.

(99) هذه الروحية تنتشر في كل كتاب نيوت غينغرش (Newt Gingrich)، انظر: Newt Gingrich, *To Renew America* (New York: HarperCollins, 1995).

من العالم، هم «الشياطين» المسؤولة. ومع ما يبدو عليه ذلك من غرابة بالنظر إلى قوة الجماعات المحافظة، فإنه إذا كان معيار المجتمع المحافظ السوي هو ما كانت عليه أمريكا في الخمسينات بالنظر لمدى قوة جماعات المحافظين، فمن الطبيعي إذاً القول إن المحافظين قد هزموا وسيظلون يهزمون دائماً.

جعلت ظروف حرب فييتنام التغيرات الثقافية التي حصلت في الستينيات والسبعينيات أسوأ مما هي عليه بالنسبة للمحافظين الأمريكيين. إن الترابط مع الهزيمة العسكرية قضى على احتمالات نجاح التقدمية الليبرالية في أن تروق لقطاعات أوسع من التيار الأمريكي الرئيس. التزم اليمين المسيحي، مثل اليمين عموماً، بمعاداة الشيوعية، وبمعارضة اتفاقيات ستارت 2 مع الاتحاد السوفياتي للحد من القوة النووية، وبالمطالبة بزيادة الإنفاق العسكري وباستراتيجية أكثر عنفاً ضد الراديكاليين في أمريكا الوسطى، ودعم خطاب رونالد ريغان عن «إمبراطورية الشر»، وكذلك دعم تايوان ضد «الصين الحمراء»[(100)]. شكلت «معاداة الشيوعية» جزءاً من نهج قومي متصلب أكثر تعقيداً، إذ عارض السياسيون ممن ارتبطوا مع اليمين المسيحي، مثل أصدقائي في تروي، بمرارة التخلي عن سيطرة أمريكا على منطقة قناة بنما وطالبوا بمواقف أكثر تشدداً ضد إيران بعد قيام الثورة فيها[(101)].

---

(100) هذا التناسب بين الإيمان الإنجيلي ومعارضة معاهدة الحد من القدرات النووية، انظر: Corwin E. Smidt, ed., *Contemporary Evangelical Political Involvement: An Analysis and Assessment* (Lanham: University Press of America, 1989), pp. 85-96.

(101) Robert C. Liebman, «Mobilizing the Moral Majority,» in: Liebman and Wuthnow, eds., *The New Christian Right: Mobilization and Legitimation*, p. 69; Almond, Appleby and Sivan, *Strong Religion: The Rise of Fundamentalisms around the World*, pp. 45 ff., and Bennett, *The Party of Fear: From Nativist Movements to the New Right in American History*, pp. 375-377 and 396-398.

أحد أكثر الشعارات المشهورة والمعممة لجيري فالويل كان بعنوان «أنا أحب أمريكا». ملأت القومية والرموز القومية الاجتماعات، الدعاية وخطاب اليمين المسيحي. ساعدت هذه الاتجاهات على تدعيم الكراهية القومية لأوروبا بشكل خاص. أحد الوعاظ الإنجيليين من الإيمان بنهاية العالم والذي له نفوذ كبير في اليمين، هو الكولونيل المتقاعد روبرت ثيم من هيوستن، صار شهيراً بصعوده إلى المحراب مرتدياً زيه العسكري القديم(102). وبحسب قول المعلق المحافظ روبرت نوفاك، «يرى هؤلاء المؤيدون لبوش الرئيس وهو يتعرض لهجوم عالمي لأنه مسيحي، خصوصاً في أوروبا، حيث يتصاعد الإلحاد، وحيث الدين في انحطاط»(103).

من الطبيعي بروز الراديكالية القومية لليمين الديني بقوة بعد 11 أيلول/ سبتمبر واندماجها مع العداء الديني للإسلام بوصفه ديناً. بوش نفسه تعرض للانتقاد المرير من بعض قطاعات اليمين الديني عن خطابه ليوم 17 أيلول/سبتمبر 2001، في المركز الإسلامي في واشنطن حين وصف الإسلام «دين سلام»(104). ووصف فرانكلين

---

(102) ثمة دعوة مبكرة للحرب على الإرهاب وتوسيعها من أفغانستان إلى العراق وأبعد، انظر: Robert L. Maginnis, «Hunting Down Backers of Terrorism,» *LA Daily Journal*, 22/11/2001.

أعيد نشرها في الموقع «Family Research Council»، انظر: www.frc.org.

الترابط العقلي بين هذه الجماعة الدينية المحافظة بين موقفهم المريد للعائلة والمعادي للإجهاض ومواقفهم المتصلبة في النزاع ضد الإرهاب قد لا تبدو واضحة فكرياً، لكنها ثقافياً منسجمة تماماً.

(103) Robert D. Novak, «Bush's Gay Marriage Test,» *Washington Post*, 1/12/2003.

(104) خطاب في المركز الإسلامي في واشنطن دي. سي. في 17 أيلول/ سبتمبر 2001، في: www.whitehouse.gov.

غراهام، ابن بيلي غراهام، الإسلام بكونه «شرير جداً، ومؤذ، وعنيف، ولا يعبد الرب نفسه». ووصف جيري فالويل، النبي محمد على أنه إرهابي، وهذه ملاحظات حاول بوش رسمياً إبعاد نفسه وإدارته عن مسؤوليتها[105]. وأصدر هال لندسي، الألفي المتنفذ (مؤلف أكثر الكتب انتشاراً في تاريخ أمريكا بعد الكتاب المقدس) كتاباً مليئاً بالدعوة للكراهية ربط فيه مصادر الراديكالية المسيحية والإسرائيلية لكي يحط من قدر الإسلام عموماً[106]. كان تأثير هذا الخطاب في العالم الخارجي قاسياً[107].

في التماهي بين الدين والأمة، تظل الأجنحة الأصولية للكنائس الإنجيلية الأمريكية فريدة في المسيحية الغربية (باستثناء أيرلندا الشمالية، من حيث نبعت أغلب تقاليدهم). كما ذكرنا سابقاً فإن للكنيسة الكاثوليكية سمة عالمية بطبيعتها. وقد التزمت الكنائس البروتستانتية القومية في أوروبا الغربية منذ عام 1945 بشدة بالنهج الدولي. حتى إنجلترا، مرت بعقود عدة منذ أن وُصفت الكنيسة الأنجليكانية بأنها «حزب المحافظين وهو يصلي». لكن في تكساس، وبحسب الروائي والكاتب التكساسي لاري مكمورتري، «يبدو أن البروتستانتية عديمة النكهة قد أنتجت وطنيةً مبالغاً بها بوصفها ناتجاً عرضياً»[108].

---

(105) Mansfield, *The Faith of George W. Bush*, pp. 139-142.

(106) Hal Lindsey, *The Everlasting Hatred: The Roots of Jihad* (Murrieta, CA: Oracle House Pub., 2002), esp. pp. 58-124.

(107) Phillips, *American Dynasty: Aristocracy, Fortune, and the Politics of Deceit in the House of Bush*, p. 235.

حول هذه الأرقام، انظر أيضاً: Fareed Zakaria, «Time to Take On America's Haters,» *Newsweek* (21 October 2001).

(108) Larry McMurtry, *In a Narrow Grave: Essays on Texas* (New York: Touchstone Books, 2001), p. 155; and Warren Leslie, *Dallas, Public and Private:* =

الكنائس البروتستانتية الرئيسية في أمريكا، مثل مثيلاتها الأوروبية، والتي ترتبط معها في المجلس العالمي للكنائس وغيرها من المنظمات الدولية، توصلت إلى تبني نهج ليبرالي عام ومواقف أقرب للدولية. إن أراد المرء العثور على ما يوازي القومية الغريزية لبعض الإنجيليين، لابد من العودة مرة أخرى إلى أوروبا قبل عام 1939، أو حتى قبل 1914. في المسيحية الشرقية، كانت الكنائس الأرثوذكسية غالباً ما تتماهى بشكل كبير مع قومياتها، وغالباً ما تتخذ مواقف شوفينية، ولكن على العكس من أمريكا، كانت هذه الكنائس تاريخياً هي كنائس تابعة للدولة.

الألفيين والقوميين

ثمة عدد لا يستهان به بين الإنجيليين الأمريكان ممن يحملون إيماناً بالألفية، إيمان له تبعات مرعبة على مواقف حامليه تجاه العالم خارج الولايات المتحدة. عام 1977 كان يقدر عدد الأمريكان المؤمنين بما قبل الألفية وحدهم بحوالى 8 ملايين. بيّن استطلاع بيو (Peu) في أيار/ مايو 2004 أن 36 بالمئة ممن شاركوا في الاستطلاع صرحوا أن ما جاء في سفر الرؤيا ليس من باب المجاز، بل هو «نبوءة صحيحة». يؤمن أتباع ما قبل الألفية بالعودة الجسدية للمسيح قبل أن يبدأ حكمه للأرض لمدة ألف عام. في الجانب الآخر نجد أن أتباع ما بعد الألفية (أغلبية الكنائس البروتستانتية المهمة) يؤمنون أن عودته لن تتحقق إلا بعد استقرار الألفية بقوة الرب من خلال شعبه. هذا تمييز له تأثيراته الخطيرة في النهج السياسي والتاريخ واحتمال سعي المسيحيين لتحقيق

Aspects of an American City, New Foreword by Harvey J. Graff and Patricia = Evridge Hill; New Preface by the Author (Dallas, TX.: Southern Methodist University Press, 1998), pp. 89, 95 and 167.

تغير اجتماعي إيجابي في هذه الحياة والرغبة فيها[109]. كانت الأغلبية العظمى من قادة اليمين المسيحي ما قبل ألفيين، وغالباً من الجماعة الأكثر تطرفاً من هذا المذهب المعروف بتسمية أصحاب مذهب العفو (Dispensationalism). في 1987 صرّح 63 بالمئة من وعاظ المعمدانية الجنوبية أنهم من أتباع ما قبل الألفية[110].

لدى عدد أكبر بكثير من الأمريكان إيمان ما «بالنبوءة»: وأن الكتاب المقدس ـ بالذات سفر دانيل ونبوءات يوحنا ـ تقدم تنبؤات دقيقة لأحداث المستقبل[111]. انتشار هذا الإيمان يؤشر إلى شعبية كتب الخيال الألفي الديني، مثل كتاب هال ليندسي **كوكب الأرض العظيم، في آخر الزمان** (*Late Great Planet Earth*)، (بيعت منه 35 مليون نسخة بحلول 2004) أو سلسلة **الخطف** (*Rapture*) الأحدث من كتب تيم لاهاي وجيري بي. جنكنز. لحد تاريخه بيع من هذه

---

(109) للإطلاع على صورة أولية عما يؤمن به الألفيون، انظر: Carpenter, *Revive Us Again: The Reawakening of American Fundamentalism*, pp. 247-249, and Paul S. Boyer, *When Time Shall Be No More: Prophecy Belief in Modern American Culture, Studies in Cultural History* (Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 1992), pp. 21-45.

حول أصول القناعات الأمريكية التي تعود لإنجلترا القرن السابع عشر، انظر: Helmut Richard Niebuhr, *The Social Sources of Denominationalism*, Living Age Books; LA11 (New York: Meridian Books, 1957), pp. 46-49.

(110) Helen Lee Turner and James L. Guth, «The Politics of Armageddon: Dispensationalism among Southern Baptist Ministers,» in: Ted G. Jelen, ed., *Religion and Political Behavior in the United States* (New York: Praeger, 1989), pp. 187-190.

للمزيد من المعلومات عن الطوائف الألفية المختلفة والعلاقات بينها، انظر: Timothy P. Weber, *Living in the Shadow of the Second Coming: American Premillennialism, 1875-1925* (New York: Oxford University Press, 1979), p. 10.

(111) انظر: Boyer, Ibid., pp. 1-7.

السلسلة أكثر من 62 مليون نسخة، ما أخجل سلسلة هاري بوتر، وجعل من **الخطف** (الإيمان بأن الله يختار من ينقذهم من هذا العالم بخطفهم خارجه)، أنجح سلسلة في تاريخ النشر الأمريكي. كان لاهاي مؤسساً مشاركاً (مع جيري فالويل) للأغلبية الأخلاقية، وهي مجموعة مسيحية يمينية رائدة وضعت أسس ما صار لاحقاً التحالف المسيحي[112].

هذه الأرقام حول القراءات الأكثر شعبية تشير مرة أخرى إلى الهوة العميقة بين جزء مهم من الشعب الأمريكي والحداثة كما يفهمها بقية العالم، فضلاً عن مبادئ العقلانية وكونية العقيدة الأمريكية. هذا التقليد لا يقتصر على معاداة التنوير بعمق ووضوح، كما يعادي أي أساس عقلاني للخطاب الإنساني أو الوحدة القومية الأمريكية، بل أنه يربي شكلاً مجنوناً من عقدة الاضطهاد تجاه العالم الخارجي عموماً. هكذا نجد رواية بات روبرتسون **نهاية العصر** (*The End of the Age*)، وهو واعظ وسياسي من اليمين المسيحي، تحكي عن مؤامرة بين سيدة أولى من نمط هيلاري كلينتون وملياردير مسلم لجعل المسيح الدجال رئيساً للولايات المتحدة. وللمسيح الدجال هذا اسم فرنسي، يسكنه شيطان على شكل الإله الهندوسي شيفا، في ما كان يعمل مع فيلق السلام في الهند[113].

---

(112) Hal Lindsey, *The Late Great Planet Earth Song Book* (Murrietta, GA: Oracle House Publishing, 2002), and Tim LaHaye and Jerry B. Jenkins, *Left Behind: A Novel of the Earth's Last Days*, Left Behind Series. LaHaye, Tim F. Left Behind Series (Wheaton, Ill.: Tyndale House Publishers, 1995).

(113) Pat Robertson, *The End of the Age: A Novel* (Dallas, TX: Word Pub., 1996).

الصورة مأخوذة عن: Diamond, *Not by Politics Alone: The Enduring Influence of the Christian Right*, p. 198.

كما أن هذه الكتب عديمة الرحمة بشكل مذهل في تعاملها مع غير المنقَذين، أي الأغلبية الساحقة من البشرية. وبموجب أحد أنماط هذه النبوءات، تبدأ حلقة من مسلسل «الخطف» بأخذ من يختارهم الرب إلى الجنة في لحظة واحدة، حيث يعيشون بمحبة في جو منسجم رائق، في حين تتصادم طائرات من دون طيارين وسيارات من دون سائقين في كل مكان من العالم، حيث يفترض ذهاب أغلبية الضحايا إلى جهنم[114].

النبرة الأخلاقية لمثل هذه المواقف لها نتائج حقيقية على كيفية تفكير هؤلاء المؤمنين بعالم اليوم. أتذكر كلمات صاحبة السكن حيث كنت أعيش في واشنطن عام 1996 ـ 1997، وهي من المولودين من جديد. حين قلت لها باستحالة إن تكون كلمات الكتاب المقدس هي الكلمات نفسها التي نطق بها الرب، إذ في هذه الحال، فإن بعض مقاطع سفر الخروج وسفر يوشع تجعل الرب مذنباً بارتكاب جرائم إبادة جماعية، ردت بصوتها الرقيق المطعّم بالعسل، «لكن ألا ترى، لو أبيد هؤلاء الناس منذ عام 3000 عام كما أمر الرب، لما حصلت كل هذه المشاكل في الشرق الأوسط اليوم». قسم من لغة الألفيين لها هذا النوع من شهوانية الكراهية في وصف مصير من تصيبهم اللعنة، خصوصاً الأمم المعادية للولايات المتحدة[115].

وكما توحي هذه الكلمات، فواحدة من أهم تأثيرات التفكير الألفي في المعسكر الديني المحافظ في السنوات القليلة الماضية كان

---

(114) LaHaye and Jenkins, Ibid., pp. 25-76.

(115) انظر مقالات جيري فالويل (Jerry Falwell)، و هال ليندسي (Hal Lindsey)، وغيرهما، مذكورين في: Grace Halsell, *Prophecy and Politics: Militant Evangelists on the Road to Nuclear War* (Westport, Conn.: Lawrence Hill and Co., 1986), pp. 28-35.

تدعيم تحالف هذا المعسكر مع الجناح المتشدد في إسرائيل، وهو الموضوع الذي سنطرحه في الفصل السادس. صار هذا التحالف أحد أهم الروابط العملية بين المحافظين المتدينين في أمريكا وقطاعات من القومية الأمريكية المعاصرة. في هذا السياق من القومية الأمريكية، ثمة أهمية خاصة لعقيدة «السيطرة» أو عقيدة «إعادة البناء»، وهو تيار صغير بحد ذاته، لكن تأثيره كان مهماً جداً في تفكير الشخصيات القيادية في اليمين المسيحي مثل بات روبرتسون.

بني هذا التيار على أساس سفر التكوين 1: 26 ـ 29، حيث يهب الرب لآدم وحواء ملكية الأرض وجميع نباتاتها ومخلوقاتها. هذه الكلمات أخذها التيار المسيحي على أنها تعني أنها تعطي المسيحيين ملكية الأرض وقد استخدمت من بين ذرائع اخرى لمحاربة أنصار البيئة، لأن الرب أعطى المسيحيين حق الاستغلال غير المحدود لمصادر الأرض. ولأن أمريكا هي في نظر الإنجيليين عموماً الأمة القائدة للمسيحية، من هنا يتوضح معنى قوة أمريكا: «هدفنا هو السيطرة على الأرض تحت أمرة المسيح، أو سمه «الهيمنة على العالم» إن شئت «الدومنيون» .. نحن من يصوغ تاريخ العالم»[116].

هذه القناعات تؤدي دورها في تحفيز ميل اليمين الأمريكي لأخلاقية قومية مطلقة حاقدة، تتجه ضد قادة أجانب يتوالون واحداً بعد الآخر، من هتلر إلى صدام حسين، وكل منهم يتماهى مع المسيح الدجال أو مع خادمه. (في الماضي كان الفاتيكان غالباً هو الذي يؤدي هذا الدور). ولأن الشيطان يفترض فيه أن يكون مخادعاً ومغرياً، فليس على هؤلاء القادة حتى أن يتصرفوا بعدوانية فاعلة. في هذه الدوائر كان القائد السوفياتي ميخائيل غورباتشيف قد تماهى

---

(116) Boyer, *When Time Shall Be No More: Prophecy Belief in Modern American Culture, Studies in Cultural History*, p. 303, note 29.

بشكل واسع النطاق مع المسيح الدجال لا لشيء إلا بسبب شعبيته في الغرب. كلٌ من الإيمان بالألفية نفسه والاتجاه الذي سلكه في مكوناته الأمريكية في أن يرتبط مع التشدد في السياسة الخارجية للولايات المتحدة والسياسات الأمنية لها قد نالا دفعة قوية في الحرب الباردة والصورة الأوسع انتشاراً للاتحاد السوفياتي على أنه «إمبراطورية الشر».

بسبب فرضية أن المسيح الدجال سينشر سيطرته على الأرض كلها، تمتزج هذه القناعات الألفية مع القناعات القومية لينبثق عنها إيمان مطلق وغير محدود بالسيادة الأمريكية القومية، وينتج بالتالي كراهية مريضة واسعة الانتشار للأمم المتحدة بين اليمين الأمريكي، والخيالات المظلمة المرتبطة مع هذه النظرة، والمنتشرة بشكل استثنائي وواسع النطاق في المجتمع الأمريكي، إذ لا تقتصر على حزام الكتاب المقدس وحده[117]. يمكن جعل الاتحاد الأوروبي أيضاً أن يؤدي هذا الدور في نهاية العالم، مثلاً مجلة الألفية فيلادلفيا ترمبت، ترى في الاتحاد الأوروبي نسخة من «الإمبراطورية الرومانية المقدسة» تحت سيطرة ألمانيا[118]. واللجنة الثلاثية ومجلس العلاقات الخارجية كذلك كثيراً ما تُصور على أنهم عملاء المسيح الدجال يعملون من أجل توحيد العالم والهيمنة عليه. يندر أن يكون المسيح الدجال أمريكياً بالطبع، بالرغم من أن بعض مدلليه المضللين قد يكونوا كذلك، وقد أدى الرئيس كنيدي دور المسيح الدجال بالنسبة لبعض الألفيين من الجنوب.

---

(117) Bennett, *The Party of Fear: From Nativist Movements to the New Right in American History*, pp. 409-475.

(118) Boyer, Ibid., pp. 111, 121, 148 and 277, and Gerald Flurry, «From the Editor: Continue to Watch Stoiber,» *Philadelphia Trumpet* (November 2002), www.thetrumpet.com.

وللألفية تأثير غير مباشر أيضاً في «بيئة الخوف» الأمريكية الأوسع، وهي عبارة ابتكرها مايك ديفيس لوصف لوس أنجلس، وبالتالي فعلى ثقافة لعقدة الاضطهاد والعدوان أوسع نطاقاً[119]. وكما أشار بول بوير في كتابه عن الموضوع، إن قوة مشاعر الألفيين بين أقلية من الأمريكان تعني أنه كان لهم تأثير في ثقافة أوسع، تغذي أفلام هوليوود مثل سلسلة أفلام «النذير» (Omen) وروايات الخيال العلمي وموسيقى البوب[120].

عادة ما يكون لهذه الخيالات سقف من العنصرية. هكذا عام 1999 حذّر جيري فالويل أتباعه للتهيؤ لفوضى محتملة نتيجة مشكلة الكمبيوتر (نتيجة ما سمي فيروس الألفية Y2K)، ونصحهم بتخزين التجهيزات الأساسية. وقال إنه يجب أن تشمل هذه التجهيزات الأسلحة والعتاد، لحماية الميسورين (العذارى الحذرات إن شئت) من خطر الجائعين والفقراء وغيرهم، ويمكن التأكد من اللون الذي يتخيل فيه هؤلاء الآخرين. ولكونه يستمد خياله من «قلب البلاد» ومعاداة المهاجرين ومعاداة سكان المدن، فإن أغلب أدب نهاية العالم تقع أحداثه في المدن المنهارة واضطراباتها. كان هال لندسي مهووساً بعقدة مرضية هي الخوف من «الخطر الأصفر»، عقدة حولها الآن إلى الخوف من الإسلام[121].

---

(119) Mike Davis, *Ecology of Fear: Los Angeles and the Imagination of Disaster* (New York: Metropolitan Books, 1998), p. 355.

(120) Boyer, Ibid., p. 10.

(121) المصدر نفسه، ص 257-260. حول العامل العنصري في مخاوف أمريكا من نهاية العالم، انظر: Davis, Ibid., pp. 281-300 and 325-344.

وحول هستيريا ليندسي الجديدة ضد المسلمين، انظر: Lindsey, *The Everlasting Hatred: The Roots of Jihad.*

أخيراً، ومن ضمن إطار التقليد الأمريكي للهزيمة وعلاقته بعقدة الاضطهاد والعدوان، يجب أن نلاحظ العنصر القوي من الحقد الطبقي في جوانب التقاليد الألفية كلها. لقد حلل هذا الحقد بشكل ممتاز نورمان كوهن في كتابه الشهير مطاردة الألفية (The Pursuit of the Millennium)، حيث رأى العقائد الألفية في القرون الوسطى وبداية أوروبا المعاصرة، وأحلامها عن مملكة الرب حيث المساواة وطمس الحكام الظالمين والسادة، وكأنها تعمل نذراً للشيوعية (وفي بعض الحالات لمعاداة السامية المعاصرة)[122].

خلال تحليل العقائد التي يبلغ عمرها ما يزيد على 500 عام، فشل كوهن وغيره في ملاحظة كون المجموعات الألفية تجسد التقاليد نفسها التي لا تزال حية في أمريكا اليوم. في الولايات المتحدة، ثمة علاقة ترابط متبادل بين مثل هذه المعتقدات من جهة والفقر والمعيشة في الضواحي والمدن الصغيرة وقبل كل شيء قلة التعليم من جهة أخرى[123]. هذا المزيج يتغذى من حقد أوسع في الجنوب والوسط لنخبة الساحل الشرقي، وحقد الطبقة الدنيا للنخب على وجه العموم، خصوصاً تلك التي تتماهى مع الأصول «الغريبة» مثل المصرفيين. من المؤكد أن بعض المؤرخين رأوا في أصولية الولايات المتحدة كلّها على أنها شكل من «أفيون الشعوب» وعملية تحريف للحقد الاجتماعي ـ الاقتصادي إلى شكل يكون معادياً لثقافة

(122) Norman Cohn, *The Pursuit of the Millennium; Revolutionary Millenarians and Mystical Anarchists of the Middle Ages* (New York: Oxford University Press, 1990), pp. 58-74 and 309-310, and Edward Shils, «Ideology and Civility: On the Politics of the Intellectual,» *Sewanee Review*, no. 66 (1958).

(123) Turner and Guth, «The Politics of Armageddon: Dispensationalism among Southern Baptist Ministers,» pp. 191-192 and 208.

النخبة لكنه لا يهدد نفوذهم الواقعي[124].

مرة بعد أخرى يقدم الأدب الألفي شخصيات غنية، متعلمة وذات امتيازات تفنى وترد إلى الجحيم بسبب نمط حياتها الشرير، في حين يتم إنقاذ الناس البسطاء، والعاديين، والمؤمنين والاتقياء ممن يخافون الله. وعادة ما يدين الكتاب الألفيون ثقافة المتعة والاستهلاك في أمريكا. وكما هي الحال على امتداد التاريخ، فإن الألفية الأمريكية هي إلى حد بعيد دين الفقراء، وشكل من أشكال الاشتراكية الروحية لأولئك العاجزين لأي سبب من الأسباب عن أن يكونوا اشتراكيين[125]. حسبما قال بيلي غراهام: «دعوني أخبركم شيئاً: حين يكون الرب قد تهيأ ليهز أمريكا، فقد لا يختار من يحمل شهادة الدكتوراه أو غيرها، قد يختار الرب فتىً من الريف، قد يختار الرب بائع أحذية كما فعل حين اختار د. ل. مودي [واعظ أصولي شهير من بداية القرن العشرين]. . قد يختار الرب رجلاً لا أحد يعرفه، شخص نكرة لكي يهز أمريكا من أجل يسوع المسيح اليوم. . .»[126].

يتحدث الوعاظ الإنجيليون وبخاصة الألفيين منهم عن مملكة المسيح القادمة على الأرض بصيغ تشبه كثيراً صيغ كارل ماركس. سوف تكون المملكة في جوهرها شبيهة بأمريكا لكن محسّنة،

(124) Robert Laurence Moore, *Religious Outsiders and the Making of Americans* (New York: Oxford University Press, 1986).

(125) Niebuhr, *The Social Sources of Denominationalism*, pp. 30-31.

(126) ذكر في: Carpenter, *Revive Us Again: The Reawakening of American Fundamentalism*, p. 224.

حول النفور الطبقي في سلوك وأعمال تيم لاهاي، انظر: David Gates, «The Pop Prophets,» *Newsweek* (24 May 2004).

خالية من الفقر والخطيئة والقيم الغريبة: «تشبه الحياة الحاضرة كثيراً.. لكنها تخلو من كل الشوائب التي دمرت المعنى الحقيقي والكامل للحياة». سوف يجلب حكم المسيح «العمل، المغامرة، الإثارة، الوظائف والالتزام لكل المؤمنين بهذه المملكة المستقبلية، حيث سيكون جميع الرجال ملوكاً»[127].

لكن من الخطأ تصور أن مثل هذه الشريحة من المعتقدات في أمريكا هي خاصة بالفقراء والهامشيين، بل إن لديها تأثيراً لا يستهان به بين النخب الإقليمية في الجنوب والغرب، وكذلك بين نخب الجمهوريين على الصعيد الوطني. الطائفة الخمسينية، ذات الروابط الوثيقة مع الألفيين، تضم بين أفرادها جون أشكروفت وعدد كبير من كبار الضباط العسكريين. بات روبرتسون، من الأعضاء المؤسسين للتحالف المسيحي، والذي تحدث عما تفعله أمريكا الليبرالية للمسيحيين الإنجيليين بتشبيهه «بما فعلته ألمانيا باليهود»، هو ابن سيناتور في الولايات المتحدة ومن عائلة أرستقراطية من فرجينيا[128].

تجسدت العلاقة بين الألفية والقومية الراديكالية بالليوتنانت جنرال وليام جي. «جيري» بويكين، وهو خمسيني تم تعيينه عام 2003 نائباً لوكيل وزير الدفاع لشؤون المخابرات. في تلك السنة حصلت فضيحة بسيطة حول خطاب ألقاه بويكين بين مجموعة من كنيسة إنجيلية وأخذ طريقه لوسائل الإعلام الوطنية. (شجب الرئيس بوش تصريحات بويكين، لكنه لم يطرده من وظيفته، وهي وظيفة تحمّل من خلالها في ما بعد مسؤولية استراتيجية جمع المعلومات

---

(127) Billy Graham, Quoted in: Boyer, *When Time Shall Be No More: Prophecy Belief in Modern American Culture, Studies in Cultural History*, p. 320.

(128) Quoted by Molly Ivins, in: *Fort Worth Star-Telegram*, 14/9/1993.

الاستخباراتية التي ساهمت في الإساءات التي حصلت في أبو غريب وغيرها).

من بين أمور أخرى، صرّح الجنرال بويكين أن أمريكا «أمة مسيحية»، وأن جورج بوش قد رفع لمرتبة الرئاسة بمعجزة، فكرة قد يتفق معه فيها العديد من الديمقراطيين، لكن ليس بالطريقة التي قصدها بويكين. وعن أحكام المحكمة الدستورية العليا للولايات المتحدة التي يرفضها قال بويكين، «لا يقلقكم ما تقوله هذه المحاكم. فحكم ربنا هو الأعلى». وأبلغ مستمعيه أنه حين تفحص الصور التي وصلت من مقاديشو، حيث عمل ضابطاً في القوات الخاصة، وجد بقعة سوداء لا تفسير لوجودها، لكنه فسرها على أنها تجسيد للشر، وأنه في أحداث 11 أيلول/ سبتمبر استولى الإرهابيون على طائرتين إضافيتين، «لكن يد الرب أحبطتهم»[(129)].

كما قال إن عدو أمريكا في الحرب على الإرهاب هو الشيطان، ولن ينهزم الشيطان إلا «إن وقفنا ضده باسم المسيح». أشهر ما صرح به بويكن كان بشأن أحد أمراء الحرب الصوماليين، «كنت أعرف أن ربي أكبر من ربه. كنت أعرف أن ربي هو الرب الحقيقي وأن ربه ليس إلا وثن». وهذا التصريح كثيراً ما وصف على أنه «ادعاء فج»، وقد يكون هذا صحيحاً، إلا أنه مأخوذ بوصفه اقتباساً حرفي من الكتاب المقدس يتحدث عن المبارزات التي انتصر فيها أنبياء اليهود على كهنة الإله بعل[(130)]. وقد صدرت تصريحات مشابهة بشأن الإسلام من العديد من قادة اليمين المسيحي مثل فرانكلين

---

(129) *Washington Post*, 21/10/2003.

(130) *Kings*, I, 18: 20-40.

يعود الفضل لهذا الهامش إلى الأستاذ تشارلز كينغ (Charles King) من جامعة «Georgetown».

غراهام (ابن بيلي)، جيري فالويل والقس تيد هاغارد، رئيس الرابطة القومية للإنجيليين[131].

في ما يخص الولايات المتحدة نفسها، لم يخف المسؤولون الكبار من إدارة بوش إيمانهم بارتكاز جوهر الدولة الأمريكية على أساس ديني، وأن «مصدر الحرية والكرامة الإنسانية هو الخالق»، كما قال أشكروفت[132]. حتى نائب الرئيس ديك تشيني أرسل بطاقة تهنئة بعيد الميلاد عام 2003 مع رسالة فيها قول لبنجامين فرانكلين، «ولا يسقط عصفور أرضاً إلا بإرادته، فهل تقوم إمبراطورية إلا بعونه؟»[133].

توضح ملاحظات بويكين سمتين بارزتين في هذا القطاع من المجتمع الأمريكي، كما أوردنا سابقاً. الأولى هي حدة قوميتهم. كما كان عليه البيوريتان الإنجليز والاسكتلنديين في القرن السابع عشر، الذين منهم اشتقوا ثقافتهم الدينية ـ والأكيد كذلك من الإسرائيليين الوارد ذكرهم في العهد القديم ـ إلههم هو إله القبيلة، مثل إله كرومويل «إله الحرب» الذي يحارب من أجلهم ضد العماليق (Amelekites)، أتباع البابا من الأيرلنديين، والهنود الحمر، والمكسيكيين، والإسبان، والألمان، واليابانيين، والشيوعيين، والروس والصينيين، والفيتناميين، والمسلمين وأي عدو آخر يمر في طريقهم.

---

(131) Michelle Cottle, «Bible Brigade,» New Republic, 21/4/2003, and Alan Cooperman, «Bush's Remark about God Assailed,» *Washington Post*, 22/11/2003.

(132) Peter Beinart, «Bad Faith,» *New Republic*, 25/3/2002.

حول المزيد من التصريحات، انظر: *The Religious Right: The Assault on Tolerance and Pluralism in America*, [Prepared and Written by David Cantor] (New York: Anti-Defamation League, 1994), p. 5.

(133) Molly Ivins, «Cheney's Card: The Empire Writes Back,» *Washington Post*, 30/12/2003.

السمة الثانية هي أن ثقافتهم مبنية على أساس ديني سابق للحداثة وسابق للتنوير بشكل أكيد. المقارنة بين بويكين ونظرائه من القادة العسكريين الغربيين تكون مفيدة. يشعر عدد كبير من الضباط الفرنسيين، والبريطانيين والروس بارتياح أكبر لو عاشوا في القرن التاسع عشر، والبعض من العناصر الأرستقراطية منهم تتمنى لو أنه كان القرن الثامن عشر. لدى الضباط البريطانيين بشكل خاص محبة خاصة للخيول التي ترتعش قبيل أي خطأ. لكن العصور الذهبية التي يحنون إليها هي كلها عصور ما بعد الحداثة. وعلى العكس من الجنرال بويكين، فإنهم لن يشعروا بالارتياح في جيش كرومويل الجديد. إن مدى قدم هذه الأيديولوجية في الولايات المتحدة هو أعظم مما هو عليه في أي مكان آخر في العالم المتقدم، باستثناء أيرلندا الشمالية. يتغذى هذا النمط من القومية الدينية على الأخلاقيات الدينية وعلى عقدة اضطهاد تتغذى بدورها على شعور بضرورة الإعداد للمعركة الثقافية. وكما عبر عن ذلك ريشارد هوفستاتر: «بما أن المسألة هي دوماً صراعٌ بين الخير والشر، فالنوعية المطلوبة ليست الرغبة في التوصل إلى تسوية وسط، بل الإرادة لمحاربة المقابل حتى النهاية. لا شيء غير النصر الحاسم هو المطلوب. ما دام تصورنا عن العدو أنه يمثل الشر المطلق ولا يمكن إرضاءه على الإطلاق، لذلك يجب إزالته كلياً.. هذه المطالبة بالانتصار غير المحدد تؤدي إلى تشكيل أهداف مستحيلة التحقيق وغير واقعية، وما دامت هذه الأهداف مستحيلة التحقيق، فإن الفشل فيها سوف يؤدي إلى إشعال المزيد من الإحباط وعقدة الاضطهاد»[134].

---

(134) Richard Hofstadter, *The Paranoid Style in American Politics, and Other Essays* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1996), p. 31.

إن تطبيقات هذه المنظومة من الإيمان بالحرب على الإرهاب هي من بين المواضيع التي سوف نطرحها في الفصلين اللاحقين.

الفصل الخامس

ميراث الحرب الباردة

«أين تقع كمبوديا بحق الجحيم؟ يرى الناس عنواناً في الأخبار، وفجأة ها نحن نواجه مشكلة في كمبوديا. لابد أنه خطأ شخص ما، لهذا نبدأ بمهاجمة شخص ما. الأخبار سريعة جداً وتثير الحيرة كثيراً. نرى عنواناً ما فنهرع إلى الأطلس لنرى أين تقع كمبوديا. ثم نهاجم أحداً ما بشأنها. نتكلم أكثر من أي شخص آخر في التاريخ عن أشياء لا نعرف عنها أي شيء».

سام بلوم، رجل أعمال من تكساس، 1960[(1)].

أدامت الحرب الباردة السمات الموجودة منذ القدم في القومية الأمريكية، مثل المسيحانية وعقدة الاضطهاد والتيارات المانوية[(*)]، وزادت من قوتها. كما أضافت عنصراً جديداً لم يكن معروفاً تماماً في الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الثانية، لكنه عظيم الأهمية في تاريخ القومية في أماكن أخرى: مركّب هائل صناعي ـ عسكري،

(1) ذكـــر فـــي: Warren Leslie, *Dallas, Public and Private: Aspects of an American City*, New Foreword by Harvey J. Graff and Patricia Evridge Hill; New Preface by the Author (Dallas, TX: Southern Methodist University Press, 1998), p. 222.

(*) نسبة إلى فلسفة ماني (Mani) في تقسيم العالم إلى خير وشر.

وأمني، له نفوذ عظيم وحصة كبرى في الترويج للمنافسة العسكرية مع الدول الأخرى.

منذ حرب فييتنام توضح تأثير هذه القوة الجديدة في الشؤون الأمريكية أولاً وأساساً من خلال ما أسميته الحزب القومي الأمريكي، أو الجمهوريين. مع أنه كان لها حضور قوي بين الديمقراطيين أيضاً. قبل حرب فييتنام كان الديمقراطيون ماهرين في استغلال «الترويع» ضد إدارتي أيزنهاور مما زعموا أنه التفوق العسكري السوفياتي.

خلال التسعينات وبالرغم من تقليص كلينتون للميزانية العسكرية إلى حد ما، لكنه قاد زيادة توسيع الوجود العسكري للولايات المتحدة في العالم والحملة الجيوبوليتيكية «للدفع إلى الوراء» بالنفوذ الروسي في داخل الاتحاد السوفياتي السابق. في ما يتعلق بالحرب على الإرهاب، وإلى أواسط عام 2004 ليس واضحاً إن كان للديمقراطيين أي استراتيجية بديلة. إن كان انعدام مثل هذه الاستراتيجية صحيحاً، فلذلك سبب واحد هو أنهم يأخذون مستشاريهم وفلسفتهم من «البيئة» نفسها للسياسة الخارجية والأمن والتي غذتها الحرب الباردة.

هذا الموروث من الحرب الباردة له تأثير ضار جداً في استراتيجية الولايات المتحدة بعد 11 أيلول/سبتمبر لأنه ساعد على توجيه الانتباه في الولايات المتحدة بعيداً عن المجموعات الإرهابية نفسها. وبكلمات كاتب السيرة الجماعية لفريق «بوش الثاني» لسياسات الأمن والخارجية جيمس مان: كان «فريق «الفولكان»(*) [وهو الاسم الذي أطلقه فريق بوش من كبار موظفي السياسة

(*) فولكان (Vulcan) هو إله النار وصناعة الأدوات المعدنية عند الرومان.

الخارجية الدفاع على أنفسهم] على أهبة الاستعداد لمواجهة التهديدات الأمنية من النوع الذي سبق لهم مواجهته في الماضي - قوى كبرى، دول مارقة، دكتاتوريات وجيوش أرضية تعمل في داخل مناطق محددة ولها حدودٌ واضحة - لكنهم لم يكونوا جاهزين للصراع مع منظمات إرهابية عديمة الدول، ولا شكل لها مثل القاعدة»[2].

فضلاً عن ذلك، وحتى في حال مجابهة التهديد الصادر عن دول، فقد استند منهجهم إلى أساس نموذج تبسيطي للجناح اليميني خلال الحرب الباردة وهو بناء قوة عسكرية أمريكية أكثر قوة. «كان فريق فولكان أقل فاعلية في تطوير مؤسسات جديدة، أو دبلوماسية جديدة، أو أي أسلوب آخر يمكنه التعامل مع هذه المواضيع»[3].

خلقت الحرب الباردة جميع الأعضاء البارزين لإدارة بوش الثاني من موظفي الخارجية والأمن. وكان العديد منهم موظفين كبار في الإدارات الجمهورية خلال السبعينات[4]. كما قال مصّور البيت الأبيض خلال إدارة فورد تعليقاً على إدارة بوش التي بدأت عملها عام 2001، «أشعر بمثل شعور «ريب فان وينكل» (Rip Van Winkle). كما لو

(2) James Mann, *Rise of the Vulcans: The History of Bush's War Cabinet* (New York: Viking, 2004), p. 293.

(3) المصدر نفسه، ص 246.

(4) Joshua Micah Marshall, «Vice Grip: Dick Cheney Is a Man of Principles Disastrous Principles,» *Washington Monthly*, [vol. 35, nos. 1-2] (January - February 2003), and Nicholas Lemann, «The Quiet Man: Dick Cheney's Discreet Rise to Unprecedented Power,» *New Yorker* (7 May 2001).

حول أهمية الحرب الباردة كنموذج أخلاقي وسياسي بين اليمين الراديكالي، انظر: David Harry Bennett, *The Party of Fear: From Nativist Movements to the New Right in American History* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, [1989]), pp. 469-470.

أنني استيقظت بعد مرور خمس وعشرين عاماً، لأجد ليس أن أصدقائي ما زالوا في السلطة فقط، بل أنهم صاروا أكثر قوة بكثير»[5].

أنتجت الحرب الباردة أيضاً مجموعات أكاديمية ووظيفية من المحافظين الجدد، أثّر أفرادها بقوة في إدارة جورج دبليو بوش بين عامي 2001 و2003، وتصرفوا كأنهم من كبار موظفيها ومسؤولي الدعاية فيها[6]. نبع المحافظون الجدد من مجموعة «المركز الحيوي» الذي أنشأه راينهولد نايبور وجماعته في أواخر الأربعينيات لجمع شمل الليبراليين الأمريكان لمواجهة تهديد الشيوعية الستالينية. انشق المركز الحيوي بشأن حرب فييتنام، حين أصبح الذين صاروا في ما بعد محافظين جدد من مؤيدي الحرب والسياسات الأكثر تشدداً ضد الاتحاد السوفياتي. وانتقل أغلبهم إلى الحزب الجمهوري بعد أن دعموا السيناتور الديمقراطي المتشدد هنري «سكوب» جاكسون، (مع أن قسماً منهم لا يزال في الحزب الديمقراطي رسمياً حتى اليوم)[7].

كما أن أمراً آخر كان شديد الأهمية في تطور المحافظين الجدد تمثّل في رد فعلهم ضد الثقافة المضادة للجناح اليساري في الستينيات، خصوصاً عناصره الرومانسية الداعية للسلام، والفوضوية

(5) David Hume Kennerly, Quoted in: Kevin Phillips, *American Dynasty: Aristocracy, Fortune, and the Politics of Deceit in the House of Bush* (New York: Viking, 2004), p. 93; Derek Leebaert, *The Fifty-Year Wound: How America's Cold War Victory Shapes Our World* (New York: Little, Brown and Company, 2002), and Chalmers A. Johnson, *Blowback: The Costs and Consequences of American Empire* (New York: Owl Books, 2003).

(6) Joshua Micah Marshall, «Remaking the World: Bush and the Neoconservatives,» *Foreign Affairs*, vol. 82, no. 6 (November - December 2003).

(7) Lars Erik Nelson, «Military-Industrial Man,» *New York Review of Books*, vol. 47, no. 20 (December 2000).

والمضادة للمثقفين، وصد الاتجاه المتزايد لليسار لإدانة إسرائيل. وبالرغم من أن العديد من المحافظين الجدد الأصليين، مثل أرفينغ كريستل، كانوا من الماركسيين التروتسكيين، فإن قسماً من الجيل الثاني منهم كانوا في الستينيات من الراديكاليين مثل ستيفن شوارتز (مؤسسة حماية الديمقراطية) الذي انتقل لاحقاً إلى اليمين الراديكالي. في هذين الجيلين، جلب هؤلاء معهم من اليسار النمط الراديكالي ونكهة العنف البديل وشيء من مسرحة السياسة. وكانوا يشبهون في ذلك النمط الأوروبي القديم لانتقال أعضاء من اليسار الراديكالي إلى اليمين الراديكالي. (موسوليني هو أشهر مثال على هذا التحول)[8].

وكما اعترف أرفينغ كريستل في لحظة صراحة، فإن نوعاً من الرغبة في عيش دراما، قد أدت دورها في تحوله إلى اليمين الراديكالي. في الخمسينيات كان قد بدأ يشعر: أحس «بالملل من أفكاري الليبرالية الحسّاسة والمعتدلة»[9]. ومثل الكثيرين من نخبة الحرب الباردة بشكل عام، أثبت هؤلاء المحافظون الجدد عجزهم عن ترك هذا الأسلوب حين يختفي سببه الحقيقي، وهو في هذه الحال التهديد الشيوعي.

مجموعة المحافظين الجدد الأصلية هي اليوم متشظية للغاية[10]. بعضهم لا يزال يوصف أحياناً بالمحافظين الجدد، مثل صامويل هنتنغتون، وهو في الواقع يختلف جذرياً عمن تبقى من المجموعة الأصلية حول القضايا الجوهرية، مثل حق الولايات المتحدة وقدرتها

---

(8) Michael Lind, *Up from Conservatism: Why the Right Is Wrong for America* (New York: Simon and Schuster, 1996), p. 69.

(9) ذكر في: Irving Kristol, *Neoconservatism: The Autobiography of an Idea* (New York: Free Press, [1995]), p. 42

(10) المصدر نفسه، ص 45-46.

على نشر قيمها في العالم، وبخاصة باستخدام قوة السلاح[11]. آخرون مثل السيناتور الراحل دانييل باتريك موينيهان انفصل عن رفاقه القدامى منذ جيل مضى.

أفضل ما يمكن أن يوصف به من تبقى من المحافظين الجدد هو أنهم مجموعة من شبه البيروقراطيين الذين بسبب التزاوج بين أفرادها وعوامل الوراثة، صاروا أشبه بسلالة عائلةٍ ممتدة أو قبيلة (كما أشار جاكوب وايزبرغ)[12]. يصبح هذا الصنف من التجمعات ممكناً في النظام الأمريكي بسبب تمويه الخطوط الفاصلة بين الحكومة، والمنظومة الأكاديمية، والإعلام ومجال الأعمال، كما وصفته في الفصل الثاني. هذه الصورة الذاتية للجماعة شجعها اتجاه الحرب الباردة لنخبة الأمن القومي كلّه في الولايات المتحدة لكي يروا نفسهم على أنهم نسخة حديثة من حرّاس جمهورية أفلاطون، أي مجموعة مغلقة تعرف كل شيء ونخبة مختارة تقود وتحمي (مثل كلاب الحراسة) وعند الضرورة تخدع الجمهور الجاهل والمترهل لحماية مصلحته من الأعداء عديمي الرحمة[13].

ما شجع بقوة هذا الميل في حال المحافظين الجدد، هو وجود ميول للسرية والتآمر في فكر أحد مثقفيهم المؤسسين، ليو شتراوس[14]. لقد رعى إيماناً إفلاطونياً شاملاً على أن من الضروري

---

(11) Samuel P. Huntington, *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order* (New York: Simon and Schuster, 1996), pp. 301-321.

(12) Jacob Weisberg, «The Family Way: How Irving Kristol, Gertrude Himelfarb and Bill Kristol Became the Family that Liberals Love to Hate,» *New Yorker* (21 October 1996).

(13) Plato, *The Republic*, Translated by Desmond Lee, Penguin Classics (London: Penguin, 1976), pp. 181-182 and 316-325.

(14) Stephen Holmes, *The Anatomy of Antiliberalism*, pp. 61-87.

والشرعي في آن معاً، للنخبة الفلسفية أن تغذي الجمهور بأساطير دينية ووطنية قد لا تؤمن بها النخبة نفسها. ربما أسهم هذا الإيمان في السهولة الكبيرة التي استطاع المحافظون الجدد فيها عبر السنوات التحول عن مواقفهم السابقة (مثل التدخل الإنساني والديمقراطي) وتشكيل تحالفات مع مجموعات، مثل اليمين المسيحي، كان يفترض أن تكون غريبة عنهم.

هذا التذبذب والانتهازية هي أحد الأسباب التي تجعل من المستحيل نعت تيار المحافظين الجدد اليوم بوصفه تقليداً أيديولوجياً حقيقياً، بالرغم من النبرة الأيديولوجية الجافة والقومية الراديكالية والإمبريالية التي يتسم بها. ثمة سبب آخر هو أنهم بالرغم من ضجيجهم، إلا أن المحافظين الجدد لم يساهموا فعلياً بإضافة أي جديد للثقافة السياسية الأمريكية. وباستثناء كتابات ليو شتراوس والآن بلوم، فإن أعمالهم تحمل سمات العديد من الحركات الراديكالية القومية نفسها: إذ هي كثيراً ما تجمع بين التعصب والبلادة والابتذال. والأغلبية العظمى من أعمالهم هي فعلياً لا أكثر من تجميع لمقالات صحفية وافتتاحيات.

في الواقع فإن جلّ ما فعله المحافظون الجدد هو أنهم أخذوا بعض التقاليد التي وصفناها في هذا الكتاب أعطوها طابعاً من الراديكالية والتطرف. هكذا جولوا التعاطف مع إسرائيل إلى دعم لحزب الليكود، وأخذوا الإيمان بدور أمريكا كنموذج للديمقراطية وحاجة الولايات المتحدة للأمن القومي وحولوها إلى ذرائع لحروب التدخل. ولم يكن ذلك ممكناً للمحافظين الجدد لولا سياق شعورٍ أعم بحالة طوارئ وطنية تحصل في بعض الأوقات خلال الحرب الباردة وبشكل أكثر مأساويةً بعد 11 أيلول/ سبتمبر.

بحلول عام 2004 كما سنرى، صارت المأساة العراقية تعني أن

نفوذ المحافظين الجدد في إدارة بوش قد بدأ بالتراجع، مقارنة مع الواقعية المتشددة والأكثر براغماتية في آن معاً المميّزة لديك تشيني ودونالد رامسفيلد ومع المقاربة التعددية والأكثر شبهاً بمقاربة كلينتون والتي يمثلها كولن باول. مع ذلك فإن الميول الأكثر عمقاً في الثقافة السياسية الأمريكية والتي استغلها المحافظون الجدد ستبقى على ما هي عليه. وكما بينا في الفصل الثاني، فن مسيحانيتهم الداعية للدمقرطة تحظى بتأييد واسع في داخل الحزب الديمقراطي. لهذا فإنه أساسي جداً أن يتمعن الأمريكيون في فحص هذه العناصر عميقة الجذور في ثقافتهم السياسية وعدم افتراض اختفاء المخاطر التي تمثلها لو فقد المحافظون الجدد السيطرة على السلطة.

تثبيت الأساطير

إن بروز أمريكا على أنها قائدة الديمقراطيات الغربية وحصنها الحصين ضد النازية ثم الشيوعية، قد أضفى قوةً هائلةً على مشاعر المسيحانية النابعة من العقيدة الأمريكية. أكدت هذه المشاعر دور أمريكا نموذجاً «للعالم الحر»، وقائده، وحاميه ومنقذه في المعركة ضد الشر الشيوعي «أعداء الحرية». من المؤكد أنه، وخلال سنين عديدة، كان لهذه المشاعر ما يبررها، في ما يتعلق على الأقل بأوروبا الغربية و(إلى درجة أقل) بشمال شرق آسيا.

إن نجاح دمقرطة ألمانيا واليابان تحت احتلال الولايات المتحدة خلق صورة مصيرية مغرية ومشؤومة للتحرير باستخدام القوة، انتشرت في ما بعد من فيتنام إلى العراق. لكن الأوضاع التاريخية، والاقتصادية، والجغرافية، والثقافية، والاجتماعية لهذه الدول وتجاربها الخاصة، لا علاقة لها مطلقاً بأوضاع ألمانيا واليابان. اجتمعت صورة الجندي الأمريكي بوصفه غازياً، ومحرراً ومحدّثاً في حزمة واحدة وهي

كانت قد تأسست بقوة خلال الحرب الأمريكية، الأسبانية والحرب العالمية الأولى، وتغذت على جذور أعمق من ذلك بكثير[15].

ونتيجة توحيد بعض الأساطير الأمريكية وتطويرها في القرن العشرين، اكتسبت هذه الصورة قوةً في العقل الأمريكي، وظلت على قيد الحياة بعد تجربة الدرس المضاد في فيتنام التي كان يجب أن تكون مدمرة والتي أنتجت إلى حد ما، مخاوف من تورط إمبريالي ومن الوقوع في مستنقعات عسكرية. لقد جرى العزف ومن دون توقف على وتر دور أمريكا بوصفها «الوصية على الحرية» وذلك من جانب كلٌ من الدعاية الرسمية، والخطاب السياسي، والإعلام وبالتأكيد قسم كبير من الشعب الأمريكي. ووصل ذلك إلى تعبيره الأكثر سمواً بلاغياً في خطابات جون أف. كنيدي ورونالد ريغان (الأول ديمقراطي، والثاني جمهوري ولكن يصعب التمييز بينهما في هذا السياق).

استخدم بوش وغيره من كبار الموظفين هذه الصورة ومن دون انقطاع بعد 11 أيلول/ سبتمبر، وكانت لها أهمية بالغة في حشد التأييد للحرب على العراق. حتى في حال أفغانستان، فإن الحجج البسيطة والمبررة للحرب بالدفاع عن النفس ضد القاعدة جاءت مترافقة مع تصريحات سريالية بشأن تحويل ذلك البلد إلى «رأس جسر نحو الديمقراطية والتقدم في العالم المسلم» (بحسب قول سيناتور في مؤتمر حضرته عام 2002). وكما بيّنت مرحلة ما بعد

---

(15) Andrew J. Bacevich, *American Empire: The Realities and Consequences of U.S. Diplomacy* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2002), p. 167, and Michael H. Hunt, *Ideology and U.S. Foreign Policy* ([New Haven: Yale University Press, 1987]), pp. 29-45.

هزيمة طالبان فإنه لم يكن لهذا الوهم أي شبه مع واقع أفغانستان على الإطلاق وهو يفضح جهلاً تاماً بالتاريخ المعاصر لأفغانستان ومجتمعها وثقافتها[16].

لكن إن كانت الحرب الباردة قد قوّت جوانب المسيحانية في العقيدة الأمريكية، فأنها أيضاً قد سكبت قوتاً جديداً بين فكي شياطين أمريكا و«أساليب عقدة الاضطهاد» في السياسة الأمريكية: هوس بوجود فساد وخراب في الداخل، والإيمان بهيمنة الأعداء والخونة المحتملين على العالم الخارجي، الاعتماد على القوة العسكرية وعدم احترام الحلفاء الرئيسيين لأمريكا. كما أن الحرب الباردة عززت المسيحانية القومية، التي لا يقتصر التعبير عنها بالصيغ شبه الدينية بالالتزام بالعقيدة، لكن أيضاً بالصيغ الدينية الصريحة التي تؤمن أن أمريكا هي الأمة التي اختارها الرب لتقود الصراع ضد أعداء الرب. يشمل هؤلاء الأعداء طبعاً، «الشيوعية عديمة الرب»، وأي قوى ترتبط معها، كما يمكن مط الجملة لتعني جميع أعداء أمريكا.

ولأن الحرب الباردة تلت الحرب ضد النازيين فإنها قد عززت، ومأسست طبعاً العناصر المانوية في نظرة أمريكا للعالم الخارجي، أي الإيمان بالقوة المطلقة للنور الذي تقوده أمريكا وهي تحارب ضد قوى الظلام المطلق. كما أن الصراع ضد عدوٍ ثوري ومتآمر جذب نمطاً معيناً من الشخصية في جانب الولايات المتحدة، أناس رأوا أنفسهم نخبة ثورية معادية للشيوعية وتكرس نفسها لمحاربة الشيوعيين: وهم وصفوا أنفسهم «بلشفيك اليمين»، من أمثال ديفيد ستوكمان، أو الشخصية الغريبة غروفر نوركويست، من اليمين

---

(16) كما قالها لي عضو مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة (من الحزب الديمقراطي) في كانون الثاني/ يناير 2002.

الراديكالي الذي صرّح مراراً بإعجابه «بالإيمان الحديدي» للينين، وكان يحتفظ بصورته في غرفة المعيشة، وهذا تصرف غير معتاد لدى المحافظين التقليديين[17].

هذا الاتجاه المانوي في عالم الجناح اليميني الأمريكي والمثقفين القوميين في مطلع القرن الحادي والعشرين اختصره وبشكل مثالي مقطع عن معهد المشروع الأمريكي عام 2003 كتبه مراقب بريطاني مذعور هو مارك الموند:

يتصرف معهد المشروع الأمريكي على أنه مسؤول عن الدعم الأيديولوجي لإدارة بوش، والمعهد أشبه بالكومنفورم[*] (Cominform) الخاص بالنظام العالمي الجديد. ومن يسمونهم مفكريه هم محاكم التفتيش في نظام كوني. تشبه محاضر ندواتهم الأجنبية جلسات الكراهية إبان الثورة الثقافية الصينية أكثر من شبهها بدرس العلوم السياسية في جامعة ييل. ينهض المشاركون لشجب الشخصية الكريهة المحددة لذلك اليوم أو لتأييد زيارة شخصية بارزة يفضلها النظام. ثمة نتانة خانقة من الامتثال الأيديولوجي. تروّج مراكز التفكير والتخطيط في واشنطن ليس للتعددية، بل لدوغماتية شبيهة بالنمط الستاليني يقودها امتثاليون وهراطقة منشقون مداحّون. هذه العقلية الأشبه بمحكمة استعراضية، ليست مفاجئة، إذ يضم معهد أمريكان أنتربرايز ورثة أيديولوجية المكارثية والمرتدين اليساريين مع مهاجرين

(17) انظر: David A. Stockman, *The Triumph of Politics: Why the Reagan Revolution Failed* (New York: HarperCollins, 1986); David Brock, *Blinded by the Right: The Conscience of an Ex-Conservative* (New York: Three Rivers Press, 2002), p. 71, and «Zealous Norquist Plans Conservative Golden Era,» *Washington Post*, 12/1/2004.

(*) الكومنفورم: مركز إدارة الحركات الشيوعية في العالم أيام الاتحاد السوفياتي.

تلقوا تعليمهم في الكتلة السوفياتية[18].

وهكذا فإن الحرب الباردة أسهمت في إذكاء التوجهات نحو هستيريا الكراهية في الدوائر الراديكالية المحافظة كما أنها شرعيتها. يعود السبب في ذلك جزئياً إلى أن هذه الجذور هي من العمق، بحيث عاشت هذه الميول بعد اختفاء الشيوعية في بداية التسعينيات ثم اتجهت ضد الأعداء الجدد في الخارج و«الليبراليين» في الداخل. هؤلاء الراديكاليون المحافظون والقوميون هم أناس تحولت أجواء الحرب الباردة لديهم إلى حال إدمان، بصرف النظر عن التحليل الفكري الجاد لوجود تهديدات حقيقية. أو وكما كتب أرفينغ كريستل عام 1993 : «بالنسبة لي ليس ثمة «ما بعد الحرب الباردة». هي لم تنته، بل إن حربي الباردة ازدادت حدة، مع تزايد إفساد الروح الليبرالية قطاعاً بعد آخر. الآن وقد انتهت «الحرب الباردة» الأخرى، فقد بدأت الحرب الباردة الحقيقية. نحن أقل تهيؤاً بكثير لهذه الحرب الباردة، وأكثر قابلية للأذى من عدونا، عما كانت عليه الحال في حربنا المنتصرة ضد التهديد الشيوعي العالمي»[19].

شغلت التهديدات الداخلية بال اليمين الراديكالي الأمريكي أغلب الوقت الذي استغرقته الحرب الباردة، والغريب أنها كثيراً ما غطت على التهديد السوفياتي في عقولهم[20]. إن إعادة التوجيه هذه للصراع القومي المزعوم نحو هجمات من أعداء داخليين هو بدوره

---

(18) Mark Almond, «Your Tyrant or Ours?,» *New Statesman* (17 November 2003).

(19) Irving Kristol, «My Cold War,» *National Interest*, no. 31 (Spring 1993).

(20) Daniel Bell, «The Dispossessed - 1962,» in: Daniel Bell, ed., *The Radical Right* (New York: Doubleday and Co., 1963), pp. 8-12.

نمط أقدم بكثير وأوسع بكثير من القومية. وكما لاحظ ألفرد كوبان بشأن القوميين الفرنسيين قبل عام 1914، «مع أن قوميي السنوات المبكرة من القرن العشرين استخدموا لغة قتالية وكانوا مصابين بعقدة الخشية من الأجانب، إلا أن عدوانيتهم كانت موجهة نحو مواطنيهم أكثر مما كانت موجهة ضد الأجانب»[21].

وكما توحي ملاحظات كريستول، فإن الحروب هي دائماً مفسدة للأخلاق، وقد استمرت الحرب الباردة مدةً طويلةً جداً بالمقارنة مع الحروب «الساخنة». إنها مفسدة ليس أقله في تصوير جانبهم على أنه مثالي، كما هي مفسدة في شيطنة عدوهم وفي رعايتهم المتعمدة والمنهجية للكراهية، بما فيها كراهية مواطنيهم المذنبين بالضعف المزعوم أو بالخيانة في مواجهة العدو. تلك كانت السمة المميزة لهجمات الجناح اليميني الأمريكي على الليبراليين طوال الحرب الباردة وما بعدها، وهي وصلت إلى مديات مجنونة كما في كتاب آن كولتر المعنون **خيانة**[22] (*Treason*).

كما أن الحروب مفسدة في تشجيعها على الإيمان بأن «الحقيقة يجب حمايتها بحرس من الأكاذيب»، وهي جملة قالها ونستون تشرتشل: الكذب العام مبرر أخلاقياً ووطنياً من أجل المصلحة العليا للنصر، ويجب مواجهة دعاية العدو ليس بالحقيقة بل بالدعاية المقابلة. التزوير الواعي أو غير الواعي للوقائع والأدلة صار سمة خاصة بالعديد من مناقشات الشؤون الدولية في الولايات المتحدة،

(21) Alfred Cobban, *A History of Modern France. Vol. 3, France of the Republics, 1871-1962*, Pelican Originals (London: Penguin, 1990), p. 48.

(22) Ann Coulter, *Treason: Liberal Treachery from the Cold War to the War on Terrorism* (New York: Crown Forum, 2003).

كما بينتها مثلاً الحملة الإعلامية عام 2003 ضد فرنسا. وهناك مؤسسات تموّلها الدولة مثل راديو أوروبا الحرة وراديو آسيا الحرة تأسست واستمرت على هذه الروحية، حتى بعد انتهاء الحرب الباردة.

سمحت الحرب الباردة لمؤسسات مثل نادي مأدبة الشؤون العامة (Public Affairs Luncheon Club) في دالاس خلال الستينيات، أن تنسج نسيجاً متنوعاً من عقد الاضطهاد والارتياب في شبكة محكمة واحدة، مع خطابات حول مواضيع مثل «الأمم المتحدة هي المنطلق الذي سوف تأتي منه الحركة الشيوعية العظمى»، «لا يزال الاشتراكيون الأمميون يتحكمون بوزارة الخارجية»، «الأمميون فعلوا كل شيء لتدمير الاستقلال الوطني للولايات المتحدة»[23]، لقد أثّرت الخشية من سيطرة الشيوعية حتى على شخصيات بيروقراطية واعية في الظاهر، من أمثال ديك تشيني[24]. وبدلاً من أن تكون نهاية الحرب الباردة قد حررت الولايات المتحدة من هذا الخطاب المؤذي، فإن الانتصار على الشيوعية الذي تحقق بين 1989 و1990 قد ثبته في مكانه. استمرت كل هذه الاتجاهات (بالرغم من هبوط مستواها) خلال التسعينات ولكنها تعززت بقوة جديدة مخيفة بعد 11 أيلول/ سبتمبر.

التعبئة الدائمة

وهكذا فإن الحرب الباردة أدامت وكشفت اتجاهات كانت

---

(23) John Bainbridge, *The Super-Americans; a Picture of Life in the United States, as Brought into Focus, Bigger than Life, in the Land of the Millionaires - Texas*, p. 237.

(24) Nicholas Lemann, «The Quiet Man: Dick Cheney's Discreet Rise to Unprecedented Power,» *New Yorker* (7 May 2001), p. 69.

موجودة أصلاً في الثقافة السياسية الأمريكية. ومع أنها جاءت بعد الحرب العالمية الثانية، إلا أنها أدخلت أيضاً شيئاً جديداً تماماً: نظام حكم في حال دائمة من شبه التعبئة للحرب، الممأسسة في المركّب الصناعي ـ العسكري ـ الأكاديمي وفي المؤسسات الأكاديمية المرتبطة به. وكما كتب الناقد الراديكالي للولايات المتحدة والمؤرخ تشارلز رايت ميلز عام 1959: «للمرة الأولى في تاريخ الولايات المتحدة، يتحدث رجال السلطة عن حال «طوارئ» من دون وجود نهاية مرئية لها. . . ليس لدى النخبة الأمريكية أي صورة حقيقية عن السلام، باستثناء كونه فاصل توقف غير مريح وعديم الثبات حصل بفضل توازن الرعب. الخطة الوحيدة المقبولة جدياً «للسلام» هي المسدس المحشو تماماً. باختصار، فإن الحرب أو التهيؤ الأقصى للحرب هي ما يشعر المرء أنها الحالة الطبيعية، والظاهر أنها الحال الدائمة في الولايات المتحدة»[25].

ووفق الطراز الأمثل للنخب الأمنية من هذا الصنف، فقد أصبحوا متكيفين بعمق بمرور العقود لأنهم الأكثر صلابةً وشجاعةً وحكمةً ومعرفةً، من مواطنيهم الجهلة والأبرياء، وأنهم القوة الوحيدة التي تصد الدمار عن بلدهم. وبالتالي فإنه يحق لهم، عند الضرورة، خداع مواطنيهم ولمصلحة هؤلاء المواطنين، إذ تقول الحكمة: بأنه لو تُرك الشعب الأمريكي لنوازعه الطبيعية، لظلت أمريكا بلا دفاع تقريباً في وجه العدوان الألماني والياباني في الأربعينيات والعدوان السوفياتي في بداية الحرب الباردة. وفي الواقع فإن ثمة خلفية تاريخية لشكل محدود وحذر من هذا الموقف. لقد

(25) Charles Wright Mills, *The Power Elite* (New York: Oxford University Press, 1959), p. 184.

وصف الجنرال جورج مارشال ـ وهو رجل لا يُشك بلجوئه للمبالغات الهستيرية ـ تقليص القوات المسلحة بعد عام 1945 على أنه «ليس تسريحاً، بل هزيمة منكرة»[26].

وحال «الطوارئ بلا نهاية» هذه، تكررت وبشكل أكثر كثافة في الحرب على الإرهاب؛ لكن طبيعة المؤسسة الأمنية المجتمع الصناعي ـ العسكري ـ الأكاديمي التي خلقتها الحرب الباردة ساعد أيضاً في جعل الولايات المتحدة غير مناسبة فعلياً لمحاربة الإرهابيين. بدلاً من ذلك، فإن هذا المجمع من المؤسسات والمواقف، يتطلب أن تكون الدول أعداءه، وإذا لم يكن سهلاً إيجاد مثل هذه الدول بسرعة، فسوف يسعى غريزياً لخلقها، في الأقل في عقل الجمهور الأمريكي[27].

صار الإنفاق العسكري فائق الأهمية وكذلك قطاع الصناعة العسكرية خلال الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة ـ مع سبر الفضاء بوصفها ملحقاً صغيراً ـ إلى حد أن وجوده صار أساسياً لاقتصاد الولايات المتحدة، ولنمو اقتصاد الولايات المتحدة، وقبل كل شيء آخر للتطور التكنولوجي للولايات المتحدة. بالرغم من تبذيره الذي لا يصدق والفساد المتفشي فيه، إلا أن الإنفاق العسكري كان في بعض طرقه نوعاً غير معترف بوجوده من استراتيجية الدولة للتنمية الصناعية الناجحة، في دولة تعني أيديولوجية حرية السوق فيها أنها لا تستطيع رسمياً تبني أو الاعتراف بوجود مثل هذه الاستراتيجية.

---

(26) ذكر في: Samuel Eliot Morison, *The Oxford History of the American People*, 3 vols. (New York: Penguin, 1994), p. 417.

(27) Michael T. Klare, «Cold War Government with No War to Fight: America's Military Revolution,» *Monde diplomatique* (English Edition) (July 2001).

إن نمو أهمية العسكر ومعه المؤسسات والمصالح المرتبطة به، كان شيئاً يختلف كلياً عن أي شيء آخر وجد من قبل في تاريخ الولايات المتحدة، فالعداء للجيوش الدائمة الذي يصاحبه على الدوام ضرائب مرتفعة والتهديد باستبداد ملكي، كان جزءاً مركزياً من دوافع تمرد أمريكا ضد بريطانيا. ساهم هذا الشعور في تغذية الإيمان بالميليشيات الشعبية على أنها البديل الحر والديمقراطي. وكما ورد في التعديل الثاني للدستور، وصار يشكل اليوم الدفاع الدستوري الرئيسي لحق حمل السلاح في لوبي السلاح في الولايات المتحدة[28]. لجأت الولايات المتحدة إلى التجنيد للقتال في حروبها ثلاث مرات قبل الحرب الباردة: في الحرب الأهلية والحربين العالميتين الأولى والثانية، لكن في كل مرة سرعان ما تبع النصر تسريح الجيش. مع الحرب الباردة فقط بدأ مفهوم الاستعداد الدائم ليكون جزءاً متمماً من النظام الأمريكي. كان هذا بلا شك أمراً لا يمكن تحاشيه، بسبب الطبيعة الدائمة (المبالغ بها غالباً) لتهديد الاتحاد السوفياتي المتحشد دوماً والمتسلح بالسلاح النووي، لكن كونه لا يمكن تحاشيه لا يجعل نتائجه أقل خطورة.

مع كونه جديداً على الولايات المتحدة، إلا أن هذا النوع من النظام والجو المرافق له كان منتشراً انتشاراً كبيراً في تاريخ العالم. في العقود التي سبقت عام 1914 كانت جميع القوى الأوروبية الكبرى باستثناء بريطانيا تعيش في حال شبه تحشد دائم. عكس هذا الوضع الظروف الأمنية الموضوعية للقارة الأوروبية آنذاك؛ لكن وكما في الولايات المتحدة خلال الحرب الباردة، فإنها في البداية خلقت كتلاً

(28) Chalmers A. Johnson, *The Sorrows of Empire: Militarism, Secrecy, and the End of the Republic* (New York: Metropolitan Books, 2004), pp. 44-45.

عسكرية، بيروقراطية وصناعية، ثم تغذت على وجودها في ما بعد، وكان لهذه الكتل مصالح راسخة في المحافظة على مزاج عقدة الاضطهاد القومي والخوف من الدول الأخرى وكراهيتها، وبالتالي على التوتر الدولي.

المثال الكلاسيكي هو رابطة البحرية الألمانية التي دعمتها مصالح صناعة الحديد والصلب والتسليح، وتحالفت مع الأرستقراطية القديمة وكرست نفسها لخلق سباق تسلح مع بريطانيا(29). ساهمت هذه المجموعات إلى حد بعيد في ازدهار القوميات المتنافسة والعدوانية والتي أدت بالتالي إلى الصدام بين عامي 1914 و1918.

لكل دولة صيغتها من «لجنة المخاطر الحاضرة» كما تسمى في الولايات المتحدة وهي التي حشدت المخاوف من الاتحاد السوفياتي في بداية الثمانينيات. كل دولة أوروبية قبل عام 1914 كان لها مخاوفها المتكررة والمخزونة بعناية والمتعلقة بالقدرات العسكرية للعدو، مثل موجة الذعر من «فجوة الصواريخ» التي خلقها الديمقراطيون سلاحاً ضد أيزنهاور بمساعدة حلفائهم من المثقفين، بمن فيهم عالم الذرة والمقاتل الشرس في الحرب الباردة أدوارد تيللر(30).

---

(29) Gordon A. Craig, *Germany, 1866-1945* (Oxford: Oxford University Press, 1981), pp. 288, 293-296 and 307-308; Eckart Kehr, *Economic Interest, Militarism, and Foreign Policy: Essays on German History*, Edited and with an Introd. by Gordon A. Craig; Translated by Grete Heinz (Berkeley: University of California Press, 1977), pp. 75 ff. Volker Rolf Berghahn, *Germany and the Approach of War in 1914*, 2nd ed. (New York: St. Martin's Press, 1993), pp. 136-143, and Richard Owen, «Military-Industrial Relations: Krupp and the Imperial Navy Office,» in: Richard J. Evans, ed., *Society and Politics in Wilhelmine Germany* (London: Croom Helm; New York: Barnes and Noble, 1978).

(30) Leebaert, *The Fifty-Year Wound: How America's Cold War Victory Shapes Our World*, pp. 230-231 and 243-246.

في الولايات المتحدة، كان السيناتور ليندون جونسون أحد أوائل من استغلوا هذا التكتيك حين ترأس اللجنة الفرعية للاستعداد في مجلس الشيوخ خلال الحرب الكورية. منذ ذلك الحين صار ذلك سمةً ثابتةً تعاود البروز على المسرح السياسي الأمريكي[31]. ومثل هذه التحركات يمكن استخدامها، سواء من المعارضة للتشكيك بالحكومة القائمة، أو من الحكومة لحشد الدعم الوطني والتشكيك بالمعارضة. لورد سالزبري الذي كان رئيساً لوزراء بريطانيا مرات عديدة في ذروة الإمبراطورية البريطانية، قال ذات مرة بمرارة، إنه لو حقق جنرالات بريطانيا وحلفاؤهم السياسيين ما يريدون، لكان عليه دفع الكثير «لتسليح القمر ضد هجوم محتمل من المريخ»[32].

عام 1897 نشرت صحيفة بريطانية قصة كان يمكن أن يكون كاتبها تشارلز كروتهامر: «كيف حاربت بريطانيا العالم عام 1899»،

---

(31) Robert A. Caro, *The Years of Lyndon Johnson*, 3 vols. (New York: Knopf, 1982 - 2002), vol. 3: *Master of the Senate*, pp. 306-334.

(32) Anatol Lieven, «The (Not So) Great Game,» *National Interest*, no. 58 (Winter 1999 - 2000).

حول المراحل الأخيرة من النقاش حول التهديد الروسي للهند وردود الفعل البريطانية، انظر: Max Beloff Beloff, *Imperial Sunset*, 2 vols. (New York, Knopf, 1970-1989), vol. 1: *Britain's Liberal Empire, 1897-1921*, pp. 20-25 and 31-39; Aaron L. Friedberg, *The Weary Titan: Britain and the Experience of Relative Decline, 1895-1905* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1988), pp. 212-280, and David Gillard, *The Struggle for Asia, 1828-1914: A Study in British and Russian Imperialism* (London: Methuen, 1977).

وحول أصول هذه المخاوف البريطانية في أواسط القرن التاسع عشر والكراهية لروسيا، انظر: John Howes Gleason, *The Genesis of Russophobia in Great Britain; a Study of the Interaction of Policy and Opinion* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1950).

وفيها تقوم فرنسا وروسيا بغزو بريطانيا. وكتب الناشر، أن هذه القصة «ليست خيالاً جامحاً من روائي واسع المخيلة، تخيل هذا التهديد بالغزو لشواطئنا المحبوبة. بل إنه قد نوقش بشكل أكيد في الصحف الفرنسية والروسية، وكذلك الألمانية... يتحدث الفرنسي والروسي المتعلم عن مثل هذا الأمر ببرودة، كما نتحدث نحن عن إرسال حملاتنا لمعاقبة السودان أو تلال شمال غرب الهند»[33].

لقي هذا الخيال الغرائبي التقريظ ووصفه ضباط بريطانيون بالواقعي وكان جزءاً من موجة واسعة من هذا الصنف من القصص في أوروبا آنذاك. في الولايات المتحدة مثل هذا «الفزع» الخيالي المتعلق بغزو الولايات المتحدة من قبل الاتحاد السوفياتي، والصين، وكوبا، وحتى نيكاراغوا صار سمة ثابتة لقصص الرعب خلال الحرب الباردة، مذكراً بمخاوف البروتستانت في القرن التاسع عشر من جيش كاثوليكي يغزو أمريكا مستخدماً المنطاد[34]. ساعدت هذه الجذور الثقافية والتاريخية القديمة في أن تصبح عقدة الاضطهاد في الهستيريا المعادية للشيوعية جزءاً من الثقافة السياسية الأمريكية، وهي عبارة عن فرضيات ومخاوف موجودة وتؤدي دورها تحت مستوى المناقشات السياسية وبالتأكيد فإنها ليست مفتوحة للنقاش العقلاني[35].

مثل هذه الخيالات الجامحة لم تظهر على شكل أعمال قصصية

---

(33) ذكر في: Michael Paris, *Warrior Nation: Images of War in British Popular Culture, 1850-2000* (London: Reaktion Books, 2000), pp. 88-89.

(34) هذا موضوع الفيلم عن المقاومة البطولية الأمريكية للاحتلال السوفيتي لكوبا-نيكاراغوا للمخرج جون ميليوس (John Milius) عام 1984 بعنوان «Red Dawn».

(35) Richard Hofstadter, *The Paranoid Style in American Politics, and Other Essays* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1996).

وحسب، بل ظهرت على لسان كبار الموظفين المتنفذين والمحترمين والمعلقين البارزين. في كتابه الصادر عام 1980 بعنوان **الخطر القائم** (*The Present Danger*)، حذر نورمان بودهوريتز، وهو من المحافظين الجدد، من الخطر الداهم لجعل أمريكا شبيهة «بفنلندا»، ويعني هذا «تبعية الولايات المتحدة سياسياً واقتصادياً للقوة المتفوقة للاتحاد السوفياتي». وتساءل إن كانت البلاد قد وصلت إلى نقطة لم يعد أمامها غير «خيار وحيد هو الاستسلام أو الحرب»[36].

وبعد أن صارت في ما بعد الظروف الحقيقية للوضع الاقتصادي والعسكري آنذاك للاتحاد السوفياتي واضحة، قد يتوقع المرء أن يصبح بودهوريتز وزملاؤه أكثر تواضعاً وحياءً في أحكامهم، أو أن يفقد جمهورهم الثقة بهذه الأحكام، لكن حصل العكس. منذ عام 2004 بقي بودهوريتز في موقعه، رئيس تحرير صحيفة **كومنتاري** (*Commentary*)، ومن كبار المعلقين في التلفزيون، يقدم نصائحه للولايات المتحدة عن «كيفية الانتصار في الحرب العالمية الرابعة»[37].

كان بسمارك يستخدم هذا «الفزع» أحياناً تكتيكاً في صراعه للسيطرة على البرلمان الألماني، للتعاون أو لإضعاف الأحزاب الليبرالية وللمحافظة على سيطرة الملكية على السلطة التنفيذية. ثم

---

(36) Norman Podhoretz, *The Present Danger: «Do We Have the Will to Reverse the Decline of American Power?»* (New York: Simon and Schuster, 1980), Quoted in: Lind, *Up from Conservatism: Why the Right Is Wrong for America*, p. 61, note, and Kristol, *Neoconservatism: The Autobiography of an Idea*, pp. 108-109.

(37) Norman Podhoretz, «How to Win World War IV,» *Commentary*, vol. 113, no. 2 (February 2002).

صارت هذه ممارسةً متكررة تحت حكم خلفائه[38]. في الولايات المتحدة استمر مثل هذا «الفزع» من قوة الاتحاد السوفياتي حتى بعد انكشاف انهيار الاتحاد السوفياتي: ثم أُعيد إحياؤه فوراً على شكل عقدة اضطهاد من عودة روسيا «للانتقام»، بالرغم من كون القوات المسلحة الروسية كانت تتفكك أمام أعيننا[39].

الحاجة لوجود دول كبرى بوصفهم أعداءً لنا تنبع جزئياً من حقيقة أن مثل هذا الوجود المفترض لدولةٍ عدو هو وحده ما يمكن أن يبرر الإنفاق العسكري بالمستوى الذي تطالب به الصناعات المعنية. في حين أن الجماعات الإرهابية تتطلب نمطاً مختلفاً تماماً من ردود الفعل، أكثر تعقيداً لكنه أقل كلفة بكثير[40]. لكن أطر العمل الفكري والمؤسسي للرجال والنساء المعنيين يتطلب أيضاً أعداءً هم بمعنى من المعاني توأمهم الشيطاني، إذ لهم ترتيب عقلي مماثل وطموحات مشابهة: نخبٌ من دولةٍ عسكرية ـ بيروقراطية ـ اقتصادية، وليس إرهابيين يقودهم مزيج معقد وغريب من القيم والدوافع الدينية والثقافية والاجتماعية ـ الاقتصادية. يتطلب الإصلاح العميق والحقيقي لمؤسسة الدفاع الأمريكية لمواجهة خطر الإرهاب الإسلامي تقويماً جوهرياً للنخب الأمنية الأمريكية، وهي فكرة لا تروق لهم طبعاً.

---

(38) Craig, *Germany, 1866-1945*, pp. 104-113, and Berghahn, *Germany and the Approach of War in 1914*.

(39) لعمل كلاسيكي آخر لعقدة الاضطهاد المعادية للسوفيت، انظر: Raymond S. Sleeper, ed., *Mesmerized by the Bear: The Soviet Strategy of Deception* (New York: Dodd, Mead and Co., 1987).

(40) التوصيات بشأن الحرب على الإرهاب التي وضعها كلارك (Clarke)، في: Richard A. Clarke, *Against all Enemies: Inside America's War on Terror* (New York: Free Press, 2004), pp. 247-287.

هذا الاتجاه للتركيز على الدول قد تزايد من خلال هيمنة المقاربة الثقافية «الواقعية» في الشؤون الدولية بين القسم الأعظم من النخب الأمنية الأمريكية. هذه الرؤية للعالم تميل إلى توجيه الاهتمام بعيداً عن دراسة المجتمعات، كما ويمكنها في الوقت نفسه أن تكون غطاءً للتطرف القومي. تشجع «الواقعية» على النظر إلى الدول على أنها أساساً قطع من «رقعة الشطرنج الكبرى» في الشؤون الدولية (وهذه استعارة لعنوان كتاب مستشار الأمن القومي الأسبق زبغنيو بريجنسكي) مع مجموعة مسبقة وثابتة من الصفات ومن التحركات الممكنة[41].

ولهذا فإن العقيدة الأسهل والأكثر راحة للنخبة الأمنية وللمفكرين من موظفيها وحلفائها، هي في القول إن المعرفة الثقافية واللغوية للآخرين ليست مهمة حقاً، وكذلك من غير المريح وقد يكون من الخطر السفر وإجراء البحوث. وإلى جانب ما سبق، ومع وجود مقاربات مشابهة ومحددة حول دراسة التاريخ بين العديد من «الواقعيين» (وليس كلهم)، فإن هذا الاعتقاد يساهم في تدمير أي قدرة على مساءلة سلوك بلد المرء ووضعه في سياقات أفق أخلاقية أوسع؛ وهو يشجع أيضاً بعضاً من نقاط الضعف الأنانية في الدراسات الأمريكية المعاصرة حول العالم الخارجي والتي سبق تحليلها في الفصل الثاني.

الهوس بروسيا والصين

نظرياً يجب على الواقعية ـ كما يوحي اسمها ـ تشجيع نظرة هادئة وموضوعية للشؤون البشرية. أما في الواقع، فقد انغمس

---

(41) Zbigniew Brzezinski, *The Grand Chessboard: American Primacy and its Geostrategic Imperatives* (New York: Basic Books, 1998).

أنصارها غالباً بالكراهية القومية والتعصب حيال ما اعتبروا أنه الطبيعة الشريرة الثابتة لأمـم أخرى مختارة. كتب أوين هاريس رئيس تحرير مجلة **المَصلَحة القوْمية** (*The National Interest*) عن مواقف مؤسسة الحكم في الولايات المتحدة تجاه روسيا خلال التسعينات:

تستند قضية الواقعيين بشكل كبير إلى الاقتناع أن روسيا توسعية بحكم طبيعتها وإنه لا يمكن تغيير هذه الطبيعة، بغض النظر عمن يحكمها وكيف... عند طرح الأمر على هذا النحو، فإن هؤلاء المعلقين مخلصون جداً لموقفهم الواقعي. لكنهم في الوقت نفسه يجلبون الانتباه إلى واحد من أهم نقاط ضعف مفكري هذا التيار بالذات أنه يؤكد طبيعة تكوين النظام الدولي وموقع الدول في داخل هذا النظام، بهذا فالواقعية لا تعطي أي أهمية، أو إنها تعطي أهمية ضئيلة لما يحدث **داخل** دول معينة: ما نوع النظام في السلطة؟ أي نوع من الأيديولوجية يسود فيها؟ ما صنف القيادة التي يقدمها[42]؟

نقل تشالمرز جونسون عن أحد كبار موظفي وزارة الدفاع في إدارة كلينتون إنه قد أسعده جداً أن يرى في الدوائر الحكومية التي تتعامل مع الصين، بداية إزاحة الخبراء بشأن الصين على يد «طبقة ذات استراتيجية جديدة» من ذوي الاختصاص العام بالدراسات الاستراتيجية والعلاقات الدولية الذين قد لا يعرفون الكثير عن الصين، لكنهم سيراقبون «أي إشارات على قدرة الصين في التهديد» - وهذا تصريح له دلالات كبيرة[43].

---

(42) Owen Harries, «The Dangers of Expansive Realism - Proposal for North Atlantic Treaty Organization expansion,» *National Interest* (Winter 1997-1998).

(43) كارت كامبل (Kurt M. Campbell) وكيل مساعد أسبق لوزير الدفاع في شؤون الشرق الأوسط والباسيفيك (أو المحيط الهادئ). انظر: Kurt M. Campbell, «China =

إن هذا التوافق بين تيارات على تجاهل المجتمعات والتركيز على الدول، يساهم أيضاً في تفسير سبب عدم الاهتمام، الغريب فعلاً، لإدارة بوش والنخب التي تدعمها بالإرهابيين الذين قاموا بالفعل بهجمات 11 أيلول/ سبتمبر وما زالوا يهددون أمريكا. وكما لاحظ ريشارد كلارك وبول أونيل وبوب وودوارد، فقد كان تشيني، ورامسفيلد وبالأخص بول ولفوويتز يفكرون بالفعل ومنذ الأيام الأولى بعد الهجمات في كيفية استغلال الهجمات الإرهابية لتبرير الحرب مع العراق[44]. وما أن أنجز القضاء على طالبان، حتى بدأ التخطيط التفصيلي للحرب مع العراق، بالرغم من أنه بدا واضحاً تماماً أن أفغانستان ستظل مشكلة كبرى لا تستطيع الولايات المتحدة أن تغفل عنها.

كما يبدو أنه جزئياً بسبب موروث الحرب الباردة فإن الولايات المتحدة، حسبما ذكر وودوارد (مستنتجاً من مقابلة أجراها مع دونالد رامسفيلد) في 11 أيلول/ سبتمبر كانت بحال عدم استعداد كامل للحملة على أفغانستان، بالرغم من أن ذلك البلد كان قد تصرف بالفعل كقاعدة لهجمات إرهابية جادة: «لم يكن لدى العسكر أي خطة لأفغانستان معقل بن لادن وشبكته، بالرغم مما يبدو من أن لديهم خططاً بديلة لأكثر السيناريوهات إغراقاً في الغرابة. لم يكن هناك أي شيء على الرف يمكن سحبه لكي يقدم على أقل تقدير خطوطاً عريضة».

إن الاندفاع نحو الدفاع الوطني الصاروخي، والذي هيمن على

Watchers Fighting a Turf War of Their Own,» *New York Times*, 20/5/2000, = Quoted in: Johnson, *Blowback: The Costs and Consequences of American Empire*, p. 62.

(44) Bob Woodward, *Plan of Attack*.

نشرت مقتطفات منه على حلقات في **الواشنطن بوست** طوال شهر نيسان/ أبريل 2004.

الأجندة الأمنية لإدارة بوش في الأشهر الثمانية الأولى لحكمه، كان دافعه قبل كل شيء الرغبة في إلغاء الردع النووي الصيني ودفاع دول منافسة غير الصين، وبالتالي خلق ما يسميه والتر رسل ميد «الكأس المقدس للسياسة الخارجية الجاكسونية: منظومة أسلحة تدافع عن الأمة في حين تخيف البقية، وتسمح للولايات المتحدة بالسيطرة على الأحداث حول العالم من دون المخاطرة بأرواح مواطنيها من الجنود»[45]. إن خطاب كوندوليزا رايس، مستشارة الأمن القومي لبوش، عن التهديدات للولايات المتحدة والذي كان من المقرر أن تقدمه في 11 أيلول/سبتمبر 2001، «كان مخططاً له لكي يكون أداة للترويج للدفاع الصاروخي بوصفه حجر الزاوية للاستراتيجية الجديدة للأمن القومي، ولم يكن فيه أي ذكرٍ للقاعدة، وأسامة بن لادن، أو للمجموعات الإسلامية المتطرفة»[46].

يمكنني أن أقدم شهادتي بشأن «السيناريوهات غير المعقولة» لعدوان روسي وللحرب الدولية وذلك من تجربتي الخاصة في جلسات بناء السيناريو والمناقشات مع موظفي الولايات المتحدة في السنوات التي سبقت 11 أيلول/سبتمبر. وفي حال لم توجد مثل هذه السيناريوهات للحرب في أفغانستان، بالرغم من حقيقة أن القاعدة كانت قد شنت بالفعل هجمات عدة دموية ضد أهداف للولايات المتحدة، فمن المؤكد أن السبب في ذلك هو أن الكثيرين ممن كان يجب أن يفكروا بهذا الأمر كان يساورهم القلق بشأن قيام حرب مع روسيا أو الصين.

---

(45) Walter Russell Mead, *Special Providence: American Foreign Policy and How It Changed the World* (New York: Routledge, 2002), p. 303.

(46) Robin Wright, «Top Focus before 9/11 Wasn't on Terrorism: Rice Speech Cited Missile Defense,» *Washington Post*, 1/4/2004.

إن المذكرة المتعلقة بالتحديات الأمنية والتي قدمها رامسفيلد لإدارة بوش عند تسلمها المسؤولية عالجت التهديدات التي تواجهها الولايات المتحد من العراق، والصين، وروسيا، وإيران وكوريا الشمالية، ومن أسلحة الدمار الشامل، ولكن ليس من القاعدة[47]. اشتكى المنسق الأسبق لمواجهة الإرهاب ريشارد كلارك بمرارة من عدم اهتمام إدارة بوش بالتهديد الإرهابي قبل 11 أيلول/ سبتمبر وبعدها، بالمقارنة مع هوسهم بالدفاع الصاروخي والحرب ضد العراق. وفي العراق، تركز الهوس كله على كيفية هزيمة صدام حسين، إلى درجة أن المخططين أهملوا حتى تأمين المنشآت النووية المدنية، لذلك البلد ومنع الإرهابيين من الحصول على المواد المشعة لصنع «قنبلة قذرة».

من هنا أيضاً ذلك التركيز على الاستراتيجية المضادة لروسيا، إلى حد ما خلال حكم كلنتون، لكن بدرجة أعلى خلال الأشهر الثمانية الأولى لإدارة بوش. في أواسط التسعينات، اعتنت مؤسسة السياسة الخارجية والأمن في الولايات المتحدة بالحد من نفوذ روسيا في الاتحاد السوفياتي السابق، وتحويل ذلك إلى أولوية استراتيجية أمريكية. وقد ركزوا على هذا الهدف بالرغم من حقيقة أن تلك المناطق لم يكن لها في السابق أدنى أهمية استراتيجية لأمريكا.

اصطدمت هذه الاستراتيجية الجديدة مع تلك التي اتبعتها إدارة بوش الكبير من عام 1988 لغاية 2002 تجاه الاتحاد السوفياتي خلال سنوات انهياره. تأسست الاستراتيجية السابقة قبل كل شيء على الخشية من وقوع فوضى وحرب أهلية وفقدان سيطرة الدولة على

---

(47) Ron Suskind, *The Price of Loyalty: George W. Bush, the White House, and the Education of Paul O'Neill* (New York: Simon and Schuster, 2004), p. 81.

الأسلحة النووية ومواد صنعها. بقيت كل هذه التهديدات ولا تزال قائمة في أجزاء الاتحاد السوفياتي السابق لحد هذا اليوم، وكان يجب إعطاء كل ذلك اهتماماً جديداً بعد 11 أيلول/سبتمبر. إن بعض التبرير الحقيقي للاستراتيجية الجديدة المعادية لروسيا بصيغة المصالح القومية قد أعطي على أساس الحاجة لتأمين الوصول إلى مصادر الطاقة في حوض قزوين، لكن من أجل جعل هذه الفكرة قابلة للتصديق بحق، كان لابد من نشر تقارير مبالغ بها إلى حد كبير عن حجم الاحتياطي الثابت لذلك الخزين.

في هذه الأثناء وطوال التسعينيات واصل المعلقون المهمون المبالغة في القوة العسكرية والإرادة العدوانية لروسيا والشعب الروسي[48]. في العديد من الدوائر أصحبت هذه المبالغات محاولات تاريخوية، وحتى عنصرية لتصوير الشعب الروسي على أنه إمبرياليٌّ بالفطرة؛ وأطلقت تصريحات مثل القول «التوسع موجود في الحمض النووي الروسي DNA»[49]، أو «المشكلة الأمنية المحتملة الوحيدة للقوى الكبرى في أوروبا الوسطى هي طول شبح القوة الروسية، وعلى الناتو مهمة موازنته. روسيا هي من قوى الطبيعة، وكل هذا لا يمكن تحاشيه»[50].

ثمة ما يثير الضجر في مثل وجهات النظر هذه لدى كل من لديه إحساس تاريخي؛ فهي تميل إلى تكرار مجموعة من الجمل قابلة لأن توضع الواحدة موضع الأخرى وتستخدم لوصف أممٍ أخرى

---

(48) James Rupert, «Still within Reach of Russian Bear,» *Washington Post*, 5/1/1997.

(49) George F. Will, «Eastward Ho - and Soon,» *Washington Post*, 13/6/1996.

(50) Peter Rodman, «Four More for NATO,» *Washington Post*, 13/12/1994.

منذ ظهور القومية. لهذا فإن المقطع التالي هو مثال على العديد من المقالات والخطب حول موضوع العدوانية الفطرية لروسيا وشرورها والتي واجهتها في أمريكا خلال الحرب الباردة وبعدها ـ إلا أنها في الواقع قد كتبها أمريكي بشأن بريطانيا ثمانينات القرن التاسع عشر، وجرى استخدام أصنافٌ منها بتكرار من نقاد دوليين بشأن الولايات المتحدة: «نشاط قلق، واعتداء مسرف الوحشية، بخاصة عند التعامل مع قوى أضعف منها، وكانت هذه العوامل المتحكمة في دبلوماسية بريطانيا لقرون عديدة. ويعطينا التاريخ سلسلة لا انقطاع فيها لسجل من الهجمات الظالمة والمتعجرفة على سلامة كل أمة في العالم حيث يمكن العثور على حجة لتأكيد الهيمنة الإنجليزية»(51).

جئت إلى واشنطن في زيارة دراسية عام 1996، بعد تغطية الانسحاب الروسي واسع النطاق من إمبراطوريتها، أعظم انسحاب سلمي من أي إمبراطورية في التاريخ كله، باستثناء الانسحاب البريطاني من إمبراطوريتها. كما كنت قد غطيت هزيمة روسيا في أول حرب في الشيشان (لم تكن حرباً إمبراطورية بل كانت حرباً ضد انفصال جزء من الاتحاد الروسي نفسه) وكذلك مزيج الفساد، والسخرية، والمادية وعدم الاكتراث بالسياسة الذي أمسك بخناق المجتمع الروسي بعد سقوط الشيوعية(52).

فور وصولي، دهشت في البداية، ثم ارتعبت حين وجدت أن

---

(51) Henry Grattan ,Donnelly, *The Stricken Nation* ([New York: C. T. Baker], 1890), Quoted in: Paris, *Warrior Nation: Images of War in British Popular Culture, 1850-2000*, p. 102.

(52) حول وصف الرابط بين الهزيمة العسكرية الروسية وحالة الثقافة والمجتمع الروسي، انظر: Anatol Lieven, *Chechnya: Tombstone of Russian Power*, with Photographs by Heidi Bradner ([New Haven: Yale University Press, 1998]).

قطاعات واسعة من النخب الأمريكية، ممن يؤدون دور معلقين رسميين وغير رسميين، تكرس جهدها لخلق صورة عن روسيا في عقول الشعب الأمريكي ليست لها إلا علاقة عرضية بالحقيقة؛ وهذا التوجه ابتلعته قطاعات واسعة من الإعلام والشعب الأمريكي[(53)]. بعد هذه التجربة، لم أندهش كثيراً لنجاح إدارة بوش وحلفائها من وسائل الإعلام في الربط بين القاعدة وصدام حسين، ولقيام لوبي إسرائيل بالربط بين القاعدة والفلسطينيين[(54)].

خلال الأشهر الأولى لإدارة بوش، وجدت وجهات النظر هذه تعبيرها في مجموعة سياسات قوية معادية لروسيا، ترافقها لغة مزدرية وعدوانية[(55)]. لكن خلال سنتين حدث تغيرٌ جذري، بالأخص في ما

---

(53) William E. Odom and Robert Dujarric, *Commonwealth or Empire?: Russia, Central Asia, and the Transcaucasus* (Indianapolis; [New York]: Hudson Institute, 1995); William E. Odom, «Realism about Russia,» *National Interest*, no. 65 (Fall 2001); George F. Will, «Back in the U.S.S.R.,» *Washingon Post*, 3/9/2000; William Safire, «Dangerous Consequence,» *New York Times*, 4/11/1999; Bill Gertz, «U.S. Still Needs Nukes, Official Says,» *Washington Times*, 23/2/1997; Pipes Richard, «Russia's Past, Russia's Future (Historical Examination of Russia's Inability to Develop Western-Style Political or Social Structure),» *Commentary*, vol. 101, no. 6 (June 1996), and Ariel Cohen [et al.], «Making the World Safe for America,» in: Stuart M. Butler and Kim R. Holmes, eds., *Issues'96: The Candidate's Briefing Book* (Washington, DC: Heritage Foundation, 1996).

حول تحدي مثل وجهات النظر هذه، انظر: Stephen Sestanovich, «Geotherapy: Russia's Neurosis and Ours,» *National Interest*, no. 45 (Fall 1996).

لمناقشة وجهات النظر هذه انظر المقدمة، في: Lieven, Ibid.

(54) حول دور ذوي المصالح الدستورية في إدامة الكراهية والخوف من روسيا خلال التسعينات، انظر: Harries, «The Dangers of Expansive Realism - Proposal for North Atlantic Treaty Organization Expansion».

(55) Condoleezza Rice, «Campaign 2000: Promoting the National Interest,» *Foreign Affairs*, vol. 79, no. 1 (January - February 2000). =

يتعلق بالشيشان. فقد وصلت قوات أمريكية إلى جورجيا في أواخر عام 2001 مهمتها تدريب الجيش الجورجي للتعامل مع الإرهابيين الشيشانيين والعرب على أراضيها، وطلبت استخبارات الولايات المتحدة وأوروبا مساعدة روسيا للتعامل مع الجماعات الإرهابية العربية المتحالفة مع الشيشانيين والذين يتدربون في جورجيا[56].

وبالطبع فقد كان الإعلام أنذاك، في الولايات المتحدة ومعه السياسيين الجمهوريين وصقور المحافظين الجدد، يطلقون صرخات الاتهام نفسها بإيواء الإرهابيين وتحريضهم ضد العربية السعودية وغيرها من حلفاء الولايات المتحدة والذين كانت روسيا تطلق اتهاماتها ضدهم قبل 11 أيلول/ سبتمبر، النتيجة أنها اتهمت من قبل المعلقين نفسهم بالكذب والاعتداء[57]. يبين مثال روسيا الخلل في مزاعم إدارة بوش، والكثير من موظفي مؤسسة القيادة في السياسة الخارجية والأمنية للولايات المتحدة بشكل عام، من أن عداءهم ليس موجهاً للشعوب أو للدول، بل للأنظمة وحسب.

بالنسبة للعديد من أعضاء مؤسسة الحكم في الولايات المتحدة، فإن سقوط الشيوعية ونهاية الاتحاد السوفياتي لم يغيّرا قط من عدائهم لروسيا بوصفها دولة، لن يتغير الأمر إلا إذا تبنت روسيا موقف التبعية المطلقة لرغبات أمريكا، ليس في العالم وحسب، بل ضمن منطقتها أيضاً. وهذا ما لن تقبله الدولة الروسية على الإطلاق. كما إن من غير المرجح أن تقبل الدولة التي تلي الشيوعية في الصين والدولة

= انظر أيضاً المؤتمر الصحفي الذي أجراه الرئيس بوش في 22 شباط/ فبراير 2001، على الموقع: www.whitehouse.gov.

(56) Maryann Bird, «A Poisonous Plot,» *Time* (Europe Edition), 12/1/2003.

(57) Rice, Ibid.

التي ستلي الحكم الديني في إيران، مثل هذا النوع من الهيمنة الأمريكية، وبالتالي فإنهم سوف يجلبون على أنفسهم عداء قوى مهمة في واشنطن وحقدها.

كان موضوع مواقف الولايات المتحدة إزاء الصين منذ نهاية الحرب الباردة أكثر تعقيداً من علاقات الولايات المتحدة ـ بروسيا. لقد خلفت الحرب الكورية لدى العديد من الأمريكان موروثاً من الكراهية يشبه ذلك الموجه ضد روسيا خلال الحرب الباردة. كما أدى اللوبي التايواني في واشنطن دوراً يشبه إلى حد ما دور اللوبيات العرقية المعادية لروسيا في الولايات المتحدة، بالرغم من أنه بسبب عدم امتلاكه لوبي عرقي أمريكي بالحجم نفسه، فقد أثبت أنه أقل فاعلية بكثير.

إلا أن مرور عقدين تقريباً على اصطفاف الولايات المتحدة ـ الصين ضد الاتحاد السوفياتي، بدءاً من حقبة نيكسون وكيسنجر، قد ترك خلفية مختلفة في علاقات الولايات المتحدة مع الصين في التسعينات. ما هو أهم من هذا بكثير كان النمو الهائل في الاقتصاد الصيني منذ نهاية السبعينات، والفرص التي خلقها هذا النمو للاستثمار الغربي والتجارة. كل هذا أدى إلى خلق لوبيات مؤيدة للصين في واشنطن قزّمت كل ما يمكن أن يخلقه تداعي الاقتصاد الروسي خلال الفترة نفسها.

مع ذلك شهدت التسعينات جهداً حازماً في الجناح اليميني وبعض الأوساط الأمنية لوضع الصين في دور العدو في الحرب الباردة الجديدة، ولم يقتصر هذا على المعارضة الجمهورية والمحافظين الجدد، ولكن إلى حد ما بين الديمقراطيين أيضاً. شمل

هذا الجهد حملات مألوفة للتأكيد على خرق الصين لحقوق الإنسان وللمبالغة كثيراً في القدرات العسكرية للصين(58).

كان الأمل هو خلق استراتيجية عسكرية للولايات المتحدة «لاحتواء» الصين، على وفق نموذج «احتواء» الاتحاد السوفياتي خلال الحرب الباردة؛ لمحاولة إفلاس الدولة الصينية بإجبارها على الدخول في سباق تسلح لا نهاية له؛ وتخريب الدولة الصينية من داخلها من خلال تشجيع الحركات الداعية للثورة الديمقراطية والانفصال العرقي. في هذه الأثناء يتم العمل على تحييد الرادع النووي الصيني من خلال منظومة الدفاع الصاروخي الأمريكي.

دفع بوجهات النظر هذه بشكل قوي ما سمي «الفريق الأزرق»، وهو تجمع غير رسمي من كبار الموظفين المعادين للصين وأعضاء

---

(58) James Lilley and Carl Ford, «China's Military: A Second Opinion,» *National Interest*, no. 57 (Fall 1999).

شكلت هذه المقالة جزءاً من النقاش مع باتس غيل (Bates Gill) وميشال أوهانلون (Michael O'Hanlon) اللذين اتخذا موقفاً أكثر إدراكاً وواقعية بشأن القوة الصينية في: Bates Gill and Michael E. O'Hanlon, «China's Hollow Military,» *National Interest*, no. 56 (Summer 1999).

انظر أيضاً: «China Viewed Narrowly,» *New York Times*, 10/6/2001.

ولوجهة نظر متطرفة في معاداة الصين، انظر: Bill Gertz, *The China Threat: How the People's Republic Targets America* (Washington, DC: Regnery Pub., 2000), and Tom Donnelly, «Peking Won't Duck: Bill Gertz on the Threat of China,» *Weekly Standard* (4 December 2000).

حول الحملة لتبني استراتيجية «الاحتواء» ضد الصين، انظر: Robert G. Kaiser and Steven Mufson, «'Blue Team' Draws a Hard Line on Beijing: Action on Hill Reflects Informal Group's Clout,» *Washington Post*, 22/2/2000; Jay Branegan, «A 'Blue Team' Blocks Beijing,» *Time*, 16/4/2001, and Johnson, *Blowback: The Costs and Consequences of American Empire*, pp. 82-88.

نوادي الفكر وموظفي الكونغرس، كان لهم تأثير قوي في الكونغرس، لكن تأثيرهم كان أقل على جماعات الموظفين الرسميين. كان الفريق الأزرق محاولة واعية لتقليد نجاح ما سمي الفريق (ب)، وهو مجموعة مشابهة (لكن بمستويات وظيفية أعلى بكثير) من الموظفين ورجال دعاية الثمانينيات الذي سعوا لخلق صورة دراماتيكية عما زعموا أنه القوة السوفياتية. ما يثير العجب طبعاً، هو ثبوت زيف كل مقترح يتعلق بالاتحاد السوفياتي قدمه الفريق (ب).

عام 1999 صعّد الجمهوريون في الكونغرس من وتيرة الذعر حول «الهوة الصاروخية»، واتهمت لجنة كوكس الصين أنها حاولت التجسس بنجاح على الولايات المتحدة لكي تستطيع بعد مدة قصيرة تقليد التكنولوجيا النووية وتهديد الولايات المتحدة في عقر دارها. كما أعلن التقرير أن «جميع الزوار الصينيين للولايات المتحدة هم في جوهرهم جواسيس محتملون»[59]. كان هذا التقرير بداية حملة متناغمة من الإعلام الجمهوري لمهاجمة إدارة كلينتون على «ضعفها» داعيةً لسياسات أكثر تشدداً ضد الصين. كانت تلك حملة مليئة بجمل مثل، «أعظم سرقة نووية منذ روزنبرغ (الجواسيس السوفيات الذين زودوا موسكو بالأسرار النووية للولايات المتحدة في الأربعينات) و«صار كل سلاح نووي في مخزون الولايات المتحدة معرضاً للخطر». وصرّحت جين كيركباتريك، السفيرة السابقة للأمم

---

(59) www.house.gov/coxreport.

حول نقد تقرير كوكس، انظر: Walter Pincus, «Hill Report on Chinese Spying Faulted: Five Experts Cite Errors, 'Unwarranted' Conclusions by Cox Panel,» *Washington Post*, 15/12/1999; Jack Kemp and Gordon Prether, Quoted by: John McCaslin, «Kemp and Cox,» *Washington Times*, 15/7/1999; Tom Plate, *Los Angeles Times*, 21/7/1999, and «Lessons From the Cox Report,» *Christian Science Monitor*, 28/5/1999.

المتحدة: «أن ذلك يجعلنا أكثر تعرضاً للخطر المباشر والفوري كما لم نكن يوماً في تاريخنا». وأسماه الرئيس السابق للكونغرس نيوت غينغريش «أكبر نجاح تجسسي ضد الولايات المتحدة منذ نجاح الاتحاد السوفياتي في الأربعينات»[60].

ترديداً لصدى النمط العنصري «الخطر الأصفر» الذي سبق الحرب الباردة بمدة طويلة، أورد تقرير **لواشنطن بوست** الآتي: «يؤمن كل من السيدة كيركباتريك والسيد غينغريش أن الصينيين قادرون على إطلاق صواريخ على القوات الأمريكية؛ وأهداف حليفة وحتى على مدن أمريكية. قالت السيدة كيركباتريك إن الصينيين لا يقيمون وزناً للحياة البشرية وربما هم على استعداد لتحمل نتائج الضربة الانتقامية المقابلة، فقط من أجل الاستفادة من النتائج النفسية التي يحققها ضرب الأراضي الأمريكية بصاروخ»[61].

استمرت هذه المواقف إزاء الصين بين العديد من سياسيي الجناح اليميني بلا هوادة حتى بعد 11 أيلول/ سبتمبر، حتى وصف قائد المعارضة في الكونغرس توم ديلاي الصين علناً في حزيران/ يوليو 2003 بأنها «دولة متخلفة، فاسدة، في غير موضعها، يديرها مستبدون عجزة، وقادة مستبدون يتشبثون بنظام يحتضر»[62].

---

(60) ذكر في: Cal Thomas, «Damage Assessments... and Duplicity,» *Washington Times*, 28/5/1999.

(61) المصدر نفسه.

(62) Juliet Eilperin, «DeLay Assails China, Urges Taiwan Trade Talks,» *Washington Post*, 3/6/2003.

وحول وجهات نظر الجمهوريين المحافظين، انظر مثلاً: Dick Armey, «Saying No to China,» *Washington Times*, 30/10/1997, and Trent Lott, «Ten Ways to Engage China,» *Washington Times*, 24/6/1998.

في الأشهر الأولى لإدارة بوش، بدا أن هذا النهج المعادي للصين مثله مثل النهج السابق المعادي لروسيا، قد يكون النهج الذي يتبناه الموظفون الرسميون للولايات المتحدة. وبالنظر إلى وجهات النظر العنيفة التي أعلنها النظام الصيني والتي عبّر عنها عبر الإعلام، فإن تعيين جون بولتون لوزارة الخارجية كان يمكن اعتباره بحد ذاته موقفاً معادياً للصين[63]. ومثل كوندوليزا رايس، وصف بوش الصين مراراً وتكراراً على أنها «المنافس الاستراتيجي»، ودعا إلى اتخاذ سياسات أكثر تشدداً في الولايات المتحدة[64]. ودعت رايس الولايات المتحدة لكي ترفع من قوة الهند بوصفها المقابل الاستراتيجي للصين إلى اتخاذ مواقف أكثر قوة بتأييد مواقف تايوان في علاقاتها مع بكين[65]. وأورد تقرير لمجلة **تايم** أن إدارة بوش في الأسابيع الأولى لولايته كانت «ترش الصين بالحامض»[66].

لو لم يحدث ما حدث في 11 أيلول/ سبتمبر لوجّه العديد من الموظفين الرسميين والمعلقين الذين استخدموا هذه الهجمات الإرهابية ذريعةً للأحادية الراديكالية للولايات المتحدة، طاقاتهم إلى تحريك أقصى حد ممكن من العداء الشعبي الأمريكي نحو روسيا والصين ولاصطناع أزمات في العلاقات مع هاتين الدولتين. ولكانوا

---

(63) John R. Bolton: «Democracy Makes All the Difference,» and «Beijing's WTO Double-Cross,» *Weekly Standard*: (3 April 2000), and (14 August 2000) resp.

انظر أيضاً ملاحظات بوش حول الصين في النقاش الأولي في كارولينا الجنوبية، في 15 شباط/ فبراير 2000، الذي عرض في برنامج «Larry King Live».

(64) Nancy Gibbs And Michael Duffy, «Saving Face,» *Time*, 16/4/2001.

(65) المصدر نفسه.

(66) Joshua Cooper Ramo, «Crouching Tiger, Hidden Message,» *Time*, 12/3/2001, and Johanna McGeary, «Dubya Talks the Talk,» *Time*, 2/4/2001.

ظلوا على عدم اكتراثهم بالتهديد الإرهابي كما كانوا قبل 11 أيلول/ سبتمبر، بالرغم من حقيقة أن الهجمات المتكررة على أهداف أمريكية خارج أراضي الولايات المتحدة قد حدثت بالفعل.

أخطار محدقة (*Present Dangers*) هو كتاب يجمع مقالات عدة كتبها كبار المحافظين الجدد والمتشددين من الجناح اليميني، وحرره روبرت كيغان ووليام كريستل، ونشر عام 2000، يقدم الأدلة عن الكيفية التي كان يمكن أن تتطور فيها سياسة إدارة بوش لو لم تحدث 11 أيلول/ سبتمبر. ويذكرنا عنوان الكتاب عن قصد باللجنة المشكلة في فترة الحرب الباردة عن الخطر المحدق (والّتي سبق لنا ذكرها).

بالمحافظة على تقاليد الواقعية لما قبل 11 أيلول/ سبتمبر، لم يكن الكتّاب يأبهون بالإرهاب وقضايا العنف والاستقرار داخل المجتمعات. من بين خمسة عشر مقالاً، لم يكرس مقال واحد للإرهاب بحد ذاته (باستثناء واحد عن إسرائيل). بدلاً من ذلك نراهم مهووسين بالتهديد الذي يواجه الولايات المتحدة من مجموعة مفترضة من الدول القوية المنافسة، ولا بد من مواجهتها كلها بدرجة من التشدد. كانت «التهدئة» موضوعاً ثابتاً. مثلاً، المقال الأخير من **الأخطار** المحدقة، هو محاولة مريضة بعقدة الاضطهاد للإيحاء أن موقف الولايات المتحدة من الصين يشبه موقف بريطانيا من ألمانيا في بداية الثلاثينيات، تحليل «واقعي» سريالي في عدم اكتراثه بالوقائع الاقتصادية، والتكنولوجية، والسياسة والأيديولوجية[67].

وصف الدبلوماسي البريطاني السابق جوناثان كلارك الاتجاه الذي يمثله المؤلفون:

---

(67) Robert Kagan and William Kristol, eds., *Present Dangers: Crisis and Opportunity in American Foreign and Defense Policy* (San Francisco, Calif.: Encounter Books, 2000).

يدافع الكتاب عن سياسة خارجية للولايات المتحدة ذات حد أقصى من العضلات. لم يقدم أي تنازل لفنون الدبلوماسية التقليدية. من المؤكد أن أمثالنا ممن عمل بجد في القنصليات عبر البحار من أجل خلق «علاقات طيبة»، سيجد أن جهودنا هي موضع سخرية. كلمة «استقرار» صارت تستخدم بين قوسين كما لو أنها مفهوم مشكوك بشرعيته. المكونات التقليدية للمصالح القومية صارت تهاجم على أساس كونها تفرض محددات صارمة غير مرغوب بها على خيارات أمريكا. ويلقى مفهوم الالتزام رفضاً كما لو أنه مرادف للتهدئة.

لم يكن القصد هو البحث عن سبل لاستبعاد السموم من المشاكل الدولية، بل إن المؤلفين سعوا عن قصد للبحث عن نقاط المشاكل (مضيق تايوان، كوريا الشمالية، العراق) وللوصول من ثم إلى علبة الغاز. «الدبلوماسية الهادئة» أو «إبقاء بارودك جافاً» هي كلمات ملعونة. كلمة السر هي «العزيمة الصلبة» مع التركيز على الصلبة. وبالطبع فمن المبالغة القول لو أن مجموعة التوصيات التي وردت في الكتاب قد نفذت فوراً، لكان على الولايات المتحدة أن تواجه خطر أن تحارب وحدها على خمس جبهات في الأقل وفي وقت واحد، وأن تحث في الوقت نفسه إسرائيل على التخلي عن عملية السلام لصالح سياسة مجابهة جديدة لا حدود لها مع الفلسطينيين.

ثمة نكهة غريبة تذكرنا بما يسميه نيتشه «الإرادة» على امتداد الكتاب. ثمة دعوة متواصلة إلى الحاجة إلى تعبئة الشعب للحرب. يتضح أن عنوان **المخاطر المحدقة** ليس المقصود به التهديدات الخارجية بل احتمال أن لا يكون الشعب الأمريكي جاهزاً بما فيه الكفاية لحمل السلاح. ثمة سحرٌ بتاريخ الرجال الأقوياء، كما لو أن

«انتصار الإرادة» (Triumph des Willen) كانت خصلة تثير الإعجاب، بالرغم من التعبير عنه بوصفه الشيطان في البعض منها. أما بالنسبة لكون هذه بحق متناسبةً مع الشكل المثالي الأمريكي للحكومة الدستورية التي تحددها القوانين وليس الرجال، فذلك موضوع مقال آخر[68].

هذا الهوس الواسع الانتشار والشرير بما يدعى «الإرادة» القومية الأمة في أوساط المحافظين الجدد يبرزه تشارلز كروتهامر في المقطع المؤثر الآتي: «ليست أمريكا مجرد مواطن دولي. إنها قوة مهيمنة في العالم، أكثر هيمنة من أي قوة أخرى منذ روما. بالنتيجة، فإن أمريكا هي في موقعٍ يمكنها أن تعيد تشكيل القواعد، وتغيير التوقعات وخلق حقائق جديدة. كيف؟ بإبراز إرادتها من دون تبرير ولا عناد»[69].

مرة أخرى، لم تكتب هذه الكلمات بعد 11 أيلول/سبتمبر، للدعوة إلى رد قوي على إرهابٍ وحشي. بل ظهرت في آذار/ مارس 2001، وثبتت على وتد ما كان الكاتب آنذاك يدعو له وهو نهج بوش الجديد المتسم بالصلابة في التعامل مع روسيا، وهي الدولة التي لم تشكل منذ 1991 أي تهديد على الإطلاق للولايات المتحدة.

في مثل هذه الأوساط، لم يكن لأحداث 11 أيلول/سبتمبر ولا الاحتلال الدموي للعراق أي تأثير في هذا الموقف النفسي. وإن كان لها أي تأثير، فهو أنها قد وسعت من دائرة الأعداء وكثفت مطالبة

---

(68) Jonathan Clarke, «The Guns of 17th Street,» *National Interest*, no. 63 (Spring 2001).

(69) Charles Krauthammer, «The Bush Doctrine,» *Time*, 5/3/2001.

أمريكا أن تكشف عن إرادتها وقوتها من خلال اتخاذ مواقف أحادية. هكذا فإن كتاب **نهاية للشر** (*An End to Evil*)، لريشارد بيرل، وكاتب خطابات بوش الأسبق ديفيد فروم، المنشور عام 2003، قد عبّر بدرجة أو بأخرى عن العداء المرير ليس للعالم الإسلامي وحسب، لكن لروسيا، والصين، والأمم المتحدة وكل دولة أو مؤسسة شككت أو عارضت الولايات المتحدة بشأن الحرب على العراق بشكل أو بآخر.

ينصح كتاب **نهاية للشر** الولايات المتحدة بمعارضة الوحدة الأوروبية. إذ يقول إن أغلبية أوروبا الغربية قد تأثرت «بالصنف نفسه من الغيرة والنفور اللذين يغذيان الإرهابيين»، هذا تصريح متطرف ومثير إلى حد الدهشة من شخص لا يزال يعمل بصفة مستشار حكومي كبير. لم يكن هناك استثناء من أي نوع كان لأي حركة إرهابية، أو بين أجنحتها السياسية والعسكرية، باستثناء حال روسيا التي يتهمها الكتاب باختراع الهجمات الإرهابية لديها واصطناعها. الدولة الوحيدة التي يعاملها الكتاب إيجابياً هي بريطانيا، والتي عوملت وجهات نظرها ومصالحها لاحقاً بازدراء نابذ[70].

مولع بالقتال وليس بالعسكرة

في الأحوال كلها قد يكون من الخطأ التفكير بشخصيات المحافظين الجدد أمثال بيرل وفروم على أنهم يمثلون المؤسسة الأمنية الأمريكية كلها، ناهيك بالقول إنهم يمثلون الشعب الأمريكي. بالعكس، فإنه لم يكن بمقدورهم حشد دعم الجماهير لبرنامجهم

(70) David Frum and Richard Perle, «Friends and Foes,» in: David Frum and Richard Perle, *An End to Evil: How to Win the War on Terror* (New York: Random House, 2003), chap. 8, pp. 235-273.

الإمبريالي إلا من خلال تقديمه في رداء قومي ودفاعي. فضلاً عن ذلك، فإنه يبدو بحلول عام 2004 أن البرنامج المتطرف الذي يمثلونه صار في حال دفاع حتى في داخل إدارة بوش.

المؤرخ الأمريكي ك. فان وودوارد كتب في الستينيات واصفاً الشعب الأمريكي على أنه كان تقليدياً «مولع بالقتال وليس بالعسكرة». إنهم راغبون ـ أحياناً أكثر من راغبين ـ في القتال من أجل أمريكا لو تعرضت لهجوم أو حتى لو أهينت، لكنهم ليسوا على استعداد للاحتفاء الدائم بالقوة العسكرية وقيمها[71]. يظل هذا القول صحيحاً اليوم إلى درجة بعيدة حتى بعد التأثيرات المعسكرة للحرب الباردة. وهو يرتبط بشكل وثيق مع حقيقة أن العديد من الأمريكان ينطبق عليهم القول نفسه: «مولع بالقتال وليس بالإمبراطورية»، وهم بالتأكيد يرفضون الاعتراف ولو بشكل غير مباشر أنهم يملكون إمبراطورية[72]. إن الفخر العلني بالإمبراطورية والاحتفاء بما يوازيها من أمور عند البريطانيين وغيرهم من أصحاب الإمبراطوريات هو أمر محدود بعدد قليل من المحافظين الجدد وغيرهم[73].

لكن القومية المولعة بالقتال أمرٌ مختلف، وهي حاضرة بالتأكيد بشكل واسع. هذا الولع العميق بالقتال، وشعار «لا تطأ عليّ»، ووضع «النسر ماد الجناحين»، وكل الفرص التي يسمح بها للتلاعب

---

(71) Max Lerner, *America as a Civilization; Life and Thought in the United States Today* (New York: Simon and Schuster, 1957), pp. 907 ff.

(72) Niall Ferguson, «American Terminator (Special Report),» *Newsweek*, Issues 2004, and Michael Ignatieff, Quoted in: www.theglobalist.com (20 November 2003).

(73) Max Boot, «American Imperialism? No Need to Run Away from Label,» *USA Today*, 6/5/2003.

السياسي والاستغلال، اختصرها بصراحة مدهشة أرفينغ كريستل عام 1989: «لو التجأ الرئيس إلى الشعب الأمريكي وقد لف نفسه بالعلم الأمريكي وطلب من الكونغرس أن يلف نفسه بالعلم الأبيض للاستسلام، فسوف يفوز الرئيس... لم يسمع الأمريكيون أبداً بغرانادا. ولم يكن ثمة سبب لسماعهم بها. السبب الذي أعطيناه للغزو ـ المخاطرة بحياة طلاب الطب الأمريكان هناك ـ كان كاذباً لكن رد فعل الشعب الأمريكي كان مؤيداً بصورة مطلقة وساحقة. لم تكن لديهم أي فكرة عما يحدث لكنهم دعموا الرئيس. وسوف يفعلون ذلك دوماً»[74].

رد الفعل المتمثل بقول «لا تطأ عليّ» في كونغرس الولايات المتحدة يتماهى بشكل خاص مع الشيوخ والنواب الجنوبيين أمثال جيسي هيلمز (سيناتور سابق من كارولينا الشمالية)، ترنت لوت (ميسيسيبي)، جيمس أنهوف (أوكلاهوما)، توم ديلاي (تكساس)، ديك أرمي (تكساس) ـ ولا يزال يضم عدداً قليلاً من الصقور الديمقراطيين مثل زيل ميللر من جورجيا ـ ولكنه أيضاً منتشر جغرافياً في الولايات المتحدة كلها.

مع أن ذلك يكون محرجاً في بعض الأحيان للسياسة الخارجية للولايات المتحدة، إلا أن هذه الوسيلة مفيدة جداً لأي قائد للولايات المتحدة يخطط لشن حربٍ ما. يمكن الاعتماد على العديد من هذه الشخصيات لدعم أي حرب كانت، ما دام يمكن إقناعهم بطريقة من

---

(74) Irving kristol, in: L. Gordon Crovitz and Jeremy A. Rabkin, eds., *The Fettered Presidency: Legal Constraints on the Executive Branch*, with a Foreword by Robert H. Bork, AEI Studies; 485 (Washington, DC: American Enterprise Institute for Public Policy Research, 1989), Quoted in: Michael Lind, «A Tragedy of Errors,» *Nation* (23 February 2004).

الطرق أن الولايات المتحدة قد تعرضت لهجوم أو إهانة. وأفضل مثال على ذلك هو موقف بعض الجمهوريين المحافظين حول موضوع حرب كوسوفو.

عارضت الأغلبية هذه الحرب، بسبب العداء لإدارة كلينتون وبسبب معارضة الحروب «الإنسانية» التي يبدو أن لا علاقة لها بمصالح الولايات المتحدة. (تجاهلوا أهمية المحافظة على الناتو بوصفه أداةً لنفوذ للولايات المتحدة في أوروبا، وبالنتيجة فمن أجل إعطائه شيئاً يقوم به). لذلك، فإنه كان من المتوقع أنه حين تعرضت السفارة الصينية في بلغراد للقصف، ورد الصينيون بالنقد المر للولايات المتحدة، أن يقوم هؤلاء الرجال باستغلال هذه الكارثة المفاجئة بوصفها درساً درس عن «النتائج غير المقصودة» الأوسع والأكثر خطورة، لما افترضوا أنه عملية عسكرية محدودة وصغيرة. وهي لم تكن كذلك قط. لقد كان موقفهم موقفاً قتالياً عنيفاً، له النكهة التقليدية للتصرف الصحيح تجاه الشرقيين والأصناف الأدنى، كما في هذا التصريح للنائب توم ديلاي: «مع كون قصف السفارة هو مثال مؤسف للأضرار الجانبية خلال حرب السيد كلنتون، إلا أن سمعة الولايات المتحدة قد أصابها الضرر أكثر لكثرة اعتذار الرئيس بعد كل حدث من هذا النوع وانحنائه. يبدو أنه كلما فتحنا التلفزيون، نرى الرئيس يعتذر للصين الشيوعية. لا عجب إذاً أن تتصور جمهورية الصين الشعبية أن بإمكانها أن تطأ على الولايات المتحدة كلها. لا يفهم القادة الشيوعيون الصينيون ضعف القيادة. إنهم يحترمون القوة المطلقة، والحزم في السير نحو الهدف وإظهار القوة المطلقة»[75].

بدا هذا الميل الفطري للقتال واضحاً للعيان منذ 11 أيلول/

---

(75) Tom DeLay, «Power vs. Principle,» *Washington Times*, 26/5/1999.

سبتمبر، بطرقٍ أثّرت سلباً في سير الصراع مع الإرهاب الإسلامي. كان الرئيس بوش حذراً لتحاشي هذا الأسلوب، وللتحدث باحترام عن الإسلام باعتباره ديناً وعن المسلمين باعتبارهم شعوب. لكن بالنسبة لليمين القومي الأمريكي، كان ثمة تفجر من الشوفينية العدوانية، لم تقتصر على القاعدة وطالبان وحسب، أو حتى صدام حسين، بل امتدت لتشمل الإسلام والمسلمين عموماً وفي العالم أجمع[76].

نموذج عن هذه التصريحات كان تصريح عضو الكونغرس الجمهوري بيتر كينغ، «85 بالمئة من المساجد في الولايات المتحدة لها قادة متطرفون». هبطت اللغة إلى مستويات مخيفة من الكراهية في صحف مثل **واشنطن تايمز** وبرامج الجناح اليميني في الإذاعة. هكذا فقد عبّر الشخصية الإذاعية دون إيموس في شباط/ فبراير 2004، عن فرحه بمقتل الإيرانيين في سقوط طائرة مدنية وأضاف، «من المؤسف أنها لم تكن مليئة بالسعوديين»[77].

والتحق بهؤلاء بعض المستشارين، إذ صرح كينيث أديلمان من المجلس الاستشاري للدفاع، «كلما أمعنت في دراسة هذا الدين [الإسلام] كلما بدا أنه دين قتال»[78]. دعا رئيس التحرير الأسبق **لنيويورك تايمز** أ. م. روزنتال إلى أن يوجَّه إلى حكومات أفغانستان، والعراق، وإيران، وليبيا، وسوريا، والسودان «وإلى أي حكومة

---

(76) Phillips, *American Dynasty: Aristocracy, Fortune, and the Politics of Deceit in the House of Bush*, p. 236; Meyrav Wurmser, «No More Excuses: Anti-American Leaders Stand to Be Accused,» *Washington Times*, 17/9/2001, and Zev Chafets, «Arab Americans Have to Choose,» *New York Daily News*, 16/9/2001.

(77) ذكر في: *Arab American Issues*, vol. 5, no. 6 (February 2004).

(78) ذكر في: Molly Ivins and Lou Dubose, *Bushwhacked: Life in George W. Bush's America* (New York: Random House, 2003), p. 268.

أخرى تريد إلغاء وجود الولايات المتحدة أو التحريض الدائم على الكراهية ضدها»، أن يوجه إليهم إنذار مدته ثلاثة أيام لكي يسلموا الإرهابيين وقادة هذه الدول إلى الولايات المتحدة. وإن رفضوا، فيجب أن «تقصف وتسوى بالأرض [عواصمهم ومدنهم الكبرى]، بدءاً من اليوم الرابع»[79]. في ما بعد وجه تشارلز كروتهامر الطلب نفسه في ما يخص المدن الأفغانية: «أن نحدّ من عمل عسكريينا الآن لكي نرضي الدبلوماسيين هو تكرار مأساوي لفييتنام»[80]. وصرّح معلق **فوكس نيوز** بيل أورايلي خلال المراحل الأولى لحرب العراق «ثمة مدرسة فكرية تقول إنه كان يجب أن نعطي سكان بغداد مهلة ثماني وأربعين ساعة ليخرجوا، من خلال إسقاط منشورات واللجوء إلى محطات إذاعة FM وكل هذا. ثماني وأربعين ساعة، عليكم الخروج خلالها، ثم نسوّي المكان بالأرض. عندها تنتهي الحرب... من المثير للإحباط للجميع أن نعرف أننا نقاتل كل هذه الحرب مكبلي الأيدي وراء ظهورنا»[81].

تزايدت حدة الخلاف بين الولايات المتحدة وأجزاء من أوروبا الغربية (وأغلبية باقي دول العالم) حول الحرب مع العراق خلال 2002 ـ 2003، امتد عداء القوميين الأمريكان المرير ليشمل أي دولة

(79) A. M. Rosenthal, «Winning the War on Terror,» *Washington Times*, 17/9/2001, and «War Lessons,» *Washington Times*, 24/9/2001.

(80) Charles Krauthammer, «This War Is Different and Must Be Won,» *Washington Post*, 30/10/2001, and William Kristol, «The Wrong Strategy,» *Washington Post*, 30/10/2001.

(81) «The O'Reilly Factor,» (Fox News Channel, 26 March 2003), Quoted in: Peter Hart and Fairness and Accuracy in Reporting (FAIR), *The Oh Really? Factor: Unspinning Fox News Channel's Bill O'Reilly*, Foreword by Robert W. McChesny (New York: Seven Stories Press, 2003), p. 148.

ترفض اللحاق بالولايات المتحدة إلى الحرب[82]. أدت هذه الروحية إلى أن يصوّت مجلس النواب في الكونغرس الأمريكي لتغيير تسمية «البطاطس المقلية الفرنسية (French Fries)» في المطاعم إلى تسمية «بطاطس الحرية المقلية»، لكن هذه الحمى أصابت حتى بعض المحللين الأمريكان الذين يتمتعون بالاعتدال والذكاء في العادة[83].

وحتى الشخصيات المعتدلة في العادة استسلمت للهستيريا، إذ صرح توماس فريدمان **لنيويورك تايمز**: «فرنسا لم تعد حليفاً مزعجاً. ولم تعد منافسنا الغيور. فرنسا في طور أن تصير عدونا». لهذا فإن وجهات النظر الفرنسية لا قيمة لها في كل الأحوال لأن «فرنسا لم تكن يوماً معنية بنشر الديمقراطية في العالم العربي المعاصر».

تبنى فريدمان نبرة مخففة من الموقف الذي اتخذه كروتهامر وغيره: ولأن الدول الأخرى تكرهنا، لأسباب وضيعة وشريرة وعديمة الشرعية، لهذا فإن وجهات نظرها عديمة الأهمية، ونحن أحرار لفعل كل ما نرغب بفعله. كتب فريدمان هذه الكلمات في أيلول/سبتمبر 2003، في ذلك الوقت كان قد صار واضحاً أن

---

(82) Helle Dale, «The World According to Chirac: Financial Times Favors the French,» *Washington Times*, 4/6/2003; «Thanks, but no Thanks, France,» *Washington Times*, 19/3/2003; Paul Johnson, «Au revoir, petite France,» *Wall Street Journal*, 18/3/2003; Holman W. Jenkins, «A War for France's Oil,» *Wall Street Journal*, 19/3/2003, and Trent Lott, «New World, New Friends,» (Official Press Statement, 21 March 2003), Lott.senate.gov.

(83) انظر الهجوم الاستثنائي الشرس على فرنسا، في: Frum and Perle, *An End to Evil: How to Win the War on Terror*, pp. 238-253, and David Frum, «David Frum's Diary,» *National Review Online*, 19/2/2003 - 11/3/2003.

بشأن التقارير الفرنسية على هذه التهم، انظر مثلاً: Denis Lacorne, «Les Dessous de la francophobie,» (entretien), *Le Nouvel Observateur* (Paris) (27 mars 2003).

تحذيرات فرنسا بشأن نتائج هذه الحرب هي مبررةٌ تماماً. هذا مثال عن احتمال أن يصير حتى المعتدلين الأمريكيين أسرى مشاعر القومية والإصرار القومي على أن النقد الوحيد المقبول لأمريكا يجب أن يصدر فقط عن الأمريكيين[84].

في وقت حرب العراق، لم يقتصر الأمر على المطبوعات المتطرفة مثل **واشنطن تايمز**، لكن شاركها أيضاً **واشنطن بوست** و**نيويورك تايمز** لتكون أدوات «حملة حسنة التنظيم من التلميح والتحريف والأكاذيب التي لم تستهدف فقط الطرح الفرنسي، لكنه استهدف أيضاً فرنسا نفسها»[85]. اتهمت المقالات فرنسا بحماية كبار الموظفين البعثيين الهاربين لديها، وامتلاك خزين من الأسلحة البيولوجية المحرمة وتزويد العراق بالأسلحة، وكلها اتهامات جرى الاعتراف لاحقاً أنها كانت عديمة الأساس تماماً[86].

---

(84) Thomas Friedman, «Our War with France,» *New York Times*, 18/9/2003; Justin Vaisse, «Bringing Out the Animal in Us: A Frenchman's Journey in Francophobe America,» *Financial Times*, 15/3/2003.

حول الاعتراف النادر بعقلانية الاعتراضات الفرنسية على حرب العراق وجذورها في التجربة الفرنسية الكارثية في الجزائر، انظر: Paul Starobin, «The French Were Right,» *National Journal* (7 November 2003).

(85) Stanley Hoffmann, «France, the United States and Iraq,» *Nation* (16 February 2004).

(86) بالنسبة لتهمة الأسلحة، انظر: William Safire, «The French Connection,» *New York Times*, 13/3/2003; Bill Gertz, «Iraq Strengthens Air Force with French Parts,» *Washington Times*, 7/3/2003, and *Newsweek* (21 April 2003).

بالنسبة لتهمة الأسلحة البيولوجية، انظر: Barton Gellman, «4 Nations Thought To Possess Smallpox: Iraq, N. Korea Named, Two Officials Say,» *Washington Post*, 5/11/2002.

بالنسبة لتهمة إيواء اللاجئين البعثيين، انظر: *Washington Times*, 6/5/2003.

فيما يخص نفي فرنسا لكل هذه الاتهامات، انظر لائحة الوقائع التي أصدرتها سفارة فرنسا في واشنطن في 14 أيار/ مايو 2003 ونشرتها **الواشنطن بوست**.

مولع بالعسكرة وليس بالقتال

إن كان سكان الولايات المتحدة وممثلوهم يضمرون تقاليد غريزية قوية للولع بالقتال، لكنهم ليسوا إمبرياليين، إلا أنه يمكن بدءاً من فييتنام على الأقل وصف أغلبية مجمع الصناعات العسكرية الأمريكية والمؤسسات والجامعات المرتبطة به على أنه إمبريالي وعسكري لكنه ليس مولعاً بالقتال. وكما كتب ستانلي هوفمان (في عرضه لكتاب سيرة حياة ريغان للمؤلف غاري ويلز): إن «برنامجه [ريغان] الداخلي يمنع النشاط في الخارج، كما اكتشف [ألكسندر] هيغ بأسف. كانت السياسة الخارجية عبارة عن ردع مسلح (كان واينبرغر يشتري السلاح من الاتجاهات كلها ويمنع استخدامها في أي قطاع)، ضربات سهلة وفي المناسبات (كما في غرانادا) وتهديدات لفظية لإمبراطورية الشر»[87].

انعكس هذا النموذج على سياسة إدارة بوش تجاه روسيا والصين، حتى قبل 11 أيلول/ سبتمبر. من الواضح أن الهجوم الإرهابي قد أدى إلى تحول جذري في سياسة الولايات المتحدة تجاه كلٍ من الصين وروسيا، وزاد من التحول الحرب على العراق واحتلاله وانكشاف الضعف العسكري للولايات المتحدة حين تعلق الأمر بحشد أعداد كبيرة من القوات في حملات طويلة الأمد. خلق الاستنزاف الهائل في قوات الاحتياط للولايات المتحدة خطر نشوء أزمة معنويات وأزمة تجنيد. كان ذلك واضحاً لجميع العسكريين المحترفين، ولأغلبية الموظفين المدنيين والمعلقين (لكن ليس لجميعهم)؛ أن الولايات المتحدة لا يمكنها تحمّل شن حرب كبرى

---

(87) Stanley Hoffmann: «The Great Pretender,» and «The Vicar's Revenge,» *New York Review of Books*: vol. 34, no. 9 (May 1987), and vol. 31, no. 9 (May 1984) resp.

أخرى في مكان آخر[88]. قد يكون هؤلاء شديدو الطموح، إمبرياليون، قساة، لكنهم ليسوا مجانين.

في بعض الجوانب، صار مزاج الإدارة المعادي والمتعجرف تجاه روسيا ـ وإلى درجة أقل غموضاً أو أكثر غموضاً تجاه الصين ـ أكثر اعتدالاً في الشهور التي سبقت 11 أيلول/ سبتمبر وقبل سنتين من حرب العراق. حين أُجبرت طائرة التجسس الأمريكية من طراز EP-3E على الهبوط على جزيرة هينان الصينية في الأول من نيسان/ أبريل 2001، بعد اصطدامها مع مقاتلة صينية، بدت الأزمة التي تلت هذا الحدث كأنها صدمة باردة للإدارة.

جلبت هذه الأزمة معها إدراكاً بأن التصعيد المتعمد للتوتر مع الصين قد يؤدي إلى نزاع فعلي معها، أو في الأقل إلى انهيار العلاقات التجارية بين الولايات المتحدة والصين، مع نتائج مأساوية لاقتصادات آسيا وأمريكا والعالم كله. جاء في تقرير لمجلة **تايم** إنه «بالرغم من الحديث الحماسي لبعض المعادين للصين في البيت الأبيض عن خططٍ لحركة انتقامية في الأسبوع الماضي، إلا أنه من المرجح أن بوش سوف يتوصل إلى استنتاج مفاده أن هذا الرد الانتقامي لا يساوي الضرر الذي يمكن أن يحدثه على ما قد يكون العلاقة الثنائية الأكثر أهمية في العالم»[89].

---

(88) «Experts: U.S. Military Overstretched, Morale at Risk,» *New York Times*, 9/1/2004, and Lee Hockstader, «Army Stops Many Soldiers From Quitting: Orders Extend Enlistments to Curtail Troop Shortages,» *Washington Post*, 29/12/2003.

(89) Mark Thompson, Matthew Forney and James, «Four Key Lessons,» *Time*, 22/4/2001, and Ivo H. Daalder and James M. Lindsay, *America Unbound: The Bush Revolution in Foreign Policy* (Washington, DC: Brookings Institution, 2003), pp. 67-71.

رافق هذا الوعي الجديد في ما يتعلق بالصين إدراك مفاده أنه لو كان تصاعد التوتر العسكري مع الصين احتمالاً وارداً، فمن الجنون إثارة غضب روسيا بلا مبرر، وفي الوقت نفسه. كانت النتيجة، إنه في حين استمرت بعض السياسات (بالذات إبطال معاهدة الحد من انتشار الصواريخ المضادة للصواريخ) من دون تغيير، كان ثمة رغبة أكبر للمساعدة في حفظ ماء وجه روسيا على الأقل، وتقلص الخطاب المعادي بشكل ملحوظ[90]. يمكن رؤية هذا التحول بمقارنة ملاحظات الإدارة والمقالات التي توحي بها الإدارة بشأن روسيا في آذار/ مارس قبل أزمة طائرة التجسس، مع بداية أيار/ مايو بعد انتهائها[91].

مع نهاية عام 2003، كانت إدارة بوش قد وصلت إلى نقطة أبعد. في حال الصين كرر بوش شخصياً التزام أمريكا بالمعارضة الشديدة لاستقلال تايوان[92]. بالرغم من استمرار الخطاب الأحادي من الصقور أمثال جون بولتون بشأن عدد من المواضيع مثل منع كوريا الشمالية من تطوير الأسلحة النووية، إلا أن الولايات المتحدة اعترفت ضمناً بإفلاس استراتيجيتها الأحادية السابقة وبالاستحالة الواقعية لمواصلة «منهج بوش» في الحرب الوقائية في شرقي آسيا.

النتيجة، أن الإدارة اضطرت بشكل أو بآخر للسير في سياسة الاعتماد الكبير على الصين للمساعدة في كبح بيونغ يانغ والتأثير فيها، بالرغم من أنها لا تزال ترفض التفاوض المباشر مع بيونغ يانغ. لم يقتصر هذا النهج الجديد على الاعتراف باستحالة شن حرب ضد كوريا

---

(90) Johanna McGeary, «A Salesman on the Road,» *Time*, 30/7/2001.

(91) Evan Thomas and Roy Gutman, «See George, See George Learn Foreign Policy,» *Newsweek* (18 June 2001).

(92) انظر تصريحات الرئيس بوش وون جياباو (Wen Jiabao) على الموقع: www.whitehouse.gov (9 December 2003).

الشمالية، بل أيضاً على الاعتراف بقوة الدول الإقليمية الأخرى مثل كوريا الجنوبية واليابان، وقبل كل شيء الصين، وكلها دول ذات قدرات هائلة تجعلها تختلف عن الدكتاتوريات الضعيفة في الشرق الأوسط.

في مثل هذه الظروف، لم يكن ببساطة بإمكان القومية أن تؤدي عملها. وفي العراق أيضاً، فإن المشكلات المتزايدة لاحتلال الولايات المتحدة أدت إلى ما يشبه التوسل للأمم المتحدة، حين سعت إدارة بوش إلى نيل الشرعية من خلال التعاون مع الأمم المتحدة لتفريغ بعض شحنة الغضب المتصاعد للأقلية الشيعية(*) والعثور على بديل مناسب للخطط الأصلية التي وضعتها الولايات المتحدة لهذا البلد. بحلول عام 2004 كان باستطاعة المؤرخ البارز للعلاقات الدولية جون أكنبيري أن يكتب وبأدلة قوية عن «نهاية حقبة المحافظين الجدد» في السياسة الخارجية والأمنية للولايات المتحدة. وكانت استقالة ريشارد بيرل من مجلس السياسة الدفاعية في آذار/ مارس 2004 مؤشراً رمزياً لانهيار المحافظين الجدد[93].

هذا التزايد في اتباع نهج أكثر تعددية في عدد من المسائل خلال الأشهر الأخيرة من عام 2004 كان ينظر له على أنه نصرٌ محدود لآراء وزير الخارجية كولن باول ووزارة الخارجية. كما يعكس أيضاً «واقعية» ديك تشيني ودونالد رامسفيلد والمؤسسات والتقاليد التي يمثلونها. إن كان هذا الصنف من الواقعية يعاني من الأخطاء التي وصفناها في ما سبق، لكنه يعمل على أساس حسابات

(*) لعل الكاتب وقع هنا في خطأ أو لعله خطأ مطبعي؛ فالأصح الأقلية السنية.

(93) Gilford John Ikenberry, «The End of the Neoconservative Moment,» *Survival*, vol. 46, no. 1 (Spring 2004), and Martin Walker, «And Now, the End of U.S. Unilateralism,» *Globalist*, 5/3/2004, www.the globalist.com.

عقلانية للقوى والمصالح والمخاطر، وهي مشتقة من طرق النظر إلى العالم بطرق الدبلوماسيين والاستراتيجيين منذ القرن السابع عشر.

تتناسب السياسة التي تبنتها إدارة بوش إزاء روسيا والصين بعد 11 أيلول/ سبتمبر تماماً مع هذا التقليد. إذ حافظت البلاد في أعماقها على الشك بدوافع هذين البلدين وخططهما. كما اعترفت أن ليس من مصلحة الولايات المتحدة السعي للمجابهة معهما، وأن المخاطرة بدخول حرب ضد الصين يمكن أن يكون مأساوياً. بالتالي سعت واشنطن إلى علاقات تعاون طيبة من دون أن تضحي بالكثير[94].

يمكن لمثل هؤلاء الواقعيين الوقوع في أخطاء فادحة، كما في حالة احتلال العراق. كما أنهم يقعون في حيرة رهيبة حين تواجههم تحديات تقع خارج الأطر المرجعية «للواقعية» التقليدية: مترنيخ حين واجه الأيديولوجية القومية المتصاعدة، تشيني ورامسفيلد حين واجههم خطر الاحتباس الحراري. ومع ذلك، فإنه يمكن تمييزهم بوضوح عن الأيديولوجيين من نمط المحافظين الجدد، دع جانباً اليمين المسيحي، ولأن وجهات نظرهم تعكس أيضاً وجهات نظر ومصالح جماعة المؤسسات والشركات الكبرى التي يمثلونها، لذلك فإن لهم وزناً هائلاً لا يملكه المحافظون الجدد. تسبب انتصار النهج الواقعي في أواخر عام 2003 في ذعر عميق في أوساط الخط المتشدد للمحافظين الجدد، وعكست الهستيريا في بعض لغتهم عمق إحساسهم بالهزيمة[95].

---

(94) Gilford John Ikenberry, «America's Imperial Ambition,» *Foreign Affairs*, vol. 81, no. 5 (September-October 2002).

(95) David Frum and Richard Perle, «Beware the Soft-Line Ideologues,» *Wall Street Journal*, 7/1/2004.

حول رد فعل راديكالي مبكر على التغيير الرسمي لاتجاه الريح، انظر: Michael Ledeen, «Grim Anniversary,» *National Review Online*, 11/9/2003.

يعكس هذا الحذر النسبي للواقعيين في مؤسسة الحكم في الولايات المتحدة طبيعة نخب الصناعات العسكرية والأمنية للولايات المتحدة ومصالحها. إذ من الواضح اهتمام هذه النخب بالمحافظة على القوة العسكرية الشاملة للولايات المتحدة وتوسيعها، إن لم يكن إلا بسبب المحافظة على وظائفهم ومصالحهم التي تعتمد على ذلك. كما تضمن الوظائف والرعاية دعم العديد من أعضاء الكونغرس، الذين غالباً ما يزخرفون قوائم الإنفاق الدفاعي بمنظومات أسلحة لا يريدها البنتاغون ولم يطلبها، لمساعدة رجال الكونغرس من النواب والشيوخ الذين تنتج ولاياتهم هذه المنظومات[96]. وكما سبق ذكره، فإنه من الضروري المحافظة على صورة بعض الدول الأجنبية على أنها تشكل تهديداً للولايات المتحدة وإبقاء الحد الأدنى من المستوى الدائم للتوتر الدولي، من أجل المحافظة على مستوى أوسع من الدعم في وسائل إعلام الولايات المتحدة وجمهورها.

لكن الرغبة في توتر دولي دائم تختلف عن الرغبة في الحرب، خصوصاً حرب دولية كبرى قد تدمر الاقتصاد الدولي. كان الجنرالات الأمريكيون في حقبة كلينتون يوصفون على أنهم «عدوانيون فقط حين يتعلق الأمر بموازناتهم»[97]. بالتالي فالنظام الأمريكي الحاكم ليس نابليونياً أو مغولياً. وهو لا يرغب بالفعل في حروب كبرى، لأنه لا يعتمد على الانتصارات في الحروب الكبرى من أجل البقاء على قيد الحياة، إذ إن مثل هذه الحروب قد تتهدد مصيره حتى لو انتصرت الدولة. لكن يجب الاعتراف أن الحروب الصغيرة مسألة مختلفة.

---

(96) Leebaert, *The Fifty-Year Wound: How America's Cold War Victory Shapes Our World*, pp. 614-616, and Johnson, *The Sorrows of Empire: Militarism, Secrecy, and the End of the Republic*, p. 57.

(97) Ian Williams, «A Faithful Servant,» *Nation* (23 February 2004).

حتى في العقود الأخيرة من الحرب الباردة، وتحت أمواج القلق العام الذي كثيراً ما يجري خفقه ليتحول إلى رذاذ تذره رياح الدعاية السياسية، فقد ظلت مشاعر المؤسسة الأمنية غالباً هادئة نسبياً. كما تعترف بذلك استراتيجية الأمن القومي الأخيرة، «في الحرب الباردة وخصوصاً بعد أزمة الصواريخ الكوبية، واجهنا حال ثباتٍ عام، ومنافساً يرغب في تحاشي المخاطرة. كان الردع دفاعاً فاعلاً»[98].

وكما يقول تشالمرز جونسون بمرارة، فإنه للأسف لم يبلغنا المحللون الرسميون للولايات المتحدة بذلك حين كانت الحرب الباردة لا تزال قائمة[99]. من المؤكد أن برقية جورج كينان الشهيرة ومقالته عام 1947 ـ 1948 التي شكلت الأساس الفكري لموقف أمريكا في الحرب الباردة من التوسع السوفياتي، قد بينت بوضوح أيضاً أن التحدي العسكري المباشر للغرب كان غير متوقع[100]. طوال الحرب الباردة ظلت أصوات متنفذة في الولايات المتحدة تزعم ليس أن الاتحاد السوفياتي يشكل تهديداً جدياً للغرب (وهو صحيح) فقط، لكن أيضاً بأن التعصب الأيديولوجي والازدراء بأرواح مواطنيهم يعنيان أن القادة السوفيات ليسوا عقلانيين تماماً، وإنه من المحتمل أن يشنوا حرباً متهورة حتى لو كان ثمنها المتوقع هو دمارهم.

أعيد إحياء هذا الخط عام 2002 لوصف نظام البعث في العراق وتبريراً للحرب لإسقاطه، مع تكرار بوش مراراً عند الإشارة لصدام

(98) NSS (2002), p. 15.

(99) Johnson, *The Sorrows of Empire: Militarism, Secrecy, and the End of the Republic*, p. 34.

(100) X (George F. Kennan), «The Sources of Soviet Conduct,» *Foreign Affairs*, no. 25 (July 1947).

حسين على أنه «مجنون»[101]. كما استخدم ذلك لتبرير العمل الجذري ضد إيران وكوريا الشمالية. وكما طرح الأستاذان جون ميرشايمر وستيفن والت قبل الحرب، فإن هذا التصوير لصدام حسين كان بكل تأكيد مزيفاً بمستوى التزييف نفسه الذي يعترفون الآن به بخصوص الصورة التي قدموها عن القيادة السوفياتية تحت زعامة ليونيد بريجنيف[102].

لكن، وعلى الأقل في السنوات الأخيرة فإن مثل هذه المبالغات لم تكن عموماً من سمات المجتمع الصناعي العسكري الأكاديمي. بل إن عسكريي الولايات المتحدة من ذوي الملابس العسكرية ظلوا متأثرين بعمق بهزيمة فييتنام ربما أكثر من أي قطاع آخر في المجتمع الأمريكي[103]. لم يكن العسكريون هم من دفع باتجاه الحرب على العراق عام 2002، بل مجموعة صغيرة من الموظفين المدنيين من ذوي الأيديولوجية الشرسة وممن كان تعيينهم سياسياً في البنتاغون. من المؤكد أن رئيس الأركان الجنرال أريك شينسيكي كان قد حذر علناً، كما فعل العديد من الضباط غيره سراً، من هذا الصنف من الحروب الدموية التي تستنزف القوات ومن الاحتلال الذي يليها، وكانت النتيجة أن شينسيكي قد تعرض لإهانة علنية من قبل بول وولفوويتز وغيره من حلفاء رامسفيلد[104].

---

(101) الخطاب الرئاسي في 5 شباط/ فبراير 2004، الذي صرح فيه أن على الولايات المتحدة الذهاب للحرب لأنها «لا تستطيع الاعتماد على كلمة من مجنون».

(102) John J. Mearsheimer and Stephen M. Walt, «Iraq: An Unnecessary War,» *Foreign Policy* (January - February 2003).

(103) H. R. McMaster, *Dereliction of Duty: Lyndon Johnson, Robert McNamara, the Joint Chiefs of Staff, and the Lies that Led to Vietnam* (New York: HarperCollins, 1997).

(104) Thom Shanker, «Retiring Army Chief of Staff Warns Against Arrogance,» *New York Times*, 12/6/2003. =

حين يصل الأمر لاحتمال حقيقي للنزاع مع قوى كبرى، فمن المفيد أن نتذكر أن خطط رامسفيلد حين تقلد منصبه دعت إلى جعل قوات الولايات المتحدة أصغر حجماً وأخف، مع إمكانية تنقل وتركيز أسرع. من الواضح أن هذه الخطط قد رسمت بناءً على الإيمان بعدم احتمال وقوع حرب برية مع قوة عسكرية جادة لمدة جيل على الأقل[105]. تحت كل الأحاديث عن التهديدات الروسية والصينية، كان ثمة قلة قليلة من الأمريكان ممن ترغب في نزاع فعلي مع هذه الدول. الرغبة في التوتر والحاجة إليه، وليس النزاع الفعلي، هو من أجل إنفاقٍ عسكريٍ واسع النطاق، وليس حرباً واسعة النطاق. من الطبيعي أن قضية استقلال تايوان قد تؤدي بسهولة لوقوع حرب بين أمريكا والصين، لكن هذا سيكون نتيجة مجموعة من الأفعال يقوم بها طرف ثالث ـ تايوان ـ مع أخطاء في حسابات بكين وواشنطن، بدلاً من أن يكون قراراً واعياً للحرب تتخذه إدارةٌ أمريكية[106].

الشرق الأوسط هو الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة التي أفرزتها هيمنة الواقعية المطلقة على السياسة الأمريكية. هنا نجد سلوك الولايات المتحدة ملون بألوان عواطف قومية ودينية إلى درجة

= حول الهجمات على شينسكي، انظر: Rowan Scarborough, «Wolfowitz Criticizes 'Suspect' Estimate of Occupation Force,» *Washington Times*, 28/2/2003, and Michael O'Hanlon, «History Will Get the Last Word: Rumsfeld and Shinseki's Tough Relationship,» *Washington Times*, 20/6/2003.

(105) Michael T. Klare, «Cold War Government with No War to Fight: America's Military Revolution,» *Monde diplomatique* (English Edition) (July 2001).

(106) David M. Lampton and Kenneth Lieberthal, «Heading Off the Next War,» *Washington Post*, 12/4/2004.

تجعلها لا علاقة لها بحال شرق آسيا، مثلاً. هنا نجد الذكريات الرهيبة للهولوكوست متشابكة مع صراعٍ طويل الأمد مع الفلسطينيين والدول العربية مما نتج عنه مشاعر قَومية ملتهبة ليس بين اليهود الأمريكان فقط بل بين شرائح واسعة من شعب الولايات المتحدة. إن التأثيرات الناتجة عن ذلك في التفكير الأمريكي والسياسة تقف أحياناً خارج أي نطاق فكري واقعي، أو عقلاني.

الفصل السادس
القومية الأمريكية، إسرائيل
والشرق الأوسط

«حين ننظر إليك من مسافة، ربما بشيء من السطحية، نرى فيك تهديداً خطيراً لما هو عزيز ومقدس عندنا. . .فأنت تهدد بطرد إسرائيل خارج الاتحاد بين تقاليد اليهودية والإنسانية الغربية. وفي ما يتعلق بي، أنت تهدد بدفع اليهودية وإعادتها عبر التاريخ، بعيداً إلى سفر يوشع، إلى أيام القضاة، إلى أقصى تعصب قبلي، قاسٍ ومغلق».

آموس عوز[1]

في خريف 2003 أجري التصويت مرتين في الجمعية العمومية للأمم المتحدة حول سياسة إسرائيل تجاه الفلسطينيين. التصويت الذي جرى في 19 أيلول/سبتمبر 2003 طالب إسرائيل بعدم ترحيل ياسر عرفات أو إيذائه. قرار 27 تشرين أول/أكتوبر 2003 الذي أدان الهجمات الانتحارية الفلسطينية من جهة، دعا الجانبين لتطبيق

---

(1) آموس عوز (Amos Oz) يخاطب الصهاينة الإسرائيليين والأصوليين والمتطرفين في كتابه: Amos Oz, *In the Land of Israel*, Translated by Maurice Goldberg-Bartura (San Diego; New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1983), p. 139.

«خارطة الطريق» التي صممتها الولايات المتحدة، وطالب إسرائيل بالتوقف عن إنشاء «الجدار الأمني» في الضفة الغربية. نال التصويت على القرار الأول 133 صوتاً معه، و4 ضده، ونال الثاني 141 صوتاً، إلى 4 أصوات. الأصوات التي رفضت القرارين كانت إسرائيل نفسها، والولايات المتحدة وجزيرتين صغيرتين للغاية في المحيط الهادئ شبه معتمدتين على الولايات المتحدة، هما مايكرونيزيا وجزر مارشال[2].

أما الدول التي صوتت على القرار الذي وجه النقد لإسرائيل فقد شملت أقدم حلفاء أمريكا وأقربهم إليها، مثل بريطانيا، ودول أخرى كانت بدأت حديثاً بالسعي لعلاقات أوثق مع الولايات المتحدة وإسرائيل، مثل الهند، وبالطبع الدول كلها في العالمين العربي والإسلامي. هذان القراران بطبيعتهما الكاسحة يجدان مرآتهما العاكسة في قرارات الكونغرس في الولايات المتحدة، وهو يتعهد بتأييد غير مشروط لإسرائيل، مع اختلاف واحد هو أنه في حين تشجب قرارات الأمم المتحدة سلوك إسرائيل فإنها في الوقت نفسه تشجب الإرهاب الفلسطيني، في حين أن تصويت كونغرس الولايات المتحدة هو دوماً أحادي الجانب تماماً.

لننظر إلى قرار مجلس الشيوخ للولايات المتحدة في 6 أيار/ مايو 2002، في ذروة العنف الإسرائيلي ـ الفلسطيني. هاجم القرار الإرهاب الفلسطيني، وصرح أن «مجلس الشيوخ يقف متضامناً مع إسرائيل، الدولة التي تشكل الخط الأمامي في الحرب ضد الإرهاب، في وقت تأخذ فيه الخطوات الضرورية لتأمين سلامة

---

(2) للإطلاع على قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة وخلاصات المناقشات، انظر:
www.un.org/News/Press/docs/2003.

شعبها من خلال تفكيك البنية الارتكازية للإرهاب في المناطق الفلسطينية». ليس ثمة فقرة واحدة في القرار تحوي حتى أخف إشارة ناقدة لأي عمل قامت به إسرائيل. مر قرار مجلس الشيوخ بتصويت 92 معه و2 ضده[3].

بعد بضعة أشهر أشار مستشار الأمن القومي الأسبق زبغنيو بريجنسكي، أن قرارات الأمم المتحدة تبين حقيقة أن «قوة أمريكا في العالم أجمع هي في ذروتها تاريخياً، في حين أن الموقف السياسي الأمريكي هو في الدرك الأسفل»[4]. في العالم الإسلامي بخاصة هبطت هيبة أمريكا إلى مرتبة دنيا بسبب مواقف مشابهة لتلك التي صدرت عن مجلس الشيوخ.

في نيسان/ أبريل 2004 حفرت إدارة بوش إسفيناً عميقاً آخر بين الولايات المتحدة وأوروبا بشأن الاستراتيجية الخاصة بالشرق الأوسط حين أيّد بوش بشكل أحادي خطة رئيس وزراء إسرائيل آرييل شارون للانسحاب من قطاع غزة (مع استمرار الرقابة على حدود القطاع الخارجية والسيطرة عليها عسكرياً) وفي الوقت نفسه المحافظة على مستوطنات الضفة الغربية وإلغاء حق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى إسرائيل. إن بوش بتأييده وجهات نظر إسرائيل في القضايا الرئيسية

---

(3) نصوص قرارات مجلسي الشيوخ والنواب للولايات المتحدة في 6 أيار/ مايو 2002 على موقع «Democracy for the Middle East (DFME)»، انظر: www.broadscapeventure.com/weblog/dfme.

(4) انظر خطاب زبغنيو بريجنسكي في 28 تشرين الأول/ أكتوبر 2003، في مؤتمر حول الأمن والسلام في واشنطن. أنظر مقالته: Zbigniew Brzezinski, «Hegemonic Quicksand,» *National Interest*, no. 74 (Winter 2003 - 2004).

حول حكاية هذا التصويت المتكرر لصالح إسرائيل بالرغم من الأغلبية الساحقة في الأمم المتحدة، انظر: Stephen Zunes, «Israel and the United Nations,» *Tikkun*, vol. 18, no. 3 (May - June 2003).

للحل النهائي من دون موافقة الفلسطينيين والأنظمة العربية أو أوروبا، قد مزق فعلياً خارطة الطريق نحو السلام التي اقترحها هو نفسه، وألغى مصداقية الولايات المتحدة بالزعم أنها تعمل مع اللجنة الرباعية (الولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي، والأمم المتحدة وروسيا) في السعي للتوصل إلى حل للنزاع. هذا التحرك لقي شجباً مريراً من أغلب الحكومات الأوروبية، في وقت كانت فيه واشنطن تغازل هذه الحكومات والأمم المتحدة من أجل الوقوف في وجه الوضع المتدهور في العراق[5]. كما شجبها في رسائل مفتوحة أكثر من مئة دبلوماسي سابق من الولايات المتحدة وبريطانيا ممن سبق لهم العمل في الشرق الأوسط.

ما أثار كآبة أكبر هو حقيقة أن تحرك بوش سرعان ما لحقه تأييد غير مشروط من منافسه الديمقراطي للرئاسة، جون كيري الذي أيد أيضاً اغتيال إسرائيل لقادة حماس[6]. كان موقف كيري من هذا الموضوع عديم الانسجام مع ما جاء في حملته الانتخابية بشأن السياسة الخارجية في تأكيده حاجة الولايات المتحدة لتبني مناهج «تعددية» وتحسين علاقاتها مع الحلفاء الأوروبيين ومع الأمم المتحدة.

في الواقع، وإلى تاريخ حزيران/ يونيو 2004، وخلف الأمور

---

(5) Elisabeth Bumiller, «In Major Shift, Bush Endorses Sharon Plan and Backs Keeping Some Israeli Settlements,» *New York Times*, 15/4/2004.

وحول رد الفعل الأوروبي، انظر: Judy Dempsey and Heba Saleh, «EU Condemns Bush over Israel Stance,» *Financial Times*, 15/4/2004.

وحول خلفية قرار بوش، انظر: Peter Slevin, «Delicate Maneuvers Led To U.S.-Israeli Stance,» *Washington Post*, 16/4/2004.

(6) Kerry, Quoted in: Dan Balz, «Kerry Calls Bush's Iraq Policy 'Ineffective',» *Washington Post*, 19/4/2004.

السطحية، لم تقدم حملة كيري أي استراتيجية بديلة للحرب على الإرهاب أو الحرب على العراق، وقبل هذا وذاك فإنه لم يكن لديها استراتيجية تروق للعالم الإسلامي لدعمها. إن عدم قدرة الديمقراطيين على توجيه النقد لإسرائيل يكمن في لب الفشل المأساوي، وليس بسبب الدور المباشر للولايات المتحدة في دعم إسرائيل بحسب رأي المسلمين فقط، بل أيضاً بسبب كون علاقة الولايات المتحدة مع إسرائيل تجعل من السعي للتقارب مع إيران وسوريا أكثر صعوبة بكثير، وهما الدولتان الحاسمتان لاستقرار في الوضع في العراق. ما كان غير متوقع، أن اتفاق بوش ـ شارون لقي انتقاداً واسع الانتشار في صحافة الولايات المتحدة، لكن من الواضح أن مثل هذا الانتقاد ليس له تأثير في حسابات الفريق الانتخابي المنافس في سنة الانتخابات[7].

منذ 11 أيلول/ سبتمبر صارت العلاقات مع العالم الإسلامي مركزيةً لاستراتيجية أمريكا والأمن الأمريكي. عند كتابة هذا الكتاب فإن الولايات المتحدة تحكم بلداً مسلماً كبيراً (العراق) وتؤدي دوراً حاسماً في حكومة بلد آخر (أفغانستان). وما هو أكثر أهمية أنه من خلال الإرهاب السني الإسلامي، صارت المجتمعات الإسلامية تولد التهديد الحقيقي الوحيد من هجوم مأساوي على الأراضي الأمريكية. ربما كان للنجاح والفشل في الصراع ضد هذا الإرهاب أهمية حاسمة

---

(7) *New York Times*, 16/4/2004, editorial; *Washington Post*, 16/4/2004, editorial, and David Ignatius, «A Handshake That Doesn't Help Israel,» *Washington Post*, 16/4/2004.

فيما يتعلق بحسابات إدارة بوش أن ذلك سوف يساعد بوش بالفوز بدعم اليهود الأمريكان في الانتخابات، انظر: Howard Lafranchi and Ben Lynfield, in: *Christian Science Monitor*, 16/4/2004, and Michael Tackett, «Political Gain from Bush Shift on Israel Seen as Questionable,» *Chicago Tribune*, 16/4/2004.

في بقاء الديمقراطية الليبرالية التعددية الغربية: إذ إنه بسبب بعض الميول التي لوحظت ليلة 11 أيلول/سبتمبر، ليس من الصعب تخيل أن هجمات أكثر سوءاً في المستقبل، باستخدام أسلحة دمار شامل أم من دونها، قد تدفع الثقافة السياسية الغربية باتجاهات أكثر عنفاً وشوفينية واستبدادية. وستدفع أمريكا بعيداً عن العقيدة ونحو الاقتراب من الأطروحة المضادة بمختلف أشكالها.

أشارت العديد من استطلاعات الرأي والمسوحات، أن النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني هو عامل مركزي في الكيفية التي يرى بها المسلمون الولايات المتحدة وكيف ينظر الأوروبيون وغيرهم لاستراتيجية الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. الأغلبية العظمى في كل بلد عربي ترى القضية الفلسطينية على أنها «الأكثر أهمية»، أو «مهمة جداً» التي تواجه العالم العربي اليوم[8]. وبحسب رأي أهم

---

(8) انظر استطلاع الرأي لمؤسسة الزغبي الدولية (Zogby International Poll) شتاء - ربيع 2002، ذكر في: شهادة دانيال برامبرغ مقدمة أمام لجنة الإصلاح الحكومي واللجنة الفرعية للأمن القومي لمجلس النواب، في 8 تشرين أول/أكتوبر 2002، انظر: Daniel Brumberg, «Arab Public Opinion and U.S. Foreign Policy: A Complex Encounter,» (Testimony before the Subcommittee on National Security, Veterans Affairs and International Relations, of the House Committee on Government Reform, 8 October 2002); «Global Attitudes: 44-Nation Major Survey (2002),» (Pew Research Center for the People and the Press, Washington, DC, 5 November 2003), and Edward P. Djerejian, «Changing Minds, Winning Peace: A New Strategic Direction for U.S. Public Diplomacy in the Arab and Muslim World,» (Report of the Advisory Group on Public Diplomacy for the Arab and Muslim World, Submitted to Committee on Appropriations, U.S. House of Representatives, Washington, DC, 1 October 2003).

أنظر أيضاً استطلاع الرأي السعودي في عامي 2002 و2003 التي أوردها شبلي تلحمي بعنوان: Shibley Telhami, «Polling and Politics in Riyadh,» *New York Times*, 3/3/2002, and «Those Awkward Hearts and Minds,» *Economist* (1 April 2003).

حليف دولي لإدارة بوش رئيس وزراء بريطانيا توني بلير، فإنه «ليس ثمة موضوع آخر له القوة على إعادة توحيد المجتمع الدولي مثل تحقيق التقدم في قضايا إسرائيل وفلسطين،» و«لا يمكن هزيمة هذا الإرهاب من دون التوصل إلى سلام في الشرق الأوسط بين إسرائيل وفلسطين. إذ إنه هنا يجري تغذية السم. وهنا المكان حيث يستطيع المتطرف أن يخلط، في عقول أعداد كبيرة من الناس الخائفين بين قضية الدولة الفلسطينية وتدمير إسرائيل، وأن يترجم هذا إلى معركة بين الشرق والغرب، بين المسلمين واليهود والمسيحيين»[9].

أعلنت استراتيجية الاتحاد الأوروبي للأمن في كانون الأول/ ديسمبر 2003، أن «حل النزاع العربي - الإسرائيلي هو أولوية استراتيجية بالنسبة لأوروبا. من دونه، ليس ثمة إلا فرص ضئيلة للتعامل الناجح مع المشاكل الأخرى في الشرق الأوسط»[10].

لسوء الحظ، وكما بيّن التصويت في الأمم المتحدة المذكور في أعلاه، فإنه من بين المواضيع الأكثر أهمية في العالم، هذا هو الموضوع الذي تواجه فيه الولايات المتحدة عزلةً مطلقةً عن المجتمع الدولي. هكذا ساهم هذا الموضوع بشكل كبير في إضعاف قدرة الولايات المتحدة على القيادة بالإقناع والتوافق. إن موقف أمريكا

---

(9) ذكر في: James Blitz, «Iraq Crisis Blair under Pressure: US-Europe Splits 'Misguided and Dangerous',» *Financial Times*, 19/3/2003.

وخطاب بلير أمام كونغرس الولايات المتحدة في 17 تموز/ يوليو 2003، حول وجهات نظر مشابهة انظر: Brzezinski, «Hegemonic Quicksand».

(10) أصدره المجلس الأوروبي في كانون أول/ ديسمبر 2003 ونقله ممثل الاتحاد الأوروبي لمفاوضات السلام في الشرق الأوسط السفير مارك أوت (Marc Otte)، انظر: Marc Otte, «Towards an EU Strategy for the Middle East,» (Speech, London, 1 March 2004),

نشره «World Security Network» في 12 آذار/ مارس 2004 على الموقع: www.worldsecuritynetwork.com.

وعزلتها في هذا الموضوع قد غذّيا روح القومية الأحادية في الولايات المتحدة وساعدا في سحب قطاعات واسعة من المثقفين الليبراليين في الولايات المتحدة (ليس اليهود الأمريكيين فقط، بل جميع المتعاطفين مع إسرائيل بشكل عام) بعيداً عن مواقفهم الأممية السابقة. والحال أنه لو ساد هذا الموضوع الخطير يسود الاعتقاد أن الولايات المتحدة لا تحتاج إلى المجتمع الدولي، وأنه يجب أن لا تصغي إليه حتى لو كان بأجمعه يخبرها بأمرٍ ما، إلى متى يمكن لأي شعور صادق بالدولية، أو «الاحترام اللائق برأي الإنسانية» (وهي كلمات وردت في إعلان الاستقلال)، أن تظل على قيد الحياة في ما يتعلق بالقضايا الأخرى؟

إن الجهد اللازم لتفسير كيفية تبرير موقف الولايات المتحدة في وجه مثل هذا الإجماع للرأي العالمي ضدها قد شجع على النظر إلى المجتمع الدولي عموماً على أنه شرير لا يمكن شفاؤه، وإنه معادٍ للسامية وبالتالي معادٍ لأمريكا. وتغذى ذلك على كراهية أقدم وعقد اضطهاد من طرف اليمين في الولايات المتحدة في ما يتعلق بالعالم الخارجي عموماً والمؤسسات الدولية بشكل خاص. وساهم في نشر هذه النظرة الشريرة عن «العالم» ما عرضه أشخاص مثل تشارلز كروتهامر وفيليس شلافلاي في المقاطع التي أوردناها في المقدمة وغيرها.

حسبما يرى العالم والصحفي البريطاني تيموثي غارتون آش، فإن الانشقاق الجديد بين الولايات المتحدة وأوروبا الغربية بعد التوحد الذي خلقته أحداث 11 أيلول/سبتمبر بدأ مع تصعيد النزاع الإسرائيلي/الفلسطيني في مطلع 2002:

إن الشرق الأوسط هو في الآن معاً مصدرٌ ومحفز لما يهدد أن يصير هبوطاً حلزونياً لانتشار سريع لمعاداة أمريكا في أوروبا وانتشار

معاداة أوروبا في أمريكا، وكل منها يعزز الآخر. معاداة السامية في أوروبا وما يُزعم من ارتباطها بانتقاد أوروبا لحكومة شارون، كانت موضوع تعليقات معادية لأوربا هي الأكثر مرارةً بين المعلقين والسياسيين الأمريكيين المحافظين. لم تقتصر بعض هذه الانتقادات أن تكون شديدة التأييد لإسرائيل بل أيضاً «ليكودية بطبيعتها». الأوروبيون المؤيدون لفلسطين أغضبتهم الطريقة التي كان بها انتقاد شارون يوصف على أنه معاداة للسامية، والتحدث عن قوة «اللوبي اليهودي» في الولايات المتحدة يؤكد أسوأ شكوك ليكوديو أمريكا عن معاداة السامية في أوروبا، وهكذا يستمر الحال ويستمر[11].

يساهم الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني بدوره في توسيع نطاق ميول أحلام اليقظة القومية في الولايات المتحدة، وعدم القدرة على الاستماع للآخرين أو فهم ردود فعلهم إزاء تصرفات الولايات المتحدة. وكما لاحظنا، فإن هذا شعورٌ غريب نصادفه في بلد بهذه القوة والثراء والانفتاح مثل أمريكا. إذ من سمات الأمم الصغيرة المعتادة على الحروب، بخاصة حين يكون سكانها قد تعرضوا في الماضي لمذابح واضطهاد، كما هو حال إسرائيل. إن الإحساس بالاضطهاد وبضرورة الاستعداد للحروب في إسرائيل قد طال انتشارها في الولايات المتحدة أيضاً، وهي عززت الميول الموجودة أصلاً من الشعور المرضي بالاضطهاد، ومن النفور والشوفينية التي سبق لنا طرحها سابقاً.

لهذا ولأسباب أخرى، فإن سياسات الولايات المتحدة إزاء إسرائيل والشرق الأوسط بعامة، تتناسب تماماً مع ثنائية الأطروحة ـ

(11) Timothy Garton Ash, «Anti-Europeanism in America,» *New York Review of Books*, vol. 50, no. 2 (February 2003).

الأطروحة المضادة التي أوضحناها في هذا الكتاب ـ وهذه هي الطريقة التي يراها المسلمون والأوروبيون. من جهة ألزم الرئيس بوش الولايات المتحدة بما سماه «استراتيجية إلى أمام نحو الحرية في الشرق الأوسط»، وهي استراتيجية لها جذور قوية في القيم الكونية للعقيدة الأمريكية: تشجيع الحرية والديمقراطية وحرية التعبير وسيادة القانون و«المؤسسات المدنية الصحية». بالرغم من أن هذه الآمال سوف تأخذ أوصافاً مريرة بعد الدروس المستقاة من العراق، يبدو من المتوقع أن تسلك الإدارات المتعاقبة في الولايات المتحدة هذا النهج الأساسي مهما كان الحزب الحاكم فيها. وكما قال بوش فإنه يجب أن يكون الالتزام بالديمقراطية في الشرق الأوسط «هو مركز سياسة الولايات المتحدة في العقود القادمة»[12].

من جهة ثانية، اتبع كونغرس الولايات المتحدة، وإلى درجة كبيرة الإدارات الأمريكية المتعاقبة، سياسات الدعم غير المشروط لإسرائيل، بصرف النظر عما تفعله إسرائيل في الأراضي المحتلة، وهي تصرفات تتناقض تماماً مع الأفكار المثالية التي تعظ بها الولايات المتحدة والمواصفات التي تطالب بها الدول الأخرى في أي مكان آخر. السبب في ذلك هو موقف إجماع سياسيي الولايات المتحدة في دعم إسرائيل والمتجذر في التماهي الصادق مع هذا البلد، فضلاً عن بعض حالات التعاطف مع الأيديولوجيات

---

(12) George W. Bush, «President Bush Discusses Freedom in Iraq and Middle East,» (Remarks by the President at the 20th Anniversary of the National Endowment for Democracy, United States Chamber of Commerce, Washington, DC, 6 November 2003), www.whitehouse.gov.

وملاحظات نائب الرئيس ديك تشيني للمنتدى الاقتصادي العالمي في دافوس في 24 كانون ثاني/ يناير 2004، على الموقع نفسه.

الإسرائيلية. ولهذا فإن العناصر المهيمنة على إدارة بوش قد أثبتت بشكل خاص روابطها المتينة مع الحكومة التي يقودها الليكود برئاسة آرييل شارون[13]. كما أن هناك أيضاً عنصراً قوياً من الحسابات السياسية والانتهازية وشيء من الخوف المتعلق بقوة اللوبي الإسرائيلي سواء أكانت هذه القوة صحيحة أم افتراضية.

قال م. جي. روزنبرغ من منتدى السياسة الإسرائيلية:

الحقيقة هي أن كلاً من الديمقراطيين والجمهوريين ماهرون في هذه اللعبة وفي بعض الأحيان تصير الجرأة فيها مدهشة. يهاجم الديمقراطيون رئيساً جمهورياً بسبب «تخليه عن إسرائيل» بالرغم من أن السياسة التي يدافع عنها الجمهوري هي نفسها التي دعموها حين تقدم بعرضها رئيس ديمقراطي. ويفعل الجمهوريون الشيء نفسه تماماً. هل ثمة عجب أن يبدو المرشحون كأنهم يبذلون جهداً كبيراً لتحاشي قول أي شيء له معنى بشأن الشرق الأوسط؟... إذ يعرفون أن أي تصريح له معنى حقيقي يمكن أن يستخدم ضدهم، لهذا يلعب المرشحون سعياً للأمان. ويشجعهم فريق من مؤيدي إسرائيل من خلال انتقاد المقترحات البناءة على أنها معادية لإسرائيل، وإعطاء التأييد للمرشحين الذين يقولون لهم ما يريدون سماعه[14].

اختصر المعلق اليميني روبرت دي. نوفاك العامل المحلي في السياسة الأمريكية بشكل مقنع في أيار/ مايو 2003 حين وصف:

---

(13) Elisabeth Bumiller, «A Partner in Shaping an Assertive Foreign Policy,» *New York Times*, 7/1/2004, and Robert G. Kaiser, «Bush and Sharon Nearly Identical On Mideast Policy,» *Washington Post*, 9/2/2003.

(14) M. J. Rosenberg, «The Full Court Pander,» *IPF Friday* (Israel Policy Forum) (9 January 2004), www.israelpolicyforum.org.

الجهود الجادة التي يبذلها الجمهوريون لإنهاء الهيمنة المطلقة للديمقراطيين على الجالية اليهودية الصغيرة لكن المؤثرة. السؤال المهم هو هل سيؤثر هذا في الحد من سعي الرئيس بوش للتوصل إلى سلام إسرائيلي ـ فلسطيني. في مجالسهم الخاصة يفضي بعض الجمهوريين المهمين بالقول إن هذا هو ما يجب أن يؤدي إليه وهو بالفعل يقوم بذلك...

يطرح [قادة الجمهوريين].. أن الليبرالية الاجتماعية والاقتصادية تقف في المرتبة الثانية بعد قضية دعم إسرائيل وأنهم وللمرة الأولى قد سبقوا الديمقراطيين في التهليل للدولة اليهودية. ليس ثمة مؤيد عنيد لرئيس وزراء إسرائيل آرييل شارون أكثر من زعيم الأغلبية في الكونغرس توم ديلاي، النموذج المثالي للفكر الجمهوري.

ماذا عن دفاع بوش عن خارطة الطريق؟ من المؤكد أن عليه أن يحافظ عليها من أجل إبقاء بريطانيا في التحالف في حرب العراق وللإبقاء على صداقة الدول العربية المعتدلة. السؤال هو إن كان قادراً على المخاطرة بأصوات اليهود لو واصل السير نحو سلامٍ في الشرق الأوسط.

لا يدع الجمهوريون أي مجالٍ للشك في وجهات نظرهم. لقد وصف ديلاي خارطة الطريق على أنها «تجميع لفكرٍ مضللٍ» من عمل النخب الأوروبية وبيروقراطيي وزارة الخارجية والمفكرون الأمريكيين. رئيس المجلس الأسبق نيوت غينغرتش، وهو مستشار مقرب من وزير الدفاع دونالد رامسفيلد، وصف خارطة الطريق على أنها «مؤامرة من وزارة الخارجية والقوى الأجنبية للعمل ضد سياسات الولايات المتحدة....»

إن هذا يواجه بوش بمعضلة قرار رئاسي كلاسيكي قد يحدد

مكانه في التاريخ. هل يجب عليه اتباع نصيحة باول في أنه على القيادة الأمريكية العمل على خلق دولة فلسطينية وأنها شرط للسلام في الشرق الأوسط؟ أم عليه اتباع الطريق الذي رسمه قادة حزبه لضمان إعادة انتخابه؟[15]

يمكن النظر لاستراتيجية الجمهوريين هذه على أنها استمرار لاستراتيجية ريغان في الثمانينيات في محاولة سحب أصوات «ديمقراطيي ريغان» الذين كانوا يتكونون أساساً من الجنوبيين [البيض] الإنجيليين، ومن العمال ذوي «الياقات الزرق» الشماليين واليهود المؤيدين للصهيونية»[16]. كان أساس هذا التحيز مبادئ الجاكسونية الشعبوية المحافظة في الداخل والقومية العدوانية في الخارج (بالرغم من أنه خلال حكم ريغان، كما بينا سابقاً، كانت هذه القومية وإلى حد ما أكثر أقوالاً من الأفعال).

هذا لا يعني القول إن استراتيجية الجمهوريين كانت ناجحة بالضرورة بعد مغادرة ريغان المسرح السياسي. تبين أنماط

---

(15) Robert D. Novak, «Politics vs. Road Map,» *Washington Post*, 26/5/2003; Newt Gingrich, «Rogue State Department,» *Foreign Policy* (July - August 2003), and Robert G. Kaiser, «Bush and Sharon Nearly Identical On Mideast Policy,» *Washington Post*, 9/2/2003.

توماس نومان (Thomas Neumann) رئيس المركز اليهودي لشؤون الامن القومي، ذكر في المقالة نفسها انظر أيضاً: Ron Suskind, *The Price of Loyalty: George W. Bush, the White House, and the Education of Paul O'Neill* (New York: Simon and Schuster, 2004), pp. 70-76 and 288-290; Philip H. Gordon, «Bush's Middle East Vision,» *Survival*, vol. 45, no. 1 (Spring 2003), and Elisabeth Bumiller, «A Partner in Shaping an Assertive Foreign Policy,» *New York Times*, 7/1/2004.

(16) Joseph C. Harsch, «Politics and Race,» *Christian Science Monitor*, 27/10/1988.

التصويت ونتائج المسوحات عموماً أنه بقدر تعلق الأمر بالانتخابات، يظل أغلبية اليهود الأمريكيين مخلصين لتقاليدهم الليبرالية، إذ كان 51 بالمئة منهم ديمقراطيين عام 2003، و16 بالمئة فقط جمهوريين (و31 بالمئة مستقلين). في انتخابات 2000، صوّت 79 بالمئة من يهود أمريكا لآل غور و19 بالمئة فقط لبوش[17]. غالباً ما يجعل تحالف اليهود الأمريكان المؤيدين لإسرائيل مع الأصوليين المسيحيين اليهود الليبراليين يشعرون بعدم الارتياح الشديد، كما كتبت الكاتبة اليهودية الأمريكية روبرتا فيورلخت، «في التاريخ اليهودي، حين يأتي الأصوليون، سرعان ما يصل القوزاق»[18]. لا أحد يستطيع تخمين كيفية تصويت اليهود الأمريكيين لإدارةٍ ديمقراطية تتخذ موقفاً قوياً بحق من إسرائيل. من المؤكد أنهم عاقبوا كارتر بقسوة عام 1980 لتحركه نحو الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية.

إن أراد بوش أن تؤخذ إدارته بجدية على أنها قوة تعمل من أجل السلام في الشرق الأوسط، فعليه طرد عدد من كبار موظفيه من الذين عارضوا خلال التسعينات عملية اتفاق أوسلو ونصحوا حكومة

(17) «2003 Annual Survey of American Jewish Opinion,» (American Jewish Committee, 25 November - 11 December 2003), and Jewish Virtual Library for Voting Figures in Presidential Elections, www.us-israel.org.

(18) Roberta Strauss Feuerlicht, *The Fate of the Jews: A People Torn between Israeli Power and Jewish Ethics* (New York: Times Books, 1983), p. 166.

فيما يتعلق بقلق اللوبي الإسرائيلي بشأن الأجندة الداخلية للأصوليين المسيحيين في الولايات المتحدة وتقاليدهم شبه المعادية للسامية، انظر: Abraham H. Foxman, *Never Again?: The Threat of the New Anti-Semitism* ([San Francisco]: HarperSanFrancisco, 2003), pp. 133-159, and David Cantor, *The Religious Right: The Assault on Tolerance and Pluralism in America* (New York: Anti-Defamation League, 1994).

إسرائيل بالتخلي عنها[19]. في ورقتهم عن السياسة عام 1996، «فرصة جديدة» (A Clean Break) نصح ريشارد بيرل (صار في ما بعد رئيس المجلس الاستشاري للدفاع في إدارة بوش)، ودوغلاس فيث (صار لاحقاً نائب وزير الدفاع في إدارة بوش) وغيرهم من أعضاء «مشروع القرن الأمريكي الجديد» (The Project of the New American Century (PNAC)) حكومة بنيامين نتنياهو الإسرائيلية بالتخلي عن عملية أوسلو وفكرة الأرض مقابل السلام والإصرار على السيطرة الدائمة على الأراضي المحتلة: «مطلبنا الأرض - التي تمسكنا بالأمل من أجلها مدة 2000 عام - وهو مطلب شرعي ونبيل. . . القبول غير المشروط من العرب بحقوقنا، **خصوصاً** في ما يخص الأراضي، «**السلام مقابل السلام**، هو الأساس الصلب للمستقبل» (الأقواس في الأصل)[20].

توضح الورقة أنها ترفض فكرة «الأرض مقابل السلام» التي تأسس عليها حل «الدولتين»، وهي تصفه على أنه «انسحابٌ ثقافي، واقتصادي، وسياسي، وعسكري ودبلوماسي»، وما تعنيه بشعار «السلام من أجل السلام» هو أن تظل تهاجم الأنظمة العربية إلى حين قبولها بحكم إسرائيل على أراضي فلسطين كلها. وبهذا فإن أاصحاب الورقة كانوا يعارضون، باسم «مطلبنا» بكل أراضي فلسطين، ليس فقط السياسة التي كانت يومها معتمدة من قبل إدارة كلنتون، وإنما أيضاً سياسات كل الإدارات السابقة للولايات المتحدة والتي تبنتها

---

(19) Joel Benin, «Tel Aviv's Influence on American Institutions: Watch and Tell,» *Le Monde diplomatique* (July 2003).

(20) Richard Perle [et al.], «A Clean Break: A New Strategy for Securing the Realm,» (Report, Institute for Advanced Strategic and Political Studies' «Study Group on a New Israeli Strategy Toward 2000», 1996).

رسمياً إدارة جورج دبليو. بوش التي صار العديد من أصحاب المشروع من كبار موظفيها. سبق أن طرح أليوت أبرامز الذي عينه بوش عام 2003 كبير موظفي الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي قبل انهيار المحادثات عام 2000 والانتفاضة الثانية، وجوب التخلي عن أوسلو لصالح سياسة أكثر صرامة مع الفلسطينيين[21].

صحيح أن سياسة الولايات المتحدة وخطابها العام في ما يتعلق بالفلسطينيين قد تحسن بشكل كبير منذ السبعينات، حين كانت واشنطن تردد صدى إسرائيل بالتصريح بعدم وجود شعبين منفصلين[22]. كانت اللحظة الحاسمة في هذا الخصوص مبادرة السلام للرئيس المصري أنور السادات عام 1977، حين بينت استطلاعات الرأي الأمريكية لأول مرة تفضيل الكثير من الأمريكان سياسة زعيم عربي على سياسة حكومة إسرائيل، وكانت النسبة 57 بالمئة، مقابل 34 بالمئة[23].

منذ حرب العراق طرح عدد من الشخصيات العامة مثل زبغنيو بريجنسكي والجنرال أنتوني زيني بقوة أن الدور الجديد للولايات المتحدة في الشرق الأوسط يتطلب تغييراً جدياً في التأكيد على

---

(21) Elliot Abrams, «Israel and the «Peace Process,» in: Robert Kagan and William Kristol, eds., *Present Dangers: Crisis and Opportunity in American Foreign and Defense Policy* (San Francisco, Calif.: Encounter Books, 2000).

(22) «Olive Branch and the Gun,» *Nation* (30 November 1974), and «UN: Shadow of a Gunman,» *Newsweek* (25 November 1974).

فيما يتعلق باعتراف الولايات المتحدة بعد 1991 بوجود الشعب الفلسطيني، انظر: Kathleen Christison, *Perceptions of Palestine: Their Influence on U.S. Middle East Policy* (Berkeley: University of California Press, 2000), pp. 268 ff.

(23) انظر استطلاع الرأي الذي قامت به قناة ABC ونشرته *New York Times* في نيسان/ أبريل 1978، ذكر في: William J. Lanouette, «The Many Faces of the Jewish Lobby in America,» *National Journal* (13 May 1978).

التعامل مع النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني. من ناحية ثانية فإن هجمات 11 أيلول/ سبتمبر والربط بين الإرهاب المعادي لأمريكا والمعادي لإسرائيل عنت أن أغلب الطبقات السياسية الأمريكية والرأي العام فيها أصبح من جديد معادياً للفلسطينيين وراغباً في رؤية ما تفعله إسرائيل على أنه جزءٌ من الحرب على الإرهاب. نتيجة ذلك وللقبضة القوية للوبي الإسرائيلي على الكونغرس الأمريكي فإن الدعم الأمريكي لإسرائيل، بضمنه دعم احتلال الأراضي الفلسطينية، قد استمر من دون تغيير، مع كل ما يعنيه هذا لصورة الولايات المتحدة في العالم الإسلامي ولفرص الولايات المتحدة في النجاح في صراعها مع الإرهاب الإسلامي.

إسرائيل والأطروحة الأمريكية المضادة

إحدى الذرائع الأساسية التي تطرح للدفاع عن دعم الولايات المتحدة غير المشروط لإسرائيل طوال الجيل الماضي تكمن جذورها في العقيدة الأمريكية: بالذات في أن إسرائيل هي زميل في الديمقراطية و«الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط» وبالتالي فهي تستحق دعم أمريكا[24]. لكن بتزايد صعوبة المحافظة على هذا الخط بسبب ما تفعله إسرائيل ـ بالأخص احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة وزرع المستوطنات فيها ـ ثمة ذرائع أخرى، كانت متوافرة على الدوام، قد يمكن إبرازها أكثر. ترتبط هذه الذرائع بشكل وثيق مع القيم والقناعات التي وصفتها بكونها جزءاً من الأطروحة الأمريكية المضادة.

---

(24) ملاحظات أرفينغ كريستول حول الواجب الأيديولوجي على أمريكا لدعم إسرائيل بوصفها دولة ديمقراطية في: Irving Kristol, «The Neoconservative Persuasion: What it Was, and What It Is,» *Weekly Standard* (25 August 2003).

من المؤكد أن القول إن إسرائيل هي «معقل الديمقراطية» يرتبط على الدوام بوجهة النظر التي تذكر بقيم القرن التاسع عشر من أنها أيضاً، «جزيرة الحضارة الغربية في بحرٍ من التوحش». من الطبيعي الذكر أن الديمقراطية في هذا الصدد تبدو صيغةً أكثر معاصرةً من استخدام القرن التاسع عشر لكلمة «الحضارة» لكنها صيغة للتعبير عن تصرفٍ واقعي[25].

تتلخص الذرائع المتجذرة في الأطروحة الأمريكية المضادة بشكل بديع في خطاب ألقاه السيناتور جيمس أنهوف (جمهوري، أوكلاهوما) أمام مجلس شيوخ الولايات المتحدة في آذار/ مارس 2002 مقدماً فيه سبعة أسباب حول لماذا «إسرائيل وحدها تستحق أن تمتلك الأراضي المقدسة»، بضمنها الأراضي الفلسطينية. إن وجهات النظر هذه واسعة الانتشار بين أعضاء اليمين المسيحي في الكونغرس. كما وصفنا سابقاً يشكل أعضاء اليمين المسيحي نسبة مهمة من الشيوخ والنواب وهي نسبة ذات نفوذ قوي في الحزب الجمهوري. من بينهم آخر زعيمين للجمهوريين في المجلس ديك أرمي وتوم ديلاي وكلاهما من أقوى مؤيدي إسرائيل. هكذا في أيار/ مايو 2002 دعا أرمي، وكان آنذاك زعيم الأغلبية في المجلس، وخلال مقابلة تلفزيونية، إلى تهجير الفلسطينيين من الأراضي المحتلة[26]. كما عبر توم ديلاي عن دعمه غير المشروط لإسرائيل، من دون الإشارة إلى حقوق الفلسطينيين[27].

لم تكن الديمقراطية من بين الذرائع التي قدمها السيناتور

---

(25) Meron Benvenisti, «The Turning Point in Israel,» *New York Review of Books*, vol. 30, no. 15 (October 1983).

(26) Matthew Engel, «Senior Republican Calls on Israel to Expel West Bank Arabs,» *Guardian* (London), 4/5/2002.

(27) Tom DeLay, «Be Not Afraid,» (Speech House Majority, 30 July 2003), = www.nationalreview.com.

أنهوف، إذ من المؤكد أن الذريعة الوحيدة المتناسقة مع القيم الرسمية المعلنة في الولايات المتحدة كما تفهم اليوم، دع عنك انسجامها مع السياسات الرسمية تجاه الموضوع لكل إدارة للولايات المتحدة، كانت «القلق الإنساني» على من بقي على قيد الحياة من اليهود بعد الهولوكوست. بدلاً من ذلك طرح السيناتور أسباباً أثرية وتاريخية تثبت أن مطالب اليهود «تسبق مطالب قد تقدمها أي شعوب في المنطقة»، وهي الأسباب نفسها التي يقدمها المثقفون القوميون في البلقان والقوقاز. بالمقابل، عام 1913 «لم يكن للفلسطينيين وجود هناك». سببان قدمهما أنهوف كانت أسباباً واقعية: إسرائيل «حليف استراتيجي للولايات المتحدة»، و«حاجز في طريق الإرهاب».

الذرائع الأخرى التي قدمها تتعلق بالتفوق الحضاري، فكرة أن إسرائيل قد أخذت الصحراء «التي لم يكن يريدها أحد» من سكانها البدو وجعلتها تزدهر. بالرغم من مرور كل تلك السنوات على غزو الغرب الأمريكي، لا تزال هذه الفكرة تروق للأمريكان من ذوي التقاليد الجاكسونية أو المتأثرين بها. بعد كل شيء، فإن هذا الإيمان والتوازي بين المستوطنات الأمريكية في العالم الجديد واحتلال بني إسرائيل لأرض كنعان، تعود للأيام الأولى من مستوطنات البيض في أمريكا الشمالية[28]. بكلمات تي.آر.فهرنباخ بخصوص الوعي بتاريخ

= حول تريح مماثل للسيناتور سام براونباك (Sam Brownback)، انظر: Sam Brownback, «Brownback Meets with Israeli Prime Minister Sharon,» (Kansas, 31 July 2003), www.brownback.senate.gov.

وانظر النقد لكلمات ديلاي على لسان عضو الكونغرس، انظر: Chris Bell, in: *Huston Chronicle*, 1/8/2003, Quoted in: *IPF Friday* (1 August 2003), www.israelpolicyforum.org.

(28) Richard T. Hughes, *Myths America Lives By*, Foreword by Robert N. Bellah (Urbana: University of Illinois Press, 2003), pp. 30-33 and 110-123.

تكساس (مع التذكير بأن لأوكلاهوما حدوداً مع تكساس وقد جرى استيطانها انطلاقاً من هناك): «في القرن العشرين لم ينزع التكساسي عنه تاريخه، بل ازداد تمسكاً به. تاريخ تكساس يدرّس في مدارسها قبل تدريس تاريخ الولايات المتحدة.. . هذا التاريخ الإنجليزي تمتزج معه الأساطير القومية التي يحملها كل تاريخ مماثل، وكان له حصته من الرياء والغرور. جزء من الميثولوجيا الخاصة به تجعل دماء المكسيكيين والزنوج تغلي غضباً. لكنه في الجوهر، كان له وقع الحقيقة. إذ يتعلم أطفال تكساس **اخترنا هذه الأرض، أخذناها،** وجعلناها تثمر». (التشديد موجود في النص الأصلي)[29].

أو كما يقول جون وين: «لا أشعر أننا أخطأنا بأخذ هذه البلاد العظيمة منهم [الهنود] ما يقال عن سرقتنا لهذه البلاد منهم لم تكن إلا مسألة بقاء على قيد الحياة. كان هناك عدد كبير من الناس بحاجة لأراضٍ جديدة، وكان الهنود يحاولون بأنانية الاحتفاظ بها لأنفسهم»[30]. وأكد ليو شتراوس، أحد الآباء المفكرين للمحافظين الجدد أن «سرقة الأرض» كانت أساس كل الدول، وذلك حين كان يجادل عن ضرورة إخفاء هذه الحقيقة غير المستساغة عن الجماهير[31].

---

(29) T. R. Fehrenbach, *Lone Star; a History of Texas and the Texans* (New York: Macmillan, [1968]), p. 712.

(30) انظر المقابلو التي أجريت مع جون واين (John Wayne)، في: *Playboy* (May 1971), Quoted in: Joseph McBride, *Searching for John Ford: A Life* (New York: St. Martin's Press, 2001), p. 296.

حول معاملة الهنود عبر القرون في الكتب المدرسية الأمريكية، انظر: Frances FitzGerald, *America Revised: What History Textbooks Have Taught Our Children about Their Country, and How and Why those Textbooks Have Changed in Different Decades* (New York: Vintage Books, 1980), pp. 90-93.

(31) Stephen Holmes, *The Anatomy of Antiliberalism*, pp. 66-67.

في السياق نفسه، ومثل العديد من الأمريكان المؤيدين لإسرائيل عبر العقود، ينقل أنهوف مقطعاً عن مارك توين عن رحلاته عبر أرض فلسطين المقفرة: وجهة النظر القديمة هذه عن تخلف فلسطين قبل بدء بناء المستوطنات اليهودية، وبالتالي عن تدني مستوى الفلسطينيين تعيدنا مباشرة إلى أساليب القرن التاسع عشر[32].

الذريعة الأخيرة لأنهوف تنبع مباشرة من خصلة أخرى أساسية في الأطروحة المضادة الأمريكية. يقول: «وهذا هو السبب الأهم: لأن الرب قال ذلك. كما قلت منذ دقيقة، أنظر في سفر التكوين، أنه هناك على المنضدة... يقول الكتاب المقدس إن إبراهيم نقل خيمته وجاء وعاش في سهل (Mamre) وهو سهل الخليل، وهناك بنى مذبحاً أمام الرب. الخليل هي الضفة الغربية. وفي هذا المكان ظهر الرب لإبراهيم وقال «أنا أعطيك هذه الأرض»، الضفة الغربية. ليست هذه معركة سياسية على الإطلاق. بل هي مجادلة إن كانت كلمات الرب صحيحة أم لا»[33].

مثل هذه الطروحات لا تكتفي بإبعاد هذا الموضوع الجوهري

---

(32) Christison, *Perceptions of Palestine: Their Influence on U.S. Middle East Policy*, pp. 16-25, 103-104 and passim.

(33) انظر البيان الذي ألقاه أنهوف (James Inhofe) من على منصبة مجلس الشيوخ بتاريخ 4 آذار/ مارس 2002، و Chris Mitchell, «The Mountains of Israel,» *Christian World News* (1 January 2003), www.cbn.com

مما يبعث على الذهول أن داعية حقوق المرأة اليهودية الأمريكية فيلس تشسلر (Phyllis Chesler) وهي شخصية تختلف كلياً عن السيناتور أنهوف في الجوانب الأخرى، نراها تكرر الأسس ذاتها بالضبط عن زعم إسرائيل حقها في أرض إسرائيل في كتابها: Phyllis Chesler, *The New Anti-Semitism: The Current Crisis and What We Must Do About it* (San Francisco: Jossey-Bass, 2003), p. 237.

عن مجال التفاوض، بل تبعده عن أي إمكانية للنقاش العقلاني على أساس المعايير المقبولة في العالم. في الواقع، في هذا الطرح إلغاء للتنوير أساساً للثقافة السياسية، وبذلك فإنه يعني رفض الحضارة الغربية المعاصرة أيضاً. رفض تقاليد التنوير يصح بشكل خاص على المسيحيين الألفيين في الولايات المتحدة الذين يؤمنون أن استعادة إسرائيل الحكم على أراضي مملكة داود التوراتية كلها هي شرط أساسي مسبق لحلول يوم نهاية العالم. (هذا إيمان قديم جداً بين الأصوليين البروتستانت وكان أوليفر كرومويل يشاركهم فيه)[34].

وكما أورد دونالد واغنر، وغريس هالسيل، وغابريل ألموند وغيرهم ممن درسوا هذه التقاليد، فإن ما هو شرير في ذلك على وجه الخصوص هو تلك الروابط بين هذه القوى في الولايات المتحدة والمزيج القوي من الأصولية وقوى التطرف القومي في اليمين الراديكالي الإسرائيلي. وإذ يشارك هؤلاء في الأخلاق الاستبدادية لنظرائهم المسيحيين الأمريكان من دون مشاركتهم بالضرورة التزامهم بالديمقراطية. مثل هؤلاء الإسرائيليين تجدهم بكثرة بين مستوطني الضفة الغربية.

يعارض الأصوليون الراديكاليون الإسرائيليون والقوميون بشدة تأسيس دولة للفلسطينيين، وفي كثير من الحالات يأخذون بالحلول الأكثر راديكالية للنزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني: التطهير العرقي أو «تهجير» (Transfer) الفلسطينيين من الأراضي المحتلة. حسبما أوردت استطلاعات الرأي عام 2003، فإن حوالى 46 بالمئة من السكان اليهود في إسرائيل عموماً يؤمنون بهذا الحل، ويطالب 33 بالمئة

---

(34) Pat Robertson, «Why Evangelical Christians Support Israel,» (Speech, Israel, 17 December 2003), www.patrobertson.com.

بطرد حتى العرب من مواطني إسرائيل[35]. عام 2003 طرح موضوع الطرد المستقبلي من قبل المؤرخ الليبرالي الإسرائيلي البارز بيني موريس[36]. يؤشر هذا التحرك انقطاعاً نهائياً عن «الغرب الديمقراطي» كما تم تحديده في العقود الأخيرة. لو دعمت أمريكا مثل هذا التحرك، فإن ذلك سيكون مؤشراً على انتصار قوى الأطروحة المضادة الأمريكية على العقيدة الأمريكية.

كتب أيان لوستيك عن العنصر الأصولي في إسرائيل ـ مع تعريف الأصولية على أنها «العمل السياسي لتحويل المجتمع جذرياً بحسبما تقضي به واجبات الأوامر الكونية ـ على أنه يشكل «العنصر الأساس من الجانب الإسرائيلي في معادلة الشرق الأوسط»[37]. في 1991 كتب العالم الإسرائيلي أيهود سبرينزاك أن «أحد أهم نجاحات اليمين الراديكالي [الإسرائيلي] كان في قدرته على التغلغل في

---

(35) *Israeli Public Opinion on National Security, 2003*, Edited by Asher Arian, Memorandum; 67 (Tel Aviv: Tel Aviv University, Jaffee Center for Strategic Studies, 2003), and Daniel Pipes, «Does Israel Need a Plan?,» *Commentary* (February 2003).

من أجل دعم فكرة التهجير (الترانسفير) في اليمين الإسرائيلي، انظر: Ehud Sprinzak, *The Ascendance of Israel's Radical Right* (New York: Oxford University Press, 1991), pp. 172-176 and 293-298, and Ian S. Lustick, *For the Land and the Lord: Jewish Fundamentalism in Israel* (New York: Council on Foreign Relations, 1988), pp. 178-180.

(36) Ari Shavit, «Survival of the Fittest?: An Interview with Benny Morris,» *Counterpunch* (16 January 2004),

النص الأصلي نشر في: *Ha'aretz*.

حول هجوم ليبرالي إسرائيلي على أحدث آراء موريس، انظر: Adi Ophir, «A Response to Benny Morris: Genocide Hides Behind Expulsion,» *Counterpunch* (16 January 2004).

(37) Lustick, Ibid., p. vii.

الليكود والحزب القومي الديني. هكذا صار حوالى ربع قادة الليكود وأعضائه ينظرون إلى العالم من خلال المعيار الأيديولوجي والرمزي لليمين الراديكالي. النموذج الأبرز هو عضو مجلس الوزراء آرييل شارون، وهو شخص له جاذبية كبيرة وأتباع عديدون، وهو يفكر ويتحدث مثل منظّري اليمين المتطرف»[38].

أو باستخدام الكلمات البسيطة للقس جيري فالويل: فإن «الوقوف ضد إسرائيل هو وقوف ضد الرب»[39]. طوال العقد الماضي، صار الدعم غير المشروط لإسرائيل يزداد قوة في جانب اليمين الجمهوري، بالترادف مع صعود اليمين المسيحي «من شريحة لا أهمية لها إلى الموقع المركزي لحركة المحافظين». وهذا تغير مهم عن أيام أيزنهاور وجورج بوش الكبير[40]. وكما تشير كلمات أنهوف وفالويل، لا يقتصر أصل هذا الإيمان على الانتهازية السياسية بحسب تحليل نوفاك، بل إنه له جذوراً عميقة في صعود الهويات الدينية والأيديولوجية والثقافية.

أصدر الكاتب الألفي هال ليندسي كتاباً بعد 11 أيلول/ سبتمبر عن العرب والمسلمين يكرر فيه طروحاتٍ توراتية وشبه تاريخية تشبه

---

(38) Sprinzak, *The Ascendance of Israel's Radical Right*, p. 13; Bernard Avishai, *The Tragedy of Zionism: How its Revolutionary Past Haunts Israeli Democracy* (New York: Helios Press, 2002), pp. 278-294, and Gabriel A. Almond, R. Scott Appleby and Emmanuel Sivan, *Strong Religion: The Rise of Fundamentalisms around the World* (Chicago: University of Chicago Press, 2003).

حول خلفية هذه الحركات في المجتمع الاسرائيلي والثقافة السياسية، انظر الملخصات في: Oz, *In the Land of Israel*.

(39) «Moral Majority Report,» (14 March 1980).

(40) «The Righteous Empire: A Short History of the End of History and Maybe Even of the GOP,» *New Republic*, 22/10/1984.

ما طرحه أنهوف. (ويقتبس ليندسي بشكل مكثف من كتاب شبه أكاديمي لجوان بيترز التي تزعم أنها تثبت أن العرب قد هاجروا إلى فلسطين في القرن التاسع عشر). ويضيف لندسي عنصراً قوياً من الكراهية والازدراء للإسلام وإلى «طبيعة إسماعيل وجيناته التي أورثها لسلالته من العرب». ويشبّه هؤلاء «بحمير البراري» الذين ذكرهم الرب في سفر أيوب بكلمات أخرى، بدو بلا جذور ولا ارتباط بالأرض. يتحدث بكراهية عن «المنهج الديني» للمسلم[41]. عقد التحالف المسيحي ندوة عن الإسلام في واشنطن في 15 شباط/ فبراير 2003 وحضرتها (كان المؤرخ وزعيم مناصري إسرائيل دانيل بايبس من بين المتحدثين) كان ذلك مهرجاناً للكراهية. صرّح أحد المتحدثين أن السبب وراء ديمومة وجود نزاع بين المسيحيين والمسلمين هو إنكار المسلمين لحقيقة البعث. وقال الصحفي المسيحي اليميني دون فيدر: «الإسلام ليس دين سلام. أنه دينٌ كان طوال سنوات عمره ومنذ 1400 سنة، قد اتبع طريق التطرف، والإرهاب، والقتل الجماعي، والاضطهاد، والهداية بحدِ السيف»[42].

من المؤكد أن وجهات النظر مثل هذه لا تمثل إلا أقليةً في الولايات المتحدة كلها في ما يتعلق بالقضية الإسرائيلية ـ الفلسطينية،

---

(41) Hal Lindsey, *The Everlasting Hatred: The Roots of Jihad* (Murrieta, CA: Oracle House Pub., 2002), pp. 59 and 127-129, Quote from: *Book of Job*, 39: 5-8, and Joan Peters, *From Time Immemorial: The Origins of the Arab-Jewish Conflict over Palestine* (New York: Harper and Row, 1984), Quoted in: Lindsey, Ibid., pp. 127, 135-140 and 149-158.

حول الحجم الهائل لمشاهدي العروض التلفزيون الألفية للأصوليين، انظر: Grace Halsell, *Prophecy and Politics: Militant Evangelists on the Road to Nuclear War* (Westport, Conn.: Lawrence Hill and Co., 1986), pp. 11-14.

(42) www.hvk.org/articles/0203.

لكن بصعود نجم اليمين المسيحي في الحزب الجمهوري صار لها في سياسة الولايات المتحدة أهمية تتزايد شيئاً فشيئاً. اليمين الأصولي الإسرائيلي صار يطور علاقات أكثر توثقاً حتى مع أكثر الأطراف اعتدالاً من اليمين المسيحي في الولايات المتحدة[43]. والحال أنه يبدو منذ أواسط التسعينات أن حكومات الليكود صارت تعتمد أكثر فأكثر على اليمين المسيحي أكثر من اعتمادها على اليهود الليبراليين الأمريكان «ممن لا يعتمد عليهم» في محاولات حشد تأييد الولايات المتحدة لسياساتهم[44]. هكذا ورد في تقرير لصحيفة **واشنطن تايمز** عن سلسلة زيارات للولايات المتحدة قام بها وزير السياحة الإسرائيلي عام 2003:

بدأ وزير السياحة الإسرائيلي بنيامين أيلون جولة في «حزام الكتاب المقدس» لاستغلال حماسة المسيحيين الإنجيليين لإسرائيل، ولإغراء السياح المسيحيين بالعودة إلى إسرائيل وإحباط خطة الرئيس

---

(43) Stephen Mansfield, *The Faith of George W. Bush*, p. 126.
حول العلاقة المتنامية بين الأصولية الإنجيلية الأمريكية والأصولية الإسرائيلية، انظر: Gershom Gorenberg, *The End of Days: Fundamentalism and the Struggle for the Temple Mount* (New York: Free Press, 2000); Hassan Haddad and Donald Wagner, eds., *All in the Name of the Bible: Selected Essays on Israel and American Christian Fundamentalism* (Brattleboro, VT: Amana Books, 1986); Donald Wagner, «Short Fuse to Apocalypse?,» *Sojourners Magazine* (July-August 2003), and Paul S. Boyer, *When Time Shall Be No More: Prophecy Belief in Modern American Culture*, Studies in Cultural History (Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 1992), pp. 183-191 and 203-208.
حول الجذور التاريخية لدعم الإنجيليين الأمريكان للصهيونية، انظر: Peter Grose, *Israel in the Mind of America* (New York: Knopf, 1984), pp. 4-15.

(44) Gorenberg, Ibid., pp. 238-240; Halsell, *Prophecy and Politics: Militant Evangelists on the Road to Nuclear War*, pp. 145-160, and Colin Shindler, «Likud and the Christian Dispensationalists A Symbiotic Relationship,» *Israel Studies*, vol. 5, no. 1 (Spring 2000).

بوش «خارطة الطريق» للسلام في الشرق الأوسط.. «علينا إما معارضة خارطة الطريق أو معارضة التوراة،» هذا ما قاله مايك أيفانز، مؤسس فريق صلاة القدس، وهو تحالف من 1700 كنيسة. «ليس عند الإنجيليين أي جدال حول هذا الموضوع».. هكذا يقوم السيد أيلون بما معدله رحلة شهرياً للتعريف بوجهات نظر إسرائيل في ولايات ترى الدولة اليهودية أن فيها جمهوراً متقبلاً. قال، «حزام الكتاب المقدس هدف مهم جداً لإسرائيل»، وأضاف أن إسرائيل قد زادت من الميزانية السنوية للسياحة فيها من الولايات المتحدة من 1,1 مليون دولار إلى 3 مليون دولار.

قال: «نرغب في شكر أولئك الذين لم يتخلوا عنا»، «في السنوات الثلاث الماضية، كان الذين جاؤوا هم من اليهود ـ من باب التضامن ـ ومسيحيين إنجيليين. إنهم يقولون لعرفات «لا يمكنك إجبارنا على تغيير نمط حياتنا لقلع جذور إسرائيل من الأرض المقدسة». (هكذا في النص).

أنه يعارض تأسيس دولة فلسطينية في الضفة الغربية ويقترح إما إعادة توطين الفلسطينيين في الأردن أو العيش تحت السيادة الإسرائيلية[45].

تأكدت أهمية «المسيحيين الصهاينة» لإدارة بوش بحادثة جرت في البيت الأبيض في 25 آذار/ مارس 2004. حصل أعضاء قياديون من مجلس المؤتمر الرسولي، وهي مجموعة مؤيدة لإسرائيل ترتبط

---

(45) Julia Duin, «Israeli Pits U.S. Politics against 'Road Map' Plan,» *Washington Times*, 18/8/2003.

بالكنسية الخمسينية الموحدة، على تقرير سري (تسرب في ما بعد إلى الصحافة) من أليوت إبرامز مدير دائرة الشرق الأدنى وشمال أفريقيا في مجلس الأمن القومي وغيره من موظفي الإدارة.

كان المؤتمر الرسولي قد عارض بمرارة خطة إدارة بوش المسماة «خارطة الطريق» للسلام بين إسرائيل والفلسطينيين، لأن خارطة الطريق تدعم فكرة إنشاء دولة فلسطينية وانسحاب ولو جزئي لإسرائيل من الضفة الغربية «يهوذا والسامرة». حاول إبرامز التخفيف من قلقهم بشأن دعم الولايات المتحدة لخطة إسرائيل الانسحاب من قطاع غزة بإبلاغهم أنه على العكس من الضفة الغربية، «ليس لقطاع غزة أي ذكرٍ في الكتاب المقدس مثل قبر يوسف أو قبر راشيل وبالتالي فهو ليس أكثر من قطعة أرض يمكن التضحية بها من أجل السلام». أي بكلمات أخرى، لترضية هذا اللوبي ـ وبالتأكيد ضمن قناعاته ـ فإن موظفاً كبيراً في الولايات المتحدة كان يقدم تقريراً سياسياً ضد السياسة المعلنة لإدارته في دعم انسحاب إسرائيل من أجزاء واسعة من الضفة الغربية[46].

لو حصل ما حصل في أي جزء حيوي من السياسة الدولية للولايات المتحدة، لكان لمثل هذه الآراء نتائج بسيطة[47]. لكن في حال إسرائيل، ثمة عوامل شتى تجعل مثل هذا التهميش مستحيلاً.

---

(46) Rick Perlstein, «The Jesus Landing Pad,» *Village Voice* (18 May 2004), and Donald Wagner, «The Alliance between Fundamentalist Christians and the Pro-Israeli Lobby,» *Holy Land Studies*, vol. 2, no. 2 (March 2004).

(47) «A Year after Iraq War: Mistrust of America in Europe Ever Higher, Muslim Anger Persists,» (Pew Research Center for the People and the Press, Washington, DC, 16 March 2004), and Bill Schneider, «Mideast 101: Evolution of U.S. Feelings toward Israel,» (CNN, 17 April 2002).

تشمل هذه العوامل عمق التعاطف الأمريكي تاريخياً وثقافياً مع إسرائيل وقوة اللوبي الإسرائيلي والمحددات الخاصة لمناقشة ما يتعلق بإسرائيل في الساحة السياسية ووسائل الإعلام.

يجعل اجتماع هذين العاملين من المستحيل على القوى الليبرالية والواقعية في الولايات المتحدة ـ بضمنها قطاعات من اليهود في أمريكا ـ أن تعزل مثل هذه الأفكار وأن تتغلب عليها سياسياً، مهما كان المدى الذي قد يبلغه جدالهم معها في بعض وسائل الإعلام المثقفة[48]. ليس المقصود من ذلك أن الأفكار المتطرفة التي يحملها أنهوف وديلاي وغيرهم يشترك فيها أغلبية الأمريكان، بل المقصود في حال إسرائيل، أن كلاً من الحزب الديمقراطي والمثقفين الليبراليين قد تعرضوا لإعاقة تحركهم لتقديم معارضة قوية ومتماسكة لهذه الأفكار، سواء أخذ ذلك شكل التماهي المخلص مع إسرائيل أو الخوف من التعرض لهجوم اللوبي الإسرائيلي. والنتيجة، أنه ليس ثمة بديل سياسي حقيقي أو معارضة في الولايات المتحدة في ما يتعلق بالنزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني وسياسات الولايات المتحدة المتعلقة به.

على مدى العقود الأربعة الماضية أصبحت سياسات الولايات المتحدة تغوص في مستنقع التناقض البيّن بين المثاليات العامة

---

(48) حول التضييق على النقاش في الولايات المتحدة، انظر: Paul Findley, *They Dare to Speak Out: People and Institutions Confront Israel's Lobby* (Westport, Conn.: Lawrence Hill, 1985).

حول الرقابة الذاتية في الجالية اليهودية في الولايات المتحدة، انظر ملاحظات الجنرال ماتياهو بيلاد (Mattiyahu Peled)، و أرفينغ هاو (Irving Howe)، مذكورة في: Feuerlicht, *The Fate of the Jews: A People Torn between Israeli Power and Jewish Ethics*, pp. 280 and 278-283.

الأمريكية والسلوك الإسرائيلي الممول ولو جزئياً من الولايات المتحدة. من جهة تعظ أمريكا العرب بأفكار مدنية مثالية معاصرة عن الديمقراطية، والحداثة، والحل السلمي للنزاعات. ومن الجهة الأخرى تقدم المعونات ليس للاحتلال العسكري فقط بل معه للاستيلاء على الأراضي من سكانها المقيمين عليها على أساس مزاعم دينية ـ عرقية التي لو طرحت في أي ظروف أخرى لرأت حكومة الولايات المتحدة وأغلبية الرأي العام العالمي أنها تفتقد إلى الشرعية تماماً[49].

إن الجانب المأساوي حقاً في كل ذلك ومع تزايد عدد المحتجين الإسرائيليين واليهود الأمريكيين، هو أن هذا النوع من الدعم غير المشروط من قبل الولايات المتحدة، يصاحبه استمرار احتلال إسرائيل للأراضي الفلسطينية، وقد ثبت أنه مأساوي لإسرائيل نفسها أيضاً وللأفكار المثالية النبيلة التي حفزت أفضل العناصر في الجهد الصهيوني. لا يقتصر هؤلاء الناقدون على الليبراليين، بل يشمل العديد من كبار العسكريين والاستخباراتيين المتقاعدين، مثل أربعة من الرؤساء السابقين للشين بيت أو الأمن الداخلي الذين حذروا حكومة شارون في تشرين ثاني/ نوفمبر 2003 إن لم تنسحب إسرائيل من الضفة الغربية وقطاع غزة، فإن وجود إسرائيل نفسه سوف يتعرض للخطر. كما قالوا إن الانسحاب ضروري حتى لو أدى إلى التصادم مع المستوطنين اليهود. وبحسب قول أحد الأربعة، الجنرال أفراهام شالوم، «يجب علينا الاعتراف أن ثمة طرفاً آخر، وأن لديه مشاعر وأنه يعاني، وعلى أننا نتصرف بشكل مخجل...

---

(49) Isidor Feinstein Stone, «Confessions of a Jewish Dissident,» in: Isidor Feinstein Stone, *Underground to Palestine* (New York: Pantheon Books, 1978), pp. 229-240.

لقد تحولنا إلى شعب من المقاتلين الصغار الذي يستخدمون الأدوات الخطأ»[50].

وقال رئيس الكنيست الأسبق أفراهام بورغ:

لقد استندت الثورة الصهيونية دوماً إلى أساسين: السبيل العادل والقيادة الأخلاقية. لم يعد أي من هذين الأساسين متوافراً. تستند الأمة الإسرائيلية اليوم إلى سقالات للفساد، وعلى أسس الاضطهاد والظلم. وعليه فإن نهاية المشروع الصهيوني قد وصلت إلى أبوابنا. ثمة فرصة حقيقية أن يكون جيلنا هو آخر جيل صهيوني. قد تظل ثمة دولة يهودية في الشرق الأوسط، لكنها ستكون دولة من طراز مختلف، غريب وبشع...

لا يمكننا إبقاء الأغلبية الفلسطينية تحت أقدام إسرائيل وفي الوقت نفسه نتصور أننا الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط. لا يمكن أن توجد ديمقراطية من دون حقوق متساوية لجميع من يعيش هنا، العرب كما اليهود. لا يمكننا الاحتفاظ بالأراضي والمحافظة على أغلبية يهودية في الدولة اليهودية الوحيدة في العالم - ليس بالطرق الإنسانية والأخلاقية واليهودية...

هل تريدون أرض إسرائيل الكبرى؟ ليس ثمة مشكلة. تخلوا عن الديمقراطية. لنؤسس نظاماً ناجحاً للفصل العنصري هنا، بما فيه من معسكرات سجون وقرى احتجاز. غيتو قليقلية وغولاغ(*) جنين...

هل تريدون الديمقراطية؟ ليس ثمة مشكلة. أما أن تتخلوا عن

---

(50) ذكر في: Molly Moore, «Ex-Security Chiefs Turn on Sharon,» *Washington Post*, 15/11/2003.

(*) الغولاغ: اسم شائع لمعسكرات الاعتقال السوفياتية أيام ستالين.

أرض إسرائيل الكبرى، حتى آخر مستوطنة ومخفر أمامي، أو امنحوا حق المواطنة الكاملة وحقوق التصويت للجميع، بضمنهم العرب. النتيجة طبعاً ستكون أن أولئك الذين لا يريدون دولةً فلسطينيةً إلى جوارنا سيكون لهم دولة في وسطنا، من خلال صناديق الاقتراع.

أصدقاء إسرائيل في الخارج ـ اليهود وغير اليهود، رؤساء ورؤساء وزارات، رجال دين يهود وأناس عاديين ـ عليهم الاختيار أيضاً. عليهم مد يد العون ومساعدة إسرائيل للإبحار في خارطة الطريق نحو قدرنا الوطني شعاعاً للأمم ومجتمعاً للسلام، والعدل والمساواة[51].

يعي اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة تماماً أن المستوطنات ـ التي أدانتها من حيث المبدأ الإدارات المتعاقبة كلها في الولايات المتحدة ـ هي العامل الأكثر ضعفاً في القضية كلها. لقد جرت محاولات جادة لصرف الانتباه عن هذا الأمر، ووصفته إحدى الصحف الاستشارية على أنه «عقب آخيل في جسدنا» في إغراء الدعم الشعبي في الولايات المتحدة[52].

---

(51) Avrham Burg, «A Failed Israeli Society Is Collapsing: The End of Zionism?,» *International Herald Tribune*, 6/9/2003.

وحول وجهات نظر فلسطينية وعربية معتدلة لهذا البديل، انظر: Marwan Bisharah, *Palestine/Israel: Peace or Apartheid* (New York: Zed Books, 2001), and Shibley Telhami, *The Stakes: America and the Middle East: The Consequences of Power and the Choice for Peace* (Boulder, Colo.: Westview Press, 2002).

في طرح يسير بخط مشابه بقلم صحفية بريطانية يهودية كانت على الدوام وفية لقولها «أنا مؤيدة متحمسة لإسرائيل»، انظر: Melanie Phillips, «Can Israel Disengage,» *Prospect*, no. 95 (February 2004).

(52) نصيحة لحكومة إسرائيل واللوبي المؤيد لها قدمته مؤسسة العلاقات العامة «Wexner Analysis»، في: Wexner Analysis, «Israeli Communications Priorities 2003,» (Report, [2003]), www.motherjones.com.

بسبب الترابط الروحي والسياسي والاجتماعي بين إسرائيل والولايات المتحدة، ولأن العديد من الناس في العالم يتعاملون مع العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل على أنها اختبار عملي لسلوك الولايات المتحدة، لهذا فإنه سيكون لخيارات إسرائيل نتائج خطيرة ليس على أمن الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين فقط، مثل بريطانيا، وعلى دور أمريكا في العالم، ولكن ربما أيضاً على الثقافة السياسية في الولايات المتحدة نفسها[53].

من وجهة النظر الأمريكية، لا يمكن مقارنة إسرائيل مع روسيا أو الصين أو غيرها من الدول الاستبدادية التي شنت حروباً أكثر شراسةً ضد الحركات الانفصالية الوطنية فيها. يكرر اللوبي الإسرائيلي هذه المقارنة على الدوام في محاولةٍ لإثبات أن ضغوط الولايات المتحدة على إسرائيل هي منافقة و/أو معادية للسامية، لأن مقدمي مثل هذه المطالب لا يطلبون من الولايات المتحدة ممارسة مثل هذه الضغوط على دولٍ مثل روسيا أو الصين.

لكن هذا الطرح فاشل في جانبيه الأخلاقي والواقعي. إن أغلب الناقدين من الولايات المتحدة وأوروبا لعلاقة الولايات المتحدة مع إسرائيل لم يطالبوا أن تفرض الولايات المتحدة عقوبات تجارية على إسرائيل أو طردها من المنظمات الدولية، لكنهم طالبوا أن تستخدم الولايات المتحدة مساعداتها ودعمها بوصفها أداةً قوية للتأثير في السلوك الإسرائيلي: ذلك أن بقية الدول لا تتلقى معونات هائلة،

---

(53) حول احتمال أن تكون السياسة الإسرائيلية في الاستيطان قد دمرت في الواقع إمكانية حل الدولتين وأن الحل الممكن الوحيد والعادل يظل هو دولة موحدة ثنائية القومية، انظر: Tony Judt, «Israel: The Alternative,» *New York Review of Books*, vol. 50, no. 16 (October 2003), and Leon Wieseltier, «What Is Not to Be Done,» *New Republic*, 27/10/2003.

ودعماً عسكرياً وحمايةً دبلوماسيةً من الولايات المتحدة. منذ عام 2004 صارت إسرائيل تتلقى أكثر من ربع مجموع ميزانية المساعدات التي تقدمها الولايات المتحدة (باستثناء ما خصص لإعادة إعمار العراق).

كانت أرقام مساعدات الولايات المتحدة لإسرائيل عام 2002 هي حوالى ست مرات مجموع ما تحصل عليه الدول الأفريقية الأكثر فقراً وعشر مرات حصة أمريكا من المساعدات المقترحة لأفغانستان المحررة، ويفترض أن الأخيرة صارت التزاماً أخلاقياً على الولايات المتحدة وأن لها أهمية استراتيجية حيوية للولايات المتحدة[54]. عدم التوازن الجوهري هذا يجعل إسرائيل حالاً خاصة. كما يجعل الولايات المتحدة شريكاً أخلاقياً في جرائم إسرائيل، ليس في أعين العالم وحسب، بل وفي الواقع أيضاً؛ كما أنه يعطي الأمريكيين في الوقت نفسه الحق والواجب للضغط على إسرائيل لإنهاء احتلال الأراضي الفلسطينية.

إن حاجة الولايات المتحدة إلى أن تتوصل إلى نهاية للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني تمليه عليها أيضاً أسباب واقعية بحتة، بخاصة في إطار الحرب على الإرهاب. إن استراتيجيات إسرائيل وتكتيكاتها في ذلك النزاع، ودعم الولايات المتحدة لإسرائيل، يشكلان عنصرين مركزيين للكيفية التي تنظر بها الأغلبية العظمى من المسلمين إلى الولايات المتحدة وسياساتها في العالم الإسلامي. لقد شهد بهذه الحقيقة عدد لا يحصى من استطلاعات الرأي والتقارير الإعلامية،

---

(54) Stephen Zunes, *Tinderbox: U.S. Middle East Policy and the Roots of Terrorism* (Monroe, Main: Common Courage Press, 2003), pp. 109-111; Shawn L. Twing, «A Comprehensive Guide to U.S. Aid to Israel,» *Washington Report on Middle East Affairs*, vol. 14, no. 8 (April 1996), and Dan Ackman, «Iraq Aid Will Dwarf U.S. Foreign Aid Budget,» (9 August 2003), www.forbes.com.

بضمنه المسح الذي قامت به وزارة خارجية الولايات المتحدة، وهي حقيقة لا كانت ولا يجوز أن تكون موضع تساؤل[55].

تؤثر هذه المجموعة من العوامل بشكل حاسم في نظرة الأوروبيين لاستراتيجية الولايات المتحدة في المنطقة، وتساهم بشكل كبير في الشكوك الأوروبية بشأن حكمة القيادة الأمريكية وحتى تعقلها. لقد رفض العديد من الأمريكان الاعتراف بذلك، وجرى تشويه دوافع الأوروبيين لعدم الارتياح لتصرفات إسرائيل ما ساهم أيضاً في تعميق الهوة بين الولايات المتحدة وأوروبا. خلال مناقشة جرت في أوروبا عام 2003 ـ 2004 حول خطة بوش لتطوير الشرق الأوسط، كان دور إسرائيل ودعم الولايات المتحدة غير المشروط لإسرائيل هو السبب الأبرز للشك. وهذا العامل بالكاد ذكرته التقارير والتحليلات الكثيرة في الولايات المتحدة حول الصعوبات المتعلقة بالموضوع بين الولايات المتحدة وأوروبا، مخلّفة الانطباع بأن المقاومة الأوروبية كان دافعها الرئيسي هو «حدة الطبع» أو «معاداة أمريكا»[56].

«حكاية غرام»

إن فشل الولايات المتحدة الكبير في التعامل مع هذه المواضيع

---

(55) Department of State, International Information Program, Foreign Media Reaction, «Middle East Partnership Initiative (MEPI): Arab Press Wary,» (20 December 2002), and Augustus Richard Norton, «America's Approach to the Middle East: Legacies, Questions, and Possibilities,» *Current History*, vol. 101, no. 651 (January 2002).

(56) قارن على سبيل المثال، بين: Quentin Peel, «A Big Idea that Europe Won't Buy,» *Financial Times*, 5/2/2004, and David Ignatius, «The Allies' Mindless Bickering,» *Washington Post*, 10/2/2004.

قد صار صادماً جداً وخطراً بشكل خاص بعد 11 أيلول/ سبتمبر التي أكدت بقوة وجود تهديد للولايات المتحدة والغرب من مجموعات إرهابية تتمركز داخل المجتمعات الإسلامية. بدا من الواضح بالنسبة للمراقبين الخارجيين، بضمنهم من ينتمي إلى دول وحكومات لها تحالف وثيق مع الولايات المتحدة ـ كما لمح لذلك توني بلير في الملاحظة التي سبق ذكرها في هذا الفصل ـ أن إسرائيل لم تعد تشكل «حليفاً استراتيجياً حيوياً» للولايات المتحدة كما كانت خلال الحرب الباردة[57]. بل صارت عبئاً استراتيجياً على الولايات المتحدة وحلفائها في جهودهم لمحاربة الإرهاب القومي العربي والإسلامي.

من المؤكد أن هذا ما يدل عليه دور إسرائيل، أو بالأحرى انعدام دورها في الحروب ضد العراق 1991 و2003، إذ لم تشارك بها قوات إسرائيلية. بالطبع كانت واشنطن قد توسلت إليها لعدم المشاركة لكي لا تثير غضب العالم العربي وتخاطر بالتعميم الكارثي لهذه النزاعات. لكن يفترض بالحلفاء الاستراتيجيين المبادرة حين يجري النزاع في مناطقهم. أي حليف مضحك ذلك الذي يُطلب منه الابتعاد والبقاء هادئاً لكي لا يسبب مشاكل واسعة الانتشار. قبل عام 1991 كان أوسع تدخل عسكري للولايات المتحدة في الشرق الأوسط هو ما حصل في لبنان عام 1983، وهي هزيمة حولها الغزو الإسرائيلي الذي سبقها لهذا البلد أكثر من ضرورة. أدى هذا التدخل إلى مقتل مئات الأمريكيين من دون ضرورة كما وسع دائرة العداء لأمريكا في المنطقة، في حين لم يحقق للولايات المتحدة أي فائدة

---

(57) يربط كنين (I. L. Kenen) الرئيس الأسبق للايباك (اللوبي الصهوني)، بين هذين التصريحين وذلك في تأريخه لسيرة اللوبي الاسرائيلي ومعاركه. انظر: Isaiah L. Kenen, *Israel's Defense Line: Her Friends and Foes in Washington* (Buffalo, NY: Prometheus Books, 1981), pp. 332 and passim.

استراتيجية أو سياسية على الإطلاق.

بنود التحالف بين الولايات المتحدة ـ إسرائيل ليست شبيهة بالذيل الذي يهز الكلب، بل تمثل الذيل الذي يدور بالكلب حول الغرفة ويضرب رأسه بالسقف حتى يسبب الدوار للكلب سيئ الحظ.

في ظل إدارة بوش صارت السياسة العالمية للولايات المتحدة، كما حددها دونالد رامسفيلد، إن «المهمة تحدد التحالف»: تقرر الولايات المتحدة ماهية أهدافها ثم تجمع أكبر عدد ممكن من الحلفاء لدعم هذه الأهداف[58]. صار هذا المبدأ قضيةً في علاقات الولايات المتحدة مع أوروبا وحتى مع الناتو مثلاً. في منطقة وحيدة ظل تحالف أمريكا هو ما يحدد مهماتها، وذلك في مثال تحالف الولايات المتحدة مع إسرائيل إلى درجة أن المهمة نفسها قد اختفت من الصورة.

إن طبيعة هذا التحالف هو من بين ما يثير القلق ليس في الولايات المتحدة وحسب، وإنما أيضاً بالنسبة لأي حليف للولايات المتحدة في الحرب على الإرهاب. إن كان ثمة أمر يجب أن يكون بادياً للعيان لجميع المراقبين وحتى لأكثرهم انحيازاً، فهو أن هذه الحرب لا يمكن الفوز بها ـ بل لا يمكن حتى شنها ـ من دون الدعم القوي للمسلمين. حتى لو نجحت الولايات المتحدة بطريقة ما في تخليص نفسها من العراق، فمن المشكوك فيه أن يكون بإمكانها في ما بعد احتلال حتى دولة إسلامية واحدة، ولا نقول العالم الإسلامي

---

(58) انظر ملاحظات دونالد رامسفيلد في: *Face the Nation* (Ann Arbor, Mich.: University Microfilms International, 2001).

حول النسخة العامة لهذه الملاحظات، انظر: «An Alliance to Fit the Task,» *New York Post*, 23/9/2001.

كله. يمكن للولايات المتحدة طبعاً محاولة الاختباء وراء الجدران حماية. لكن هذه الجدران سوف تزداد ارتفاعاً إلى ما لا نهاية بمرور الوقت، وعاجلاً أم آجلاً ستبدأ في إيقاع الضرر باقتصاد الولايات المتحدة والعالم وبهيبة أمريكا الثقافية والسياسية في العالم، وبالتالي بالدعامات الأساسية والحيوية لهيمنة الولايات المتحدة. من هنا فإن تأثيرات تصرف إسرائيل في مشاعر المجتمعات المسلمة له أهمية حاسمة ليس للحرب على الإرهاب فقط، لكن أيضاً لقوة أمريكا ونفوذها ونجاحها في بناء إمبراطوريتها الحضارية.

ضمن إطار التقاليد الواقعية أو الأخلاقية، ليس ثمة خطأ في التزام الولايات المتحدة بإسرائيل على أساس الإحساس بالتقارب الثقافي والعرقي، وكذلك في رغبة الولايات المتحدة في تقديم تضحيات جيوبوليتيكية لمصلحة الدفاع عن إسرائيل. وهذا ما كان عليه موقف بريطانيا من مستعمراتها البيضاء بعد انقضاء مدة طويلة على استقلالها السياسي، وحتى بعد انتهاء فائدتها الاستراتيجية الحقيقية[59].

في حال دور إسرائيل في تحالف الولايات المتحدة ـ إسرائيل، ثمة نظير تاريخي مظلم يطرح نفسه. بدأ هذا التحالف يأخذ الشكل المفجع نفسه في التزام روسيا بصربيا عام 1914، حين ضمنت قوة كبرى وشجعت القيادة الصربية على التصرف بإجرام وعدم مسؤولية بمطالبها ضد النمسا، ما أدى إلى قيام الحرب التي كانت مدمرة لروسيا وصربيا وللعالم كله[60].

---

(59) Correlli Barnett, *Engage the Enemy More Closely: The Royal Navy in the Second World War* (New York: Norton, 1991), pp. 378-389.

(60) D. C. B. Lieven, *Russia and the Origins of the First World War* (London: Macmillan, 1983), pp. 40-43 and 139-151.

يمكن القول تقريباً إنه نتيجة للطريقة التي وضعت بها بنود تحالف الولايات المتحدة ـ إسرائيل فإن الدولتين قد تبادلتا المواقع. الولايات المتحدة التي يجب أن تشعر أنها محمية من المحيطات والتفوق العسكري الذي لا نظير له، قد أخذت دور الدولة المعرضة للخطر في الشرق الأوسط والتي تتعرض لخطرٍ ماحقٍ من الإرهاب، والتي تؤمن أيضاً أنها تتعرض لخطر مميت من دول لا تملك إلا مثقال ذرة مما لديها من قوة. في الوقت نفسه، وبفضل الدعم المقدم من الولايات المتحدة، صارت إسرائيل نوعاً من القوة العظمى، قادرة على تحدي المنطقة كلها وأوروبا معها. هذا وضعٌ سيئ، ليس للولايات المتحدة فقط، لكنه شديد السوء لإسرائيل نفسها، لأسباب سنطرحها لاحقاً. لأن إسرائيل **ليست** دولة عظمى. إنها غنية وقوية، لكنها لا تزال دولة صغيرة شرق أوسطية تحتاج لطلب التعاون مع جيرانها إن أرادت العيش بسلام. الدعم الأعمى وغير المشروط للولايات المتحدة قد مكّن حكومة إسرائيل من تحاشي مواجهة هذه الحقائق، لكنه أثبت بالنتيجة أنه مأساوي تماماً لإسرائيل نفسها في المدى البعيد.

كما في حال صربيا والقومية السلافية القوية قبل عام 1914 في قطاعات الرأي العام والرسمي في روسيا، كذلك هو الحال لإسرائيل في قطاعات مهمة من الرأي العام في الولايات المتحدة (وليس الرأي العام اليهودي وحده) والتي صارت على امتداد نصف قرن ترى الولايات المتحدة وإسرائيل كأنهما دولة واحدة، لشدة التماهي بينهما حتى تجاوز ذلك هوية أمريكا نفسها ومصالحها. إنهم يؤمنون بصدق بـ«تماهي المصالح بين الدولة اليهودية والولايات المتحدة»[61]. وقد

Stanley Hoffmann, «The High and the Mighty,» *American Prospect* (61) (January 2003).

وصفت العلاقة على أنها «علاقة عشق». (حكاية غرام) بحسب وصف جيري براون (الحاكم الديمقراطي السابق لكاليفورنيا)، «أنا أحب إسرائيل. لكن لو عرضتم علي خريطة وطلبتم مني معرفة مكان إسرائيل لما عرفته. لكن إسرائيل في قلبي»[(62)].

تسبق جذور قصة العشق هذه ليس تأسيس إسرائيل فقط، بل تأسيس الولايات المتحدة نفسها، فهي تكمن في العهد القديم، الدين المركزي للتقاليد البروتستانتية الأمريكية. الاعتراف بإسرائيل بصفتها الشعب المختار (سواء بوعي أو من دون وعي) يرتبط بشكل وثيق مع تقاليد الفكر الأمريكي القديم جداً التي درسناها في الفصل الثاني، وتعود إلى عهد المستوطنين الأوائل الذين شبّهوا أمريكا على أنها إسرائيل الرب الجديدة. جاء في موعظة للقس آبيل أبوت عام 1799 : «قيل كثيراً إن شعب الولايات المتحدة يقتربون من شبيهتهم إسرائيل القديمة، أكثر من أي أمة على وجه الأرض. من هنا جاء التعبير الشائع **أمريكا إسرائيل** الخاصة بنا (Our American Israel)، وهذا ما يسمح به أيضاً التوافق العام تماماً»[(63)].

استمر هذا التجانس عبر الأجيال، وهو يجب إعادته إلى تقاليد الواسب القديمة المعادية للسامية (الموجهة بشكل رئيس ضد المهاجرين اليهود من أوروبا الشرقية الذين وصلوا إلى الولايات المتحدة منذ عام 1880، أكثر منها ضد الألمان واليهود الغربيين الذين

---

(62) ذكر في: Joyce R. Starr, *Kissing Through Glass: The Invisible Shield between Americans and Israelis* (Chicago: Contemporary Books, 1990), p. 225.

(63) Samuel Langdon, «The Republic of the Israelites an Example to the American States,» pp. 93-105. and the Epigraph, in: Conrad Cherry, ed., *God's New Israel: Religious Interpretations of American Destiny*, Rev. and Updated ed. (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1998).

وصلوا قبلهم واستقروا). وأضيف إليه تماهي ليبرالي قوي مع الثقافة الديمقراطية الغربية لدى الجيل المؤسس لإسرائيل[64].

ما لم ينل اعترافاً صريحاً لكن كان له أهمية كبيرة هو احترام «جاكسوني» لمجتمع إسرائيل المتسم بالشراسة والعسكرة وانتصاراته المتكررة في الحرب، وللمنجزات العسكرية والنمط الذكوري للجنود الإسرائيليين الذين تحولوا إلى سياسيين، مثل آرييل شارون. صار هذا العامل مهماً بشكل خاص بعد عام 1967، حين حققت إسرائيل نصرها الساحق على أخطار أكبر منها في حرب مبررة أخلاقياً للدفاع عن النفس قد قدمت تعويضاً نفسياً عن هزيمة أمريكا في فييتنام.

لكن ثمة جانب مظلم في هذا التماهي، يذكر به قول تي.آر.فهرنباخ عن ذاكرة تكساس. ظل الاستيلاء على أراضي شعوب عدوة متوحشة هدفاً مركزياً في أغلب تاريخ أمريكا الشمالية البيضاء. ويرى غوردن ويلتي تجانساً قوياً بين «القوة العضلية اللاهوتية» لليمين الأصولي الإسرائيلي وتقاليد الرواد الأمريكان «ما دام زمن التخوم في أمريكا قد انتهى، فهم يحاولون بعثه في مكان آخر»[65]. ينعكس هذا التقليد في ملاحظة شهيرة قالها دونالد رامسفيلد عام 2002 تتعلق بالمستوطنين اليهود في الضفة الغربية: «من يركز على المستوطنات في الوقت الحالي لا يفهم المسألة... وجدت المستوطنات في أماكن

---

(64) حول اجتماع التعاطف الديني، الثقافي والأيديولوجي في الولايات المتحدة مع الحركة الصهيونية، انظر: Grose, *Israel in the Mind of America.*

وحول الآراء المثلة لموقف القاضي أوليفر وندل هولمز (Oliver Wendell Holmes)، انظر: Edmund Wilson, *Patriotic Gore: Studies in the Literature of the American Civil War* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 1977), pp. 784-785.

(65) ذكر في: Halsell, *Prophecy and Politics: Militant Evangelists on the Road to Nuclear War*, pp. 113-114.

متعددة مما يسمى الأراضي المحتلة... كانت نتيجةً لحربٍ ربحوها [الإسرائيليون]»[66]

إن ظروف النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني منذ الثلاثينيات، وخلق المستوطنات اليهودية في الأراضي المحتلة منذ عام 1967، قد خلقت أيضاً نموذجاً موازياً بين حال إسرائيل وحال التخوم الهندية الأمريكية. في مثل هذه الحالات، يختلط الجنود والمدنيون ليحاربوا، وغالباً ما يصعب التمييز بينهم. لقد تركز اهتمام الإعلام على الإرهاب الذي يمارسه الفلسطينيون، لكن هذا العمل يجري على خلفية عنفٍ متواصلٍ واطئ الكثافة من الطرفين: رمي الحجارة وغيرها من الهجمات على المستوطنين يقوم به شبابٌ فلسطينيون، وتصرفات شبيهة عبر مجموعات من الشعب تريد تنفيذ العدالة بيدها كما يفعل المستوطنون[67].

وصف الكاتب والصحفي الإسرائيلي عاموس إيلون، مائير هار ـ زيون، المظلي الشهير الذي جمع بين الخدمة العسكرية الرسمية في الخمسينيات مع هجمات يقوم بها لحسابه الخاص انتقاماً من العرب: «لم يوفر جهده ولا جهد الآخرين، كان لا يميز في قسوته العشوائية أين يقع عقابه على أعدائه. بدأ يجسد نسخة إسرائيلية عن شخصية المحاربين ضد الهنود في الغرب الأمريكي المتوحش. كان يقتل الجنود العرب والفلاحين وسكان المدن بسرعة وبنوع من الغضب

---

(66) انظر اللقاء المفتوح مع سكرتير رامسفيلد في 6 آب/ أغسطس 2002 على الموقع: www.defenselink.mil.

(67) David Weisburd and Vered Vinitzky, «Vigilantism as Rational Social Control: The Case of the Gush Emunim Settlers,» in: Myron J. Aronoff, ed., *Cross-Currents in Israeli Culture and Politics*, Political Anthropology; v. 4 (New Brunswick, NJ: Transaction Books, 1984), pp. 69-88.

عديم الكراهية، ويظل هادئاً وعالي الكفاءة، ويؤدي عمله وحسب، ويحسن القيام به»[68].

بالطبع في هذه الحال، كما في حال التخوم الهندية، فإن ذكر شراسة المقاتلين الإسرائيليين لا يشمل بأي حال محاولة التغطية على همجية أعدائهم الفلسطينيين والعرب. ولكن من خلال سياسة الاستيطان فوتت إسرائيل فرصة إنهاء الظروف التي تزيد من حدة النزاع، كما فعلت المجموعات الفلسطينية من خلال استمرارها في ممارسة الإرهاب.

إن تطور إسرائيل منذ عام 1967 إلى ما أسماه مساعد عمدة القدس الأقدم والمعلق الإسرائيلي ميرون بنفينيستي «ديمقراطية العرق المتفوق»، حيث يحتفظ العرق الحاكم بالقوة والمنزلة الرفيعة، يشابه الجزء المركزي من روح النظام الجاكسوني في الولايات المتحدة،

(68) Amos Elon, *The Israelis: Founders and Sons* (New York: Penguin, 1983), pp. 232-235, and David Hirst, *The Gun and the Olive Branch: The Roots of Violence in the Middle East* (London: Faber and Faber, 1977), pp. 183-184.

للإطلاع على صورة شخصية مشابهة (لم يذكر اسمه) وآرائه المتعلقة بسياسة إسرائيل إزاء الفلسطينيين والعرب، انظر: Amos Oz, «The Tender Among You and Very Delicate,» in: Oz, *In the Land of Israel*, pp. 85-100

حول المقارنة مع «المحاربين الهنود»، انظر أيضاً: Uri Avnery, *Israel without Zionism; a Plan for Peace in the Middle East* (New York: Collier Books, [1971]).

حول تقليد ممارسة العنف من دون تكليف وتطبيق العدالة الشعبوية في التخوم الأمريكية، انظر: Joe B. Frantz, «The Frontier Tradition: An Invitation to Violence,» in: Hugh Davis Graham and Ted Robert Gurr, *Violence in America: Historical and Comparative Perspectives*, Special Introd. by John Herbers, Bantam Extra (New York: Bantam Books, [1969]), pp. 127-153, and H. Jon Rosenbaum and Peter C. Sederberg, «Vigilantism: An Analysis of Establishment Violence,» *Comparative Politics*, vol. 6, no. 4 (July 1974).

في الأقل لغاية الستينيات[69]. شكلت هذه القناعات خلفية قوية لرواية ليون عوريس **أكسودس** (*Exodus*) التي لقيت رواجاً مذهلاً (بيع منها 20 مليون نسخة لغاية التسعينات، ما جعلها في المراتب المتقدمة من النجاح مثل روايات الألفيين هال ليندسي وتيم لاهاي) والفيلم الذي استند إليها[70].

ما كان لهذا التماهي مع إسرائيل أن يكون له أهمية كبيرة لأمن الولايات المتحدة والغرب، لولا أنه خلال المدة نفسها صار العرب (وإلى درجة أقل المسلمون) يتماهون بدورهم مع الفلسطينيين في صراعهم مع الإسرائيليين. إن للولايات المتحدة أجندتها الخاصة في المنطقة، تتركز على السيطرة على منابع النفط، وردع أو إزالة الدول المعادية لها، ومحاولة تطوير دول ومجتمعات يمكنها الوقاية من فشل الدولة أو من قيام ثورات معادية للغرب أو من كليهما معاً. هذه مهمة صعبة بحد ذاتها، لكنها تصير أكثر صعوبة بكثير بتورط الولايات المتحدة في نزاع وطني في جوهره مع الفلسطينيين ومع العرب الذين يقفون وراءهم.

نتيجة المزج بين إسرائيل والنفط تجد الولايات المتحدة نفسها متورطة في منطقة مليئة بالنزاعات ومعادية لأمريكا بشكل مرير وبطريقة لم يسبق لها مثيل في تاريخها. في المناطق الأخرى كلها في

---

(69) Benvenisti, «The Turning Point in Israel».

(70) Leon Uris, *Exodus* (New York: Bantam Books, 1959).

الدمج الصوري للمستوطنين الأمريكان والإسرائيليين على الغلاف يعطي صورة مسلية إذ يقدم نجمة داود والسفينة «Exodus»، وعليها شخصين شقر اللون زرق العيون لهم وجه مربع، لما يفترض أنهم مقاتلين يهود في فلسطين، وهي بالضبط صورة الأمريكان الأوائل في أفلام هوليود من الدرجة الثانية. انظر: Christison, *Perceptions of Palestine: Their Influence on U.S. Middle East Policy*, pp. 103-104.

العالم، كان باستطاعة الولايات المتحدة إما المساهمة في استقرار الأوضاع في المنطقة بطريقة تناسب مصالحها (كما في أوروبا، شمال شرق آسيا، أمريكا اللاتينية)، أو حين يكون العداء الإقليمي عظيم جداً ويصعب السيطرة على الوضع الأمني، أن تنسحب (كما في المكسيك عام 1917، والهند الصينية مطلع السبعينيات).

إن كانت نتيجة التورط الأمريكي في الشرق الأوسط تعني خوض سلسلة من النزاعات، إذاً من المحتمل جداً أن لا يقتصر الضرر على قيادة الولايات المتحدة للعالم كله وحسب، بل حتى على سمات القومية في الولايات المتحدة وربما حتى على الديمقراطية في الولايات المتحدة. إن الحرب الطويلة قد تشق المجتمع الأمريكي وتخلق مشكلة عسيرة للنظام العام فيها، كما حصل خلال حرب فييتنام، كما يمكنها أن تساهم في دفع حكومة الولايات المتحدة باتجاه تصرف يتسم بالسرية وجنون الاضطهاد والاستبداد وعدم احترام القانون.

لقد زاد من سوء موقف أمريكا الإقليمي العداء المتزايد بين المسلمين وفي العالم الذي كان خاضعاً للاستعمار في الماضي بسبب دعمها لإسرائيل. وربما كان من المهم أيضاً ملاحظة أن عنف المشاعر القومية التي ولدها هذا النزاع في داخل مجتمع الولايات المتحدة جعل من الصعب على أمريكا التفكير بوضوح بشأن استراتيجيتها في الشرق الأوسط وعلاقاتها مع عدد من الدول في العالم. ومثل الدور الذي لعبته المشاعر السلافية في القومية الروسية قبل عام 1914، فإن طبيعة التماهي مع إسرائيل صارت جزءاً متمماً لكل المزيج القومي للولايات المتحدة وساهمت بالتأثير في قومية الولايات المتحدة بما جعلها أكثر راديكاليةً وجعلها تتخذ مواقف أكثر شوفينية.

مرةً أخرى ليس هذا من باب النقد لمبدأ تماهي أمريكا مع إسرائيل ودعمها لها، فهو شرعي تماماً، مثلما هو الحال مع أرمينيا، بولندا، وغيرها من الدول التي يحتفظ عدد كبير من الأمريكان بروابط عرقية وثيقة معها[71]. بل إن تركيبة الصيغ غير المشروطة لهذا الالتزام مع السياسات الإسرائيلية هي الخطرة جداً ما يشكل مخاطر كبيرة[72]. لنقارن هذا الموضوع مع دور اللوبيات العرقية الأخرى: بسبب تأثير اللوبي البولندي إلى حد ما، دعمت الولايات المتحدة بشدة انضمام بولندا وغيرها من دول أوروبا الوسطى إلى حلف الناتو والاتحاد الأوروبي. كان من شروط هذا الانضمام أن الدول المعنية يجب أن تكون ديمقراطية تماماً، وتعطي معاملة عادلة ومتساوية للأقليات العرقية الموجودة فيها، ويجب أن لا يكون لها أي نزاعات قائمة لم تجد لها حلاً حول الأراضي مع جيرانها.

لتوضيح الأمر أكثر: يجب على الولايات المتحدة أن تلتزم بدعم إسرائيل والدفاع عنها، لكن ضمن حدود عام 1967 فقط. وكما قال لي أحد كبار الدبلوماسيين المتقاعدين في الولايات المتحدة عام 2003، فإن الوضع الراهن هو للمفارقة أشبه ما يكون كما لو أن الولايات المتحدة قد ألزمت نفسها خلال الحرب الباردة بالدفاع عن ألمانيا الغربية بالرغم من أن حدودها السياسية والعرقية مع أوروبا الشرقية كانت مفتوحةً وعنيفةً في وقت واحد، وهي وصفة كانت لتكون صالحة لكارثةٍ جيوبوليتيكية.

---

(71) Tony Smith, *Foreign Attachments: The Power of Ethnic Groups in the Making of American Foreign Policy* (Cambridge, MA; London: Harvard University Press, 2000), pp. 16 ff., and Mitchell Geoffrey Bard, *The Water's Edge and Beyond: Defining the Limits to Domestic Influence on United States Middle East Policy* (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 1991).

(72) Michael Lind, «The Israel Lobby,» *Prospect*, no. 73 (April 2002).

التزام مأساوي

المقترحات المذكورة آنفاً ستكون مقبولة من الأغلبية العظمى من السكان المتعلمين في بريطانيا وبقية حلفاء أمريكا المهمين في العالم، بالتأكيد من الأغلبية العظمى من شعوب العالم الذين راقبوا النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني. وهي مقترحات يصعب دحضها من وجهة نظر العقيدة الأمريكية، في الأقل على ما كانت عليه العقيدة منذ عقود أي منذ الحرب العالمية الثانية.

قد يكون سبب صعوبة الدفاع عن مواقفهم ضمن إطار المبادئ الأساسية لليبرالية هو ما يفسر إلى حد ما هستيريا مناصري إسرائيل الذين غالباً ما يطوّقون ـ ويقمعون ـ محاولات النقاش الصريح في هذه المواضيع في أمريكا، وهذا واحد من الجوانب المقلقة في مشهد السياسة الخارجية للولايات المتحدة. السبب الرئيسي لهذا الجو هو بالطبع الجريمة البشعة والذكريات الرهيبة للهولوكوست، وتأثيرات هذه الذكريات في ردع أي نقدٍ لإسرائيل وفي خلق قناعة في شرعية المطالب الإسرائيلية لترصين دعم إسرائيل في الولايات المتحدة وغيرها؛ لكن هذا الجو يبرز أيضاً وبشكل طبيعي وتلقائي من ضمير اليهودي واليهودي الأمريكي، وبالتأكيد من ضمير أي مواطن متحضر وشريف في الغرب.

ومهما كانت طبيعة وشرعية ومعقولية جذور الولاء غير المشروط لإسرائيل، إلا أن تأثيرات ذلك تشبه غالباً النماذج الأوسع للقومية في العالم. من أكثر التجارب إثارةً للحزن عند زيارة بلدان تمر بخلافات قومية حيث تتصاعد الأمزجة القومية، هو مقابلة أشخاص شديدي الذكاء، ومتحضرين ومعتدلين، تختفي قدرتهم على التعقل والاعتدال في اللحظة التي يلمس الحوار فيها مواضيع النزاعات التي تكون بلدانهم أو أعراقهم طرفاً فيها. إذ إن المعايير

الإنسانية العالمية للسلوك وللنقد والإثبات تتعطل تماماً، ويتم استحضار الوقائع من الجو، ويشيطن النقاد، ويرمى الجميع بالاتهامات، ويصير الحوار العقلاني مستحيلاً.

لاحظت هذا خلال عملي صحفياً في جنوب القوقاز إبان التحضير للحروب هناك مطلع التسعينات، وقبلها بأكثر من عقد خلال زيارة ما كان يسمى يوغوسلافيا آنذاك حين كنت طالباً.

لهذا شعرت بأسى حين وجدت النموذج نفسه يتكرر خلال أمسيات العشاء في واشنطن ما أن تقترب المناقشة من موضوع النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني. كما أحزنني كثيراً رؤية المبادئ الأخلاقية والمواصفات الفكرية بين المفكرين والمثقفين الذين أحمل لأعمالهم أعمق الإعجاب، وهي تنهار عند ملامسة الولاء القومي.

إن أي إدانة لشريحة المثقفين الليبراليين المؤيدين لإسرائيل في الولايات المتحدة، سواء أكانوا يهوداً أم غير يهود، يجب التخفيف من شدتها ليس بسبب التأثير الرهيب للهولوكوست فقط، لكن أيضاً بوعي الصعوبة الفائقة للموقف الأيديولوجي والأخلاقي الذي وجدوا أنفسهم في وسطه منذ عام 1945، وهو موقف لا يقل عن كونه معضلةً مأساوية. تنبع هذه المعضلة من واقع توصل أوروبا الغربية وقسم من المثقفين الليبراليين في الولايات المتحدة من جهة والقسم الأعظم من يهود العالم من الجهة الأخرى إلى نتائج متناقضة حيال مأساة النازية، ولأسباب صحيحة وشرعية. هذا الانشقاق يمر عبر الوعي الفردي لأكثر مثقفي يهود الشتات. وهذا موقف لا يحسد أحد عليه.

قررت النخب في أوروبا الغربية والكثير من المثقفين الليبراليين في الولايات المتحدة أن الرد الصحيح على النازية وعلى النزاعات القومية البشعة التي سبقته وولّدته وصاحبته هو في السعي لإيجاد ما يحدّ من القومية ويفوقها. من هنا جاء خلق المؤسسات الأوروبية المشتركة التي

قادت إلى الاتحاد الأوروبي، والاحترام الذي تبديه أوروبا والعديد من المثقفين الأمريكيين للأمم المتحدة ولمؤسسات التعاون والقانون الدولي. ونظراً إلى الترابط الوثيق في الماضي بين القومية الشوفينية ومعاداة السامية (حتى في الولايات المتحدة إلى حد ما) وإلى دور القومية في الفاشية، فقد كان من الطبيعي أن يتماهى أغلب مثقفي الشتات مع هذه المحاولات للتغلب على القومية في العالم.

لكن، وبسبب فشل العالم الغربي (بضمنه الولايات المتحدة) خلال الثلاثينيات والأربعينيات في منع وقوع الإبادة الجماعية، أو حتى منح الملاذ الآمن لليهود الهاربين من النازية، كان من الطبيعي تماماً أن عدداً كبيراً جداً من اليهود قرر أن ضمانات المجتمع الدولي ليست كافيةً على الإطلاق لحمايتهم من محاولات مذابح أخرى. فضلاً عن ذلك فقد شعروا أن ثمة حاجة لإقامة دولة قومية، تدعمها قومية يهودية قوية. جسدت هذه القومية عناصر قوية وأصيلة من التحرير القومي والتقدمي الاجتماعية، تشبه تلك التي نشأت بين الشعوب المضطهدة في العالم، ومن هذا استقت الصهيونية عناصر قوتها ونبلها الأخلاقي، كما بينتها شخصيات مثل آحاد هاعام، مارتن بوبر، وناحوم غولدمان[73].

كما شكلت إسرائيل أهمية مركزية لمجتمعات الشتات اليهودي بسبب انحطاط الإيمان الديني وممارسته، وانحطاط التقاليد العرقية ولغة اليديش بالمقارنة مع الارتفاع الكبير للزواج المختلط. لهذه

---

(73) حول فلسفة ووجهات نظر آحاد هاعام (Ahad Ha'am)، انظر: Shlomo Avineri, *The Making of Modern Zionism: Intellectual Origins of the Jewish State* (New York: Basic Books, 1981), pp. 112-124.

حول رأي هاعام في المعاملة اليهودية للسكان العرب في فلسطين، انظر: Feuerlicht, *The Fate of the Jews: A People Torn between Israeli Power and Jewish Ethics*, pp. 225-226.

الأسباب، خشيت هذه المجموعات أن تكون هي نفسها أيضاً في طريق الذوبان(74). كانت اليهودية على الدوام تشبه ما سماه الشاعر اليهودي الألماني من القرن التاسع عشر هنريك هاينه «الوطن المحمول لليهود»، إن زواله يهدّد شكلاً من الاضمحلال، إلا إذا تم العثور على بديل(75).

صرّح جاك تورسينر من المنظمة اليهودية لأمريكا خلال إدارة كارتر أنه «أياً كان ما تريد الإدارة القيام به... فسوف يقاتل يهود أمريكا من أجل إسرائيل. إنه الشيء الوحيد الذي نملكه للمحافظة على هويتنا اليهودية»(76). أو بحسب قول المؤرخ الديني مارتن مارتي: «في حين يتواصل تذبذب الأسس الأخرى للهوية اليهودية... صارت إسرائيل تدريجياً المركز الروحي للتجربة اليهودية الأمريكية»(77).

---

(74) Nahum Goldmann, *The Autobiography of Nahum Goldmann; Sixty Years of Jewish Life*, Translated by Helen Sebba (New York: Holt, Rinehart and Winston, [1969]), pp. 332-333.

(75) حول مركزية الوجود الرباني وعبادته بالنسبة للشتات اليهودي وتقاليده، انظر: Jonathan Sacks, *A Letter in the Scroll: Understanding Our Jewish Identity and Exploring the Legacy of the World's Oldest Religion* (New York: Free Press; Simon and Schuster, 2000), pp. 122-180, and Irving Howe, *World of Our Fathers: The Journey of the East European Jews to America and the Life They Found and Made* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1976), pp. 11-14.

(76) *Jewish Observer and Middle East Review* (10 June 1977), Quoted in: Feuerlicht, *The Fate of the Jews: A People Torn between Israeli Power and Jewish Ethics*, p. 170; Howe, Ibid., p. 628 ff., and Goldmann, *The Autobiography of Nahum Goldmann; Sixty Years of Jewish Life*, p. 315.

(77) Martin E. Marty, *Pilgrims in their Own Land: 500 Years of Religion in America* (New York: Penguin Books, 1985), pp. 462-463, and Kenneth D. Wald, *Religion and Politics in the United States*, 4th ed. (Lanham, Md: Rowman and Littlefield Publishers, 2003), p. 153.

مع أن أسس هذا التقديس للأمة كانت يهودية بالذات وبشكل مأساوي، فإن تقدم القومية على أنها بديل لاضمحلال التدين والتحول شبه السحري للعواطف الدينية المتأججة إلى مشاعر قومية، إنما تشكل جزءاً من نمط أوسع في تاريخ القوميات، ساهم الماضي في كوارث الوطنية والدولية: «حياتنا الأكثر ازدهاراً من أجل شجرة الرب الأكثر ذبولاً: ألمانيا!»[78]

بعكس غيرها من مشاعرالاستشهاد القومية، فإن الإحساس اليهودي كان له ما يبرره ـ لا يشبه ما جرى في فرنسا بعد عام 1871، أو ألمانيا بعد 1918. لكن هذه الحقيقة لم تنقذ الكثير من اليهود من النتائج المهلكة لمثل هذا الإحساس بالاستشهاد من خلال الوقوع في التطرف القومي ونزعة تبرير الذات ـ كما إنها لم تشفع للأرمن على سبيل المثال. لقد أنتجت جواً ظلل على الأصولية القومية ـ الدينية للمجموعات الإسرائيلية المتطرفة والمستوطنين الأيديولوجيين في الأراضي المحتلة، فضلاً عن كراهية فجة للعرب المسلمين[79].

فضلاً عن ذلك، ففي حين كان مصدر الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر هو نموذج كلاسيكي بمفهوم معاصر لـ«بناء» الأمة، إلا أن الأساس العرقي ـ الديني اليهودي الذي نتجت عنه يمثل أقدم وأعمق مفهوم «بدائي» للهوية القومية في العالم. وكما أثبتت ذلك سلسلة الصراعات في داخل إسرائيل حول تعريف ماهية اليهودي، ومن يمكنه أن يصير يهودياً ومن له حق القرار بشأن هذه الأسئلة،

---

(78) Carlton Joseph Huntley Hayes, *Nationalism: A Religion* (New York: Macmillan, 1960), and Hans Kohn, *The Idea of Nationalism: A Study in its Origins and Background* (New York: Macmillan, 1945), pp. 574 ff.

(79) Oz, *In the Land of Israel.*

فإن هذه الهوية هي أساس القومية وهي ليست بالضرورة متطابقة مع مفاهيم القومية المدنية المستندة إلى العقيدة الأمريكية، كما أن لها علاقة معقدة وغير مريحة معها؛ وهذا أيضاً ما تراه الشعوب المسلمة التي ترغب الولايات المتحدة أن تنشر بينهم صيغتها من القومية المدنية.

إن الاحتكام إلى التبريرات القومية الدينية وشبه الدينية للسيطرة على فلسطين كان أيضاً جزءاً من المشروع الصهيوني كله. وبسبب الأغلبية الواسعة للسكان الفلسطينيين العرب في كل أراضي فلسطين - حتى عند إعلان دولة إسرائيل عام 1948 - فإنه لم يكن من السهل تبرير خلق دولة يهودية في فلسطين على أسس التحرير القومي وحدها. بل احتاج الأمر إلى دعم الاحتكام إلى مزاعم عرقية عتيقة وكتابات دينية وطروحات حضارية بالتفوق على العرب المتخلفين و«جعل الصحراء تزدهر». هذه الدعاوى لم يكن من السهل تقبلها من الشعوب الأخرى حول العالم، ومن المؤكد أنها جعلت العديد من المفكرين الليبراليين الغربيين يتذكرون ماضيهم القومي والإمبريالي[80].

بحسب السياق الأصلي للصهيونية، فقد كان الحلم العظيم لقادة الصهيونية ومفكريها مثل ناحوم غولدمان هو أن تكون إسرائيل، مثل بقية الدول المتحضرة، جزءاً من المنظمات الدولية وحتى أن تشكل

---

(80) فيما يتعلق بالإنجازات العامة لإسرائيل كدولة ومجتمع - ومثله نتجاهل سجل إسرائيل في الأراضي المحتلة - فأني أؤيد تقويم الأستاذ آمون روبينشتاين (Ammon Rubenstein) الذي نقله ألان دورشوتيز (Alan Dershowitz) في كتابه: Alan M. Dershowitz, *The Case for Israel* (Hoboken, NJ: John Wiley and Sons, 2003), p. 225. وعبرت عنه ولو بصيغ أكثر غموضاً الصورة التي رسمها عاموس إيلون (Amos Elon) لإسرائيل.

جزءاً من فدرالية متعددة الأعراق مع الدول العربية في الشرق الأوسط، وبالتالي حل المعضلة التي وجدت الليبرالية اليهودية في الشتات نفسها تواجهها[81].

كان المأساوي في الأمر أن الظروف التي خُلقت بها إسرائيل جعلت أي حل لهذه المعضلة الثقافية والأخلاقية اليهودية صعباً بشكل استثنائي، وهي كانت لتكون بالقدر نفسه من الصعوبة بالنسبة لأي مجموعة في هذا الموقف. ليست النية هنا الإدانة أو الحط من قدر أحدهم، بل ببساطة الإشارة إلى طبيعة المعضلة وإلى النتائج المحزنة والخطيرة التي نتجت عنها.

كتب آموس عوز بشأن النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني:

الصهيونية حركة تحرير وطني، ليست بها حاجة لأي «تنازل» أو «موافقة» من العرب. لكن يجب الاعتراف أن النزاع بيننا وبين الفلسطينيين ليس فيلماً رخيصاً من أفلام الغرب حيث يقاتل «الطيبون» (Goodies) المتحضرون ضد السكان الأصليين «الأشرار» (Baddies). أنها أكثر شبهاً بالتراجيديا الإغريقية. أنها تمثل صداماً بين حقين متناقضين. للعرب الفلسطينيين مطلبٌ شرعيٌ وقويٌ، ويجب على الإسرائيليين الاعتراف بذلك، من دون أن يجعلنا هذا الاعتراف نشعر بنكران الذات أو الشعور بالذنب. يجب علينا القبول بتسويةٍ مؤلمةٍ، والاعتراف أن أرض إسرائيل هي موطن أمتين، وعلينا القبول بتقسيمها بشكلٍ أو بآخر[82].

---

(81) Goldmann, *The Autobiography of Nahum Goldmann; Sixty Years of Jewish Life*, pp. 299-300.

(82) Amos Oz, «From Jerusalem to Cairo: Escaping from the Shadow of the Past,» in: Amos Oz, *Israel, Palestine, and Peace: Essays* (San Diego: Harcourt Brace, [1995]), pp. 36-37.

لا يسعنا التأكيد بما يكفي أنه لو أن عرب فلسطين قبلوا في الثلاثينيات والأربعينات بإعطاء جزء كبير من فلسطين ـ حيث كانوا لا يزالون يشكلون الأغلبية الكبرى وظلوا كذلك إلى وقت قريب ـ لتشكيل دولة إسرائيل، لكان تصرفهم هذا لا سابق له في التاريخ البشري على الإطلاق، على حد علمي. لم يكن الأمر كما لو أن المراقبين الأذكياء والموضوعيين لم يلاحظوا ذلك حينذاك. وقد كتبت حنا آرندت عام 1945، أي قبل ثلاث سنوات من إعلان استقلال إسرائيل والحرب مع العرب وطرد الفلسطينيين:

تبنت الصهيونية الأمريكية بيمينها ويسارها وبالإجماع، في اجتماعهم السنوي الأخير الذي انعقد في أتلانتك ستي في تشرين أول/ أكتوبر 1944 المطالبة بـ «دولة يهودية حرة وديمقراطية... تتشكل في فلسطين كلها، كاملة غير مجزأة أو متقلصة». قرار أتلانتك ستي ذهب إلى نقطة أبعد من برنامج بالتيمور (1942) حيث أعطت الأقلية اليهودية حقوق الأقليات للأغلبية العربية. هذه المرة لم يُذكر العرب بكل بساطة في القرار، بل من الواضح أنه ترك لهم الخيار بين الهجرة الاختيارية أو المواطنة من الدرجة الثانية. يبدو أن أسباباً انتهازية قد منعت في السابق الحركة الصهيونية من الكشف عن أهدافها النهائية. تبدو هذه الأهداف الآن متطابقة تماماً مع المتطرفين في ما يتعلق بالدستور السياسي المقبل لفلسطين... من خلال إطلاق مثل هذا التصريح الفج في ما بدا لهم أنه وقت مناسب، خاطر الصهاينة ولمدة طويلة بأي فرصة لتفاوض مع العرب، إذ إنه ومهما عرض الصهاينة، فلن يحوزوا على أي ثقة بهم[83].

(83) Hannah Arendt, «Zionism Reconsidered,» *Menorah Journal*, vol. 33, no. 2 (Autumn 1945), pp. 213-214.

طوال التاريخ، لم يحصل إلا نادراً أن استطاعت أكبر حركات الاندماج الديني القومي والإمبراطوريات إدخال شعوب جديدة من دون عنف ـ بالرغم من أحلام هرتزل وغيره في ما يتعلق بدولةٍ يهوديةٍ متعددة الأعراق ـ ليست الصهيونية بكل صراحة حركة يمكن أن تدعو لاندماج غير اليهود.

بكلمات أخرى، قد يدين المرء الفلسطينيين والعرب لتأخرهم الطويل للقبول بواقع وجود إسرائيل، لكن توجيه اللوم لهم لمقاومتهم الأولية لهذه الحقيقة هو من باب الحماقة الأخلاقية والتاريخية. وفي حين تتم إدانة العرب بوصفهم شياطين، فهذا يعني أن الطرف المقابل قد تصرف على أنهم قديسون. لم تقتصر مأساة 1948 على كونها صراعاً بين حقوق شرعية، ولكن أيضاً في أن طرفي النزاع لم يكن بإمكانهم التصرف بشكل آخر. بعد مرور السنوات قال وزير خارجية إسرائيل الأسبق آبا إيبان (1905 ـ 2002): «لو لم يكن وعد بلفور وانتداب عصبة الأمم، لاعتمد عرب فلسطين على الاستقلال المحتمل سواء بدولة مستقلة منفصلة أو ضمن سياق عربي مقبول لهم... كان من المستحيل بالنسبة لنا تحاشي الصراع من أجل دولة يهودية، كما كان من المستحيل بالنسبة لهم إعطاؤنا ما طلبنا. لو خضعوا للصهيونية بخنوع، لكانوا أول شعب في التاريخ يتنازل برضاه عن وضعية الأغلبية التي يملكها»[84].

لهذا فمن المفاجئ أن يواصل الليبراليون الغربيون والعلماء والمثقفون من أنصار إسرائيل استخدام رفض الفلسطينيين للتقسيم عام 1948 كأنه شكل من أشكال لعنة الخطيئة الأصلية. السبب وراء

---

(84) Abba Eban, *Personal Witness: Israel Through My Eyes* (New York: G. P. Putnam's Sons, 1992), pp. 49-50.

مواجهة أغلبية الأمريكان صعوبة الاعتراف بهذه الحقيقة، يكمن أبعد من الرغبة في دعم إسرائيل وفي محو أي شيء قد يضر بهذا الدعم أو يقدم أي ذخيرة للأعداء. ذلك أنهم قريبون من سمات الثقافة الأمريكية التي أحسن تلخيصها تي.آر. فهرنباخ بوصفها عدم الرغبة العميقة للأمريكان للنظر بجدية إلى مصير السكان الأصليين لأمريكا: «كانت ذروة الحروب الهندية عبارة عن مأساة، مع كل ما في المأساة من قدرية كلاسيكية، وضد هذه المأساوية الحقيقية تتمرد أرواح الأمريكان الشماليين»[85].

لابد أن نذكر أن شاؤول بيلو قد انضم خلال السبعينات مع والتر لاكور، وليونارد برنشتاين وغيرهم من كبار الشخصيات الثقافية والفكرية اليهودية الأمريكية لإعلان معارضتهم بناء المستوطنات في الأراضي المحتلة. (آنذاك وقف السيناتور أبراهام ريبيكوف الموقف نفسه)[86]. في ذكرياته بعنوان **إلى القدس والعودة منها** (*To Jerusalem and* Back)، يعترف بيلو أن «الإنكار الكاسح للمظالم التي تعرض لها العرب هو عائق أمام السلام». في الوقت نفسه، يوافق لاكير بالقول إن الصهاينة في سعيهم لتأسيس دولة، «تكمن خطيئتهم أنهم تصرفوا مثل بقية الشعوب. لم تتشكل الدول القومية بسلام ومن دون معاناة»[87].

لكن هؤلاء الكتاب لم يواصلوا تحليلهم إلى النتيجة الطبيعية، التي هي أن الفلسطينيين بدورهم «تصرفوا مثل بقية الشعوب» في

(85) Fehrenbach, *Lone Star; a History of Texas and the Texans*, p. 529.

(86) *New York Times*, 21/6/1979, and Feuerlicht, *The Fate of the Jews: A People Torn between Israeli Power and Jewish Ethics*, p. 174.

(87) Saul Bellow, *To Jerusalem and Back: A Personal Account* (New York: Viking Press, 1976), pp. 158 and 160-163.

القتال من أجل المحافظة على أرض أجدادهم حيث يشكلون الأكثرية الساحقة. وحتى نورمان ميللر، فإنه على الرغم من شدة انتقاداته السياسات الإسرائيلية الراهنة، إلا أنه ألمح إلى أن الفلسطينيين كانوا بدورهم على خطأ إذ لم يرحبوا باللاجئين اليهود في الأربعينيات.

بدلاً من ذلك فإن بعض من يصف نفسه بالليبرالية مثل آلان ديرشوويتز، أستاذ القانون في جامعة هارفارد، قد استخدم صراحةً ذريعة الذنب الجماعي العربي والفلسطيني للتبرير. هذا ليس خطأ تاريخياً فقط لكنه أيضاً لا يتفق مع القيم الليبرالية المعاصرة، ويغذي الشوفينية الأمريكية تجاه المسلمين والعرب. بحسب ديرشوويتز، «يتحمل العرب ما يكفي من الذنب عن الهولوكوست وعن دعمهم الجانب الخطأ خلال الحرب العالمية الثانية لكي نبرر مساهمتهم، وكمنتمين إلى الطرف الخاسر، في عملية إعادة ترتيب الأراضي والسكان التي لا مناص من أن تلي أي نزاع عالمي عنيف»[88].

شاؤول بيلو في المقطع الذي اقتبسناه في ما سبق، سرعان ما انجر إلى الصيغ المعتادة عن عداء العرب لإسرائيل وعن كونه يقرب

---

(88) Dershowitz, *The Case for Israel*, p. 60.

فيما يتعلق بالدمج بين الفلسطينيين والنازيين في خطاب إسرائيل واللوبي الإسرائيلي، انظر: Christison, *Perceptions of Palestine: Their Influence on U.S. Middle East Policy*, pp. 119 ff.

فيما يخص النتائج الفظيعة لمثل هذه الافتراضات بالذنب الجماعي، انظر مثلاً توم فيردمان (Tom Friedman) عن الكيفية التي أدى تعميم المزج بين «الفلسطيني» و«الإرهابي» على عدم الاكتراث بما حصل في صبرا وشاتيلا في: Thomas L. Friedman, *From Beirut to Jerusalem* (New York: Farrar, Straus, Giroux, 1989), p. 163.

وبشأن التحذير من هذا الخطر في الحرب الأمريكية ضد الإرهاب، انظر: William Pfaff, «As Captor, U.S. Risks Dehumanizing Itself,» *International Herald Tribune*, 31/1/2002.

من قسوة ألمانيا تجاه اليهود، وكونهما يعكسان نوعاً من «الجنون»؛ وهو ينتهي عند ملاحظة رنانة تمحو بكل بساطة المواضيع الجادة كلها المتعلقة بتصرفات إسرائيل ومعاناة الفلسطينيين: «كان على إسرائيل أن تحسب حساباً للعالم ولجنون العالم، وإلى أبعد درجة ممكنة من الإغراب. وكل هذا لأن الإسرائيليين رغبوا في أن يعيش اليهود حياتهم في دولة يهودية». مثل هذه التصريحات التي سمعتها تتكرر بشكل أو بآخر ومرة بعد أخرى في النقاشات التي تجري في أمريكا، وضعت الأسس لنظرة إلى «العالم» نفسه على أنه عدو مجنون وشرير لإسرائيل والولايات المتحدة.

بالمقابل نقل عن رئيس وزراء إسرائيل الأسبق ديفيد بن غوريون (نقل ذلك ناحوم غولدمان) أنه تساءل في جلسة خاصة، «لماذا يجب على العرب القبول بالسلام؟ لو كنت زعيماً عربياً فلن أتفق أبداً مع إسرائيل. هذا طبيعي: لقد أخذنا أرضهم. طبعاً لقد وعدنا بها الرب، لكن ما قيمة ذلك بالنسبة لهم؟ ربنا ليس هو ربهم. نحن جئنا من إسرائيل، هذا صحيح، لكن منذ ألفي عام مضت، وما أهمية ذلك بالنسبة لهم؟ لقد مررنا بمعاداة السامية، والنازيين، وهتلر وأوشويتز، ولكن هل ذلك بخطأ منهم؟ إنهم لا يرون إلا شيئاً واحداً: لقد جئنا هنا وسرقنا بلادهم. لماذا يجب عليهم القبول بذلك؟»[89]

مع تأسيس الدولة اليهودية جاءت حرب 1948 وطرد أغلبية السكان العرب من أراضي فلسطين التي صارت الدولة اليهودية الجديدة. كان هذا الفعل غير مقبول بالنسبة للضمير الليبرالي الذي بدأ يشكك بعمق بشرعية الدولة الجديدة، حتى أن إنكاره ظل قائماً لمدة

---

(89) ذكر في: Nahum Goldmann, *The Jewish Paradox*, Translated by Steve Cox (New York: Grosset and Dunlap, 1978), p. 99.

جيلين، والذرائع السخيفة التي قدمت بديلاً منه ـ لمواجهة منطقية شهادات الفلسطينيين واليهود معاً ـ هو أن الفلسطينيين قد هربوا طوعاً تلبية لأوامر الحكومات العربية وزعمائهم. من المؤكد أن بعض أنصار إسرائيل في الولايات المتحدة ما زالوا يطرحون هذا التبرير(90).

بالنسبة لي، ومع عميق أسفي للمعاناة الإنسانية التي سببتها عمليات الطرد عام 1948، إلا أن ذلك لم يسبب لي أي مفاجأة ـ إذ إن الوقائع كانت متاحة للاطلاع بشكل واسع، من مصادر إسرائيلية، كما ونقلتها كتب مختلفة، قبل مدة طويلة من «الكشف» على يد المؤرخين المراجعين الإسرائيليين في أواخر الثمانينيات بأن عملية طرد الفلسطينيين كانت جزءاً من عملية أوسع خططت لها القيادة الإسرائيلية بعناية وصحبتها فظائع عديدة(91). للأسف ـ ومع عدم

---

(90) Dershowitz, Ibid., pp. 78-90.

(91) Benny Morris, *The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949*, Cambridge Middle East Library (Cambridge, MA; New York: Cambridge University Press, 1989).

ووصف موريس نزاع 1948 في: Benny Morris, *Righteous Victims: A History of the Zionist-Arab Conflict, 1881-1999* (New York: Random House, 1999), pp. 191-258.

لمناقشة عمله وهذا الموضوع من قبل المفكرين الإسرائيليين والفلسطينيين، انظر المقالات في: Eugene L. Rogan and Avi Shlaim, eds., *The War for Palestine: Rewriting the History of 1948*, Cambridge Middle East Studies; 15 (New York: Cambridge University Press, 2001).

لوصف أقدم لهذا الموضوع، انظر التقارير الإسرائيلية ووصف شهود العيان لعمليات طرد السكان الفلسطينيين وإرهابهم واضطهادهم التي وردت في: Hirst, *The Gun and the Olive Branch: The Roots of Violence in the Middle East*, pp. 136-143; Avnery, *Israel withaut Zionism; a Plan for Peace in the Middle East*, pp. 223 ff.; Edward W. Said, *The Question of Palestine* (New York: Times Books, 1979), pp. xxxvii and 83-114, and Feuerlicht, *The Fate of the Jews: A People Torn between Israeli Power and Jewish Ethics*, pp. 242-267.

الاتفاق مع أطروحة الذنب الجماعي الشائنة التي قدمها ديرشوويتز وغيره ـ فإنني مضطر للقبول بطرح بيني موريس الجديد الذي يقول إن هذه العملية القاسية كانت ضرورية لتأسيس دولة إسرائيل ولكي يتحاشى سكانها اليهود أي إبادة أو نفي جديدين: «كان بن غوريون يؤمن بالتسفير. لقد فهم أنه لا يمكن وجود دولة يهودية بوجود هذه الأقلية الكبيرة والمعادية من العرب في وسطها. لن يكون ثمة وجود لمثل هذه الدولة. لن تكون قادرة على البقاء... كان بن غوريون على حق... لو لم يفعل ما فعله لما كان للدولة أن توجد. يجب أن يكون هذا واضحاً. من المستحيل تحاشيه. من دون قلع جذور الفلسطينيين، لما قامت دولة يهودية هنا... ثمة ظروف في التاريخ تبرر التطهير العرقي. أعرف أن هذا التعبير سلبي تماماً في خطاب القرن الحادي والعشرين، لكن حين يكون الخيار بين التطهير العرقي والإبادة الجماعية ـ أي القتل الجماعي لشعبك ـ فأنا أفضل التطهير العرقي»[92].

في كل الأحوال كانت تلك أيام الأربعينات. وفي نهاية الحرب العالمية الثانية تم طرد حوالى 12 مليون ألماني من ألمانيا الشرقية حين أُلحقت هذه الأراضي ببولندا وروسيا، و3 ملايين من تشيكوسلوفاكيا، في وسط معاناة واسعة النطاق، وفظائع وخسارة للأرواح. وجرى طرد الهنغاريين من تشيكوسلوفاكيا ورومانيا. كما أن شعوب الحلفاء عانت هي الأخرى، إذ نزح البولنديون غرباً إلى داخل الأراضي الألمانية، وطرد ستالين الملايين من الاتحاد السوفياتي إلى بولندا، لخلق سكان أكثر انسجاماً عرقياً في ليتوانيا

(92) مقابلة مع بيني موريس في: Ari Shavit, «Survival of the Fittest,» *Ha'aretz*, 5/1/2004.

وبيلاروسيا وأوكرانيا السوفياتية. وعام 1947، قبل سنة من خلق دولة إسرائيل وعملية طرد الفلسطينيين، هرب أكثر من 10 ملايين من الهندوس والسيخ والمسلمين من بيوتهم، في وسط سفك دماءٍ واسع النطاق نتيجة تقسيم الإمبراطورية البريطانية في الهند. قبلها بجيل واحد قامت اليونان وتركيا بعملية تبادل للسكان واسعة النطاق بعد تكرر النزاعات القومية التي شملت الكثير من الفظائع من الجانبين.

بالرغم من فظاعة هذه الأحداث، إلا أنها بطريقة ما وضعت أسس عدم قيام حروب في المستقبل، وهو أمر يصعب تخيله لو ظل هؤلاء السكان مختلطين معاً. من المؤكد أنه كان يصعب تصور كيفية تأسيس دولة يهودية وتدعيمها بوجود هذا العدد الكبير من الأقلية الفلسطينية المعادية[93]. أخيراً، فإن لإسرائيل قضية مشروعة هي طرد الدول العربية مئات الآلاف من اليهود إليها ما خلق نوعاً من العدالة القاسية بين إسرائيل والعالم العربي.

يجب أن يكون واضحاً اليوم أن أحد الشروط المسبقة للسلام بين إسرائيل والفلسطينيين هو التخلي عن العديد من المستوطنات في الأراضي المحتلة، والشرط الآخر هو تخلي الفلسطينيين عن «حق العودة» للفلسطينيين الذين جرى طردهم عام 1948[94]. لاحظ هنا للمفارقة أنني أؤيد بشدة «حق العودة» لليهود إلى إسرائيل ضمن حدودها عام 1967، خطاً أخيراً يمكن الرجوع إليه في حال عودة معاداة السامية في أي مكان في العالم.

لكن في حين كان الطرد ربما ضرورياً لبقاء إسرائيل على قيد الحياة، إلا أن الأكاذيب التي ولدتها بمرور الأجيال اللاحقة

---

(93) Anatol Lieven, «Divide and Survive,» *Prospect*, no. 41 (May 1999).

(94) Anatol Lieven, «Peace Cannot Be Fudged,» *Financial Times*, 10/9/2003.

والمستمرة حتى اليوم، كانت شديدة الخطر على كلٍ من إسرائيل والولايات المتحدة. كان يمكن أن يكون من الأفضل بكثير لو تقبّل مناصرو إسرائيل في الولايات المتحدة ـ كما قال بن غوريون في جلسة خاصة ـ حقيقة ما حدث عام 1948 واستخدموه أساساً لتفكير جاد بشأن التعويضات ووضع أسس السلام المقبل. بدلاً من ذلك، ألزم المعسكر المؤيد لإسرائيل نفسه بمجموعة متشابكة من الأكاذيب الأخلاقية والتاريخية[95]. بمرور الوقت انتشرت النتائج الفكرية لهذه المواقف مثل غابات الأعشاب المائية حتى تشابكت وتعقدت وخنقت جزءاً كبيراً من النقاش الوطني في الولايات المتحدة بشأن العلاقات ليس مع العالم الإسلامي فقط، لكن أيضاً مع العالم الخارجي عموماً، وبالتالي فقد غذت نمطاً معيناً من القومية الأمريكية.

إلى رفض البحث في قضية الفلسطينيين قبل 1948 ورفض الاعتراف بعمليات الطرد التي جرت في ذلك العام، أضيف ولمدة عقود عدة، رفض واسع النطاق حتى للاعتراف بوجود الفلسطينيين بوصفهم شعباً، وبأن له حقوقه القومية بالتالي. اختصر مثل هذا النهج تصريح شهير لرئيسة وزراء إسرائيل السابقة غولدا مائير (الذي كرر صداه عدد لا يحصى من أنصار إسرائيل في الولايات المتحدة) «لم يكن الأمر كما لو أنه كان هناك شعب فلسطيني وفي فلسطين ويعدّ نفسه شعباً فلسطينياً وجئنا نحن وطردناهم وأخذنا بلادهم منهم. الأمر هو أنهم لم يوجدوا»[96].

---

(95) حول إنكار حديث للتهجير الذي صاحبه اتهام بأن الحديث حول الأمر قد أضعف الإرادة القومية للمثقفين الإسرائيليين وساهم في بحثهم العقيم عن السلام خلال التسعينات، انظر: Efraim Karsh, «Revisiting Israel's «Original Sin»: The Strange Case of Benny Morris,» *Commentary*, vol. 116, no. 2 (September 2003).

(96) *Sunday Times* (15 June 1969), Quoted in: Hirst, *The Gun and the Olive Branch: The Roots of Violence in the Middle East*, p. 264.

هكذا وعام 1978 استنكر هايمان أتش. بوكبايندر من اللجنة اليهودية الأمريكية استخدام إدارة كارتر لكلمات مثل «وطن» أو «حقوق شرعية» عند الإشارة للفلسطينيين[97]. وكان معنى هذا بالتالي أن الأسس الحقيقية للتظلمات العربية ضد إسرائيل لا يمكن دراستها، وأن علينا تفسير العداء العربي إما بالكراهية الراسخة والطبيعة المؤذية («معاداة السامية»)، أو بالمؤامرات الفاسدة والمعيبة للأنظمة العربية[98].

بالطبع كل هذه العناصر كانت موجودة لدى أعداء إسرائيل. لكن جعلها التفسير الحقيقي **والوحيد** لعداء العرب والمسلمين قد أدى بالضرورة إلى شيطنة المجتمعات والثقافة العربية والمسلمة، وبالتالي المتعاطفين جميعهم مع الفلسطينيين في أوروبا وغيرها. لم تكن هذه الشيطنة بأي شكل من الأشكال استراتيجية متعمدة من أنصار إسرائيل. في الكثير من الحالات كانت الخطيئة تكمن في الإغفال. بإبقائهم على الصمت حول موضوع ما حدث حقيقة

= النقطة المهمة ليست في عدم وجود وعي ذاتي بالقومية الفلسطينية في 1948، وهي مسألة تستحق النقاش. النقطة هي أنه في 1948 كان ثمة أغلبية من السكان في فلسطين كانوا يمتلكون الوعي أنهم يختلفون عن اليهود وكونهم مهددين منهم. بحلول 1949 كان من الخطأ إنكار تطور الوعي القومي الواضح لدى الفلسطينيين. وفي 2004 فمثل هذا الإنكار هو من باب الجنون. ومهما كانوا عليه في 1948 لكن لا يمكن إنكار كون فلسطينيي اليوم يشكلون أمة.

(97) ذكر في: Lanouette, «The Many Faces of the Jewish Lobby in America».

(98) مثل دراسة شلومو أفنيري (Shlomo Avineri) حول الأسس الثقافية للصهيونية بعنوان «كيف صُنعت الصهيونية الحديثة»، لا تحتوي على أية إشارة لـ «الفلسطينيين». في الفهرست وتحت عنوان العرب في فلسطين كتب فيها: «Palestine: Arab problem in». انظر: Avineri, *The Making of Modern Zionism: Intellectual Origins of the Jewish State*.

للفلسطينيين وحول جذور النزاعات الإسرائيلية ـ الفلسطينية والإسرائيلية ـ العربية، لم يدع المثقفون المؤيدون لإسرائيل سوى العداء غير المنطقي، والمعيب والحقود على أنه التفسير الوحيد والمتاح لتصرف العرب. أو كما كتب العالم والمحاور الفلسطيني أدوارد سعيد، «توجيه النقد للصهيونية... هو توجيه النقد ليس لفكرة أو لنظرية بل نحو جدارٍ مكونٍ من الإنكار»[99].

صار موقف شريحة المثقفين الليبراليين المؤيدين لإسرائيل في الولايات المتحدة تجاه النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني يشبه إلى حد ما موقف العديد من المتنورين الأمريكيين في أواسط القرن التاسع عشر تجاه الصدام بين العبودية والعقيدة الأمريكية، كما وصفها منذ مئة عام هربرت كرولي: «ما يجب فعله هو أن تغمض عينيك عن هذا التناقض، وتشجب أي شخص يصر على وصفه بعدم الوطنية، ثم أن تمسك بكل قوة بالمعضلة من قرنيها. رجال من ذوي الذكاء الفائق، ويحبون بلادهم بحق، استمروا على هذا النهج»[100].

أحد نتائج هذا الموقف الأخلاقي الصعب كان الميل إلى شن هجمات شرسة جداً على أي شخص يجذب الاهتمام نحو التناقض الجذري بين مواقف العديد من الليبراليين الأمريكان من النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، وبين نهج الأشخاص نفسهم تجاه مثل هذا

---

(99) Said, *The Question of Palestine*, p. 51.

(100) Herbert David Croly, *The Promise of American Life* ([New York: Macmillan company, 1909; Boston: North Eastern University Press, 1989]), p. 75.

حول تركيز طرح اللوبي الإسرائيلي للنزاع الإسرائيلي-الفلسطيني من دون ذكر التهجير الذي جرى في 1948 أو أي من الفظائع الإسرائيلية، انظر: Phyllis Chesler, «A Brief History of Arab Attacks against Israel, 1908-1970s,» in: Chesler, *The New Anti-Semitism: The Current Crisis and What We Must Do About it*, pp. 44-52.

النزاع في أماكن أخرى. وبدعم من اللوبي الإسرائيلي فائق القوة المؤسسية، كان لهذا تأثير شديد في الحد من النقاش في هذا النزاع في الولايات المتحدة. إن التقارير الواردة عن النزاع تتسم عموماً بالجودة إلى حد ما، لكن على العكس من تغطية الإعلام في الولايات المتحدة لحروب الشيشان مثلاً، ينقصها السياق التاريخي، بالتالي فهي تسمح بتصوير الفلسطينيين على أنهم ببساطة إرهابيون من دون أي تفسير لسبب قيامهم بالقتال. ما هو أكثر جدية هو التحيز العام لصفحات المقالات نحو أنصار إسرائيل. أنصار إسرائيل المتشددون وبلا حدود مثل وليام سافاير لهم حيز منتظم حتى في **نيويورك تايمز** (التي برزت بكونها معتدلة في نقد سياسات الليكود ودعم إدارة بوش لها). بالمقابل، لا يظهر النقاد المتشددون لإسرائيل أبداً. ذلك أن النقد المسموح به عادةً يقدّمه المعتدلون ويتسم بمستواه الراقي والمقيد[101].

كتب أرنو دو بورشغرايف (صحفي محافظ جداً في **الواشنطن تايمز** وهو من سلالة يهودية إلى حد ما) بمرارة: «بالنسبة لكثير من اليهود الأمريكان، كل من يكتب بعدم الموافقة على سياسات رئيس وزراء إسرائيل آرييل شارون ومؤيديه المعربدين الديونيسيين من المحافظين الجدد في واشنطن هو دليل على «معاداة السامية الكلاسيكية»، وكما إن مجرد الإشارة إلى «المحافظين الجدد» يتم تفسيرها على أنها تعني هجوماً ضد «السحرة اليهود» وتجعل من تعليقات الصحف الإسرائيلية ـ بالأخص **هآرتس** وهي تمثل **نيويورك تايمز** إسرائيل ـ وديعة بالمقارنة»[102].

---

(101) Michael Lind, «The Israel Lobby,» *Prospect*, no. 73 (April 2002).

(102) Arnaud De Borchgrave, «Democracy in the Middle East: Iraq, Likudniks and Bush Administration Policy,» *Washington Times*, 5/3/2005.

بمرور الوقت، ربما تكون حرية النقاش في الولايات المتحدة قد اتسعت، وبالتأكيد إنها تحسنت بشكل ملحوظ منذ التسعينات، حتى تاريخ انهيار عملية السلام الإسرائيلية ـ الفلسطينية، واستئناف الإرهاب الفلسطيني، وأحداث 11 أيلول/سبتمبر، وهذه كلها أعادت عقارب الساعة إلى الوراء مرة أخرى. إذ منذ عقود تأسيسها، كانت انتصارات إسرائيل العسكرية وتقدمها التكنولوجي قد وفرت لها الأمان من الغزو، وصارت إسرائيل راسخةً أكثر فأكثر وخلقت دولةً ومجتمعاً ناجحاً. هذه النجاحات كان يجب أن تقلص المخاوف من أن النقاش حول ظروف ولادتها قد يعيد التشكيك في شرعية وجودها.

منذ 11 أيلول/سبتمبر اتخذت **نيويورك تايمز** وعدد آخر من الصحف الأمريكية موقفاً أكثر عدلاً وتوازناً من النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني مما كان عليه موقفهم منذ عشرين سنة. مع ذلك فإن عدداً من الكتاب المنتمين إلى التيار الرئيسي، انتقلوا من توجيه النقد لإسرائيل لتبني النتيجة المنطقية لنقدهم وصاروا يدعون إلى ضغط واشنطن على إسرائيل من خلال التهديد بسحب دعم الولايات المتحدة، الذي كان من المؤكد أن تفعله مع أي دولة أخرى تتلقى دعماً ضخماً من الولايات المتحدة وتتحدى رغباتها. كانت النتيجة أن نقدهم كان ينقصه المحتوى السياسي والأخلاقي[103]. وحتى وزارة خارجية الولايات المتحدة فإنها تصدر سنوياً تقريراً ضخماً عن حقوق الإنسان في إسرائيل والأراضي المحتلة، وهي في الغالب تنتقد بشدة

---

(103) Thomas Friedman, «An Intriguing Signal from the Saudi Crown Prince,» *New York Times*, 17/2/2002; «A Peace Impulse Worth Pursuing,» *New York Times*, 21/2/2002, and «Re «Support for the Saudi Initiative»,» *New York Times*, 28/2/2002.

سلوك إسرائيل. المشكلة هي أن الولايات المتحدة لا تتخذ أي إجراء نتيجة لذلك[104].

بدءاً من الرئيس المصري أنور السادات عام 1977، تزايد عدد من يعترفون في العالم العربي بأن إسرائيل قد جاءت لتبقى، وبأن أفكار رميها في البحر ليست سوى خيالات فارغة. كانت ذروة هذه العملية في خطة السلام التي تقدم بها الأمير عبد الله من العربية السعودية عام 2002[*] ووافقت عليها الأغلبية العظمى من دول الجامعة العربية، والتي عرضت الاعتراف بإسرائيل ضمن حدود 1967.

في هذه الأثناء اتخذت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة قراراً فاجعاً بتشجيع خلق المستوطنات في الأراضي التي غزتها في حرب الأيام الستة[105]. استوجب هذا القرار نفياً مستمراً للوجود القومي للفلسطينيين، بعد مدة طويلة من اتضاح تطور وعي قومي واضح لدى الفلسطينيين منفصل عن غيرهم من الشعوب العربية. من المؤكد أن أحد الجوانب التراجي - كوميديا (المضحكة المبكية) في موقف معسكر إسرائيل المتشدد هي أنه يمكن وصفه بكونه عروبياً، ما دام يعترف أن العرب شعب واحد وبالتالي إنه ليس للفلسطينيين وطن خاص بهم وإنه

---

(104) «Israel and the Occupied Territories,» (Country Reports on Human Rights Practices - 2003, Released by the Bureau of Democracy, Human Rights, and Labor, 25 February 2004), www.state.gov.

(*) هو الملك عبد الله بن عبد العزيز، وكان يومها ولياً للعهد.

(105) حول بناء المستوطنات ودورها في منع الاستغلال الدبلوماسي الكامل لمبادرة السادات انظر: Avishai, *The Tragedy of Zionism: How its Revolutionary Past Haunts Israeli Democracy*, pp. 272-296; Meron Benvenisti, *Intimate Enemies: Jews and Arabs in a Shared Land* (Berkeley: University of California Press, 1995), pp. 30-37 and 52-71, and Bernard Wasserstein, *Israel and Palestine: Why They Fight and Can They Stop?* (London: Profile, 2003).

يمكنهم بالتالي العيش في أي مكان آخر من العالَم العربي.

ساهم موضوع المستوطنات هذا في إضافة طبقة سميكة أخرى من التهرب والشوفينية إلى سياسات اللوبي الإسرائيلي وخطابه في الولايات المتحدة. ذلك أنه وبسبب تكوينها وحاجتها للدفاع عن وجودها، لم يكن بالإمكان قبول الدول العربية والأفراد العرب ضمن خانة المعتدلين والعقلانيين حتى لو اقترحوا توقيع معاهدة سلام مع إسرائيل ضمن حدود 1967. أي مقترح مثل هذا كان مصيره الإهمال قدر الإمكان، أو أن تتم شيطنة صاحبه ونعته بأنه معروف بالكذب، ولا يمكن الثقة به، وإنه مؤمن بتدمير إسرائيل. كان يجب إما منع المناقشة مع المعتدلين العرب والفلسطينيين وإما إغراقها في سيلٍ هادرٍ من الإدانة. ومقترحات مثل تلك التي تقدم بها الأمير عبد الله كان لا بد في البداية من وضعها جانباً، ثم يجري التشكيك بمصداقية أصحابها بسيل من الهجوم على الدول العربية عموماً والعربية السعودية خصوصاً بوصفها عدوانية، همجية، دكتاتورية، وبالتالي لا يمكن الوثوق بها(106).

كما يجب تقديم قضية احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة على أنها حيوية لوجود إسرائيل نفسها. وهذا يتطلب بدوره مبالغات مستمرة عن تهديدات لوجود إسرائيل وبالتالي المبالغة في قوة

---

(106) William Safire, «Post-Oslo Mideast,» *New York Times*, 27/6/2002; «Those Arab 'peacemakers',» *Washington Times*, 20/5/2002, and Victor Davis Hanson, «Our Enemies, the Saudis,» *Commentary*, vol. 114, no. 1 (July-August 2002).

فيما يتعلق بردود أفعال اليهود الليبراليين لصالح العرض السعودي، انظر: Richard Cohen, «Kristol's Unwelcome Message,» *Washington Post*, 11/6/2002, and Henry Siegman, «Will Israel Take a Chance?,» *New York Times*, 21/2/2002.

المسلمين أعداء إسرائيل (وأمريكا). كانت النتيجة خطاباً مريضاً بعقدة الاضطهاد وحال الطوارئ المستمرة مع السوابق كلها المبالغ بها في تاريخ القومية المعسكرة.

والحال أن الكثير من هذا الخطاب لا يركز حيث ينبغي له، أي على الخطر الإرهابي على إسرائيل وعلى الحاجة لتقليل هذا التهديد بإنهاء بناء المستوطنات والانسحاب من أغلب أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة. كما أنه لا يركز على التهديد السكاني الحقيقي لإسرائيل إن واصلت حكمها على أعداد هائلة من الفلسطينيين. بالعكس، أنه يصور تهديداً عسكرياً غير واقعي لإسرائيل من الدول العربية وهو استغل لتحريف النقاش العام بعيداً عن القضايا الحقيقية للمستوطنات والاحتلال. هكذا وفي شباط/ فبراير 2003 كتب دانيل بايبس: «إن وجود إسرائيل بدا مهدداً كما لم يبدو في أي مرحلة سابقة»، و«كتب ياكوف لوزوويك من متحف الهولوكوست كتاباً لخص فيه نزاعات إسرائيل كلها، سواء أكانت دفاعاً عن النفس والبقاء بحق أو الغزو والاحتلال، تحت عنوان واحد هو [حق إسرائيل في الوجود]»[107].

مثل هذه الملاحظات تغذي عقدة الاضطهاد في القومية الأمريكية أيضاً، وتذهب إلى لب المسار الخطأ لاستراتيجية إسرائيل ودعم الولايات المتحدة لهذه الاستراتيجية في العقود الأخيرة. خلال السنوات الـ25 الأولى من وجودها، كانت إسرائيل تتعرض باستمرار للهجوم، لكنها بالنتيجة فازت بسلسلة من الانتصارات العسكرية

---

(107) Daniel Pipes, «Does Israel Need a Plan?,» *Commentary*, vol. 115, no. 2 (February 2003); Daniel Ayalon, «Israel's Right to Be Israel,» *Washington Post*, 24/8/2003, and Yaacov Lozowick, *Right to Exist: A Moral Defense of Israel's Wars* (New York: Doubleday, 2003).

أولاً، ثم السياسية. طوال معظم بداية تاريخها كانت إسرائيل بالفعل مهددة من الدول العربية القوية عسكرياً ممن كانوا يرفضون وجودها المجرد يدعمهم ويسلحهم الاتحاد السوفياتي. ومع ذلك سحقت إسرائيل هذه الدول عام 1967 ثم مرة أخرى وبدرجة أقل عام 1973.

بعدها تخلت مصر عن الكتلة المعادية لإسرائيل، وتبنى النظام المصري الولايات المتحدة لتجهيزه وحمايته، ما جعل كل تهديد عسكري تقليدي جدي لإسرائيل غير ممكن التصور في المستقبل المنظور. فضلاً عن ذلك، طورت إسرائيل ردعاً نووياً قوياً بوصفه ضماناً أخيراً وفاعلاً ضد أي تهديد لوجودها من الدول المسلمة (مع أنه ليس ضمانة من هجوم إرهابي مأساوي بالطبع). بعد انهيار الاتحاد السوفياتي عام 1989 لم يقتصر الأمر على تقليص التهديد لإسرائيل أكثر من خلال خسارة الدول العربية الرافضة لمن يقف وراءها ويدعمها، بل أطلقت سيلاً هائلاً من المهاجرين اليهود السوفيات، مما ضمن موقف إسرائيل السكاني ضمن حدودها عام 1967.

لو بقيت الأراضي المحتلة ضمن «إسرائيل الكبرى»، فسوف تكون الصورة السكانية مختلفة تماماً، وستكون إسرائيل في خطر حقيقي رهيب بوصفها دولة يهودية، أو كدولة ديمقراطية، أو كلاهما. لقد كتب هنري سيغمان من مجلس العلاقات الخارجية عن التهديد السكاني الفلسطيني، بكلمات تذكّرنا بالمزاعم الكاذبة المتعلقة بالتهديدات المستمرة لوجود إسرائيل ضمن حدود 1967:

يشير وصف موريس إلى حقيقة مؤسفة هي عدم وجود ما يميز كيفية تصرف اليهود في 1948 في صراعهم من أجل تأسيس الدولة عن تصرفات الفلسطينيين اليوم. في الأقل يجب أن تقود هذه الحقيقة المرة إلى التخلي عن الغرور الأخلاقي لعدد كبير من الإسرائيليين وإلى إعادة النظر في شيطنتهم للقضية القومية للفلسطينيين.

تأثير ما سبق في قضية الأراضي هي أن من غير المنطقي للفلسطينيين أن **لا** يصدقوا أن هدف جدار شارون هو شيء آخر غير عزلهم في سلسلة بانتوستانات، إن لم يكن ذلك تمهيداً لعملية طرد ثانية (ترانسفير)...

ما لم يكن الإسرائيليون راغبين في المحافظة على حال الأغلبية التي لهم، من خلال فرض نظام عنصري من طراز جنوبي أفريقيا، أو إنهاء عملية الترانسفير التي بدأت عام 1948، كما يتصور موريس أنهم سيفعلون ـ وهي سياسات يتمنى المرء أن لا تقبل بها أي أغلبية إسرائيلية ـ فإن الأمر ليس إلا مسألة وقت قبل أن تظهر أغلبية عربية في إسرائيل الكبرى تعيد تشكيل الهوية القومية للبلاد. ستكون تلك مأساة ذات أبعاد تاريخية للمشروع الصهيوني وللشعب اليهودي كله.

ما سيجعل المأساة مؤلمة بشكل مضاعف هو أنها ستحصل في وقت تحدث فيه تغيرات في العالم العربي وغيره... تغيرات تزيح نظرياً في الواقع أي تهديد استراتيجي كان لحد الآن يهدد وجود إسرائيل. صار هذا الوجود الآن مهدداً بجشع المستوطنين وبالعمى السياسي لقادة إسرائيل[108].

لقد ثبت مراراً صحة قول آبا إيبان الشهير «إن الفلسطينيين لا تفوتهم فرصة قط لتفويت الفرص» من أجل السعي للسلام أو الحصول على فوائد سياسية». من المؤكد أن تاريخ منظمة التحرير الفلسطينية كان فاشلاً سياسياً ومثيراً للغضب أخلاقياً، وهذا يصح أيضاً على الأنظمة العربية القائدة. كانت القيادة الفلسطينية لا فائدة

(108) Henry Siegman, «Israel: The Threat from Within,» *New York Review of Books*, vol. 51, no. 3 (February 2004), and Amos Oz, «Whose Holy Land?,» in: Bisharah, *Palestine/Israel: Peace or Apartheid*, p. 91.

منها أبداً على العموم. والإرهاب الفلسطيني في السنوات الأخيرة كان مأساوياً وغير مبرر من كل زاوية. لكن هذا ليس عذراً لسياسات الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة تجاه الفلسطينيين. وكما قال عاموس إيلون، «ليس ثمة حاجة للإرهاب والقتل لكي نقول إن للفلسطينيين قضية»[109]. لغاية التسعينات رفضت أغلب الحكومات العربية الاعتراف بإسرائيل تحت أي ظروف، بالمقابل رفضت إسرائيل الاعتراف بوجود الفلسطينيين شعباً منفصلاً يستحق حق تقرير المصير وحكماً ذاتياً حقيقياً.

لو كانت إسرائيل قد احترمت اتفاقيات جنيف وأبقت الاحتلال العسكري للضفة الغربية وقطاع غزة بانتظار معاهدة سلام من دون زرع مستوطناتٍ غير شرعيةٍ هناك، لاستطاعت الرد بإيجابية على المقترحات العربية التي جاءت لاحقاً للاعتراف بها وعقد الصلح معها ضمن حدود 1967، مثل مقترحات الملك حسين في الأردن خلال السبعينات والأمير عبد الله في السعودية عام 2002[110]. ولكانت إسرائيل في موقف يسمح لها بالتفاوض بسرعة وصدق على أساس اتفاقيات أوسلو، وللتركيز على وضع ضمانات دولية لأمن إسرائيل وتخلي الفلسطينيين عن حق العودة.

بدلاً من ذلك، تشتت أوسلو في مزايدات لا نهاية لها في حين توسعت المستوطنات أكثر فأكثر، ما خلق لدى الفلسطينيين شعوراً بأن العملية كلها هي تكتيك للتأجيل لإتاحة الفرصة لسرقة المزيد من الأراضي منهم. وهذا ما ساهم بشكل كبير في القرار الفلسطيني المأساوي لرفض مقترح باراك للسلام في تموز/يوليو 2000، ومقترح

(109) Elon, *The Israelis: Founders and Sons*, p. xiii.

(110) Benvenisti, «The Turning Point in Israel».

كلينتون في كانون ثاني/يناير 2001، وكارثة الانتفاضة الثانية[111].

«معاداة السامية» وكراهية العالم

إن المبالغة المنهجية للوبي إسرائيل في الولايات المتحدة عن درجة التهديد الجيوبوليتيكي المعاصر لإسرائيل رافقت الحملة التي قامت في البلدين والزاعمة أن دوافع النقد الموجه لإسرائيل هو معاداة السامية. كما قيل أيضاً إنه يعكس موجة كبرى من معاداة السامية الجديدة في أوروبا وحول العالم ترتبط بشكل وثيق بكراهية أمريكا. أو كما ورد في عنوان مقالة كتبها مانفرد غيرستنفيلد: «معاداة السامية: جزء لا يتجزأ من الثقافة الأوروبية»[112].

---

(111) حول خلفية فشل المفاوضات في 2000 و2001، انظر النقاش على صفحات *New York Review of Books* بين مختلف المشاركين في المفاوضات، انظر: Hussein Agha and Robert Malley, «Camp David: The Tragedy of Errors,» *New York Review of Books*, vol. 48, no. 13 (August 2001).

والرسائل المتبادلة في دينيز روس (Dennis Ross) وغيدي غرينشتاين (Gidi Grinstein) في العدد نفسه من المجلة. انظر أيضاً: Benny Morris, «Camp David and After: An Exchange (1. An Interview with Ehud Barak),» *New York Review of Books*, vol. 49, no. 10 (June 2002), and Ehud Barak and Benny Morris, «Camp David and After - Continued,» Reply by Hussein Agha and Robert Malley, *New York Review of Books*, vol. 49, no. 11 (June 2002).

وحول دور توسيع المستوطنات خلال التسعينات في لغم اقتناع الفلسطينيين بعملية السلام، انظر: Christison, *Perceptions of Palestine: Their Influence on U.S. Middle East Policy*, pp. 300 ff., and Deborah Sontag, «Quest for Middle East Peace and How and Why it Failed,» *New York Times*, 26/7/2001.

(112) Manfred Gerstenfeld, «Anti-Semitism: Integral to European Culture,» *Post Holocaust and Anti-Semitism* (Jerusalem), no. 19 (April 2004); Nidra Poller, «Betrayed by Europe: An Expatriate's Lament,» *Commentary*, vol. 117 (March 2004), and Mark Strauss, «The New Face of Anti-Semitism,» *Foreign Policy*, vol. 82, no. 6 (November - December 2003).

التاريخ الهمجي لمعاداة السامية الذي كان الهولوكوست ذروته، يجعل لهذا الموضوع خطورة أخلاقية لا مثيل لها، فالاتهام بمعاداة السامية هو اتهام يجب أن يحمل وزناً أخلاقياً ساحقاً. من المؤكد أن ثمة نتائج خطيرة قد تحصل لشخصية أكاديمية أو عامة في الولايات المتحدة إن هي اتهمت بمعاداة السامية ما يضيف للأمر خطورة بالغة. لسوء الحظ لا يعالج موضوع معاداة السامية في الولايات المتحدة اليوم بالجدية اللازمة. هكذا فإن أندرو سوليفان رئيس التحرير الأسبق لصحيفة **نيوريبوبلك**، هاجم معارضي حرب العراق بهذا الطريقة: «حركة مناهضة الحرب في أمريكا، لا تزال ضئيلة وتنازع، وقد بدأت تظهر عليها آثار الاختطاف على يد أقدم أنماط التعصب وأكثرها ظلمةً. ربما كان لا يمكن تحاشي ذلك. من الواضح أن الصراع ضد الفاشية الإسلامية تعيدنا مرة أخرى إلى مسألة إسرائيل. لقد وصل التعصب المعادي للسامية، لمِثل السوء الذي كان عليه في زمن هتلر أو أسوأ منه، إذ صار نمطاً ثقافياً سائداً في الشرق الأوسط كله. ثمة لاصق مرير يوحد بين صدَّام، عرفات، القاعدة، حزب الله، إيران والسعوديين»[113].

هذه المحاولة لخلق عقدة ذنب مخيفة من خلال مبدأ الترابط لم تكن موجهة ضد النازيين الجدد الأمريكان، ولكن إلى ملايين الأمريكان العاديين، الديمقراطيين الطيبين والمواطنين الطيبين، ممن عارضوا الحرب على العراق، وعادة لأسباب تبين في ما بعد أنها صحيحة. بحسب استطلاع للرأي أجرته اللجنة الأمريكية اليهودية، فإن 54 بالمئة من اليهود الأمريكان عارضوا الحرب مع العراق، في الواقع كانت نسبة اليهود الأمريكان الذين أيدوا الحرب مع العراق

---

(113) ذكر في: Dershowitz, *The Case for Israel*, p. 232.

(43 بالمئة) وهي أقل بكثير من نسبة الأمريكيين كلهم (62 بالمئة)[114]. أما بشأن محاولة سوليفان ربط دول تختلف عن بعضها البعض، وقسم منها معادية لبعضها البعض، ومجموعات متعادية في الشرق الأوسط، فإنه يتجاهل مقترح السعودية للسلام مع إسرائيل والتصريحات الرسمية الإيرانية أن طهران سوف تقبل بأي تسوية مع إسرائيل إذا قبلها الفلسطينيون.

قول سوليفان هذا نقله بإعجاب آلان ديرشوويتز في كتابه دفاعاً عن إسرائيل، وهو يشكل جزءاً من حملة أوسع بكثير توحي أن معاداة السامية في عالم اليوم هي أعظم بكثير من أي وقت مضى منذ الثلاثينيات والأربعينات، أو حتى بالسوء الذي كانت عليه آنذاك. قال أبراهام فوكسمان من عصبة معاداة التشهير: «أنا على قناعة أننا نواجه الآن أعظم تهديد لأمن الشعب اليهودي وأمانه يشبه ما واجهناه في الثلاثينيات، إن لم يكن أعظم منه»[115]. وكتبت الناقدة من حركة تحرير المرأة الأمريكية فيليس تشيسلر: «أخشى أن تتم التضحية باليهود مرة أخرى لحساب عالم أصابه الجنون ويبحث عن كبش فداء مقدس»[116]. والتحق ممثلو اليَمين المسيحي في الولايات المتحدة بركب هذه التحذيرات[117].

---

(114) استطلاع الرأي العام الذي قام به Pew Research Center لشهر آذار/ مارس 2003، ذكر في: Foxman, *Never Again?: The Threat of the New Anti-Semitism*, p. 36.

(115) Foxman, Ibid., p. 4.

(116) Chesler, *The New Anti-Semitism: The Current Crisis and What We Must Do About it*, p. 3.

(117) George Thomas, «Does Hate Against Jews Threaten Us All?,» *Christian World News* (2 August 2002), and Marney Blom, «Christians And Jews, Arm-In-Arm Against Hate And Violence,» (Report, 28 June 2002), www.cbn.com.

تتسم هذه اللغة بحد ذاتها بالجنون، فأمريكا هي القوة العظمى الوحيدة في العالم وهي ديمقراطية ليبرالية مستقرة. وقد التزمت بدعم إسرائيل والدفاع عنها. ليس الوضع مشابهاً لما كان عليه في الثلاثينيات، كما تعارض الطبقات السياسية الأمريكية بشكل ساحق معاداة السامية بجميع أشكالها. والدول الأوروبية الرئيسية مستقرة أيضاً وديمقراطيات ناجحة، ويتمتع فيها اليهود بالحقوق نفسها التي يتمتع بها بقية المواطنين. ومع استثناءات قليلة، مثل النمسا، فإن الأحزاب المعادية للسامية ضئيلة وهامشية وحتى غير قانونية. وقد تقزم الشعور بمعاداة السامية مقابل كراهية المسلمين حتى بين الأحزاب اليمينية المتطرفة الكبيرة، مثل الجبهة الوطنية في فرنسا والديمقراطيين الليبراليين في روسيا. في الواقع، يبدو أن الأقليات المسلمة قد أخذت بالفعل دور «الآخرين» الغرباء والمكروهين في تفكير الجناح اليميني الأوروبي. وتقوم بعض العصابات من هذه الأقلية المسلمة بهجماتٍ على اليهود في أوروبا، في حين تجد الجماعات المسلمة نفسها هدفاً لهجوم عصابات الجناح اليميني من أغلبية السكان الأوروبيين. هذا الوضع مقلق ومخجل، لكنه لا يشبه وضع الثلاثينيات.

وقد شجب قادة الأحزاب السياسية الرئيسة في هذه الدول مراراً وتكراراً معاداة السامية؛ كما أن برامجها أو أيديولوجياتها لا تحمل أي تشابهٍ مع النازية أو أياً من حركات اليمين المتطرف قبل عام 1945. من المؤكد أن المشروع الأوروبي برمته، بضمنه توسيع الاتحاد ليشمل الكتلة السوفياتية السابقة، كان يرتكز على أساس رفض تلك الجرائم والأخطاء الماضية. بالرغم من وجود نزعة تاريخية من معاداة السامية في بعض قطاعات اليسار الأوروبي، إلا أن الأغلبية الساحقة من الجناح اليساري الأوروبي الأكثر أهمية من

الناقدين لإسرائيل - من بينهم العديد من اليهود الأوروبيين - لا يخطر ببالهم أبداً التفكير في إدخال أي إجراءات، مهما كانت بسيطة من معاداة السامية كما كانت سائدة في الماضي إلى بلدانهم. خطوات مثل الحد من دخول الجامعات أو الاستبعاد من المؤسسات الاجتماعية الرئيسية غريب تماماً عن تقاليدهم وأيديولوجيتهم التي تؤكد الانفتاح والمساواة لجميع الأعراق والعناصر والأديان.

هكذا وضمن سياق تشويه صورة اليسار الفرنسي المعاصر بكونه معادياً للسامية، نسي النقاد الأمريكان أن اليسار هو من دافع عن دريفوس واليهود الفرنسيين ضد قضاتهم من الجناح اليميني المعادي للسامية، وأن ثلاثة رؤساء وزارات اشتراكيين في فرنسا كانوا يهوداً. ومع حقيقة وجود بعض معادي السامية بين اليسار، إلا أن العداء التاريخي لليسار الفرنسي لم يكن المعاداة للسامية، بل معاداة رجال الدين عموماً. ومهما كان ما زعمه الكاتب غابريل شونفيلد، فإنه لا يوجد في الواقع «انسجام تام... بين الكراهية المعادية لليهود والاستعداد الأيديولوجي العام لليسار الأوروبي المعاصر»[118].

ليست روسيا ديمقراطية مستقرة بالطبع، لكن حتى هناك فقد شجبت الحكومة معاداة السامية وسعت لإقامة علاقات طيبة مع إسرائيل. أدى ذلك إلى علاقات ممتازة بين فلاديمير بوتين وناتان

---

(118) Paul Berman, *Terror and Liberalism* (New York: Norton, 2003), pp. 166 ff. and 186-189; Gabriel Schoenfeld, «Israel and the Anti-Semites,» *Commentary*, vol. 113, no. 6 (June 2002); Hillel Halkin, «The Return of Anti-Semitism,» *Commentary*, vol. 113, no. 2 (February 2002); Robert S. Wistrich, «The Old-New Anti-Semitism,» *National Interest*, no. 72 (Summer 2003); Edgar M. Bronfman and Cobi Benatoff, «Is Darkness Falling on Europe Again,» *Financial Times*, 19/2/2004, and Ruth R. Wisse, «Israel on Campus,» *Wall Street Journal*, 13/12/2002.

شارانسكي (المنشق السوفياتي السابق الذي صار سياسياً إسرائيلياً متطرفاً). كما يشغل اليهود الروس مواقع قيادية في الدولة والاقتصاد. منذ سقوط الاتحاد السوفياتي شغل ثلاثة روس من أصل يهودي رئاسة وزراء روسيا: سيرغي كيرينكو، ويفجيني بريماكوف، وميخائيل فرادخوف. كيف يمكن إجراء مقارنة عقلانية لوضعٍ مثل هذا مع عالم هتلر، وموسوليني، وستالين وأنتونيسكو؟

مثل هذه التهم هي في جانب منها طبيعية وتلقائية، تنبع من التاريخ المخيف لاضطهاد اليهود الذي بلغ ذروته في الهولوكوست. هكذا يلاحظ سايمور مارتن ليبسيت أنه عام 1985، وبحسب استطلاع للرأي، كان أغلبية اليهود الأمريكيين في سان فرانسيسكو على قناعة تامة أن ليس ثمة يهودي يمكن انتخابه لكونغرس الولايات المتحدة عن ولاية سان فرانسيسكو، لكن في واقع الحال فأن أعضاء الكونغرس الثلاثة كانوا من اليهود الأمريكان إضافة إلى عضوين في مجلس الشيوخ فضلاً عن المحافظ![119]

وبكلمات أرفينغ هاو الوثيقة الصلة بالمشاعر الأوسع نطاقاً من الشعور الوراثي بالهزيمة والاضطهاد بين كثير من الأمريكان، والتي وصفها في كتابه:

تطاردهم شياطين التاريخ الحديث، كان أغلبية المهاجرين وأكثرية أطفالهم يحتفظون بخوف ما، في مكان ما من عقولهم، من أن معاداة السامية قد تعود من جديد لتصبح مشكلةً جدية في أمريكا. في أواسط القرن، أصبح أقل من خوف قائم بقدر كونه اقتناعاً بأنهم **يجب** عليهم المحافظة على هذا الخوف، فكل التجربة السابقة تؤكد ضرورة التنبه للخطر بالرغم من عدم وجود سبب مباشرٍ للقلق. . .

---

(119) Seymour Martin Lipset, *American Exceptionalism: A Double-Edged Sword* (New York: W. W. Norton, 1976), p. 172.

من المهم القول هنا إنه حتى في أواسط القرن العشرين، فإن كثيراً من اليهود الأمريكان، وبخاصة أكثرية المهاجرين من أوروبا الشرقية، ما زالوا **يشعرون** شعور الخاسرين. إن استطاعوا شراء بيت، أو الانتقال إلى الضواحي، أو إرسال طفل من أطفالهم إلى الجامعة لم يكن هذا كافياً لمحو هذا الشعور. العداء الأسود.. كان مرتبطاً في عقولهم مع احتمال عودة ظهور معاداة السامية الشاملة والعداء المرئي للعرب تجاه إسرائيل. ومن يستطيع التمييز، في ردود الفعل المماثلة، بين الإنذار المبرر وبين تجاوزات «عقدة الاضطهاد»؟[120]

تستغل الاتهامات بالعداء للسامية أيضاً بوعي بوصفها جزءاً من استراتيجية محاول إخماد أصوات من ينتقد إسرائيل. وهذا ما اعترف به نورمان بودهوريتز، وناثان بيرموتة، وإيرفنغ كريستل الذين دعوا إلى العفو عن التصريحات المعادية للسامية من طرف المحافظين المسيحيين مثل بات روبرتسن لأنها صادرة عن مؤيدين لإسرائيل: «بعد كل شيء، لماذا يهتم اليهود بأمور لاهوتية يقولها واعظ أصولي وهم غير مؤمنين ولا للحظة أنه يتحدث بأي سلطة عن مسألة سماع الرب لصلاة البشر؟ وما أهمية مثل هذه الأمور اللاهوتية التجريدية أمام الواقع اليومي القائل إن الواعظ نفسه مؤيدٌ متحمسٌ لإسرائيل؟»[121]

---

(120) Howe, *World of Our Fathers: The Journey of the East European Jews to America and the Life They Found and Made*, pp. 630-632.

انظر أيضاً عرض روبرتا فيورلخت المُحبِط حول كيفية بروز الهولوكوست كسبب لمخاوف اليهود من السود أثناء المناقشات التي جرت بين اليهود والسود في نيويورك في السبعينات من القرن العشرين، وذلك أمام دهشة وغضب ممثلي السود المعتدلين يومها، في: Feuerlicht, *The Fate of the Jews: A People Torn between Israeli Power and Jewish Ethics*, pp. 206-215.

(121) Irving Kristol, «The Political Dilemma of American Jews,» *Commentary* (July 1984); Michael Lind, *Up from Conservatism: Why the Right Is* =

أو حسبما قال بالموتة: «هل هو مفيد لليهود؟ إن كان الجواب مرضياً، أواصل طريقي نحو الأمر اللاحق. . . يمكن لليهود العيش مع كل الأولويات المحلية لليمين المسيحي التي يختلف معهم فيها اليهود الليبراليين بشكل جذري لأن أياً منها غير مهم بالنسبة لإسرائيل»[122].

اللوبي الإسرائيلي، مثله مثل اليمين القومي الأمريكي، له اهتمام خاص بالأساتذة الجامعيين في الولايات المتحدة، وهم الشريحة المهمة في مجتمع الولايات المتحدة حيث يجري حوار حقيقي وجاد حول هذا الموضوع[123]. هنا لابد من القول إنه، كما في أوروبا، فإن الجناح اليساري والمجموعات العربية في الجامعات كثيراً ما يقومون بنشاطات خطابية أو عملية لا تقتصر على كونها معادية لإسرائيل لكن في بعض المناسبات معادية للسامية[124]. قيل

Wrong for America (New York: Free Press, 1996), pp. 99-120, and David Harry = Bennett, *The Party of Fear: From Nativist Movements to the New Right in American History* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, [1989]), pp. 423-425.

(122) Nathan Perlmutter and Ruth Ann Perlmutter, *The Real Anti-Semitism in America*, pp. 154-155; Shindler, «Likud and the Christian Dispensationalists A Symbiotic Relationship,» and David Frum, *Dead Right* (New York: Basic Books, 1994), pp. 159-173.

(123) Jonathan S. Kessler and Jeff Schwaber, *The AIPAC College Guide: Exposing the Anti-Israel Campaign on Campus*, AIPAC Papers on U.S.-Israel Relations; no. 7 (Washington, DC: American Israel Public Affairs Committee, 1984).

(124) حول النقد الجارح والمبرر غالباً من الجناح اليساري لإسرائيل خلال الحرب الباردة، انظر: Conor Cruise O'Brien, *The Siege: The Saga of Israel and Zionism* (New York: Touchstone Books, 1986).

حول هذا الجانب من الممارسة السياسة في الجامعات الأمريكية: إن «الكثير من الخطابات لها صبغة غير فكرية تثير نفور السامع. يتسم الخطباء بالصوت المرتفع في إدانتهم للسياسات الأمريكية والإسرائيلية، لكنهم يفتقدون إلى القوة الأخلاقية والفاعلية السياسية حين يحافظون على الصمت المطبق بشأن الإرهاب والدكتاتورية في الشرق الأوسط وغيره»[125].

المدرسون والإداريون الأمريكيون في الجامعات حيث تجري مثل هذه الدعاية عليهم واجب مكافحتها وكبحها عند اللزوم. لكن مهما كان النفور الذي تخلقه هذه التجاوزات الخطابية فإن القوى التي تقوم بها تظل عاجزة تماماً خارج الحدود الضيقة لبعض جامعات الولايات المتحدة، ولا سيطرة لهم حتى هناك. ولا وجود لهم أبداً في عالم السياسة واللوبيات وخزائن الأفكار في واشنطن، بحسب علمي. ولا يمكن مقارنة نفوذهم بأي شكل من الأشكال مع قوة اللوبي الإسرائيلي بتأثيره في المجتمع والسياسة والحكومة في أمريكا[126].

يبدو أحياناً أن أهم دور لهم هو استغلالهم من قبل أنصار إسرائيل في الغرب مثل «خيال المآتة» الذين يسهل دحض طروحاتهم المتطرفة واستغلالها بوصفها تكتيكاً يحول دون مناقشة الطروحات

(125) David Corn, «The Banning of Rabbi Lerner,» *Nation* (10 February 2003), thenation.com.; Michael Lerner, «The Antiwar Anti-Semites,» *Wall Street Journal*, 12/2/2003, and David Friedman, «Democracy and the Peace Movement,» and Joel Kovel, «Anti-Semitism on the Left and the Special Status of Israel,» *Tikkun*, vol. 18, no. 3 (May - June 2003).

(126) Joshua Micah Marshall, «The Orwell Temptation: Are Intellectuals Overthinking the Middle East?,» *Washington Monthly* (May 2003).

الجادة لليبراليين والوطنيين الإسرائيليين مثل بورغ عوز، ويوسي بيلين، والجنرال شلومو غازيت[127]. وكما قال عكيفا إلدار، في الصحيفة الإسرائيلية هآرتس: فإنه «من الأسهل بكثير الزعم أن العالم كله ضدنا من الاعتراف بأن دولة إسرائيل التي قامت بوصفها ملجأ اليهود ومصدر فخرهم، لم تقتصر على التحول إلى مكانٍ أقل يهوديةً وأماناً لمواطنيها، لكنها صارت أيضاً مصدراً حقيقاً للخطر ومصدر حرج مخجل لليهود الذين اختاروا العيش خارج حدودها. حين نقول إنه لابد من معادٍ للسامية لكي نتهم سياسات حكومة إسرائيل عام

---

(127) حول استخدام «رجال القش» من قبل رجال دعاية اللوبي الإسرائيلي، انظر: Dershowitz, *The Case for Israel*.

لقد بني هذا الكتاب حول مقترحات متنوعة، من الواضح أن بعضها تم اختياره بعناية بسبب سهولة دحضه (مثل «هل بدأت إسرائيل حرب الأيام الستة؟» و «هل إسرائيل هي أهم من يخرق حقوق الإنسان في العالم؟») من بينها اثني عشر من طروحات أدوارد سعيد وثمانية من طروحات نعوم تشومسكي. واحدة منها من ليونيد برجنيف وليس من بينهم ـ على حد علمي، أحد من الأصوات النافذة اليوم في النقاش المتعلق بإسرائيل وفلسطين. إلى جانب أربعة عن ناشط السلام الإسرائيلي إيلان بابي (Ilan Pappe)، وليس بينها واحد إسرائيلي. ولا يظهر قط اسم آموس عوز، ميرون بنيفينستي (Meron Benvensiti) أو أي من الشخصيات من الوسط الإسرائيلي ممن يوجهون النقد لاحتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة. ومع أن أحد تلك الطروحات قد جاء باسم رابي ميشال ليرنير (Rabbi Michael Lerner) لكن لم يقدم أي من النقاد الأمريكان الليبراليين البارزين لدعم الولايات المتحدة غير المشروط لإسرائيل، كما عرضته *New York Review of Books* مثلاً. أناس مثل عوز في إسرائيل، من المؤيدين بشدة لحق إسرائيل في الوجود والدفاع عن نفسها ضمن حدودها في 1967. مسألة رفض الفلسطينيين لمقترحات السلام التي تقدم بها باراك وكلنتون قد وضعت بصيغة الأبيض والأسود («هل كان عرفات على حق برفض مقترح السلام باراك-كلنتون؟») وكان السؤال موجها لتشومسكي وليس للسفير روبرت مالاي (Robert Malley) أو أي من الإسرائيليين أو الأمريكان من المعتدلين الذين حاولوا التخفيف من حدة السؤال. التأثير الإجمالي هو بالطبع لخلق الانطباع بكراهية هستيرية إزاء إسرائيل لا يخفف منها أي دعم أو تعاطف. قد يكون هذا النهج صالحاً ليتبعه محامي عديم الشفقة في قاعة المحكمة، لكن هل هو منهج مقبول لأستاذ القانون في واحدة من أبرز الجامعات الأمريكية، فتلك مسألة مختلفة.

2003 بأنها تشكل خطراً على السلام العالمي فإن هذا تحقير مهين لتعبير معاداة السامية»[128].

إن حملة وسم من ينتقد إسرائيل بأنه معادٍ للسامية وخلق صورة وحشية كريهة ومخيفة لموجة معاداة السامية في أوروبا والعالم لها تأثير في الولايات المتحدة يتجاوز بكثير القضايا المحددة ذات العلاقة. إنها تساهم في زيادة سعة العداء الأمريكي، واسع النطاق أصلاً، للعالم الخارجي؛ وما يجعلها أكثر سوءاً هو مستويات الجهل التي وصفناها في الفصل الثاني. لو حكمنا بحسب تعليقات أساتذة الجامعات الذين تحدثت معهم، فإن أغلبية الطلبة الأمريكيين قد تختصر تاريخ فرنسا على قضية دريفوس وحكومة فيشي فقط، وكل تاريخ ألمانيا قبل عام 1945 يقتصر على الهولوكوست، وإن كل تاريخ روسيا يقتصر على القوزاق وحملات قتل اليهود.

من المؤكد أن كراهية إسرائيل قد امتدت لتشمل كراهية اليهود بشكل عام في العالم الإسلامي وبين مجموعات المهاجرين المسلمين في أوروبا؛ وتتغذى هذه الكراهية بالأساطير المعادية للسامية التي يعاد تدويرها من أكثر صفحات تاريخ أوروبا ظلمة. يجب مكافحة هذا الاتجاه بوصفه جزءاً من المجهود العام لإحلال السلام في الشرق الأوسط، ولتحسين مستوى التعليم والخطاب العام، ولوضع أسس الديمقراطية والمساعدة في تطويره بطرق أخرى، وبالنسبة لأوروبا،

(128) Akiva Eldar, «From Refuge for Jews to Danger for Jews,» *Ha'aretz*, 3/11/2003; M. J. Rosenberg, «Confusing Criticism with Anti-Semitism,» *IPF Friday* (6 February 2004); Judith Butler, «No, it's Not Anti-Semitic,» *London Review of Books*, vol. 25, no. 16 (August 2003), and Henry Siegman, «If Israel's Policies Are Unjust, We Should Say So,» *Financial Times*, 10/2/2004.

للمساعدة في دمج المهاجرين المسلمين في المجتمعات الغربية[129].

إن استغلال هذه القناعات الشريرة بوصفها وسيلةً لتخليص إسرائيل من تحمل أي مسؤولية لأفعالها هو خطأ بدوره ـ وسيئ لإسرائيل نفسها ـ مثلما هو القول إن وجود معاداة لأمريكا في العالم سيظل موجوداً مهما فعلت الولايات المتحدة. إذ تشير الأدلة كلها مثلاً إلى أن اندلاع أعمال العنف المعادية للسامية على يد المسلمين في فرنسا كانت نتيجة مباشرة لما رأوا من فظائع ارتكبتها إسرائيل ضد الفلسطينيين. قد تكون رؤيتهم للفظائع بها شيء من المبالغة، لكن السلوك الإجرامي كان رد فعل لأحداث وقعت، فضلاً عن كونها ناتجٌ مغلفٌ بخلفية فكرية.

من الواضح تماماً أنه في حين أن تعصب المسلمين ضد «الكفار» اليهود والمسيحيين (تعصب لو أخذناه تاريخياً فهو أقل بكثير مما هو ضد الهندوس وغيرهم من «المشركين») كان موجوداً في الماضي، إلا أن معاداة السامية الحديثة في العالم الإسلامي قد نتجت بشكل ساحق عن خلق دولة إسرائيل وجرائمها الحقيقية أو المزعومة ضد الفلسطينيين. رداً على الاتهامات التي أوردها ديرشوويتز وغيره القائلة إن الأمر معكوس، وإن معادة السامية لدى المسلمين هي التي قادت إلى مشاعر معاداة إسرائيل، رد برايان كلوغ، العالم والعضو المؤسس للمحفل اليهودي للعدالة وحقوق الإنسان، بأن اقترح سؤالاً افتراضياً معاكساً: ماذا لو تأسست دولة في فلسطين على يد مستوطنين مسيحيين أوروبيين، كما في الجزائر الفرنسية؟ أما كان العالم الإسلامي سيعارضها بالدرجة نفسها بالعنف نفسه؟ وفي مثل

(129) Romano Prodi (President of the EU Commission) in: *Financial Times*, 19/2/2004.

هذه الظروف، هل كانت ستوجد أي درجة قوية من معاداة السامية في العالم الإسلامي؟[130]

ومن جهة مقابلة، ومن قبيل التعويض العادل عن الهولوكوست، لو أن أراضي ألمانيا الشرقية على خط أودر ـ نيسة أعطيت إلى اليهود لتأسيس دولتهم عام 1945 بدلاً من تقسيمها بين بولندا والاتحاد السوفياتي، فهل كان المسلمون أو غيرهم في العالم (باستثناء الألمان وبعض البولنديين) سيواجهون ذلك بالشجب على أنه قرارٌ ظالم أو جريمة يهودية؟ في هذه الحال، هل كنا سنشهد موجة من معاداة السامية بين المسلمين؟

كما يطرح كلوغ أن العداء ضد إسرائيل في العالم النامي والخاضع سابقاً للاستعمار (المؤدي إلى التصويت المتكرر في الأمم المتحدة بإدانة إسرائيل والقرار سيئ الذكر ـ الذي ألغي لاحقاً ـ بالمساواة بين الصهيونية والعنصرية)، مع أنه تلوّن بالعداء للسامية، إلا أنه نابع بالأساس من مشاعر معادية للاستعمار، وأن له علاقة بالعداء للمستعمرين الغربيين وللظروف التي أدت إلى ولادة إسرائيل تحت الحكم الإمبراطوري البريطاني.

قد يكون الكثير من هذا النهج اليساري المعادي للاستعمار ضد إسرائيل خطأً وقد يثير السخرية وقد يكون حتى شريراً. وقد يصح هذا أيضاً على قسم كبير من سياسات «معاداة الاستعمار» وخطابها عموماً، سواء في الماضي أم الآن. لكن الاستخدام المنفر والساخر لهذا الخطاب من قبل رئيس زمبابوي روبرت موغابي، أو حكام بورما لا يتم بغاية الإساءة للجانب الإيجابي الواعي والباني للدولة،

(130) Brian Klug: «The Collective Jew: Israel and the New Antisemitism,» *Patterns of Prejudice*, vol. 37, no. 2 (June 2003), and «The Myth of the New Anti-Semitism,» *Nation* (2 February 2004).

في نزعة العداء للاستعمار التي مثلها نهرو في الهند أو مانديلا في جنوب أفريقيا: إن فشل المهيمنين في الولايات المتحدة في فهم أن جذور معاداة الاستعمار الكامنة في معاداة إسرائيل في كثير من بقاع العالم لها تأثيرات أوسع بكثير من إثارة الكراهية لدى الرأي العام العالمي. كما إن ذلك يساهم في عمى أمريكي حيال الأسباب التي تدفع العديد من المستعمرات السابقة حول العالم التي لا سبب لديها لتكون معادية لأمريكا، لأن تكون معادية بعمق لفكرة التدخل العسكري الأمريكي (أو الغربي) في الدول الأخرى أو لأي إشارة «لمهمات حضارية» (Civilizing Missions) غربية جديدة.

لكن الضرر الواقع من جانب جزء كبير من الخطاب الراهن في الولايات المتحدة المتعلق بمعاداة السامية يؤدي إلى نتائج أبعد بصيغة زيادة العداء للمسلمين والأوروبيين وغيرهم، وبالتالي فإنه يضر بالحرب على الإرهاب. كما يؤدي إلى تآكل الثقافة السياسية الأمريكية عموماً من خلال توسيع القومية، عقدة الاضطهاد، الغرور، الكراهية وانعدام العقلانية. حين يكون الناس معادين للسامية من دون معرفة ماهيتها ومن دون أن تكون لديهم معرفة أو إيمان بأي شيء يمكن أن يكون موازياً تاريخياً لمعاداة السامية؛ حين يصبح الجنود الإسرائيليون الحاملين نياشين عالية خونة أو «كارهي ذواتهم اليهودية»؛ وحين تفقد معاداة السامية كل محتواها التاريخي أو الثقافي، وتصبح نوعاً من البخار العفن الذي يطفو من دون تغيير عبر القرون؛ حين يطرحون القول: «إن اضطهاد اليهود بدأ مع العرب قبل الإسلام في القرن الثالث قبل الميلاد»، حينذاك تكون هذه هي نهاية النقاش العقلاني[131].

---

(131) Chesler, *The New Anti-Semitism: The Current Crisis and What We Must Do About it*, p. 33, and Jerome A. Chanes, *A Dark Side of History: Antisemitism Through the Ages* ([New York]: Anti-Defamation League, 2000).

بكلمات حنا آريندت عام 1945، والتي تظل صحيحة عام 2004: «هكذا هرب الصهاينة من الساحة الفعلية للمعركة إلى عقيدة حول أبدية معاداة السامية تحكم العلاقات بين اليهود و«غير اليهود (Gentiles)» (الأغيار) في كل مكان وكل زمان، وبشكل رئيس عن مسؤولية بقاء الشعب اليهودي على قيد الحياة. هكذا يكون الطرفان [أي الصهاينة من جهة والداعون للاندماج من جهة أخرى] قد خلصوا أنفسهم من المهمات الشاقة لمحاربة معاداة السامية على أرضها، وهي السياسة، وحتى من المهمة غير المريحة في تحليل أسبابها الحقيقية»[132].

ولأنه لا يمكن إثبات أو نفي مثل هذه التهم بمعاداة السامية، وذلك بسبب طبيعتها، وانعدام القدرة على إثباتها بالأدلة القاطعة، فإنها تؤدي بالنقاش بعيداً عن المناطق النيّرة للنقاش العقلاني العام، وتقوده نحو الأروقة الضيقة لعقدة الاضطهاد ونظريات المؤامرة، والأرواح الشريرة والشياطين، وهي مناطق مظلمة من العقل حيث كانت في الماضي أرضاً خصبةً لنشوء جنون معاداة السامية.

القومية والدمقرطة

حين توجه هذه القناعات والاتهامات نحو العالم الإسلامي يكون تأثيرها رهيباً في قدرة أمريكا لشن حربٍ ناجحةٍ ضد الإرهاب،

---

(132) مفهوم العداء للسامية، الأبدي وغير القابل للتغير، كان الجوهر الأساس لكثير من فلسفة الصهيونية وهو أقدم بكثير من النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني الراهن تداعياته، انظر: Arendt, «Zionism Reconsidered,» p. 225; Howe, *World of Our Fathers: The Journey of the East European Jews to America and the Life They Found and Made*, p. 25, and Halsell, *Prophecy and Politics: Militant Evangelists on the Road to Nuclear War*, pp. 131 ff.

ناهيك عن جلب الديمقراطية إلى الشرق الأوسط[133]. من المؤكد أن أغلبية الخطاب حول الأمر الأخير في اليمين الأمريكي وبين أوساط أنصار إسرائيل في الولايات المتحدة يتسم بتناقضات أخلاقية ومنطقية عميقة ومثيرة للنفور.

في العلاقة بين سياسات دعم إسرائيل ودمقرطة الشرق الأوسط يكون التصادم بين الأطروحة الأمريكية ونقيضها في ذروته وأقصى مداه وأكثره خطورةً. هذا مزيج يبدو غير قابل للتغيير تحت حكم الديمقراطيين أيضاً، لسوء الحظ[134]. ثمة إيمان بضرورة تطوير الشرق الأوسط ومن ثم دمقرطته إن أريد دحر الإرهاب والتطرف هناك، وهذا صحيح ويستحق الثناء[135]. لكن عدم القدرة واسعة الانتشار على إعادة النظر بموضوع علاقة الولايات المتحدة مع إسرائيل بوصفها جزءاً من هذا الجهد يضر به بشكل قاتل ليس في نظر العرب وحسب، لكنه أيضاً يضيف إلى تشوش الفكر الأمريكي في ما يتعلق بالأسس الضرورية للحداثة، والتي تشكل القومية أحد أهمها.

---

(133) للإطلاع على رأي متوازن في النقاش حول الدمقرطة والحرب على الإرهاب، انظر: Thomas Carothers: «Democracy: Terrorism's Uncertain Antidote,» *Current History*, vol. 102, no. 668 (December 2003), and «Is Gradualism Possible? Choosing a Strategy for Promoting Democracy in the Middle East,» (Carnegie Endowment Working Paper; no. 39, Carnegie Endowment for International Peace, June 2003).

(134) انظر جيرارد بايكر (Gerard Baker) حول أفكار جون كيري (John Kerry) في السياسة الخارجية، في: *Financial Times*, 12/3/2004.

(135) في حين يتبنى فيليب جوردن (Phillip Gordon) نبرة الشك المنطقي فيما يتعلق بخطاب إدارة بوش، لكنه يصرح في الوقت نفسه بضرورة تغيير شيء ما، انظر: Philip Gordon, «Bush's Middle East Vision,» *Survival*, vol. 45, no. 1 (Spring 2003).

من بين ما تجاهر الولايات المتحدة بتحقيقه هو الديمقراطية في المنطقة، ولكن اتسم تعامل الإدارات الأمريكية والكثير من الطبقة السياسية في الولايات المتحدة والإعلام فيها بازدراء صريح إزاء الرأي العام للأغلبية الواسعة من العرب في ما يتعلق بالنزاع الإسرائيلي - الفلسطيني واستراتيجية الولايات المتحدة في المنطقة. وقد جرى الزعم بأن هذه المشاعر هي نتيجة تلاعبٍ معيبٍ من النخب العربية، ولكن حين قالت وسائل الإعلام العربية الحرة نوعاً ما، والحديثة والليبرالية، مثل **قناة الجزيرة** بنقل الآراء نفسها، فإنها لقيت الشجب نفسه. وفي ما يتعلق بالمواقف إزاء إسرائيل، فإن العرب العاديين يعاملون في أفضل الأحوال على أنهم مضلَلون وخرافٌ جاهلة، وفي أسوأ الأحوال على أنهم يمتلئون بالشر البدائي اللاعقلاني.

والحال أن هذه هي الشعوب هي التي تجاهر إدارة بوش بالرغبة في جلب الديمقراطية لها وتصرح بأنها **مستعدة** للديمقراطية. في هذه الأثناء تتحاشى الكثير من الافتتاحيات والمقالات والكتب التي تدعو لدمقرطة الشرق الأوسط التطرق لمسألة معاملة إسرائيل للفلسطينيين، وحين تدين هذه المعاملة فإنها تفعل ذلك باختصار وبكلمات شكلية في حين أنها تكرس مساحة أوسع بكثير للحديث عن معاداة العرب للسامية، أو إنها تتجاهل الأمر برمته، أو ببساطة تأخذ جانب إسرائيل[136].

في كتاب من 214 صفحة عن أيديولوجية الشمولية الإسلامية وجذورها، وفيه إدانة مريرة لعدد من الأهداف المسلمة ولقطاعات واسعة من اليسار الأوروبي، يكرس بول بيرمان الذي يزعم أنه

---

(136) Michael Ledeen, «The War on Terror Won't End in Baghdad,» *Wall Street Journal*, 4/9/2002.

ليبرالي، سطرين وحسب ليقول إن على أمريكا أن تتصرف على النقيض من «هوس اليمين المتطرف في إسرائيل»، هنا يجب أن نلاحظ أنه لم يقل ضد حكومة إسرائيل أو دولة إسرائيل. في مكان آخر يناصر بيرمان وجهة النظر التي تلقي كل اللوم في انهيار عملية السلام الإسرائيلية - الفلسطينية عام2000 - 2001 على عاتق الفلسطينيين[137].

بتصرفهم على هذا النحو، فإن أمثال هذا الكاتب يضعفون الثقة بما يكتبونه في أعين المسلمين والأوروبيين، لكن تأثيرهم أسوأ من ذلك بكثير. إذ إنهم حين يوحون للمسلمين ولغيرهم أن المثقفين الليبراليين في الولايات المتحدة التي يفترض أن تؤدي دور النموذج للديمقراطية الدولية، يدفعهم لمثل هذا الموضوع، ليس المثالية الديمقراطية الأصيلة بل شوفينية عرقية، وجبن أخلاقي أو كلاهما، فإنهم يضرون ليس بهيبة أمريكا في العالم فقط بل بالنموذج الديمقراطي الذي تسعى لنشره.

خطاب الحزبين في الولايات المتحدة عن دمقرطة الشرق الأوسط يذهب إلى لب الضعف الأكثر عمقاً في تحليل الولايات المتحدة، والمتجذر في جوانب من الثقافة السياسية الأمريكية التي بحثناها في هذا الكتاب. تميل الطبيعة المطلقة للعقيدة الأمريكية، بإيمانها الأيديولوجي بالديمقراطية والحرية، لإنتاج صيغ أثيرية تفوق العد من هذين المفهومين. يتضح هذا الاتجاه بقوة في خطاب إدارة

---

(137) Paul Berman, *Terror and Liberalism* (New York: Norton, [2003]), pp. 128-132 and 189.

وحول إغفال مماثل، انظر: Cheryl Benard, *Civil Democratic Islam: Partners, Resources, and Strategies* (Santa Monica, CA: RAND, National Security Research Division, 2003).

بوش، بحديثها عن «محبي الحرية» في كل مكان وغير ذلك. بالمقابل فإنها تجعل الديمقراطية تبدو قابلة للتطبيق في كل مكان على وجه الأرض وبسهولة أيضاً، وهذا الاتجاه يغذي المسيحانية الأمريكية ومنطق التدخل العسكري.

في داخل الولايات المتحدة اليوم، وأكثر من ذلك لو نظرنا إلى تاريخ الأمة أو الدول الديمقراطية الأخرى، يتضح أمران: لم تبرز الصيغة المعاصرة لديمقراطيتنا إلا بعد صراع طويل بين أعراق، وعنصريات ومجموعات اجتماعية مختلفة. وقد اتسم هذا الصراع في الغالب بكونه دموياً وبأنه لم يتم بأشكال ديمقراطية قط. ومثلما ذكر المؤرخ الأمريكي أريك فونر، فقد كان لمفهوم الحرية معنى مختلف جذرياً وحتى أموراً متناقضة بحسب المجموعات المختلفة من الأمريكيين، وفي أزمنة مختلفة من التاريخ الأمريكي. ثانياً، فإنه حتى اليوم تبقى المؤسسات الديمقراطية وحتى المنظومات القضائية محافل للمنافسة بين المجموعات العرقية وغيرها، ليس من أجل القوة فقط، بل من أجل ثمرات القوة بصيغ توزيع إسناد الوظائف في الدولة.

مع ذلك وحين يتعلق الأمر بالعالم خارج الولايات المتحدة، تعامل «الديمقراطية» في الأغلب ليس على أساس كونها مجموعة إجراءات، وإنما على أساس أنها هدف بحد ذاته، ليس على أنها طريقة لطرح الأسئلة بشأن الدولة والمجتمع، بل على أنها جواب لهذه الأسئلة، وجواب سريع، ما أن يتحقق حتى يتاح للولايات المتحدة الانسحاب من البلاد من جديد، تاركة وراءها حليفاً مستقراً للولايات المتحدة ويمكن الاعتماد عليه. ولهذا فإنه جزئياً بسبب هذا المناخ الذهني اقتنعت قطاعات واسعة من الرأي العام في الولايات المتحدة بدعم الحرب على العراق من خلال الطرح القائل إن هذا سوف يجلب الديمقراطية للعراق مقدمةً لدمقرطة الشرق الأوسط كله.

في هذا الخطاب، فإن المرارة التي أحست بها الأقلية السنية التي كانت متنفذة في السابق، والتوترات العرقية بين العرب والأكراد، واستمرار الشبكات الدينية الشيعية لكونها آخر منظمات المجتمع المدني التي تركها البعث الشمولي، والمنافسة بين هذه الشبكات، كل هذه الملاحظات كانت غائبة يغطي على وجودها التغني بنغمة شعارات «الديمقراطية» و«الحرية»[138].

ما هو أكثر أهمية في هذا السياق هو الطريقة التي نسي فيها عدد كبير جداً من المعلقين الترابط المتواتر والمهم بين كل من القومية وولادة سياسة الجماهير والتطور الاقتصادي - الاجتماعي الناجح. هذا التغافل نابع جزئياً من فشلٍ أوسع في التحليل لا يقتصر بأي حال من الأحوال على الولايات المتحدة وحدها. ولكن في أمريكا، وبالأخص في ما يتعلق بالشرق الأوسط، فإن الفشل في تقدير قيمة هذا الترابط قد وصل إلى درجات خطيرة.

هذه النقطة السوداء في كثير من فكر الولايات المتحدة تنبع

---

(138) Max Boot, «George W. Bush: The 'W' Stands for Woodrow,» *Wall Street Journal*, 1/7/2002; David Ignatius, «Wilsonian Course for War,» *Washington Post*, 30/8/2002; Michael Ledeen, «America's Revenge: To Turn Tyrannies into Democracies,» *New York Sun*, 12/9/2002; «No Exceptions,» *Washington Post*, 29/12/2002; Condoleezza Rice, «Transforming the Middle East,» *Washington Post*, 7/8/2003; George Melloan, «Protecting Human Rights Is a Valid Foreign Policy Goal,» *Wall Street Journal*, 10/6/2003; «A Wilsonian Call for Freedom,» *Washington Times*, 7/11/2003, and Fouad Ajami, «If Not Now, When?,» and Kenneth Pollack and Daniel Byman, «Democracy as Realism,» *Prospect: Democracy in the Middle East*, no. 85 (April 2003).

انظر أيضاً المقابلة التي أجراها جايمس هاردينغ (James Harding) وريتشارد وولف (Richard Wolfe) مع كوندوليزا رايس، ونشرت في: *Financial Times*, 23/9/2002.

جزئياً من ضبابية مفهوم الديمقراطية الذي سبق ذكره في أعلاه، وجزئياً من الصعوبة التي تعانيها الدول القومية كلها في إعطاء قوميات الآخرين حق قدرها، وجزئياً من عجز الولايات المتحدة عن التركيز على دور إسرائيل سواء في إثارة الغضب العربي، أو في تركيز الأسباب الأوسع للإحباط والنفور العربي والإسلامي على إسرائيل والولايات المتحدة: إن «الأجندة الخفية [للولايات المتحدة] التي تحظى بأكبر قدر من التغطية من الكتاب العرب هي القرار [المزعوم] للولايات المتحدة بالسماح لإسرائيل بالسيطرة على المنطقة وإعطاء رئيس الوزراء آرييل شارون «شيكاً على بياض» (Carte blanche) في التعامل مع الأراضي الفلسطينية والانتفاضة»[139].

من الصحيح كما يرى الكثير من المعلقين أن الجذور الأساسية لهذه المشاعر لدى العرب هي في الغالب لا علاقة لها أبداً بإسرائيل أو بالسلوك الإسرائيلي، فالإهانة التي يشعر بها العالمين العربي والإسلامي تجاه إسرائيل والتي تجعل غضبهم يفور إلى هذا الحد تعود جزئياً إلى كونها الإهانة الأخيرة في سلسلة هزائم في تاريخهم بدأت في القرن السابع عشر على يد المسيحيين أو العالم الغربي. والسبب المركزي لهذه الهزائم كان الانحطاط الاجتماعي - الاقتصادي والتكنولوجي للعالم الإسلامي بالمقارنة مع الغرب، وهي

(139) Marina Ottaway, «Promoting Democracy in the Middle East: The Problem of U.S. Credibility,» (Carnegie Endowment Working Paper; no. 35, Carnegie Endowment for International Peace, March 2003); Bruce Stokes and Mary McIntosh, «How They See Us,» *National Journal* (21 December 2002), and «The U. S. Image in the Islamic World,» (Institute for the Study of Diplomacy, Georgetown University, Washington, DC, 19 February 2002), dev.georgetown.edu/sfs/programs/isd/research_Islamic.

هزائم كانت بالفعل قد بدأت تنتج ردود أفعال إسلامية (سواء صوفية أو وهابية) بدأت منذ العقود الأخيرة للقرن الثامن عشر. إن الأعراض المرضية التي نتجت عن هذه الهزائم، فضلاً عن ظهور إسرائيل والولايات المتحدة مراكز للكراهية، هي التي أنتجت ظاهرة التطرف الإسلامي المعاصر والإرهاب[140].

لكن هذا القول لا يعني أن إسرائيل واحتلالها الأراضي الفلسطينية هو بشكل ما «لا علاقة له بموضوع» سلوك العرب، وإن الجذور «الحقيقية» للنفور العربي وكراهيتهم لأمريكا مختلفة، وإن أي تغيرٍ في سلوك إسرائيل لن يغير شيئاً. هذا غير صحيح بقدر القول إن القومية الفرنسية بعد عام 1871، أو القومية الألمانية بعد 1919 قد غذتها عوامل سياسية، اجتماعية واقتصادية محلية، وإن ضم ألمانيا لمنطقتي الألزاس واللورين أو الشروط المتعلقة بالأراضي في معاهدة فرساي كانت بطريقة ما «لا علاقة لها» بما حدث لاحقاً.

إذ إن من السمات المركزية للقومية هو بالذات قدرتها على أن تقتات من مجموعة واسعة من مشاعر النفور، والولاء، والهوية، والآمال والمخاوف. إن اتساع هذه القدرة في هذا المجال مع قدرتها شبه الدينية على تقديم هوية للبشر الفانين تستطيع أن تسمو فوق حيواتهم القصيرة، قد ساعدت في أعطاء القومية في أرجاء الأرض كلها أفضليتها النسبية على الاشتراكية.

كما أن القومية حاسمة الأهمية لفهم العديد من أمثلة النجاح في التقدم الاجتماعي ـ الاقتصادي في القرن العشرين، وربما في القرن الحادي والعشرين أيضاً. لهذا كثر الحديث في الولايات المتحدة عن التشابه بين «خطة» الرئيس بوش لدمقرطة الشرق الأوسط الكبير

(140) Anatol Lieven, «Strategy for Terror,» *Prospect* (October 2001).

وعملية هلسنكي التي ساهمت في سقوط الإمبراطورية السوفياتية. الفكرة هي أن الولايات المتحدة يمكنها أن تؤدي دوراً مقارباً في جلب الديمقراطية إلى الشعوب «المضطهدة» في الشرق الأوسط. والمقارنات الحقيقية التي يمكن القيام بها بين الشرق الأوسط وأوروبا الشرقية في الأعوام العشرين الماضية، هي شديدة الاختلاف في الحقيقة وفي قلبها دور القومية.

إن دروس التطور الناجح في الحرب الباردة وما بعدها في السياسة الغربية لها ثلاثة أوجه. إذ من الواضح أن الأنظمة المعنية بحاجة لأن يكون لديها سياسات اقتصادية صحيحة ودولة قوية بما يكفي لتنظيم وقيادة التنمية الاقتصادية؛ ويحتاج الغرب إلى أن يكون ثمة قومية محلية قوية تقف إلى جانبه؛ وعليه هو أن يكون مستعداً للقيام بتضحيات اقتصادية حقيقية من أجل الدول التي يرغب في مساعدتها بالتنمية.

بالمقابل، فإن الديمقراطية بحد ذاتها ليست لها أهمية مركزية، بالرغم من الأهمية الأكيدة لسيادة القانون والحرية الاجتماعية. وبعد نجاح عملية تحديث الاقتصاد، غالباً ما تلحقه الديمقراطية؛ لكن في خارج بعض أجزاء أوروبا، فإن علاقة التناسب بين الديمقراطية وعملية التحديث ضعيفة جداً.

بالمقابل فإن علاقة التناسب بين التحديث والقومية القوية الموحدة والحاسمة هي علاقة قوية جداً[141]. في داخل العالم الإسلامي كان هذا صحيحاً بشكل واضح في تركيا حيث سادت أيديولوجيا كمال أتاتورك وفرضت التحديث والتغريب على تركيا

(141) Liah Greenfeld, *The Spirit of Capitalism: Nationalism and Economic Growth* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2003).

بوسائل استبدادية. حدث هذا باسم قومية عرقية شرسة تحولت إلى عنفٍ وإبادةٍ جماعية ضد الأقليات التي ناهضت الحكم التركي على قلب الأناضول. أنشأت تركيا صيغاً ديمقراطية، لكنها ظلت لعقود عدة ديمقراطيةً مقيدةً يديرها العسكر الترك، وتقطعها تدخلات وانقلابات عسكرية. لم تأت الديمقراطية الحقيقية إلا في السنوات الأخيرة الماضية، بعد إنجاز الخطوات الحاسمة من التحديث، وهي لا تزال نبتةً ضعيفة.

كان للقومية أهمية حاسمة في تطوير اثنين من المسارح الحاسمة للحرب الباردة، الشرق الأقصى وأوروبا الغربية. في حالات تايوان وكوريا الجنوبية فقط، دعمت الولايات المتحدة النخب الاستبدادية المحلية بعامل القوة العسكرية وإحساس قوي جداً بالهدف القومي المرتبط بقوة مع خوفها من الشيوعية. في ما بعد كان هذا صحيحاً بالنسبة لتايلاند. لو أبعدنا العامل العسكري، فإن هذا يصح أيضاً على اليابان، وسنغافورة، وماليزيا. بالمقابل، ففي حال النخب المختلفة عرقياً ذات الإحساس الضعيف بالهدف القومي الموحد، تصبح التنمية أقل نجاحاً بكثير[142].

في حال أوروبا الشرقية بعد عام 1989، كان دور القومية عاملاً عظيم الأهمية في التنمية الناجحة بشكل عام في المنطقة. أغلب الدول التي يتشكل منها شرق أوروبا كان لها قوميات عرقية قوية جداً سبق وجودها بكثير الحكم الشيوعي، وصارت بالتأكيد أهم عامل في القيام بمحاولات عديدة للثورة ضد السوفيات والشيوعية.

بسبب رغبتها العامرة في التخلص من مخالب إمبراطورية

(142) Anatol Lieven, «Lessons for Bush's Mideast Vision,» *Financial Times*, 1/3/2004.

موسكو، استفادت هذه الدول بعد عام 1989 من «الدفعة» القومية شديدة القوة باتجاه الغرب. هذه الرغبة حيّدت ما كان يمكن أن يكون لولاها ميولاً قومية قوية وشعبية لمقاومة الإصلاح الاقتصادي وتفضيل الاستبداد. بالنسبة للمؤسسات الغربية والتحالفات التي رغب الأوروبيون الشرقيون والبلطيق في الالتحاق بها بشدة فهي تتحدد بالديمقراطية واقتصاديات حرية السوق. وهذا ما حقق «جذباً» بصيغ التحديث.

هذا يعني أنه في حال أوروبا الشرقية والبلطيق فقط يصح الاستخدام الأيديولوجي واللغوي لكليشة «طريق path» نحو الديمقراطية وحرية السوق. يوجد العديد من الطرق نحو التنمية في العالم أجمع، وبنتائج مختلفة. أما في حال أوروبا الشرقية وبفضل الاتحاد الأوروبي وحلف الناتو، فقد كان ثمة طريق واضحة وهدف واضح.

إن عدم قدرتهم على الاعتراف بدور القومية في تدمير الامبراطورية السوفياتية الشيوعية ساعد في الإضرار بجهود دانييل بايبس، وبول بيرمان، وغيرهما لخلق تناظرات بين صراع الغرب ضد التطرف الإسلامي وصراع الحرب الباردة ضد الشيوعية؛ وينبع عدم القدرة هذا قبل كل شيء من رفض أي إيحاء بأن إسرائيل ودعم الولايات المتحدة لإسرائيل هو مصدر الغضب العربي الشامل والقوي والحقيقي والشرعي[143]. إن الموازي الحقيقي الذي يمكن تقديمه

---

(143) لرسم صورة لمحاولات بايبس، بيرمان وغيرهم لخلق مثل هذا التوازي، انظر:
John Lloyd, «Radical Islam Sees Itself Just as Communism Did - in a Battle with a Hostile World,» *Financial Times*, 11/1/ 2003, and Joshua Micah Marshall, «The Orwell Temptation: Are Intellectuals Overthinking the Middle East?,» *Washington Monthly* (May 2003).

للحرب الباردة هو أنه كلما كانت الأحزاب الشيوعية قادرةً على الاستفادة من قوة المشاعر القومية لمحاربة الولايات المتحدة، كما حدث في فييتنام، كان الفوز فيها للشيوعيين، وحين عملت القومية المحلية ضد الحكم السوفيلتي، تحقق الفوز للغرب، لكن بعد عقود عدة[144].

وحتى أنه وجدت هناك أعمال أمريكية ذات قيمة جوهرية وعارفة ومخلصة دافعت عن عملية تطبيق استراتيجية نشر الديقراطية في الشرق الأوسط لكنها أخفقت أيّما إخفاق في مجابهة مسألة القومية. ولم تكن هذة مشكلة بالنسبة إلى إمبريالي اليبراليين القرن التاسع عشر الذين اعتقدوا بتوفير التقدم عبر الغزو وعبر الحكم الطزيل الأمد «لأجناس أدنى منا» بواسطة الدول المتمدنة، غير أنها مشكلة هائلة بالنسبة إلى ليبراليي القرن الحادي والعشرين الذين دافعوا عن فكرة نشر الديمقراطية، وبالتالي كسب الموافقة الإجماعية لأولئك الذين رغبوا في التحسين والذين قدرتهم على الغزو وعلى الاحتلال الطويل الأمد محدودة جداً. وعلاوة على ذلك، حتى ولو قبلت النموذج الإمبريالي الليبرالي، فإن سلوك إسرائيل سيظل مشكلة. دوغلاس بورش (Douglas Porch) وألاستير هورن (Alastair Horne) ومؤرخون آخرون من عهد الاستعمار الإمبراطوري الفرنسي، وصفوا تسجيلات عن «كيف أن البرنامج الليبرالي الإمبريالي لمساعي التنوير التي قامت بها الإدارة الاستعمارية الفرنسية في شمال أفريقيا قد تم تدميرها بلا توقف من قبل الجه الآخر للإمبريالية الفرنسية في المنطقة، هو وجه «الاستعمار البروليتاري»، والاستيلاء على الأرض،

---

(144) للإطلاع على نقد فشل إدارة أيزنهاور لفهم أهمية القومية، انظر: Robert J. McMahon, «Eisenhower and Third World Nationalism: A Critique of the Revisionists,» *Political Science Quarterly*, vol. 101, no. 3 (1986).

والمعاملة الوحشية لسكان البلاد الأصليين من قبل المستعمرين الفرنسيين المسمين «الأرجل السوداء»[145] (Pied noir).

النقطة المهمة الأخرى بشأن نقاط التوازي بين العالم الشيوعي السابق والشرق الأوسط هو أن التنمية الاقتصادية والديمقراطية في أوروبا الشرقية بعد الشيوعية كانت رخيصة بالنسبة لدول الاتحاد الأوروبي. إذ بدت المعونات المقدمة للمنطقة غير مناسبة في نظر المتلقين لها، لكنها تعد هائلة بالمقارنة مع المبالغ التافهة التي أنفقتها واشنطن أو تتحدث عن إنفاقها في الشرق الأوسط (29 مليون دولار للشركاء في مبادرة 2003، وحوالى 200 مليون في السنوات اللاحقة). وحتى المساعدات كانت ثانوية بالمقارنة مع العامل الأكثر أهمية: فتح أسواق أوروبا الغربية ـ بضمنها وإلى درجة أقل فتح أسواق العمل ـ لصادرات وعمال دول أوروبا الشرقية المرشحة لدخول الاتحاد.

كانت هذه العوامل مركزية أيضاً لنجاح التنمية في بعض دول شرق وجنوب شرق آسيا. أولاً بسبب الحرب الكورية في شرق آسيا، ثم بسبب حرب فيتنام في جنوب شرق آسيا، قامت الولايات المتحدة بتحويل مبالغ هائلة من المساعدات إلى الدول التي رأت أنها معاقل مهمة ضد الشيوعية. ومرة أخرى، ما كان أكثر أهمية هو حقيقة أن الولايات المتحدة أبقت أسواقها مفتوحة على مصراعيها لمنتجات هذه الدول لأسباب جيوبوليتيكية، بالرغم من أنها بفعلها هذا قد ساهمت في انهيار قطاعات كبيرة من الصناعات في داخل الولايات المتحدة.

---

(145) Noah Feldman, *After Jihad: America and the Struggle for Islamic Democracy* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2003).

ويظهر التناقض مع مقولة الشرق الأوسط الكبير بوضوح فاقع. إذ ليس بين هذة الدول أي دولة قومية بحق، باستثناء إيران، وبشكل عام فإن الشعور بوجود هدف مشترك يجمعها ضعيفٌ جداً. أما أنها دول متعددة الأعراق مثل باكستان، أو أنها أجزاء من ثقافة عرقية ـ لغوية أوسع مثل الدول العربية. وكما نقل تشارلز غلاس عن صديق عربي فإنه بين الدول العربية، تمثل مصر فقط أمةً بحق. أما البقية فهي عبارة عن «قبائل ترفع أعلاماً»: سكان متعددو الأعراق يحكمهم، بشكل رسمي أو غير رسمي، حكام دكتاتوريون تدعمهم قبائل تمثل الأقليات. وتحت هذه القبائل الحاكمة، يدين السكان في الغالب بالولاء أولاً للتقاليد الأدنى من الدولة، سواء لعلاقات القرابة أو الجماعات الدينية[146].

وحين توجد دولة قومية، فإن النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني ودعم الولايات المتحدة لإسرائيل يجعل من الصعوبة الكبيرة حشدها إلى جانب الغرب. وما يبدو أن مخططي هلسنكي من الأمريكيين يعجزون عن فهمه هو أن أغلبية العرب ترى أن الولايات المتحدة مضافاً لها إسرائيل يؤدون دور الهيمنة الكريهة للسوفيات في منطقتهم. وما دامت قنوات التلفزيون العربية تعرض يومياً صور المعاناة الفلسطينية، فسوف يكون من الصعب حتى البدء بتشتيت هذا الانطباع. وبحسب قول مارينا أوتاوي من مؤسسة كارنيجي في آذار/ مارس 2003 (بالاستناد إلى مسح للصحافة العربية في وزارة خارجية الولايات المتحدة): «أولاً وقبل كل شيء، من الواضح أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تأمل بأن تؤخذ على محمل الجد حين تتحدث

(146) Charles Glass, *Tribes with Flags: A Dangerous Passage Through the Chaos of the Middle East* (New York: Atlantic Monthly Press, [1990]).

عن التزامها بالديمقراطية في العالم العربي ما لم «تجدد جهودها لإحياء المفاوضات بين إسرائيل والفلسطينيين، وتمارس الضغط على إسرائيل للسماح بإجراء انتخابات فلسطينية، وتكون مستعدة للتعامل مع ياسر عرفات في حال انتخابه. والطريقة الواضحة التي تطرح بها هذه القضايا لا تدع أي مجال للشك»[147].

خطاب الولايات المتحدة بشأن دمقرطة الشرق الأوسط يهدد بأن يصبح طريقة رخيصة لتحاشي النظر إلى القضايا الحاسمة التي تواجهها في المنطقة، لأن التعامل معها سيكون عالي الكلفة للولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي كليّاً وللأفراد من أعضاء الطبقات السياسية في الولايات المتحدة.

المساعدة في وضع حجر الأساس للديمقراطية من خلال التقدم الاقتصادي يعني زيادة هائلة في المساعدات الأمريكية. لأن فتح التجارة يعني مواجهة لوبيات قوية جداً. مثلاً، أحد أفضل الطرق للولايات المتحدة في مساعدة باكستان هو تقليص القيود القاسية المفروضة على استيراد الولايات المتحدة من الأنسجة. لو فعلت ذلك، فهذا يعني أن لديها الشجاعة السياسية والأخلاقية لمواجهة صناعة النسيج الأمريكية ونقابات العمال. ويمكن لكل منطقة الشرق الأوسط الكبير الاستفادة من تقليص الحواجز الزراعية والمعونات التي تقدمها الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي للزراعة فيهما، لكن ذلك يعني أن على الحكومات الغربية مجابهة اللوبيات الزراعية القوية.

---

(147) Ottaway, «Promoting Democracy in the Middle East: The Problem of U.S. Credibility,» and «Middle East Partnership Initiative (MEPI): Arab Press Wary,» (Department of State, International Information Program, Foreign Media Reaction, 20 December 2002).

وقبل أي شيء آخر، يتطلب حل النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني ضغطاً أمريكياً جاداً على إسرائيل بضمنه التهديد بتقليص حاد في دعم الولايات المتحدة اقتصادياً ودبلوماسياً وعسكرياً. طرح مثل هذه الاستراتيجية يتطلب شجاعة أخلاقية وسياسية حقيقية من جانب رئيس الولايات المتحدة وإدارته، لكن أيضاً من طرف أفراد الطبقات السياسية والإعلامية. لكن مثل هذا الموقف هو من واجبهم، بخاصة إن كانوا سيشجعون «الأشخاص الشجعان الذين يحاربون من أجل الديمقراطية» في العالم الإسلامي، والذين يخاطرون بأعمالهم وحريتهم وحتى حياتهم[148].

ذلك أن الحل الحقيقي لهذا النزاع هو مصلحة قومية أمريكية حقيقية. إنه شرط جوهري مسبق لنجاح الصراع ضد الإرهاب ومن أجل دمقرطة طويلة المدى للشرق الأوسط. ما دام النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني مستمراً في كونه صراعاً قومياً واسع النطاق، فسوف يظل العرب الداعون للتقارب مع الغرب يوصفون بالخيانة، وتظل القومية العربية تعمل ضد الإصلاح وتستمر أسوأ عناصر الثقافة السياسية العربية والمسلمة تتغذى عليها وتترعرع.

لسوء الحظ، ثمة عناصر قوية في اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة يبدو أنها تستخدم لغة الدمقرطة بطريقة معينة من أجل تحاشي، أو حتى قطع الطريق أمام إحلال سلام عادل ومستقر بين إسرائيل والفلسطينيين. تبرز هذه الحقيقة بوضوح من الورقة المعدة عام 1996 بعنوان «الفرصة الطيبة» التي وضعها عدد ممن أصبحوا لاحقاً من إدارة بوش، وكان مصدرها في اللوبي الإسرائيلي

---

(148) الجملة مقتبسة عن: Urban Ahlin [et al.], «A Joint Plan to Help the Greater Middle East,» *International Herald Tribune*, 15/3/2004.

ومؤسسات الولايات المتحدة. جمعت هذه الورقة استراتيجيتها لـ«دمقرطة» الشرق الأوسط مع المقترح الخيالي في أن تقوم الولايات المتحدة بغزو العراق لإعادة الملكية الهاشمية إليه[149].

في تشرين أول/ أكتوبر 2003 صرح فرانك غافني (من مركز السياسة الأمنية في واشنطن) بالقول:

الأنظمة الاستبدادية والشمولية بحاجة ماسة لأعداء خارجيين. وهذا صحيح بسبب غياب التبرير الخارجي لسلوكهم المتسم عموماً بالاضطهاد في الداخل، وليس ثمة طريقة أخرى لتبرير معاناة شعوبهم، بخاصة بعد الفشل ـ والفشل الذريع ـ لسياساتهم الاقتصادية والاجتماعية.

أعتقد أنه حتى لو لم يوجد الغرب، ولا الولايات المتحدة ولا إسرائيل، فسوف توجد الحاجة نفسها إلى الأعداء الخارجيين للاستهلاك المحلي لإسالة الدماء في الشرق الأوسط وجعل عالمنا مكاناً أكثر خطراً على الحياة. . . على ذلك أن يكون واضحاً في السياسات التي نتبعها، بخاصة حين يقال لنا باستمرار إننا لو جعلنا إسرائيل تتنازل عن بعض الأراضي لجيرانها العرب الفلسطينيين، فهذا كفيل بإنهاء المشكلة. هذا لن ينهي المشكلة بين إسرائيل والفلسطينيين، ولننس تحويل هذه المنطقة إلى نوع من الساحة المسالمة التي نأمل أن تكون عليها[150].

---

(149) Perle [et al.], «A Clean Break: A New Strategy for Securing the Realm».

وتحليل لهذا المنهج، انظر: Arnaud De Borchgrave, «Democracy in the Middle East: Iraq, Likudniks and Bush Administration Policy,» *Washington Times*, 5/3/2004.

(150) خطاب وجهه فرانك غافني (Frank Gafney) للاجتماع 57 لمعهد الشرق الأوسط في واشنطن دي. سي. في 23 تشرين أول/ أكتوبر 2003، للإطلاع على نسخة من الطرح نفسه، انظر: Michael Ledeen, «Polling the Palestinians,» *Jerusalem Post* (23 August 2002).

هذا الطرح شديد الوضوح: إن تنازل إسرائيل عن الأراضي ليست بذات أهمية للسلام الإسرائيلي ـ الفلسطيني ولنهج العرب تجاه إسرائيل والولايات المتحدة، وإنه في الأحوال كلها لا يمكن تحقيق أي سلام إلى أن يصبح العالم العربي والإسلامي ديمقراطيات تامة ـ أي بكلمات أخرى، في نقطة ما في المستقبل البعيد إلى حد أن الأمر لا يستحق حتى المناقشة. بالرغم من أن غافني راديكالي من المحافظين الجدد، فإنه يبدو أن الآلية نفسها تعمل مع بعض من يزعم كونه ليبرالياً مثل بول بيرمان، لو حكمنا من خلال النقص التام للتوازن في مدى الاهتمام الذي يولونه إلى سياسات إسرائيل والعرب.

كما أن صدق هؤلاء الزاعمين أنهم من المدافعين عن الديمقراطية يظل موضع شك كبير حين يتعلق الأمر بالترويج للديمقراطية والحرية. عام 2002 حضرتُ مناقشة في وزارة الخارجية حول هذا الموضوع. لدى مواجهة الأدلة الدامغة عن قوة معارضة سياسة الولايات المتحدة تجاه إسرائيل والعراق من قبل العرب العاديين، رد أحد أنصار إسرائيل في الولايات المتحدة وأقوى ناقدي الاستبداد العربي أن هذا غير ذي أهمية، فلدى الولايات المتحدة من القوة أكثر ما يكفي، لسحق أي معارضة عربية، سواء من الأنظمة أو الشعوب، وأعلن: «ليكرهوننا، ما داموا يخشوننا» (Oderint dum metuant). هذا كان طبعاً شعار داعية الإنسانية والديمقراطية البارز الإمبراطور كاليغولا.

في مقالات مجلة **نيويوركر** التي نشرت فضيحة إساءات أبو غريب وغيرها إلى العلن، عزا سايمور هيرش جزءاً من الفلسفة التي وقفت وراء تقنيات الاستجواب إلى كتاب كتبه عالم أنثروبولوجيا الثقافة الإسرائيلي الأمريكي الأستاذ رافايل باتاي، بعنوان **العقل العربي** (*The Arab Mind*). يتسم هذا العمل بالازدراء العميق للثقافة

والتقاليد العربية، ووصفته مصادر هيرش الرسمية على أنه «إنجيل المحافظين الجدد عن السلوك العربي». منه استقى أعضاء إدارة بوش قناعتهم أن العرب لا يفهمون إلا لغة القوة، وأن أعظم نقاط ضعفهم هي الحياء الجنسي. كما قال مارك دانر في **نيويورك بوك ريفيو** (*New York Book Review*)، إن الأساليب التي استخدمت «لتليين» سجناء أبو غريب وغيره تعكس ليس سادية عشوائية فقط، بل أيضاً تحليلاً معيناً للثقافة العربية(151).

إن الجمع بين هذه المواقف تجاه العرب من جانب المحافظين الجدد مع تصريحاتهم الرنانة بدمقرطة العالم العربي هو أحد الأسباب التي تجعل من وصفهم بـ«الرياء» و«التناقض المعرفي» وصفاً غير كافٍ. هذا أسلوب ينطبق عليه ما أسماه أورويل الكلام المزدوج، وهو إهانة لكل القيم الإنسانية في اللياقة الفكرية. إن حقيقة أن هذا المزيج من عدم الوضوح والمنفر أخلاقياً يؤخذ على محمل الجد ويمارس نفوذاً على السياسة الخارجية للولايات المتحدة وعلى الجدال القومي الأمريكي يكشف عن مدى هبوط مستوى النقاش العام في الولايات المتحدة وعن التشوش البشع في التفكير الأمريكي بشأن العالم الإسلامي.

لذلك، فإن سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط في

---

(151) Seymour M. Hersh, «The Gray Zone: How a Secret Pentagon Program Came to Abu Ghraib,» *New Yorker* (24 May 2004), and Mark Danner, «The Logic of Torture,» *New York Review of Books*, vol. 51, no. 11 (June 2004).

للإطلاع على التحليل الأصلي، انظر: Raphael Patai, *The Arab Mind*, Rev. ed. (New York: Hatherleigh Press, 2002), esp. pp. 126-151.

للإطلاع على مقالة أقدم حول الموضوع، انظر: Anatol Lieven, «Second Chance to Learn the Lessons of Vietnam,» *Financial Times*, 7/6/2004.

بداية القرن الحادي والعشرين هي محاولة الجمع بين الترويج للقيم وقواعد السلوك بين العرب والمبنية على أساس العقيدة الأمريكية والقومية المدنية الأمريكية مع دعم لدولة إسرائيل التي تستند سياساتها إلى الأطروحة المضادة الأمريكية، قومية عرقية ـ دينية قوية وهيمنة الأخلاق العسكرية والحكم على الشعوب الأخرى على أساس مزيج من مزاعم ليس لأي منها ترابط ما مع القيم الليبرالية الشاملة.

ليست النتيجة هي أطروحة جديدة، بل فوضى أخلاقية وسياسية رهيبة إنها تشبه سلوك القوى الغربية في القرن التاسع عشر في تقديم المواعظ عن الاقتصاد والسياسة الغربيين إلى اليابان وفي الوقت نفسه افتراض أن اليابان لن تفهم ما يصاحب ذلك من تصرفات واضحة آنذاك، مثل العنصرية والإمبريالية الغربية. إن استمر هذا المزيج من سلوك الولايات المتحدة إزاء العالم الإسلامي في السنوات والعقود القادمة ـ والقوة التي يوجد بها هذا المزيج بين العديد من الديمقراطيين والجمهوريين يوحي أن الأمر سيكون كذلك ـ إذاً فالصراع من أجل إيقاف انتشار الثورة الإسلامية والإرهاب سوف يكون خاسراً، وبنتائج لا أحد يجرؤ على التفكير بمداها.

ثمة كتاب يمكن لأصدقاء إسرائيل في الولايات المتحدة من الليبراليين قراءته والاستفادة منه، وإفادة إسرائيل والعالم، هو كتاب لويس ناميه، بعنوان **1848، ثورة المفكرين** (*1848: The Revolution of the Intellectuals*)، يدرس هذا العمل سجلات النواب الليبراليين الألمان الذين انتخبوا لأول برلمان ديمقراطي ألماني في فرانكفورت نتيجة الثورة التي قامت في تلك السنة. كانوا رجالاً ليبراليين صادقين، وشرفاء، ومتحضرين. لكنهم في الوقت نفسه كانوا قوميين ألمان، وحين بدأ البولونيون والتشيك وغيرهم من المواطنين غير الألمان في ألمانيا الملكية بالتقدم بمطالبهم القومية، فإن المبادئ

الليبرالية لهؤلاء النواب الألمان اضمحلت أمام انفجار قوميتهم. نشر عمل ناميه عام 1944، إبان الكارثة التي عمت العالم وكان أكبر مصدر لها فشل الليبرالية[152].

---

(152) Lewis Bernstein Namier, *1848: The Revolution of the Intellectuals* (London: British Academy; G. Cumberlege, [1944]).

الخاتمة

«أعرف نفسك»

خُطً على معبد دلفي

في الماضي، كانت شياطين القومية الراديكالية الأمريكية يعاد تكبيلها عاجلاً أم آجلاً بفعل قوة العقيدة الأمريكية. إذ مع كل ما فيهما من أخطاء إلا أن العقيدة الأمريكية والقومية المدنية الأمريكية، والنظام الديمقراطي الأمريكي الذي يدعمانه، لها قوة عظيمة لنشر الحضارة في العالم. أما في داخل الولايات المتحدة، فقد أدت حتى الآن ما يمكن تسميته آلية التصحيح الذاتي الأمريكية، إلى إنقاذ الأمة من السقوط في الحكم الاستبدادي أو في حال دائمة من الشوفينية المقاتلة.

إن مراحل القومية الحادة، مثل حال الذعر التي أدت إلى إصدار قانون الغرباء والمحرضين عام 1790، وحركة من لا يعرفون شيئاً عام 1840، وهستيريا معاداة الألمان في الحرب العالمية الثانية، وشوفينية معاداة اليابانيين في الحرب العالمية الثانية والمكارثية في الخمسينات، تبعتها حال توازن أكثر تسامحاً وتعددية. وبالرغم من ديمومة حضور القومية الشوفينية والقتالية، إلا أنها لم تصبح معياراً، كما لم تؤد لاستبدال المؤسسات الديمقراطية بمؤسسات استبدادية.

فضلاً عن ذلك فقد حدّ من الميول الإمبريالية في الولايات المتحدة الإيمان النابع من العقيدة، بأن أمريكا ليست لديها إمبراطورية ويجب أن لا يكون لها، فضلاً عن الميل للانكفاء وعدم الرغبة في تقديم التضحيات التي يتطلبها امتلاك الإمبراطورية.

بسبب قوة العقيدة الأمريكية في المجتمع الأمريكي، ثمة مجال كبير للأمل في أن تؤدي هذه الآلية في التصحيح الذاتي دورها، وأن تواصل العمل في المستقبل. من المؤكد أنه في أواسط عام 2004 تقلصت أكثر طموحات إدارة بوش جنوناً نتيجة الاضطراب العام حول ما تلا حرب العراق، ونتيجة العقلانية الأساسية في القسم الأكبر من المؤسسة الأمريكية.

مع ذلك، ثمة أرضية للقلق من فشل هذه الآلية في التصحيح الذاتي مستقبلاً، وأن تنجر أمريكاً في اتجاه يزداد شوفينيةً. السبب في ذلك يمكن اختصاره بالقول إنه في الماضي خرجت الولايات المتحدة لإعادة تشكيل العالم، في حين بقيت هي محميةً من العالم.

عسكرياً كانت أمريكا محمية بالمحيطات؛ واقتصادياً كانت محمية بالقوة الهائلة والمسيطرة للاقتصاد الأمريكي. من هنا جاءت هذه التركيبة الفريدة من القوة والحضور الكلي في كل زمان ومكان، إلى جانب المثالية، والبراءة والجهل في ما يتعلق ببقية البشرية.

هذه الحال السعيدة لم تعد قائمة.

من الواضح أن التغير الأول يتمثل في أنها مثل بقية الدول في القرن الحادي والعشرين، صارت الأراضي الأمريكية تواجه الآن خطراً حقيقياً لوقوع هجمات بطريقة غير مسبوقة منذ خطر الهنود الحمر المدعوم من فرنسا والذي اختفى بعد عام 1763. ومن الواضح أن التهديد النووي السوفياتي كان مخيفاً، وكان له تأثير مثير

للاضطراب في سياسات الولايات المتحدة وفي الثقافة السياسية، لكن في الواقع لم يقع أي هجوم فعلي. طوال الحرب الباردة، لم يُقتل أمريكي واحد على يد الشيوعية في داخل الأراضي الأمريكية.

والآن قد وقع هجومٌ إرهابي فظيع على أراضي الولايات المتحدة. وقد حرك كل أوجه القومية الأمريكية محولاً إياها إلى غضبٍ عارم، وهذا الغضب العارم وجهته الإدارة في الولايات المتحدة نحو أهداف مختلفة تماماً. لو تكررت هجمات مماثلة لما وقع في 11 أيلول/ سبتمبر، فقد تصبح القومية الشوفينية سمة مهيمنة دائمة للولايات المتحدة، مع كل ما يمكن أن يعنيه ذلك من سلوك البلاد على الصعيد الدولي، وعلى هيبة النظام الأمريكي في العالم وبالتأكيد على النظام الأمريكي في الداخل.

وفي حال أن ما يبدو مرجحاً قد حصل وهو وقوع هجمات أخرى مماثلة، ففي هذه الحال سوف يصبح مزاج السكان شبيهاً بمزاج من هو في حال حصار دائم وفي أجواء حرب مقيمة مع ما يعنيه ذلك من حد من الحريات المدنية ومن تصيّد السياسيين الشوفينيين في المياه العكرة بحثاً عن فرصهم. في هذا السياق، لا بد من تذكر أن العدالة الشعبية والعرقية في تخوم الولايات المتحدة لم تنته إلا بانتهاء التخوم نفسها. كذلك فإن جو المخاوف العرقية والإيمان باحتمال النزاع في الجنوب قد استمر لمدة طويلة وشمل أغلبية تاريخ أمريكا ولم ينته إلا بعد الانقلاب على النظام العنصري في الجنوب من خلال تدخّل بقية الأمة في أواسط القرن العشرين. لقد ضربت 11 أيلول/ سبتمبر الديمقراطية التعددية وأفقدتها التوازن. إن وقع مزيدٌ من الهجمات الإرهابية فقد يؤدي ذلك إلى ازدياد ميل هذا الميزان وجعله دائماً. في أسوأ الحالات، قد تؤدي مثل هذه الهجمات إلى قلب سفينة الدولة الديمقراطية الأمريكية كلها.

يرتبط بشكل وثيق مع هذا التهديد الجديد حقيقة أن الولايات المتحدة متورطة في الشرق الأوسط الكبير بطريقة لم يسبق لها مثيل في التاريخ. في حالات التدخل العسكري الدولي كلها، وكما لاحظنا في الفصل الأخير، استطاعت الولايات المتحدة إما أن تحل السلام في المنطقة أو تنسحب منها، أو كلاهما. في حال أوروبا الغربية، واليابان وكوريا الجنوبية بعد الحرب العالمية الثانية، ظل الوجود العسكري للولايات المتحدة قائماً، لكن في دولٍ بحالة سلام وقد رضيت بالوجود الأمريكي. في حال الهند الصينية، ما أن أصبح من الواضح استحالة إحلال السلام، حتى استطاعت الولايات المتحدة التخلص تماماً من الوضع بالانسحاب. كان هذا بالطبع مهيناً جداً، لكنه في النهاية أثبت كونه مقبولاً سياسياً في داخل الولايات المتحدة، وقاد إلى نتائج غير مؤذية لأمن الأمة.

بالمقابل، تبدو الولايات المتحدة في الشرق الأوسط مقيدةً بشكل دائم، وبلا أمل، إلى منطقة غير مستقرة، عنيفة ومعادية، وبقيدين قويين: **الأول** هو الدفاع عن النمط الأمريكي في الحياة كما تم تعريفه سابقاً، ما دام هذا النمط مرتبطاً باستخدام السيارات مستهلكة الغاز. وهذا يتطلب وصولاً أمريكياً دائماً لتجهيزات نفط رخيص ومضمون الذي أغلبيته سيظل متوافراً في الشرق الأوسط في المدى المنظور. **والثاني** هو ارتباط الولايات المتحدة مع إسرائيل، والذي يورط الولايات المتحدة في صراع قومي مع القومية العربية والتطرف الإسلامي، وهو على ما يبدو سيستمر في المستقبل المنظور.

ما يعادل ذلك في الأهمية (إن استمر)، هو تلاشي الحلم الأمريكي بقدر تعلق الأمر بشرائح واسعة من الطبقات الوسطى، بسبب التغيرات الاقتصادية وتأثيرات العولمة. خلال السنوات الثلاثين

الأخيرة، ركد دخل الجزء الأوسط من المجتمع الأمريكي أو حتى هبط، وأكثر من عانى منه هم العمال الماهرون وشبه الماهرين[1]. في هذه الأثناء، فإن دخل الطبقات الأدنى من السلم قد بقي على انخفاضه بسبب مواصلة الهجرة الجماعية، الشرعية وغير الشرعية على حد سواء. لقد ارتفع متوسط دخل العائلة حوالى 40 بالمئة في الخمسينات والستينيات، لكن في السبعينات والثمانينيات والتسعينات لم يرتفع إلا بنسبة 7 بالمئة، بالرغم من دخول أعداد كبيرة من النساء إلى سوق العمل الكامل في الفترة الأخيرة. في هذه الأثناء زاد تفاوت الدخل بشكل كبير. عام 1969 كانت 5 بالمئة من العائلات الأكثر غنى تحصل على 15,6 بالمئة من إجمالي الدخل. عام 1996 كان هذا الرقم 20,3 بالمئة[2].

المنافسة القاسية، وقلة القوانين المنظمة وحد أدنى للأجور، وزيادة العمالة الموقتة وغير الرسمية، واستخدام المهاجرين غير الشرعيين ولا المسجلين وتقلص دور نقابات العمال، كل هذا يعني أن العديد من الأعمال التي كانت تبقي الناس ضمن الطبقة الوسطى صارت الآن بالكاد تبقيهم على قيد الحياة في مستوى الحد الأدنى للعيش. كان رمز هذه العملية عام 2003 هو تحرك سلسلة المتاجر الكبرى لتجميد الأجور وخفض الأرباح[3]. لم تقتصر تأثيرات خفض الأجور وعدم ضمان العمل والتغيرات المتكررة في الوظائف واطئة

---

(1) الأرقام عن: *Economic Report of the President* (Washington, DC: Council of Economic Advisers, [n. d.]), Cited in: Jeff Madrick, «How New Is the New Economy?,» *New York Review of Books*, vol. 46, no. 14 (September 1999).

(2) Frank Levy, *The New Dollars and Dreams: American Incomes and Economic Change* (New York: Russell Sage Foundation, [1999]), Cited in: Madrick, Ibid.

(3) «The Wal-Martization of America,» *New York Times*, 15/11/2003.

الأجر على إفقار العديد من العمال الأمريكان وتآكل حياتهم العائلية، بل أيضاً أضرت بعمق بكرامتهم الشخصية، وبتصورهم لأنفسهم أعضاء محترمين من الطبقة الوسطى[4].

هذا المزيج من العوامل قد أضر بـ«الاقتصاد الأخلاقي» الذي ساد معظم تاريخ أمريكا، حيث كان فيه كل شخص يكدح في عمله، وأميناً لا يشرب الخمر أو يتناول المخدرات، يستطيع ضمان دخل يزداد بانتظام، وما يكفيه لدعم نفسه وزوجته في شيخوختهم وإعطاء أطفاله بداية طيبة من التقدم الاجتماعي من خلال التعليم[5].

وكما في الماضي فإن أمريكا، على عكس بقية الدول، قد تحاشت الهجوم على أراضيها وسكانها المدنيين، لهذا فإن أغلبية الأمة (باستثناء الجنوب) قد تحاشت في معظم تاريخها الكوارث الاقتصادية التي تخلقها الحروب والثورات والتحولات الاقتصادية التي تُحرك من الخارج والتي عانت منها العديد من الدول. في القرن العشرين، وباستثناء أزمة الكساد التي تلت عام 1929، كانت المعاناة الاقتصادية للولايات المتحدة طفيفة بالقياس إلى معاناة أغلبية دول العالم. وكانت الولايات المتحدة هي التي خرجت لتقلب اقتصادات الدول الأخرى وتغيرها.

في داخل الأمة كان يوجد بالطبع تغير اقتصادي جذري، ولكن

---

(4) Alan Ryan, «Call Me Mister,» *New York Review of Books*, vol. 50, no. 3 (February 2003).

(5) Madrick, Ibid.; Clair Brown, *American Standards of Living, 1918-1988* (Oxford, UK; Cambridge, MA; New York: Blackwell, 2002); Kevin Phillips, *Boiling Point: Democrats, Republicans, and the Decline of Middle-Class Prosperity* (New York: HarperCollins, 1994), and Simon Head, «The New, Ruthless Economy,» *New York Review of Books*, vol. 43, no. 4 (February 1996).

حتى في المدى المتوسط فإنه كان تغيراً ينجح عموماً في خلق وظائف جديدة في مناطق أخرى لتحل محل تلك التي ألغيت.

هذا التاريخ الاقتصادي كان حاسم الأهمية للاستقرار السياسي للولايات المتحدة ولسمات القومية الأمريكية، بالنظر إلى التاريخ الاممي للأصول الاجتماعية الاقتصادية للقومية الراديكالية كما وصفناها في هذا الكتاب. خلقت خصوصية تاريخ اقتصاد الولايات المتحدة اقتصاداً أخلاقياً تمثل في الحلم الأمريكي الذي بدوره دعّم العديد من الجوانب الإيجابية الأخرى لأمريكا: سياسات تتسم عموماً بالعقلانية والاعتدال في الداخل، مع تحفظ نسبي وحسن نية في الخارج. ترافق نجاح الحلم الأمريكي مع العقيدة الأمريكية لتشكيل الأطروحة الأمريكية وتكبيل شياطين الأطروحة المضادة حين تنطلق من قيودها بين آونة وأخرى.

إن استمر المنحى الانحداري نحو الندرة في تأمين العمل المضمون ووظائف الطبقة الوسطى نتيجة التغير الاقتصادي والعولمة، فإن المعاناة الاقتصادية الناتجة عن ذلك والقلق بشأن المرتبة الاجتماعية وضمانها ستكون أسوأ بكثير بسبب انعدام شبكات الأمان المناسبة الممولة من الدولة، خصوصاً في مجال الصحة. تمثل الحال المثيرة للشفقة للعجزة من العمال السابقين في شركة بيتليهيم ستيل وغيرها من الشركات الكبرى، من الذين رأوا تلاشي تأميناتهم الصحية بعد إغلاق شركاتهم أو بيعها، تحذيراً كالحاً لاحتمالات المستقبل[6]. في السياسة، كانت انتخابات كاليفورنيا عام 2003 التي أوصلت الممثل أرنولد شوارتزنيغر لمنصب الحاكم هي بدورها

---

(6) Stephanie Strom, «For Middle Class, Health Insurance Becomes a Luxury,» *New York Times*, 16/11/2003.

تحذير من مزاج اليأس السائد بين أوساط الطبقة الوسطى وانعدام إيمانهم في الطبقة السياسية الحاكمة. وتزايد الخطر الماثل أمام قدرة الاقتصاد الأمريكي لخدمة أغلبية الشعب بسبب نفقات الهيمنة الأمريكية الدولية وبسبب الطبيعة التي لا ترتوي للرأسمالية الأمريكية، كما بينها تقليص الضرائب على يد إدارة بوش.

لقد عبر الكتاب الليبراليون عن الحيرة بشأن الطريقة التي من خلالها، وفي مناطق واسعة من الولايات المتحدة، أدى تزايد اليأس الاقتصادي والاجتماعي للعديد من العمال البيض إلى التصويت ليس لليبراليين التقدميين، بل لمرشحي الجناح اليميني للحزب الجمهوري. يمكن أن تساهم السياسات الاقتصادية الراديكالية الرأسمالية التي يتبعها هؤلاء الساسة في اتجاهات تؤدي إلى تآكل مدخرات الطبقة العاملة، وخفض موقعها الاجتماعي واحترامها لنفسها، ما يقود بالتالي إلى المزيد من الاتجاه الراديكالي المحافظ، وهكذا دواليك في نوع من **الحركة الحلزونية الأبدية** (perpetuum mibile)، سياسياً...

يتعلق أغلبية هؤلاء العمال الأمريكيين (على الأقل العمال غير النقابيين القادمين من ثقافات ريفية أو من الضواحي وقبل كل شيء من ثقافات دينية) بشدة بصورة عن ذواتهم على أنهم من الطبقة الوسطى وليسوا من الطبقة العاملة. إن نظرنا إلى الأمر من هذه الزاوية، وضمن سياق الأنماط التاريخية الأوسع، ليس ثمة ما هو مفاجئ في تصويت الطبقة الوسطى الدنيا المتلاشية والمولعة بالقتال لصالح المحافظين الراديكاليين. كان هذا نمطاً دائماً في أوروبا. من أشهر الحكايات التي تعالج معاناة الطبقة الوسطى الدنيا نتيجة الاضطرابات الاقتصادية هي حكاية هانز فالادا **أيها الرجل الصغير، ماذا بعد؟** (*Kleiner Mann, Was Nunn?*) التي تقع أحداثها في ألمانيا

خلال مرحلة الكساد. ونحن نعرف كيف صوتت الطبقات الوسطى الدنيا الألمانية نتيجة هذه التجربة[7].

لابد من الاعتراف أن أغلبية الأحزاب الأوروبية الراديكالية المحافظة قدمت ولو تنازلات شكلية باتجاه الحد من غلو الرأسمالية، وإجراءات التضامن الاجتماعي القومي وغير ذلك. بالنسبة إلى أغلب الطبقة الوسطى الدنيا البيضاء في الولايات المتحدة، فقد جرى حتى الآن رفض هذا الخيار الأيديولوجي على يد القوة الهائلة التي يتمتع بها تيار فكرة الفردانية الاقتصادية ـ هي بالمناسبة تشكل جزءاً من العقيدة الأمريكية بالنسبة للكثيرين من الأمريكان ـ فضلاً عن القبضة الصارمة للنخبة الرأسمالية في الولايات المتحدة وللشركات الكبرى على الثقافة الأمريكية وبخاصة على وسائل الإعلام الجماهيري.

لو وضعنا ذلك جانباً يبقى عندنا أن واقع أن الطبقات الوسطى الدنيا تميل للتصويت لصالح الثقافة وصورة الذات أكثر من ميلها للتصويت بحسب مصالح طبقتها هو واقع مثبت جيداً تاريخياً. كذلك حقيقة أن هذه الصورة للذات تشتمل عادة على القومية، وإنه كلما زادت رغبة الطبقة الوسطى للقتال، زادت راديكالية قوميتهم.

في حال إتباع قطاعات واسعة ممن يرون أنفسهم من «الطبقة الوسطى» الأمريكية هذا النموذج التاريخي، فسوف تكون النتيجة محزنة بالتأكيد. في كتاب توماس فرانك المعنون **ما الخلل في كنساس؟ كيف ربح المحافظون قلب أمريكا** (*What's the Matter with Kansas? How Conservatives Won the Heart of America*). يرسم فرانك صورة مضحكة لكنها في الوقت نفسه مأساوية للهستيريا

(7) Hans Fallada, *Kleiner Mann- Was Nun?* (Hamburg: Rowohlt Verlag, 1976).

الثقافية وجنون الاضطهاد التي أخذت بخناق قطاعات من الطبقة الوسطى البيضاء، الملتزمة بالذهاب للكنيسة في أمريكا[8]. يركز فرانك على التطرف الديني والأوهام بشأن الاضطهاد على يد «النخب الليبرالية» ولكن هذه الثقافة السياسية تشمل أيضاً خيالات شريرة ومليئة بالكراهية حيال العالم الخارجي.

بالطبع، ليست كنساس هي الولايات المتحدة كلها، وليس هذا النمط من الثقافة السياسية هو ما تتسم به أغلبية كنساس. لهذا ليس ثمة حاجة لليأس المطلق في مواجهة هذه الاتجاهات التي لا يشترك فيها معظم الأمريكان. لكنها على درجة من الانتشار في «الطبقة الوسطى» البيضاء ـ كما يرون أنفسهم، باعتبار أنهم يمثلون العمود الفقري للجسد السياسي الأمريكي ـ لكي تكون سبباً للقلق ولكي تسبب تغيرات في السياسة الوطنية. اختارت أمريكا في مواجهة الاضطراب الاقتصادي والبؤس في أعوام الثلاثينيات، مصلحاً ديمقراطياً عظيماً ومدافعاً عن الحضارة هو فرانكلين ديلانو روزفلت، الذي طور الصفقة الجديدة (The New Deal). كانت ردود أفعال الدول الأخرى أكثر سواداً وظلمةً. بالطبع، كانت التأثيرات الاجتماعية للتغيرات في اقتصاد الولايات المتحدة أكثر غموضاً، وقبل كل شيء أكثر بطئاً من تلك التي ضربت مختلف الدول عام 1929. مع ذلك، قدم لنا التاريخ الكثير من الأمثلة غير السارة عن تأثير ذلك في السلوك السياسي للطبقة الوسطى وحتى عن انحطاطها البطيء والجزئي.

إن واصلت الطبقات الوسطى تهشمها، فقد تأخذ معها أحد

---

(8) Thomas Frank, *What's the Matter with Kansas?: How Conservatives Won the Heart of America* (New York: Metropolitan Books, 2004).

أعمدة أسس الاستقرار السياسي الأمريكي والاعتدال. كما في الدول الأوروبية في الماضي، قد يخلق مثل هذا التطور أرضيةً مثاليةً لترعرع المجموعات الراديكالية القومية وحتى الأحلام الأكثر جنوناً في «استعادة» أمريكا في الداخل وإعادة النظام الأخلاقي والثقافي وربما العرقي القديم إليها. قد تقود مثل هذه التطورات إلى ضربات غير محدودة ضد أعداء أمريكا في الخارج، أو قد تؤدي إلى انكفائها. أو إن كانت الأنماط القديمة صالحة بالفعل دليلاً، فقد تقود إلى الأولى في البداية ثم إلى الثانية. وسوف يكون هذا سيناريو خطيراً جداً لأمريكا والعالم أجمع، كما يمكن تصور ذلك بسهولة.

من الواضح أن أمريكا لم تعد محصنة من أمراض هذا العالم. ومع تقدم القرن الحادي والعشرين، سوف تكون الأمة معرضة أكثر فأكثر للعدوى بأمراض دولية شتى. إن الأخطار التي تواجهها أمريكا والإنسانية إذا التحقت أمريكا بالعالم بهذه الطريقة قد فاقم منها بشكل كبير بعض الخواص المعينة في القومية الأمريكية وتذبذبها بين المسيحانية المثالية والشوفينية، وأيضاً بخاصية اتسامها بالطيش. في الماضي ولأن أمريكا كانت منتصرة على الدوام، ومعزولة، ومحمية جداً، لم يخطر حتى في ذهن المثقفين الأمريكيين التفكير بقوميتهم بالطريقة التي اضطر أليها الأوروبيون بسبب كوارث القرن العشرين. صار الآن من الأمور العاجلة والضرورية أن يبدأ هؤلاء بالتفكير بذلك، وآمل أن يكون هذا الكتاب قد قدم قوة دفع صغيرة باتجاه مثل هذا التفكير.

ستكون دراسة قوميتهم بهذه الطريقة ضرورية للأمريكان لكي يتعلموا من الأمثلة الرهيبة التي مرت بها القوميات الأخرى في التاريخ المعاصر وحول العالم. يتطلب القيام بذلك القدرة على الوقوف خارج الأساطير القومية الأمريكية، والنظر إلى الأمة بتجرد،

لا على أساس أنها مدينة رائعة على التل، بل على أنها أمةٌ فانيةٌ من بين أمم أخرى، قد تكون أفضل من أغلبها، وهذا ما لا شك فيه، لكنها أيضاً معرضة لمخاطر أخلاقية وإغراءات وجرائم تعرضت لها العديد من الشعوب[9].

إن الحصيلة الكارثية التي رسمت صورتها هنا هي بالتأكيد ليست غير قابلة للتحاشي، بفعل سهولة التكيف الكبيرة وديناميكية المجتمع الأمريكي، والقيم الأمريكية والتقاليد الديمقراطية الأمريكية؛ لكن منع وقوعها يتطلب ليس الفكر وحده، بل الفعل الجاد من الطبقات السياسية للولايات المتحدة. في الداخل لابد من العمل على الحد من غلو الرأسمالية وإعادة تشكيل الاقتصاد لكي يخدم الشعب الأمريكي. في الخارج يتطلب العمل على جعل أمريكا مرة أخرى قائدة من خلال التوافق، ومعنية بصحة النظام الدولي القائم واستقراره وإطالة حياته ومكرسة للعمل مع الدول المسؤولة الأخرى للتوصل لتحقيق هذه الأهداف.

والأكثر أهمية من كل هذا، أنه يجب على النخب الأمريكية أن تملك ثقةً أكبر وقلقاً أكبر على النموذج الذي تمثله بلادها للعالم، من خلال مؤسساتها، وقيمها والرفاهية البادية على الأمريكان العاديين. يشكل هذا النموذج أساس «القوة اللينة» (Soft Power) لأمريكا ويجعل من الممكن تحقيق هيمنة الولايات المتحدة عن طريق التوافق. تشكل هذه المؤسسات والقيم إمبراطورية أمريكا الحضارية، وريثة إمبراطورية روما. ومثل القيم الرومانية، فإنها سوف تظل قائمة مدة أطول بكثير من الإمبراطورية الأمريكية، وحتى بعد

---

(9) Robert Neelly Bellah, *The Broken Covenant: American Civil Religion in a Time of Trial*, Weil Lectures; 1971 (New York: Seabury Press, [1975]), p. xv.

مدة طويلة من اندثار الولايات المتحدة نفسها. إن صورة أمريكا على أنها ديمقراطية تعددية ناجحة اقتصادياً، مفتوحة لكل الأعراق ومسالمة وغير عدوانية في جوهرها، كانت شديدة القوة في الماضي كما إنها كانت صحيحة. يجب على الأمريكيين أن يضمنوا أن تظل كذلك.

الثبت التعريفي

الأحـاديـة (Unilateralism): أي الـتـفـرد فـي اتـخـاذ الـقـرارات الحاسمة بصرف النظر عن موقف الشرعية الدولية ممثلة بالأمم المتحدة، أو مواقف الدول الكبرى الأخرى.

الأساطير الأمريكية القومية (American National Myths): مثل الطيبة المتأصلة بأمريكا وحسن النية وحتمية انتصار أمريكا على كل من يعاديها.

الأصـوليـون الـبـروتـسـتـانـت (Fundamentalist Protestant): طائفة من الكنيسة البروتستانتية تدعو للعودة إلى أصول الديانة المسيحية كما وردت نصوصها في الكتاب المقدس وتؤمن بضرورة أن تحكم إسرائيل جميع الأراضي التي وهبها الرب لبني إسرائيل من أجل التعجيل بعودة المسيح.

الأطروحة الأمريكية (American Thesis): وهي المبادئ الإيجابية في العقيدة الأمريكية التي يرى الكاتب أنها كانت وراء عظمة الولايات المتحدة بوصفها دولة عظمى تمثل نموذجاً للعدالة والحداثة والتطور.

الأطروحة الأمريكية المضادة (American Anti-Thesis): وهي العوامل التي يرى الكاتب أنها تؤثر سلباً على عظمة الولايات المتحدة وصورتها بوصفها نموذجاً للدول الأخرى وتؤدي إلى إضعاف هيبة الولايات المتحدة على الصعيد العالمي.

الألفية (Millenarian): وهي اعتقاد لدى طوائف من الكنائس البروتستانتية تؤمن بحرفية نبوءات الكتاب المقدس في عودة المسيح المنتظر جسدياً مع بداية الألفية الثالثة للميلاد وتسعى لخلق الظروف التي تسرع في حدوثها حسبما ورد وصفه في الكتاب المقدس.

إمبراطورية حضارية (Civilizational Empire): مثل الإمبراطورية الرومانية والصينية والتي يرى الكاتب أن الولايات المتحدة هي وريثتها الشرعية. وتتسم هذه الإمبراطوريات بنشر حضارتها بين ربوع الإمبراطورية، مقابل الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية التي اقتصرت على نشر نفوذ الدولة المستعمرة واستغلال المستعمرات من دون أن يكون لها دور حضاري .

إمبراطورية في حال إنكار (Empire in Denial): وهي الحال التي تتملَّك فيها الدولة إمبراطورية لكن ليس بشكل رسمي، بل تمارس سلطاتها الإمبراطورية بصورة غير مباشرة

الإمبرياليين الليبراليين (Liberal Imperialists): وهم الليبراليون من دعاة فرض نشر الحضارة في المستعمرات من خلال الغزو والاحتلال.

أممية اليعاقبة (Jacobin Internationalism): الثورية الأمريكية في العلاقات الدولية نسبة إلى جماعة اليعاقبة في الثورة الفرنسية وكانوا يدعون إلى الثورة على الأوضاع القائمة في العلاقات الدولية آنذاك. أي أن لأمريكا حرية التصرف مع الدول الأخرى بصرف النظر عن الشرعية الدولية وبما تمليه مصالحها.

الإنجيلية (Evangelicanism): التيار اليميني المحافظ في الكنائس البروتستانتية الأمريكية، والتي اعتمدت التطوير في طقوسها بخاصة استخدام وسائل الإعلام الحديثة في الوعظ خصوصاً التلفزيون.

الانكفاء (Isolationism): وهو المبدأ الداعي لابتعاد الولايات المتحدة عن ممارسة أي دور على الصعيد العالمي والدولي والاكتفاء بممارسة السياسة على الصعيد الداخلي للأمة.

تعدد الأطراف (Multilateralism): هي العمل الجماعي سواء ضمن الأمم المتحدة ومؤسساتها أو مؤسسات الدول الكبرى.

تقاليد التخوم (Frontiers Traditions): وهي تقاليد الجنوب والغرب الأمريكي وتتسم بالعنصرية تجاه غير البيض وتؤمن بالتوسع الأبيض على حساب الآخرين وتتسم أساليبها بالقسوة والوحشية التي تصل إلى حد الإبادة.

التنوير (Enlightenment): أو ما يسمى أحياناً عصر النهضة في أوروبا وكان بداية التطور الحضاري فيها.

الدمقرطة (Democratization): أو فرض تطبيق نمط معين من الديمقراطية على دولة ما.

الدين المدني (Civil Religion): مزيج من مبادئ العقيدة الأمريكية مع مجموعة من الأساطير الثقافية عن الأمة.

ذوي الرؤوس الحليقة (Skinheads): وهم جماعة من المتطرفين العنصريين المعادين لغير البيض وعادة ما تتسم تحركاتهم بالعنف.

رجال كنيسة التلفزيون (Televangelists): وهي الكنائس التي انتشرت في القرن العشرين تبث طقوسها وخطابها عبر التلفزيون وتصل إلى ملايين المشاهدين.

شعبوي (Populist): ما يروق لعامة الشعب.

الشيطنة (Demonization): القصد منه تشويه صورة زعيم سياسي معين أو شعب معين لتهيئة الرأي العام لقبول غزوه أو احتلاله وتدميره، وبالنسبة للأفراد يقصد منه تشويه صورة الشخص لإضعاف تأثيره عند الرأي العام أو إلغاء مصداقيته.

عقدة الخشية من الأجانب (Xenophobic): وما يتبعها من تمييز عنصري وعرقي.

العقيدة الأمريكية (American Creed): وهي المبادئ العظمى التي تأسست عليها الدولة الأمريكية ودستور الولايات المتحدة وأهمها حرية الفرد واقتصاد السوق.

فردانيين (Individualistic): دعاة تفوق أهمية الفرد على المجتمع والجماعة.

قروسطي (Middle Ages): يعود للقرون الوسطى.

القوة الصلبة (Hard Power): وأهمها القوة العسكرية واستخدامها لفرض سيطرة الولايات المتحدة على العالم.

القوة اللينة (Soft Power): تعني الهيمنة الأمريكية على العالم من خلال تأثير قوة النموذج الأمريكي في الاقتصاد والثقافة والدبلوماسية والقيم الأمريكية.

القومية (Nationalism): الولاء لفكرة مثالية عن الأمة لم تتحقق بعد والإيمان بالمهمة الإنسانية للأمة.

القومية التكوينية (Constructive Nationalism): وهي التي تبنى بمرور الزمن بين جماعة من السكان تجمعهم عوامل مشتركة.

القومية الجاكسونية (Jacksonian Nationalism): وهي المبادئ التي سار عليها الرئيس الأمريكي أندرو جاكسون وتتسم بالإيمان بالهوية البيضاء لأمريكا وتفوّق العرق الأبيض ومعاداة النخبة والمثقفين وكراهية الأعراق غير البيضاء على الصعيدين الداخلي والخارجي، ويمثل التقاليد القومية الشعبوية.

القومية المدنية (Civic nationalism): المبادئ القومية المطبقة في الولايات المتحدة وبشكل خاص دور الأصولية البروتستانتية بوصفها عامل ربط بين السكان الذين يتسمون بالتنوع الثقافي والديني.

القويم سياسياً (Politically Correct): في الأصل كان يعني الحد من التعصب المعبّر عنه بلغة مهينة للأقليات في الأمة، وتحوّل هذا المفهوم في الوقت الراهن ليعني رفض كل معارضة للنظام القيمي (السياسي والثقافي) السائد في خطاب الدعاية القومية الأمريكية المهيمنة في مؤسسة الدولة والقوى النافذة فيها.

ما فوق الطبقة (Over-Class): وهم الجماعة الأكثر نفوذاً وثروةً في العالم.

المبادئ التي جاء بها الرئيس الأمريكي وودرو ولسن (Wilsonian): الداعية لتفوق العرق الأبيض وتوسيع نفوذ الولايات المتحدة في العالم.

المسيحانية أو الاعتقاد الخلاصي (Messianic): وهو الإيمان بمهمة خلاصية شبيهة بمهمة المسيح في آخر الزمان. وهو اعتقاد في كنائس بروتستانتية أمريكية كثيرة تختلف فيما بينها حول توقعات عودة المسيح المنتظر وعلامات نهاية الزمان .

المولودون من جديد (Born Again Church): طائفة من الكنيسة البروتستانتية تعتقد أن الإيمان الديني يجعل المرء يولد من جديد.

الميونخيون (Municheism): وهم من دعوا إلى القبول باحتلال ألمانيا النازية لبولندا وغيرها من الأراضي المتاخمة لألمانيا لعلها تقنع ألمانيا بعدم التوسع غرباً. وذلك نسبة إلى مؤتمر ميونخ حيث التقت دول أوروبا على هذا الموقف.

النخبة الأمريكية (الواسب) (WASP: White, Anglo Saxon, Protestant): وهي الحروف الأولى لكلمات أبيض، أنجلو ـ ساكسوني بروتستانتي، وقد اتسعت خلال القرن العشرين لتشمل جميع البيض في الولايات المتحدة.

نظرية الاختيار العقلاني (Rational Choice Theory): نظرية مبنية على إيمان شبه ديني بشمولية القيم الأمريكية وصحتها للتطبيق في العالم أجمع وبخاصة الفردانية والاقتصاد الحر على النمط الأمريكي، أي الإيمان بضرورة أمركة العالم.

الواقعيون (Realist Approach): هم أتباع السياسة الواقعية في الإدارة الأمريكية الذين يعتقدون أن العلاقات السياسية بين الدول يحكمها التعارض ولكن ثمة إمكانية للتعاون مع بعض الدول في بعض الظروف وفي بعض الحالات.

الوطنية (Patriotism): الإيمان والرغبة بضرورة الدفاع عن الوطن في وضعه الراهن.

الوطنية المفرطة (Superpatriotism): المغالاة في الاندفاع الوطني الحماسي.

ثبت المصطلحات

Foreign	أجنبي
Abortion	إجهاض
Unilateralism	أحادية
Administration	إدارة
Terrorism	إرهاب
Myths	أساطير
Strategy	استراتيجية
Colonialism	استعمار
Polarization	استقطاب
Assimilation	استيعاب/ إدماج
Socialism	اشتراكية
Reform	إصلاح
Fundamentalism	أصولية
Thesis	أطروحة

Anti _ Thesis	أطروحة مضادة
Reconstruction	إعادة البناء
Warfare	أعمال حربية
Imperialism	إمبريالية
Conformism	إمتثالية
Decadence	انحطاط
Denial	إنكار
Isolationism	إنكفاء
Natives	أهل البلاد
Academia	أهل العلم
Protestantism	البروتستانتية
Mission	بعثة تبشيرية
Modernization	تحديث
Prohibition	تحريم
Frontiers	التخوم
Justification	تسويغ
Antagonism	تضاد
Ethnic Cleansing	تطهير عرقي
Mobilization	تعبئة القوى
Multilateralism	تعدد الأطراف
Pluralism	تعددية

Progressive	تقدمي
Representation	تمثيل
Enlightenment	تنوير
Threat	تهديد
Involvement	تورّط
Torah	التوراة
Radical	جذري
Republican	جمهوري
Cold War	الحرب الباردة
Rights	حقوق
Campaign	حملة
Xenophobe	الخوف من الأجانب
Treason	خيانة
Constitution	دستور
Mass Destruction	دمار شامل
Democratization	دمقرطة
Capitalism	رأسمالية
Apostolic	رسولي
Rejection	رفض
Symbolism	رمزية
Skinheads	الرؤوس الحليقة

Exodus	سفر الخروج
Domination	سيطرة
Populism	شعبوية
Absolutism	شمولية
Demonization	شيطنة
Communism	شيوعية
Zionism	الصهيونية
West Bank	الضفة الغربية
Factor	عامل
Hostility	عداء
Anti _ Semitism	العداء للسامية
Rational	عقلاني
Creed	عقيدة
Millenerianism	عقيدة الألفية
Element	عنصر
Racial	عنصري
Fascism	الفاشية
Federalism	فدرالية
Individualism	فردانية
Gaza Strip	قطاع غزة
Nationalism	قومية

Catholicism	الكاثوليكية
Bible	الكتاب المقدس
Pentecostal	الكنيسة الخمسينية
Universalism	كونية
Liberalism	ليبرالية
Intellectual	مثقف
Civil Society	مجتمع مدني
Congress	مجلس
Holocaust	المحرقة
Supreme Court	المحكمة العليا
Domestic	محلي
Fears	مخاوف
Revisionism	مدرسة المراجعة التاريخية
Evangelicalism	المذهب الإنجيلي
Pathological	مَرضَي
Eurocentric	المركزية الأوروبية
Settlements	مستوطنات
Messianic	مسيحانية
Convention	معاهدة
Baptist	معمداني
Approach	مقاربة

Dissident	منشق
Bellicose	مولع بالقتال
Born Again	مولود من جديد
Nazism	النازية
Elites	النخب
Conflict	نزاع
Consumerism	النزعة الاستهلاكية
Interventionism	نزعة التدخل
Chauvinism	نزعة التعصّب القومي
Expansionism	نزعة توسعية
Conservatism	النزعة المحافظة
Criticism	نزعة نقدية
Partisan	نصير
Immigration	هجرة
Hegemony	هيمنة
Realism	واقعية
Media	وسائل الإعلام
Patriotism	وطنية
Right	اليمين
Lcft	اليسار

المراجع

Books

Adams, Fay and Ernest W. Tiegs. *Our People: Tiegs-Adams Our Land and Heritage Series, Level 4*. Lexington, MA: Ginn, [n. d.].

Almond, Gabriel A., R. Scott Appleby and Emmanuel Sivan. *Strong Religion: The Rise of Fundamentalisms around the World*. Chicago: University of Chicago Press, 2003.

Alterman, Eric. *What Liberal Media?: The Truth about Bias and the News*. New York: Basic Books, 2003.

Anderson, Benedict Richard O'Gorman. *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*. Rev. and Extended ed. London; New York: Verso, 1991.

Applebome, Peter. *Dixie Rising: How the South Is Shaping American Values, Politics and Culture*. New York: Times Books, 1996.

Aronoff, Myron J. (ed.). *Cross-Currents in Israeli Culture and Politics*. New Brunswick, NJ: Transaction Books, 1984. (Political Anthropology; v. 4)

Avineri, Shlomo. *The Making of Modern Zionism: Intellectual Origins of the Jewish State*. New York: Basic Books, 1981.

Avishai, Bernard. *The Tragedy of Zionism: How its Revolutionary Past Haunts Israeli Democracy*. New York: Helios Press, 2002.

Avnery, Uri. *Israel without Zionism; a Plan for Peace in the Middle East*. New York: Collier Books, [1971].

Bacevich, Andrew J. *American Empire: The Realities and Consequences of U.S. Diplomacy.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 2002.

Bainbridge, John. *The Super-Americans; a Picture of Life in the United States, as Brought into Focus, Bigger than Life, in the Land of the Millionaires - Texas.*

Baker, Tod A., Robert P. Steed and Laurence W. Moreland (eds.). *Religion and Politics in the South: Mass and Elite Perspectives.* New York: Praeger, 1983.

Balfour, Sebastian. *Deadly Embrace: Morocco and the Road to the Spanish Civil War.* Oxford; New York: Oxford University Press, 2002.

Bard, Mitchell Geoffrey. *The Water's Edge and Beyond: Defining the Limits to Domestic Influence on United States Middle East Policy.* New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 1991.

Baritz, Loren. *Backfire: A History of How American Culture Led Us into Vietnam and Made Us Fight the Way We Did.* New York: W. Morrow, 1985.

Barnett, Correlli. *Engage the Enemy More Closely: The Royal Navy in the Second World War.* New York: Norton, 1991.

Barry, John M. *Rising Tide: The Great Mississippi Flood of 1927 and How it Changed America.* New York: Simon and Schuster, 1997.

Becker, Jean Jacques. *1914, Comment les Français sont entrés dans la guerre: Contribution à l'étude de l'opinion publique printemps-été 1914.* [Paris]: Presses de la fondation nationale des sciences politiques, 1977.

Beeson, Ann and Jameel Jaffer. *Unpatriotic Acts: The FBI's Power to Rifle Through Your Records and Personal Belongings Without Telling You.* [New York]: American Civil Liberties Union, 2003.

Bell, Daniel. *The Cultural Contradictions of Capitalism.* New York: Basic Books, [1976].

——— (ed.). *The Radical Right.* New York: Doubleday and Co., 1963.

Bellah, Robert Neelly. *The Broken Covenant: American Civil Religion in a Time of Trial.* New York: Seabury Press, [1975]. (Weil Lectures; 1971)

——— [et al.]. *Habits of the Heart: Middle America Observed.*

Berkeley: University of California Press, 1985.

Bellow, Saul. *To Jerusalem and Back: A Personal Account.* New York: Viking Press, 1976.

Beloff, Max Beloff. *Imperial Sunset.* New York: Knopf, 1970-1989. 2 vols.

Benard, Cheryl. *Civil Democratic Islam: Partners, Resources, and Strategies.* Santa Monica, CA: RAND, National Security Research Division, 2003.

Benda, Julien. *The Treason of the Intellectuals (La Trahison des clercs).* Translated by Richard Aldington. New York: Norton, 1969. (Norton Library; N470)

Bennett, David Harry. *The Party of Fear: From Nativist Movements to the New Right in American History.* New York: Random House, 1988.

———. ———. Chapel Hill: University of North Carolina Press, [1989].

Bennett, William John. *Why We Fight: Moral Clarity and the War on Terrorism.* New York: Doubleday, 2002.

Benson, Lee. *The Concept of Jacksonian Democracy; New York as a Test Case.* Princeton, NJ: Princeton University Press, 1961.

Benvenisti, Meron. *Intimate Enemies: Jews and Arabs in a Shared Land.* Berkeley: University of California Press, 1995.

Bercovitch, Sacvan. *The Puritan Origins of the American Self.* New Haven: Yale University Press, 1975.

Berghahn, Volker Rolf. *Germany and the Approach of War in 1914.* 2nd ed. New York: St. Martin's Press, 1993.

Berman, Paul. *Terror and Liberalism.* New York: Norton, 2003.

Bernstein, David E. *You Can't Say That!: The Growing Threat to Civil Liberties from Antidiscrimination Laws.* Washington, DC: Cato Institute, 2003.

Bisharah, Marwan. *Palestine/Israel: Peace or Apartheid.* New York: Zed Books, 2001.

Black, Earl and Merle Black. *The Vital South: How Presidents are Elected.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 1992.

Blackbourn, David. *History of Germany, 1780-1918: The Long Nineteenth Century.* 2nd ed. Malden, MA: Blackwell Pub., 2003. (Blackwell Classic Histories of Europe)

———. *The Long Nineteenth Century: A History of Germany, 1780-1918.* New York; Oxford: Oxford University Press, [1998].

Bork, Robert H. *Slouching Towards Gomorrah: Modern Liberalism and American Decline.* New York: Regan Books, [1996].

Bowers, Claude Gernade. *The Tragic Era; the Revolution after Lincoln.* New York: Blue Ribbon Books, 1929.

Boyer, Paul S. *When Time Shall Be No More: Prophecy Belief in Modern American Culture.* Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 1992. (Studies in Cultural History)

Bradley, Martin B. [et al.]. *Churches and Church Membership in the United States, 1990: An Enumeration by Region, State, and County Based on Data Reported for 133 Church Groupings.* Atlanta, Ga.: Glenmary Research Center, 2002.

Brinkley, Alan. *Voices of Protest: Huey Long, Father Coughlin, and the Great Depression.* New York: Knopf, 1982.

Brock, David. *Blinded by the Right: The Conscience of an Ex-Conservative.* New York: Three Rivers Press, 2002.

Brosseau, Jim (ed.). *A Celebration of America: Your Helpful Guide to America's Greatness.* Des Moines, IA: Meredith Publications, 2002.

Brown, Clair. *American Standards of Living, 1918-1988.* Oxford, UK; Cambridge, MA; New York: Blackwell, 2002.

Brubaker, Rogers. *Citizenship and Nationhood in France and Germany.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 1992.

Brzezinski, Zbigniew. *The Grand Chessboard: American Primacy and its Geostrategic Imperatives.* New York: Basic Books, 1998.

Bush, George Walker. *A Charge to Keep.* New York: Morrow, 1999.

Butler, Stuart M. and Kim R. Holmes (eds.). *Issues'96: The Candidate's Briefing Book.* Washington, DC: Heritage Foundation, 1996.

Butterfield, Herbert. *The Whig Interpretation of History.* London: G. Bell and Sons, 1931.

Cannon, Lou. *President Reagan: The Role of a Lifetime.* New York: Simon and Schuster, 1991.

Cantor, David. *The Religious Right: The Assault on Tolerance and*

Pluralism in America. New York: Anti-Defamation League, 1994.

Caro, Robert A. *The Years of Lyndon Johnson.* New York: Knopf, 1982 - 2002. 3 vols.
Vol. 1: *The Path to Power.*
Vol. 3: *Master of the Senate.*

Carpenter, Joel A. *Revive Us Again: The Reawakening of American Fundamentalism.* New York: Oxford University Press, 1997.

Cash, Wilbur Joseph. *The Mind of the South.* With a New Introduction by Bertram Wyatt-Brown. New York: Vintage Books, 1991.

Chanes, Jerome A. *A Dark Side of History: Antisemitism Through the Ages.* [New York]: Anti-Defamation League, 2000.

Cheney, Lynne V. *America: A Patriotic Primer.* Illustrated by Robin Preiss Glasser. New York: Simon and Schuster Books for Young Readers, 2002.

Cherry, Conrad (ed.). *God's New Israel: Religious Interpretations of American Destiny.* Rev. and Updated ed. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1998.

Chesler, Phyllis. *The New Anti-Semitism: The Current Crisis and What We Must Do About it.* San Francisco: Jossey-Bass, 2003.

Chesterton, Gilbert Keith. *What I Saw in America.* New York: Dodd, Mead and Company, 1922.

Chishti, Muzaffar A. [et al.]. *America's Challenge: Domestic Security, Civil Liberties, and National Unity After September 11.* Washington, DC: Migration Policy Institute, 2003.

Christison, Kathleen. *Perceptions of Palestine: Their Influence on U.S. Middle East Policy.* Berkeley: University of California Press, 2000.

Churches and Church Membership in the United States, 2000. [Atlanta, Ga.: Glenmary Research Center, 2002].

Clark, Norman H. *Deliver Us from Evil: An Interpretation of American Prohibition.* New York: Norton, 1976. (Norton Essays in American History)

Clarke, Richard A. *Against All Enemies: Inside America's War on Terror.* New York: Free Press, 2004.

Cliffe, John Trevor. *The World of the Country House in*

Seventeenth-Century England. New Haven, [Conn.]: Yale University Press, 1999.

Cobb, William W. *The American Foundation Myth in Vietnam: Reigning Paradigms and Raining Bombs.* Lanham, Md: University Press of America, 1998.

Cobban, Alfred. *A History of Modern France. Vol. 3, France of the Republics, 1871-1962.* London: Penguin, 1990. (Pelican Originals)

Cohn, Norman. *The Pursuit of the Millennium; Revolutionary Millenarians and Mystical Anarchists of the Middle Ages.* New York: Oxford University Press, 1990.

Colley, Linda. *Britons: Forging the Nation, 1707-1837.* New Haven: Yale University Press, 1992.

Conason, Joe. *Big Lies: The Right-Wing Propaganda Machine and How it Distorts the Truth.* New York: St. Martin's Press, 2003.

Conrad, Joseph and Robert Hampson. *Heart of Darkness.* London: Penguin Classics, 1995.

Coulter, Ann. *Treason: Liberal Treachery from the Cold War to the War on Terrorism.* New York: Crown Forum, 2003.

Cowan, Paul. *The Tribes of America: Journalistic Discoveries of Our People and Their Cultures.* Garden City, NY: Doubleday, 1979.

Craig, Gordon A. *Germany, 1866-1945.* Oxford: Oxford University Press, 1981.

Croly, Herbert David. *The Promise of American Life.* [New York: Macmillan company, 1909; Boston: North Eastern University Press, 1989].

———. ———. With a New Foreword by Michael McGerr. Boston: Northeastern University Press, 1989.

Crovitz, L. Gordon and Jeremy A. Rabkin (eds.). *The Fettered Presidency: Legal Constraints on the Executive Branch.* With a Foreword by Robert H. Bork. Washington, DC: American Enterprise Institute for Public Policy Research, 1989. (AEI Studies; 485)

D'Souza, Dinesh. *What's So Great About America.* Washington, DC: Regnery Publishing, 2002.

Daalder, Ivo H. and James M. Lindsay. *America Unbound: The*

Bush Revolution in Foreign Policy. Washington, DC: Brookings Institution, 2003.

Davien, Georges. *Birih*. [n. p.: n. pb.], 1890

Davis, Mike. *Ecology of Fear: Los Angeles and the Imagination of Disaster*. New York: Metropolitan Books, 1998.

Dershowitz, Alan M. *The Case for Israel*. Hoboken, NJ: John Wiley and Sons, 2003.

Diamond, Sara. *Not by Politics Alone: The Enduring Influence of the Christian Right*. New York: Guilford Press, 1998.

Dionne, E. J. and John J. Dilulio (eds.). *What's God Got to Do with the American Experiment?*. Washington, DC: Brookings Institution Press, 2000.

Donnelly, Henry Grattan. *The Stricken Nation*. [New York: C. T. Baker], 1890.

Drury, Shadia B. *Leo Strauss and the American Right*. New York: St. Martin's Press, 1997.

Ducrocq, Georges. *Adrienne*.

Eban, Abba. *Personal Witness: Israel Through My Eyes*. New York: G. P. Putnam's Sons, 1992.

Economic Report of the President. Washington, DC: Council of Economic Advisers, [n. d.].

Editors of Fortune and Russell W. Davenport (eds.). *U.S.A., the Permanent Revolution*. [New York: Prentice-Hall], 1951.

Edwards, Michael. *Future Positive: International Co-Operation in the 21st Century*. London: Earthscan, 2000.

Ehle, John. *Trail of Tears: The Rise and Fall of the Cherokee Nation*. New York: Anchor Books, 1988.

Eley, Geoff and Ronald Grigor Suny (eds). *Becoming National: A Reader*. New York: Oxford University Press, 1996.

Elon, Amos. *The Israelis: Founders and Sons*. New York: Penguin, 1983.

Elster, Jon (ed.). *Rational Choice*. Oxford: B. Blackwell; New York: New York University Press, 1986.

Epstein, Klaus. *The Genesis of German Conservatism*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1966.

Erikson, Erik Homburger. *Childhood and Society*.

Evans, Richard J. (ed.). *Society and Politics in Wilhelmine*

Germany. London: Croom Helm; New York: Barnes and Noble, 1978.
Face the Nation. Ann Arbor, Mich.: University Microfilms International, 2001.
Fall, Bernard B. *The Two Vietnams, a Political and Military Analysis*. Rev. ed. New York: F. A. Praeger, [1964].
Fallada, Hans. *Kleiner Mann- Was Nun?*. Hamburg: Rowohlt Verlag, 1976.
Farah, Joseph. *Taking America Back: A Radical Plan to Revive Freedom, Morality, and Justice*. Nashville, TN: [WND Books]; Thomas Nelson, 2003.
Fehrenbach, T. R. *Comanches: The Destruction of a People*. New York: Knopf, 1974.
———. *Lone Star; a History of Texas and the Texans*. New York: Macmillan, [1968].
Feldman, Noah. *After Jihad: America and the Struggle for Islamic Democracy*. New York: Farrar, Straus and Giroux, 2003.
Ferguson, Niall. *Empire: The Rise and Demise of the British World Order and the Lessons for Global Power*. New York: Basic Books, 2003.
Feuerlicht, Roberta Strauss. *The Fate of the Jews: A People Torn between Israeli Power and Jewish Ethics*. New York: Times Books, 1983.
Fichte, Johann Gottlieb. *Addresses to the German Nation*. [n. p.: n. pb.], 1806.
Findley, Paul. *They Dare to Speak Out: People and Institutions Confront Israel's Lobby*. Westport, Conn.: Lawrence Hill, 1985.
Fischer, David Hackett. *Albion's Seed: Four British Folkways in America*.
FitzGerald, Frances. *America Revised: What History Textbooks Have Taught Our Children about Their Country, and How and Why those Textbooks Have Changed in Different Decades*. New York: Vintage Books, 1980.
———. *Fire in the Lake: The Vietnamese and the Americans in Vietnam*. New York: Vintage Books, 1973.
Five Small Beagles. *The Hunting of the Foxes from Newmarket and Triple-Heaths to Whitehall*. London: [n. pb.], 1649.
Foner, Eric. *Reconstruction: America's Unfinished Revolution,*

1863-1877. New York: Harper and Row, 1988.
———. *The Story of American Freedom*. New York: W.W. Norton, 1998.
———. ———. New York: W.W. Norton, 1999.
———. *Who Owns History?: Rethinking the Past in a Changing World*. New York: Hill and Wang; Farrar, Straus and Giroux, 2002.

Foxman, Abraham H. *Never Again?: The Threat of the New Anti-Semitism*. [San Francisco]: HarperSanFrancisco, 2003.

Frank, Thomas. *What's the Matter with Kansas?: How Conservatives Won the Heart of America*. New York: Metropolitan Books, 2004.

Friedberg, Aaron L. *The Weary Titan: Britain and the Experience of Relative Decline, 1895-1905*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1988.

Friedman, Thomas L. *From Beirut to Jerusalem*. New York: Farrar, Straus, Giroux, 1989.

Frum, David. *Dead Right*. New York: Basic Books, 1994.
——— and Richard Perle. *An End to Evil: How to Win the War on Terror*. New York: Random House, 2003.

Fulbright, James William. *The Arrogance of Power*. New York: Random House, 1966.

Geertz, Clifford. *The Interpretation of Cultures: Selected Essays*. London: Fontana, 1993.

Gellner, Ernest. *Encounters with Nationalism*. Oxford; Cambridge, MA: Blackwell, 1984.

Genovese, Eugene D. *A Consuming Fire: The Fall of the Confederacy in the Mind of the White Christian South*. Athens: University of Georgia Press, 1998. (Mercer University Lamar Memorial Lectures; no. 41)
———. *The Southern Tradition: The Achievement and Limitations of an American Conservatism*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1994. (William E. Massey, Sr. Lectures in the History of American Civilization; 1994)

Gentles, Ian. *The New Model Army in England, Ireland, and Scotland, 1645-1653*. Oxford, UK; Cambridge, MA: Blackwell, 1992.

Gerstle, Gary. *American Crucible: Race and Nation in the Twentieth Century*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2001.

Gertz, Bill. *The China Threat: How the People's Republic Targets America*. Washington, DC: Regnery Pub., 2000.

Gillard, David. *The Struggle for Asia, 1828-1914: A Study in British and Russian Imperialism*. London: Methuen, 1977.

Gingrich, Newt. *To Renew America*. New York: HarperCollins, 1995.

Girardet, Raoul (ed.). *Le Nationalisme français, 1871-1914*. Paris: A. Colin, 1966. (Collection U. Série idées politiques)

Glaeser, Ernst. *Jahrgang 1902*. Berlin: [G. Kiepenheuer], 1929.

Glass, Charles. *Tribes with Flags: A Dangerous Passage Through the Chaos of the Middle East*. New York: Atlantic Monthly Press, [1990].

Glazer, Nathan and Daniel Patrick Moynihan. *the Melting Pot; the Negroes, Puerto Ricans, Jews, Italians, and Irish of New York City*. Cambridge, MA: M.I.T. Press, 1979. (Publications of the Joint Center for Urban Studies)

Gleason, John Howes. *The Genesis of Russophobia in Great Britain; a Study of the Interaction of Policy and Opinion*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1950.

Goldmann, Nahum. *The Autobiography of Nahum Goldmann; Sixty Years of Jewish Life*. Translated by Helen Sebba. New York: Holt, Rinehart and Winston, [1969].

———. *The Jewish Paradox*. Translated by Steve Cox. New York: Grosset and Dunlap, 1978.

Gorenberg, Gershom. *The End of Days: Fundamentalism and the Struggle for the Temple Mount*. New York: Free Press, 2000.

Graham, Hugh Davis and Ted Robert Gurr (eds.). *Violence in America: Historical and Comparative Perspectives*. Special Introd. by John Herbers. New York: Bantam Books, [1969]. (Bantam Extra)

Gramsci, Antonio. *Selections from the Prison Notebooks of Antonio Gramsci*. Edited and Translated by Quintin Hoare and Geoffrey Nowell Smith. London: Lawrence and Wishart, 1971.

Grant, George (com.). *The Patriot's Handbook*. Nashville, Tenn.: Cumberland House Pub., 1996.

Greenfeld, Liah. *Nationalism: Five Roads to Modernity*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1992.

Greenfeld, Liah. *The Spirit of Capitalism: Nationalism and Economic Growth*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2003.

Grose, Peter. *Israel in the Mind of America*. New York: Knopf, 1984.

Haddad, Hassan and Donald Wagner (eds.). *All in the Name of the Bible: Selected Essays on Israel and American Christian Fundamentalism*. Brattleboro, VT: Amana Books, 1986.

Halsell, Grace. *Prophecy and Politics: Militant Evangelists on the Road to Nuclear War*. Westport, Conn.: Lawrence Hill and Co., 1986.

Hammond, Phillip E. and Benton Johnson (eds.). *American Mosaic: Social Patterns of Religion in the United States*. Consulting Editor Charles H. Page. New York: Random House, 1970.

Hannity, Sean. *Deliver us from Evil: Defeating Terrorism, Despotism, and Liberalism*. New York: Simon and Schuster, 2004.

Hannity, Sean. *Let Freedom Ring: Winning the War of Liberty Over Liberalism*. New York: Regan Books, 2002.

Hardisty, Jean. *Mobilizing Resentment: Conservative Resurgence from the John Birch Society to the Promise Keepers*. Foreword by Wilma Mankiller. Boston: Beacon Press, 1999.

Harris, George Washington. *Sut Lovingood*.

Harris, Lee. *Civilization and Its Enemies: The Next Stage of History*. New York: Free Press, 2004.

Hartz, Louis. *The Liberal Tradition in America; an Interpretation of American Political Thought Since the Revolution*. New York: Harcourt, Brace, [1955].

Hastings, Adrian. *The Construction of Nationhood: Ethnicity, Religion, and Nationalism*. Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1997. (Wiles Lectures; 1996)

Hay, Douglas [et al.]. *Albion's Fatal Tree: Crime and Society in Eighteenth-Century England*. New York: Random House, [1976].

Hayes, Carlton Joseph Huntley. *Nationalism: A Religion*. New York: Macmillan, 1960.

Hellmann, John. *American Myth and the Legacy of Vietnam*. New York: Columbia University Press, 1986.

Herberg, Will. *Protestant, Catholic, Jew; an Essay in American Religious Sociology*. Garden City, NY: Doubleday, 1956.

Herman, Edward S. and Noam Chomsky. *Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass Media*. New York: Pantheon Books, 1988.

Hine, Robert V. and John Mack Faragher. *The American West: A New Interpretive History*. New Haven, Conn.: Yale University Press, 2000.

Hirst, David. *The Gun and the Olive Branch: The Roots of Violence in the Middle East*. London: Faber and Faber, 1977.

Hobsbawm, Eric and Terence Ranger (eds.). *The Invention of Tradition*. Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1983. (Past and Present Publications)

Hofstadter, Richard. *The Age of Reform; from Bryan to F. D. R.* New York: Vintage Books, 1955.

———. ———. New York: Knopf, 1955.

———. *Anti-Intellectualism in American Life*. [New York: Knopf, 1963].

———. *The Paranoid Style in American Politics, and Other Essays*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1996.

Holmes, Stephen. *The Anatomy of Antiliberalism*.

Howe, Irving. *World of Our Fathers: The Journey of the East European Jews to America and the Life They Found and Made*. New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1976.

Howe, John R. (ed.). *The Role of Ideology in the American Revolution*. New York: Holt, Rinehart and Winston, [1970]. (American Problem Studies)

Hugh Heclo and Wilfred M. McClay (eds.). *Religion Returns to the Public Square: Faith and Policy in America*. Washington, DC: Woodrow Wilson Center Press; Baltimore, Md.: Johns Hopkins University Press, 2003.

Hughes, Richard T. *Myths America Lives By*. Foreword by Robert N. Bellah. Urbana: University of Illinois Press, 2003.

Hulliung, Mark. *Citizens and Citoyens: Republicans and Liberals in America and France*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2002.

Hunt, Michael H. *Ideology and U.S. Foreign Policy*. [New Haven: Yale University Press, 1987].

Huntington, Samuel P. *American Politics: The Promise of Disharmony*. Cambridge, MA: Belknap Press; Harvard University Press, 1981.

———. *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order*. New York: Simon and Schuster, 1996.

———. *Political Order in Changing Societies*. New Haven: Yale University Press, [1968].

———. *Who Are We?: The Challenges to America's National Identity*. New York: Simon and Schuster, 2004.

Hutchison, William R. and Hartmut Lehmann (eds.). *Many are Chosen*. [n. p.]: Trinity Press International, 1998.

Hutton, Will. *The World We're in*. London: Little, Brown, 2002.

Ignatieff, Michael. *Empire Lite: Nation-Building in Bosnia, Kosovo, and Afghanistan*. London: Vintage, 2003.

Ignatiev, Noel. *How the Irish Became White*. New York: Routledge, 1995.

Israeli Public Opinion on National Security, 2003. Edited by Asher Arian. Tel Aviv: Tel Aviv University, Jaffee Center for Strategic Studies, 2003. (Memorandum; 67)

Isserman, Maurice and Michael Kazin. *America Divided: The Civil War of the 1960s*. New York: Oxford University Press, 2000.

Ivins, Molly and Lou Dubose. *Bushwhacked: Life in George W. Bush's America*. New York: Random House, 2003.

Jefferson, Thomas. *The Complete Jefferson, Containing His Major Writings, Published and Unpublished, Except His Letters*. Assembled and Arranged by Saul K. Padover. New York: [Irvington Publishers, 1943].

Jelen, Ted G. (ed.). *Religion and Political Behavior in the United States*. New York: Praeger, 1989.

Johnson, Chalmers A. *Blowback: The Costs and Consequences of American Empire*. New York: Owl Books, 2003.

———. *The Sorrows of Empire: Militarism, Secrecy, and the End of the Republic*. New York: Metropolitan Books, 2004.

Jones, Dale E. [et al.]. *Churches and Church Membership in the United States, 1980: An Enumeration by Region, State, and County Based on Data Reported by 149 Religious Bodies*. Atlanta, Ga.: Glenmary Research Center, 2000.

Kagan, Robert. *Of Paradise and Power: America and Europe in the New World Order*. New York: Knopf, 2003.

——— and William Kristol (eds.). *Present Dangers: Crisis and Opportunity in American Foreign and Defense Policy*. San Francisco, Calif.: Encounter Books, 2000.

Kaldor, Mary. *Global Civil Society: An Answer to War*. Cambridge, UK: Polity Press, [2003].

Kaplan, Robert D. *Warrior Politics: Why Leadership Demands a Pagan Ethos*. New York; [Great Britian]: Vintage, 2003.

Kazin, Michael. *The Populist Persuasion: An American History*. New York: Harper Collins, 1995.

———. ———. New York: Basic Books, 1995.

Keane, John. *Global Civil Society?*. Cambridge: Cambridge University Press, 2003. (Contemporary Political Theory).

Kedourie, Elie (ed.). *The Jewish World: Revelation, Prophecy, and History*. Texts by Elie Kedourie [et al.]. London: Thames and Hudson, 1979.

———. *Nationalism*. London: Hutchinson, 1979.

Kehr, Eckart. *Economic Interest, Militarism, and Foreign Policy: Essays on German History*. Edited and with an Introd. by Gordon A. Craig; Translated by Grete Heinz. Berkeley: University of California Press, 1977.

Kelley, Dean M. *Why Conservative Churches Are Growing: A Study in Sociology of Religion with a New Preface for the Rose Edition*. Macon, Ga: Mercer University Press, 1986. (ROSE; no. 11)

Kelley, Robert. *The Cultural Pattern in American Politics: The First Century*. New York: Knopf, 1979.

Kenen, Isaiah L. *Israel's Defense Line: Her Friends and Foes in Washington*. Buffalo, NY: Prometheus Books, 1981.

Kennan, George Frost. *American Diplomacy, 1900-1950*. Chicago: University of Chicago Press, [1951]. (Charles R. Walgreen Foundation Lectures)

Kessler, Jonathan S. and Jeff Schwaber. *The AIPAC College Guide: Exposing the Anti-Israel Campaign on Campus*. Washington, DC: American Israel Public Affairs Committee, 1984. (AIPAC Papers on U.S.-Israel Relations; no. 7)

King, Martin Luther (Jr.). *A Testament of Hope: The Essential Writings of Martin Luther King, Jr*. Edited by James Melvin

Washington. San Francisco: Harper and Row, 1986.

Kirkpatrick, Jeane J. *Dictatorships and Double Standards: Rationalism and Reason in Politics.* Washington, DC: American Enterprise Institute; New York: Simon and Schuster, 1982.

Kissinger, Henry. *Diplomacy.* The New York: Simon and Schuster, 1994.

Kohn, Hans. *American Nationalism; an Interpretative Essay.* New York: Macmillan, 1957.

———. *The Idea of Nationalism: A Study in its Origins and Background.* New York: Macmillan, 1945.

——— (ed.). *Nationalism and Realism, 1852-1879.* Princeton, NJ: D. Van Nostrand, 1958.

Kristol, Irving. *Neoconservatism: The Autobiography of an Idea.* New York: Free Press, [1995].

———. *Reflections of a Neoconservative: Looking Back, Looking Ahead.* New York: Basic Books, 1983.

LaHaye, Tim and Jerry B. Jenkins. *Left Behind: A Novel of the Earth's Last Days.* Wheaton, Ill.: Tyndale House Publishers, 1995. (Left Behind Series. LaHaye, Tim F. Left Behind Series)

Lamont, William and Sybil Oldfield (eds.). *Politics, Religion, and Literature in the Seventeenth Century.* London: Dent; Totowa, NJ: Rowman and Littlefield, [1975].

Layard, Richard and John Parker. *The Coming Russian Boom: A Guide to New Markets and Politics.* New York; London: Free Press, 1996.

Le Guin, Ursula K. *The Compass Rose: Short Stories.* London: Grafton Books, 1984.

Leebaert, Derek. *The Fifty-Year Wound: How America's Cold War Victory Shapes Our World.* New York: Little, Brown and Company, 2002.

Lerner, Max. *America as a Civilization; Life and Thought in the United States Today.* New York: Simon and Schuster, 1957.

Leslie, Warren. *Dallas, Public and Private: Aspects of an American City.* New Foreword by Harvey J. Graff and Patricia Evridge Hill; New Preface by the Author. Dallas, TX.: Southern Methodist University Press, 1998.

Levy, Frank. *The New Dollars and Dreams: American Incomes and*

Economic Change. New York: Russell Sage Foundation, [1999].
Leyburn, James Graham. *The Scotch-Irish; A Social History*. Chapel Hill: University of North Carolina Press, [1962].
Li Po and Tu Fu. Poems Selected and Translated with an Introd. and Notes by Arthur Cooper; Chinese Calligraphy by Shui Chien-Tung. [Harmondsworth, Eng.]: Penguin Books, [1973]. (Penguin Classics)
Liebman, Robert C. and Robert Wuthnow (eds.). *The New Christian Right: Mobilization and Legitimation*. With Contributions by James L. Guth [et al.]. Hawthorne, NY: Aldine Pub. Co., 1983.
Lieven, Anatol. *The Baltic Revolution: Estonia, Latvia, Lithuania, and the Path to Independence*. New Haven: Yale University Press, [1993].
———. *Chechnya: Tombstone of Russian Power*. With Photographs by Heidi Bradner. [New Haven: Yale University Press, 1998].
Lieven, D. C. B. *Russia and the Origins of the First World War*. London: Macmillan, 1983.
Lind, Michael. *Made in Texas: George W. Bush and the Southern Takeover of American Politics*. New York: Basic Books, 2003. (New America Book)
———. *The Next American Nation: The New Nationalism and the Fourth American Revolution*. New York: Simon and Schuster, 1995.
———. *Up from Conservatism: Why the Right Is Wrong for America*. New York: Simon and Schuster, 1996.
Lindsay, Vachel. *Selected Poems*. Edited by Mark Harris. New York: Macmillan, [1963].
Lindsey, Hal. *The Everlasting Hatred: The Roots of Jihad*. Murrieta, CA: Oracle House Pub., 2002.
———. *The Late Great Planet Earth Song Book*. Murrietta, GA: Oracle House Publishing, 2002.
Lipset, Seymour Martin. *American Exceptionalism: A Double-Edged Sword*. New York: W. W. Norton, 1976.
——— and Earl Raab. *The Politics of Unreason; Right-Wing Extremism in America, 1790-1970*. New York: Harper and Row, [1970]. (Patterns of American Prejudice Series; v. 5)

Lönnrot, Elias. *The Kalevala: An Epic Poem after Oral Tradition.* Translated from the Finnish with an Introduction and Notes by Keith Bosley; and a Foreword by Albert B. Lord. Oxford; New York: Oxford University Press, 1989. (World's Classics)

Lozowick, Yaacov. *Right to Exist: A Moral Defense of Israel's Wars.* New York: Doubleday, 2003.

Lustick, Ian S. *For the Land and the Lord: Jewish Fundamentalism in Israel.* New York: Council on Foreign Relations, 1988.

MacCurtain, Margaret. *Tudor and Stuart Ireland.* [Dublin]: Gill and Macmillan, [1972]. (Gill History of Ireland; 7)

Magraw, Roger. *France, 1815-1914: The Bourgeois Century.* London: Fontana, 1983. (Fontana History of Modern France. Fontana Press Original)

Maher, Bill. *When You Ride Alone You Ride with Bin Laden: What the Government Should be Telling Us to Help Fight the War on Terrorism.* Beverly Hills, CA: New Millennnium Press, 2003.

Mancall, Peter C. and James H. Merrell (eds.). *American Encounters: Natives and Newcomers from European Contact to Indian Removal, 1500-1850.* New York: Routledge, 2000.

Mann, James. *Rise of the Vulcans: The History of Bush's War Cabinet.* New York: Viking, 2004.

Mann, Thomas. *Betrachtungen eines Unpolitischen.* [Berlin]: Fischer Taschenbuch Verlag GmbH, 1995.

———. *Doctor Faustus; the Life of the German Composer, Adrian Leverkuhn, as Told by a Friend.* Translated from the German by G. T. Lowe-Porter. New York: Penguin, 1978.

Mansfield, Stephen. *The Faith of George W. Bush.*

Marty, Martin E. *Pilgrims in their Own Land: 500 Years of Religion in America.* New York: Penguin Books, 1985.

Marx, Karl and Friedrich Engels. *The Communist Manifesto.* With an Introduction by A. J. P. Taylor; Translated from the German by Samuel Moore. London; Harmondsworth: Penguin, 1967. (Pelican Books; A915)

McBride, Joseph. *Searching for John Ford: A Life.* New York: St. Martin's Press, 2001.

McDougall, Walter A. *Promised Land, Crusader State: The American Encounter with the World Since 1776.* Boston: Houghton Mifflin, 1997.

McMaster, H. R. *Dereliction of Duty: Lyndon Johnson, Robert*

McNamara, the Joint Chiefs of Staff, and the Lies that Led to Vietnam. New York: HarperCollins, 1997.

McMurtry, Larry. *In a Narrow Grave: Essays on Texas*. New York: Touchstone Books, 2001.

———. *Roads: Driving America's Great Highways*. New York: Simon and Schuster, 2000.

McNeill, William H. *Mythistory and Other Essays*. Chicago: University of Chicago Press, 1986.

McWhiney, Grady. *Cracker Culture: Celtic Ways in the Old South*. Tuscaloosa; Loandon: University of Alabama Press, 1988.

Mead, Sidney E. *The Nation with the Soul of a Church*. Macon, GA: Mercer University Press, 1985. (ROSE; no. 10)

Mead, Walter Russell. *Special Providence: American Foreign Policy and How It Changed the World*. New York: Knopf, 2001.

———. ———. New York: Routledge, 2002.

Melville, Herman. *White-Jacket; or, the World in a Man-of-War*. Edited by Hennig Cohen. New York: Holt, Rinehart and Winston, [1967]. (Rinehart Editions)

Merk, Frederick. *History of the Westward Movement*. New York: Knopf, 1978.

Merton, Robert King. *Social Theory and Social Structure*. Rev. and enl. ed. Glencoe, Ill.: Free Press, 1957.

Michelet, Jules. *The People*. Translated with an Introd. by John P. McKay. Urbana: University of Illinois Press, [1973]. (Illini Book).

Miller, Zell. *A National Party No More: The Conscience of a Conservative Democrat*. Macon, Ga.: Stroud and Hall Pub., 2003.

Mills, Charles Wright. *The Power Elite*. New York: Oxford University Press, 1959.

Minogue, Kenneth R. *Nationalism*. New York: Basic Books, 1997. (Ideas in Action. Culture and Discovery)

Mommsen, Wolfgang J. *Imperial Germany, 1867-1918: Politics, Culture, and Society in an Authoritarian State*. Translated by Richard Deveson. London; New York: Arnold, 1995.

Moore, Robert Laurence. *Religious Outsiders and the Making of Americans*. New York: Oxford University Press, 1986.

Morison, Samuel Eliot. *The Oxford History of the American*

People. New York: Penguin, 1994. 3 vols.
Vol. 2: *1789 Through Reconstruction.*
Vol. 3: *1869 Through the Death of John F. Kennedy, 1963.*

———, Henry Steele Commager and William E. Leuchtenburg. *The Growth of the American Republic*. 6th ed. rev., and enl. New York: Oxford University Press, 1969.

Morone, James A. *Hellfire Nation: The Politics of Sin in American History*. New Haven, CT: Yale University Press, 2003.

Morris, Benny. *The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949*. Cambridge, MA; New York: Cambridge University Press, 1989. (Cambridge Middle East Library)

———. *Righteous Victims: A History of the Zionist-Arab Conflict, 1881-1999*. New York: Random House, 1999.

Mosse, George L. *Nationalism and Sexuality: Middle-Class Morality and Sexual Norms in Modern Europe*. Madison: University of Wisconsin Press, [1988].

Muravchik, Joshua. *Exporting Democracy: Fulfilling America's Destiny*. Washington, DC: AEI Press, 1991. (AEI Studies; 513)

Myers, Ramon H. and Mark R. Peattie (eds.). *The Japanese Colonial Empire, 1895-1945*. Contributors, Ching-chih Chen [et al.]. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1984.

Myrdal, Gunnar. *An American Dilemma; the Negro Problem and Modern Democracy*. New York: Harper, 1944.

Naipaul, Vidiadhar Surajprasad. *A Turn in the South*. London: Viking; New York: Knopf, 1989.

Namier, Lewis Bernstein. *1848: The Revolution of the Intellectuals*. London: British Academy; G. Cumberlege, [1944].

Nash, Gary B., Charlotte Crabtree and Ross E. Dunn. *History on Trial: Culture Wars and the Teaching of the Past*. New York: A. A. Knopf, 1997.

The National Assessment of Educational Progress [Washing ton, DC: U.S. Dept. of Education, office of Educational Research and Improvement, 2001].

The National Security Strategy of the United States of America. Washington, DC: White House, 2002. www.whitehouse.gov.

Newhouse, John. *Imperial America: the Bush Assault on the World*

Order. New York: Knopf, 2003.
Niebuhr, Helmut Richard. *The Social Sources of Denominationalism*. New York: Meridian Books, 1957. (Living Age Books; LA11)
Niebuhr, Reinhold. *The Essential Reinhold Niebuhr: Selected Essays and Addresses*. Edited and Introduced by Robert McAfee Brown. New Haven: Yale University Press, 1986.
———. *The Irony of American History*. New York: Scribner, 1952.
Nye, Joseph S. *Soft Power: The Means to Success in World Politics*. New York: Public Affairs, 2004.
Nye, Russel B. *This Almost Chosen People; Essays in the History of American Ideas*. [East Lansing: Michigan State University Press, 1966].
O'Brien, Conor Cruise. *God Land: Reflections on Religion and Nationalism*. Cambridge, MA: Harvard University Press, [1988]. (William E. Massey, Sr. Lectures in the History of American Civilization; 1987)
———. *The Siege: The Saga of Israel and Zionism*. New York: Touchstone Books, 1986.
Odom, William E. and Robert Dujarric. *Commonwealth or Empire?: Russia, Central Asia, and the Transcaucasus*. Indianapolis; [New York]: Hudson Institute, 1995.
Oz, Amos. *In the Land of Israel*. Translated by Maurice Goldberg-Bartura. San Diego; New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1983.
———. *Israel, Palestine, and Peace: Essays*. San Diego: Harcourt Brace, [1995].
Packer, George (ed.). *The Fight is for Democracy: Winning the War of Ideas in America and the World*. New York: Harper Collins Perennial, 2003.
Palmer, Mark. *Breaking the Real Axis of Evil: How to Oust the World's Last Dictators by 2025*. Lanham, Md: Rowman and Littlefield Publishers, 2003.
Paris, Michael. *Warrior Nation: Images of War in British Popular Culture, 1850-2000*. London: Reaktion Books, 2000.
Patai, Raphael. *The Arab Mind*. Rev. ed. New York: Hatherleigh Press, 2002.
Patterson, Orlando. *The Ordeal of Integration: Progress and Resentment in America's «Racial» Crisis*. Washington, DC:

Civitas; Counterpoint, 1998.
———. ———. New York: Basic Books, 1998.

Patterson, Robert «Buzz». *Dereliction of Duty: An Eyewitness Account of How Bill Clinton Compromised America's National Security*. Washington, DC: Regnery Pub., 2003.

Perlmutter, Nathan and Ruth Ann Perlmutter. *The Real Anti-Semitism in America.*

Perlstein, Rick. *Before the Storm: Barry Goldwater and the Unmaking of the American Consensus*. New York: Hill and Wang Division; Farrar, Straus and Giroux, 2001.

Peter Hart and Fairness and Accuracy in Reporting (FAIR). *The Oh Really? Factor: Unspinning Fox News Channel's Bill O'Reilly*. Foreword by Robert W. McChesny. New York: Seven Stories Press, 2003.

Peters, Joan. *From Time Immemorial: The Origins of the Arab-Jewish Conflict over Palestine*. New York: Harper and Row, 1984.

Pfaff, William. *Barbarian Sentiments: America in the New Century*. New York: Farrar, Straus and Giroux, 2000.

Phillips, Kevin. *American Dynasty: Aristocracy, Fortune, and the Politics of Deceit in the House of Bush*. New York: Viking, 2004.

———. *Boiling Point: Democrats, Republicans, and the Decline of Middle-Class Prosperity*. New York: HarperCollins, 1994.

———. *The Cousins' Wars: Religion, Politics, and the Triumph of Anglo-America*. New York: Basic Books, 1999.

Phillips, Kevin. *The Emerging Republican Majority*.

Plato. *The Republic*. Translated by Desmond Lee. London: Penguin, 1976. (Penguin Classics)

Podhoretz, Norman. *The Present Danger: «Do We Have the Will to Reverse the Decline of American Power?»*. New York: Simon and Schuster, 1980.

Porch, Douglas. *The Conquest of Morocco*. New York: Knopf, 1983.

Potter, David Morris. *The Impending Crisis, 1848-1861*. New York: Harper Perennial, 1976.

Prestowitz, Clyde. *Rogue Nation: American Unilateralism and the Failure of Good Intentions*. New York: Basic Books, 2003.

Pumpurs, Andrejs. *Lacplesis, A Latvian National Epic*. Riga: Writers Union, 1988.

Quinn, Bernard [et al.] (eds.). *Churches and Church Membership in the United States, 1980: An Enumeration by Region, State, and County, Based on Data Reported by 111 Church Bodies.* Atlanta, Ga.: Glenmary Research Center, 1982.

Ravitch, Diane. *The Language Police: How Pressure Groups Restrict What Students Learn.* New York: Knopf, 2003.

Reed, John Shelton. *The Enduring South; Subcultural Persistence in Mass Society.* Lexington, MA: Lexington Books, [1972].

———. *One South: An Ethnic Approach to Regional Culture.* Baton Rouge: Louisiana State University Press, 1982.

Remini, Robert Vincent. *Andrew Jackson and His Indian Wars.* New York: Penguin, 2001.

———. *The Life of Andrew Jackson.* New York: Harper and Row, 1988.

———. ———. New York: Harper Collins, 2001.

Richey, Russell E. and Donald G. Jones (eds.). *American Civil Religion.* New York: Harper and Row, [1974]. (Harper Forum Book)

Robertson, Pat. *The End of the Age: A Novel.* Dallas, TX: Word Pub., 1996.

Rogan, Eugene L. and Avi Shlaim (eds.). *The War for Palestine: Rewriting the History of 1948.* New York: Cambridge University Press, 2001. (Cambridge Middle East Studies; 15)

Rogger, Hans and Eugen Weber (eds.). *The European Right a Historical Profile.* Berkley: University of California Press, 1974.

Rorty, Richard. *Achieving Our Country: Leftist Thought in Twentieth-Century America.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 1998. (William E. Massey, Sr. Lectures in the History of American Civilization; 1997)

Rossiter, Clinton Lawrence. *Conservatism in America; the Thankless Persuasion.* 2nd ed. New Tork: Random House, 1962.

Rousseau, Jean-Jacques. *The Social Contract.* Translated and Introduced by Maurice Cranston. London: Penguin, 1978.

Sacks, Jonathan. *A Letter in the Scroll: Understanding Our Jewish Identity and Exploring the Legacy of the World's Oldest Religion.* New York: Free Press; Simon and Schuster, 2000.

Said, Edward W. *The Question of Palestine.* New York: Times Books, 1979.

Schoenbaum, David. *Hitler's Social Revolution: Class and Status in Nazi Germany, 1933-1939*. New York: Norton, 1980. (Norton Paperback)

Sharpe, J. A. *Crime in Early Modern England, 1550-1750*. London; New York: Longman, 1984. (Themes in British Social History)

Shipler, David K. *A Country of Strangers: Blacks and Whites in America*. New York: Knopf, 1998.

Simkins, Francis Butler and Charles Pierce Roland. *A History of the South*. 4th ed. New York: Knopf, [1972].

Simms, John Gerald. *War and Politics in Ireland, 1649-1730*. Edited by D. W. Hayton and Gerard O'Brien. London; Ronceverte: Hambledon Press, 1986.

Sleeper, Raymond S. (ed.). *Mesmerized by the Bear: The Soviet Strategy of Deception*. New York: Dodd, Mead and Co., 1987.

Slotkin, Richard. *The Fatal Environment: The Myth of the Frontier in the Age of Industrialization, 1800-1890*. New York: Atheneum, 1985.

———. *Gunfighter Nation: The Myth of the Frontier in Twentieth-Century America*. Oklahoma Paperbacks ed. Norman: University of Oklahoma Press, 1998.

———. *Regeneration Through Violence; the Mythology of the American Frontier*. [Middletown, Conn. Wesleyan University Press, 1973].

Smidt, Corwin E. (ed.). *Contemporary Evangelical Political Involvement: An Analysis and Assessment*. Lanham: University Press of America, 1989.

Smith, Anthony D. *Nationalism: Theory, Ideology, History*. Malden, MA: Polity Press, 2001. (Key Concepts)

Smith, Frederick Thomson (Comp.). *An Anthology of War Poems*. Compiled by Frederick Brereton; Introduction by Edmund Blunden London: W. Collins sons & co. ltd., [1930].

Smith, Oran P. *The Rise of Baptist Republicanism*. New York: New York University Press, 1997.

Smith, Tom W. and Lars Jarko. *National Pride in Cross-National Perspective*. Chicago: National Opinion Research Center, University of Chicago, 1998.

Smith, Tony. *America's Mission: The United States and the*

Worldwide Struggle for Democracy in the Twentieth Century. [Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994]. (Princeton Studies in International History and Politics)

———. *Foreign Attachments: The Power of Ethnic Groups in the Making of American Foreign Policy.* Cambridge, MA; London: Harvard University Press, 2000.

Sprinzak, Ehud. *The Ascendance of Israel's Radical Right.* New York: Oxford University Press, 1991.

St. John de Crèvcœur, J. Hector. *Letters from an American Farmer.* London; Toronto: J. M. Dent and sons, ltd.; New York, E. P. Dutton and co., [1926]. (Everyman's Library. Travel and Topography; [no. 640])

Stampp, Kenneth M. *The Era of Reconstruction, 1865-1877.* New York: Knopf, 1965.

Starkey, Armstrong. *European and Native American Warfare, 1675-1815.* Norman: University of Oklahoma Press; London: UCL Press, 1998.

Starr, Joyce R. *Kissing Through Glass: The Invisible Shield between Americans and Israelis.* Chicago: Contemporary Books, 1990.

Stern, Fritz Richard. *The Politics of Cultural Despair: A Study in the Rise of the Germanic Ideology.* Berkeley: University of California Press, 1974. (California Library Reprint Series)

Stevenson, William R. (ed.). *Christian Political Activism at the Crossroads.* Lanham, Md.: University Press of America, 1994. (Calvin Center Series)

Stokes, Bruce and Mary McIntosh, «How They See Us.» *National Journal*: 21 December 2002.

Stone, Isidor Feinstein. *Underground to Palestine.* New York: Pantheon Books, 1978.

Stone, Lawrence. *The Crisis of the Aristocracy, 1558-1641.* Oxford: Clarendon Press, 1965.

Suskind, Ron. *The Price of Loyalty: George W. Bush, the White House, and the Education of Paul O'Neill.* New York: Simon and Schuster, 2004.

Talmon, Jacob Leib. *The Origins of Totalitarian Democracy.* New York: Praeger, 1960. (Praeger University Series; U-518. Books that Matter)

Taylor, William Robert. *Cavalier and Yankee; the Old South and American National Character.* New York: Anchor Books, 1963.

Telhami, Shibley. *The Stakes: America and the Middle East: The Consequences of Power and the Choice for Peace*. Boulder, Colo.: Westview Press, 2002.

The Religious Right: The Assault on Tolerance and Pluralism in America. [Prepared and Written by David Cantor]. New York: Anti-Defamation League, 1994.

Tocqueville, Alexis de. *Democracy in America.* Translated by Henry Reeve. 4 vols. [London: Saunders and Otley, 1835-1840].

———. ———. Translated by Henry Reeve; with an Introduction by Joseph Epstein. New York: Bantam Books, 2000. (Bantam Classic)

Treitschke, Heinrich von. *Politics.* Trans. Blanche Dugdale and Torben de Bille. London: Constable, 1916. 2 vols.

Tuveson, Ernest Lee. *Redeemer Nation; the Idea of America's Millennial Role.* Chicago: University of Chicago Press, [1968].

Twain, Mark. *A Connecticut Yankee in King Arthur's Court.* [New York: Charles L. Webster and Co., 1889].

———. ———. New York: Modern Library, 1917.

Twelve Southerners. *I'll Take my Stand; the South and the Agrarian Tradition.* New York; London: Harper and brothers, 1930.

Uris, Leon. *Exodus.* New York: Bantam Books, 1959.

Van Doren, Dorothy. *Nationalism and Catholic Americanism.* New York: Sheed and Ward, 1967.

Vol. 1: *Britain's Liberal Empire, 1897-1921.*

Wald, Kenneth D. *Religion and Politics in the United States.* 4th ed. Lanham, Md: Rowman and Littlefield Publishers, 2003.

Walker, Mack. *German Home Towns: Community, State, and General Estate, 1648-1871.* Ithaca, NY: Cornell University Press, 1998.

Walzer, Michael. *Exodus and Revolution.* New York: Basic Books, 1985.

Wasserstein, Bernard. *Israel and Palestine: Why They Fight and Can They Stop?.* London: Profile, 2003.

Weber, Eugen. *Peasants into Frenchmen: The Modernization of Rural France, 1870-1914.* Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1976.

Weber, Timothy P. *Living in the Shadow of the Second Coming:*

American Premillennialism, 1875-1925. New York: Oxford University Press, 1979.

Wehler, Hans-Ulrich. *The German Empire, 1871-1918*. Translated from the German by Kim Traynor. Leamington Spa, Warwickshire, UK; Dover, NH: Berg Publishers, 1985.

Weiss, John. *Conservatism in Europe, 1770-1945: Traditionalism, Reaction, and Counterrevolution*. London: Thames and Hudson, 1977.

Welland, Dennis (ed.). *The United States; a Companion to American Studies*. London: Methuen, 1974. (Methuen's Companions to Modern Studies)

Whitehead, John W. and Steven H. Aden, *Forfeiting 'Enduring Freedom' for 'Homeland Security': A Constitutional Analysis of the USA PATRIOT Act of 2001 and the Justice Department's Anti-Terrorism Initiatives*. Chartlottesville, VA: Rutherford Institute, 2002.

Whitman, Walt. *Democratic Vistas*.

Williams, Peter W. *America's Religions: From their Origins to the Twenty-First Century*. 2nd ed. Urbana, Ill.: University of Illinois Press, 2002.

Williams, William Appleman. *The Tragedy of American Diplomacy*. New York: Dell Pub. Co., 1959. (Delta Book)

Williamson, Joel. *William Faulkner and Southern History*. New York: Oxford University Press, 1993.

Wills, Garry. *Reagan's America: Innocents at Home*. Garden City, NY: Doubleday, 1987.

Wilson, Edmund. *Patriotic Gore: Studies in the Literature of the American Civil War*. New York: Farrar, Straus and Giroux, 1977.

Wilson, William A. *Folklore and Nationalism in Modern Finland*. Bloomington: Indiana University Press, 1990.

Woodward, Bob. *Bush at War*. New York: Simon and Schuster, 2002.

———. *Plan of Attack*.

Woodward, Comer Vann. *The Burden of Southern History*. Rev. ed. Baton Rouge: Louisiana State University Press, [1968].

———. *The Strange Career of Jim Crow*. With a New Afterword by William S. McFeely. Commemorative ed. Oxford; New York: Oxford University Press, 2002.

Wyatt-Brown, Bertram. *Honor and Violence in the Old South*. New York: Oxford University Press, 1986.

Zeldin, Theodore. *France, 1848-1945*. Oxford; New York: Oxford University Press, 1979-1981. (Galaxy Book; GB 587)
Vol. 3: *Intellect and Pride*.

Zunes, Stephen. *Tinderbox: U.S. Middle East Policy and the Roots of Terrorism*. Monroe, Main: Common Courage Press, 2003.

Periodicals

Abramowitz, Alan I. «It's Abortion, Stupid: Policy Voting in the 1992 Presidential Election.» *Journal of Politics*: Vol. 57, no. 1, February 1995.

Agha, Hussein and Robert Malley. «Camp David: The Tragedy of Errors.» *New York Review of Books*: Vol. 48, no. 13, August 2001.

Ahlin, Urban [et al.]. «A Joint Plan to Help the Greater Middle East.» *International Herald Tribune*: 15/3/2004.

Ajami, Fouad. «The Falseness of Anti-Americanism.» *Foreign Policy*: No. 138, September-October 2003.

———. «If Not Now, When?.» *Prospect: Democracy in the Middle East*: No. 85, April 2003.

Alden, Edward. «Bush Team Accused of Sanctioning Torture.» *Financial Times*: 9/6/2004.

——— and James Harding. «U.S. Lawyers Said Interrogators Could Violate Torture Laws Abroad.» *Financial Times* (London): 8/6/2004.

Alexander, Mark. «The Abu Ghraib Feeding Frenzy.» *Federalist*: 7/5/2004.

Allen, Mike. «Address Will Depict Bush as Above Politics.» *Washington Post*: 18/1/2004.

«An Alliance to Fit the Task.» *New York Post*: 23/9/2001.

Allin, Dana H., Philp H. Gordon and Michael E. O'Hanlon. «The Democratic Party and Foreign Policy.» *World Policy Journal*: Vol. 20, no. 1, Spring 2003.

Almond, Mark. «Your Tyrant or Ours?.» *New Statesman*: 17 November 2003.

Anderson, Perry. «Force and Consent.» *New Left Review* (London): No. 17, September- October 2002.

Arab American Issues: Vol. 5, no. 6, February 2004.

«Those Arab 'peacemakers'.» *Washington Times*: 20/5/2002.

Arendt, Hannah. «Zionism Reconsidered.» *Menorah Journal*: Vol. 33, no. 2, Autumn 1945.

Armey, Dick. «Saying No to China.» *Washington Times*: 30/10/1997.

Ash, Timothy Garton. «Anti-Europeanism in America.» *New York Review of Books*: Vol. 50, no. 2, February 2003.

Auden, W. H. «To Keep the Human Spirit Breathing.» *Washington Post Book World*: 24 December 1967.

August, Melissa [et al.]. «Unilateralism Is U.S.» *Time*: 6/8/2001.

«Those Awkward Hearts and Minds.» *Economist*: 1 April 2003.

Ayalon, Daniel. «Israel's Right to Be Israel.» *Washington Post*: 24/8/2003.

Babington, Charles. «Senator Critical of Focus on Prisoner Abuse.» *Washington Post*: 12/5/2004.

Balz, Dan. «Kerry Calls Bush's Iraq Policy 'Ineffective'.» *Washington Post*: 19/4/2004.

Barak, Ehud and Benny Morris. «Camp David and After - Continued.» Reply by Hussein Agha and Robert Malley. *New York Review of Books*: Vol. 49, no. 11, June 2002.

Beinart, Peter. «Bad Faith.» *New Republic*: 25/3/2002.

Bellah, Robert N. «Civil Religion in America.» *Daedalus*: No. 96, Winter 1967.

Benin, Joel. «Tel Aviv's Influence on American Institutions: Watch and Tell.» *Le Monde Diplomatique*: July 2003.

Benvenisti, Meron. «The Turning Point in Israel.» *New York Review of Books*: Vol. 30, no. 15, October 1983.

Bird, Maryann. «A Poisonous Plot.» *Time* (Europe Edition): 12/1/2003.

Blitz, James. «Iraq Crisis Blair under Pressure: US-Europe Splits 'Misguided and Dangerous'.» *Financial Times*: 19/3/2003.

Bolton, John R. «Beijing's WTO Double-Cross.» *Weekly Standard*: 14 August 2000.

Bolton, John R. «Should We Take Global Governance Seriously?.» *Chicago Journal of International Law*: Vol. 1, no. 2, Fall 2000.

Bolton, John R. «Democracy Makes All the Difference.» *Weekly Standard*: 3 April 2000.

Boot, Max. «American Imperialism? No Need to Run Away from Label.» *USA Today*: 6/5/2003.

———. «George W. Bush: The 'W' Stands for Woodrow.» *Wall Street Journal*: 1/7/2002.

———. «Washington Needs a Colonial Office.» *Financial Times* (London): 3/7/2003.

Branegan, Jay. «A 'Blue Team' Blocks Beijing.» *Time*: 16/4/2001.

Brinkley, Alan. «Battle Formation.» *Washington Post Book World*: 14 March 2004.

Bronfman, Edgar M. and Cobi Benatoff. «Is Darkness Falling on Europe Again.» *Financial Times*: 19/2/2004.

Brzezinski, Zbigniew. «Hegemonic Quicksand.» *National Interest*: No. 74, Winter 2003 - 2004.

Bumiller, Elisabeth. «In Major Shift, Bush Endorses Sharon Plan and Backs Keeping Some Israeli Settlements.» *New York Times*: 15/4/2004.

———. «A Partner in Shaping an Assertive Foreign Policy.» *New York Times*: 7/1/2004.

———. «Talk of Religion Provokes Amens as Well as Anxiety; Faith Has Become a Central Part of the Administration.» *New York Times*: 22/4/2002.

Burg, Avrham. «A Failed Israeli Society Is Collapsing: The End of Zionism?.» *International Herald Tribune*: 6/9/2003.

«Bush the Crusader.» *Christian Science Monitor*: 30/8/2002.

Butler, Judith. «No, It's Not Anti-Semitic.» *London Review of Books*: Vol. 25, no. 16, August 2003.

Campbell, Kurt M. «China Watchers Fighting a Turf War of Their Own.» *New York Times*: 20/5/2000.

Carlton, David Lee. «Rethinking Southern History.» *Southern Cultures*: Vol. 7, no. 1, Spring 2001.

Carney, Francis. «A State of Catastrophe.» *New York Review of Books*: Vol. 17, no. 5, October 1971.

Carothers, Thomas. «Democracy: Terrorism's Uncertain Antidote.» *Current History*: Vol. 102, no. 668, December 2003.

Ceaser, James W. «Providence and the President George W. Bush's Theory of History.» *Weekly Standard* (New York): 10 March 2003.

Chafets, Zev. «Arab Americans Have to Choose.» *New York Daily News*: 16/9/2001.

«China Viewed Narrowly.» *New York Times*: 10/6/2001.
Christian Science Monitor: 16/4/2004.
Clarke, Jonathan. «The Guns of 17th Street.» *National Interest*: No. 63, Spring 2001.
Clymer, Adam. «Divisive Words: New Analysis: G.O.P.'s 40 Years of Juggling on Race.» *New York Times*: 14/12/2002.
Coben, Stanley. «A Study in Nativism: The American Red Scare of 1919-20.» *Political Science Quarterly*: Vol. 79, no. 1, March 1964.
Cohen, Richard. «Blame Blindness....» *Washington Post*: 3/2/2004.
———. «How They Measured Up.» *National Journal*: 28 February 2004.
———. «Kristol's Unwelcome Message.» *Washington Post*: 11/6/2002.
Conger, Kimberly H. and John C. Green. «Spreading Out and Digging in: Christian Conservatives and State Republican Parties.» *Campaigns and Elections*: Vol. 23, no. 1, February 2002.
Cook, Rhodes. «The Solid South Turns Around.» *Congressional Quarterly Weekly*: 2 October 1992.
Cooperman, Alan. «Bush's Remark about God Assailed.» *Washington Post*: 22/11/2003.
Corn, David. «The Banning of Rabbi Lerner.» *Nation*: 10 February 2003, www.thenation.com.
Cottle, Michelle. «Bible Brigade.» *New Republic*: 21/4/2003.
———. «Color TV: How Soaps Are Integrating America.» *New Republic*: 27/8/2001.
Cox, Harvey. «The Market as God.» *Atlantic Monthly*: Vol. 283, no. 3, March 1999.
Dale, Helle. «The World According to Chirac: Financial Times Favors the French.» *Washington Times*: 4/6/2003.
Danner, Mark. «The Logic of Torture.» *New York Review of Books*: Vol. 51, no. 11, June 2004.
———. «Torture and Truth.» *New York Review of Books*: Vol. 51, no. 10, June 2004.
De Borchgrave, Arnaud. «Democracy in the Middle East: Iraq, Likudniks and Bush Administration Policy.» *Washington Times*: 5/3/2004.
DeLay, Tom. «Power vs. Principle.» *Washington Times*: 26/5/1999.

Dempsey, Judy and Heba Saleh. «EU Condemns Bush over Israel Stance.» *Financial Times*: 15/4/2004.
Dionne, E. J. «Finding Answers in Indiana.» *Washington Post*: 27/9/2002.
Donnelly, Tom. «Peking Won't Duck: Bill Gertz on the Threat of China.» *Weekly Standard*: 4 December 2000.
Duin, Julia. «Israeli Pits U.S. Politics against 'Road Map' Plan.» *Washington Times*: 18/8/2003.
Eilperin, Juliet. «DeLay Assails China, Urges Taiwan Trade Talks.» *Washington Post*: 3/6/2003.
Eldar, Akiva. «From Refuge for Jews to Danger for Jews.» *Ha'aretz*: 3/11/2003.
Elinson, Howard. «The Implications of Pentecostal Religion for Intellectualism, Politics, and Race Relations.» *American Journal of Sociology*: Vol. 70, no. 4, January 1965.
Engel, Matthew. «Senior Republican Calls on Israel to Expel West Bank Arabs.» *Guardian* (London): 4/5/2002.
«Experts: U.S. Military Overstretched, Morale at Risk.» *New York Times*: 9/1/2004.
Fastnow, Chris, J. Tobin Grant and Thomas J. Rudolph. «Holy Roll Calls: Religious Tradition and Voting Behavior in the U.S. House.» *Social Science Quarterly*: Vol. 80, no. 4, December 1999.
Ferguson, Niall. «American Terminator (Special Report).» *Newsweek*: Issues 2004.
Financial Times: 23/9/2002, 28/1/2004, 19/2/2004 and 12/3/2004.
Fineman, Howard. «Bush and God: A Higher Calling: It Is His Defining Journey from Reveler to Revelation. A Biography of His Faith, and How He Wields It as He Leads a Nation on the Brink of War.» *Newsweek*: 10 March 2003.
Fischer, Ian. «Iraqi Recounts Hours of Abuse by U.S. Troops.» *New York Times*: 5/5/2004.
———. «Iraqi Tells of U.S. Abuse from Ridicule to Threat.» *New York Times*: 14/5/2004.
Flanagan, Thomas. «John Ford's West.» *New York Review of Books*: Vol. 48, no. 20, December 2001.
———. «Western Star.» *New York Review of Books*: Vol. 48, no. 19, November 2001.
Flurry, Gerald. «From the Editor: Continue to Watch Stoiber.»

Philadelphia Trumpet: November 2002. www.thetrumpet.-com.

Fornek, Scott. «What We Don't Know Hasn't Hurt Us.» *Chicago Sun-Times*: 31/7/2003.

Fort Worth Star-Telegram: 14/9/1993.

Forts, Franklin. «Living with Confederate Symbols.» *Southern Cultures*: Vol. 8, no. 1, Spring 2002.

Fredrickson, George M. «America's Caste System: Will It Change?.» *New York Review of Books*: Vol. 44, no. 16, October 1997.

———. «The Strange Death of Segregation.» *New York Review of Books*: Vol. 46, no. 8, May 1999.

Friedman, David. «Democracy and the Peace Movement.» *Tikkun*: Vol. 18; no. 3, May - June 2003.

Friedman, Thomas. «Because We Could.» *Washington Post*: 4/6/2003.

———. «An Intriguing Signal from the Saudi Crown Prince.» New York Times: 17/2/2002.

———. «Our War with France.» *New York Times*: 18/9/2003.

Friel, Brian. «Don't know Much About History.» *National Journal*: 2 August 2003.

Frum, David. «David Frum's Diary.» *National Review Online*: 19/2/2003- 11/3/2003.

Frum, David. «Unpatriotic Conservatives: A War Against America.» *National Review*: Vol. 55, April 2003.

Frum, David and Richard Perle. «Beware the Soft-Line Ideologues.» *Wall Street Journal*: 7/1/2004.

Gaffney, Frank J. «Mideast Road Trap.» *Washington Times*: 6/5/2003.

Gamoran, Adam. «Civil Religion in American Schools.» *Sociological Analysis*: Vol. 51, no. 3, Autumn 1990.

Garfinkle, Adam. «The New Missionaries.» *Prospect: Democracy in the Middle East*: No. 85, April 2003.

Gates, Davis. «The Pop Populist.» *Newsweek*: 24 May 2004.

Gelb, Leslie H. and Justine A. Rosenthal. «The Rise of Ethics in Foreign Policy: Reaching a Values Consensus.» *Foreign Affairs*: Vol. 82, no. 3, May - June 2003.

Gellman, Barton. «4 Nations Thought To Possess Smallpox: Iraq, N. Korea Named, Two Officials Say.» *Washington Post*: 5/11/2002.

Gerecht, Reuel Marc. «Going Soft on Iran: The Temptation of America's Foreign Policy «Realists».» *Weekly Standard*: 3 August 2004.

———. «Who's Afraid of Abu Ghraib.» *Weekly Standard*: 24 May 2004.

Gerstenfeld, Manfred. «Anti-Semitism: Integral to European Culture.» *Post Holocaust and Anti-Semitism* (Jerusalem): No. 19, April 2004.

Gertz, Bill. «Iraq Strengthens Air Force with French Parts.» *Washington Times*: 7/3/2003.

———. «U.S. Still Needs Nukes, Official Says.» *Washington Times*: 23/2/1997.

Geyer, Georgie Anne. «What Happened to Geography- And Just Where Is Iraq?.» *Tulsa World*: 27/11/2002.

Gibbs, Nancy And Michael Duffy. «Saving Face.» *Time*: 16/4/2001.

Gingrich, Newt. «The Failure of U.S. Diplomacy.» *Foreign Affairs*: Vol. 82, no. 4, July - August 2003.

———. «Rogue State Department.» *Foreign Policy*: July - August 2003.

Gill, Bates and Michael E. O'Hanlon. «China's Hollow Military.» *National Interest*, No. 56, Summer 1999.

Goodstein, Laurie. «A President Puts His Faith in Providence.» *New York Times*: 9/2/2003.

Gordon, Philip H. «Bush's Middle East Vision.» *Survival*: Vol. 45, no. 1, Spring 2003.

Gowan, Peter. «US: UN.» *New Left Review*: No. 24, November-December 2003.

Griffin, Larry J. «The Promise of a Sociology of the South.» *Southern Cultures*: Vol. 7, no. 1, Spring 2001.

Gumbel, Andrew. «What Americans Know.» *Independent* (London): 9/9/2003.

Hackney, Sheldon. «The Contradictory South.» *Southern Cultures* (Durham, NC): Vol. 7, no. 4, Winter 2001.

Halkin, Hillel. «The Return of Anti-Semitism.» *Commentary*: Vol. 113, no. 2, February 2002.

Hanson, Victor Davis. «Abu Ghraib.» *Wall Street Journal*: 3/5/2004.

———. «Our Enemies, the Saudis.» *Commentary*: Vol. 114, no. 1, July-August 2002.

Harries, Owen. «The Dangers of Expansive Realism - Proposal for North Atlantic Treaty Organization expansion.» *National Interest*: Winter 1997 - 1998.

Harsch, Joseph C. «Politics and Race.» *Christian Science Monitor*: 27/10/1988.

Head, Simon. «The New, Ruthless Economy.» *New York Review of Books*: Vol. 43, no. 4, February 1996.

Helderman, Rosalind S. «Outfitted with Placards and Prayer: Students from Virginia's New Patrick Henry College Planting Political Seeds.» *Washington Post*: 20/10/2003.

Heller, Zoe. «How Quickly America Forgot its Outrage.» *Daily Telegraph*: 15/5/2004.

Hersh, Seymour M. «The Gray Zone: How a Secret Pentagon Program Came to Abu Ghraib.» *New Yorker*: 24 May 2004.

———. «Torture at Abu Ghraib.» *New Yorker*: 10 May 2004.

Hertzberg, Hendrik. «Building Nations.» *New Yorker*: 9 June 2003.

Hessler, Peter. «Boomtown Girl.» *New Yorker*: 28 May 2001.

Higham, John. «Hanging Together: Divergent Unities in American History.» *Journal of American History*: Vol. 61, no. 1, June 1974.

Hoagland, Jim. «Clarity: The Best Weapon.» *Washington Post*: 1/6/2003.

Hockstader, Lee. «Army Stops Many Soldiers From Quitting: Orders Extend Enlistments to Curtail Troop Shortages.» *Washington Post*: 29/12/2003.

Hoffmann, Stanley. «France, the United States and Iraq.» *Nation*: 16 February 2004.

Hoffmann, Stanley. «The Great Pretender.» *New York Review of Books*: Vol. 34, no. 9, May 1987.

Hoffmann, Stanley. «The High and the Mighty.» *American Prospect*: January 2003.

Hoffmann, Stanley. «The Vicar's Revenge.» *New York Review of Books*: Vol. 31, no. 9, May 1984.

Huntington, Samuel P. «Dead Souls: The Denationalization of the American Elite.» *National Interest*: No. 75, Spring 2004.

Huntington, Samuel P. «The Hispanic Challenge.» *Foreign Policy*: March-April 2004.

Huston Chronicle: 1/8/2003.

Ignatius, David. «The Allies' Mindless Bickering.» *Washington Post*: 10/2/2004.

———. «A Handshake That Doesn't Help Israel.» *Washington Post*: 16/4/2004.

———. «Wilsonian Course for War.» *Washington Post*: 30/8/2002.

Ikenberry, Gilford John. «America's Imperial Ambition.» *Foreign Affairs*: Vol. 81, no. 5, September-October 2002.

———. «The End of the Neoconservative Moment.» *Survival*: Vol. 46, no. 1, Spring 2004.

——— and Charles A. Kupchan. «Socialization and Hegemonic Power.» *International Organization* (Cambridge): Vol. 44, no. 3, Summer 1990.

IPF Friday: 1 August 2003. www.israelpolicyforum.org.

«Is 9/11 an Issue?: President Bush Talks About His Record, and Democrats Demand that He Shut up.» *Wall Street Journal*: 3/5/2004.

Isikoff, Michael. «Memos Reveal War Crimes Warnings.» *Newsweek*: 19 May 2004.

Ivins, Molly. «Cheney's Card: The Empire Writes Back.» *Washington Post*: 30/12/2003.

Jacques, Martin. «The Interregnum.» *London Review of Books*: Vol. 26, no. 3 February 2004.

Jenkins, Holman W. «A War for France's Oil.» *Wall Street Journal*: 19/3/2003.

Jewish Observer and Middle East Review: 10 June 1977.

Johnson, Chalmers and E. B. Keehn, «A Disaster in the Making: Rational Choice and Asian Studies.» *National Interest*: No. 36, Summer 1994.

Johnson, Paul. «Au revoir, petite France.» *Wall Street Journal*: 18/3/2003.

———. «God and the Americans.» *Commentary*: Vol. 99, no. 1, January 1995.

Judt, Tony. «Israel: The Alternative.» *New York Review of Books*: Vol. 50, no. 16, October 2003.

Kaiser, Robert G. «Bush and Sharon Nearly Identical On Mideast Policy.» *Washington Post*: 9/2/2003.

——— and Steven Mufson. «'Blue Team' Draws a Hard Line on Beijing: Action on Hill Reflects Informal Group's Clout.» *Washington Post*: 22/2/2000.

Karatnycky, Adrian. «The 30th Anniversary Freedom House Survey: Liberty's Advances in a Troubled World.» *Journal of Democracy*: Vol. 14, no. 1, January 2003.

Karsh, Efraim. «Revisiting Israel's «Original Sin»: The Strange Case of Benny Morris.» *Commentary*: Vol. 116, no. 2, September 2003.

Kazin, Michael. «The Right's Unsung Prophets.» *Nation*: 20 February 1989.

Kevles, Daniel J. «Darwin in Dayton.» *New York Review of Books*: Vol. 45, no. 18, November 1998.

Kennan, George Frost «America and the Russian Future.» *Foreign Affairs*: Vol. 29, no. 3, April 1951.

———. «Morality and Foreign Policy.» *Foreign Affairs*: Vol. 64, no. 2, Winter 1985 - 1986.

King, Colbert I. «Dean's Faith-Based Folly.» *Washington Post*: 10/1/2004.

Kinsley, Michael. «O'Reilly Among the Snobs.» *Washington Post*: 1/3/2001.

Kissinger, Henry. «The End of NATO As We Know It?.» *Washington Post*: 15/8/1999.

———. «Intervention with a Vision.» *Washington Post*: 11/5/2004.

Klare, Michael T. «Cold War Government with No War to Fight: America's Military Revolution.» *Monde diplomatique* (English Edition): July 2001.

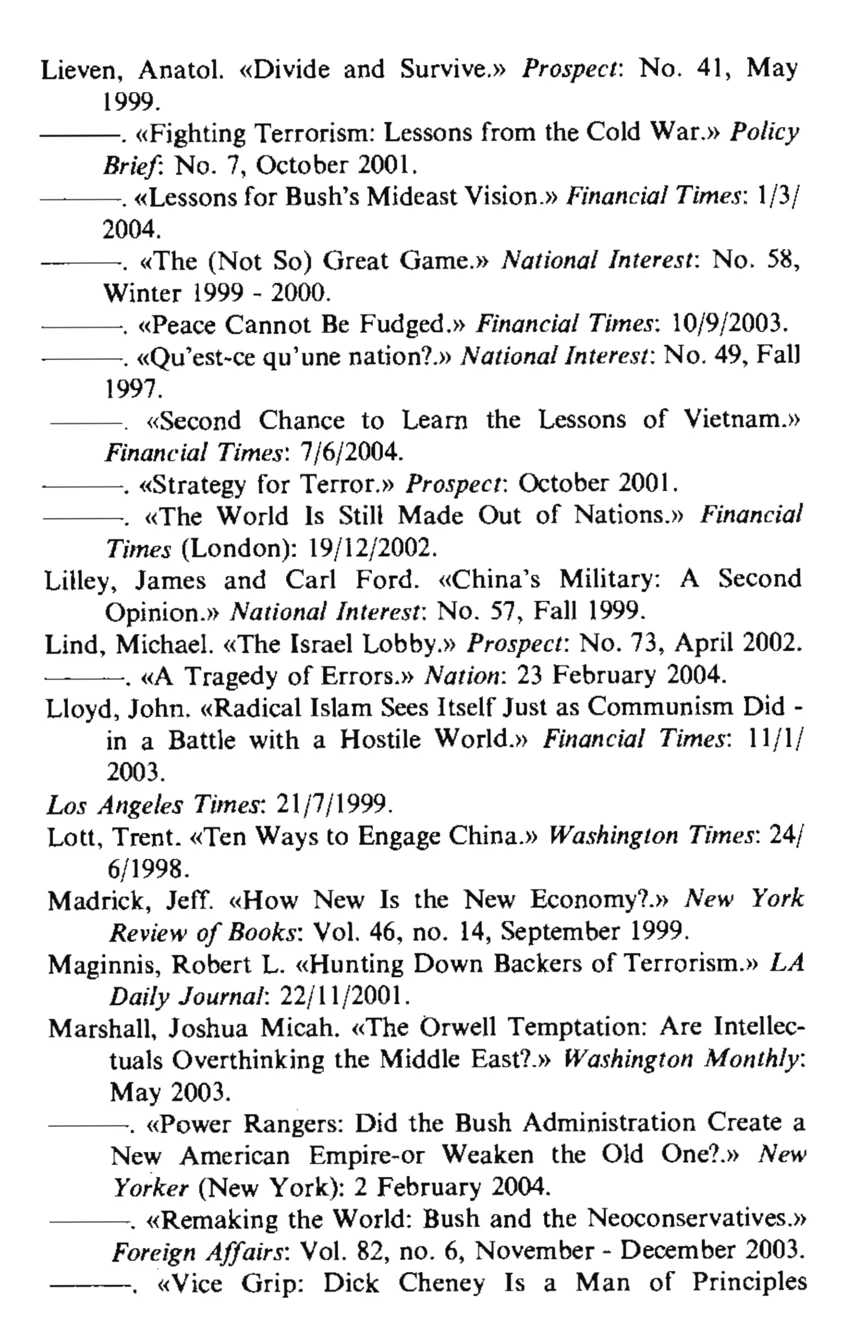
Klug, Brian. «The Collective Jew: Israel and the New Antisemitism.» *Patterns of Prejudice*: Vol. 37, no. 2, June 2003.

———. «The Myth of the New Anti-Semitism.» *Nation*: 2 February 2004.

Knuckey, Jonathan. «Religious Conservatives, the Republican Party and Evolving Party Coalitions in the United States.» *Party Politics* (London): Vol. 5, no. 4, October 1999.

Kovel, Joel. «Anti-Semitism on the Left and the Special Status of

Israel.» *Tikkun:* Vol. 18; no. 3, May - June 2003.
Krauthammer, Charles. «The Bush Doctrine.» *Time*: 5/3/2001.
———. «The Poverty of Realism.» *New Republic*: 17/2/1986.
———. «To Hell with Sympathy.» *Time*: 17/11/2003.
———. «This War Is Different and Must Be Won.» *Washington Post*: 30/10/2001.
Kristol, Irving. «The Political Dilemma of American Jews.» *Commentary*: July 1984.
———. «My Cold War.» *National Interest*: No. 31, Spring 1993.
———. «The Neoconservative Persuasion: What it Was, and What it Is.» *Weekly Standard*: 25 August 2003.
Kristol, William. «The Wrong Strategy.» *Washington Post*: 30/10/2001.
——— and Robert Kagan, «Toward a Neo-Reaganite Foreign Policy.» *Foreign Affairs*: Vol. 75, no. 4, July - August 1996.
Krugman, Paul. «True Blue Americans.» *New York Times*: 7/5/2002.
Lacorne, Denis. «Les Dessous de la francophobie.» (entretien). *Le Nouvel Observateur* (Paris): 27 mars 2003.
Lake, Anthony. «Confronting Backlash States.» *Foreign Affairs*: Vol. 73, no. 2, March - April 1994.
Lampton, David M. and Kenneth Lieberthal, «Heading Off the Next War.» *Washington Post*: 12/4/2004.
Lanouette, William J. «The Many Faces of the Jewish Lobby in America.» *National Journal*: 13 May 1978.
Ledeen, Michael. «America's Revenge: To Turn Tyrannies into Democracies.» *New York Sun*: 12/9/2002.
———. «Grim Anniversary.» *National Review Online*: 11/9/2003.
———. «Polling the Palestinians.» *Jerusalem Post*: 23 August 2002.
———. «The War on Terror Won't End in Baghdad.» *Wall Street Journal*: 4/9/2002.
Lemann, Nicholas. «The Quiet Man: Dick Cheney's Discreet Rise to Unprecedented Power.» *New Yorker*: 7 May 2001.
Lerner, Michael. «The Antiwar Anti-Semites.» *Wall Street Journal*: 12/2/2003.
«Lessons From the Cox Report.» *Christian Science Monitor*: 28/5/1999.



Lieven, Anatol. «Divide and Survive.» *Prospect*: No. 41, May 1999.

———. «Fighting Terrorism: Lessons from the Cold War.» *Policy Brief*: No. 7, October 2001.

———. «Lessons for Bush's Mideast Vision.» *Financial Times*: 1/3/2004.

———. «The (Not So) Great Game.» *National Interest*: No. 58, Winter 1999 - 2000.

———. «Peace Cannot Be Fudged.» *Financial Times*: 10/9/2003.

———. «Qu'est-ce qu'une nation?.» *National Interest*: No. 49, Fall 1997.

———. «Second Chance to Learn the Lessons of Vietnam.» *Financial Times*: 7/6/2004.

———. «Strategy for Terror.» *Prospect*: October 2001.

———. «The World Is Still Made Out of Nations.» *Financial Times* (London): 19/12/2002.

Lilley, James and Carl Ford. «China's Military: A Second Opinion.» *National Interest*: No. 57, Fall 1999.

Lind, Michael. «The Israel Lobby.» *Prospect*: No. 73, April 2002.

———. «A Tragedy of Errors.» *Nation*: 23 February 2004.

Lloyd, John. «Radical Islam Sees Itself Just as Communism Did - in a Battle with a Hostile World.» *Financial Times*: 11/1/2003.

Los Angeles Times: 21/7/1999.

Lott, Trent. «Ten Ways to Engage China.» *Washington Times*: 24/6/1998.

Madrick, Jeff. «How New Is the New Economy?.» *New York Review of Books*: Vol. 46, no. 14, September 1999.

Maginnis, Robert L. «Hunting Down Backers of Terrorism.» *LA Daily Journal*: 22/11/2001.

Marshall, Joshua Micah. «The Orwell Temptation: Are Intellectuals Overthinking the Middle East?.» *Washington Monthly*: May 2003.

———. «Power Rangers: Did the Bush Administration Create a New American Empire-or Weaken the Old One?.» *New Yorker* (New York): 2 February 2004.

———. «Remaking the World: Bush and the Neoconservatives.» *Foreign Affairs*: Vol. 82, no. 6, November - December 2003.

———. «Vice Grip: Dick Cheney Is a Man of Principles

Disastrous Principles.» *Washington Monthly*: [Vol. 35, nos. 1-2], January - February 2003.
McCain, John. «In Praise of Do-Gooders: The Red Cross Is Right to Criticize the U.S. Military When It Steps Out of Line.» *Wall Street Journal*: 1/6/2004.
McCaslin, John. «Kemp and Cox.» *Washington Times*: 15/7/1999.
McClosky, Herbert. «Consensus and Ideology in American Politics.» *American Political Science Review*: Vol. 58, no. 2, June 1964.
McFaul, Michael. «The Liberty Doctrine.» *Policy Review*: No. 112, April - May 2002.
McGeary, Johanna. «Dubya Talks the Talk.» *Time*: 2/4/2001.
———. «A Salesman on the Road.» *Time*: 30/7/2001.
McMahon, Robert J. «Eisenhower and Third World Nationalism: A Critique of the Revisionists.» *Political Science Quarterly*: Vol. 101, no. 3, 1986.
McMurtry, Larry. «Separate and Unequal.» *New York Review of Books*: Vol. 48, no. 4, March 2001.
Meade, Walter Russell. «The Jacksonian Tradition.» *National Interest*: No. 58, Winter 1999 - 2000.
Mearsheimer, John J. and Stephen M. Walt. «Iraq: An Unnecessary War.» *Foreign Policy*: January - February 2003.
«Media Notes.» *Washington Post*: 4/6/2004.
Melloan, George. «Protecting Human Rights Is a Valid Foreign Policy Goal.» *Wall Street Journal*: 10/6/2003.
Menard, Louis. «Faith, Hope, and Clarity: September 11th and the American Soul.» *New Yorker*: 16 September 2002.
Milani, Abbas, Larry Diamond and Michael McFaul. «A Blurred Vision: The U.S. Failure to Articulate a Coherent Policy Toward Iran Works Against the Goal of Democratic Change.» *Los Angeles Times*: 20/7/2003.
Milbank, Dana and Dan Morgan, «Some Pet Programs Are Targeted for Cuts.» *Washington Post*: 5 /2/2004.
Milbank, Dana and David S. Broder. «Hopes for Civility in Washington Are Dashed: In Bush's Term, Tone Worsened, Partisans Say.» *Washington Post*: 18/1/2004.
Miller, Zell. «How Democrats lost the South.» *Washington Times*: 3/11/2003.
Mitchell, Chris. «The Mountains of Israel.» *Christian World News*:

1 January 2003. www.cbn.com.
Moore, Molly. «Ex-Security Chiefs Turn on Sharon.» *Washington Post*: 15/11/2003.
Morgan, Edmund S. «The Price of Honor.» *New York Review of Books*: Vol. 48, no. 9, May 2001.
Morris, Benny. «Camp David and After: An Exchange (1. An Interview with Ehud Barak).» *New York Review of Books*: Vol. 49, no. 10, June 2002.
Muravchik, Joshua. «Bringing Democracy to the Arab World.» *Current History*: Vol. 103, no. 669, January 2004.
Murdock, Deroy. «Kinder, Gentler War on Terror: Are We Overreacting?.» *National Review Online*: 17/5/2004.
Nelson, Lars-Erik. «Military-Industrial Man.» *New York Review of Books*: Vol. 47, no. 20, December 2000.
New York Post: 9/10/2001.
New York Times: 21/6/1979, 10/8/2000 and 16/4/2004.
Newmyer, Jacqueline. «Will the Space Race Move East?.» *New York Times*: 20/10/2003.
Newsweek: 21 April 2003.
Niebuhr, Reinhold. «Anglo-Saxon Destiny and Responsibility.» *Christianity and Crisis*: Vol. 3, no. 16, October 1943.
«No Exceptions.» *Washington Post*: 29/12/2002.
Norton, Augustus Richard. «America's Approach to the Middle East: Legacies, Questions, and Possibilities.» *Current History*: Vol. 101, no. 651, January 2002.
Novak, Robert D. «Bush's Gay Marriage Test.» *Washington Post*: 1/12/2003.
———. «Politics vs. Road Map.» *Washington Post*: 26/5/2003.
O'Brien, Conor Cruise. «Purely American: Innocent Nation, Wicked World.» *Harper's* (New York): April 1980.
Odom, William E. «Realism about Russia.» *National Interest*: No. 65, Fall 2001.
O'Hanlon, Michael. «History Will Get the Last Word: Rumsfeld and Shinseki's Tough Relationship.» *Washington Times*: 20/6/2003.
«Olive Branch and the Gun.» *Nation*: 30 November 1974.
Ophir, Adi. «A Response to Benny Morris: Genocide Hides Behind Expulsion.» *Counterpunch*: 16 January 2004.

Parade (New York): 9/11/2003 and 20/12/2003.

«A Peace Impulse Worth Pursuing.» *New York Times*: 21/2/2002.

Peel, Quentin. «A Big Idea that Europe Won't Buy.» *Financial Times*: 5/2/2004.

Pei, Minxin. «Lessons from the Past: The American Record on Nation-Building.» *Policy Brief*: No. 24, April 2003.

———. «The Paradoxes of American Nationalism.» *Foreign Policy*: No. 136, May-June 2003.

Perlstein, Rick. «The Jesus Landing Pad.» *Village Voice*: 18 May 2004.

Persinos, John F. «Has the Christian Right Taken Over the Republican Party?: Religion in U.S. Politics - Cover Story.» *Campaigns and Elections* (Washington): Vol. 15, no. 9, September 1994.

Pfaff, William. «As Captor, U.S. Risks Dehumanizing Itself.» *International Herald Tribune*: 31/1/2002.

Phillips, Melanie. «Can Israel Disengage.» *Prospect*: No. 95, February 2004.

Pincus, Walter. «Hill Report on Chinese Spying Faulted: Five Experts Cite Errors, 'Unwarranted' Conclusions by Cox Panel.» *Washington Post*: 15/12/1999.

Pipes, Daniel. «Does Israel Need a Plan?.» *Commentary*: Vol. 115, no. 2, February 2003.

Playboy: May 1971.

Podhoretz, Norman. «The Culture of Appeasement.» *Harper's*: No. 255, October 1977.

———. «How to Win World War IV.» *Commentary*: Vol. 113, no. 2, February 2002.

«Politics and the Talk of War.» *San Francisco Chronicle*: 26/9/2002.

Pollack, Kenneth and Daniel Byman. «Democracy as Realism.» *Prospect: Democracy in the Middle East*: No. 85, April 2003.

Poller, Nidra. «Betrayed by Europe: An Expatriate's Lament.» *Commentary*: Commentary: Vol. 117, March 2004.

Priest, Dana and Joe Stephens. «Secret World of U.S. Interrogation: Long History of Tactics in Overseas Prisons Is Coming to Light.» *Washington Post*: 11/5/2004.

Priest, Dana and R. Jeffrey Smith, «Memo Offered Justification for Use of Torture.» *Washington Post*: 8/6/2004.

Pruden, Wesley. «He Said the Word. Who's Sorry Now.» *Washington Times*: 7/5/2004.
Ramo, Joshua Cooper. «Crouching Tiger, Hidden Message.» *Time*: 12/3/2001.
«Re «Support for the Saudi Initiative».» *New York Times*: 28/2/2002.
«Red Double Cross: A Politicized ICRC Won't Help Prisoners Get Better Treatment.» *Wall Street Journal*: 14/5/2004.
Reed, John Shelton. «The Banner that Won't Stay Furled.» *Southern Cultures*: Vol. 8, no. 1, Spring 2002.
Rice, Condoleezza. «Campaign 2000: Promoting the National Interest.» *Foreign Affairs*: Vol. 79, no. 1 January - February 2000.
———. «Transforming the Middle East.» *Washington Post*: 7/8/2003.
Richard, Pipes. «Russia's Past, Russia's Future (Historical Examination of Russia's Inability to Develop Western-Style Political or Social Structure).» *Commentary*: Vol. 101, no. 6, June 1996.
«The Righteous Empire: A Short History of the End of History and Maybe Even of the GOP.» *New Republic*: 22/10/1984.
Roberts, Diane. «Reynolds Rap.» *Oxford American*: Winter 2002.
Robertson, Tatsha. «War Stance Influencing Close Races.» *Boston Globe*: 1/11/2002.
Robinson, Paul. «Sword of Honor.» *spectator*: 26 July 2003.
Rodman, Peter. «Four More for NATO.» *Washington Post*: 13/12/1994.
Rose, Richard. «National Pride in Cross-National Perspective.» *International Social Science Journal*: Vol. 37, no. 1, 1985.
Rosenbaum, H. Jon and Peter C. Sederberg. «Vigilantism: An Analysis of Establishment Violence.» *Comparative Politics*: Vol. 6, no. 4, July 1974.
Rosenberg, M. J. «Confusing Criticism with Anti-Semitism.» *IPF Friday*: 6 February 2004.
———. «The Full Court Pander.» *IPF Friday* (Israel Policy Forum): 9 January 2004. www.israelpolicyforum.org.
Rosenthal, A. M. «Winning the War on Terror.» *Washington Times*: 17/9/2001.
Rozell, Mark J. and Clyde Wilcox. «Second Coming: The

Strategies of the New Christian Right.» *Political Science Quarterly*: Vol. 111, no. 2, Summer 1996.
Rupert, James. «Still within Reach of Russian Bear.» *Washington Post*: 5/1/1997.
Ryan, Alan. «Call Me Mister.» *New York Review of Books*: Vol. 50, no. 3, February 2003.
Safire, William. «Dangerous Consequence.» *New York Times*: 4/11/1999.
———. «The French Connection.» *New York Times*: 13/3/2003.
———. «Post-Oslo Mideast.» *New York Times*: 27/6/2002.
Sallah, Michael D. «Rogue GIs Unleashed Wave of Terror in Central Highlands.» *Toledo Blade*: 22 October 2003.
Salmoni, Barak A. «America's Iraq Strategy: Democratic Chimeras, Regional Realities.» *Current History*: Vol. 103, no. 669, January 2004.
Saul, John Ralston. «The Collapse of Globalism and the Rebirth of Nationalism.» *Harper's*: Vol. 308, no. 1846, March 2004.
Scarborough, Rowan. «Wolfowitz Criticizes 'Suspect' Estimate of Occupation Force.» *Washington Times*: 28/2/2003.
Scheiber, Noam. «Class Act: Chris Matthews and Bill O'Reilly Ignore the Economic Interests of the Working Class.» *New Republic*: 24/6/2001.
Schaller, Thomas F. «A Route for 2004 that Doesn't Go Through Dixie.» *Washington Post*: 16/11/2003.
Schoenfeld, Gabriel. «Israel and the Anti-Semites.» *Commentary*: Vol. 113, no. 6, June 2002.
Scott, Tracy L. «Gay Characters Gaining TV Popularity.» *Washington Post*: 30/11/2003.
Sestanovich, Stephen. «Geotherapy: Russia's Neurosis and Ours.» *National Interest*: No. 45, Fall 1996.
Shanker, Thom. «Retiring Army Chief of Staff Warns Against Arrogance.» *New York Times*: 12/6/2003.
Shavit, Ari. «Survival of the Fittest.» *Ha'aretz*: 5/1/2004.
———. «Survival of the Fittest?: An Interview with Benny Morris.» *Counterpunch*: 16 January 2004.
Shils, Edward. «Ideology and Civility: On the Politics of the Intellectual.» *Sewanee Review*: No. 66, July-September, 1958.
Shindler, Colin. «Likud and the Christian Dispensationalists A

Symbiotic Relationship.» *Israel Studies*: Vol. 5, no. 1, Spring 2000.
Siegman, Henry. «If Israel's Policies Are Unjust, We Should Say So.» *Financial Times*: 10/2/2004.
———. «Israel: The Threat from Within.» *New York Review of Books*: Vol. 51, no. 3, February 2004.
———. «Will Israel Take a Chance?.» *New York Times*: 21/2/2002.
Slevin, Peter, «Delicate Maneuvers Led To U.S.-Israeli Stance.» *Washington Post*, 16/4/2004.
Smidt, Corwin. «Evangelicals within Contemporary American Politics: Differentiating between Fundamentalist and Non-Fundamentalist Evangelicals.» *Western Political Quarterly*: Vol. 41, no. 3, September 1988.
Smith, Timothy L. «Righteousness and Hope: Christian Holiness and the Millennial Vision in America, 1800-1900.» *American Quarterly*: Vol. 31, no. 1, Spring 1979.
Snyder, Jack. «Imperial Temptations.» *National Interest* (New York): No. 71, Spring 2003.
Sontag, Deborah. «Quest for Middle East Peace and How and Why it Failed.» *New York Times*: 26/7/2001.
«Southern Exposure.» *Financial Times*: 24/9/2003.
Starobin, Paul. «The French Were Right.» *National Journal*: 7 November 2003.
Stockman, David A. *The Triumph of Politics: Why the Reagan Revolution Failed.* New York: HarperCollins, 1986.
Stokes, Bruce and Mary McIntosh. «How They See Us.» *National Journal*: 21 December 2002.
Strauss, Mark. «The New Face of Anti-Semitism.» *Foreign Policy*: Vol. 82, no. 6, November - December 2003.
Strom, Stephanie. «For Middle Class, Health Insurance Becomes a Luxury.» *New York Times*: 16/11/2003.
Sunday Times: 15 June 1969.
Tackett, Michael. «Political Gain from Bush Shift on Israel Seen as Questionable.» *Chicago Tribune*: 16/4/2004.
Taranto, James. «Why Do Dems Lose in the South? Don't Blame Civil Rights.» *Wall Street Journal*: 8/3/2004.
Telhami, Shibley. «Polling and Politics in Riyadh.» *New York Times*: 3/3/2002.
«Thanks, but no Thanks, France.» *Washington Times*: 19/3/2003.

Tharpe, Jim. «Cleland, Chambliss Trade Patriotism Barbs.» *Atlanta Journal-Constitution* (Atlanta, GA): 4/7/2002.

«This is a Different Kind of War.» *Los Angeles Times*: 12/10/2001.

Thomas, Cal. «Damage Assessments... and Duplicity.» *Washington Times*: 28/5/1999.

Thomas, Evan and Roy Gutman, «See George, See George Learn Foreign Policy.» *Newsweek*: 18 June 2001.

Thomas, George. «Does Hate Against Jews Threaten Us All?.» *Christian World News*: 2 August 2002, www.cbn.com.

Thompson, Mark, Matthew Forney and James. «Four Key Lessons.» *Time*: 22/4/2001.

«Transcript of the Interview with Condoleezza Rice.» *Financial Times*: 22/9/2002.

Turse, Nicholas. «The Doctrine of Atrocity.» *Village Voice* (New York): 11 May 2004.

Tweed, Thomas A. «Our Lady of Guadeloupe Visits the Confederate Memorial.» *Southern Cultures*: Vol. 8, no. 2, Summer 2002.

Twing, Shawn L. «A Comprehensive Guide to U.S. Aid to Israel.» *Washington Report on Middle East Affairs*: Vol. 14, no. 8, April 1996.

«UN: Shadow of a Gunman.» *Newsweek*: 25 November 1974.

Vaisse, Justin. «Bringing Out the Animal in Us: A Frenchman's Journey in Francophobe America.» *Financial Times*: 15/3/2003.

Vedantam, Shankar. «Wrath Over a Hindu God.» *Washington Post*: 10/4/2003.

Vennochi, Joan. «Kerry Walks a Fine Line.» *Boston Globe*: 19/11/2002.

Von Drehle, David and Dan Balz. «For GOP, South's Past Rises in Tangle of Pride, Shame.» *Washington Post*: 15/12/2002.

Waal, Alex de. «The Moral Solipsism of Global Ethics, Inc.» *London Review of Books*: Vol. 23, no. 16, August 2001.

Wagner, Donald. «The Alliance between Fundamentalist Christians and the Pro-Israeli Lobby.» *Holy Land Studies*: Vol. 2, no. 2, March 2004.

———. «Short Fuse to Apocalypse?.» *Sojourners Magazine*: July-August 2003.

«The Wal-Martization of America.» *New York Times*: 15/11/2003.
Wald, Kenneth D., Dennis Owen and Samuel S. Hill, «Churches as Political Communities.» *American Political Science Review*: Vol. 82, no. 2, June 1988.
Waldman, Steven. «When Piety Takes Center Stage.» *Washington Post*: 11/1/2004.
Walker, Martin. «And Now, the End of U.S. Unilateralism.» *Globalist*: 5/3/2004. www.theglobalist.com.
Walt, Stephen M. «Rigor or Rigor Mortis?: Rational Choice and Security Studies.» *International Security*: Vol. 23, no. 4, Spring 1999.
«War Lessons.» *Washington Times*: 24/9/2001.
Washington Post: 2/3/2003, 25/6/2003, 21/10/2003, 9/11/2003, 20/12/2003, and 16/4/2004,
Washington Times: 6/5/2003, 3/11/2003, 4/11/2003, and 5/11/2003.
Wasserman, Ira M. «Prohibition and Ethnocultural Conflict: The Missouri Prohibition Referendum of 1918.» *Social Science Quarterly*: Vol. 70, no. 4, December 1989.
Weisberg, Jacob. «The Family Way: How Irving Kristol, Gertrude Himelfarb and Bill Kristol Became the Family that Liberals Love to Hate,» *New Yorker*: 21 October 1996.
Wetzstein, Cheryl. «Seniors' History Scores 'Abysmal'; Fourth- and Eighth-Graders Outperformed 12th-Graders in a National History Survey, with 57 Percent of Seniors Failing to Show 'Basic' Knowledge of the Subject - Education - National Assessment of Educational Progress - Statistical Data Included.» *Insight on the News*: 10 June 2002.
Wieseltier, Leon. «What Is Not to Be Done.» *New Republic*: 27/10/2003.
Will, George F. «Back in the U.S.S.R.» *Washingon Post*: 3/9/2000.
———. «Eastward Ho - and Soon.» *Washington Post*: 13/6/1996.
Williams, Ian. «A Faithful Servant.» *Nation*: 23 February 2004.
Wills, Garry. «The Born-Again Republicans.» *New York Review of Books*: Vol. 39, no. 15, September 1992.
Wilson, Scott. «Ex-detainee Tells of Anguishing Treatment at Iraqi Prison» *Washington Post*: 6/5/2004.
——— and Sewell Chan. «As Insurgency Grew, so Did Prison Abuse.» *Washington Post*: 10/5/2004.
«A Wilsonian Call for Freedom.» *Washington Times*: 7/11/2003.

Wisse, Ruth R. «Israel on Campus.» *Wall Street Journal*: 13/12/2002.

Wistrich, Robert S. «The Old-New Anti-Semitism.» *National Interest*: No. 72, Summer 2003.

Wolfe, Alan. «Strangled by Roots.» *New Republic*: 28/5/2001.

Woods, Randall Bennett. «Dixie's Dove: J. William Fulbright, The Vietnam War and the American South.» *Journal of Southern History*: Vol. 60, no. 3, August 1994.

Wright, Robin. «Top Focus before 9/11 Wasn't on Terrorism: Rice Speech Cited Missile Defense.» *Washington Post*: 1/4/2004.

Wurmser, Meyrav. «No More Excuses: Anti-American Leaders Stand to Be Accused.» *Washington Times*: 17/9/2001.

X (George F. Kennan). «The Sources of Soviet Conduct.» *Foreign Affairs*: No. 25, July 1947.

Zakaria, Fareed. «Time to Take On America's Haters.» *Newsweek*: 21 October 2001.

«Zealous Norquist Plans Conservative Golden Era.» *Washington Post*: 12/1/2004.

Zelikow, Philip. «The Transformation of National Security.» *National Interest*: No. 71, Spring 2003.

Zirin, James D. «The Objective... and a Metaphor Too Far.» *Washington Times*: 17/5/2004.

Zunes, Stephen. «Israel and the United Nations.» *Tikkun*: Vol. 18, no. 3, May - June 2003.

Conferences

No Longer Exiles: The Religious New Right in American Politics. Edited by Michael Cromartie. Washington, DC: Ethics and Public Policy Center, 1993.

Totalitarian Democracy and After. Edited by Jacob Leib Talmon. Portland, OR; New York: Frank Cass, 2002. (Cass Series–Totalitarian Movements and Political Religions; 1477-058X)

Documents

«2003 Annual Survey of American Jewish Opinion.» (American Jewish Committee, 25 November - 11 December 2003)

Ackman, Dan. «Iraq Aid Will Dwarf U.S. Foreign Aid Budget.» (9 August 2003), www.forbes.com.

«Americans on Foreign Aid and World Hunger: A Study of U.S. Public Attitudes.» (PIPA Report, 2 February 2001).

«Among Wealthy Nations, the U.S. Stands Alone in its Embrace of Religion.» (Global Attitudes Project Report, Pew Research Center for the People and the Press, Washington, DC, 19 December 2002).

Asmus, Ronald [et al.]. «Statement on Post-War Iraq.» (16 June 2003), www.brookings.edu/fp/projects/iraq/postwar.htm.

Auden, W. H. «To Keep the Human Spirit Breathing.» (Speech upon acceptance of the 1967 Medal for Literature, Smithsonian Institution, Washington, DC, 30 November 1967).

Brownback, Sam. «Brownback Meets with Israeli Prime Minister Sharon.» (Kansas, 31 July 2003), www.brownback.senate.gov.

Bruant, Aristide. «A Biribi.» (CD Anthologie de la chanson francaise: Soldats, conscrits et deserteurs, EPM Musique, 1996).

Brumberg, Daniel. «Arab Public Opinion and U.S. Foreign Policy: A Complex Encounter.» (Testimony before the Subcommittee on National Security, Veterans Affairs and International Relations, of the House Committee on Government Reform, 8 October 2002).

Bush, George W. «A Distinctly American Internationalism.» (Speech, Delivered at the Reagan Presidential Library, 19 November 1999)

Bush, George W. «President Bush Discusses Freedom in Iraq and Middle East.» (Remarks by the President at the 20th Anniversary of the National Endowment for Democracy, United States Chamber of Commerce, Washington, DC, 6 November 2003), www.whitehouse.gov.

Carothers, Thomas. «Is Gradualism Possible? Choosing a Strategy for Promoting Democracy in the Middle East.» (Carnegie Endowment Working Paper; no. 39, Carnegie Endowment for International Peace, June 2003).

«Days of Victory, August 4 and August 5.» (Protestant Press Agency, Berlin, August 1914)

DeLay, Tom. «Be Not Afraid.» (Speech House Majority, 30 July 2003), www.nationalreview.com.

Department of State, International Information Program, Foreign Media Reaction. «Middle East Partnership Initiative (MEPI): Arab Press Wary.» (20 December 2002).

Djerejian, Edward P. «Changing Minds, Winning Peace: A New Strategic Direction for U.S. Public Diplomacy in the Arab and Muslim World.» (Report of the Advisory Group on Public Diplomacy for the Arab and Muslim World, Submitted to Committee on Appropriations, U.S. House of Representatives, Washington, DC, 1 October 2003)

«Evenly Divided and Increasingly Polarized: 2004 Political Landscape.» (Pew Research Center for the People and the Press, Washington, DC, 5 November 2003), www.people-press.org.

Galloway, Joseph L. «Thanks to Rumsfeld, Iraq Is Still America's to Lose.» (17 December 2003), www.military.com.

Gingrich, Newt. «Transforming the Department of State: The Next Challenge for the Bush Administration» (Speech, American Enterprise Institute, 22 April 2003)

«Global Attitudes: 44-Nation Major Survey (2002).» (Pew Research Center for the People and the Press, Washington, DC, 5 November 2003), www.people-press.org.

Hannity, Sean. «The Battle over Competing Visions of the Family and Family Values.» (Speech at United Families International Conference, 21-22 November 2003), http://www.unitedfamilies.org.

«Israel and the Occupied Territories.» (Country Reports on Human Rights Practices - 2003, Released by the Bureau of Democracy, Human Rights, and Labor, 25 February 2004), www.state.gov.

Jennings, Ray Salvatore. «After Saddam Hussein: Winning a Peace if It Comes to War.» (Special Report, no. 102, United States Institute of Peace (USIP), February 2003.

Kristol, Irving. «Moral Dilemmas' in Foreign Policy.» (1980).

Lott, Trent. «New World, New Friends.» (Official Press Statement, 21 March 2003), http://www.lott.senate.gov.

Marney Blom, «Christians And Jews, Arm-In-Arm Against Hate And Violence.» (Report, 28 June 2002), www.cbn.com.

Martin, Jerry L. and Anne D. Neal. «Defending Civilization: How Our Universities Are Failing America and What Can Be

Done about it.» (Project of the Defense of Civilization Fund, American Council of Trustees and Alumni, November 2001).

Mead, Walter Russell. «The US-EU Split.» (New America Foundation Program Brief, New America Foundation, 13 February 2003).

«Middle East Partnership Initiative (MEPI): Arab Press Wary.» (Department of State, International Information Program, Foreign Media Reaction, 20 December 2002).

«Moral Majority Report,» (14 March 1980).

«The O'Reilly Factor,» (Fox News Channel, 26 March 2003).

Ottaway, Marina. «Promoting Democracy in the Middle East: The Problem of U.S. Credibility.» (Carnegie Endowment Working Paper; no. 35, Carnegie Endowment for International Peace, March 2003).

Otte, Marc. «Towards an EU Strategy for the Middle East,» (Speech, London, 1 March 2004).

Pellegrino, Edmund D. [et al.]. «The Teaching of Values and the Successor Generation: The Atlantic Council's Working Group on the Successor Generation. Educational Series Policy Papers.» (Opinion Papers, Atlantic Council of the United States, Washington, DC, 2006).

Perle, Richard [et al.]. «A Clean Break: A New Strategy for Securing the Realm.» (Report, Institute for Advanced Strategic and Political Studies' «Study Group on a New Israeli Strategy Toward 2000», 1996).

«The Prairie Home Companion,» (National Public Radio, 26 October 2001).

«Presidential Debate Clouds Voters' Choice.» (Pew Research Center for the People and the Press, Washington, DC, 10 October 2000).

«Progressive Internationalism: A Democratic National Security Strategy.» (30 October 2003), www.ppionline.org/specials/security_strategy.

Robertson, Pat. «Why Evangelical Christians Support Israel.» (Speech, Israel, 17 December 2003), www.patrobertson.com.

Schlafly, Phyllis. «Beware of Clinton's «Web» of Treaties.» (Speech Prepared for Delivery to Christian Coalition's Road

to Victory, Washington, DC, 18 September 1998), www.eagleforum.org.
Schneider, Bill. «Mideast 101: Evolution of U.S. Feelings toward Israel.» (CNN, 17 April 2002).
«Secretary Rumsfeld Town Hall Meeting.» (U. S. Department of Defense, Office of the Assistant Secretary of Defense (Public Affairs), 6 August 2002), www.defenselink.mil.
Sitov, Andrei K. «America: Back in the USSR?,» (Tass, Washington, DC, 4 August 2003).
«The U. S. Image in the Islamic World,» (Institute for the Study of Diplomacy, Georgetown University, Washington, DC, 19 February 2002), www.dev.georgetown.edu/sfs/programs/isd/research_Islamic.
«U.S. Image Still Poor.» (Pew Research Center for the People and the Press, Washington, DC, [21 June 2005]).
Views of a Changing World June 2003: War With Iraq Further Divides Global Publics.» (Global Attitudes Project, Pew Research Center for the People and the Press, Washington, DC, 3 June 2003).
Walt, Stephen M. «Keeping the World Off Balance: Self Restraint and U.S. Foreign Policy,» (KSG Working Paper 00-013, Harvard University, John F. Kennedy School of Government, October 2000).
Wexner Analysis. «Israeli Communications Priorities 2003.» (Report, [2003]), www.motherjones.com.
Willms, Johannes. «France Unveiled: Making Muslims into Citizens?.» (26 February 2004), www.opendemocracy.net.
«A Year after Iraq War: Mistrust of America in Europe Ever Higher, Muslim Anger Persists.» (Pew Research Center for the People and the Press, Washington, DC, 16 March 2004).

Websites

www.//americanassembler.com/newsblog
www.abcnews.go.com/sections/US/polls/torture.
www.broadscapeventure.com/weblog/dfme
www.cc.org.
www.census.gov.
www.cnn.com/ELECTIION/2000/debates.
www.fisher://lib.virginia.edu/census/

www.frc.org
www.hvk.org/articles/0203
www.mediamatters.org.
www.ppionline.org.
www.reporcenter.unconn.edu.
www.talkradionetwork.com
www.theglobalist.com.
www.un.org/News/Press/docs/2003
www.us-israel.org.
www.whitehouse.gov.
www.wjno.com/host/rush
www.worldsecuritynetwork.com

الفهرس

ـ ت ـ

ـ ث ـ

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ر -

ـ ز ـ

ـ س ـ

ـ ش ـ

- ص -

- ع -

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

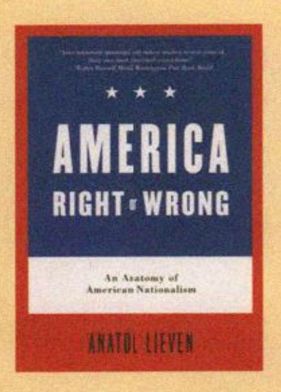
ـ ل ـ

- و -

- ي -

أمـريـكـا بين الحق والباطل

تـشـريـح الـقـومـيـة الأمـريـكـيـة



- أصول المعرفة العلمية
- ثقافة علمية معاصرة
- فلسفة
- علوم إنسانية واجتماعية
- تقنيات وعلوم تطبيقية
- آداب وفنون
- لسانيات ومعاجم

يؤكد ليفن في هذا الكتاب أن سياسة الولايات المتحدة الأمريكية، منذ الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، صاغتها وبلورتها ما يُسّميه بالقومية الأمريكية. وهذه القومية هي، في رأيه، نتاجُ اتحادٍ وانفصام في آن معاً: بين قومية مدنية مسيحانية تفاؤلية مؤسَّسة على القِيم والثوابت الشديدة الخصوصية، وبين تعصب شوفيني مسكون بوسواس عنصري طبقي تجاه كل ما هو «آخر»، مختلف.

وينظر ليفن، خصوصاً، إلى تمظهرات هذه القومية الشوفينية في السياسة الأمريكية حيال الشرق الأوسط، مستنتجاً وقوع أمريكا في مستنقع من التناقضات أضرّ بسمعتها وهيبتها وبمشروعية وفاعلية حربها ضد الإرهاب.

إنه كتاب ينتقد، بجرأة، القوميةَ الشوفينية التي تُحرِّك السياسة الأمريكية عموماً، متوقفاً عند دور «الصهيونية المسيحية» والاتجاهات الإنجيلية الأصولية المحافظة في تعميم فكر معاد للشعوب ولقضايا التحرر والعدالة في العالم.

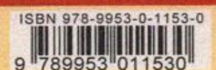
- **أناتول ليفن:** باحث رئيسي في «المؤسسة الأمريكية الجديدة» في واشنطن. أبرز مؤلفاته:

Chechnya: Tombstone of Russian Power, and *The Baltic Revolution: Estonia, Latvia, Lithuania, and the Path to Independence*.



المنظمة العربية للترجمة

الـثـمـن: 20 دولاراً
أو مـا يـعـادلـهـا


ISBN 978-9953-0-1153-0
9 789953 011530